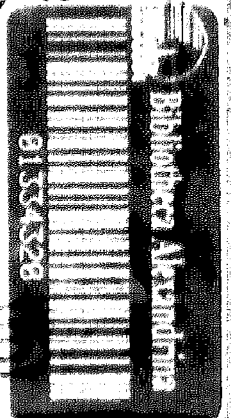
المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية الديني والدنيوي

في أيام الخلفاء
إلى نهاية القرن الحادي عشر

راجعه وحققه
الدكتور سهيل زكار



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء الخامس

في أيام الخلفاء
إلى نهاية القرن الحادي عشر

راجعه ودققه

الدكتور مارون رعد

إشراف

نظير عبود

دار نظير عبود

فهرس

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن السابع

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن السابع

الفصل الثالث

بدعة المشيئة الواحدة والمجامع التي حرمتها

ملحق

تاريخ الموارنة في هذا القرن السابع

الفصل الاول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون واسقفيته وبطريركيته وتآليفه

الفصل الثالث

براءة المارونيين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

الباب الثامن

تاريخ سورية في القرن الثامن

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن الثامن

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدنيويون في القرن الثامن

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثامن

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون السوريون ومن عاصرهم في القرن الثامن

الفصل الثالث

بدعة محاربي الصور والمجمع السابع المسكوني

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء في القرن التاسع وما كان من الأحداث في أيامهم

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن التاسع

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

مشاهير العلم الديني في القرن التاسع

الفصل الثالث

الشقاق الذي كان في كنيسة قسطنطينية في القرن التاسع

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع

الباب العاشر

تاريخ سورية في القرن العاشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن العاشر

الفصل الثاني

مشاهير العلم السوريين في القرن العاشر

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن العاشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم وأساقفة سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن العاشر

ذيل

ملحق

تاريخ الموارنة

الباب الحادي عشر

تاريخ سورية في القرن الحادي عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

الخلفاء العلويون الذين تولوا سورية في القرن الحادي عشر وما كان في أيامهم من الاحداث

الفصل الثاني

المشاهير في العلم في سورية ومن عاصرهم في القرن الحادي عشر

الفصل الثالث

ملوك الروم إلى آخر هذا القرن والخلفاء العباسيون فيه

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الحادي عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الحادي عشر بسورية وغيرها

الفصل الثالث

ما كان من البدع والشقاق في القرن الحادي عشر

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الحادي عشر

الفاتحة

يتضمَّن هذا الجزء الخامس تاريخ سورية من تقلّص دولة الرومانيين عنها سنة ٦٣٨م إلى فتح سلاطين بني عثمان لها في بدء القرن السادس عشر. ونسلك في كلامنا في هذا الجزء مسلكنا في ما تقدَّم من الأجزاء؛ فندوِّن أولاً التاريخ الدنيوي، ثم نعقبه بالتاريخ الديني، على أنَّنا استعنَّا في كلامنا في الجزء الأوَّل لبسط الأخبار وتأكيدها بالإكتشافات الحديثة وما حلَّ من رموز الخطوط الهيروكليفية والمسمارية، وفي الجزء الثاني بما نقّب عنه العلماء من الخطوط القديمة والكتب المتقادمة العهد. وقلَّ ما يتيسَّر لنا شيء من ذلك في هذا الجزء وما بعده، فنعتمد فيه على أقوال المؤرخين المدققين، والعلماء المحققين، متحاشين عن كل غرض إلَّا الحق، متنكّبين عن التملّق، متجانبين التشعيث من أحد، أو التنديد به. فتلجئنا هذه الحال إلى الإضراب عن ذكر بعض المناقص، لكنها لا تنطقنا بغير الحق، ولا تسلكنا في غير جادته. ونسأل الله أن يعصمنا من الخطإ. فبه نعتصم. وأن يقينا الزلل فنتقيه بمنّه وكرمهِ.

القسم الأوَّل

تتمة التاريخ الدنيوي في هذا القرن

قد اعتدنا أن ندوّن ، في فاتحة تاريخ كل قرن من القرون السالفة ، تاريخ الملوك الذين تولوا سورية فيه ، وما كان فيها من الأحداث في أيامهم . فجرياً على عادتنا ومساق تاريخنا نفتتح كلامنا في تتمة تاريخ هذا القرن السابع بذكر الخلفاء الكرام فيه ، وما كان في أيامهم من الأحداث الخطيرة .

الفصل الأوَّل

ذكر الخلفاء الراشدين وبعض بني أميَّة الذين ملكوا سورية في هذا القرن

عد ٦٧٦

ذكر أبي بكر الصدِّيق

قال الفرماني (في كتاب أخبار الدول وآثار الأول) في وصفه: «هو خليفة رسول الله صلعم أيام مرضه، وابن عمِّه الأعلى، وصهره، ووزيره، وخير الخلق بعده، وكان كبير الشأن، زاهداً، خاشعاً إماماً، حليماً، وقوراً، شجاعاً، صابراً رؤوفاً. اسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر .. واجتمعت الأئمة على تسميته بالصدِّيق لأنَّه بادر إلى تصديق النبي صلعم ولازم الصدق». وقال أبو الفدا (في تاريخه صفحة ١٦٤) «لما قبض الله نبيه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من قال: إنَّ رسول الله صلعم مات غلوت رأسه بسيفي هذا وإنَّما ارتفع إلى السماء. فقرأ أبو بكر: وما محمَّد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»؟ فرجع القوم إلى قوله وبادروا سقيفة بني ساعدة. فبايع عمر أبا بكر رضي الله عنهما وانثال الناس عليه يبايعونه في العشر الأوسط من ربيع الأوَّل سنة إحدى عشرة للهجرة[1]، خلا جماعة من بني هاشم والزبير،

(١) إنّ تاريخ الهجرة يبدأ فيه من اليوم الأول من شهر محرم الموافق ليوم الخميس في ١٦ تموز سنة ٦٢٢ للميلاد. قال روهربخر (في تاريخه ك ٤٨) الصحيح أنّ محمداً لم يهجر مكة إلّا في ١٢ ايلول سنة ٦٢٢ ولم ينته إلى المدينة إلّا في الثامن والعشرين منه. وفي التوفيق بين السنة الهجرية والمسيحية يزاد على الهجرية سنة ٦٢٢ واعتادوا ان يحطوا من كل مئة سنة من سني الهجرة ثلاث سنين رعاية للفرق بين السنة الشمسية والقمرية. فالحاصل بعد ذلك هو التاريخ المسيحي.

وعتبة بن أبي لهب . .. ومالوا مع علي بن أبي طالب » إلى أن يقول : « ثم إنَّ أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى علي ، ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة (بنت محمَّد) رضي الله عنها . وقال : إنْ أبوا عليك فقاتلهم. فاقبل عمر بشيء من نار على أن يضرم الدار، فلقيته فاطمة رضي الله عنها وقالت إلى أين يا ابن الخطاب . أجئت لتحرق دارنا ؟ قال : نعم ، أو تدخلوا فيما دخل فيه الأمة. فخرج علي حتى أتى أبا بكر فبايعه. كذا نقله القاضي جمال الدين ابن واصل وأسنده إلى ابن عبد ربه المغربي. وروى الزهري عن عايشة قالت : لم يبايع علي أبا بكر حتى ماتت فاطمة ؛ وذلك بعد ستة أشهر لموت أبيها .

وقد كثر حينئذٍ الشقاق والردّة عن الإسلام على ما رواه كثيرون ؛ ومنهم : ابن خلدون (في تاريخه في تتمة الجزء الثاني صفحة ٦٥) حيث قال : « وقد ارتدت العرب . إما القبيلة مستوعبة (أي كلَّها) . وإمَّا بعض منها ونجم النفاق، والمسلمون كالغنم في الليلة المطرة لقلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم » . وقال رجال يدَّعون النبوة منهم مسيلمة الكذاب وكان مقامه في اليمامة ، فأسلم ثم ارتد : « وادَّعى النبوة ؛ استقلالاً ثم مشاركة مع النبي » على ما روى أبو الفداء وكان الخليفة مأموراً بأن يواصل الفتح فتجشَّم أبو بكر هذه المشاق ، وذلّت له هذه المصاعب، وكان من أوَّل ما اعتمده إنفاذ بعث اسامة بجيش المسلمين إلى الشام ، وأوصاه بما ذكرناه مترجماً عن الإفرنسية ع ٦٧٤، وعبّر عن النسّاك في تلك الوصايا بقوله على ما رواه ابن خلدون : « وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » . وعبَّر عن اليهود بقوله : « وإذا لقيتم أقواماً فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها فتل العصاب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه » . ومضى أسامة وبعث الجنود في بلاد قضاعة (الشام) ، وأغار على أُبني بناحية البلقاء فسبى وغنم ورجع لأربعين يوماً، وقيل لسبعين (عن ابن خلدون) .

ثم بعث أبو بكر خالداً بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب فجرى بينهما قتال شديد ، وفي آخره انتصر المسلمون ، وهزموا جيش مسيلمة وقتلوه . وكذا قاتل خالد ، بأمر أبي بكر ، طليحة الذي كان أسلم ثم ارتدَّ وادَّعى النبوة . فهزم خالد قوم طليحة وهو نجا بنفسه وامرأته إلى الشام. وكذا ذلّل أبو بكر من كانوا قد ارتدُّوا عن الإسلام في قبائل العرب : بني عامر ، وتميم وربيعة ، وغيرهم . ولما استتبّ له الأمر في بلاد العرب والعراق والحيرة بعث خالد بن سعيد بن العاص في

الجنود إلى الشام في أوَّل سنة ثلاث عشرة (وهي سنة ٦٣٥ م). وقيل إنَّه بعثه إلى الشام لما بعث خالد بن الوليد إلى العراق أوَّل السنة التي قبلها، ثم امده بخالد بن الوليد، وبعث عمراً بن العاص إلى فلسطين وامَّر يزيد بن أبي سفيان على جمهور، وامَّر أبا عبيدة على الجميع وعيَّن له حمص. فكانت مناوشات بينهم وبين عساكر الروم في محال كثيرة وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم أنَّ اجتماعهم أولى بهم لكثرة عدوهم وقلة عديدهم، فاجتمعوا في اليرموك ورووا أنَّ عسكر المسلمين كان ستة وثلاثين ألفاً أو أربعين، وأنَّ عسكر الروم كان يربو على مئتي ألف، ودام القتال بين الطرفين أياماً، وأخَّره استظهار عسكر المسلمين كما روينا في عد ٦٧٤ (ملخَّص عن ابن الأثير في الكامل، وابن خلدون، وأبي الفداء في تاريخهما).

ومات أبو بكر قبل ظهور المسلمين في اليرموك، وكان موته على ما ذكروا مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الأخرى سنة ثلاث عشرة للهجرة (سنة ٦٣٥ م) وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وعمره ثلاث وستون سنة اختلف في سبب موته فقيل إنَّ اليهود سمته في أرز. وقيل إنَّه اغتسل وكان يوماً بارداً فحمَّ خمسة عشر يوماً أدركته المنية في آخرها (أبو الفداء في تاريخه وابن الأثير في الكامل). وقال أبو الفداء: إنَّ أبا بكر «أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال وجريد النخل والجلود، وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبي صلعم. ولما تولى عثمان ورأى اختلاف الناس في القرآن كتب من ذلك المكتوب الذي كان عند حفصة نسخاً وأرسلها إلى الأمصار وأبطل ما سواها».

عد ٦٧٧

ذكر عمر بن الخطاب

قال ابن خلدون (صفحة ٨٥ من بقية الجزء الثاني): «لما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمر من بعده، بعد أن شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، وأخبرهم بما يريد فيه، فأثنوا على رأيه». وفي جملة ما كتبه في عهده له: «إني استعملت عليكم ابن الخطاب ولم آل لكم خيراً فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب. (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون).

وروى أبو الفداء (في تاريخه صفحة ١٦٨): «إنَّ أوَّل خطبة خطبها (عمر) قال: يا أيُّها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه. ثم أوَّل شيء أمر به أن عزل خالد ابن الوليد عن الامرة وولى أبا عبيدة على الجيش والشام وأرسل بذلك إليهما وهو أوَّل من سمي بأمير المؤمنين. وكان أبو بكر يخاطب بخليفة رسول الله صلعم ثم سار أبو عبيدة ونازل دمشق، وكانت منزلته من جهة باب الجابية ونزل خالد من جهة باب توما وباب شرقي. ونزل عمرو بن العاص بناحية أخرى وحاصروها قريباً من سبعين ليلة. (وقيل ستة أشهر عن ابن خلدون). وفتح خالد ما يليه بالسيف. فخرج أهل دمشق، وبذلوا الصلح لأبي عبيدة من الجانب الآخر، وفتحوا له الباب فأمنهم ودخل والتقى مع خالد وكتب أبو عبيدة بالفتح إلى عمر، وفي أيامه فتح العراق. ثم دخلت سنة أربع عشر (سنة ٦٣٦ م) وفيها في المحرم أمر عمر ببناء البصرة فاختطت. وقيل: في سنة خمس عشرة... ثم دخلت سنة خمس عشرة فيها فتحت حمص بعد دمشق بعد حصار طويل، حتى طلب الروم الصلح، فصالحهم أبو عبيدة على ما صالح أهل دمشق، ثم سار إلى حماه... وكانت هي وشيزر من أعمال حمص. وكانت حمص كرسي مملكة هذه البلاد... ولما وصل أبو عبيدة إلى حماه خرجت الروم التي بها يطلبون الصلح فصالحهم على الجزية لرؤوسهم، والخراج على أرضهم، وجعل كنيستهم العظمى جامعاً؛ وهو جامع السوق الأعلى من حماه. ثم جدد في خلافة المهدي من بني العباس، وكان على لوح منه مكتوب أنَّه جدد من خراج حمص. ثم سار أبو عبيدة إلى شيزر فصالحه أهلها على صلح أهل حماة وكذلك صالح أهل المعرّة؛ وكان يقال لها معرة حمص ثم قيل معرة النعمان بن بشير الأنصاري لأنَّها كانت مضافة إليه مع حمص في خلافة معاوية، ثم سار أبو عبيدة إلى اللاذقية ففتحها عنوةً وفتح جبلة، وأنطرطوس. ثم سار أبو عبيدة إلى قنسرين؛ وكانت كرسي المملكة المنسوبة اليوم إلى حلب. وكانت حلب من جملة أعمال قنسرين. ولما نازلها أبو عبيدة وخالد بن الوليد كان بها جمع عظيم من الروم فجرى بينهم قتال شديد انتصر فيه المسلمون، ثم طلب أهلها الصلح على صلح أهل حمص، فأجابهم على أن يخربوا المدينة فخرّبت. ثم فتح بعد ذلك حلب وأنطاكية ومنبج ودلوك وسرمين وتنزين وعزاز، واستولى على الشام من هذه الناحية ثم سار خالد إلى مرعش ففتحها

وأجلى أهلها، وأخربها، وفتح حصن الحدث. وفي هذه السنة لما فتحت هذه البلاد وهي سنة خمس عشرة وقيل: ست عشرة أيس هرقل من الشام وسار إلى قسطنطينية من الرها» انتهى كلام أبي الفداء.

وعن ابن الأثير (في الكامل ك ٢ صفحة ٢١٠): «لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سيفان على دمشق، وسار إلى فحل، سار يزيد إلى مدينة صيدا، وعرقا، وجبيل وبيروت؛ وهي سواحل دمشق وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقا معاوية بنفسه في ولاية يزيد. ثم إنَّ الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأوَّل خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها، ثم رمها، وشحنها بالمقاتلة، وأعطاهم القطائع. ولما ولي عثمان الخلافة، وجمع لمعاوية الشام وجَّه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس؛ وهي ثلاث مدن مجتمعة. ثم بنى في مرج على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان، وقطع المادة عن أهلها من البرّ والبحر وحاصرهم، فلما اشتدَّ عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدَّهم، أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى بلاد الروم، فوجَّه إليهم مراكب كثيرة ركبوا فيها ليلاً وهربوا، فلما أصبح سفيان وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثم يغدو على العدو وجد الحصن خالياً فدخله، وكتب بالفتح إلى معاوية، فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود وهو الذي فيه الميناء اليوم ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصَّنه، ثمَّ نقض أهله أيام عبد الملك ففتحه ابنه الوليد في زمانه». انتهى كلام ابن الأثير.

ولما قصد أبو عبيدة حمص وما وراءها، أرسل شرحبيل وعمراً بن العاص إلى بيسان، فقاتلوا أهلها، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم صالحهم من بقي على صلح دمشق، وبعث أبو عبيدة بالأعوار إلى طبرية فصالحه أهلها على صلح دمشق أيضاً، واجتمع عسكر الروم باجنادين وغزة وعليهم قائد سمّاه المؤرخون العرب ارطبون فسار عمرو وشرحبيل إليه، واقتتلوا كيوم اليرموك المارّ ذكره. فانهزم ارطبون إلى بيت المقدس وفتح عمرو غزة وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر. ثم فتح سبسطية وهي؛ السامرة ونابلس ولد وعمو وبيت جبرين ويافا ومدن الأردن (عن ابن الأثير وابن خلدون ملخصاً) وقد ذكرنا فتح أورشليم وما كان فيه في عد ٦٧٤ وكذا انتهى فتح سورية كلها في سنة ١٦ للهجرة وهي سنة ٦٣٨ م وعلى

قول بعضهم سنة ٢٠ للهجرة وهي سنة ٦٤٢م. ويرجَّح الأوَّل لأن المعتمد عليه أن بدء فتحهم مصر كان سنة ٦٣٨م وإنَّما قصدوا مصر بعد أن دانت لهم سورية .

عد ٦٧٨

فتح مصر وغيرها من البلاد وما كان من الأحداث في أيام عمر بن الخطاب

لما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغزاه ، ثم أتبعه الزبير بن العوام ، فساروا وفي سنة مسيرهم كان الخلاف الذي ألمعنا إليه آنفاً ، لأنَّ ابن خلدون قال : « ساروا سنة عشرين أو احدى أو اثنتين أو خمس وعشرين » والأظهر أنَّها سنة ١٦ هجرية أي سنة ٦٣٨ م وكان قورش ، بطريرك الإسكندرية قد وضع لهم ذريعة لهذه الغزوة ؛ لأنَّه منذ سنة ٦٣٥م رأى أنَّ المسلمين سيحملون على مصر بعد أن يفتتحوا سورية ، فعاهد عمراً بن العاص دون مشورة هرقل الملك على أنَّ المصريين يؤدون للخليفة كل سنة مئتي ألف دينار ذهباً ، على شريطة أن لا يغزو مصر ، وأرسلوا إلى الخليفة مبلغاً من الجزية التي جرى الإتِّفاق عليها ، ولما تعسَّر على البطريرك جمع ما بقي منها اضطر أن يعلم الملك بجليّة الأمر ، زاعماً أنَّ تلك مأثرة صنعها في جانب المملكة ، وأنَّ له رأياً في متاركة المسلمين السلاح لا يبوح به إلَّا أن يأمره الملك ببيانه . فاستشاط الملك غيظاً من البطريرك وأرسل جيشاً يصدّ العرب عن الدخول إلى مصر ، وأمّر عليه رجلاً أرمنياً اسمه عمانوئيل . وكان عمرو انتهى إلى تخوم مصر فأرسل عمانوئيل يسأله ما الداعي لغزوته مصر ؟ فأجابه عمرو جئت لأجبي الجزية التي فرضتموها عليكم لنا ، فكتب إليه عمانوئيل يقول لست أعزل كقورش البطريرك لأفيك الجزية صاغراً بل قائد جيش متدجّج في سلاحه ، فزحف عمرو إليه فبدد جيشه في المطرية ، وألجأ عمانوئيل إلى أن يفر إلى إسكندرية بنفر من رجاله ، فأرسل هرقل قائداً آخر على جيش آخر ولكن دارت على هذا أيضاً الدوائر ، وقتل في ساحة الحرب ، فحاصر عمرو مصر وافتتحها عنوة ، وصالح من بقي من أهلها على أن يدفع كل منهم كل سنة دينارين ما خلا الشيوخ والنساء ومن كان دون الثالثة عشرة من عمره ، وتملكوا غيرها من المدن والقرى ولم يبقَ إلَّا

اسكندرية فحاصروها سنة ٦٤٠م. وسأل هرقل قورش البطريرك أن يبدي رأيه الذي أشار إليه في متاركة المسلمين السلاح فأجابه قورش أنَّ رأيه أن يزوِّج احدى الأميرات بناته بعمرو فينكفّ عن الحرب ويتنصرَّ، فاستدعى الملك البطريرك إلى قسطنطينية وشكاه بحضرة الشعب أنَّه سلم مصر إلى المسلمين، فأجاب قورش يبرئ نفسه من الخيانة انه لو عمل برأيه في اداء الجزية لما كان مما كان ونسب الخيانة إلى الوالي فانبّه الملك على سوء تصرفه وعلى مشورته عليه بأن يزوّج ابنته بقائد جيش المسلمين، وهدَّده بالقتل وطرحه في السجن. وبلغ الملك اشتداد الحصار على اسكندرية فأعاد البطريرك إليها مفوضاً إليه أن يتعاطى الصلح مع عمرو، على أن يدفع المصريون الجزية المتَّفق عليها قبلاً بحيث أن يخرجوا من مصر. ولما سمع عمرو كلام البطريرك، وكان قبالتهما عمود كبير قال له هل لك أن تبتلع هذا العمود قال البطريرك لا، فأجابه عمرو ولا نحن نستطيع أن نخرج من مصر. ودام الحصار على اسكندرية أربعة عشر شهراً (رواه روهر بخر ك ٤٨ من تاريخه عن توافان ونيكوفور في تاريخهما) وعن أبي الفداء أنَّ الجامع المعروف بمصر بجامع عمرو بن العاص بُني حيث ضرب هذا الغازي فسطاطه وعن ابن خلدون أنَّ العهد الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر كان من مواده أنَّه إن نقص نهرهم (النيل) من غايته رفع عنهم من الجزية بقدر نقصه.

وكان عمرو يحب العلم والعلماء، وأعجبه عالم اسمه يوحنا فيلوبون (أي محبّ العمل)، فطلب منه يوحنا الكتب التي كانت في مكتبة اسكندرية، إذ لا نفع للمسلمين منها. فقال إن ليس له أن يتصرَّف بها إلَّا بأمر الخليفة عمر. وكتب إليه فأجابه عمر على ما يقال إن كان ما اشتملت المكتبة عليه من الكتب مطابقاً لكتاب الله ففيه غنى عنه، وإن كان مخالفاً للقرآن فلا حاجة لنا به. فوزع عمرو تلك الكتب على أفران اسكندرية فكفتها مؤونة الخبز أشهراً. روى هذه القصة كثير من المؤرّخين النصارى، وبعض المسلمين أيضاً، على أنَّ المدققين لم يقطعوا بصحتها.

قال ابن خلدون: «ولما تمّ فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى النوبة فلم يظفروا. فلما كانت أيام عثمان وعبد الله بن أبي سرح على مصر، صالحهم على عدة رؤوس في كل سنة، ويهدي إليهم المسلمون طعاماً وكسوة. فاستمر ذلك فيها». على أنَّهم إذا لم تنجح حينئذٍ غزوتهم في النوبة، فقد ظفروا،

وأتموا استحواذهم على الجزيرة (ما بين النهرين) سنة ٦٣٨م فتملكوا الرها وحران ونصيبين وآمد وكان واليها الروماني قد صالح المسلمين سنة ٦٣٧ على أن يؤديهم في كل سنة مئة ألف دينار على شريطة أن لا يعبروا الفرات، فغضب الملك هرقل على الوالي وعزله ونفاه ونصب غيره، فلم يستطع إيقاف المسلمين عن فتح الجزيرة بل استولوا عليها وبنوا الكوفة والبصرة في بلاد الكلدان سنة ٦٣٨ وسنة ٦٣٩م. وعن ابن الأثير وابن خلدون (في تاريخهما) أنَّ عمر عرف أنَّ وخومة البلاد غيّرت المسلمين وأوهنت قواهم فكتب إلى عماله أن يختاروا محلاً صالحاً لهم، فاختطوا البصرة والكوفة وبنوا فيهما أولاً بالقصب، ثم وقع الحريق بالقصب فاستأذنوا عمر في البناء باللبن فقال إفعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا في البنيان فكان بناء البصرة والكوفة وسيلة لافتتاح مملكة الفرهمى التي أتموا فتحها بعد ست سنين أي نحو سنة ٦٤٥م. وافتتحوا بعد الجزيرة أرمينيا وهمذان واذربيجان وخراسان وغيرها.

وكان في أيام عمر بن الخطاب سنة ١٨ (سنة ٦٤٠ م) قحط شديد وجدب أعقب جوعاً مع طاعون سمّوه طاعون عمواس، ربما لأنه فتك بأهلها وحلف عمر أن لا يذوق السمن واللبن حتى يحيا الناس. وكتب إلى عماله بالأمصار يستمدّهم لأهل المدينة. فجاء أبو عبيدة من الشام بأربعة آلاف راحلة من الطعام، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام من مصر، فرخص السعر، وهلك بالطاعون خلق كثير منهم من مشاهير المسلمين: أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان والي دمشق، والحرث بن هشام. ولما توفي يزيد المذكور ولّى عمر على الشام مكانه أخاه معاوية بن أبي سفيان، ولما فحش الطاعون بالشام سار عمر إليه ليقسم مواريث المسلمين ويتطوف على الثغور. انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وابن خلدون. وروى توافان أنَّ عمر أمر بإحصاء كل ما في مملكته، فأحصوا لا الناس فقط بل المواشي والأشجار أيضاً.

وفي سنة ٢٣ (سنة ٦٤٥ م) كان مقتل عمر بن الخطاب، وقد فصّل ذلك ابن خلدون فقال: «كان للمغيرة بن سفية (والي الكوفة) مولى من نصارى العجم اسمه فيروز وكنيته أبو لؤلؤة، وكان يشدِّد عليه في الخراج، فلقي يوماً عمر في السوق فشكا إليه وقال: إنَّ المغيرة يثقل عليَّ في الخراج درهمين في كل يوم قال وما صناعتك؟ قال: نجار، حداد، نقاش. فقال: ليس ذلك بكثير على هذه

الصنائع، وقد بلغني أنَّك تقول أصنع رحى تطحن بالريح فاصنع لي رحى، فقال اصنع لك رحى يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب وانصرف. فقال عمر توعدّني العلج. فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف، ودخل «أبو لؤلؤة في الناس وبيده خنجر برأسين نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات؛ إحداها تحت سرته وقتل كليباً ابن أبي البكير الليثي وسقط عمر». وكان مقتل عمر في غاية ذي الحجة ودفن في غرة محرم سنة ٢٤ وهي سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة اشهر وثمانية أيام (أبو الفداء) وبويع بالخلافة بعده عثمان بن عفان.

عد ٦٧٩

خلافة عثمان بن عفان

قد بويع عثمان بالخلافة لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤، وقام في المنبر خطيباً فحمد الله وارتج عليه فقال إنَّ أوَّل كل أمر صعب وإن أعش فسآتيكم الخطب على وجهها. وفي أيامه فتحت إفريقية فتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر بعد عزل عمرو بن العاص، واستعفى عمير من ولاية حمص وقنسرين فضّمها عثمان إلى معاوية، والي دمشق ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة والي فلسطين فضم عثمان عمله إلى معاوية فاجتمع الشام كله لمعاوية لسنتين من إمارة عثمان رواه ابن خلدون (صفحة ١٣٠ من الجزء المذكور) وقال: «كان معاوية يلح على عمر في غزو البحر وكتب إليه في شأن قبرص وهو في قرية من قرى حمص إنَّ أهل تلك القرية يسمعون نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم (مبالغة في قرب قبرص من سورية) فكتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه. فكتب إليه: «هو خلق كبير يركبه خلق صغير، ليس إلَّا السماء والماء، ان ركد فلق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول يزاد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا برق (في الكامل خرق). فكتب عمر إلى معاوية والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أنَّ بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر، وبالله لمسلم واحد أحبُّ إليَّ مما حوت الروم

فإياك أن تعرض لي في ذلك»... ثم كاتب عمر ملك الروم وقاربه وأقصر عن الغزو. ثم ألحَّ معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم. فاختار الغزو جماعة من الصحابة: أبو الدر وأبو الدرداء وشداد بن اوس . .. وساروا إلى قبرص وجاء عبدالله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم ممن سواهم وأن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوهم ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه الغزوة سنة ٢٨ وقيل: سنة ٢٩، وقيل: سنة ٣٣، وهي سنة ٥٠ أو سنة ٥١ أو سنة ٥٤ وذكر ابن الأثير أيضاً ذلك كما مرَّ بحروفه.

وذكر ذلك توافان في تاريخ السنة الثالثة لعثمان وهي سنة ٢٨ و ٢٩ للهجرة، كما ذكر المؤرخون المسلمون. ومما قاله إنَّ أسطول معاوية كان ألف وسبعماية سفينة وإنَّه فتح مدينة قسطنسية واستحوذ على الجزيرة كلها. ولما سمع بقدوم جنود الرومانيين عليه تحول إلى جزيرة أرواد فحاصرها. فلم يتمكن حينئذٍ من فتحها ودنا فصل الشتاء فتركها وعاد إلى سورية ثم استأنف الحصار لها في السنة التالية فاستحوذ عليها، وصالح أهلها على أن يسكنوا حيث شاءوا وخرّب المدينة ولم تزل خربة. انتهى كلام توافان. على أنَّ أعظم الفتوحات في أيام عثمان إنَّما هي فتح بلاد فارس فقد كان للمسلمين حروب كثيرة مع الفرس دامت سنين، وآخرها أنَّ ابن عامر والي البصرة خرج منها إلى فارس، وكانت له وقعة هائلة مع يزدجرد الثالث آخر ملوكهم، فالجئ ملك الفرس أن يفرَّ من جور إلى مرو وأوى إلى بيت رجل ينقر الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر. وفي مقتله روايات أخرى كثيرة لكنها مجمعة على أنَّ مقتله كان في سنة ٣٠ وهي سنة ٦٥٢ أو سنة ٦٥١م وكذا قرض المسلمون هذه الدولة التي غالبت الرومانيين قروناً فلم يتيسر لهم قرضها، واستحوذ المسلمون على كل تلك البلاد إلى الهند وفتحوا طرابلس الغرب وتونس إلى مراكش (عن ابن الأثير في الكامل وابن خلدون في تاريخه).

ومما كان في أيام عثمان (ما رواه أبو الفداء وغيره) أنَّه بلغه سنة ٣٠ ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق. فانهم يقولون، قرآننا أصح من قرآن أهل الشام لأننا قرأنا على ابي موسى الأشعري، وأهل الشام يقولون قرآننا أصح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود وكذلك غيرهم من الأمصار: فأجمع رأي عثمان ورأي الصحابة

على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتبه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي صلعم ويحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ففعل ذلك . . .

وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان : زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي . وقال عثمان : «إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانه نزل القرآن بلسانهم » .

وروى توافان (في تاريخه) في تاريخ سنة ٦٤٥م (على مذهبه وهي سنة ٦٥٢م على المذهب العام والسنة السابعة لعثمان) أنَّ معاوية فتح رودس هذه السنة وانتزع تمثالها الشهير الذي كان قد أقيم من ألف وثلثماية وستين سنة، فاشتراه يهودي من الرها وحمَّل من المعدن المصنوع منه تسع مائة جمل.[1] وروى توافان أيضاً في تاريخ سنة ٦٤٦م وهي سنة ٦٥٣م والثامنة لعثمان) إنَّ معاوية أمر في هذه السنة باعداد الجنود والعدد في طرابلس ليحمل على قسطنطينية فأخذت الجسارة من شابين مسيحيين كل مأخذ فمضيا إلى السجون التي كان فيها كثيرون من محازبي الروم فكسروا أبوابها وحملوا مع السجناء على والي المدينة فقتلوه ، وتسارعوا إلى الأسطول فحرقوه وأخذوا سفينة انهزموا فيها إلى شواطئ البحر في آسيا الصغرى حيث كانت بقية من الروم . على أن حرق السفن لم يثن معاوية عن عزيمته بل جهز غيرها وسيرها بحراً وسار هو بجيشه براً حتى انتهى إلى الكبادوك

---

(١) في نصب هذا التمثال الذي يعد من عجائب الدنيا السبع وفي نقضه خلاف بين العلماء فروى بعضهم ان كارس من مدينة لبندس من هذه الجزيرة صنعه، وقالوا ان كارس كان في القرن الثالث قبل الميلاد وان التمثال نقض بزلزال سنة ٨٦ للميلاد ومن هؤلاء بويليا في معجمه التاريخي الجغرافي. وقال كثيرون ان الروديسيين صنعوه من غنائمهم في حرب ديمتريوس لهم كما قدمنا في المجلد الثالث، وان زلزالاً اقلبه بعد نصبه بست وخمسين سنة وبقي مطروحاً في البحر. وترى توافان يقول هنا ان معاوية نقضه بعد ان كان قد اقيم من الف وثلاثماية وستين سنة. وقال يعقوب كوار في حواشيه على تاريخ توافان ان توافان اخذ ذلك من مكمل تاريخ جيورجيوس سنشلس، وانه اذا اسقطنا ٦٥٥ سنة من التاريخ المسيحي الذي ذكره توافان من سنة ١٣٦٠ كان الحاصل ان هذا التمثال صنع سنة ٧١٥ قبل الميلاد الموافقة لسنة عشرين من ملك حزقيا، لان سنة ٦٤٥ في مذهب توافان هي سنة ٦٥٢ في مذهب عامتهم فتأمل.

وبلغ قسطنت الثاني ملك الروم فجهز أسطولاً وسار به بنفسه فالتقى الأسطولان تجاه ليسيا (أداليا) فكان أولاً بعض النصر للروم، على أنَّ المسلمين اندفعوا بسفائنهم دفعة واحدة على الروم فقتلوا كثيرين منهم وعطلوا أكثر سفنهم ووثبوا وثبة شديدة على سفينة الملك فتنكر بزي جندي، ولولا أن يحمله أحد الشابين الطرابلسيين المار ذكرهما إلى سفينة أخرى لأسره المسلمون أو قتلوه. وقد قتلوا حامل ثوبه وظنوه الملك فسكن جأشهم. وانتهز الملك هذه الفرصة ففرّ إلى قسطنطينية على أنَّ أخبار الثورة إلى عثمان في تلك الأثناء جعلت معاوية يضرب عن لحاق الروم على عاصمة بلادهم.

ومما رواه كثيرون في الانقضاض على عثمان وقتله أنَّ جماعة من أهل الكوفة أخذوا يتكلمون في حق عثمان بأنَّه ولّى جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية، وولى عبدالله بن أبي سرح على مصر ومكث عليها سنين فثار عليه بعض أهلها، وفي سنة ٣٥ (سنة ٦٥٦ م) قدم جمع من مصر وجمع من الكوفة والبصرة يشكون أمورهم إلى عثمان، فغالظهم فثاروا عليه وتألب معهم جماعة وحصروا عثمان في داره إلى أن اتفق علي بن أبي طالب مع عثمان على ما تطلبه الناس منه من عزل مروان عن كتابته وعبدالله بن أبي سرح عن مصر، فأجاب عثمان إلى ذلك وفرق علي الناس عنه، ثم اجتمع عثمان بمروان فرده عن عزمه، ثم اضطرته الحال إلى عزل ابن أبي سرح عن مصر وتولية محمد بن أبي بكر، وتوجه محمَّد إلى ولايته فبينا هم في أثناء الطريق وإذا بعبد على هجين بجهده، فقالوا له إلى أين؟ قال إلى العامل بمصر! فقالوا هذا عامل مصر يعنون محمد بن أبي بكر فأمسكوه وفتشوه فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم عثمان يقول إذا جاء محمد بن أبي بكر، ومن معه بأنك معزول فلا تقبل، واحتل بقتلهم، وابطل كتابهم، وقر في عملك. فرجع محمد بن أبي بكر ومن معه إلى المدينة وجمعوا الصحابة وأوقفوهم على الكتاب، وسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بالختم وخط كاتبه، وحلف بالله أنّه لم يأمر بذلك، فطلبوا منه مروان ليسلمه إليهم فامتنع، فازداد حنق الناس على عثمان وجدّوا في قتاله، فأقام علي ابنه الحسن يذب عنه، وأقام الزبير ابنه عبدالله، وطلحة ابنة محمد يذبون عنه بحيث خرج الحسن وقد انصبغ بالدم، ثم تسوروا على عثمان من دار لزق داره، ونزل عليه جماعة فيهم محمَّد بن أبي بكر فقتلوه وكان صائماً يتلو في المصحف، وكان مقتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة

سنة خمس وثلاثين سنة ٦٥٦، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلَّا اثني عشر يوماً (عن أبي الفداء صفحة ٣٨) . وأخبرني في رومة ثقات من المقامين على المكتبة الواتيكانية ان في هذه المكتبة نسخة المصحف التي كان عثمان يتلو فيها عند مقتله، وقد بقي عليها أثر تلطخها بالدم، ولم أرَ تلك النسخة، وليس الآن لديَّ فهرست الكتب العربية في هذه المكتبة لأحقق على ذلك .

عد ٦٨٠

ذكر أخبار علي بن أبي طالب

قال القرماني في وصف عليّ : « اسم أبيه أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب ، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم . .. وهو ابن عم رسول الله صلعم وصهره على فاطمة سيدة نساء العالمين ، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين ، والزهاد المذكورين ، والخطباء المعروفين ، وأحد من جمع القرآن » . وقد بويع بالخلافة يوم قتل عثمان. فقد أتاه طلحة والزبير وغيرهما من الصحابة وسألوه البيعة له، فقال لا حاجة لي في أمركم من اخترتم رضيت به، أن أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً، فأتوه عليه وبايعوه في المسجد وقيل في بيته. وأبى غيرهم المبايعة له واتهموه بأنّه مالأ على قتل عثمان. وقال طلحة والزبير بعد ذلك إننا بايعناه خشية على نفوسنا، ثم هربنا بعد أربعة أشهر من المدينة الى مكّة وكانت عائشة فيها، ولما بلغها قتل عثمان أعظمت ذلك ودعت إلى الطلب بدمه وساعدها على ذلك طلحة والزبير، واتفقوا أن يسيروا إلى البصرة للإستيلاء عليها، وأرسل مخالفو علي قميص عثمان الملطخ بدمه وأصابع امرأته إلى معاوية بالشام، فكان معاوية يضعها على المنبر ليحرض الناس على قتل علي وأصحابه، وكلما رأى أهل الشام ذلك ازدادوا غيظاً، ونصب عليٌّ عماله في الجهات فكان لكل منهم مريدون ومخالفون . ولما بلغ علي مسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة وكانوا قد استولوا عليها سار نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة، واجتمع إلى عليّ من أهل الكوفة جمع، واجتمع إلى عائشة وطلحة والزبير جمع وسار بعضهم إلى بعض، فالتقوا بمكان يقال له الخريبة في النصف من جمادي الآخرة سنة ٣٦ (سنة ٦٥٧م) فكانت بينهم وقعة سموها وقعة الجمل لأنَّ عائشة كانت فيها راكبة

جملاً ودارت الدائرة في هذه الوقعة على طلحة. والزبير وقتل طلحة ويقال إنَّه قتل في هذه الوقعة ثلاثة آلاف رجل من الفريقين وقيل عشرة فقط، وأما الزبير ففرَّ عائداً إلى المدينة فقتله في طريقه عمرو بن جرموز المجاشعي، وأمَّر علي عائشة بالرجوع إلى المدينة وأن تقر في بيتها فسارت وجهزها علي بما احتاجت إليه، وسيّر معها أولاده مسيرة يوم، واستعمل علي على البصرة عبدالله بن العباس وانتظم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان، ولم يبقَ خارج عنه إلَّا الشام وأهلها ومعاوية.

فأرسل عليٌّ إلى معاوية يسأله الدخول في ما دخل الناس فيه من مبايعته فماطله. وكان عمرو بن العاص في فلسطين فقدم إلى معاوية، واتفقا على قتال علي. وشرط عمرو على معاوية أن يوليه مصر ان ظفروا بعلي. وبلغ ذلك علياً فسار من الكوفة إلى جهة معاوية، وسار عمرو ومعاوية من دمشق بأهل الشام إلى جهة علي حتى التقى الجيشان بمحل يسمى صفين في أطراف سورية قريباً من الفرات سنة ٣٧ هـ (سنة ٦٥٨) وطالت بين عليّ ومعاوية المراسلات، ولم ينتظم الأمر بينهما فكانت بينهما وقعات كثيرة بصفين، حتى قيل إنَّها تسعون وقعة، وأنَّ عدد القتلى من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، ولم يظهر أحدهما على الآخر. ولما رأى ذلك عمرو بن العاص قال لمعاوية هلمَّ نرفع المصاحف على الرماح، ونقول هذا كتاب الله بيننا وبينكم ففعلوا، ولما رأى أهل العراق ذلك قالوا لعلي ألا نجيب إلى كتاب الله؟ فقال ما رفعوها إلَّا خديعة ومكيدة، فألحوا بترك القتال، فألجئ إلى الإذعان. ولما كفوا عن القتال سألوا معاوية لأي شيء رفعت المصاحف فقال لتنصبوا حكماً منكم وننصب حكماً منا، ونأخذ عليهما أي يعملا بما في كتاب الله، ثم نتبع ما اتفقنا عليه. فوقعت الإجابة من الفريقين إلى ذلك، واضطر علي إلى إجابتهم باختيار أبي موسى الأشعري، واختار معاوية عمراً بن العاص، واجتمع الحكمان عند علي، وكتبا صك التحكيم بحضرته، ثم لدى مذاكرتهما دعا عمرو بن العاص أبا موسى إلى جعل الأمر إلى معاوية، فأبى ودعا زميله إلى جعل الأمر إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب، فأبى عمرو وقال ما ترى أنت فقال أن نخلع علياً ومعاوية معاً ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فأظهر له عمرو أنَّ هذا هو الرأي ووافقه عليه ثم أقبلا على الناس وقد اجتمعوا، فقال أبو موسى اتفقنا على أمر نرجو به صلاح هذه الأمة فقال عمرو صدق وكلف أبا موسى

أن يبدأ في الكلام فقال أبو موسى اتفقنا على أن نخلع علياً ومعاوية ونولي هذه الأمة، من أحبوا ثم تنحى، وقام عمرو مقامه وقال إنَّ هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه. فقال له أبو موسى ما لك لا وفقك الله غدرت وفجرت، وركب أبو موسى ولحق بمكة حياء من الناس، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة، ومن ذلك الوقت أخذ أمر علي في الضعف وأمر معاوية في القوة.

ولما عاد علي إلى الكوفة حض الناس على المسير إلى قتال معاوية، فتقاعدوا وقالوا نستريح ونصلح عدتنا. وفي سنة ٣٨ هـ (سنة ٦٥٩ م) جهز معاوية عمراً بن العاص بعسكر إلى مصر وكان علي أقام عليها محمد بن أبي بكر فكتب إليه يستنجده، فأرسل إليه الأشتر، فلما وصل إلى القلزم سقاه رجل عسلاً مسموماً فمات منه. فقال معاوية إنَّ لله جنداً من عسل. ولما وصل عمرو بن العاص إلى مصر قاتله أصحاب محمد بن أبي بكر فهزمهم، وفر محمد فقبض البعض عليه وأتوا به إلى معاوية فقتله وألقاه في جيفة حمار وأحرقه، ودخل عمرو مصر وبايع أهلها لمعاوية، وبثَّ معاوية سراياه بالغارة على أعمال علي فنهبوا وهزموا من في أعمال كثيرة. وكان علي يخطب الناس الخطب البليغة، ويجتهد بحضهم على الخروج إلى قتال معاوية فيتقاعد عنه عسكره، واستمرّ الأمر على ذلك إلى سنة ٤٠هـ (سنة ٦٦١م) وفيها سيّر معاوية بشر بن ارطأة في عسكر إلى الحجاز، فأتى المدينة وبها أبو أيوب الأنصاري عاملاً لعلي، فهرب ولحق بعلي ودخل بشر المدينة وسفك فيها الدماء، واستكره الناس على البيعة إلى معاوية، ثم سار إلى اليمن وقتل ألوفاً من الناس فهرب منها عبيدالله بن العباس عامل علي وكان له ابنان فذبحهما (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير في الكامل وعن ابن خلدون وأبي الفداء في تاريخهما).

عد ٦٨١
ذكر مقتل علي بن أبي طالب

قالوا اجتمع ثلاثة من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وعمرو بن بكر التميمي، والبرك بن عبدالله التميمي ويقال إنَّ اسمه الحجاج. فذكروا إخواناً

لهم قتلوا بالحروب وقالوا لو قتلنا أئمة الضلالة ارحنا منهم البلاد. فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علياً، وقال البرك أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمراً بن العاص، وتعاهدوا أن لا يغير أحد منهم عمن توجه إليه، وتواعدوا لسبع عشرة ليلة تمضي من رمضان من سنة ٤٠ه المذكورة. واتفق مع ابن ملجم رجلان يقال لأحدهما وردان وللاخر شبيب ووثبوا على عليّ وقد خرج إلى صلاة الغداة، فضربه شبيب، فوضع سيفه في الطاق وهرب هو، ونجا في غمار الناس، وضربه ابن ملجم في جبهته ضربة قاضية وفر وردان وأمسك القاتل وألقي في السجن، ولما مات علي أخرجوه من السجن فقطعوا يده ثم رجله وكحلت عيناه بمسمار محمى وقطع لسانه وأحرق. وأما البرك فوثب على معاوية في تلك الليلة وضربه بالسيف فوقع في التيه، وأمسك البرك فقال له إني أبشرك فلا تقتلني. فقال بماذا فقال إنَّ رفيقي قتل علياً هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر فقال بلى إنَّ علياً ليس معه من يحرسه فقتله معاوية. وأما عمرو بن بكر فانَّه جلس تلك الليلة لعمرو بن العاص فلم يخرج إلى الصلاة بل كان قد أمر خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطة أن يصلي بالناس، فظنه عمرو بن بكر أنَّه عمرو بن العاص فقتله وأخذه الناس وأتوا به إلى عمرو فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو بن العاص فقال أردته وأراد الله خارجة فقتلوه وكان مقتل علي لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ٤٠ه (سنة ٦٦١) وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر على المشهور.

ولما مات علي بايع أصحابه ابنه الحسن بالخلافة، وقد قالوا إنَّ أبا بكر لما رأى الرسول محتضراً أرسل إليه علياً يقول لمن الخلافة من بعدك يا رسول الله؟ فقال للسائل؟ فقال أصحاب علي إنَّما السائل من سأل فعلاً وهو علي، لا الآمر وهو أبو بكر الصدِّيق. وأنكروا صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وادَّعوا أنَّ علياً إنَّما هو الخليفة حقاً، ثم خلفه ابنه الحسن، ثم ابنه الحسين، وسمي هؤلاء الشيعيين. وهم من يسمون الآن المتاولة لأنهم توالوا علياً وأهل بيته، وكانت أخص منازلهم في العراق وفارس، وانفصلوا عن معاوية الذي بويع بالخلافة بعد مقتل علي في سورية ومصر وإفريقيا وبلاد العرب وغيرها على التعاقب. ولعلي خطب بليغة غرّاء تشهد بطول باعه وسموّ مداركه؛ ومنها كتابه المعروف بنهج البلاغة.

عد ٦٨٢

ذكر خلافة معاوية

معاوية هو ابن صخر بن حرب بن أمية، استعمله عمر بن الخطاب على دمشق، ثم ولاه عثمان على سائر أعمال سورية كما مرَّ. وكانت له الفتوحات التي أشرنا إليها، ثم بويع بالخلافة بعد مقتل علي واستوعبها بعد تسليم الحسن بن علي الأمر إليه كما سيأتي؛ وهو أصل خلفاء بني أمية المقيمين في الشام، وعددهم أربعة عشر خليفة، ومدة خلافتهم نحو من تسعين سنة، وسوف نذكر كلاً منهم. وأهم الأحداث بعد خلافة معاوية وتسليم الحسن بن علي الأمر إليه بعد أن بايعه أصحاب أبيه بالخلافة بعد مقتله، وذلك أنَّ الحسن بلغه مسير أهل الشام إلى قتاله مع معاوية فتجهز بجيش كان أبوه قد أعده لقتال معاوية قبل مقتله وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية وبلغ المداين فجرى في عسكره فتنة حتى نازعوه بساطاً كان تحته، وازداد عسكره بغضاً وذعراً، وسئمت نفسه القتال في هذه الحال فكتب إلى معاوية واشترط عليه شروطاً جلّها أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة وخراج بعض أعمال فارس، وأن لا يُشتم أباه على مسمعه، فأجابه معاوية إلى ذلك ودخل الكوفة، فبايعه الناس، فلم يلِ الحسن الخلافة إلا نحواً من ستة أشهر.

ومن أهم أخبار معاوية أنَّه بعد استوائه على منصة الخلافة سيّر سنة ٤٨ هـ (سنة ٦٦٩ م) جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف إلى قسطنطينية، فأوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية. وعن ابن خلدون أنَّ هذه الحملة كانت سنة ٥٠ هـ (سنة ٦٧١ م) ثم سيّر نجدة لهم مع ابنه يزيد فلم يظفروا بفتحها، بل عاد يزيد والعساكر إلى الشام. وفي سنة ٥٠ بنيت بأمر معاوية القيروان في افريقية بناها عقبة ابن نافع والي افريقية، وكان قد وضع السيف في أهل افريقية، لأنهم كانوا يرتدون إذا فارقهم العسكر، وكان مقام الولاة بزديلة وبرقة، فرأى عقبة أن يتّخذ مدينة بتلك البلاد تكون مقراً للعسكر واختار موضع القيروان، وكمل بناءها في خمس سنين (أبو الفداء صفحة ١٩٧) فتسمية العمل القيروان قديمة، وأظن المراد هنا المدينة المسماة باسم العمل. ومن الأحداث في أيامه ما ذكره توافان في تاريخ سنة ٦٦٩ (على مذهبه وهي سنة ٦٧٦ على مذهب عامتهم وذكره شدرانس في تاريخ السنة الثامنة والتاسعة لقسطنطين ملك الروم) من الصلح بين معاوية وملك

الروم على شرط أن يمنع الملك سطو المردة على سواحل سورية من السويدية إلى تخوم المدينة المقدّسة، ويدفع له الخليفة مبلغاً من المال وتقادم. وسوف نذكر ذلك في الملحق المعلّق بآخر هذا الباب.

وقد أدركت الوفاة معاوية في شهر رجب سنة ٥٦ هـ (وهي سنة ٦٧٥ م) وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً منذ اجتمع له الأمر وبايعه الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان عمره خمساً وسبعين سنة. وقيل سبعين سنة، وقيل غير ذلك. وكان قد عهد بالخلافة له إلى ابنه يزيد فخلفه.

عد ٦٨٣
ذكر خلافة يزيد بن معاوية

هو الثاني من خلفاء بني أمية، بويع بالخلافة لما مات أبوه ولما استقر بالخلافة أرسل إلى عامله بالمدينة، بإلزام الحسين وعبدالله بن الزبير وابن عمر بالبيعة، فترددوا فيها، فأرسل عامل المدينة جيشاً مع عمرو بن الزبير على أخيه عبدالله الذي كان شديد العداوة له، فانتصر عبدالله على أخيه عمرو، وهزم الجمع الذي كان معه وأمسكه وحبسه حتى مات في حبسه. وأما الحسين بن علي بن أبي طالب فوردت عليه مكاتبات من أهل الكوفة يحثونه على المسير إليهم ليبايعوه، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ البيعة عليهم، فبايع الحسين بها نحو من ثلاثين ألف رجل. وكان العامل حينئذٍ على الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري وبلغ يزيد عنه ما لا يرضيه، فعزله وولى على الكوفة عبدالله بن زياد، فخطب أهلها وحثهم على طاعة يزيد، واجتمع إلى مسلم بن عقيل من كان بايعه للحسين، وحصروا عبيدالله الوالي في قصره، فأمر رجاله أن يشرفوا من القصر، ويعدوا أهل المعصية الطاعة ويتوعدوا، فتفرق الناس عن مسلم، فانهزم واستتر، ثم قبض عليه واتي به إلى عبدالله فضرب عنقه، ورمى جيفته من القصر، وقطع رأس هاني بن حرزة أحد محاربيه، وبعث برأسيهما إلى يزيد، وأخذ الحسين بالمسير من مكة إلى العراق، ونصحه ابن عمه عبدالله بن العباس أن يسير إلى اليمن، فان بها شيعة لأبيه فلم ينتصح بل سار واجتمع عليه جمائع من العرب، وبلغه في طريقه مقتل ابن عمه

مسلم فتخاذل الناس عنه والتقاه صاحب شرطة عبدالله الوالي بألفي فارس مأموراً أن لا يفارقه حتى يوصله إلى الكوفة، وأرسل ابن زياد أربعة آلاف آخرين يمدون صاحب شرطته، ولم يكن مع الحسين إلّا اثنان وثلاثون فارساً وأربعون رجلاً فسألهم الحسين أن يُمكن إمَّا من العود من حيث أتى، وإمَّا من الإنطلاق إلى يزيد الخليفة، وإمَّا من أن يلحق بالثغور فكتبوا إلى ابن زياد في ذلك فأجابهم أن يقاتلوا الحسين ويقتلوه، فحملوا على الحسين واستمرَّ القتال إلى وقت الظهر. واشتد بالحسين من العطش فنزل ليشرب فقتله رجال ابن زياد واحتزوا رأسه، وأرسله ابن زياد إلى يزيد الخليفة مع نسائه وأطفاله، وقتل مع الحسين من أولاد علي أربعة وهم عباس وجعفر ومحمَّد وأبو بكر، ومن أولاد الحسين أربعة. وأمر يزيد بإرسال النساء والأطفال إلى المدينة، ولما وصلوا إليها لقيهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهنَّ ابنة عقيل بن أبي طالب أخت مسلم المذكور، وهي تبكي وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى وصرعى ضرجوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم ... أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وكان قتل الحسين سنة ٦١ هـ (وهي سنة ٦٨١ م). انتهى ملخصاً عن ابن الأثير في الكامل، وأبي الفداء في تاريخه.

وأمَّا عبدالله بن الزبير المذكور فانه استمر بمكة ممتنعاً عن الدخول في طاعة يزيد ابن معاوية، واتفق أهل المدينة على خلع يزيد، وأخرجوا نائبه عثمان بن أبي سفيان منها، فجهزّ يزيد جيشاً أمَّر عليه مسلماً بن عقبة، وأمره أن يقاتل أهل المدينة، وإذا فرغ من المدينة يسير إلى مكة فسار مسلم المذكور في عشرة آلاف فارس من أهل الشام، وأصرَّ أهل المدينة على قتاله وعملوا خندقاً واقتتلوا، فقتل من أهل المدينة جماعة من الأشراف ودام قتالهم، ثم انهزم أهل المدينة، وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام يقتلون فيها الناس وينتهبون ما بها من الأموال، ويفسقون بالنساء، وكان القتلى سبع مئة من وجوه الناس، وعشرة آلاف من غيرهم، وبايع مسلم من بقي من الناس على أنَّهم خول (أي خدم) وعبيد ليزيد بن معاوية. وكانت هذه الوقعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هجرية (وهي سنة ٦٨٣ م) عن أبي الفداء في تاريخه (صفحة ٢١٣).

ولما فرغ مسلم من المدينة سار إلى مكة فدهمته المنية في مسيره وأقام على الجيش مقامه الحصين بن نمير فقدم مكة، وحاصر عبدالله بن الزبير أربعين يوماً. وعن ابن الأثير أنَّ أهل مكة والحجاز كانوا قد بايعوه بالخلافة واجتمعوا عليه ولحق به المنهزمون من أهل المدينة، وخرج ابن الزبير إلى لقاء أهل الشام، فحمل هؤلاء حملة انكشف منها أصحاب ابن الزبير، وأقاموا في القتال بقية من المحرم وصفر كله، حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأوَّل سنة ٦٤هـ (سنة ٦٨٤ م) رموا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار وقيل إنَّ الكعبة احترقت من نار كان يوقدها أصحاب ابن الزبير حول الكعبة، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت. والأوَّل أصح لأنَّ البخاري قد ذكر في صحيحه أنَّ ابن الزبير ترك الكعبة ليراها الناس محترقة ليحرضهم على أهل الشام، وأقام أهل الشام يحاصرون ابن الزبير حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية. وعن أبي الفداء انَّ الحصين لما علم بموت يزيد قال لعبدالله بن الزبير من الرأي أن ندع دماء القتلى بيننا، وأقبل لأبايعك، وأقدم إلى الشام. فامتنع عبدالله من ذلك فارتحل الحصين راجعاً إلى الشام، ثم ندم ابن الزبير على عدم الموافقة وسار مع الحصين من كان بالمدينة من بني أمية وقدموا إلى الشام، وأمَّا يزيد فقد تخرمته المنية لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ (سنة ٦٨٤ م) ومدة خلافته ثلاث سنين وستة أشهر. وعن ابن الأثير أنَّه توفي «بحوران من أرض الشام» وعن أبي الفداء «بحوارين من عمل حمص».

عد ٦٨٤

ذكر معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم

لما توفي يزيد بن معاوية، بويع بالخلافة معاوية الثاني ابن يزيد بن معاوية الأول، فكان الثالث من بني معاوية، لكن مدة ولايته لم تكن إلَّا ثلاثة أشهر، وقيل أربعين يوماً، ومات وعمره إحدى وعشرون سنة. على أنَّ المبايعة لمعاوية لم تستوعب الأمة لأنَّ أهل مكة بايعوا عبدالله بن الزبير بعد موت يزيد وكان مروان بن الحكم من بني أمية بالمدينة فقصد المسير إلى ابن الزبير ليبايعه، فعارضه بعض أصحابه، وسار مع من توجه من بني أمية إلى الشام، وكان عبيدالله بن زياد بالبصرة، ولما بلغه مبايعة ابن الزبير بمكة هرب إلى الشام فبايع أهل البصرة ابن

الزبير، واجتمعت له العراق والحجاز واليمن، وبعث إلى مصر فبايعه أهلها، وبايعه في الشام سراً الضحاك بن قيس، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص، وزفر بن الحارث الكلابي بقنسرين. وبايع سائر الناس بالشام مروان بن الحكم المارّ ذكره، فكان الرابع من بني أمية. واجتمعت إليه بنو أمية وصار الناس بالشام فرقتين اليمنية مع مروان، والقيسية مع الضحاك بن قيس، وهم يبايعون لابن الزبير وكثر الشغب والمقالات.

ثم التقى الفريقان بمرج راهط في غوطة دمشق واقتتلوا قتالاً شديداً، وعن ابن الأثير أنَّ القتال دام عشرين يوماً، وكانت الكرة على الضحاك والقيسية وانهزموا شر هزيمة، وقتل الضحاك وقتل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام، وقتل كثيرون من أصحاب مروان. وكانت هذه الوقعة في المحرم سنة ٦٥هـ وقيل بل كانت في آخر سنة ٦٤هـ (بين سنة ٦٨٤ أو سنة ٦٨٥م). ولما بلغ خبر مقتل الضحاك النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص المار ذكره خرج هارباً بامرأته وأهله، فاتَّبعه أهل حمص وقتلوه وردوا رأسه وأهله إلى مدينتهم. وأمَّا زفر بن الحارث والي قنسرين أحد المحازبين لابن الزبير فلما بلغه خبر الهزيمة فرَّ من قنسرين وأتى فرقيسيا والجزيرة وغلب عليها بحيلة ذكرها ابن الأثير هي أنَّه سأل واليها عياض الجرشي أن يدخل الحمام، وحلف له بالطلاق والعتاق أنَّه متى خرج من الحمام لا يقيم بها، فأذن له فدخل المدينة وغلب عليها وتحصن بها ولم يدخل حمامها فاجتمع عليه القيسية، وكان ناتل بن قيس الجذامي والياً في فلسطين محازباً لابن الزبير، فلما بلغه انهزام القيسية لحق بابن الزبير إلى مكة فدانت أعمال الشام كلها لمروان، ثم مضى إلى مصر وأرسل قبله عمراً بن سعيد بن العاص فدخل مصر وطرد عامل ابن الزبير وبايع أهلها مروان وعاد إلى الشام. ولما دنا من دمشق بلغه أنَّ ابن الزبير بعث إليه أخاه مصعباً في جيش فأرسل إليه مروان عمر بن سعيد قبل أن يدخل الشام فقاتله وانهزم مصعب وجيشه، فاستقرَّ مروان في دمشق واستتب له الأمر في الشام ومصر وابن الزبير في العراق والحجاز واليمن. وكان ذلك لسنة ٦٥هـ (سنة ٦٨٥م) (عن ابن الأثير في الكامل وأبي الفداء في تاريخه).

إنَّ مروان لم تكن مدة خلافته إلَّا تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً وتوفي في رمضان سنة ٦٥هـ (سنة ٦٨٥) وكان تزوج بأم خالد بن يزيد بن معاوية لخوفه من

خالد، وقالوا إنَّ أم خالد خنقته وصاحت مات فجأة، ودفن بدمشق. ومما يذكر من أعمال ابن الزبير حينئذ أنَّه في سنة ٦٤هـ (سنة ٦٨٤ م) هدم الكعبة وكانت حيطانها قد مالت من ضرب المنجنيق، فهدمها وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وأعادها إلى ما كانت عليه قبلاً (عن أبي الفداء).

عد ٦٨٥

ذكر أخبار عبد الملك بن مروان

لما مات مروان بويع ابنه عبد الملك بالخلافة في ثالث رمضان سنة ٦٥هـ (سنة ٦٨٥ م) وهو الخامس من خلفاء بني أمية، وقيل إنَّه لما أتته الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره، وقال هذا آخر العهد بك (عن أبي الفداء صفحة ٢٠٥). وقال فيه القرماني (في تاريخ الدول) «هو أوَّل من سمي بعبد الملك في الإسلام، وأوَّل من ضرب الدنانير والدراهم بسكة الإسلام، كتب عليها آي القرآن وكتب فيها ضرب بمدينة كذا والتاريخ. وكان على الدنانير نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية. وهو أوَّل من غدر في الاسلام، وأوَّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأوَّل من نهى عن الأمر بالمعروف. وكان قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً فقيهاً واسع العلم وكان يلقب بحمامة المسجد» ومن أوَّل الأحداث في أيامه خروج المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة طالباً بثأر الحسين بن علي بن أبي طالب، واستولى على الكوفة وبايعه الناس بها وتجرَّد لقتال قتلة الحسين فقتل شمر بن ذي الجوشن الذي حارب الحسين، وخولى الأصبحي الذي قطع رأسه، وعمر بن سعد الذي أمر أن يداس ظهر الحسين وصدره بالخيل. واتَّخذ المختار كرسياً وادَّعى أنَّ فيه سراً وأنَّه لهم مثل التابوت لبني إسرائيل، وكان ذلك لسنة ٦٧هـ (سنة ٦٨٧م). وفيها أيضاً أرسل المختار جنوده لقتال عبيدالله بن زياد وكان قد استولى على الموصل، فانتصر جنود المختار على ابن زياد وقتلوه. ورأى ابن الزبير الخليفة في مكة استفحال أمر المختار في العراق فأرسل إليه أخاه مصعباً وجمع المختار جموعه والتقيا واقتتلا قتالاً شديداً فانهزم المختار وانحصر في قصر الإمارة بالكوفة، وما زال يقاتل حتى قتل ونزل أصحابه من القصر على حكم مصعب بن الزبير، فقتلهم جميعهم وكانوا سبعة آلاف. واستمرَّ مصعب عاملاً لأخيه في العراق (عن الكامل لابن الأثير وعن تاريخ أبي الفداء).

وعزم عبد الملك بن مروان أن يستريح من ابن الزبير وأن يستبدَّ بالخلافة على الأمة كلها فتجهز سنة ٧١هـ (سنة ٦٩١ م) وسار إلى العراق وتجهَّز مصعب لملتقاه واقتتل الجمعان، وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك فتخلوا عن مصعب، فقاتل مصعب حتى قتل هو وولده، واستوسق ملك العراقين لعبد الملك. ثم جهز في سنة ٧٢هـ (سنة ٦٩٢ م) جيشاً أمَّر عليه الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبدالله ابن الزبير في مكة، ونزل الحجاج بجيشه في الطائف وكانت بينه وبين أصحاب ابن الزبير وقعات كانت الكرة فيها على أصحاب ابن الزبير، وآخر الأمر أنَّه حصر ابن الزبير بمكة ورمى البيت الحرام بالمنجنيق، ودام الحصار سبعة أشهر وابن الزبير يقاتل حتى قتل في جمادى الأخرى سنة ٧٣هـ (سنة ٦٩٣ م) وكانت مدة خلافته تسع سنين لأنَّه بويع له سنة ٦٤هـ، لما مات يزيد بن معاوية وبعد مقتل ابن الزبير بويع لعبد الملك بالحجاز واليمن واجتمع الناس على طاعته، واستمر الحجاج أميراً على الحجاز. ومن أعماله أنَّه هدم الكعبة وأخرج الحجر عن البيت وبنى البيت على ما كان عليه قبل أن يضرب بالمناجق (عن الكامل وتاريخ أبي الفداء).

وفي سنة ٧٥هـ (سنة ٦٩٥ م) ولى عبد الملك الحجاج على العراق، فسار من المدينة إلى الكوفة، وخرج عليه في أيام ولايته شبيب الخارجي، وكثرت جموعه، وجرى له مع الحجاج حروب كثيرة آخرها أنَّ جموع شبيب تفرقت وتردى به فرسه من فوق جسر فسقط في الماء وغرق. وكذلك خرج على الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وتولى على خراسان وسار على الحجاج وغلب على الكوفة وكثرت جموعه وقويت شوكته، فأمدَّ عبد الملك الحجاج بالجيوش من الشام فتفرقت جموع عبد الرحمن وانهزم ولحق بالترك، فأرسل الحجاج بطلبه منهم مهدداً بالغزوات، فقبض ملك الترك عليه وعلى أربعين من أصحابه وبعث بهم إلى الحجاج، فألقى عبد الرحمن نفسه من سطح في طريقة فمات (عن تاريخ أبي الفداء).

قد مرَّ في كلام القرماني أنَّ عبد الملك إنَّما هو أوَّل من ضرب الدنانير والدراهم بسكة الإسلام. وقد روى ذلك أيضاً ابن الأثير وابن خلدون قالا: كان عبد الملك قد كتب في صدر كتابه إلى ملك الروم، قل هو الله أحد، وذكر النبي مع التاريخ وأنكر ذلك ملك الروم، وقال أتركوه وإلَّا ذكرنا نبيكم في دنانيرنا بما تكرهون. فعظم ذلك عليه واستشار الناس، فأشار عليه خالد بن يزيد بضرب السكة وترك

دنانير الروم ففعل، ثم نقش الحجاج فيها قل هو الله أحد فكره الناس ذلك لأنّه قد يمسّها غير طاهر أو حائض وفيها آية القرآن، ثم بالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش وزاد ابن هبيرة عليه في أيام يزيد بن عبد الملك ثم زاد خالد القسري عليهم أيام هشام، ثم أفرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية. ثم أمر المنصور أن لا يقبل في الخراج غيرها ... وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر فكان منها مثقال وزن عشرين قيراطاً واثني عشر، وعشرة قراريط، وهي أنصاف المثاقيل. فجمعوا قراريط الأنصاف الثلاثة فكانت اثنين وأربعين، فجعلوا ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً وزن الدرهم العربي فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل». انتهى كلام ابن الأثير وابن خلدون ونرى في تاريخ توافان لسنة ٦٨٢ م أنَّ الملك يوستيناس «أبى أن يقبل في الخراج الدراهم التي أحدثها عبد الملك بهيئة لم ترَ إلّا حينئذ». وقال بعد ذلك إنَّ عبد الملك لدى المذاكرة بعهدة الصلح مع هذا الملك طلب إليه أن يقبل الدراهم التي ضربها في جملة ما جرى الإتّفاق أن يدفعه كل سنة، وحيث أنّه تعين وزنه ذهباً فلا تمسّ الروم مضرة من ذلك.

قد كان لعبد الملك غزوات وحروب أخرى في خراسان والعراق وحرب الأزارقة والخوارج، وغير ذلك مما هو خارج عن دائرة غرضنا ولا فائدة كبرى لقراء كتابنا، فنضرب عن ذكره معاضين عنه بما ذكره المؤرخون الذين كتبوا بالسريانية أو اليونانية. ولم نجد له ذكراً في ما لدينا من كتب المؤرخين المسلمين.

فممن كتبوا بالسريانية صاحب كتاب التاريخ السرياني الذي عثر عليه حديثاً الأب نو الافرنسي كما مرّ قبلاً، وأذاعه مع ترجمته الإفرنسية هذه السنة ١٨٩٩م في باريس، ويظن انه قيس الماروني الذي ذكره المسعودي. فهذا المؤلف قال في سنة ٩٧٠ (يونانية توافق سنة ٦٥٩م) وهي السابعة عشرة لقسطنت الملك. يوم الجمعة من شهر حزيران في الساعة الثانية حدث في فلسطين زلزال شديد خرب كثيراً من القرى، وفي هذا الشهر من السنة المذكورة أتى اساقفة اليعاقبة توادورس (وهو الذي كان بطريركاً على اليعاقبة من سنة ٦٤٩ إلى سنة ٦٦٧م)، وسبكوت (اسقف قنسرين) إلى دمشق، وجادلوا الموارنة بحضرة معاوية على الايمان، وغُلب اليعاقبة ففرض عليهم معاوية أن يدفعوا عشرين الف دينار، وامرهم أن يلزموا السكينة. واستمر الاساقفة اليعاقبة يدفعون كل سنة هذا المبلغ إلى معاوية كي لا ينكف عن

حمايتهم، ولا يضطهدهم ابناء الكنيسة (أي الموارنة)، ومن يسميه اليعاقبة بطريركهم كان يوزع هذا المبلغ على الاديار والرهبان والراهبات وغيرهم من المؤمنين ويقدمه كل سنة لمعاوية ليطيعه اليعاقبة هيبة من الخليفة. وفي التاسع من هذا الشهر الذي كان واقعاً يوم الاحد وحصل فيه الجدال مع اليعاقبة حدث زلزال.

وممن كتبوا باليونانية توافان فقد روى (مجلد ١٠٨ صفحة ٧٣٤ من طبعة الأب مين) في تاريخ سنة ٦٧٦م (وهي على مذهبه السنة الاولى لعبد الملك) انه كان في هذه السنة قحط ووباء شديدان في سورية وملك عبد الملك في أمته، وتوافرت غزوات المردة حول لبنان، فأرسل وفداً إلى ملك الروم يطلب تجديد العهدة التي كانت قد عقدت مع معاوية سالفة على أن يدفع كل سنة ثلاث مئة وخمسة وستين الف دينار ذهباً وبقدرها عبيداً، ومثلها خيولاً جياداً. وقال يعقوب كوار في حواشيه على هذا التاريخ ان هذه الاعداد طرأ عليها غلط من النساخ ولا سيما أنّ قوله «وبقدرها عبيداً ومثلها خيولاً جياداً يفهم منه ثلاث مئة وخمسة وستين الف عبد ومثلها من الخيل وهذا غير معقول وبمعزل عن قصد المؤلف، وإلّا لاستوعب الرومانيون في سنين قليلة كل ما عند العرب من العبيد والخيل. قلت وهذا ظاهر من كلام المؤلف في تاريخ سنة ٦٧٨م حيث قال «في هذه السنة ارسل عبد الملك إلى يوستنيانس وفداً لاثبات العهدة فعقد الصلح على الشروط الآتية ان يصّد الملك جموع المردة الخارجين من لبنان ويمنعهم من السطو، ويدفع له عبد الملك كل يوم الف ذهب وعبداً وفرساً، وقال في هذا الشأن شدرانس (في تاريخ السنة الاولى ليوستنيانس الاخرم مجلد ١٢١ صفحة ٨٤٦ من طبعة الأب مين) «ان عبد الملك ارسل في السنة الاولى لولايته إلى الملك وفوداً يطلب اثبات عهدة الصلح، فوقع الاتفاق على ان الملك يصد غزوات المردة في لبنان ويمنع سطوهم ويدفع إلى الرومانيين في كل يوم الف ذهب وعبداً وفرساً، فارسل الملك إليه بولس ماجستريانس للتوقيع على العهد ووثقوا ذلك بالخط والشهود، وبناءً عليه ارسل الملك فأخذ اثني عشر الفاً من المردة، فكانت في ذلك مضرة كبرى لسطوة الرومانيين، إلى أن يقول ومضى يوستنيانس في السنة الثانية إلى ارمينية فأتى إليه المردة سكان لبنان ونقض السور النحاسي». وقال كوار في حاشيته على هذا الكلام أنّ عسكر المردة كان بمنزلة سور نحاسي يصد غزوات السراكسة فنقضه بسوء تصرفه. وسوف نذكر ذلك بأكثر تفصيل في الملحق المعلق بآخر هذا الكتاب.

وقال زوناراس مثل ذلك (في كلامه على الملك يوستنيانس الأخرم مجلد ١٢٤ صفحة ١٢٩٨ من طبعة الأب مين) وزاد عليه: «أنّ يوستنيانس جند من الصقالبة ثلاثين الفاً ونقض عهدته مع العرب متوسلاً إلى ذلك بانهم ارادوا ان يؤدوه الجزية سكة عربية حديثة ليست عليها صورة الملوك الرومانيين، وبأنه لا يسوغ ان ينقش على الدنانير الذهبية إلّا صورة الملك الروماني، وعالنهم بالحرب لا اعتماداً على الجنود الرومانيين بل على من كان جندهم من الصقالبة. فسأله العرب أن لا ينقض العهدة ولا يخل بالشروط التي كتبوها واشهدوا الله عليهم لرعايتها وسألوه تعالى أن ينتقم ممن يخالفها أو يبدي سبباً للحرب، فتصام الملك عن سماع سؤلهم وصمم على حربهم. وكان جنودهم ابّان الحرب يرفعون صك العهدة بمنزلة علم لهم، وانحاز دون ابطاء عشرون الفاً من اولئك الصقالبة إلى معسكر العدو، فاضعفوا قلوب الجنود الرومانيين وعرقلوا مسعاهم، وزادوا في عدد العدو وكانوا سبباً لظفر العرب وجدوا في أثر الرومانيين فأسروا كثيرين وقتلوا جموعاً منهم ولم يبقَ ليوستنيانس منجاة إلّا بالهزيمة، وبلغ المحل الذي كان قد اقام فيها قبيلة الصقالبة فقتلهم عن آخرهم ورمى جيفهم في البحر.

وكان في جملة شروط الصلح بين الملك يوستنيانس وعبد الملك أن يقتسما ما بينهما قسمة عادلة سوية خراج قبرص وارمينيا وايباريا، وقد صرح بذلك توافان (في المجلد المذكور صفحة ٧٣٨ في تاريخ سنة ٦٧٨) حيث قال: «ويقسم الملكان ما بينهما قسمة عادلة متوازية خراج قبرص وارمينيا وايباريا، فارسل يوستنيانس بولس ماجستريانس إلى عبد الملك للتوقيع على عهدة الصلح فوقع عليها بحضرة الشهود، وعاد ماجستريانس مكرماً إلى الملك وأبرز الملك أمراً بنقل اثني عشر الفاً من المردة من محلاتهم فعوّه بذلك سطوة الرومانيين. فإن جميع المدن الجبلية (وفي حواشي كوار في جميع المدن المتاخمة بدلاً من الجبلية) التي يسكنها العرب من المصيصة إلى ارمينيا الرابعة كانت واهنة القوة خالية من السكان، من جرى غزوات المردة الذين كبتهم بهذه الوسيلة فطمت، بذلك البلايا والمحن من كل نوع على املاك الرومانيين من ذلك اليوم إلى الآن».

وقد روى توافان في تاريخ سنة ٦٨٢ (صفحة ٧٤٢ من المجلد المذكور): «انه بلغ من حماقة يوستنيانس ان ينقض عهده على عبد الملك، وعزم أن ينقل سكان قبرص إلى محل آخر دون أن يكون لذلك داعٍ معقول وكان يطرح الاهلين

مكرهين في السفن، فغرق منهم جموع كثيرون وتولت الامراض كثيرين أيضاً وعاد من بقي منهم إلى قبرص. وعرف بذلك عبد الملك فأظهر التذلل له خاشعاً إليه أن لا ينقض عهد الموالاة بينهما، فظن يوستنيانس تذلله وخشوعه له مخافة من سطوته، ولم يفطن أنّ تلك مداهنة له كي لا ينكف عن كبت المردة وجلاء رجالهم الأشداء وقد أتم هذا الشرط بعداً». إلى أن يقول في تاريخ سنة ٦٨٣ م إنَّه كتب إلى العرب أنّه لم يعد في وسعه أن يعمل بشرائط الصلح التي وقع عليها، وزحف بجيشه مع الفرسان الصقالبة الذين كان قد جلاهم إلى الكبدوك وبنطس واستمرَّ العرب يظهرون التشبث بالعهدة واستحرامهم نقضها وهو يلح بايقاد نار الحرب، فتسعر لظاها ورفع العرب عهدة الصلح المكتوبة على صحيفة من نحاس على رأس رمح بمنزلة علم لهم (كما رأيت أيضاً في ما رويناه من كلام زوناراس) وتقهقر العرب أولاً وكان قائدهم اسمه محمد، فكاشف قائد أولئك الفرسان ثم رشاه فانحاز ومعه عشرون ألفاً إلى العرب، فارتاع الجنود الرومانيون وانهزموا وانتقم الملك من بقية قبيلة هؤلاء الصقالبة.

ثم توفي عبد الملك منتصف شوال سنة ٨٦هـ (سنة ٧٠٦ م أو سنة ٧٠٧ م) وكان قد استبدَّ بالخلافة بعد قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلّا سبع ليال. ومذ بويع بالشام إلى وفاته احدى وعشرين سنة، وكان عمره عند وفاته ستين سنة، وقيل ثلاثاً وستين. وأوصى بنيه فقال أوصيكم بتقوى الله فانها أزين حلية وأحصن كهف ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، ولا تدب بينكم العقارب، وكونوا للمعروف مناراً فإنَّ المعروف يبقى أجره وذخره وذكره، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقيلوا وإن عادوا فانتقموا (عن ابن الأثير في الكامل وابن خلدون في تاريخه).

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن السابع

قلَّ من كان من المشاهير الدنيويين بالعلم بسورية في هذا القرن، فكان عصر حرب وتقلُّص دولة واستحواذ أخرى، فقلَّ مَنْ يتفرَّغ فيه للعلم على أنَّه قد كان في سورية بعد الإسلام وفي العربية شعراء مجيدون نصارى ومسلمون فنجتزئ بذكر مشاهيرهم.

عد ٦٨٦
جرير الشاعر المشهور

قال ابن خلكان «هو أبو حرزة جرير بن عطية . . . بن مرَّة التميمي الشاعر المشهور كان من فحول شعراء الإسلام وكانت بينه وبين الفرزدق مهاجاة ونقائض، وهو أشعر من الفرزدق عند أكثر أهل العلم بهذا الشأن، واجتمعت العلماء على أنَّه ليس في شعراء الإسلام مثل ثلاثة جرير والفرزدق والأخطل» فجرير والفرزدق مسلمان والأخطل مسيحي، وكان جرير ابن عم الخليفة عبد الملك بن مروان كما يتبيَّن من قوله:

إنَّ الذي حرم المكارم تغلباً   جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم   يا خزر[1] تغلب من أب كابينا

---

(١) يا خزر جمع اخزر مثل احمر وحمر واصفر وصفر وهو الذي في عينه ضيق وصغر وهذا وصف العجم فكأنه نسبه إلى العجم واخرجه من العرب.

هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إليَّ قطينا[1]

ومن شعر جرير قصيدته لعبد الملك بن مروان يوم دخل عليه وأولها

أتصحو أم فؤادك غير صاحٍ ... عشية همَّ صحبك بالرواحِ
تقول العاذلات علاك شيبٌ ... أهذا الشيب يمنعني مزاحي

ومنها :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راحِ
سأشكر إن رددت إليَّ ريشي ... وأنبتَّ القوادم [2] في جناحي

قال جرير فلما انتهيت إلى هذا البيت كان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت، وأجازه بمائة ناقة وصحيفة من ذهب وقد ذكروا كثيراً من النقائض. والملح والنكت التي جرت بين جرير والفرزدق لا يسمح هذا المقام بسردها وربما استنبطها المتأخرون وعزوها إليهما. ولما مات الفرزدق وبلغ خبره جريراً بكى وقال أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء بعده . ولقد كان نجمنا واحداً وكل واحدٍ منا مشغول بصاحبه، وقلما مات ضد أو صديق ألا وتبعه صاحبه وكذلك كان. وتوفي الفرزدق سنة ١١٠ هـ (وهي سنة ٧٢٩ م) قال أبو الفرج ابن الجوزي كانت وفاة جرير في سنة ١١١ وكانت وفاته باليمامة وعمره نيف وثمانون سنة (ملخص عن كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان) .

عد ٦٨٧

الفرزدق الشاعر المشهور

هو همام بن غالب بن صعصعة إلى أن يتَّصل نسبه بمرَّة التميمي وكنيته أبو فراس ويعرف بالفرزدق وضبطه ابن خلكان بفتح الفاء والراء وسكون الزاي وفتح

(١) القطين الخدم والاتباع .
(٢) القوادم جمع قادمة وهي عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش والخوافي صغاره .

الدال وبعدها قاف، وهو لقب غلب على همام المذكور واختلف في تلقيبه به، فقال ابن قتيبة في كتابه في أدب الكاتب والفرزدق قطع العجين واحدتها فرزدقة، لقّب به لأنّه كان جهم الوجه فقد أصابه جدري فبقي وجهه جهماً متمغضناً. وقال في كتابه في طبقات الشعراء إنّما لقّب بالفرزدق لغلظه وقصره شبه بالقنينة وهي الفرزدقة، وقيل أنّه منحوت من فرز ودق لأنه رقيق قد أفرز منه قطعة. وقد قال فيه ابن خلكان في وفيات الأعيان أنّه كانت لأبيه غالب مناقب مشهورة ومحامد مأثورة ذكر منها عقره نوقه لقومه في زمان مجاعة. وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه فما جاء أحد واستجار به إلّا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه. ومما حكاه المبرد عنه أنّ عجوزاً جاءت إليه وقالت إني استجرت بقبر أبيك وأتت منه بحصيات، فقال ما شأنك فقالت إنّ تميم بن زيد خرج بابن لي معه ولا قرة لعيني ولا كاسب عليَّ غيره، فقال لها وما اسم ابنك فقالت خنيس فكتب إلى تميم:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر[1] فلا يعيا عليَّ جوابها
وهب لي خنيساً واحتسب فيه منة لعبرة أمٍ لا يسوغ شرابها [2]
أتتني فعاذت يا تميم بغالبٍ وبالحفرة السافي[3] عليَّ ترابها
وقد علم الأقوام أنّك ماجد وليث إذاً ما الحرب شب شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك في الاسم فلم يعرف اخنيس أم حبيش فسأل فوجد ستة رجال أسماؤهم ما بين خنيس وحبيش فوجه بالستة إليه. قال ابن خلكان اختلف أهل المعرفة بالشعر في الفرزدق وجرير والمفاضلة بينهما. والأكثرون على أنّ جريراً أشعر منه وكان بينهما من المهاجاة والمعاداة ما هو مشهور، وقد جمع لهما كتاب يسمى النقائض وهو من الكتب المشهورة.

ومن شعره قصيدة مدح بها زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولما سأله رجل من أهل الشام (وقيل إنّ السائل هشام بن عبد الملك وأنّه

(١) أي لا تنسها أو تجعلها وراء ظهرك.
(٢) أي لا يهنأ لها شراب ولا اكل وابنها بعيد عنها.
(٣) يريد المذري عليه أو المحمول إليه ترابها، وهو اشارة إلى ما أتته به العجوز من حصيات قبر أبيه.

سأل متجاهلاً) عند الطواف في الكعبة من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
يُنمى إلى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عربُ الإسلام والعجمُ

ومنها:

يغضي حياءً ويُغضى من مهابته فما يُكلِّم إلَّا حين يبتسمُ
ينشق نور الهدى من نور غرته كالشمس ينجاب عن إشراقها القتمُ

وهي طويلة وكانت زوجة الفرزدق ابنة عمه وهي النوار ابنة أعين بن ضبيعة وله معها أخبار ونوادر شرحها، وقد طلقها فندم على ذلك وله فيها أشعار منها قوله:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوارُ
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرارُ

وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هجرية (سنة ٧٢٩ م) وقيل سنة ١١١ أو سنة ١١٢ وقد قارب المائة.

عد ٦٨٨

الأخطل

وهو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ... إلى أسد وربيعة ونزار وهو من فحول الشعراء، وكان مسيحياً عاش في أيام الخلفاء في هذا القرن وبقي حياً في أوائل القرن الثامن كما يظهر من قصيدته التي مدح بها الوليد وبني أمية، وكان يزدلف إلى هؤلاء الخلفاء كما يظهر من قصيدته المذكورة، ومن قصيدته التي مدح فيها خالد بن يزيد بن معاوية ومطلعها:

رأيت قريشاً حين ميَّز بينها تباحث أضغانٍ وطعن أمورِ
علتها بحور من أمية ترتقي ذرى هضبة ما فرعها بقصيرِ

وقصيدته في مدح بني أمية ويخصّ بشر بن مروان ومطلعها

اقفرت البلخ من عيلان فالرحبُ   فالمجلبيات فالخابور فالشعبُ[1]
فأصبحوا لا ترى إلّا مساكنهم   كأنّهم من بقايا أمةٍ ذهبوا

وقصيدته في مدح عبدالله بن معاوية بن أبي سفيان ومطلعها:

صدع الخليط فشاقني أجواري   ونأوك بعد تقارب ومزار
وكأنما أنا شارب جادت له   بصرى بصافية الأديم عقار[2]

وكانت بينه وبين جرير الشاعر مهاجاة كما يظهر من قصيدته التي هجاه بها ومطلعها:

كذبتك عيناك أم رأيت بواسط[3]   غلس الظلام من الرباب[4] خيالا
وتعرضت لك بالأباطح بعد ما   قطعت بابرق[5] خلة ووصالا

وله قصيدتان في مدح يزيد بن معاوية وقصيدة مدح فيها عبد الملك بن مروان، فقال له لِمَ لا تسلم يا أخطل، قال إن أنت أحللت لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان اسلمت، فقال له عبد الملك إن أنت اسلمت ثم قصرت في شيء من الاسلام ضربت الذي فيه عنقك. فقال الأخطل شعره المشهور

ولست بصائم رمضان طوعاً   ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بقائم ابداً انادي   كمثل الغير حيَّ على الفلاحِ
ولكني ساشربها شمولاً   وأسجد عند منبلج الصباحِ

فقال له عبد الملك: وما بلغ منك الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا شربتها فالموت أهون عليّ من شسع نعلي. فقال قل فيه شعراً وإلّا ضربت عنقك فقال الأخطل.

---

(١) كلها اعلام اماكن في الجزيرة والعراق والخابور نهر في الجزيرة.
(٢) الخمر السريعة الاخذ.
(٣) اسم مدينة في الجزيرة.
(٤) اسم امرأة .
(٥) اسم مكان.

إذا ما نديمي علني ثم علّني　　ثلاث زجاجات لهن هديرُ
جعلت اجرّ الذيل مني كأنني　　عليك امير المؤمنين اميرُ

وقد عيره جرير بذلك في قصيدة فردّ عليه الأخطل فقال

تعيرني شراب الشيخ كسرى　　ويشرب قومك العجب العجيبا

وذكره بقصة متناهية بالفحش والسفالة وقال ان هذا احق من المدامة بأن تعيبه.

وقد طبع الأب انطون صالحاني اليسوعي ديوان الأخطل في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٩١م، وعلق عليه حواشي آخذاً اشعار الأخطل عن نسخة لها نسخها المرحوم رزق الله حسّون في ١٠ تموز سنة ١٨٦٧م في بطرسبورغ عن الأصل المحفوظ في خزانة كتبها الملكية.

عد ٦٨٩
زهير بن أبي سلمى المزني

وكان شعراء النصرانية في هذا القرن بالعربية كثيرين نخص بالذكر منهم زهير بن أبي سلمى المزني ، والنابغة الذبياني ، وعنترة العبسي ، ونروي تراجمهم عن الكتاب الموسوم بشعراء النصرانية الذي جمع الأب لويس شيخو اليسوعي تراجمهم فيه عن كتاب الأغاني، وكتاب شرح المعلقات للتبريزي، وكتاب العقد الفريد وخمسة دواوين العرب ، وكتاب طبقات الشعراء وغيرها.

أما زهير فهو ابن ابي سلمى واسم ابي سلمى ربيعة بن رباح المزني (ويروى رياح بالياء) بن قرة بن الحارث إلى مضر بن نزار من قبيلة مزنية، وهو احد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء وهم: امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني ولا اختلاف فيهم وانما الخلاف في تقديم احد الثلاثة على صاحبيه. واخبر احمد بن عبد العزيز الجوهري أن عُمر بن الخطاب دعا ابن العباس وقال هل تروي لشاعر الشعراء. قال ومن هو. قال : الذي يقول :

ولو ان حمدًا يخلد الناس اخلدوا　　ولكن حمد الناس ليس بمخلدِ

فقال ابن عباس ذاك زهير فقال عمر ذاك اشعر الشعراء فقال ابن العباس وبمَ كان كذلك. فقال لأنه كان لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشيّ الشعر ولم يمدح احداً إلّا بما فيه. وقال ابن سلام اخبرني ابو قيس العنبري أنه قال لأبيه من اشعر الناس فقال إذا ذكرت الجاهلية فزهير اشعر أهلها، وإذا ذكر الاسلام فالفرزدق نبعة الشعر. وسأل معاوية الأحنف بن قيس عن اشعر الشعراء فقال زهير ومن قصيدته في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف من بني مرة قوله:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا ابا لك يسأمِ
واعلم ما في اليوم والامس قبله ... ولكنني عن علم ما في غدٍ عمِ
رأيت المنايا خبط عشواءَ من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمرَّ فيهرمِ
ومن هاب اسباب المنايا ينلنه ... ولو رام اسباب السماء بسلمِ
ومن يجعل المعروف في غير اهله ... يكن حمده ذماً عليه ويندمِ
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ... ومن لا يكرّم نفسه لا يكرَّمِ

وله قصائد كثيرة في هرم المذكور وكان هرم يجزل عطاياه له. واخبر الجوهري والمهلبي. قال عمر لابن زهير ما فعلت الحلّل التي كساها هرم اباك، قال ابلاها الدهر. قال لكن الحلّل التي كساها ابوك هرماً لم يُبلها الدهر.

وقد ذكر الهيثم بن عدي ان عائشة خاطبت بهذه المقالة بعض بنات زهير وربما انتحل عمر وعائشة هذه المقالة عن قوله

وانك ان اعطيتني ثمن الغنى ... حمدت الذي اعطيه من ثمن الشكرِ
وان يبقَ ما تعطيه في اليوم او غدٍ ... فان الذي اعطيك يبقى على الدهرِ

وقال ابن الاعرابي كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، وكان ابوه شاعراً وخالهُ شاعراً واخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، واخته الخنساء شاعرة. واخبر ابو خليفة عن محمد بن سلام قال من قدّم زهيراً احتج بأنه كان احسنهم شعراً وابعدهم من سخفٍ واجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ واشدهم مبالغة في المدح واكثرهم امثالاً في شعره. من ذلك قوله من قصيدة يمدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر.

اخي ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يهلك المالُ نائله[1]
تـراهُ إذا مـا جئـتـه متـهـلـلاً كأنك تعطيه الذي انت سائله
وذو نسـبٍ نـاءٍ عـليٍّ وصيتـه بعيد وما يدري بانك واصله

ومن أقواله

الـود لا يـخـفـى وان اخـفـيـتـه والـبـغـض تـبـديـه لـك الـعـيـنـان

ولم نرَ من ذكر سنة مولده وسنة وفاته، والظاهر من القرائن أنه كان في اوائل هذا القرن السابع.

عد ٦٩٠

النابغة الذبياني

هو زياد بن معاوية بن ضباب إلى ذبيان وإلى قيس عيلان بن مضر ويكنى ابا امامة، ولقب بالنابغة لأنه قال كثيراً من الشعر أو لقوله:

وحلت في بني القَين بن جسر فـقـد نبغـت لـهـم مـنـا شؤونُ

وهو من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء، واما زمانه فقد ذكر الأب لويس شيخو الذي جمع الكتاب المذكور سنة ٦٠٤م واظنها سنة وفاته. ومهما يكن فالظاهر من انه كان من ندماء النعمان ملك الحيرة وأهل انسه، ومن قصائده له ومن هربه إلى ملوك غسان بالشام ومدحه لهم في قصائده أنه كان في اوائل القرن السابع قبل الاسلام، فإنّ هؤلاء لم يبقوا على مجدهم بعده وربما أدرك الاسلام. وقد رووا أنّ عَمر بن الخطاب سأل معشر غطفان من الذي يقول:

اتـيـتـك عـاريـاً خـلـقـاً ثـيـابـي على خوفٍ تظن به الظنون؟

قالوا النابغة قال ذاك اشعر شعرائكم. وعن الشعبي قال عمر من اشعر الناس، قالوا انت اعلم يا امير المؤمنين. قال من الذي يقول:

---

(١) النائل: العطا. فيقول انه لا يتلف ماله بشرب الخمر بل يتلفه بالعطا.

الا سليمان إذ قال الاله له قم في البرية فأحددها عن الفندِ(١)
وخبر الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا النابغة. قال فهو اشعر العرب. وكان يضرب له قبة من ادم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها. وأول من أنشده الأعشى، ثم حسّان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ثم أنشدته خنساء بنت عمرو بن الشريد. ومن شعره قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الأصغر من امراء غسان بالشام ومطلعها

كليني لهم يا اميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب(٢)
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجوم بآئب(٣)

ومنها قوله المشهور

عليّ لعمر نعمة بعد نعمةٍ لوالده ليست بذات عقاربِ(٤)

ومنها أيضاً

لهم شيمة لم يعطِها الله غيرهم من الجود والاحلام غير عوازب(٥)
محلتّهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقبِ(٦)

---

(١) الكفر بالنعمة ويروى عن العند.

(٢) يقول دعيني وهمي المتعب وليلي البطيئة كواكبه فلا تغيب ولا ينقضي الليل.

(٣) الذي اراه ان آئب هنا ليست من آب بمعنى رجع من سفره أو ورد الماء ليلاً، بل من قولهم آب بيده إلى سيفه ليستله، وإلى سهمه ليرمي به، وإلى فرسه لينزع به (اس البلاغة) فكأنه يقول تطاول ليلي حتى خلته ليس بمنقض ومن يرعى النجوم ليس له ان يؤوب بيده إلى سيفه ليستله، أو إلى سهمه ليرمي به، أو إلى فرسه لينزع به. والذي قال به كثيرون ان المعنى هو ان من يرعى النجوم لا يعود عند المساء كما يعود من يرعى الابل.

(٤) يريد ان نعمته ونعمة والده لا يكدرهما منٌّ ولا اذى بل هي هنيئة سهلة.

(٥) ارى ان الاحلام يريد بها الاناة والرصانة ويقول انها غير عواذب، أي لا ينكفون عنها أو لا تبعد عنهم.

(٦) محلتهم مسكنهم وذات الاله يعني بيت المقدس وناحية الشام ويروي مجلتهم. قال في اللسان مجلتهم في قول النابغة بمعنى الانجيل لانهم كانوا نصارى، ومن روى محلتهم بالحاء اراد الارض المقدسة.

وله في النعمان احد ملوك الحيرة قصائد كثيرة، يمدحه في بعضها ويعتذر إليه في غيرها، ويزدلف إليه بعد أن يتغير عليه.

ومن أقواله في الحكم:

واستبق ودك للصديق ولا تكن   قتباً يعض بغارب ملحاحا[1]
فالرفق يمنٌ والاناة سعادة   فتأنّ في رفق ينلك نجاحا
واليأس مما فات يعقب راحة   ولربّ مطعمة تعود ذباحا

وله أيضاً

المرء يأمل أن يعيش م   وطول عيش قد يضرّهْ
تفنى بشاشته ويبقى م   بعد حلو العيش مرّه
وتخونه الايام حتى م   لا يرى شيئاً يسرّهْ
كم شامتٍ بي ان هلكت م   وقائلٍ لله دَرُّهْ

وله في توبيخ نفسه:

تعصي الإله وانت تظهر حبهُ   هذا لعمرك في المقال بديعُ
لو كنت تصدق حبهُ لأطعتهُ   ان المحب لمن يحب مطيعُ

عد ٦٩١
عنترة العبسي

المشهور أنَّه عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية إلى عيلان ومضر. ويلقب بعنترة الفلحاء لتشقق شفتيه، وكانت أمه حبشية يقال لها زبيبة، وكان لها وُلْد من زوج غير شداد فكانوا اخوته لأمه، وكان شداد نفى عنترة مرة من بنوته، ثم

(١) القتب سنام البعير والملحاح الذي يعقر ظهره فيجعله يلح بسيره شبه الصديق الذي يؤذي صديقه بالقتب الملحاح.

اعترف به وكانت العرب تستعبد بني الاماء فان أنجب اعترفت به وإلَّا بقي عبداً. وكان عنترة قبل أن يعترف به أبوه قد حرشت عليه امرأة أبيه، وقالت أنَّه يراودني عن نفسي فغضب أبوه لذلك غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً، واستل سيفه ليبسله فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه. ولما رأت ما به من الجراح بكت وكان اسمها سمية أو سهية فقال عنترة:

أمن سمية دمع العين مذروف | أم منكِ ذلك قبل اليوم معروفُ
كأنها يوم صدت ما تكلمني | ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروفُ
تجللتني إذ أهوى العصا قبلي | كأنها صنم يعتاد معكوفُ
المال ما لكم والعبد عبدكم | فهل عذابك عني اليوم مصروفُ

وقالوا في اعتراف أبيه به. كان بنو طي قد أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم وقتلوا انفاراً من الحي وسبوا نساءً، وكان عنترة معتزلاً عنهم في ناحية في ابله على فرس له، فمر به أبوه وقال ويك يا عنترة كرْ فقال العبد لا يحسن الكرَّ وإنَّما يحسن الحلب والصر. فقال أبوه كرَّ وأنت حرّ فكرَّ وحده وهبت في أثره رجال عبس فهزم الأعداء واستنفذ الغنيمة وقال في ذلك:

عقاب الهجر أعقب لي الوصالا | وصدق الصبر أظهر لي المحالا
عتبت الدهر كيف يذلّ مثلي | ولي عزم أقدُّ به الجبالا
أنا الرجل الذي خبرت عنه | وقد عاينت من خبري فعالا
غداة أتت بنو طي وكلب | تهز بكفها السمر الطوالا

إلى أن يقول:

صدمت الجيش حتى كلَّ مهري | وعدت فما وجدت لهم ظلالا
وراحت خيلهم من وجه سيفي | خفافاً بعد ما كانت ثقالا
تدوس على الفوارس وهي تعدو | وقد أخذت جماجمهم نعالا

ولما كانت أمَّه حبشية كان أسود اللون وكثيراً ما عرض بذكر ذلك في أشعاره منها قوله:

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني　　وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني　　كبعد الأرض من جو السماء

ومنها قوله :

وإن كان جلدي يرى أسوداً　　فلي في المكارم عزٌّ ورتبه
ولو صلَّت العرب يوم الوغى　　لأبطالها كنت للعرب كعبه
ولو انَّ للموت شخصاً يرى　　لصلت عليه وأكثرت رعبه

وقد خطب عبلة بنت مالك نسيبته فتراه يذكرها ذكراً متواتراً في أشعاره من ذلك قوله في مطلع قصيدته التي أخذنا منها الأبيات السالف ذكرها

ترى هذه ريح أرض الشرَّبة　　أم المسك هب مع الريح هبه
ومن دار عبلة نار بدت　　أم البرق سل من الغيم غضبه
أعبلة قد زاد شوقي وما　　أرى الدهر يدني إليَّ الأحبه
وكم جهد نائبة قد لقيت　م　لأجلك يا بنت عمي ونكبه
فلو انَّ عينيك يوم اللقا　　ترى موقفي زدتِ لي في المحبة

وقال في قصيدته لما أخذ أسيراً في حرب كانت بين العرب والفرس وكانت عبلة من جملة السبايا :

فخر الرجال سلاسل وقيود　　وكذا النساء مخانق وعقود

إلى أن يقول :

فالقتل لي من بعد عبلة راحة　　والعيش بعد فراقها منكود
يا عبلَ قد دنت المنية فاندبي　　إن كان جفنك بالدموع يجود
يا عبلَ ان تبكي عليَّ فقد بكى　　صرف الزمان عليَّ وهو حسود
يا عبلَ إن سفكوا دمي ففعائلي　　في كل يوم ذكرهنَّ جديد
لهفي عليكِ إذا بقيتِ سبية　　تدعين عنتر وهو عنك بعيد

ومعلقته من المعلقات المشهورة ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدارَ بعد توهم

أعياك رسم الدار لم يتكلمِ حتى تكلَّم كالأصم الأعجمِ

وقد رأيت أنَّ عنترة كان رقيق الشعر لا يأخذ مأخذ الجاهلية في ضخامة الألفاظ وخشونة المعاني. وأما زمانه فالأظهر أنَّه اشتهر في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع وقد أرخه الأب شيخو في كتابه الذي نأخذ عنه بسنة ٦١٥م وأظنها سنة وفاته. فلا ذكر في أشعاره للإسلام بل له قصائد في مديح كسرى أنوشروان، وذكر وقائع للعرب غير المسلمين مع الفرس، فلم يدرك الإسلام على ما أظن.

قيل ونشأ في مصر من أفاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل وكان يتَّصل بباب العزيز في القاهرة، فاتَّفق أن حدثت ريبة في دار العزيز لهجت الناس فيها، فساء ذلك العزيز وأشار إلى الشيخ يوسف أن يطرف الناس مما يشغلهم عن هذا الحديث، فأخذ يكتب قصة لعنترة ويوزعها على الناس، فأعجبوا بها وأشغلوا بها عما سواها، وقسمها إلى اثنين وسبعين كتاباً، والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذي يشتاق القارئ إلى الوقوف على نهايته فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه إلى نهاية القصة. وقد أثبت في هذه الكتب ما رواه الرواة عن عنترة غير أنَّه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها بما وقع فيها من الخطأ المكرر بتكرار النسخ

وكان في هذا القرن من شعراء النصرانية الأسود بن يعفر ويقال إنَّه كان سنة ٦٠٠م، وسلامة بن جندل ويقال أنَّه كان سنة ٦٠٨، واياس بن قبيصة سنة ٦١٢، واوس بن حجر سنة ٦٢٠، وعلقمة الفحل سنة ٦٢٥م وذو الأصبع العدواني سنة ٦٠٢، والحصين بن حُمام سنة ٦٢٣، وكعب بن سعد الغنوي سنة ٦١٧م، ودريد بن الصمة سنة ٦٠٣م، وعروة بن الورد سنة ٦١٦م، ويزيد بن عبد المدن سنة ٦١٦م أيضاً، وأمية بن أبي الصلت سنة ٦٢٤م، وقيس بن زهير سنة ٦٣٢م. روينا هذه التواريخ عن مجموعة الأب لويس شيخو اليسوعي في شعراء النصرانية، ولا يتاح لنا البحث عن صحة كل تاريخ منها وإن صحَّ ذلك كان هؤلاء الشعراء يعاصر بعضهم بعضاً، وكان عصرهم عصر الذهب للعربية.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع

الفصل الأوَّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ٦٩٢

بطاركة أنطاكية في القرن السابع

أنهينا الكلام في بطاركة أنطاكية في القرن السادس بذكر أنسطاس الثاني ووفاته سنة ٦٠٩ أو سنة ٦١٠م، وقد خلا كرسي أنطاكية من بطريرك بعد ذلك اثنتين وعشرين أو ثماني وعشرين أو ثلاثين سنة (على اختلاف الروايات)، وزعم بعضهم أنَّه أقيم بعد ذلك بطريرك لأنطاكية يسمى أثناسيوس، ولكن تردد لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) في صحة هذا الزعم قائلاً روى توافان في تاريخ سنة ٦٢٩م ان اثناسيوس بطريرك اليعاقبة حدثه الملك هرقل في شأن التسليم بالمجمع الخلكيدوني، ووعده بأنَّه يصيره بطريركاً على أنطاكية إن أذعن له. فسأل الملك إذا سلمنا بطبيعتين في المسيح فهل يلزمنا أن نعتقد أنَّ فيه مشيئتين وفعلين أو مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فاستشار الملك سرجيوس بطريرك قسطنطينية وقورش الذي صار بعداً بطريركاً على اسكندرية فقالا مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فنشأت من ذلك بدعة المشيئة الواحدة. على أنَّ كمبيفيسيوس عدَّ هذه المحادثة بين الملك واثناسيوس من الأقاصيص، ولم نجد من قال إنَّ اثناسيوس صير بطريركاً على

أنطاكية غير توافان في روايته المذكورة وقد عثر على رسالة لراهب كان في ذلك العصر يتبين منها أنَّ أهل أنطاكية سمعوا بأنَّ أثناسيوس يرغب في أن يكون بطريركاً عليهم فساءهم هذا الخبر. لكن كلَّ هذا لا يثبت أنَّه صير بطريركاً فيبقى هذا الخبر مشكوكاً في صحته. انتهى كلام لكويان ملخصاً.

ولكن روى شدرانس في تاريخ سنة ٢٠ لهرقل هذا الخبر كما رواه توافان وذكره كثيرون في تاريخ بدعة المونوتيليتيين (القائلين بمشيئة واحدة في المسيح)، فيرجح خبر محادثة هرقل الملك واثناسيوس بطريرك اليعاقبة كما رواه توافان وشدرانس، وأما إقامة اثناسيوس بطريركاً على سكان بطريركية أنطاكية فلا يبرح مشكوكاً فيه. فلا ريبة في أنَّه كان بطريركاً على اليعاقبة وبطاركتهم ينتسبون إلى أنطاكية، وقد ذكره العلامة السمعاني (مجلَّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٤، وروى عن ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة انه صير بطريركاً عليهم سنة ٦٠٤م إلى سنة ٦٤٤م، ورد قول باجيوس أنَّه لم يكن بطريركاً عليهم، ثم ذكره في صفحة ٥٠٧ في جملة مبدعي بدعة المشيئة الواحدة. وذكره ابن العبري في تاريخه على أنَّه السادس بين بطاركة اليعاقبة بعد انفصالهم. وكل ذلك يثبت أنَّه كان بطريركاً أنطاكياً على اليعاقبة، ولكنه لا يثبت أنَّه صار بطريركاً عاماً على سكان بطريركية أنطاكية.

ونحو سنة ٦٤٠م أقيم مكدونيوس بطريركاً على كرسي أنطاكية، وكان مونوتيليتياً وقد اختاره سرجيوس بطريرك قسطنطينية وهو الذي رقاه إلى هذه المرتبة. ويظهر أنه كان حياً لما عقد البابا مرتينس مجمع لاتران سنة ٦٤٩م لأننا نرى هذا البابا كتب حينئذٍ رسالة إلى يوحنا أسقف فيلادلفيا (وهي عمان) ببلاد العرب يهدد مكدونيوس ويبين أنه اختلس البطريركية، وأنّ الكنيسة لا تعرفه أسقفاً. وقد جعل البابا مرتينس يوحنا هذا نائباً له في بطريركيتي انطاكية وأورشليم ليتدارك شؤونهما ويقيهما امتداد بدعة المشيئة الواحدة فيهما، وهو الذي رقّى يوحنا مارون إلى أسقفية البترون كما سيجيء. ويظهر من رسالة كتبها مكاريوس خليفة مكدونيوس أنّ مكدونيوس استمر حياً في أيام بطرس بطريرك قسطنطينية وشهد مجمعه الذي نبذ فيه التعليم الكاثوليكي أنّ في المسيح مشيئتين، فإنّ مكاريوس قال في هذه الرسالة «بطرس الكلّي القداسة البطريرك المسكوني وسالف حقارتي مكدونيوس السعيد الذكر» وبطرس رقي إلى بطريركية قسطنطينية سنة ٦٥٥م واستمر فيها إلى سنة ٦٦٦م. وعليه فمكدونيوس بقي حياً إلى سنة ٦٥٥م. وهذا يبين خطأ سعيد بن

بطريق البطريرك الاسكندري إذ زعم أنّ مكدونيوس صير بطريركاً سنة ٦٤٠م، واقام في البطريركية ثماني سنين أو تسعاً، وقد لزم مكدونيوس وخلفاؤه الاقامة في قسطنطينية ولم يقيموا في انطاكية خشية من سطو العرب.

قد روى سعيد بن بطريق أنّ جيورجيوس خلف مكدونيوس بعد وفاته وكان مونوتيليتياً ورقي في قسطنطينية، واستمر فيها خمس سنين ولم يأتِ إلى انطاكية ومات في قسطنطينية ودفن فيها، وأنّ خلافته لمكدونيوس كانت في السنة الثالثة لخلافة عثمان. على أنّ هذه السنة توافق سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ للميلاد، وقد كان مكدونيوس حياً في تلك السنة بموجب اقرار ابن بطريق نفسه كما رأيت آنفاً فهذا من اغلاطه ومناقضاته لنفسه وسترى كثيراً من أمثال ذلك. ولم يذكر بعضهم جيورجيوس بين بطاركة انطاكية في هذا القرن.

وخلف مكاريوس مكدونيوس (أو جيورجيوس ان ثبت أنه كان بطريركاً). وقال فيه سعيد بن بطريق: «في السنة العاشرة لعثمان (وهي سنة ٦٥٥ أو سنة ٦٥٦م) صير مكاريوس بطريركاً انطاكياً، ورقي في قسطنطينية واقام فيها ثماني سنين، لم يأتِ إلى انطاكية بل مات في قسطنطينية ودفن فيها». وهذا من اغلاط ابن بطريق الفاحشة، فإن كان مكاريوس قد صير بطريركاً سنة ٦٥٦م ومات بعد ثماني سنين فتكون وفاته سنة ٦٦٤م وقد أجمع ثقاة المؤرخين على أنّ مكاريوس بقي حياً سنة ٦٨٠ وسنة ٦٨١م اللتين كان فيهما المجمع السادس المسكوني وشهد هذا المجمع، وحُرم فيه لاصراره، وخلع من اسقفيته، وارسل بأمر الملك إلى روما ومات فيها مصراً على غيه. ويظهر من رسالة الملك قسطنطين اللحياني إلى البابا دونس (أو دمنس) المثبتة في صدر المجمع السادس أنّ مكاريوس كان في قسطنطينية سنة ٦٧٨م. فكيف يتفق كل ذلك مع زعم ابن البطريق أنّ مكاريوس توفي سنة ٦٦٤م.

وقد أقام المجمع السادس توافان بطريركاً على انطاكية بعد عزله مكاريوس المذكور، وانتخبه من كان من الاكليروس الانطاكي حينئذٍ في قسطنطينية، وشهد توافان المجلس الرابع عشر من هذا المجمع كما يتبين منه، ووقع على باقي أعماله كما يظهر من المجلس الأخير، وهو الثامن عشر. وقد حقق البطريرك اسطفانس الدويهي (في تاريخ الموارنة) والسمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١) أنّ توافان

خرمته المنية في سنة ٦٨٥، فأقام الموارنة حينئذٍ القديس يوحنا مارون بطريركاً عليهم كما سترى في الملحق المعلق على آخر هذا الباب.

قال السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٢) روى انسطاس المكتبي أنّ البابا قونون أقام قسطنطين شماس كنيسة سيراكوزا على كرسي انطاكية دون أن ينتخبه اكليروس هذه الكنيسة، لكنه عرف بعد ذلك أنه رجل سيء السيرة والسريرة محب للخصام فقبض عليه عمال الملك بأمر هذا البابا واودعوه السجن، ولهذا لم يحصه أحد من المؤرخين الشرقيين في عداد بطاركة انطاكية. وروى انسطاس أيضاً أنّ توادورس بطريرك قسطنطينية أقام في البطريركية ثلاث سنين وكان معاصراً لاسكندر بطريرك انطاكية، على أنّ اسكندر هذا لم يتحقق أنه كان بطريركاً ولم يذكره سعيد بن بطريق بل قال في جملة ترهاته البسابس أنّ توما صير بطريركاً على انطاكية واستمر في البطريركية عشرين سنة، وقام بعده جيورجيوس الثاني في السنة الأولى لخلافة مروان عبد الملك إلى سنة ٦٨٤م. فمروان بن الحكم بويع بالخلافة ولم يستمر فيها إلّا تسعة اشهر وتوفي في رمضان سنة ٦٥هـ وهي سنة ٦٨٤م فبويع ابنه عبد الملك بالخلافة بعد وفاته كما رأيت (في عد ٦٨٤ و ٦٨٥)وقد رأيت آنفاً أنّ مكاريوس بقي على بطريركية انطاكية إلى أن عزله المجمع السادس سنة ٦٨١م وأقام مكانه توافان فاستمر إلى سنة ٦٨٥م. فمن أين أتى ابن بطريق بتوما وفي أي زمان كان بطريركاً. على أنّ جيورجيوس الذي ذكره بعد توما وردت اشارة إليه في أعمال المجمع السادس. ولكن قال لكويان في المشرق المسيحي (في بطاركة انطاكية) يظهر أنّ الألفاظ المتضمنة هذه الاشارة زيدت على أعمال هذا المجمع بعد انحلاله من يد كاتب آخر، وقد ارتأى كثيرون انه أخذها عن التواقيع الملحقة بأعمال مجمع قصر الملك الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٩١م. والحاصل أنّ هؤلاء البطاركة يمترى في بطريركتهم ولا يمكن القطع بها. ومما لا يعروه ريب أنّ انطاكية بعد أن افتتحها المسلمون سنة ٦٣٧م لم يجلس فيها بطريرك إلى سنة ٧٤٢م بل كان بطاركتها يقيمون في قسطنطينية. وفي مدة الاربعين أو الخمسين سنة الأخيرة لم يقم لها بطريرك قطعاً. فقد روى توافان في تاريخ السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤٣م، ان كنيسة انطاكية لم يقم فيها راعٍ مدة اربعين سنة، وأنّ الخليفة حينئذٍ اطلق لهم أن يختاروا بطريركاً راهباً اسمه اسطفانس كان يعزه ويجله. وروى

توافيلكتس إنّ كرسي انطاكية استمر خمسين سنة خالياً من بطريرك، وتابعه على ذلك ادوارد برنردس في سلسلة بطاركة انطاكية.

إنّ كل ما مرّ في هذا العدد اعتمدنا فيه على لكويان في كتابه الموسوم بالمشرق المسيحي ملخصاً مع زيادة عليه وشرح له من كلام العلامة السمعاني وغيره.

عد ٦٩٣

بطاركة أورشليم في القرن السابع

قد مرّ في الباب السابق أنّ عاموص كان بطريركاً على أورشليم وتوفاه الله سنة ٦٠٠ أو سنة ٦٠١م، فخلفه اسحق واستمر في البطريركية ثماني سنين على ما روى نيكوفور وتوافان. وجاءَ في الكرونيكون الاسكندري أنه توفي في السنة السابعة لفوقا وهي سنة ٦٠٩م، وقد كتب عند ارتقائه إلى الكرسي الاورشليمي إلى القديس غريغوريوس الكبير الحبر الروماني، فأجابه برسالة مثبتة في رسائله في تاريخ سنة ٦٠١م يطري ايمانه القويم ويحضه على نبذ بعض العادات السيئة منها أخذ شيء من المال ممن يرقون إلى الدرجات المقدسة.

وخلف زكريا اسحق المذكور في السنة السابعة لفوقا وهي سنة ٦٠٩م على ما روى توافان وانسطاس المكتبي وكان خازناً للآنية المقدسة في كنيسة قسطنطينية. وفي السنة السادسة لبطريركيته غزا كسرى ملك الفرس سورية وافتتح أورشليم وقبض على المسيحيين وباعهم لليهود بابخس الأثمان، فاماتوا كثيرين منهم بأنواع من التعذيب، وأخذ البطريرك زكريا وخشبة الصليب إلى فارس وقتل كثيرين من الرهبان والراهبات كما جاءَ في التاريخ الاسكندري وتاريخ توافان للسنة الخامسة لهرقل. واشتهر حينئذٍ القديس يوحنا الرحوم بطريرك اسكندرية بصدقاته على السوريين الذين فروا إلى مصر كما مرّ وروى بارونيوس في تاريخ سنة ٦٢٧م أنّ كسرى على كفره أجلّ خشبة الصليب المقدس ولم يفتح الصوان الذي كانت الخشبة فيه لينظر إليها، ووضع الصوان في أحد هياكلهم كما كان في أورشليم. وقد أثبت ذلك مودست خليفة زكريا وسويدا وغيرهما. وتتالت ضربات الله على الفرس وكسرى ملكهم وقد انتصر عليه هرقل الملك وثار عليه أكبر ابنائه المسمى شيرويه وملك مكانه، وصالح هرقل وخلى سبيل الأسرى الرومانيين وزكريا بطريرك

أورشليم ورد خشبة الصليب المقدس كما يظهر من رسالة هرقل الملك التي أثبتها باجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٢٧م، وأتى هرقل بخشبة الصليب إلى أورشليم سنة ٦٢٩م أو سنة ٦٢٨م على رواية بارونيوس، وأعادها إلى مكانها بكل احتفاء واجلال، وطرد اليهود من أورشليم. وجاءَ في صلوات الفرض الروماني في ١٤ ايلول أنّ هرقل كان حاملاً هذه الذخيرة الثمينة وهو رافل بحلل مرصعة بالذهب والجواهر، ولما انتهى إلى مدخل جبل الجلجلة نبهه زكريا البطريرك أن يخلع تلك الحلل لأنَّ المخلِّص وطئ تلك الأرض حاملاً تلك الخشبة مهاناً، فأطاعه وبقي ما حيي مكتفئاً بملبس غير ثمين. ولم يعش زكريا بعد ذلك طويلاً، فقد روى توافان أنَّ مدة بطريركيته ٢٢ من سنة ٦٠٩م إلى سنة ٦٣١م، وقال بعضهم أنَّ وفاته كانت سنة ٦٣٣م ويعيد له في ميناون الروم في ٢١ من شباط.

وخلف مودست زكريا وكان زكريا قد أقامه مقامه عند نفيه سنة ٦١٥م، وكان رئيساً لدير القديس توادوسيوس في فلسطين، ورقى إلى الأسقفية في حياة زكريا وعنى بعد خراب أورشليم بتجديد كنيسة القيامة وغيرها كما مرَّ، وبإغاثة المصابين وانقاذ الرهبان من اضطهاد اليهود على ما روى أنطيوخس الراهب في رسالة أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ٦١٦م، وعمَّد أنسطاس أحد جنود الفرس الذي تنصَّر ومات شهيداً سنة ٦٢٨م، إذ أذاقه كسرى اعذبة مبرحة في قيصرية فلسطين، كما روى بارونيوس في تاريخ سنة ٦٢٨م عن ترجمة له يظن أنَّه كتبها أنطيوخس الراهب المذكور أو القديس صفرونيوس خليفة مودست في بطريركية أورشليم. ولما توفي زكريا سنة ٦٣١م أو سنة ٦٣٣م خلفه مودست بصفة بطريرك على أورشليم وذكروا أنَّه لم يقم في البطريركية إلَّا سنة على رواية نيكوفور أو سنتين على ما روى توافان. وقال سعيد بن بطريق أنَّه لم يستمر على البطريركية إلَّا تسعة أشهر، وإنَّ كرسي أورشليم خلا بعد ذلك ست سنين من بطريرك، وهذا من أغلاطه الكبيرة. فقد أجمع المؤرخون على أنَّ صفرونيوس خليفة مودست رقي إلى البطريركية سنة ٦٣٤م فأين الست السنين؟.

وخلف صفرونيوس مودست سنة ٦٣٤م وكان على ما روى لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة أورشليم) من دمشق، واسم أبيه بلنتاس واسم أمه ميرو. وجاء في سنكساري طائفتنا أنَّه ولد في دمشق وتربى في بسره أو بشري بجبل لبنان، وكان شديد الرغبة في العلوم وقد أدرك منها شأواً بعيداً، ثم آثر السيرة

الرهبانية، ويظن أنَّه مؤلف الكتاب الموسوم بالبستان الروحي مع يوحنا مسكس الآتي ذكره، وقد أشار إلى ذلك القديس يوحنا الدمشقي في آخر كتابه في الصور، وآخى صفرونيوس يوحنا موسكس في مصر وعاونا كثيراً القديس يوحنا الرحوم البطريرك الإسكندري في مناضلة الهراطقة والتصدق على الفقراء، وزارا معاً أديار المشرق وتوطنا في دير القديس توادوسيوس في فلسطين، ثم انطلقا إلى قبرص ومنها إلى رومة، فمات فيها موسكس وعاد صفرونيوس إلى ديره في فلسطين، وعكف على تأليف الكتب ومنها كتابه في ترجمة مريم المصرية وتهذيب الفروض البيعية. وعزا إليه باجيوس مجموع تراجم القديسين، فاستعمل أولاً في كنيسة أورشليم ثم عم استعماله في سائر الكنائس. وجدَّ صفرونيوس بمناصبة بدعة المونوتيليتيين مذ حداثة نشأتها، وشهد بنفسه المجمع الذي عقده قورش بطريرك اسكندرية في هذه المدينة سنة ٦٣٣م لنشر هذه البدعة. وناضل فيه عن الإيمان الكاثوليكي مناضلة الأبطال، وكان حينئذٍ راهباً كما يتبين من رسالة سرجيوس بطريرك قسطنطينية إلى البابا انوريوس التي ذكرها بارونيوس في تاريخ سنة ٦٣٣م، ثم مضى صفرونيوس إلى قسطنطينية طامعاً في أن يبعث سرجيوس بطريركها على مخالفة قورش بطريرك اسكندرية في بدعة المشيئة الواحدة، فلم ينجح فيه كلامه السديد وحججه الدامغة فعاد إلى أورشليم وتوفي حينئذٍ مودست بطريركها، فاختير صفرونيوس خلفاً له سنة ٦٣٤ أو سنة ٦٣٥م ولم يبطئ أن عقد مجمعاً في أورشليم وحرم فيه بدعة المشيئة الواحدة ومن تشبث بها، وأرسل أعمال هذا المجمع ورسالة مجمعية إلى البابا انوريوس وإلى بطاركة المشرق، وقد تليت هذه الأعمال والرسالة في المجمع السادس المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٨٠م.

وقد حفت الأخطار والأهوال بسكان سورية كلها في مدة بطريركية صفرونيوس، فان المسلمين هزموا وقتئذٍ جنود الرومانيين من سورية واستحوذوا عليها. ولما حاصروا أورشليم سنة ٦٣٦م ورأى صفرونيوس أنَّ لا مناص من فتحها أشار على سكانها أن يستسلموا على يد الخليفة عمر بن الخطاب لما كان يعرفه من عدله وحلمه، فأتى عمر إلى أورشليم وأمَّن أهلها ودخلها مستصغراً رحوماً ولم يمسس أهلها بضر، حتى لم يشأ أن يصلي في كنيسة القيامة. ولما سأله البطريرك لِمَ لم تصلِّ في الكنيسة أجابه متلطفاً لئلا يأتي المسلمون بعدي فيقولون هنا صلى عمر. وأعطاهم كتاب الأمان الذي ذكرناه في عد ٦٧٣م. فَوَقَتْ مجاملة البطريرك عمر

والمسلمين من تخريب ما كان باقياً من كنائسهم وأديارهم وقتل رجالهم إلى غير ذلك من غوائل الحرب، ومضى صفرونيوس إلى لقاء ربه ونيل ثواب مبراته في هذه الأثناء. فروى بارونيوس أنَّه توفي سنة ٦٣٦م، وقال باجيوس توفاه الله سنة ٦٣٧م ولكن قال لكويان (في المشرق المسيحي مجلد ٢ في بطاركة أورشليم) الأظهر أنَّه لم يستمر في البطريركية أقل من سبع سنين فتكون وفاته سنة ٦٤٢م، بل قد يكون بقي في الحياة إلى سنة ٦٤٤م إذ ذكره بيرس بطريرك قسطنطينية في جداله مع القديس مكسيمس سنة ٦٤٥م. فقال «صفرونيوس الذي توفي من عهد قريب». وذكر بارونيوس هذا الجدال بين بيرس ومكسيمس، وأثبت أنَّه كان سنة ٦٤٥م ويعيد الروم واللاتينيون للقديس صفرونيوس في ١١ آذار وتعيد له كنيستنا المارونية كذلك.

قال لكويان (في المجلَّد المذكور) ولم يكن في كرسي أورشليم بعد صفرونيوس بطريرك آخر سنين متطاولة بل دبر شؤون هذه البطريركية أولاً اسطفانس أسقف دورا (المعروفة الآن بالطنطورة)، وكان صفرونيوس قد أرسله إلى البابا انوريوس وأصحبه بأعمال مجمعه الأورشليمي ورسالته المجمعية في نبذ بدعة المشيئة الواحدة، ثم عاد اسطفانس بعد وفاة صفرونيوس إلى رومة سنة ٦٤٩م عند انعقاد المجمع اللاتراني الأوَّل ورفع تقريراً في حالة الكرسي الأورشليمي بعد وفاة صفرونيوس ووقع عليه «أسطفانس برحمة الله أسقف دورا ورئيس مجمع بطريركية أورشليم». ومما قاله إنَّ سرجيوس أسقف يافا غصب النيابة على كرسي أورشليم بعد وفاة صفرونيوس ورقى بعض كهنة إلى أسقفيات في بطريركية أورشليم قبل أن يثبت في نيابته. ولمعرفة هؤلاء ببطلان ترقيتهم لجأوا إلى بولس بطريرك قسطنطينية مثبتين خطأ بدعة المشيئة الواحدة التي كان بولس يدافع عنها. فأقام القديس مرتينس الأوَّل الحبر الروماني أسطفانس نائباً بطريركياً في أورشليم إذ لم تكن الحال تؤذن بإقامة بطريرك، فحط أولئك الأساقفة الذين رقاهم سرجيوس. وكل ذلك بيِّن في رسالة البابا المثبتة في المجلَّد الثالث من مجموعة المجامع للباي صفحة ٤٣، ثم شكا بعض إكليرس أورشليم أسطفانس إلى المجمع اللاتراني، وخشي البابا أن يقاومه الشاكون في تعاطي نيابته وان برأ نفسه من شكاويهم، فعهد بهذه النيابة في بطريركية أورشليم إلى يوحنا أسقف فيلادلفية (وهي عمان)، ولما كان مكدونيوس ومكاريوس لطخا بطريركية أنطاكية ببدعة المشيئة الواحدة مد نيابته إلى بطريركية أنطاكية. أيضاً

وهذا بيّن من رسالة أخرى لهذا البابا مثبتة في المجلّد السادس المذكور من مجموعة المجامع للباي، وقد فوض إليه أن يرقي الأساقفة والكهنة في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم، ويدبر الإكليرس والأديار والشعب (وفي جملة من رقاهم القديس يوحنا مارون إلى أسقفية البترون) واستمرَّ على ذلك سنين كثيرة ولا يعلم متى توفي. إلَّا أنَّنا نرى في أعمال المجمع السادس المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٨٠م أنَّ توادورس نائب بطريركية أورشليم أرسل إلى هذا المجمع نائباً عنه جيورجيوس الكاهن ونرى بين توقيعات آباء هذا المجمع توقيع جيورجيوس الكاهن نائباً عن توادورس نائب الكرسي الأورشليمي الرسولي، ونرى الملك قسطنطين اللحياني لما طلب إليه آباء المجمع أن يبلغ رسوم المجمع إلى الكراسي البطريركية يقول في أمره أن ترسل هذه الرسوم إلى الكرسي الأورشليمي على يد جيورجيوس الكاهن إلى توادورس نائب هذه البطريركية، ولا نعلم كم سنة استمرَّ توادورس في هذه النيابة. والظاهر أنه لم يقم بعد صفرونيوس بطريرك على أورشليم إلَّا في بدء القرن الثامن ولم يذكر المؤرخون بطريركاً على أورشليم في السنة الأولى بعد عود يوسننيانس الأخرم إلى الملك وهي سنة ٧٠٥م .

ولكن ذكر سعيد بن بطريق البطريرك الإسكندري أنّ يوحنا صير بطريركاً على أورشليم في السنة الثامنة لخلافة معاوية وهي سنة ٦٦٤م، إلّا أنّ ذلك من أغلاطه لتصريح توافان انّ يوحنا هذا صير بطريركاً على أورشليم سنة ٧٠٥م وهي السنة التي ذكر فيها وفاة عبد الملك بن مروان وخلافة ابنه الوليد له وهي سنة ٧٠٥م بعد خمسين سنة من الزمان الذي عينه ابن بطريق. وقد حقق ذلك السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٠٤)، وورد في أعمال مجمع قصر الملك الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٩٢م توقيع انسطاس بطريرك أورشليم، لكنَّ هذا التوقيع غير صحيح، وقد أدخله الروم في أعمال هذا المجمع الذي نبذته الكنيسة الرومانية. وقد حقق بارونيوس في تاريخ سنة ٦٩٢م نقلاً عن انسطاس المكتبي أنّ هذا المجمع لم يشهده أحد بطاركة اسكندرية أو انطاكية أو أورشليم . انتهى ملخصاً عن لكويان في كتابه الموسوم بالمشرق المسيحي مجلد ٣ في كلامه في بطاركة أورشليم مع زيادات عليه .

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن السابع

عد ٦٩٤

توما الحرقلي اسقف مرعش

روى السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٠) ترجمة توما هذا عن الكتاب السادس عشر من الكتب السريانية المخطوطة في المكتبة الواتيكانية، فقال إنّه كان من قرية حرقل في فلسطين، وروى بعضهم أنّ حرقل كانت بين انطاكية واباميا، وغيرهم أنها كانت في سفح جبل طورس، ورجح السمعاني رواية الكتاب الواتيكاني أنّ موقعها في فلسطين. وبعد أن تهذب في احد الأديار صير اسقفاً على جرمانيقية وهي مرعش على الصحيح لا منبج كما فسر كاتب الكتاب الواتيكاني، وكان توما يعقوبياً وصرف عنايته وجده في ترجمة الاناجيل وغيرها من الاسفار المقدسة من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية في دير الانطونيين (في اسكندرية)سنة ٩٢٧ يونانية (توافق سنة ٦٦١م)، بعد أن كان اخسنيا وضع مثل هذه الترجمة قبل نحو من مئة سنة. وجاءَ في الكتاب الواتيكاني أنّ توما هذا نفاه الخلكيدونيون أي الكاثوليكيون وتوفي في سميساط، ولكن حقق السمعاني أنّ توما اسقف مرعش الذي نفاه الملك يوستينس سنة ٥١٨م هو غير توما الحرقلي هذا.

ثم ذكر السمعاني مؤلفات توما الحرقلي فقال إنّ له نافوراً ذكره الدويهي في فصل ٧ في مؤلفي النوافير من اولي البدع قائلاً «توما الحرقلي ... الف نافوراً رتب صلواته على احرف الهجاء فاتحته ܐܝܠܐ ܐܦܝܠ ܡܣܬܬܪܐ» (ايها الأزلي السرمدي المحتجب) وهو مثبت في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي المخطوطة التي في المكتبة الواتيكانية صفحة ٩٤، وذكره ابراهيم الحاقلي في حواشيه

على قصيدة الصوباوي، لكنه سماه توما الجرمقي بدلاً من المرعشي، وقد ترجم رينودسيوس هذا النافور إلى اللاتينية واثبته في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٨٣. ومما امتاز به هذا النافور عن غيره من نوافير اليعاقبة إنَّما هو فصاحة عبارته والتزام مؤلفه ترتيب الصلوات والمزمورات فيه منسَّقة على أحرف الهجاء، ثم خلوه من كلمات التقديس، في نسخة المخطوطة، وفي ترجمة رينودسيوس إلى اللاتينية لا لأنَّ توما كان يعتقد ما اعتقده بعض الروم المتأخرين من أنَّ التقديس يكمل بدعوة الروح القدس لا بكلمات التقديس بل لأنَّ النساخ اليعاقبة المتأخرين حذفوا منه كلمات التقديس توسلاً لنشر ضلالهم الحديث بأنَّ التقديس يتم بدعوة الروح القدس كما أشار رينودسيوس إلى ذلك في كتابه المذكور (صفحة ٣٩٠). هذا وقد ترجم توما الحرقلي من اليونانية إلى السريانية نافورات غريغوريوس النزينزي، وباسيليوس الكبير، وغريغوريوس النيصصي، وديونيسيوس الاروباجتي، ويوحنا فم الذهب على ما روى أغناطيوس بطريرك اليعاقبة.

ومن أشهر كتب الحرقلي ترجمة العهد الجديد من اليونانية إلى السريانية التي يسميها السريان ܗܪܩܠܝܬܐ (الحرقلية نسبة إليه)، ومنها نسخة مخطوطة تنطوي على الأناجيل الأربعة في مكتبة القديس أغوسطينوس برومة قد علق توما نفسه عليها حاشية نسخها كاتب الكتاب المذكور ملحقاً بها الكلمات الأولى منها، وهي «قد عورض هذا الكتاب بنسختين مدقق في ضبطهما وقد ترجم كتاب الأناجيل الأربعة المقدسة هذا من اليونانية إلى السريانية أولاً بدقة كبرى وتعب جزيل في مدينة منبج في أيام البار مار فيلوكسينس أسقف هذه المدينة ثم قد قابلته بثلاث نسخ يونانية مدققاً فيه أنا الحقير توما، وكان ذلك في دير القديس أنطونيوس في مدينة اسكندرية العظمى حيث نسخته لمنفعة نفسي المثقلة بالخطايا ولفائدة من يحبون ويبتغون معرفة الأسفار المقدسة والمحافظة عليها كاملة نقية من كل شائبة. وقد تمت معارضته ونسخه في المحل المذكور في السنة ٩٢٧ لاسكندر (الموافقة لسنة ٦١٦ م) والله يعلم ما تجشمت من العناية والاهتمام بضبطه وضبط ما تبعه (يريد باقي أسفار العهد الجديد) وهو سيدين كل أحد بحسب أعماله بحكمه العادل القويم». وترى هذه الحاشية معلقة مع تغييرات قليلة على نسخ هذا الكتاب الموجودة في مكتبة فيرانسة، وفي المكتبة الملكية في باريس التي نسخها الكاهن يشوع بن يوحنا سنة ١٥٠٣ يونانية (سنة ١١٩٢ م) ونقل رينودسيوس (في

مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية) حاشيته فوهم أنَّ ترجمة الحرقلي كانت سنة ٥١٥م فتعقبه السمعاني مبيناً اغتراره.

وقد تواتر ذكر المؤلفين السريان ولاسيما اليعاقبة لترجمة الحرقلي هذه وقد استعملها اليعاقبة في كتب قداسهم وصلواتهم الفرضية كما أثبت كاتب الكتاب العربي في تعليم الإيمان الذي كان في مكتبة مدرسة الموارنة في رومة حيث يقول (صفحة ٤١٤): «وأما نحن السريان فعندنا نسخة المحرقل لتوما الحرقلي» وليس قوله صحيحاً لأنَّ جميع السريان خلا اليعاقبة يستخدمون في كنائسهم الترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة المذاعة في الكنيسة السريانية منذ أيام الرسل، واليعاقبة وحدهم استعملوا أولاً النسخة التي ترجمها فيلوكسينوس المسمى أخسنيا أسقف منبج في القرن السادس ثم صححها توما الحرقلي في القرن السابع كما أثبت العلامة السمعاني (في مجلَّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٤). وقد ذكر ابن العبري ترجمة الحرقلي مراراً في كتبه ويظهر من أحد أقواله أنَّه لا يميز بينها وبين ترجمة فيلوكسينس بل يجعلها واحدة على أنَّ السمعاني عزا هذا الخطأ في قول ابن العبري إلى غفلة الناسخ وتعقب بوكوكيوس ورينودسيوس في جهلهما من هو توما الحرقلي وفي أي عصر كان وما هي ترجمته مع أنَّ ذكر توما الحرقلي وترجمته مستفيض في كتب المؤلفين السريان. انتهى ملخصاً عن العلامة السمعاني (مجلَّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٠ إلى صفحة ٩٥).

عد ٦٩٥

يوحنا أسقف بصرى بحوران وسرجيوس رئيس أساقفة قبرص

قد ذكر السمعاني (مجلَّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٧) ترجمة يوحنا هذا أيضاً فقال إنَّه كان أسقفاً على بصرى ببلاد العرب، وذلك أنَّ الرومانيين جعلوا بصرى هذه الواقعة بحوران قصبة لبلاد العرب منذ استحوذوا عليها في أيام أدريان الملك في بداية القرن الثاني، وقد اشتهر يوحنا من السنة ٩٢٨ إلى السنة ٩٦١ (أي من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٥٠ م) وقد ذكره ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه وكان أسقفاً على العرب المتنصرين في حيرة النعمان، كما روى السمعاني أيضاً (مجلد ١ صفحة ١٦٧) وأدركته الوفاة في آمد سنة ٦٥٠م ودفن فيها في كنيسة القديس يوحنا المعمدان على ما روى رينودسيوس المذكور في تاريخه حيث قال

« وفي هذه السنة (أي سنة ٩٦١ لاسكندر الموافقة لسنة ٦٥٠ م) توفي القديس مار يوحنا أسقف العربية ودفن في كنيسة القديس يوحنا المعمدان في آمد » وقد ألّف نافوراً ترجمه رينودسيوس وأثبته في المجلّد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٢١، وفاتحته ايها الإله واهب المحبة والاستقامة. ويتبين من هذا النافور أنّه يعقوبي إذ قال فيه متكلماً في المسيح « لم يكن ذا طبيعتين أو أقنومين بل كان واحداً أحداً ابناً واحداً مسيحاً واحداً أقنوماً واحدا طبيعة واحدةً ». وذكر البطريرك أسطفانس الدويهي نافوره في الفصل السابع في كاتبي النوافير غير الكاثوليكيين قائلاً « ويوجد غير هذه النوافير ألفها ديوسقورس أسقف جزيرة قردو والبرقيتي وساويرس أسقف قنسرين ويوحنا أسقف بوصر (أي بصرى).

ويظهر من كلام يعقوب أسقف ميافرقين المسماة مدينة الشهداء أنَّ يوحنا أسقف بصرى كتب شيئاً في تفسير الأسفار المقدسة، فانّه قال بكتابه الموسوم بكتاب الكنوز (قسم ٤ فصل ١) في الملائكة ما ملخصه « ذهب يعقوب السروجي وأفرام في تفسير خلق العالم وأبيفان وغيرهم إنَّ الملائكة خلقوا مع السماء والأرض وذهب غريغوريوس النزينزي، وغريغوريوس نيصص، ويوحنا فم الذهب، ويوحنا أسقف بصرى ويعقوب الرهاوي، وموسى بركيفا إلى أنَّ الملائكة خلقوا قبل هذا العالم ».

أما سرجيوس رئيس أساقفة قبرص فقد عرفناه من رسالة كتبها إلى البابا تيودورس أثبتها لاباي (في مجلّد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ١٢١) عنوانها « إلى سيدي الكلي القداسة والطوبى أبي الآباء والرئيس العام للأساقفة السيد تيودورس من سرجيوس الحقير بين الأساقفة السلام بالرب أنَّ المسيح إلهنا وضع أساً غير متزعزع وأقام عموداً يوطده الله نفسه وما ذلك إلّا كرسيكم الرسولي فأنت بطرس بموجب كلام الله وأنت الأسّ الموطدة عليه أعمدة الكنيسة وأنت الذي سلمت إليه مفاتيح ملكوت السماء ولك أعطي سلطان الربط والحل في السماء والأرض وأنت مبيد البدع الباطلة لأنك صاحب الأمر ومعلّم الإيمان القويم النقي من كل دنس فهلمّ يا أبا الآباء وازجر الاضطراب الثائر على الإيمان من قبل بعض المبدعين واقشع الظلام بنور تعليمك الإلهي ». وبعد هذه المقدمة يقيم الحجة على أنّه متشبث أبداً بتعليم الحبر الروماني ومناصب لتعاليم ذوي البدع وحارم لهم وممجّد في اقتفاء آثار عمه (أو خاله) أركاديوس، وأنَّ هذا رأي كل سكان إقليمه.

عد ٦٩٥م

أسطفانس أسقف دورة، ويوحنا أسقف فيلادلفية وغيرهما

قد رأيت أنَّ أسطفانس أسقف دورة وهي المعروفة الآن بالطنطورة كان القديس صفرونيوس بطريرك أورشليم قد أرسله إلى البابا أنوريوس، وأصحبه بأعمال مجمعه الذي عقده في أورشليم، ورسالته المجمعية ثم عاد إلى رومة سنة ٦٤٩م، فشكا إلى الحبر الروماني القلق الذي أحدثه في فلسطين أصحاب بولس بطريرك قسطنطينية المبتدع. وفي جملة شكاويه أنَّ سرجيوس أسقف يافا جعل نفسه بعد موت صفرونيوس نائباً في بطريركية أورشليم خلافاً للقوانين واعتماداً على السلطة العالمية، ورقى بعض الكهنة إلى أسقفيات في بطريركية أورشليم قبل أن يثبت هو نائباً، ولعلم هؤلاء ببطلان ترقيتهم لجأوا إلى بولس بطريرك قسطنطينية وأثبتوا خطا الضلال الذي كان بولس مغوياً به، وهو بدعة المشيئة الواحدة آملين أن يصحح بولس أسقفيتهم، فأقام الحبر الروماني أسطفانس نائباً له في فلسطين وفوض إليه برسالة أن يصلح شؤون كنيسة أورشليم وأن يحط الأساقفة الذين رقاهم سرجيوس أسقف يافا إن لم يرعووا عن غيهم، فتمم أسطفانس ما أمره به الحبر الروماني، ولم يقبل إلَّا من أقلعوا عن ضلالهم، على أنَّ بعض أصحاب المآرب سرقوا براءة البابا الآذنة له بأن ينتدب ويرقي أساقفة بدلاً ممن عزلهم وأن يقيم كهنة وشمامسة، فاستمرت كنائس كثيرة لا رعاة لها (لاباي في مجموعة المجامع مجلَّد ٦ صفحة ١٢١ إلى ١٢٦ والمجمع اللاتراني مجلس ٢). ثم أنَّ من سرقوا براءة البابا أرسلوا يشكون أسطفانس إلى الحبر الروماني وكان حينئذٍ البابا مرتينس الأوَّل فأمر بالفحص عن تلك الشكاوى فلم يثبت شيء منها كما يتبين من رسالة هذا البابا إلى منبتاليون حيث يقول أنَّ أسطفانس أمر بما أمر به لأنَّ سوء الحال في سورية وقتئذٍ لم يمكّن الكرسي الرسولي من إقامة بطريرك في أورشليم. وتوجد رسالة أخرى منفذة من البابا مرتينس إلى جيورجيوس رئيس دير القديس توادوسيوس في فلسطين يشكر بها عنايته وعناية رهبانه في المدافعة عن أسطفانس أسقف الطنطورة قاصد الكرسي الرسولي، ويحضهم على الإنقياد ليوحنا الفيلادلفي الذي أقامه نائباً في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم (لاباي مجلَّد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ٢٠ وما يليها).

أما يوحنا أسقف فيلادلفية (وهي ربة عمون القديمة وعمان الآن) فقد أقامه القديس مرتينس الأوَّل البابا بعد أسطفانس المذكور نائباً له في المشرق ولاسيما بطريركيتا أنطاكية وأورشليم ليقيم فيهما أساقفة وكهنة وشمامسة، وأن يقبل من أراد أن يرعوي من أصحاب البدع بعد أن يصرحوا خطيًّا بإقلاعهم عن ضلالهم، وأن يردَّ من كان منهم في مرتبة إلى مرتبته إذا لم يكن ثمة مانع من قبل قوانين الكنيسة. ومما قال في هذا الشأن إننا مدافعون عن هذه القوانين ومحافظون عليها ومأمورون أن لا نغضي على مخالفتها، ونهاه عن أن يتسامح مع من اغتصبوا المقامات البيعية ومن لم يكن انتخابهم مطابقاً لهذه القوانين، وعين له في جملة هؤلاء مكدونيوس بطريرك أنطاكية الذي كان قد انتخب في قسطنطينية لا في أنطاكية خلافاً لرضى الإكليرس والشعب، وقد انتدبه المبدعون جزاءً لجرائمه، ثم بطرس بطريرك الإسكندرية الذي لم ينتخبه أصحاب البدعة إلَّا لتقوية المشايعين لهم، وأمر أيضاً أنَّ من يرعوون إلى الكنيسة الكاثوليكية يلزمهم أن لا يقتصروا على نبذ بدعة المشيئة الواحدة بل يحتم عليهم أيضاً أن يحرموا توادورس أسقف فاران، وقورش بطريرك اسكندرية، وسرجيوس بطريرك قسطنطينية وكل من شايعهم وأعلمه بأنَّه أرسل أعمال مجمع لاتران الذي عقده ورسالة عامة إلى قسطنطينية واسكندرية وأنطاكية على يد توادورس سفيره، وعلى يد الرهبان يوحنا واسطفانس ولاونس، وأنَّه كتب إلى توادورس أسقف حشبون عاصمة الموابيين، وأنطونيوس أسقف بقعة (لا يعلم موقعها ليكونا معاونين له في مهامه. (كل ذلك بيِّن في رسالة هذا البابا إلى يوحنا الفيلادلفي التي أثبتها لاباي في مجلَّد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ٢٠).

ويظهر من رسالتي هذا البابا إلى توادورس أسقف حشبون وأنطونيوس اسقف بقعة حثّه لهما على الاتفاق مع يوحنا الفيلادلفي. ويمدح توادورس لمجاهرته بمقاومته بدعة المشيئة الواحدة باذاعته دستور إيمانه مكتوباً، واطرائه أنطونيوس لمغادرته مذهب المبتدعين وإرساله إلى الكرسي الرسولي صك إرعوائه عن ضلالهم قائلاً إنَّ الإغترار من خواص الضعف في البشر، والإقلاع عنه من مفاعيل نعمة الله وقد رده إلى مقامه الأسقفي. ولهذا البابا رسالة أخرى إلى رجل شريف اسمه بطرس ذي سلطة عالية في البلاد يوصيه فيها بيوحنا الفيلادلفي نائبه في المشرق، ثم رسالة عامة منفذة إلى جميع الأساقفة والكهنة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم يقول فيها إنَّه بالسلطان الذي أولاه الله إياه بما أنَّه خليفة القديس

بطرس قد أقام يوحنا الفيلادلفي نائباً له في المشرق ويناشدهم أن يحسنوا الطاعة له، وأن يجانبوا الهراتقة ولاسيما مكدونيوس الذي اغتصب كرسي أنطاكية، وبطرس الذي تدخَّل على كرسي اسكندرية وأعلمهم بحرمه بدعة المشيئة الواحدة في مجمع لاتران، وأنَّه أرسل إلى يوحنا الفيلادلفي نسخة من أعماله ليطلعهم عليها. (وكل هذه الرسائل تراها مثبتة في مجلَّد ٦ من مجموعة المجامع للاباي من صفحة ٢٩ إلى صفحة ٤٠)، وقال في رسالته إلى يوحنا المذكور أسرع إلى إصلاح كل ما كان إصلاحه لازماً، وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة كرسي أنطاكية وأورشليم، إننا نأمرك بذلك بالسلطان الرسولي الذي أولانا الله إياه بواسطة بطرس زعيم الرسل (براءة مرتيلس الأوَّل المثبتة في المجلَّد ٦ المذكور من تأليف لاباي).

قد مرَّ أنَّ يوحنا الفيلادلفي هذا رقى القديس يوحنا مارون إلى أسقفية البترون نحو سنة ٦٧٥م في جملة من رقاهم إلى الأسقفية، ولم نعثر على ما ينبئنا بغير ذلك من أعمال يوحنا هذا ولا متى توفاه الله، ولا نعرف غير هؤلاء من أساقفة سورية في هذا القرن، وغير توادورس أسقف سلوقية أي السويدية ذكره لاكويان نقلاً عن يوحنا مسكس (في كتابه الموسوم بالمرج الروحي فصل ٧٩) آخذاً عنه خبر آية صنعت بسر القربان الأقدس. فإنَّ الإضطرابات السياسية التي كانت حينئذٍ في سورية بسبب فتح الخلفاء لها ولسائر البلاد أوقفت اجتماعات الأساقفة وكتاباتهم الهامة التي تؤخذ عنها أسماؤهم وأخبارهم، حتى أنَّ المجمع السادس العام الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٨٠ وسنة ٦٨١م لم يجتمع فيه أولاً إلَّا نحو من أربعين أسقفاً، ولم يكن فيه أساقفة بل كهنة ينوبون عن بطريرك اسكندرية وبطريرك أورشليم كما سترى، ولذلك قلَّ من عرفنا من أساقفة سورية أو من مشاهيرها في هذا القرن فنقتصر على ترجمة يعقوب أسقف الرها.

عد ٦٩٦

يعقوب الرهاوي

أنبأنا ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة أنَّ يعقوب هذا ولد في بلاد أنطاكية ودرس اللغة اليونانية في دير قنسرين، ومضى إلى اسكندرية ثم عاد إلى سورية إلى أن رقي إلى أسقفية الرها، وذكر ترجمته بإسهاب العلامة السمعاني (في المجلَّد الأوَّل

من المكتبة الشرقية صفحة ٤٦٨ فنلخصها عنه). قال إنَّه منذ حداثته هجر العالم وكراماته وغناه واتَّخذ السيرة الرهبانية، ثم رقي إلى الأسقفية على مدينة الرها سنة ٩٦٢ يونانية (الموافقة لسنة ٦٥١ م) على ما يتبيَّن من تاريخ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة، وشهد المجمع الذي عقده يوليانس بطريرك اليعاقبة سنة ٧٠٦م وأدركته الوفاة سنة ٧١٠م على ما في تاريخ ديونيسيوس المذكور، أو سنة ٧٠٨م على ما في تاريخ ابن العبري، ويكرم ذكره السريان الموارنة واليعاقبة. وقد استشهد بأقواله في تفسير الأسفار المقدسة في شرح الليتورجيات من العلماء السريان موسى بركيفا، وديونيسيوس بن صليبا، وغريغوريوس بن العبري وأسطفانس الدويهي بطريرك الموارنة وغيرهم، وأثنوا عليه ثناءً جميلاً وقد اغترَّ بعضهم فلم يفرق بينه وبين يعقوب النصيبيني معلم القديس أفرام وبين القديس يعقوب السروجي، ومن هؤلاء مرهج بن نمرون الباني في كتابه الموسوم بافوبليا (أي سلاح) الإيمان.

وأهم من كل ما مرَّ المبحث في صحة إيمان يعقوب الرهاوي أكاثوليكياً كان أم يعقوبياً، فقد قضى رينودوسيوس (في المجلَّد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٠٨) بأنَّه كان مونوفيزيتياً أي من القائلين بطبيعة واحدة في المسيح، وأورد لحكمه عليه الأدلة التي أوردها لزعمه في يعقوب السروجي (وقد أشرنا إليها في كلامنا فيه). وذكر من حججه على يعقوب الرهاوي «إنَّ اليعاقبة يستعملون النافور الذي ألفه ويكتبونه في كتبهم مع نافورات ساويرس وفيلوكسينس وغيرهما من علماء بدعتهم، ولا نجد نافوراً لأحد الكاثوليكيين الذين كانوا بعد المجمع الخلكيدوني قال السمعاني ولكن كان على رينودوسيوس أن يثبت أنَّه لا يوجد نافور لأحد الكاثوليكيين أُلِّف بعد المجمع الخلكيدوني بدلاً من أن يجعل مجرَّد زعمه حجة، فما قوله هذا إلَّا زعمه أنَّ يعقوب هذا غير كاثوليكي لأنَّه كان بعد المجمع الخلكيدوني وكتب بعده، فقياسه يساوي هذا القياس الفاسد أنَّ يعقوب غير كاثوليكي لأنَّه لم يكن كاثوليكياً فكان عليه لإثبات زعمه هذا أن يثبت أنَّه لم يبقَ بعد المجمع الخلكيدوني من إيمان كاثوليكي في سورية وبين النهرين، ولا من أسقف كاثوليكي يؤلف كتاباً، لكنه لم يثبت هذا الأمر ولن يستطيع البتة أن يثبته. ولنا الأدلة الدامغة على أنَّه بعد انتشار بدعة الطبيعة الواحدة استمرَّ في سورية وبين النهرين كثيرون من الأساقفة الكاثوليكيين، وهذا بيِّن من ذكر المؤلفين الكاثوليكيين الذين ذكرناهم آنفاً، وهم لاون وقسطنطين وجيورجيوس التكريتي وغيرهم. وواضح

من أعمال المجمعين العامين الخامس والسادس وتوقيعات الأساقفة الكاثوليكيين عليها تبكم رينودوسيوس عن التلفظ بهذا الزعم. ولربما قال إنَّه وجد بعد المجمع الخلكيدوني أساقفة سريان ومؤلفون كاثوليكيون ولكن لم يجد من كتب نافوراً فأجيبه أنَّه وجد من اليعاقبة من كتب نافوراً وهم: فيلوكسينس وتوما الحرقلي وموسى بركيفا، وديونيسيوس بن صليبا، وغريغوريوس بن العبري الذين ترجم رينودسيوس نافوراتهم، لَم يوجد كذلك من الكاثوليكيين، وكتابة النوافير في المشرق كانت مستفيضة بين رؤساء الكاثوليكيين وأولي البدع ولم تزل كذلك إلى اليوم، فمن ينكر أنَّ كثيرين من الأساقفة الكاثوليكيين ألَّفوا بعد المجمع الخلكيدوني صلوات حديثة لأعياد شهداء ومعترفين وأدخلوا بين تراجم القديسين ترجماتهم، وصنَّفوا نافورات أيضاً: نخصُّ بالذكر من هؤلاء القديس يوحنا مارون الذين ألَّف نافوراً في القرن السابع، ويوحنا اللحفدي بطريرك الموارنة ألَّف نافوراً في القرن الثاني عشر، وليت شعري لِمَ جاز لرؤساء الروم مثل باسيليوس وفم الذهب أن يكتبوا نافورات وصلوات حديثة، ولم يجز لرؤساء السريان مثل ذلك والأمر واضح.

واما كتابة اليعاقبة نافور الرهاوي بين نافوراتهم فلا ينتج منها أنّه كان يعقوبياً كما زعم رينودوسيوس، وإلّا لاضطررنا أن نقول إنّ نافور يعقوب الرسول الذي يستعمله اليعاقبة، ونافور الرسل الذي يستعمله النساطرة؛ هما من مؤلفات اليعاقبة أو النساطرة مع أنّ رينودسيوس أثبت (في المجلد المذكور صفحة ١ و ٥٦٩) أنّ مؤلفي هذين النافورين كاثوليكيان. ولا يؤيد زعم رينودسيوس احتجاجه بأنّ مؤلفي هذين النافورين كانا قبل ظهور بدعة الطبيعة الواحدة والرهاوي بعده، لأننا أبنّا قبلاً أنّ اصحاب الطبيعة الواحدة لم يجلوا القديسين الذين تقدموا بدعتهم فقط، بل يكرّمون كثيرين من القديسين الذين كانوا بعدها، حتى ممن اشتهروا بالمناضلة عن الايمان الكاثوليكي وبالمخالفة لهم. ومن هؤلاء القديس سمعان العمودي الذي خالفهم بمدافعته عن المجمع الخلكيدوني برسالتيه إلى باسيليوس بطريرك انطاكية وإلى الملك لاون، كما اثبت افاغريوس (ك ٢ فصل ١٠). وشهد فوتيوس (في ك ٢٢٩ من مكتبته) ان الهراطقة الشرقيين ولا سيما اليعاقبة والنساطرة يجلون ويحبون من اشتهروا بالعلم والتقوى في العالم ولو لم يكونوا من اصحاب بدعتهم، بل نرى الكاثوليكيين انفسهم يستخدمون في صلواتهم أقوال المبدعين التي لا ضلال فيها؛ كاستخدام الكنيسة الرومانية بعض أقوال اوريجانس في كتاب الفرض القديم، ونرى

الروم الكاثوليكيين يستعملون صلوات الفرض التي يستعملها الروم غير الكاثوليكيين، فما الذي يمنع اليعاقبة الذين يكرمون كثيرين من خصومهم الألداء ويصفونهم بقديسين من أن يستخدموا نافور الرهاوي ولا ذكر فيه لطبيعة أو طبيعتين في المسيح ؟

ثم ذكر رينودسيوس فقرة من نافور الرهاوي عن كتب اليعاقبة قيل فيها في تذكار الملافنة : « اذكر الآن يا رب الملافنة المستقيميّ الايمان . . .. ولا سيما اغناطيوس وديونيسيوس وباسيليوس وغريغوريوس وكيرلس وساويرس وفيلوكسينس ويعقوب وسائر الملافنة الذين اقتفوا آثارهم » . وقال بأثر ذلك : « كفى بهذه الفقرة وحدها أن تزيل كل ريب في أنّ يعقوب الرهاوي كان يعقوبياً لأنها ناطقة بأنه يعتقد أنّ ساويرس وفيلوكسينس وبطرس القصار من ملافنة الايمان القويم المناضلين عنه ». قال السمعاني أعجب من العلامة رينودوسيوس كم عظّم هذه الفقرة حتى جعلها مزيلة كل اشكال في بدعة الرهاوي، ولم يخطر على باله أن الجواب عليها سهل ولا ريب فيه، وقد ذكر هو نفسه فقرات مثل هذه في نافورات أخرى، ولم يكن له أن يمتري في أنها مدخلة على تلك النافورات. فإنّ اسم الملافنة في نافور الرهاوي وكثير من النوافير لم يثبتها مؤلفو تلك النوافير بل من نسخوها . واقتصر في بيان ذلك على ذكر نافورين أثبتهما رينودوسيوس نفسه: الأول نافور القديس ماروتا الذي أثبته في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٠، وشهد بأنّ ماروتا اشتهر سنة ٤١٢م أي قبل كل ذكر لبدعة الطبيعة الواحدة . ففي هذا النافور قيل في تذكار الملافنة الذي رواه رينودوسيوس صفحة ٢٦٦ ما يأتي : « اذكر يا رب جميع آبائنا المستقيمي الايمان الذين علمونا الايمان القويم ولا سيما ساويرس البطريرك وفيلوكسينس ويعقوب البردعي». فهل يعزو رينودوسيوس ذكر هؤلاء إلى ماروتا، وقد كان قبل أن يكونوا بسنين متطاولة ؟ والنافور الثاني نافور يعقوب البردعي الذي ترجمه رينودوسيوس وأثبت ترجمته في كتابه المذكور في صفحة ٢٣٨ ففي تذكار الملافنة فيه قيل: « اذكر يا رب جميع رعاة الكنيسة القويمة الايمان وملافنتها . . .. ولا سيما القديس يعقوب البردعي » أيرى رينودوسيوس أنّ البردعي ذكر اسمه في نافوره ؟ كلا بل صرّح بعد ذلك بأنّ الناسخ زاده فلِمَ لا يرى كذلك في نافور الرهاوي ؟

لم يقتصر رينودوسيوس على طعنه بيعقوب الرهاوي بل تخطاه ليقدح بالموارنة، فقد قال (في صفحة ٣٨٣ من كتابه المذكور) : « فإن كان اسمه (أي اسم

يعقوب الرهاوي) مثبتاً في فهرست أعياد الموارنة فهم يشهدون بأنّ قدماءهم كانوا يعاقبة ، وهم يريدون أن ينزلوهم منزلة أنوار في سماء الكنيسة السريانية ومنزلة محامين عن الايمان القويم » . وقال في صفحة ٣٨٠: « لا نحفل باسطفانس الاهدني بطريرك الموارنة الانطاكي الذي استشهد به نيرون الباني ، ولا بجميع من هم موارنة الآن أو قبلاً ولو لم يجاوز حبهم حدود الحق لجعلنا حب الوطن عذراً لهم، ولكن مخادعة القراء في التاريخ الكنسي لا عذر لها إذ قلَّ من لهُ المام بهذه الأمور وييسر انخداع الباقين اجمع فيها » . فقال السمعاني لا محل هنا لرد كل ما يتحامل به رينودوسيوس على ابناء ملتي ولكنني لا أطيق أن أغضي على ما يطعن به الاهدني ونيرون الباني، فلا اشفق على الموارنة ولا اعذر الاهدني والباني إن بين لي رينودوسيوس أو غيره أياً كان انهم يخادعون من يقرأ كتبهم، ولكنه لم يتكرم هو أو غيره بهذا البيان حتى الآن ولن يستطيع أن يأتي به، فلذلك يستمر الحكم صحيحاً ثابتاً بأنّ اسطفانس الاهدني البطريرك الانطاكي وسيع الاطلاع طويل الباع بتاريخ السريان، واسأل رينودوسيوس أن يتحفني بفهرست مؤلفات الموارنة أو ذكر اسماء مؤلفيها في الزمان العابر أو الحاضر، لئلا يؤنب على طعنه بقوم لا يعرف مؤلفاتهم بل ولا اسماءهم . ويتهافت على القول أنه لا يحفل بجميعهم من كانوا قبلاً أو من لم يزالوا أحياء الآن، فأعجب كل العجب من رجل ليس بجاهل يستبيح لنفسه الطعن بقوم يجهلهم كل الجهل .

وقال في المحل المذكور: « إنَّه لا يمكن الحكم بأن السروجي والرهاوي كاثوليكيان وأنَّ ليس في كتبهما ما يخالف الإيمان، إلَّا أن يكون من يبرز هذا الحكم عالماً بكتبهما أو في الأقل عارفاً بعنواناتها ». والقارئ ينتظر بعد كلامه هذا أن يراه يورد من كلام الرهاوي دليلاً على مخالفته الإيمان الكاثوليكي أو عنوان فصل أو كتاب يؤيد زعمه، فلم يأتنا بشيء من ذلك مع أنَّه كان متحتماً عليه وضربة لازب، وإلَّا لأطلق لكل كاتب أن يغتاب ويشكو دون دليل أياً كان من العلماء ولو عظمت شهرة قداسته وعلمه وحكمته .

إنَّ الاهدني والباني من أشهر العلماء الراسخين ومن أكبر الثقاة الذين يعتمد على شهادتهم، وقد تابعهما عبد يشوع الصوباي في قصيدته في المؤلفين إذ ذكر الرهاوي وبعض تآليفه في فصل ١٦٥، ويؤيد شهادتهما كل ما وقفت عليه من كتب الرهاوي التي سآتيك بفهرستها ولا تجد فيها البتة ما يشم منه رائحة بدعة

الطبيعة الواحدة، بل تراه في كلامه على المسيح يعترف بلاهوته حقاً وبناسوته حقاً ويصرح بأنَّ كلمة الله قد اتَّحد بالنفس والعقل والجسد اتحاداً لا يعروه فساد، وأنَّه تألَّم بالجسد لا باللاهوت؛ وكل ذلك جلي في تفسيره التوراة المثبت في الكتاب الثالث من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٤٦ و ٥١. وأمَّا يعقوب السروجي فقد فندنا بشهادات العلماء السريان واليونان اغتياب رينودوسيوس له واعتمدنا خاصة على كتاب قصائده الروحية الذي عثرنا عليه في مكتبة البطريرك أسطفانس الإهدني، ووجدنا في آخره فهرساً مدققاً خطته يد البطريرك المذكور الذي زعم رينودوسيوس أنَّه لم يكن ليعلم ولا عنوانات كتب السروجي والرهاوي، وقد وجدناه استشهد بهما مراراً كثيرة في تآليفه وأثبت نافوريهما في جملة النوافير الكاثوليكية في كتابه المنائر العشر.

على أنَّ الموارنة وإن اتَّهمهم بعض العلماء ببدعة المشيئة الواحدة، فمما لا ريب فيه أنهم أنفوا دائماً من بدعة الطبيعة الواحدة واشمأزوا منها، ويحقق ذلك انفصالهم المتناهي في القدم عن اليعاقبة، واعتراف اليعاقبة أنفسهم بأنَّ الموارنة أمة تخالف امتهم معتقداً ورعاة. وممن قال بذلك من علمائهم ديونيسيوس بن صليبا في كتابه في البدع، وأبو الفرج بن العبري في تاريخ الدول في سنة ١٦٩ للهجرة (سنة ٧٨٥ م) حيث شهد بأن توافيلس الرهاوي كان يدين بدين الموارنة سكان لبنان، ويؤيد ذلك أيضاً أنَّ يوحنا مارون البطريرك الأوَّل على الموارنة، الذي في أيامه كان الإنفصال بين الملكية والمردة وهم الموارنة، قد كتب كتاباً يفنّد به بدعة الطبيعة الواحدة؛ وهذا الكتاب مثبت في المجلَّد ١٤ من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية. وقد أذاع الأب نو الإفرنسي نسخة منه عن كتاب قديم في المكتبة الملكية في باريس، وقد ذكره اليعاقبة في ترجمة يعقوب البردعي، ووصفوه بالعدو الألدّ لأمتهم. وسنأتي بشهادتهم عند الكلام في يوحنا مارون.

وعليه فلو كان الرهاوي يعقوبياً لنبذه الموارنة كما نبذوا غيره من اليعاقبة، ولا يوقفهم عن نبذه علمه السامي، فساويرس الأنطاكي وفيلوكسينس المنبجي كانا أعلم من الرهاوي ولم يغتر الموارنة بعلمهما ليحصوهما بين العلماء الكاثوليكيين، كما لم يطمعوا بأن يعتدوا العلماء المتأخرين من السريان كيوحنا الداراوي وموسى بركيفا وديونيسيوس بن صليبا وغريغوريوس بن العبري في مصاف الكاثوليكيين، ثم أنَّ السريان الملكيين الذين كانوا دائماً أعداء أصحاب الطبيعة الواحدة كانوا يستعملون

قديماً رتبة التعميد التي ألفها يعقوب الرهاوي كما سيأتي ؛ وذلك دليل على أنَّهم لم يعتدوه يعقوبياً. هذا ونعرف كثيرين من العلماء الكاثوليكيين الذين كانوا في عصر الرهاوي وتعقبوا الهراطقة في عصرهم من أصحاب الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة أو النساطرة ، منهم : يوحنا الدمشقي ، وغريغوريوس التكريتي ، وقسطنطين ولاون الحارانيان، ولا نرى أحداً منهم شكا الرهاوي ببدعة أو عدَّه بين المبدعين وقد كان يهمهم دحض ضلاله لو كان ضالاً ، لأنَّه كان مشهوراً عند السريان بعلمه ومقامه، ونرى الدمشقي تصدَّى لرد مزاعم إيليا الأسقف اليعقوبي مع أنَّه كان غفلاً وقل من عرفه من أمته أيضاً، فلمَ غفل عن رد مزاعم الرهاوي إن كان ذا غواية على ما كان عليه من الشهرة والعلم؟ (وقد كان في أيامه لأنَّ الدمشقي ولد سنة ٦٧٦)م .

إنَّ العلامة السمعاني بعد أن أورد كل هذه الحجج لتنفيذ زعم رينودوسيوس عاد بما تحلى به من الإستقامة والنزاهة عن الأغراض وحبّ الحق ، فذكر ثلاثة مشاكل في سبيل إثبات صحة إيمان الرهاوي، وأردفها بحلها تاركاً الحكم في ذلك للعلماء . قال إنَّ ما يحدث ريبة في صحة إيمان الرهاوي إنَّما هو: أولاً أنَّه ترجم مقالات ساويرس إلى اللغة السريانية وهي مشوبة بأغلاط أصحاب الطبيعة الواحدة ولم يصلح ولم يفنِّد تلك الأغلاط ولا وصمها بوصمة سوداء. ثانياً أنَّه دعا فيلوكسينس أحد أئمة هذه البدعة قديساً وساواه بآباء الكنيسة . ثالثاً إنَّ اليعاقبة دعوه إلى مجمع في أيام يوليانس بطريركهم وأجلسوه في محل ممتاز . ورد الأول بقوله إنَّ ترجمة الرهاوي مقالات ساويرس لا ينتج منها أنَّ إيمانه غير صحيح ما لم يظهر ضلاله من وجه آخر، فإنَّ كثيرين ترجموا كتب أوريجانس ونسطور وتوادورس المصيصي وغيرهم ولم يرتب أحد لذلك في صحة إيمانهم، ورد الثاني بقوله أنَّ الرهاوي لم يدعُ فيلوكسنيس قديساً بل قدَّم على اسمه كلمة ܡܳܪܝ السريانية وتأويلها سيدي وقد استعملها السريان للدلالة على المقام الأسقفي لا على القداسة، وأورد قوله بحروفه حيث سواه بغيره من الأساقفة بتقدم كلمة ܡܳܪܝ على أسمائهم . وردّ الثالث بقوله إنّ الأساقفة الهراطقة كان من عادتهم أن يدعوا الأساقفة الكاثوليكيين في إقليمهم إلى مجامعهم ولم يكن ذلك أمراً حديثاً ولا نادراً، ولاسيما إذا كان مدار الكلام في هذ المجامع على أمور طقسية وتهذيبية وأمثال ذلك كثيرة من جهة الهراطقة والكاثوليكيين؛ منها حضور أثناسيوس وإيلاريوس في مجامع مبدعين ، وحضور كثير من الأساقفة الكاثوليكيين بدعوة

ديوسقورس في مجمع أفسس اللصي، ودعوة مكاريوس بطريرك أنطاكية إلى المجمع السادس، وزد على ذلك حضور صفرونيوس الأورشليمي مجمع سرجيوس بطريرك قسطنطينية المونوتوليتي كما مرّ.

على أنَّ السمعاني أورد (في المجلّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٣٦) فقرة من تاريخ ابن العبري لبطاركة اليعاقبة بينّ فيها أنَّ يعقوب الرهاوي ولد في كومية في بلاد أنطاكية، ودرس اللغة اليونانية في دير قنسرين، ومضى إلى الإسكندرية ثم عاد إلى سورية وأقيم أسقفاً على الرها، ثم ترك الأسقفية لإقلاق بعض الإكليريكيين له، ودافع كثيراً عن حفظ القوانين البيعية، مخالفاً البطريرك يوليانس اليعقوبي وغيره من الأساقفة الذين كانوا يريدون التساهل بحفظ القوانين تبعاً لمقتضيات الزمان، ولما لم يذعنوا له جمع كتب القوانين امام باب الدير الذي كان البطريرك حالاً فيه وصاح هأنذا محرق القوانين التي وطئتموها ولم توجبوا حفظها، ومضى فسكن دير القديس يعقوب في قيصوما، واقيم على الرها مكانه حبيب الاسقف، وأخذ رهبان دير اوسيبونا يعقوب الرهاوي، واستمر عندهم احدى عشرة سنة يعلم الزبور وقراءة الكتب باليونانية، ثم مضى إلى دير تل عدا واقام هناك تسع سنين يصحح اسفار العهد القديم، ثم مات حبيب اسقف الرها فمضى سكان هذه المدينة يسألون البطريرك اعادة يعقوب إليهم، فأعاده ومضى ليحضر كتبه من الدير، فأدركته المنية سنة ١٠١٩ يونانية (توافق سنة ٨٠٨م) في ٥ حزيران.

فبعد أن روى السمعاني كلام ابن العبري الذي لخصناه قال إذا صحّ ما رواه ابن العبري عن تردد يعقوب الرهاوي بين اليعاقبة وسكناه المديد بأديارهم المتسكع سكانها بضلال الطبيعة الواحدة، فيظهر أنه مؤيد لما يخالف ما ذكرته عن صحة ايمانه في المجلد الأول.

ومما مرّ يظهر أنّ السمعاني لم يقطع بنفي صحة ايمان يعقوب الرهاوي، وبأَولى حجةٍ لم يحكم عليه بأنه يعقوبي، وكلامه هذا الأخير ناطق بنزاهته عن التعصب لمذهبه لكنه غير ناقض لما أتى به من الأدلة والحجج على صحة ايمان الرهاوي. وقد ترك المبحث ليقضي به المجتهدون بالعلم، كما ترك اعتراضاته السالفة وحلها. ومن اين لنا أن نحكم بمثل هذه المشاكل الغامضة ولا سيما أنّ ايدينا لا تتصل إلّا إلى قليل من الكتب العامة. والذي يلوح لفكرتي القاصرة إنما

هو أنّ القول بصحة معتقد الرهاوي يبقى راجحاً إلى أن يتبين من أقواله ما يؤكّد مشايعته لليعاقبة. وإلى الآن لم نرَ شيئاً من ذلك، بل رأينا السمعاني أورد عن أقواله ما يؤكد صحة عقيدته والله أعلم.

قد حان لنا الآن أن نعود إلى تكملة ترجمة الرهاوي. قال السمعاني إنّه يوصف بمفسّر الكتب لمعنيين: الأوّل لأنّه فسّر الأسفار المقدسة القانونية، والثاني لأنّه ترجم كثيراً من كتب العلماء الكاثوليكيين والهراطقة من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية. وربما كان يعقوب في جملة المفسرين الذين كانت العادة أن يقاموا في الكنائس لتفسير كلام الله للشعب، وقد شهد أوساييوس القيصري (في كتابه في شهداء فلسطين) أنّ هذه العادة كانت في كنائس سورية وفلسطين.

وأما مؤلفاته فهي كثيرة وما نعرفه منها هو أولاً إصلاحه اللغة السريانية وردها إلى فصاحتها، وتنقيتها من الألفاظ الأعجمية بعد أن كانت تقهقرت كثيراً، وهو أوّل من ألّف غرامطيقاً لها على ما روى إيليا أسقف نصيبين (كانت نسخة مخطوطة منه في مكتبة مدرسة الموارنة في رومية). وقد أثنى عليه كل من كتبوا في هذه الصناعة وذكره ابن العبري في غرامطيقه الشعري حيث يقول ܝܥܩܘܒ ܣܦܩܐ ܐܘܪܗܝܐ. أي يعقوب المتسامي أو الأسقف الرهاوي فكلمة ܣܦܩܐ (سفقو) السريانية تتحمّل المعنيين، وبعنايته سميت اللغة السريانية الفصحى رهاوية. وفي ذلك قال ابن العبري في تاريخ الدول: «اللغة السريانية تنقسم إلى ثلاث لغات أفصحها الآرامية، وهي لغة أهل الرها وحاران والشام الخارجة، وبعدها الفلسطينية وهي لغة أهل دمشق وجبل لبنان وباقي الشام الداخلة، واسمجها الكلدانية النبطية وهي لغة أهل جبال أثور وسواد العراق». ومن مؤلفاته تاريخ ذكره له الصوباوي في قصيدته في المؤلفين قائلاً: «يعقوب الرهاوي كتب تاريخاً للأزمان» ويتمنى السمعاني لو عثر على هذا التاريخ إذ لا بد من أن يكون ضمنه ما يكشف القناع عن معتقده. وله نافور فاتحته ܐܠܗܐ ܐܒܐ ܕܟܠ ܘܡܪܐ ܡܪ̈ܘܬܐ أيُّها الإله أبا الجميع وسيّد السادات. وقد ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية وأثبت ترجمته في كتابه في الليتورجيات الشرقية (مجلّد ٢ صفحة ٣٧١)، وهو مثبت في الكتابين الثالث والرابع من الكتب المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية، وقد ترجم أيضاً من اليونانية إلى السريانية نافور القديس اغناطيوس الشهيد، وأصلح نافور القديس يعقوب الرسول مما كان عراه من خطأ النساخ ومن حذف بعض صلواته.

وذكر الدويهي نافور الرهاوي في فصل ٢ عد ٢٤ في مؤلفي النوافير من الكاثوليكيين. وللرهاوي أيضاً رتبة للتعميد مثبتة في كتب الطقوس عند السريان والموارنة، وكان الملكية يستعملونها كما روى عالم يعقوبي في كتابه المشتمل على تنبيهات للكهنة والإكليريكيين المرشحين للكهنوت، وكان هذا الكتاب في مكتبة مدرسة الموارنة برومة، حيث يقول (صفحة ٤١٤): «ومار يعقوب الرهاوي صاحب كتاب عماد الموارنة والملكية». وله أيضاً كتاب حوى قوانين بيعية ذكر بعضها ابن العبري في كتاب ادبياته، وفي كتاب الهداية، ورسالة إلى جيورجيوس أسقف سروج قرأتها في الكتاب القديم السرياني في دير الاسقيط، وله مقالة في الكتاب المذكور محتوية على شرح الضمائر واجناس الاسماء والأزمنة، وله رسالة إلى بولس الكاهن الانطاكي ذكرها ابن العبري في كتاب غرامطيقه الكبير المسمى ܨܡܚܐ (صمحا أي الاشعة والأنوار)، وله رسالة أخرى في الكتابة والنقط والحركات السريانية معلقة على كتاب مقالات ساويرس، وهو الحادي والثلاثون من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية، وقد ذكرها ابن العبري في غرامطيقه الشعري.

ومن أهم رسائله رسالته إلى توما الكاهن في شرح رتبة القداس القديمة عند السريان من عهد الرسل إلى ايامه، وقد ذكرها ابن صليبا في شرح رتبة القداس فصل ٣، والبطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب المنائر فصل ٧، وابراهيم الحاقلي في حواشيه على قصيدة الصوباوي واثبتها السمعاني برمتها عن ابن صليبا (مجلد ١ من المكتبة الشرقية في صفحة ٤٧٩ إلى صفحة ٤٨٦)، وهي موعبة بالفوائد، وله أيضاً رسالة إلى يوحنا العمودي، وقد بقيت فقرة منها في رتبة مباركة الماء في ليلة ظهور الرب (أي الغطاس) في كتاب رتب اليعاقبة، وهو الرابع من كتب الحاقلي في مكتبة الواتيكان، وأثبت فيها قدم هذه الرتبة، وله أيضاً رسالة إلى اوس الكاهن وهي مثبتة برمتها في الكتاب القديم جداً في المكتبة الماديشية على ما روى رينودوسيوس في كتابه المذكور (صفحة ٣٨١ من المجلد الثاني). ويقال فيه إنّ يعقوب كتبها سنة ٩٩٨ي (توافق سنة ٦٨٧م)، ورسالة إلى دانيال ومنها فقرة في الكتاب الثالث من كتب السمعاني السريانية في المكتبة الواتيكانية، وله كتاب موسوم بكتاب الكنوز وهو مقالة في الاسرار أي المعمودية والقداس والماء المبارك، وله عشر قصائد في عيد الشعانين وهي مثبتة في الكتاب الخامس عشر من كتب

السمعاني السريانية المذكورة . وله أيضاً كتاب في تفسير الأسفار المقدسة ، ذكر ابن العبري فقراً منه من العهدين القديم والحديث ، واستشهد ابن صليبا بتفسيراته للاناجيل . وقال السمعاني لدينا في الكتاب الثالث من كتبنا السريانية في المكتبة الواتيكانية من كتبه تفسير موجز لثمانية اسفار من الاسفار المقدسة ، أي : كتب موسى الخمسة، واسفار أيوب ويشوع بن نون، والقضاة. وله أيضاً مقالات في الاسفار المقدسة مثبتة في الثالث من كتبنا المذكورة، وذكر السمعاني فقرات كثيرة من هذه المقالات . وله أيضاً ترجمة بعض مقالات ارسطو وشروح عليها مثبتة في الكتاب ٣٦ من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية، وتفسير الايساغوجي أي كتاب المنطق لبرفيريوس مثبت في الكتاب المذكور من كتب المكتبة الواتيكانية، وترجمة مقالات ساويرس البطريرك الانطاكي من اليونانية إلى السريانية منقسمة في ثلاثة مجلدات. وقال السمعاني يظهر أنّ ليس ترجمة كل هذه المقالات للرهاوي بل أكثرها لغيره كما يتبين من نفس الترجمة واختلاف العبارة .

الفصل الثالث

بدعة المشيئة الواحدة والمجامع التي حرمتها

عد ٦٩٧

منشئو هذه البدعة وانتشارها

لم تكن بدعة المشيئة الواحدة في المسيح إلّا فرعاً من جرثومة بدعة الطبيعة الواحدة فيه ، أو نتيجة لازمة من مقدماتها . فالزعم أنّ في المخلص طبيعة واحدة يلزم منه أنّ فيه مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فليست المشيئة وليس الفعل إلّا من الخواص الملازمة للطبيعة ، وحيثما وجدت طبيعة واحدة وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد لا مشيئتان وفعلان، ولا تنسب المشيئة والفعل إلى الأقنوم وإلّا للزم أن نقول انّ في الثالوث الاقدس ثلاث مشيئات وثلاثة أفعال لأنّ فيه ثلاثة أقانيم، بل نقول أنّ للأقانيم الثلاثة مشيئة واحدة وفعلاً واحداً لأنّ لهم طبيعة واحدة، وعليه فبدعة

المشيئة الواحدة احدثها اصحاب الطبيعة الواحدة فكانوا هم السواد الأعظم ممن تشبث بها وقلّ من استمسك بها ممن اعتقدوا طبيعتين في المسيح، وهذا بديهي وقد أثبته العلامة السمعاني (في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١١) واليك ملخص قوله: «قد ندر في سورية وبين السريان أن يكون من يعتقد المشيئة الواحدة ولا يعتقد الطبيعة الواحدة، فما بدعة المشيئة الواحدة إلّا فرع من أصل بدعة الطبيعة الواحدة وقد ابتدعها اصحاب الطبيعة الواحدة أعني بولس الراهب أحد اتباع ساويرس الذي كان في ارمينية، واتناسيوس بطريرك اليعاقبة الذي كان في ما بين النهرين، وسرجيوس بطريرك قسطنطينية الذي كان من سورية، وكان والداه يعقوبيين واستغوى قورش بطريرك اسكندرية وغيره بهذا الضلال. وهذا قد حققه المجمع السادس المسكوني والقديس مكسيموس الذي ناصب هذه البدعة. بل أثبته سرجيوس البطريرك القسطنطيني نفسه في رسالته إلى البابا انوريوس، ثم توافان وشدرانس وزاناراس على أنّ ائمة هذه البدعة المذكورين وإن تظاهروا بالاذعان للمجمع الخلكيدوني، والاقرار أنّ في المسيح طبيعتين فلم يكن هذا التظاهر إلّا إلى وقت ، ولما أيقنوا تمكن ضلالهم الحديث بان في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً خلعوا ثوب الرياء وعادوا ينشرون ضلالهم القديم بأنّ في المسيح طبيعة واحدة، ويتوسلون بالضلال الحديث إلى بث الضلال القديم. وأورد السمعاني دليلاً على ذلك ما رويناه (في عد ٦٩٢) من محادثة هرقل الملك واتناسيوس بطريرك اليعاقبة نقلاً عن تاريخ توافان لسنة ٢٠ لهرقل، حيث يقول أنّ اتناسيوس تظاهر بالاذعان للمجمع الخلكيدوني وانثنى سائلاً الملك إذا سلمنا بطبيعتين فهل يلزمنا أن نقول بمشيئتين أو بمشيئة واحدة، فالملك لجهله ما يجيبه به سأل سرجيوس بطريرك قسطنطينية ولما كان هذا سورياً ووالداه يعقوبيين أجاب الملك بأنه يلزم الاعتقاد بمشيئة واحدة وفعل واحد ، وسأل الملك قورش الذي صار بعداً اسقفاً على اسكندرية فقال كذلك فوجد الملك أنّ رأي سرجيوس وقورش يوافق رأي اتناسيوس فاغترّ الملك . وسترى أنه كان بين هؤلاء مفاوضات سابقة إلى أن قال السمعاني فيظهر من ذلك أنّ ائمة هذه البدعة الأولين داروا بدعتهم بالطبيعة الواحدة إلى وقت موقنين انه حيث وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد وجدت طبيعة واحدة وقد وُجِدَ بين اليونان من دافع عن هذه البدعة معلماً أنّ في المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً، وفي جملة هؤلاء من القدماء قورش بطريرك اسكندرية،

ويرس بطريرك قسطنطينية ومكاريوس بطريرك انطاكية، ومن الحدثاء توما اسقف كفرطاب ومن قال بقوله. إلّا أنّ السريان القدماء والحدثاء قد تابعوا اتناسيوس بطريرك اليعاقبة وسرجيوس وبولس بطريركي قسطنطينية فلم يفصلوا بين بدعة الطبيعة الواحدة وبدعة المشيئة الواحدة بل جمعوا بين البدعتين، كما يظهر من كلام توافان المار ذكره، ومن ملازمة احد الضلالين للآخر ضرورة. وعليه فلا تجد احداً من اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة، قبل القرن العاشر تصدى لرد بدعة المشيئة الواحدة أو أتى بذكرها. انتهى كلام السمعاني ملخصاً.

قد رأيت أنّ سرجيوس بطريرك قسطنطينية كان والداه يعقوبيين وأشرباه هذا الضلال، فكان أول من جدّ بنشر بدعة الطبيعة الواحدة بوسيلة التعليم بمشيئة واحدة، ولم يدّخر حيلة ولا خدعة في هذا السبيل. فقد زيّف رسالة عزاها إلى منّا بطريرك قسطنطينية منفذة إلى البابا فيجيليوس وضمنها التصريح بأنّ في المخلص مشيئة واحدة وفعلاً واحداً وارسلها إلى توادورس اسقف فاران (المعروفة الآن بوادي فيران) بالعربية، فأجابه إنه يعتقد كذلك أنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً. وكل ذلك بين في المحاورة التي كانت بين القديس مكسيمس وبيرس خليفة سرجيوس في الكرسي القسطنطيني، وقد ذكرها لاباي (مجلد ٥ من مجموعة المجامع) بل تمكن سرجيوس أن يعتضد بالملك هرقل على نشر هذا الضلال. فهذا الملك كان يعتمد على سرجيوس البطريرك حتى عهد إليه بتدبير مملكته وتدريب ابنه حين سفره لمحاربة الفرس، فلم يكن يعسر عليه أن يشربه ضلاله. ولما كان الملك سنة ٦٢٢م في ارمينيا حدّث الراهب بولس الذي كان من اتباع ساويرس (وقد اشرنا إليه) بأنّ في المسيح فعلاً واحداً، فكتب بولس إلى سرجيوس ينبئه بما حدّثه الملك فأجابه البطريرك مرسلاً إليه رسالة منّا التي كان قد زيّفها ومتابعة توادورس اسقف فاران له على رأيه، واطلع بولس الملك على جواب البطريرك فازداد جرأة، وكتب إلى اركاديوس متروبوليت قبرص ناهياً عن أن يزعم احد أنّ في المسيح فعلين بعد اتحاد الطبيعتين، واثبت سرجيوس منشور الملك خطيًّا فلم يمتثل اركاديوس أمر الملك واستمرّ محافظاً على الإيمان الكاثوليكي. (روى كل ذلك لاباي في مجموعة المجامع مجلّد ٥) ثم باحث الملك قورش أسقف فاسيدايا وأطلعه على منشوره لاركاديوس فلم يذعن، فأراه الملك جواب سرجيوس وإثباته المنشور المذكور، فصمت قورش وكتب إلى سرجيوس يسأله كيف يمكن إثبات هذا الزعم

بشهادة الأسفار المقدَّسة والمجامع المسكونية فأجابه سرجيوس أنَّ المجامع لم تبحث عن هذا المبحث لكنني أعلم أنَّ كثيرين من الآباء صرَّحوا بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، وأرسل إليه رسالة منا المزيفة وفقراً من كلام بعض الآباء حتى جعله يرى رأيه. وفي هذه الأثناء حدث الملك هرقل اتناسيوس بطريرك اليعاقبة كما رأيت فاتفق هؤلاء جميعاً على هذا الضلال وأخذوا يبثونه سنة ٦٢٨م. وحدث في سنة ٦٣٠ أن قد توفي جيورجيوس بطريرك اسكندرية وخلفه قورش أسقف فاسيدايا المار ذكره، فاستعان بتوادورس أسقف فاران على نشر هذه البدعة، وعني بأن يضم إليه التوادوسيين (فرقة من الأوطاخيين) فوافقوه وكتبوا صك الإتّفاق مؤرخاً في ٤ أيار سنة ٦٣٣م متضمناً تسع مواد، وفي السابعة منها الحرم لكل من يقول إنَّ في المسيح فعلين ومشيئتين. واتَّفق أنَّ القديس صفرونيوس (إذ كان راهباً) أتى حينئذٍ إلى اسكندرية فسلمه قورش تلك المواد ليفحصها ولما رأى ما فيها سقط على قدمي البطريرك متضرعاً إليه بدموع سخينة أن لا يذيعها لأنَّها تخالف الإيمان القويم، فلم يعبأ قورش بكلامه ولم تثنه دموعه عن عزمه، بل أذاع صك الإتّحاد على ما كان عليه وأرسل يخبر سرجيوس بما كان. أما صفرونيوس فلما رأى خيبوبة أمله من قورش مضى مسرعاً إلى قسطنطينية آملاً بأنَّ سرجيوس يصغي لحججه القاطعة وأدلته الساطعة، فوصل إلى العاصمة، وبلغت سرجيوس رسالة قورش وكان من أخباره فيها أنَّ صفرونيوس حاوره في مسألة الفعلين والمشيئتين في المسيح وأنَّه أورد لمدعاه شواهد من كلام كثيرين من الآباء القديسين (لاباي مجلَّد ٦ صفحة ٢٦٣)، فلم يشأ سرجيوس أن يذعن لحجج صفرونيوس بل كابر وتعنَّت وأجاب قورش مثبتاً تلك المواد ومصرحاً بلزوم الإعتقاد بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، أما صفرونيوس فعاد إلى أورشليم ودعته العناية الإلهية إلى بطريرك أورشليم سنة ٦٣٣م أو سنة ٦٣٤م ليكون مقاوماً البطاركة الثلاثة في هذه البدعة التي أنشأها سرجيوس بطريرك قسطنطينية، وعاونه على نشرها قورش بطريرك اسكندرية وتابعهما مكدونيوس بطريرك أنطاكية (لاباي في مجلَّد ٦ من مجموعة المجامع وغيره كثيرون).

عقد صفرونيوس مجمعاً في أورشليم جمع فيه كثيرين من الأساقفة، وحرم بدعة المشيئة الواحدة، وجمع في مجلدين ست مئة شهادة من أقوال الآباء القديسين ليفحم بها أصحاب هذه البدعة ويردّهم إلى سواء السبيل، وأرسل

أسطفانس أسقف دورا (الطنطورة) إلى الحبر الروماني عارضاً عليه كل هذه الأمور. وعرف سرجيوس ما صنعه صفرونيوس فكتب رسالة مسهبة إلى البابا أنوريوس بلغته قبل رسالة صفرونيوس ولم يدّخر سرجيوس حيلةً ولا كذباً ليخدع أنوريوس ويستميله إلى رأيه. وقد أثبت روهربخر (في ك ٤٨ من تاريخه) قسماً كبيراً من هذه الرسالة عن لاباي (في مجلّد ٦ من مجموعة المجامع) ورأى سرجيوس من نفسه الجهل بهذا المبحث، وأنَّ لا ضلع له فيه، وأقام الحجة على أنَّه لا يرى إلَّا ما يراه الحبر الروماني، وأرسل إليه رسالة متّا سالفه التي كان قد استنبطها. وقال إنَّه يرى كثيرين من الآباء لم يقولوا بفعلين في المسيح بل بفعل واحد، وإنَّ القول بالمشيئتين من شأنه أن يكون معثرة للسذج والأميين فيظنون أنَّ في المخلِّص مشيئتين تضاد إحداهما الأخرى كما تضاد مشيئة الجسد فينا مشيئة الروح. وقال في جملة كذبه أنَّه اتَّفق مع صفرونيوس إذ صير بطريركاً على أورشليم أن لا يتكلَّم في هذا المبحث لئلَّا يكون معثرة للأراطقة الذين ردهم قورش في اسكندرية عن ضلالهم إلى الإيمان القويم، واتَّفقوا أن لا يتحرشوا في المبحث بما إذا كان في المسيح فعلان ومشيئتان أو فعل ومشيئة، وأخفى على أنوريوس كل ما كان قد كتبه إلى الأساقفة أو إلى الملك، وسأله أن يأمر بسلطانه السامي أن لا يتحرَّش أحد في هذا البحث الذي لا طائلة له بأمر الدين بل هو لغوي بحت.

انخدع البابا أنوريوس بكلام سرجيوس وحيلته وتلفيقه، وأجابه مثنياً على مسعاه بنبذ ما يمكن أن يعثر به الأميون. ومما قاله في جوابه: «إنَّ اللاهوت لم يكن ممكناً قطعاً أن يتحمَّل الآلام البشرية بل تحملها الجسد المتَّحد به بنوع أنَّ الفصل بين الطبيعتين استمرَّ قائماً، فنعتقد إذاً أنَّ في المخلِّص مشيئة واحدة لأنَّ كلمة الله لم يأخذ خطيتنا بل طبيعتنا كما خلقت وقبل أن فسدت بالخطية. فلم يتَّخذ طبيعتنا المدنسة بالإثم بل أتى ليخلصها، ولم تكن فيه قط سنة أخرى لأعضائه تسبيه إلى سنة الخطية كما هي فينا، ولا مشيئة مخالفة أو مضادة لمشيئته المقدسة لأنَّه أرفع من الطبيعة البشرية. وحيث قال ما اتيت لأصنع مشيئتي بل مشيئة من أرسلني لا يريد بهذا القول مشيئة مخالفة أو مضادة فيه بل أراد مشيئة الناسوت الذي اتَّخذه، وإذا كان أحد قد قال متلعثماً بفعل أو فعلين كيلا يعثر الأميون بكلامه فلا ينبغي جعل ذلك عقيدة دينية في الكنيسة؛ لأنَّه يظهر أنَّ الأسفار المقدسة والمجامع لم تقطع بذلك بل صرحت جلياً بأنَّ يسوع المسيح هو الفاعل للأفعال الإلهية والأفعال

البشرية على أنَّه يلزمنا أن لا نتوغل في هذه الأبحاث الحديثة لئلا يعتدنا الأميون نساطرة إذا قلنا بفعلين، أو يحسبونا اوطاخيين إذا قلنا بفعل واحد، فنعترف إذاً يبساطة بأنَّ يسوع المسيح الواحد هو الفاعل في الطبيعة الإلهية وفي الطبيعة البشرية. والحاصل أنَّنا نحثكم على أن تجانبوا التصريح الحديث بفعل أو فعلين وأن تعظوا الشعب كما نصنع نحن بان يسوع المسيح الواحد هو الفاعل في الطبيعتين ما خص اللاهوت، وما خص الناسوت». فهذه خلاصة جواب البابا انوريوس لسرجيوس بطريرك قسطنطينية نقلاً عن لاباي (مجلَّد ٦ صفحة ٩٢٨).

قد تذرَّع الهراطقة بجواب البابا أنوريوس هذا فزعموا أنَّه أثبت ضلال أصحاب المشيئة الواحدة، واتَّخذوا ذلك حجة لانكارهم عصمة الأحبار الرومانيين من الغلط في عقائد الإيمان، ولكن قد فنَّد العلماء الكاثوليكيون زعمهم هذا وزيفوا أقوالهم، ونقتصر مما برأوا به ساحة أنوريوس من الضلال على إثباتهم الجلي أنَّ كلَّ ما كتبه هذا البابا بهذه الرسالة وغيرها هو مطابق للمعتقد الكاثوليكي بمعناه الظاهر ظهور النهار لذي عينين، فقد علمت الكنيسة الكاثوليكية وتعلِّم الآن وإلى الأبد أنَّه لم يكن في ناسوت المخلِّص مشيئة في جسده تخالف مشيئة روحه ولا سنة في أعضائه تخالف سنة ضميره وتسبيه إلى سنة الخطية كما هو فينا لفساد طبعنا البشري بخطية آدم، وأنَّ الفاعل في المسيح هو واحد لكنه يفعل فعلين فعلاً إلهياً وفعلاً بشرياً لأنَّه أقنوم واحد ذو طبيعتين. ولا يؤخذ من كلام أنوريوس غير هذا المعنى مهما تعسَّفه الهراطقة والمخالفون كما رأيت في كلامه الذي أوردنا منه كل ما يهم هذا المعنى، وكما فسَّره البابا يوحنا الرابع خليفته في رسالته إلى الملك قسطنطين الليحاني حيث يقول: «إنَّ البعض كانوا يعتقدون أنَّ يسوع المسيح الإله الكامل والإنسان الكامل أتى ليصلح فساد الطبيعة البشرية فحبل به وولد دون خطية، ولذلك لم تكن فيه مشيئتان متضادتان، ومشيئة جسده لم تضاد مشيئة روحه كما هو فينا بسبب الخطية التي كسبناها من آدم». على أنَّنا لا ننكر أنَّ أنوريوس انخدع بحيل سرجيوس البطريرك القسطنطيني، ونهى عن التوغل في البحث عما إذا كان في المسيح فعل أو فعلان، وكان عليه أن ينتبه إلى أنَّه قد يكون لسرجيوس غرض غير الظاهر من كلامه، ويتدارك الأمر حتى لا يؤخذ من كلامه ما يستعين به المارقون بمكرهم على بث ضلالهم على أنَّ هذا خطأ شخصي بتصرفه. وليس ضلالاً في إيمانه، ولا يجدي المارقين نفعاً زعمهم أنَّ المجمع السادس حرم أنوريوس

لأنَّ بارونيوس إمام المؤرخين حقق أنَّ اسم أنوريوس أدخله بعض الهراطقة في جملة أسماء المحرومين في هذا المجمع، ولا وجود له في النسخ الصحيحة من أعماله. وهب أنَّ آباء هذا المجمع حرموه حقيقة كما ذهب نسطاليس اسكندر وغيره من الكاثوليكيين، فلم يحرموه لضلاله في الإيمان بل لتغاضيه عن كشف خدعة سرجيوس ووضعه له وسيلة يتذرع بها لبثه بدعته كما صرَّح بذلك البابا لاون الثاني في رسالته إلى الملك قسطنطين اللحياني، التي أثبت بها المجمع السادس حيث ذكر من حرمهم المجمع واتبع بهم أنوريوس قائلاً إنَّ المجمع حرمه لا لمتابعته لهم على معتقدهم الكاذب بل لتغاضيه عن المقاومة لهم. وقال هذا البابا في رسالته إلى أساقفة إسبانيا «إنَّ المجمع حرم توادورس وقورش . .. مع أنوريوس الذي لم يخمد بالسلطان الرسولي كما كان لازماً نار البدعة إذ كانت في بدء تسعرها، بل نفخ فيها بتغاضيه». والحاصل أنَّ انوريوس أخطأ بتصرفه الشخصي ولم يضل في إيمانه وهذا لا يعيب الكرسي الرسولي، ولا حجة منه للمارقين في إنكار عصمة الأحبار الأعظمين.

وبعد وفاة البابا انوريوس سنة ٦٣٨م ازدادت بدعة المشيئة الواحدة انتشاراً لأنَّ الملك هرقل أذاع سنة ٦٣٩م منشوراً عنونه «اكتسى» هي لفظة يونانية تأويلها الشرح أي شرح عقائد الإيمان، وكان سرجيوس قد ألَّف هذا الشرح وصرَّح فيه بأنَّه يلزم الإعتقاد بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة فأثبته سرجيوس مثنياً على الملك وتابعه على ذلك قورش بطريرك اسكندرية (لاباي مجلَّد ٦ من كتابه المذكور صفحة ٢٠٣)، ولكن حرمه البابا يوحنا الرابع سنة ٦٤٠م، وعقد في رومة مجمعاً نبذ فيه بدعة المشيئة الواحدة. ولما علم بذلك هرقل الملك كتب إلى البابا وممَّا قاله: «إنَّ الاكتسى لم انشئه ولم آمر به بل الذي ألَّفه هو سرجيوس البطريرك وبعد عودي إلى قسطنطينية حملني على أن أوقِّع عليه وأذيعه، فأنقدت لإجابة سؤاله وإذ رأيت الآن أنَّه كان علة لمحاورات دينية فأصرِّح لكل أحد أنِّي براء من هذا المنشور وإني لم أكن مؤلفه» (روى ذلك باجيوس في تاريخ سنة ٦٤٠م).

ومات سرجيوس بطريرك قسطنطينية وخلفه بيروس وكان معنوياً بهذا الضلال لكنه اعتزل البطريركية لمخاصماته مع الشعب، ولبث متشبثاً بهذا الضلال، وجرت محاورة شهيرة بينه وبين القديس مكسيمس الذي كان في قسطنطينية فأبكمه فيها، وأقلع عن ضلاله لدى الحبر الروماني إلّا أنَّه عاد إليه وإلى كرسي قسطنطينية سنة

٦٥٥م. وفي مدة اعتزاله أقيم مكانه بولس ومات الملك هرقل سنة ٦٤١م، وخلفه ابنه قسطنت الثاني فحمله بولس البطريرك على أن يذيع سنة ٦٤٨م منشوراً سماه: «تيب» أي صورة نهى به عن الجدال في المشيئة الواحدة أو المشيئتين مفترضاً عقوبات ثقيلة على من يخالف منشوره فعقد البابا مرتينس مجمعاً في رومة سنة ٦٤٩م وحرم بدعة المشيئة الواحدة ونبذ منشور الملك فاضطهده قسطنت حتى نفاه ومات في منفاه سنة ٦٥٤م وقام في قسطنطينية بعد بولس بطريرك اسمه بطرس كان على شاكلة سلفائه وأجرى قسطنت مظالم فظيعة على الكاثوليكيين إلى أن عاجلته نقمة الله واغتاله أحد خدامه في الحمام سنة ٦٦٨م، وخلفه ابنه قسطنطين الملقَّب باللحياني لطول لحيته، وكان صالحاً ورعاً حليماً عادلاً اتَّفق مع الحبر الروماني على عقد المجمع السادس المسكوني في قسطنطينية سنة ٦٨٠م، استئصالاً لبدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد.

عد ٦٩٨

المجمع السادس المسكوني الذي حرَّم بدعة المشيئة الواحدة

قد كتب الملك قسطنطين رسالة إلى البابا دمنس مؤرخة في ١٠ آب سنة ٦٧٨م يسأله فيها أن ينفذ من قبله بعض علماء ضليعين في معرفة الأسفار المقدَّسة للمذاكرة مع الرؤساء في المشرق في عقائد الإيمان حسماً للإختلافات التي طال أمرها، فلم تبلغ هذه الرسالة إلى رومة إلَّا في سنة ٦٧٩م، وكان البابا دمنس قد توفاه الله وخلفه البابا أغاتون فسر برسالة الملك وأعلم بها أساقفة المغرب، وأرسلوا وفوداً إلى رومة فعقد البابا فيها مجمعاً في ٢٧ آذار سنة ٦٨٠م حيث اجتمع مئة وخمسة وعشرون أسقفاً ليختاروا من يوفدونهم إلى قسطنطينية ويعدوا المواد التي يلزم البحث فيها بحضرة الملك، وكتب البابا حينئذٍ رسالتين إلى الملك قسطنطين وأخويه هرقل وطيبار، إحداهما باسمه والثانية باسم كنائس المغرب جمعاء، وضمّن الرسالة التي باسمه مقالة طويلة في شرح المسألة المبحوث عنها، وأنفذ إليه توادورس وجيورجيوس الكاهنين، ويوحنا الشماس لينوبوا عنه في المجمع، ويوحنا أسقف بُرتو، وأبو ندنتيوس أسقف بالسترين ويوحنا أسقف راجيو لينوبوا عن الأساقفة المجتمعين في رومة، وعقد المجلس الأوَّل في ٧ تشرين الثاني سنة ٦٨٠م بحضرة

الملك ولم يكن الأساقفة المجتمعون في هذا المجمع أولاً الا قليلين، ولم يشهده بطريركا اسكندرية وأورشليم للقلق المستحوذ في فلسطين ومصر، فانابا الكهنة عنهما وشهده جيورجيوس بطريرك قسطنطينية ومكاريوس بطريرك أنطاكية. وقام في هذا المجلس الملك في الوسط والإنجيل أمامه، ووقف أحد نواب البابا واستهلَّ كلامه إلى الملك قائلاً ما ملخَّصه أنَّه من نحو ست وأربعين سنة أدخل سرجيوس بطريرك قسطنطينية وغيره تعليماً حديثاً في الكنيسة زاعمين أنَّ ليس في المخلِّص إلَّا مشيئة واحدة وفعل واحد، وأقلق هذا الزعم الكنيسة فنبذه الكرسي الرسولي المقدَّس وحضَّ القائلين به على الإرعواء عنه فلم يرعووا، فنسأل الآن جلالتكم أن تأمر من هم معنا من قبل كنيسة قسطنطينية أن يبينوا لنا من أين أتوا بهذا التعليم الحديث. فأمر الملك جيورجيوس بطريرك قسطنطينية ومكاريوس بطريرك أنطاكية أن يجيبا، فقالا لم نعلّم إلَّا ما تعلَّمناه من المجامع المسكونية والآباء الموثوق بهم ولاسيما سرجيوس وبيروس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية، وقورش بطريرك اسكندرية الذين اعتقدوا ما نعتقد، ونحن مستعدون لإثبات مقالنا فرخص الملك لهما أن يثبتا ما يقولان. فسأله مكاريوس أن يأمر حافظ سجلات الكرسي القسطنطيني أن يأتي بكتاب المجامع من الخزانة البطريركية فأتى به، وأخذ مكاريوس كتاب المجمع الأفسسي وطفق يقرأ خطاب القديس كيرللس للملك توادوسيوس ووقف عند قوله: «إنَّ مسند ملكك إنَّما هو يسوع المسيح الذي به تملك الملوك، ويقضي الحكام بالعدل، لأنَّ إرادته قديرة على كل شيء». وقال إليكم البرهان على أنَّ في المسيح مشيئة واحدة، فصاح نواب البابا وغيرهم ما هذا التعسُّف؟ إنَّ كلام القديس كيرلس في إرادة المسيح الإلهية والأمر بيّن فانه وصفها بقديرة على كل شيء، وليس غرضه بيان عدد الإرادات في المسيح. وبعد أن أكملوا تلاوة أعمال المجمع الأفسسي فض الملك المجلس قائلاً: ستتلى في المجلس التالي أعمال المجمع الخلكيدوني.

وعقد المجلس الثاني في ١٠ من تشرين الثاني وأخذ في تلاوة أعمال المجمع الخلكيدوني، ولمَّا انتهى القارئ إلى قول القديس لاون البابا في رسالته إلى البطريرك افلابيانس وهو: «إنَّ كل طبيعة في المسيح تفعل ما خصّها بالإشتراك مع الطبيعة الأخرى. فالكلمة يفعل ما خصَّ الكلمة، والجسد يفعل ما خصَّ الجسد. فاحدهما متسام بآياته والآخر متحمِّل سوء المعاملة». قال نواب البابا ها هو هذا البابا لاون يثبت أنَّ في المسيح فعلين طبيعيين دون اختلاط ولم تقسم، والمجمع الخلكيدوني

يجعل كلامه دعامة للإيمان الكاثوليكي ومفنداً لكل بدعة. فقال مكاريوس بطريرك أنطاكية إنَّ البابا لاون أراد بهذا الكلام الفعل الإلهي البشري. فسئل ما المراد بالفعل الإلهي البشري؟ فلم يستطع مكاريوس أن يبينه وأتموا تلاوة أعمال المجمع الخلكيدوني وقرروا أن تتلى أعمال المجمع الخامس في المجلس التالي.

وعقد المجلس الثالث في ١٢ ت٢ وبدئ فيه بتلاوة خطبة منّا بطريرك قسطنطينية إلى فيجيليوس الحبر الروماني في أنَّ ليس في المسيح إلَّا مشيئة واحدة، فقال نواب البابا إنَّ هذه الخطبة مزورة ومخترعة، وسألوا الملك العدول عن تلاوتها، وأقاموا الدليل على أنَّها مخترعة من أنَّ منا توفي في السنة الأولى ليوستنياس، والمجمع الخامس لم يلتئم إلَّا في السنة ٢٧ لملكه، وكان حينئذٍ افتيشيوس بطريركاً على قسطنطينية، ففحص الملك والقضاة في كتاب أعمال المجمع الخامس فوجدوا أنَّه زيد في أوله ثلاثة كراريس غير مضبوطة بالأعداد والتواقيع المعتادة وان الخط فيها يخالف خط باقي الكتاب فنبذوا خطبة منّا، وأمر الملك بتلاوة مقدمة المجمع الخامس وأعماله إلى المجلس السابع، فوجدوا ثمة كتابين للبابا فيجيليوس أحدهما إلى الملك يوستنياس والثاني إلى الملكة توادورا، وفيه هذه الكلمات: «فليكن محروماً توادورس أسقف المصيصة إذ لم يعترف أنَّ في المسيح أقنوماً واحداً وفعلاً واحداً» فأثبت نواب البابا أنَّ الكتابين ليسا لفيجيليوس حقيقةً بل اخترعهما المبدعون، وقالوا لو كان رأى فيجيليوس في أنَّ في المسيح فعلاً واحداً، وأنَّ المجمع أثبت هذا الرأي لما استغنى عن إشارة إليه في دستور الإيمان الذي أنشأه، فتليت أعمال المجمع برمتها فلم يوجد أثر فيها لهذا المعنى. وطلب نواب البابا أن تراجع رسائل فيجيليوس ليظهر الصحيح منها فأرجأ الملك البحث في ذلك إلى المجلس الآتي. وسأل الملك هل قدم مكاريوس بحسب وعده حججه على أنَّ في المسيح مشيئة واحدة؟ فقالوا: لم يقدّم شيئاً. وطالب مكاريوس بانجاز وعده فطلب مهلةً، وسأل جيورجيوس بطريرك قسطنطينية أنَّ تتلى رسالة البابا اغاتون إلى المجمع، فارجئت إجابة سؤاله إلى المجلس التالي.

وعقد المجلس الرابع في ١٥ تشرين الثاني. وكان ديوجان كاتب الملك قد ترجم رسالتي البابا اغاتون إلى اليونانية فاستوعبت تلاوتهما مدة المجلس كلها، وقد ضمنهما البابا ومجمعه في رومة كثيراً من آيات الأسفار المقدسة وشواهد الآباء، والمجامع المثبتة أنَّ في المسيح مشيئتين وفعلين مع الحرم لهذه البدعة. وعقد المجلس

الخامس في ٧ كانون الأوَّل ، فأبرز مكاريوس بطريرك أنطاكية كتابين ضمَّنهما شواهد من كتب الآباء ، ثم قدَّم في المجلس السادس الذي التأم في ٢ شباط سنة ٦٨١م كتاباً آخر لإثبات زعمه، فأخذ نواب البابا يبينون في المجلسين أنَّ الشواهد التي أوردها مكاريوس لا تثبت غرضه ، ولا تؤيد أنَّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ، وأنَّه حرَّف أكثرها أو حذف منها ما يدل على أنَّ الكلام في الثالوث الأقدس الذي ليس فيه إلَّا مشيئة واحدة وفعل واحد، وسألوا الملك أن يحضر الكتب المأخوذة تلك الشواهد عنها لتعارض بنقل مكاريوس، فأحضرت وافتضح تزييف مكاريوس وتعسفه لها. وقال نواب البابا لدينا كتاب حوى من شهادات الآباء ما يثبت أنَّ في المسيح مشيئتين وفعلين، ومن شهادات المبدعين ما يتبيَّن منه أنَّهم زعموا كمكاريوس أنَّ في المسيح مشيئة واحدة، فنسأل أن يتلى الكتاب في هذا المجمع، فقال الملك سوف يتلى في المجلس التالي.

وعقد المجلس السابع في ١٣ شباط وتلي فيه الكتاب الذي قدَّمه نواب البابا فسألهم الملك ألديكم شيء آخر؟ قالوا نكتفي بهذا الآن لئلَّا تملوا ، ونسأل الملك أن يأمر بطريركي قسطنطينية وأنطاكية أن يجيبا : أيذعنان لما جاء في رسالتي البابا أغاتون ومجمعه أم يخالفان؟ فطلب البطريركان نسخة من الرسالتين ليحققا صحة الشهادات قبل أن يجاوبا فأعطياها. وفي المجلس الثامن الذي عقد في ٧ آذار سأل الملك البطريركين أتوافقان على ما تضمَّنته رسالتا البابا، فأجابه جيورجيوس بطريرك قسطنطينية قد عارضت الشهادات الواردة فيهما بأصولها فوجدتها مطابقة لها، ولذلك اعتقد ما يعتقد البابا أغاتون. وصرَّح توادورس أسقف أفسس أنَّه يعتقد بمشيئتين وفعلين في المخلِّص، وتابعهما على ذلك سيسين أسقف هرقلية وأساقفة كثيرون، ولكن قدَّم توادورس أسقف ملاطيا في أرمينيا مذكرة باسمه واسم ثلاثة أساقفة وغيرهم من الكهنة يسألون المجمع فيها أن لا يحرم من قال بفعل أو فعلي،ن لأنَّ المجامع العامة لم تصرِّح بحكمها بهذا البحث، فأنكر الأساقفة الثلاثة أن يكونوا قدَّموا تلك المذكرة ولم يصر على ما طلب فيها إلَّا أسطفانس تلميذ البطريرك الأنطاكي، وعاد القضاة يطلبون آراء باقي الأساقفة الخاضعين للبطريرك القسطنطيني. فقالوا نرى ما رآه الحبر الروماني ونحرم من لا يعتقدون في المسيح مشيئتين وفعلي.ن وسأل المجمع الملك أن يأمر مكاريوس بطريرك أنطاكية أن يصرِّح باعتقاده المشيئتين في المسيح، فقال لا أعتقد ذلك، فأمر أن يقف في وسط المجمع ليبرئ

نفسه من ضلاله، ونهض حينئذٍ خمسة من أساقفته وصرَّحوا بأنَّهم مذعنون لتعليم الحبر الروماني ويعتقدون المشيئتين في المسيح. وأمر الملك أن يؤتى بالكتب الثلاثة التي كان مكاريوس قد قدَّمها، وسأله لِمَ جمعت هذه الشواهد؟، فقال لأثبت بها أنَّ لله الآب ولربنا يسوع المسيح وللروح القدس مشيئة واحدة فقال له الملك صرِّح بمعتقدك بيسوع المسيح: أمشيئتان فيه أم مشيئة؟ فأجابه قدَّمت لجلالتك دستور إيماني فطالعه فأمر الملك بتلاوته فإذا هو قد صرَّح فيه بأنَّه لا يعتقد في المخلِّص إلَّا مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فحتَّم عليه أن يعترف المشيئتين. فقال لا أعترف بمشيئتين وفعلين ولو قطعت قطعاً، وأخذ المجمع بمعارضة الشهادات التي أوردها بأصولها، فألفوها محرفة أو مزيفة أو مقطوعة، فحكم المجمع عليه بالحرم والحط عن مقامه الأسقفي.

وعقد المجلس التاسع في ٨ آذار ولم يكن فيه ولا في ما تلاه إلى المجلس الرابع عشر مكاريوس ولا أحد من تبعته، واستكمل المجمع معارضة الشواهد التي أتى بها مكاريوس بأصولها فلم يجدوا شهادة منها تطابق أصلها لفظاً ومعنىً، وعقد المجلس العاشر في ١٨ آذار وقد أتى إليه إثنا عشر أسقفاً لم يشهدوا المجالس السابقة، فتلا الآباء الشواهد التي اشتمل عليها الكتاب الذي قدَّمه نواب البابا وعارضوها بكتب أصولها التي كانت في خزانة البطريركية بقسطنطينية فوجدت مطابقة لأصولها الطباق التام، وعارضوها بما جاء في ذلك الكتاب من أقوال المبدعين فألفوها مطابقة لكتبهم المحرَّمة. وعقدت الجلسة الحادية عشرة في ٢٠ آذار وكان نحو من ثلاثين أسقفاً قد أتوا حديثاً إلى المجمع، فتليت في هذا المجلس رسالة القديس صفرونيوس البطريرك الأورشليمي إلى سرجيوس بطريرك قسطنطينية، وكتاب كان مكاريوس البطريرك الأنطاكي قد قدَّمه إلى الملك واحدى خطبه إليه، وشكا توافان رئيس أحد الأديار من أنَّ مكاريوس أرسل هذه الخطبة إلى سردينيا وروما وغيرهما قبل أن تتلى في الندوة، وكانت هذه الخطبة موعبة بالضلال مصرحة أنَّ ليس في المسيح إلَّا مشيئة واحدة وفعل واحد، وحقَّق الملك أنَّه لا علم له بهذه الخطبة. ثم تلا غير ذلك من مقالاته وأمر قضاة المجمع أن يؤخذ من أقوال المبدعين الواردة في كتاب نواب البابا ما يشابه أقوال مكاريوس لتعارض بأقواله أحكاماً للقضاء عليه، واعتذر الملك عن حضوره مع الآباء في المجالس الآتية لما تدعوه إليه مشاغله، ولم يعد يشهد إلَّا المجلس الأخير.

وعقد المجلس الثاني عشر في ٢٢ آذار وكان المجتمعون فيه نحواً من ثمانين أسقفاً وتلوا فيه مجموعة الشهادات التي كان مكاريوس قد قدَّمها للملك، وعارضوا هذه الشهادات بالكتب المأخوذة عنها التي كانت محفوظة في خزانة بطريركية قسطنطينية. فانجلى بُطلان شهاداته واعتسافه فيها، فأرسلوا إليه مسجلي المجمع وثلاثة أساقفة ينبئونه بما ظهر للمجمع. وسأل القضاة الأساقفة هل يمكن رد مكاريوس إلى كرسيه إذا ارعوى عن ضلاله. فبعد المذاكرة وإيراد ما ثبت عليه من الجرائم والضلال أجابوا لا يمكن رده إلى الأسقفية بل طلبوا إلى القضاة أن يسألوا الملك أن ينفيه من قسطنطينية وكل من يقول بقولِهِ. وتقدَّم حينئذٍ أساقفة بطريركية أنطاكية وكهنتها وسألوا القضاة أن يقام بطريرك على أنطاكية كيلا تلبث مترملة فوعدوا بإجابة طلبهم.

وفي ٢٨ آذار عقد المجلس الثالث عشر وتليت فيه رسائل سرجيوس وأنوريوس فوجدها آباء المجمع مخالفة لتعليم الرسل والمجامع والآباء، فحرموا سرجيوس وقورش وبيرس وبولس وبطرس لتسكعهم بضلال المشيئة الواحدة، وحرموا أنوريوس لأنَّ رسالته كانت وسيلة للتشبث بهذا الضلال، وتلوا رسالة صفرونيوس البطريرك الأورشليمي فألفوها مطابقة للإيمان القويم ونافعة في الكنيسة فحتموا بوضع اسمه في جملة تذكارات الآباء في القداس، وكلفوا أساقفة بطريركية أنطاكية أن ينتخبوا بطريركاً مكان مكاريوس فانتخبوا قبل نهاية المجمع توافان الذي كان قد أبدى شديد المدافعة عن الإيمان القويم كما مرَّ في المجلس الثامن، فرقي إلى بطريركية أنطاكية، وطالعوا رسائل سرجيوس وقورش وبيرس وباقي أصحابهم، ولما حققوا ضلالهم أمروا بإزالة أسمائهم من التذكارات البيعية وحرّموا رسائلهم المذكورة.

وعقد المجلس الرابع عشر في ٥ نيسان وبحث الأساقفة فيه في خطبة منّا إلى البابا فيجيليوس، ورسالتي فيجيليوس إلى الملك يوستنيانس، وتوادوروا الملكة المعلقة على أعمال المجمع الخامس، وأتوا بنسختين من هذه الأعمال احداهما كتبت على رق والأخرى على ورق فألفوهما متطابقتين. وأراد الأساقفة النظر في أعمال المجلس السابع من ذلك المجمع فألفوا خطبة منّا ورسالتي فيجيليوس مدخلة على أعمال هذا المجلس ولم تكتب في أيامه وعارضوا النسختين المذكورتين بنسخ أخرى قديمة وكثيرة وإحداهما كانت في مكتبة البطريركية، فلم يجدوا أثراً لخطبة منا أو لرسالتي فيجيليوس فقضوا بإزالتهما من النسختين، وبالحرم لمن أدخلهما. وبلغهم أنَّ الراهب

جيورجيوس إنّما هو الذي كتب بخط يده تلك الخطبة والرسالتين فأشخص في المجمع، فأقرّ أنّه دوّن ذلك بطلب أسطفانس تلميذ مكاريوس بطريرك أنطاكية. وقيل لهم إنّ بولس بطريرك قسطنطينية ألحق مثل هذه الزيادة على نسخة لاتينية من أعمال المجمع الخامس بخط كاهن اسمه قسطنطين، فاستنطقوه فأقرّ أنّه كتب هذه المقالات بأمر بولس البطريرك وعاونه سرجيوس الشماس. وسئل هذا الشماس فأقرّ أيضاً فحرم حينئذٍ الأساقفة خطبة منا ورسالتي فيجيليوس المذكورة ، ومن اخترعها ومن كتبها ومن زيّف أعمال المجمع الخامس. ولم يلتئم المجلس الخامس عشر إلّا في ٢٦ نيسان لعطلة عيد الفصح ، وشُكي فيه بوليكرون الراهب الكاهن بأنّه يؤيد ضلال مكاريوس، فدُعي وأمر أن يصرِّح بإيمانه فقال أنّه يثبت عقيدته بإقامة ميت، فأجابه المجمع أن يقيم ميته بحضرة الجمهور، فكتب دستور إيمانه ووضعه على جثة ميت ونادى الميت ساعات فلم تكن حياة لمن ينادى، فحكم الآباء على هذا الكاهن بالحط عن درجته وأطلق الأساقفة الحرم عليه.

وانقطع الآباء عن الإجتماع نحواً من ثلاثة أشهر ، فلم يعقدوا المجلس السادس عشر إلّا في ٩ آب ، وكان بعض الأساقفة البعيدين عن قسطنطينية قد قدموا إليها في هذه المدَّة، فاستُدعي قسطنطين كاهن كنيسة اباميا قصبة سوريا الثانية وسئل عن إيمانه فقال أعترف بطبيعتين بحسب تعليم المجمع الخلكيدوني وبخاصتين لهما، ولا أحاور في مسألة الفعلين بل أقر بمشيئة واحدة في أقنوم الكلمة. فسئل هل تختصّ هذه المشيئة الواحدة بالطبع الإلهي أو البشري؟ فقال بالطبع الإلهي. وسئل أليس للطبع البشري مشيئة؟ فقال كانت له مشيئته إلى أن مات على الصليب، وأما بعد القيامة فتعرى من الجسد المائت وترك المشيئة البشرية واللحم والدم. وأنّه أخذ ذلك عن مكاريوس بطريرك انطاكية. ولما كان من المباديء المجمع. عليها أنّ ما أخذه كلمة الله مرة لن يتركه أبداً وأصرَّ قسطنطين على زعمه حرمه المجمع وعقد المجلس السابع عشر في ١١ أيلول ولم يكن فيه إلّا الإتّفاق على إنشاء دستور الإيمان الذي تلي حينئذٍ ثم أعيدت تلاوته في المجلس الأخير الذي هو الثامن عشر الذي التأم بحضرة الملك في ١٦ أيلول، وكان عدد الأساقفة فيه مئة وستين أسقفاً. وهذه خلاصة دستور الإيمان الذي وضعه هذا المجمع فإنّه أثبت المجامع الخمسة المسكونية السابقة وحرم من جسروا أن يحدثوا الضلال الحديث وهم: توادورس الفاراني، وسرجيوس، وبيروس، وبولس، وبطرس بطاركة قسطنطينية، وقورش البطريرك الإسكندري، ومكاريوس

البطريرك الأنطاكي، وتلميذه اسطفانس، وألحقوا بهم أنوريوس بابا رومة لتغاضيه عن هذا الضلال وعدم تداركه نشره، وأثبتوا رسالتي البابا أغاتون المشار إليهما، وحكموا بأنَّ في المخلِّص مشيئتين طبيعيتين وفعلين، وأنَّ المشيئة البشرية خاضعة للمشيئة الإلهية ولا خلاف بينهما، ونهوا عن أن يعلم أحد ما يخالف هذا التعليم تحت عقوبة الحط إن كان المخالف اكليريكياً، وعقوبة الحرم إن كان المخالف علمانياً. ووقع على أعمال المجمع نواب البابا الثلاثة أولاً، وبعدهم جيورجيوس البطريرك القسطنطيني، ثم بطرس الكاهن نائب بطريرك اسكندرية، ثم توافان البطريرك الأنطاكي، وجيورجيوس الكاهن نائب بطريركية أورشليم، ثم سائر الأساقفة، ثم سألهم الملك أرضيتم جميعكم طوعاً بدستور الإيمان الذي وقعتم عليه فصاحوا متفقين هذا معتقد جميعنا، ونحرم كل من قال أو يقول بمشيئة واحدة. ثم تلا احد الاساقفة خطبة اثنى فيها على غيرة الملك وتقواه، وعلى البابا اغاتون ورسالته ورسالة مجمعه الروماني، وسأل الاساقفة الملك أن يوقع دستور الايمان فوقع بعد الاساقفة جميعاً، وأمر أن تؤخذ خمس نسخ من هذا الدستور فترسل نسخة للحبر الروماني واربع نسخ للبطريركات الاربع. ووقّع الاساقفة على عريضة للبابا اغاثون ينبئونه فيها ما وفقهم الله إليه بانفاسه، وابرز الملك منشوراً أمر به بالامتثال لرسوم المجمع ونهى عن محالفتها متهدداً بعقوبات شديدة. وسأله مكاريوس الذي حطّ عن بطريركية انطاكية وتلميذه اسطفانس وبوليكرون المذكورون وغيرهم أن يرخص لهم بالانطلاق إلى رومة للمدافعة عن انفسهم فرخص لهم، فارعوى هناك بعضهم عن ضلاله وبعضهم اصرّ عليه إلى موته. ومن هؤلاء مكاريوس انتهى ملخصاً عن معجم المجامع للأب بلتيا من طبعة الأب مين.

عد ٦٩٩

مجامع أخرى حرمت بدعة المشيئة الواحدة

عقد القديس صفرونيوس البطريرك الأورشليمي سنة ٦٣٥م مجمعاً في أورشليم دعا إليه أساقفة فلسطين فحرموا هذه البدعة في أوّل نشأتها وكتبوا رسالة مجمعية أذاعوها في أبرشياتهم وأرسلها القديس صفرونيوس مشفوعة بمقالة ضمَّنها آيات الكتاب وشهادات المجامع والآباء المثبتة أنَّ في المسيح مشيئتين وفعلين، إلى البابا أنوريوس مع اسطفانس أسقف الطنطورة، ثم أرسل مثل ذلك إلى سائر بطاركة المشرق.

وروى بعضهم أنَّه عقد مجمع في قبرص نبذ فيه هذا الضلال، وإن صحَّ ذلك كان عقد هذا المجمع لما كتب الملك هرقل إلى أركاديوس متروبوليت هذه الجزيرة أمراً أن لا يعتقد أحد إلا مشيئة واحدة في المسيح، وصادق سرجيوس بطريرك قسطنطينية على منشور الملك فلم يحفل أركاديوس بمنشور الملك ولا بمصادقة سرجيوس عليه واستمرَّ محافظاً على الإيمان الكاثوليكي كما مرَّ في عد ٦٩٧. فإن ثبت التئام هذا المجمع الذي لم نلفِ له ذكراً في معجم المجامع كان أركاديوس عقده حينئذٍ صيانةً لشعبه من هذا الضلال، ولئلَّا ينفرد بمقاومة منشور الملك.

وعقد مجمع في رومة سنة ٦٤٦م دعا إليه البابا توادورس، فنبذ فيه هذا الضلال، ومنشور الملك قسطنت المار ذكره، ثم عقد القديس مرتينس البابا سنة ٦٤٩م مجمعاً آخر شهده أسطفانس اسقف الطنطورة إذ عاد ثانيةً إلى رومة بعد أن كان القديس صفرونيوس الأورشليمي أرسله المرة الأولى إلى البابا أنوريوس، وحرم هذا المجمع بدعة المشيئة الواحدة ورفع إليه أسقف الطنطورة تقريراً مبيناً حالة بطريركية أورشليم فأقامه البابا مرتينس نائباً له في فلسطين، إذ لم تؤذن الحال بإقامة بطريرك لأورشليم كما رأيت في عد ٦٩٣، وعقد مجمعان أحدهما في مديولان بإيطاليا سنة ٦٧٩م والآخر في رومة في بداية سنة ٦٨٠م حرم فيهما هذا الضلال على سبيل المقدمة للمجمع السادس المسكوني المار ذكره. وأرسل مجمع رومة نواباً عنه إلى المجمع السادس المذكور مع نواب البابا أغاتون كما رأيت في العدد السابق وقد عقدت في إفريقيا أربع مجامع عُنيَ بعقدها القديس مكسيمس لمناصبة بيروس بطريرك قسطنطينية ومن قال بقوله من أصحاب هذه البدعة.

ثم عقد في قسطنطينية سنة ٦٩٢م المجمع المعروف بمجمع قصر الملك لاجتماع الأساقفة في قصر الملك هناك وكان عقده في أيام الملك يوستنياس الثاني الملقَّب بالأخرم لجذع أنفه، وكان قد استوى على أريكة الملك سنة ٦٨٤م بعد وفاة أبيه قسطنطين اللحياني، وكان عدد الأساقفة المجتمعين في هذا المجمع مئتين واحد عشر أسقفاً، فجاهروا بأنَّهم متشبثون بكل ما سنته المجامع الستة السالفة وأنَّهم يحرمون الأضاليل والأشخاص الذين حرمتهم هذه المجامع، وعليه فقد حرموا بدعة المشيئة الواحدة وجميع من حرمهم المجمع السادس المسكوني، والروم يحصون هذا المجمع في جملة المجامع المسكونية لكن الكنيسة اللاتينية تنبذه. ولم يشأ البابا سرجيوس أن

يثبته مع شدة إلحاح الملك يوستنيانس عليه باثباته، وقد انفرد الملك يوستنيانس بالدعوة إليه ولم يكن فيه نائب عن الحبر الروماني، ولا أسقف من أساقفة الكنيسة الرومانية. وجلّ ما روى بلسامون أن صحت روايته أنَّه شهد هذا المجمع أسقف كورين بجزيرة اكريت، وأسقف رافنا. وقد فرض هذا المجمع مئة قانون وقانونين اتخذتها بعض الكنائس الشرقية بمنزلة دستور للتهذيب البيعي، وقد أثبتوا الخمسة والثمانين قانوناً المنسوبة إلى الرسل والكنيسة الرومانية، ولا تعتد هذه النسبة إلى الرسل صحيحة حتى الآن، وقد أخذوا أكثر القوانين التي جمعوها عن المجامع القديمة ولكن بتصرُّف، ووضعوا قوانين حديثة. ولذلك لم يثبت الكرسي الرسولي هذا المجمع.

فهذه بعض المجامع المشهورة التي حرمت هذه البدعة ولا يجمل بنا أن نفرغ من الكلام عليها دون أن نذيل كلامنا بتفنيد موجز جرياً على ما صنعنا في كلامنا على غيرها من البدع المشهورة. فالإيمان الكاثوليكي يعلم أنَّ المسيح إله كامل وإنسان كامل ذو أقنوم واحد وطبيعتين كاملتين، والإرادة والفعل في الله والإنسان من الخواص اللازمة غير المنفكة، فإن لم يكن في المسيح إلَّا إرادة واحدة أو فعل واحد فلا يكون إلهاً كاملاً ولا إنساناً كاملاً لأنَّه إن كانت المشيئة التي فيه إلهية بطل أن يكون إنساناً كاملاً وإن كانت بشرية وليس للاهوته مشيئة بطل أن يكون إلهاً لخلو الناسوت أو اللاهوت من خاصة لازمة غير منفكة وهي المشيئة والفعل، ثم إنَّ المشيئة والفعل من خواص الطبيعة لا من خواص الأقنوم، ففي الثالوث الأقدس ثلاثة أقانيم وليس لهم إلَّا إرادة واحدة وفعل واحد، لأنَّ ذات الله أو طبيعته واحدة في المسيح أقنوم واحد وطبيعتان إلهية وبشرية فيلزم أن يكون فيه مشيئتان وفعلان لكل طبيعة مشيئة وفعل، وإن كان الأقنوم الفاعل واحداً فإنَّ الذي أقام الموتى والذي مات على الصليب واحد وهو ابن الله وابن مريم لكن الإله لا يموت والإنسان لا يقيم الموتى، فيلزم أن ننسب كلاً من الفعلين إلى طبيعة: فموته إلى الطبيعة البشرية وإقامته الموتى إلى طبيعته الإلهية. وآيات الكتاب المثبتة هذه العقيدة كثيرة فمنها قوله تعالى «لا أطلب مشيئتي بل مشيئة من أرسلني» (يوحنا فصل ٥ عد ٣٠) «ونزلت من السماء لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة من أرسلني» (يوحنا ٦ عد ٣٨) «يا أبتاه إن كان يستطاع فاعبر عني هذا الكأس ولكن ليس كإرادتي بل كارادتك» (متى ٢٦ عد ٣٩) «أيُّها الآب أجز عني هذا الكأس ولكن ليس كما

أريد أنا بل كما تريد » (مرقس ١٤ عد ٣٦) ففي كل هذه الآيات يريد بمشيئته مشيئة ناسوته وبمشيئة من أرسله أي الآب مشيئة لاهوته التي هي واحدة مع مشيئة الآب لمساواته له جوهراً. وتغنينا هذه الآيات عن ذكر غيرها وعن إيراد شهادات المجامع والآباء التي لا يكفيها مجلَّد ونحن نكتب تاريخاً لا كتاباً في علم اللاهوت. ومن أحب زيادة في البيان فليطالع كتاب تاريخ البدع وردها للقديس الفونس ليكوري الذي ترجمناه إلى العربية وطبعناه كما مرَّ .

ملحق

تاريخ الموارنة في هذا القرن السابع

الفصل الأول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

عد ٧٠٠

سطوة المردة أي الموارنة في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة – في القرنين الخامس والسادس – القديس مارون وتلامذته ، وتكاثر رهبانهم ، وأديارهم ، وتوافر الجمهور المنتمي إليهم والمسمّى باسمهم . ونذكر في هذا العدد طورهم الدنيوي في هذا القرن ؛ وذلك درس نلقيه إلى أبناء ملّتنا وجميع مواطنينا نحذّرهم به من التهوّر في مهواة المناوأة للسلطة السائدة فيهم بوسوسة أصحاب الأغراض البعيدين عنهم . فمن المعلوم أن الخلفاء الراشدين صرفوا اهتمامهم عند أخذهم سورية وطردهم ملوك الروم منها إلى فتح مدنها ، ولم يكترثوا لسكان جبالها لقلّة أهميتها وعدم المنفعة منها، ولتعسّر مسالكها

وأن ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها، وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبكوا أمرها ولا تستقيم حالها، ليتيسّر لهم العود إليها كما حاولوا مرات فلم يظفروا. فمن ذلك أنهم وسوسوا للموارنة وكانت مساكنهم حينئذ في الجبال من جبال الجليل إلى جبال انطاكية، فلبكوا حكومتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطر بعض الخلفاء أن يعقد صلحاً مع ملوك الروم على شرائط سيأتي ذكرها؛ ومنها أن يكتوا الموارنة الذين تلقّبوا عندئذ مردة، ويصدّوهم عن غزواتهم. وكانت النتيجة حينئذٍ أن هؤلاء الملوك البيزنطيين أنفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيّجوهم على مخالفة رضى حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الأمَّرين ومكروا بهم، فسبوا اثني عشر ألفاً من نخبة شبّانهم وأبعدوهم عن أوطانهم وجيّشوا عليهم وأخربوا أكثر بلادهم، وحرقوا أديارهم، وعمدوا إلى القبض على بطريركهم. واتصلوا إلى طرابلس على مقربة منه. ولو لم يتدارك الله أمرهم بالنصر على الجيش البيزنطي لأبادوهم عن آخرهم. فهذه هي الأمثولة التي نريد أن يتمثّل بها أبناء ملّتنا ومواطنونا ليخلصوا في الطاعة للحكومة السائدة عليهم. وإليك تفصيل هذه الأحداث.

قد روى كثيرون من علماء أمّتنا أنه كان للموارنة في القرن السابع سطوة وصولة حتى ضبطوا كل ما كان من انطاكية إلى أطراف الجليل، على أننا نؤثر أن نروي أخبار هذه الأحداث عن كتب المؤرخين القدماء التي أخذ علماؤنا عنها هذه الأخبار، لأنها أبعد مجالاً عن مظنّة الغرض والغلوّ والتعصّب لأمّتهم. قال توافان المؤرّخ الشهير (في تاريخ السنة التاسعة للملك قسطنطين اللحياني): «في هذه السنة خرج المردة من لبنان[1] فضبطوا كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف اليوم بالجبل الأقرع فوق السويدية) إلى المدينة المقدسة (أورشليم) واستحوذوا على قمم لبنان، وانضمّ إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبح عددهم في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة، وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبته حتى فكروا بأنّ الله محامٍ عن مملكة الرومانيين، وأرسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح ويعدون بوفاء جزية كل سنة. فتقبّل الملك وفدهم بالإعزاز

(١) قال العالم يعقوب كوار محشي تاريخ توافان في حاشية علقها على هذا المحل ان ابراهيم الحاقلي الماروني يتفاخر بأنه لبناني ومن نسل هؤلاء المردة.

والتكريم وأجابهم إلى سؤالهم، وأوفد معهم إلى سورية البطريق يوحنا المسمّى بتسيكود وكان من رجال الندوة في حكومته، ومتّصفاً بالخبرة والحكمة وبحسن التعاطي والمداولة مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح. ولما بلغ سورية قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته. وبعد المداولة بشروط الصلح قرّ رأيهم على كتابة عهدته موثقة باليمين على أن يدفع العرب كل سنة إلى الرومانيين ثلاثة آلاف ذهب، وثمانية آلاف أسير، وخمسين جواداً من الخيل الجياد. وأبرم الصلح بين الرومانيين والعرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة، ودوّنت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريق نسخة. وعاد ذاك الرجل الشهير البطريق يوحنا المتواتر ذكره إلى الملك بهدايا نفيسة جداً». وقال توافان أيضاً في تاريخ السنة الأولى لعبد الملك بن مروان: «في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سورية، وولّى عبد الملك في أمّته، وتواترت غارات المردة في جوار لبنان، وثقلت وطأة الطاعون. فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد أبرمت في أيام معاوية، وأرسل وفوداً إلى الملك واعداً أن يدفع كل سنة ثلاث مئة وخمسة وستين ديناراً. وكذلك من العبيد، وليس بأقل من ذلك من الخيل الجياد»[1]. وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانوس الملك: «في هذه السنة أرسل عبد الملك رسلاً إلى الملك لإبرام عهدة الصلح فعقد الصلح على الشروط الآتية: وهي أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصدّ غزواتهم، وعبد الملك يدفع إليه في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً، وأن الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وأرمينيا وايباريا قسمة عادلة سوية. وأرسل الملك بولس ماجيستريانس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكّها ووقّع علية أمام الشهود. وعاد ماجيستريانس مكرّماً إلى الملك. وأبرز الملك أمراً بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن أوطانهم، وقد أضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لأنّ جميع المدن المجاورة لبنان من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كانت ضعيفة وكانت خالية من السكان بسبب غارات المردة الذين كبتهم الملك. وقد توالت من ذلك اليوم إلى الآن المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطو العرب». وقال في تاريخ السنة الثانية ليوستينيانس: «إنّ الملك مضى

(١) قد لاحظ محشي تاريخ توافان المذكور ان عدد ثمانية الآلاف اسيراً في الفقرة الاولى كثير جداً وعدد الثلاثمائة والخمسة والستين ديناراً في هذه الفقرة قليل جداً فلا بد من غلط من النساخ في ذكر هذه الاعداد. وسترى ان المؤلف يخالف ذلك في الفقرة التالية.

في هذه السنة إلى أرمينيا فقابل هناك عسكر المردة الذي كان قبلاً في لبنان بمنزلة سور نحاسي لمملكته فدكّه بيده». وقال في تاريخ السنة الخامسة للملك المذكور: «في هذه السنة نقض الملك يوستينيانس لطيشه عهدة الصلح المبرمة مع عبد الملك». وذكر ما رويناه في الكلام علي عبد الملك من أمره بنقل سكان قبرص وتعنّته في قبول الدنانير الحديثة التي صكّها عبد الملك إلى أن قال ما ملخّصه: «ولما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يسأل يوستينيانس أن لا ينقض العهدة المبرمة بينهما فظنّ يوستينيانس أن عبد الملك يخاف سطوته ولم ينتبه إلى أنّ العرب يتطلّبون بعد كبت المردة علة لنقض عهدة الصلح، فكتب يوستينيانس إليهم أنه لا يريد العمل بالشروط المتفق عليها فأجابوه هم أنهم متشبّثون بها وأنه إذا نقضها وأرغمهم على الحرب فيكون هو علة لنقضها. والتقى جيش الملك وجيش العرب في الكبدوك، فأرسلوا يسألونه أن لا يخالف العهد الوثيق الإبرام بينهما باليمين، وإلا فينتقم الله من المخالف فأعارهم أذناً صمّاء واقتحم جيشهم فعلّقوا الصحيفة المكتوبة عليها عهدة الصلح على رمح بمنزلة راية لهم. فدارت الدوائر على يوستنيانس وجيشه» - كما رأيت قبلاً. فهذا ما ترجمناه بما أمكن من الدقّة عن تاريخ توافان.

وإليك ما قاله شدرانس في موجز تاريخه: «في السنتين الثامنة والتاسعة (لقسطنطين اللحياني) دخل المردة لبنان فاستحوذوا على كل ما كان من الجبل الأسود (الجبل الأقرع) إلى المدينة المقدسة، وضبطوا أعالي لبنان، وتألب إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبحوا في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة. فوجس منهم معاوية ومن معه وفكّروا بأنّ الله يحامي بعونه مملكة الرومانيين، فأرسلوا رسلاً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح فأرسل الملك بيساكود إلى السراكسة واتفق معهم على الصلح ودوّنوا صكّه في صفائح على شريطة أن يدفع الشراكسة كل سنة إلى الرومانيين عشرة آلاف ذهب. (وفي كتاب زوناراس ثلاثة آلاف) ومائة عبد وخمسين جواداً أصيلاً. ولما علم ذلك سكان المغرب طلبوا هم أيضاً الصلح. وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانس: «في السنة الأولى لملكه أرسل إليه عبد الملك رسلاً لإثبات الصلح واتفقا على أنّ الملك يحصر عسكر المردة في لبنان ويمنعهم عن الغارات، ويدفع العرب إلى الرومانيين في مقابلة ذلك في كل يوم ألف دينار وجواداً وعبداً، فأرسل الملك بولس ماجستريانس إلى عبد الملك لإبرام العهد فوقع على العهدة أمام الشهود، وأرسل االملك قائداً فأبعد اثني عشر ألفاً من

المردة فأضرَّ ذلك بمصلحة المملكة الرومانية. فكل ما يستحوذ عليه العرب الآن من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كان واهناً لا قوة فيه وخالياً من السكان بسبب غزوات المردة، فكبتهم أنزل بالمملكة الرومانية مضارّ كبيرة إلى اليوم. فيوستينيانس لم يكن حينئذٍ أكمل السادسة عشرة من عمره فتصرّفه كان على غير هُدًى». وقال في تاريخ السنة السادسة ليوستينيانس: «في هذه السنة نقض يوستينيانس بحماقة عهدة الصلح مع عبد الملك لأنه أراد أن يأخذ جالية من قبرص لغير داعٍ، وأنف من أن يأخذ من عبد الملك الدنانير التي صكّها حديثاً، ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقالبة (من اسكلافونيا) نقض المعاهدة المذكورة وزحف بهذا العسكر بكتائب من الفرسان إلى آسيا الصغرى، وأكره العرب بطيشه على نقض المعاهدة. ولما التقى الجيشان أقام العرب الحجة عليه ودعوا إلى الله أن ينتقم ممن نقض العهد، فلم يقف الملك بل سارع إلى تسعير نار الحرب، فعلق العرب صفيحة المعاهدة على علمهم ووثبوا على الجيش الروماني. وكان قائدهم يسمّى محمداً فتقهقر العرب أولاً ثم تغلّبوا على الجنود الرومانيين وقتلوا كثيرين منهم، وقرض الملك من بقي من الصقالبة مع أطفالهم ونسائهم»

وقال زوناراس (في ك١٤ من تاريخه في كلامه على يوستنيانس): «قد استوى يوستنيانس على منصّة الملك وعمره ست عشرة سنة، وكان يدبّر جميع مهام المملكة على هواه. فأوقع المملكة في مهالك كثيرة؛ منها أنّ شعباً يلقّب بالمردة كان قد استحوذ على مشارف جبل لبنان في أيام قسطنطين اللحياني، وكان العرب يخشون صولتهم حتى حملوهم على طلب الصلح من ملوك الرومانيين كما مرّ. (كان زوناراس قد ذكر عقد هذا الصلح قبيل كلامه هذا كما رويناه عن غيره). ولما كان معاوية قد توفي وخلفه عبد الملك أرسل رسلاً إلى الملك الذي ولي حديثاً سائلاً إياه تجديد الصلح وأن يبعد المردة عن لبنان. وإذا رضي هذا الشرط يدفع هو إلى الرومانيين في كل يوم ألف دينار ومملوكاً وجواداً من الجياد. ولما أبرما هذه العهدة أبعد الملك اثني عشر ألف مقاتل من المردة عن لبنان، فاطمأنّ العرب، ولم يبقَ ما يخشونه فأنزلوا بالمملكة الرومانية مصائب شتى. وأرسل يوستينيانس لأنتيوس بجيش فأخضع ايباريا والبانيا وغيرها لسلطته ونقض عهدته مع البلغار، ولم يرضَ أن يفوه الجزية بل غزا الأمصار الغربية وألب منها جيشاً من ثلاثين ألفاً من نخبة الشبان، وأعزّهم وسمّاهم الشعب المختار

فعظم سروره بهم. واعتماده عليهم حتى أراد أن ينقض عهده للعرب أيضاً، متمحّلاً لذلك سبباً بأنهم يؤدونه مال العهدة دنانير ليست عليها صورة الملوك الرومانيين بل دنانير عربية حديثة، مدّعياً أنه لا يسوغ صكّ الدنانير إلا وعليها صورة الملك الروماني، وأعلن عليهم الحرب معتمداً لا على جيش الرومانيين بل على شعبه المختار الحديث. وسأله العرب بإلحاح أن لا ينقض العهد ويخالف صكّه الموثق باليمين بالله وهو ينتقم لمن يتسبّب بشبوب نار الحرب فصمَّ أذنيه عن سماعهم، وأقدم على الحرب فعلق العرب صفيحة العهد على رايتهم وألحموا القتال فانحاز عشرون ألفاً من أولئك المسمّين بالشعب المختار إلى العرب فتغلّبوا على الرومانيين وتتبّعوا آثارهم وقتلوا منهم كثيرين، وفرَّ الملك بنفر قليل مدحوراً، وأمر بقتل من بقي من أولئك الجنود وإلقاء جثثهم في البحر وعاد إلى بيزنطية خجلاً». وروى ذلك أيضاً انسطاس المكتبي في تاريخ السنين الأولى والسابعة والثامنة ليوستينيانس. وروى الاهدني أنّ بولس الشماس قال ما قاله هؤلاء وذكر مقاله فإذا هو مطابق لما رويناه. ولم نعثر على كتابه لكن الاهدني ثقة في كل ما نقل، بل أشار ابن خلدون إلى ذلك (جزء ٣ صفحة ٧٠) إذ قال: «اشتدّ القتال أيام عبد الملك واجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام، فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين». وذكر ذلك ابن العبري أيضاً في تاريخ الدول (صفحة ١٩٤ من طبعة بيروت) فقال: «استجاش يوستينيانس ملك الروم على من بالشام من المسلمين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار وقيل كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً». هذا ما ذكره هؤلاء المؤرخون القدماء وقد تابعهم عليه كثيرون من الحدثاء منهم بارونيوس إمام المؤرخين في تاريخ السنين المذكورة، وديلارو في موجز تاريخ الملك السافل في كلامه على قسطنطين اللحياني ويوستينيانس الأخرم، ونطاليس اسكندر في كلامه عليهما في تاريخ القرن السابع، وروهر بخر في الكتاب الخمسين من تاريخه العام وكثيرون غيرهم.

إن سطوات الموارنة المارّ ذكرها وحربهم مع عساكر يوستينيانس التي سنروي أخبارها أكسبتهم لقب مردة الذي سمّاهم به المؤرخون القدماء المذكورون. وهذا مما لا يمتري فيه عالم بالتأريخ أو مطالع لأقوال المؤرخين التي رويناها مترجمة بحروفها، إذ صرَّحوا بأنّ المردة سكان لبنان خرجوا من لبنان فاستحوذوا على ما

جاوره وضبطوا مشارف وأعالي لبنان إلى غير ذلك مما يدلّ صراحة على أنّ هؤلاء المردة إنما هم الموارنة سكان لبنان وجواره، وإلا فمن أين أتى هذا الشعب النفير الباسل إلى لبنان ومتى هاجر إليه ولِمَ لا نرى في كتب المؤرخين القدماء والحدثاء خطة تشير إلى مهاجرة شعب أوطانه وتوطّنه في لبنان وجواره مكان أولئك المسيحيين المنتمين إلى القديس مارون ورهبانه، أو تنبئنا بأنّ أحد الملوك جلا شعباً غفيراً فأحلّه في لبنان وتغلّب على سكانه الأصليين. على أنّ الحدثاء من المؤرخين ولاسيما من ذكرناهم آنفاً وهم بارونيوس وديلاروك ونطاليس اسكندر وروهر بخر يسمون هؤلاء المردة الموارنة ويصرّحون بأنهم إنما لقّبوا مردة لتمرّدهم على الحكومات المارّ ذكرها ومحاربتهم عساكر يوستينيانس الأخرم. ونقتصر من إيراد أقوالهم على ذكر قول ديلاروك في كلامه على قسطنطين اللحياني قال: «إنّ الأمّة المارونية أشبه بالمواد الخفيفة. فلم يكن لتيار القبائل التي غشت سورية أن يغرقها وما برحت كذلك إلى اليوم ومساكنها لبنان العسر المسالك، وأهلها شديدو الحرص على دينهم وشرفهم وكانوا جنوداً كماةً يحسنون الرمي وتفويق السهام، وفرسانهم أحسن الفرسان ورجالهم أشجع رجال المشرق. وقد أخذوا (في أيام قسطنطين اللحياني) يشنّون الغارات على الأعمال المجاورة لهم واستحوذوا على قسم كبير من سورية وأنزلوا الرعب بالسكان من جهة إلى أورشليم، ومن أخرى إلى دمشق وتخوم بلاد العرب. وكانت أهم أعالي لبنان قلاعاً حصينة وابتنوا فيها مدناً كبيرة فوجس معاوية من غزواتهم وغاراتهم» إلى آخر كلامه. إلا أنّ هذه الغارات والسطوات التي كان ملوك الروم يحملونهم عليها كانت عليهم وبالاً بمكر هؤلاء الملوك كما رأيت. فإنّ يوستينيانس الأخرم أبعد اثني عشر ألفاً من نخبة رجالهم. وسترى تفصيل ذلك في العدد التالي وترى في ما يليه إنفاذ جيشه إليهم وحرق أديارهم وتدمير قسم كبير من بلادهم.

عد ٧٠١

امراء الموارنة والاثني عشر الفاً المجلوّون منهم

قد روى العلاّمة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٠١) نقلاً عن البطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني عن كتاب سرياني خُطَّ سنة ١٦١٦

يونانية الموافقة سنة ١٣١٥م، ترجم الدويهي ما استشهد به من هذا الكتاب إلى العربية هكذا: «في بداية دولة العرب كان يوسف ملكاً على جبيل، وكسرى على الداخلة التي من اسمه تكنَّت كسروان، ثم في خلافة عمر بن ابي طالب (هنا سهو من الكاتب والصحيح عمر بن الخطاب) كان أيوب متولي قيسارية فيلبس وبيت المقدس وبعد أيوب تخلف الياس. ولما توجه هرقل الملك إلى بلاد الشام كان ينجده بجيشه، ثم أنّ بعد هؤلاء تولى الملك يوسف تدبير جبيل وجبل لبنان وبعد وفاته تخلف عليه الملك يوحنا». إنَّ العرب والسريان اعتادوا غالباً أن يسموا كل متول ملكاً ومن ذلك تسمية هؤلاء ملوكاً والمراد والٍ أو أمير كما كان قديماً لكل قبيلة أو فصيلة أمير يدبر مهامها، وله الكلمة النافذة فيها، وتنقاد إلى أمره. فالظاهر من العبارة المذكورة أنّ يوسف وكسرى كانا يليان جبيل وكسروان عند استفحال دولة العرب في العربية، ولما أخذوا يغالبون ملوك الروم على سورية في خلافة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. كان أيوب في خلافة عمر متولياً على قيصرية فيلبس، وهي بانياس إلى القدس، فقتل ايوب في الحروب الاولى في فلسطين أو توفي في أثنائها، فخلفه الياس في الامارة على الموارنة، فساعد هرقل في الحروب الأخيرة في خلافة عمر بن الخطاب، ثم توفي، فخلفه في هذه الامارة يوسف آخر (على ظاهر العبارة). كان يلي جبيل وجبل لبنان، وبعد وفاته خلفه الامير يوحنا؛ وأما يوحنا هذا فقال السمعاني (في المحل المذكور) نقلاً عن الاهدني عن الكتاب السرياني المذكور ما ترجمته: «وقام بعد يوسف ملك (أمير) اسمه يوحنا واستحوذ على الأرض المقدّسة (فلسطين) وخرج من لبنان ماضياً إلى الكرمل ومعه جم غفير، وأراد أن يمضي إلى أورشليم فخرج عليه لصوص كثيرون من محل الرغيزيين (لم يبيّن السمعاني ولا الاهدني من المراد بهؤلاء فيظهر أنهم ينتسبون إلى محل اسمه رغيز في تلك النواحي، أو الكلمة كناية عن اناس أشرار لأنّ معناها اللغوي المغضوب عليهم)، وأحاقوا به فوق برج الغرباء فقتلوا من جماعته ثلاثة آلاف بالسيف، فجمع شمل قومه ووثب على الرغيزيين وبلدهم، وقتل منهم تسعة آلاف، وغنم منهم مالاً وحيوانات ونساء وأطفالاً، وعاد إلى محله وسكن في بسكنتا وتوفّي شيخاً». وروى الاهدني أنّ في جملة أعمال الامير يوحنا هذا أنّه جهز اثني عشر الف فارس وذهب بهم إلى البقاع فحلوا في قب الياس، وشرعوا يغزون الجبل الشرقي ويشنون الغارات، فقطعت الطرق وسدت المسالك، فكان من ذلك ضيق شديد وصحبه طاعون وغلاء.

فهذه التعديات وما أشبهها حملت معاوية على مراسلة الملك قسطنطين اللحياني بطلب الصلح، فعقد بينهما كما رأيت من أقوال المؤرخين التي اثبتناها آنفاً، ولم ينفكّ هؤلاء الامراء وجماعتهم عن السطو والغزو وشن الغارات بوسوسة ملوك الروم أنفسهم أملاً بأن يستردوا سورية إلى ولايتهم، حتى أكرهوا الخليفة عبد الملك ابن مروان أن يكاشف يوستنيانس الثاني الملقّب بالاخرم طالباً إليه منع هؤلاء الجماعة الذين سموهم لذلك مردة عن غزواتهم وصولاتهم، ومتعهداً أن يدفع له كل يوم الف دينار ومملوكاً وجواداً إنْ جلا عسكر هؤلاء المردة عن بلادهم لإيهان قوتهم، فانقاد يوستنيانس لطيشه وحداثة سنه فجلا من الموارنة اثني عشر الفاً من نخبة شبانهم، كما تبين من أقوال المؤرخين المذكورين. على أنّ هؤلاء المؤرخين لم يفصلوا كيف توصل يوستنيانس إلى ابعاد هؤلاء الشبان عن مواطنهم ولا بأية وسيلة توسل إليه فجلّ ما ذكره بعضهم أنّه توسل إلى ذلك بمكر ومكيدة وأنّه أضر مملكته بإبعاد هؤلاء على أنّ علماءنا قد نقبوا عن هذه الأمور وانبأونا بما علموه من تفاصيل هذه الاحداث فنرويه عنهم.

وروى العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٠٢) عن البطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني (فصل ٩ في تاريخ الموارنة) أنّ يوستنيانس جهز جيشاً وسيره إلى سورية وأشاع أنّه حامل على العرب، ودفع إلى قائد جيشه خلعاً سلطانية ورسالة مشرفة ليسلمها إلى أمير لبنان، وأمره أن يقابل هذا الامير منفرداً وإذا سنحت له الفرصة قتله. وعند بلوغ القائد إلى البقاع مضى إلى يوحنا أمير المردة بنفر قليل إخفاءً لمكيدته، وقابله في قب الياس ودفع إليه الرسالة والخلع السلطانية ولم يُلفِهِ متحذراً، بل قابله الامير يوحنا بالترحاب والإجلال، وأخذ القائد يستشيره في محاربة العرب ويستنجده عليهم ثم دعاه إلى مؤاكلته. وبينما هم على المائدة أشار القائد إلى جنوده فوثبوا على الأمير وقتلوه. ودرى بذلك عسكر المردة فسعر نار الحرب على القائد وجيشه فاقتتلوا طويلاً وظهرت جيوش القائد المستعد للقتال على عسكر الامير الذي اندفع إليه بغتة. وإلى ذلك أشار الاسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في ازجاله في كسروان حيث قال:

سكن الامير في بسكنتا   وارسل عساكر في بغتة

نهب البقاع بفرد نكته وقتل رجاله مع النسوان
طلع سكن في قب الياس وارسل عساكر مع حراس
والبقاع تحت حوافر خيله انداس طلع خبره للسلطان
بعث له خلعة مع قصاد تطمن واكل معهم زاد
عساكر وراهم تتجرد كبسوه في ساعة اطمئنان
قتلوه وانقتل معه العسكر وانقتل كثير من الاوخار

وجاء في تاريخ الموارنة المطبوع حديثاً في بيروت (صفحة ٧٤) بأثر ما مرّ من تاريخ الدويهي: « ولما قتل أمير المردة أمّروا عليهم سمعان ابن أخت المقتول ، وكان رجلاً شجاعاً فمشى في اثني عشر الفاً إلى جهة أرمينية وهدم السد النحاسي ومن هناك اجتاز إلى بلاد تراكية » . فهذه الرواية غير صحيحة ولا تلتحم مع ما تقدّمها وكلمة هدم السد النحاسي مأخوذة من كلام المؤرخين انّ يوستنيانس بإبعاده عسكر المردة نقض بيده السد النحاسي الذي كان للمملكة في لبنان . ولا أشك في انّ النسخة التي اعتمد عليها المعلم رشيد الشرتوني طابع الكتاب المذكور غير صحيحة، بل يظهر أنّ العلامة البطريرك بولس مسعد قد اغترّ أيضاً بهذه النسخة غير الصحيحة حتى قال مثل هذا القول في درّه النظوم صفحة ٩٦. والصحيح ما رواه السمعاني (في المحل المذكور أنفاً) من كلام الدويهي وهو: « اما جيش الملك فمن بعد هذه المقاتلة أخذ يخمد جذوة غيظ سكان لبنان ويجامله ويعتذر عن سوء صنيعه، ويقول إنّ قسطنطينية محفوفة بمخاطر شديدة من جراء حملات العرب والفرس عليها، وهي في أقصى الحاجة إلى انجادهم ، ومعاونتهم وأنّه يلزم تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، واكثر من الوعود بأنّ الملك يجزل المكافآت الملكية لمن يطيعه وينجده ، وبعد العناء الشديد ، المديد حملهم على أن يقيموا سمعان ابن أخت الامير يوحنا القتيل قائداً لهم، فمضى قائد يوستنيانس به وباثني عشر الفاً منهم إلى ارمينيا (حيث قابلهم الملك يوستنيانس كما رأيت في كلام توافان الذي رويناه انفاً) ثم إلى تراكية ». فهذا ما رواه السمعاني من كلام الدويهي وعليه الاعتماد. ويظهر من ذلك ما أشرنا إليه أولاً من أنّ ملوك الروم كانوا يوسوسون للمردة ليخرجوهم عن طاعة الدولة السائدة بهم حتى صار للمردة ضلع مع هؤلاء

الملوك، ولولا ذلك لما صدقوا وعود قائدهم ولما أغضوا على قتل أميرهم. ويتبين لي أنهم راعوا من جهة اسخاطهم لدولتهم بتعدياتهم، ومن جهة أخرى أنهم إذا عصوا ملوك الروم أيضاً لم يكن لهم طاقة على معاندة الدولتين معاً، فآثروا مطاوعة القائد والمسير معه على بقائهم في أوطانهم عرضة لتنكيل الدولتين بهم، وكانوا يرجون أنّ يوستنيانس ينتفع بخدمتهم ويعيدهم إلى وطنهم، ولم يدروا باتفاق الدولتين على ابعادهم إلّا بعد حلول المصاب بهم. ولا غرو ان عيالهم لحقت بهم ويظهر أنّ ذلك كان سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٨٦م، إذ روى المؤرخون المذكورون أنّ ذلك كان للسنة الثانية ليوستنيانس الاخرم، وحينئذٍ أمّر الموارنة عليهم ابراهيم ابن أخت بطريركهم القديس يوحنا مارون كما سيأتي.

وأما ما كان للاثني عشر الفاً المجلوين بعد مضيهم إلى ارمينيا ثم إلى تراكية وأين هي تراكية التي حلوا فيها؟ فقد كان لعلمائنا في ذلك أقوال مبناها على الحدس والتخمين ولم ينبئنا السمعاني بشيء من ذلك في المكتبة الشرقية التي تتداولها أيدينا، ولما كنت في روما سنة ١٨٦٧م بخدمة المثلث الرحمة العلامة البطريرك بولس مسعد لحضور حفلات العيد القرني للقديسين الرسولين بطرس وبولس ولتطويب بعض القديسين، وكنت مهتماً بتاليف كتابي الموسوم بسفر الاخبار في سفر الاحبار، أخذت اتفقد بعض كتب مكاتبها لالتقط منها ما أُضَمِنُهْ كتابي المذكور، فعثرت في مكتبة مجمع انتشار الايمان على كتاب العلامة السمعاني الموسوم بمكتبة الناموس الديني والمدني وهو نادر ولا يوجد إلّا في اوروبا في بعض المكاتب الشهيرة، ولا أعلم أن في الشرق نسخة منه فأخذت عنه بعض تعليقات ضَمَنْتُها كتابي سفر الاخبار ودونك خلاصتها.

قال العلامة السمعاني في المجلد الرابع من المؤلف المذكور المطبوع في رومة سنة ١٧٦٤م (فصل ٣٥ صفحة ٦٢٠) ما ملخصه: «إنّ توافان المؤلف الرومي الذي ذكر خبر ابعادهم لم ينبئنا أين اقاموا وجلّ ما قاله أنّ يوستنيانس إذ سافر إلى ارمينيا التقى هناك بعسكر المردة الذي أمر بإخراجه من لبنان، ودكّ بذلك السور النحاسي الذي كان لمملكته، إلّا أنّ قسطنطين بورفيروجنات (هو قسطنطين السابع أحد ملوك الروم في قسطنطينية وبروفيروجنات لقب كان أبناء هؤلاء الملوك الذين يولدون لهم في مدة ملكهم يلقبون به وتأويل الكلمة المولود بالبرفير، إذ كانت القابلة تقبل الطفل بالبرفير أو تفرش غرفة الولادة بالبرفير». ابن لاون الحكيم (هو لاون السادس أحد

الملوك المذكورين) قال في كتابه الموسوم بتدبير الملك المطبوع في باريس (فصل ٥٠ صفحة ١٣٧) أنّ المردة نقلوا إلى بمفيلية، وقام قائدهم في مدينة اضاليا. وذكر في كتابه الاول في اعمال المملكة (فصل ١٤) عمل بمفيلية وفيه المردة الذين جلوا من لبنان يليهم قائد لهم وقد استمروا هناك من عهد يوستنيانس إلى أيامنا أي أيام المؤلف الذي كان في منتصف القرن العاشر. وقد أسهب هذا المؤلف الكلام فيهم في الفصل الخمسين من كتابه المذكور، ومما قاله ان ملك قسطنطينية كان يُنَصِّب للمردة والياً منهم في اضاليا يسمى قبطاناً، وأنّ الملك أباه نصَبَ لهم والياً اسمه استوراشيوس بلاتين، واردف السمعاني كلام قسطنطين بقوله يظهر مما قيل أنّ المردة كانوا في بمفيلية في عهد الملك لاون الحكيم وأخيه اسكندر وابنه قسطنطين صاحب التأليف المذكور - أي في سنة ٩٥٠م إلى أن قال كان الملك ينصب لهم قاضياً يسمى قاضي اضاليا. وفي سنة ١٠٧٤م في أيام الملك ميخائيل السابع من ملوك الروم كان أحد هؤلاء القضاة اسمه ميخائيل الف كتاباً في الناموسين الديني والمدني طبع في فرنكفورت سنة ١٥٩٦م، وكان في قسطنطينية مرتبة لكبير المردة من ايام الملك ميخائيل المذكور إلى أن أخذت قسطنطينية من ملوك الروم سنة ١٤٥٣م. ويستشهد السمعاني لصحة ذلك كتاباً لغريغوريوس كودونيوس كوروبالات الذي كان حياً عند افتتاح العثمانيين قسطنطينية حيث ذكر كبير المردة في قسطنطينية، ومما قاله إنّه كان يحمل عكازاً من فضة مموهاً بالذهب. واستشهد أيضاً متى جاتر الراهب الكاهن في كتابه في مراتب القصر القسطنطيني حيث روى أنّ الرتبة السابعة عشرة بعد الملك كانت لكبير المردة. واستشهد أيضاً كتاباً أخر مجهول المؤلف. فالناتج من كل ذلك أنّ الموارنة المجلوين استمروا في بمفيلية ولهم ممثل في قسطنطينية إلى أن أخذت الدولة العثمانية قسطنطينية سنة ١٤٥٣م .

وأمّا تراكية التي أقاموا فيها فالصحيح أنّها قسم من كيليكيا وهي الآن ولاية ادنه، ومن المعلوم أن كيليكيا مقسومة إلى قسمين سهلية وجبلية فالسهلية قاعدتها ادنه وترسيس، والجبلية من مدنها سلوقية كيليكيا، وكان القدماء يسمونها تراكة أي الحجرية أو المحجرة، والآن يعبرون عنهما بكيليكيا الاولى وكيليكيا الثانية. وبمفيلية متاخمة لتراكية غرباً. وهذا يؤيد ما رواه السمعاني وليست تراكية تراسة أي الروملي كما فسر بعض علمائنا.

وأمّا ما كان من أمرهم بعد ذلك فلم نطلع إلى الآن على شيء أكيد منه قال

بعضهم: ان المرديت المقيمين الآن في البانيا هم المردة الموارنة ارتحلوا من بمفيلية إلى هناك وروى بعضهم أنّ بعض هؤلاء المرديت حقق أنّ عندهم تقليداً يؤيد ذلك وكان المرحوم واصه باشا متصرف لبنان من هؤلاء المرديت، إلّا أنه لم يكن يقر بصحة هذا التقليد، فقد سألته عنه فانكر صحته والله أعلم بأمرهم.

عد ٧٠٢

حرب الموارنة وعسكر الملك يوستنيانس الاخرم

إنَّ يوستنيانس الأخرم لم يقصر على تدبير مملكته بطيشه وسوء تصرفه بل أراد أن يدبر كنيسة الله كذلك، فعني بعقد مجمع بقصره وهو المعروف بمجمع قصر الملك دون أن يعلم الحبر الروماني به، وأدخل الأساقفة في ذلك المجمع قوانين لا تسلم بها الكنيسة الكاثوليكية، وطلب الملك إلى البابا أن يثبت ذلك المجمع فلم يجبه إلى سؤاله، وتسكع يوستنيانس ببدعة المشيئة الواحدة وطفق يؤيد أصحابها ويضطهد الكاثوليكيين، فناصبه البابا سرجيوس الحبر الروماني، وناضل البطريرك يوحنا مارون وشعبه الموارنة عن المعتقد الكاثوليكي بالمشيئين، فبلغ من حمق يوستينيانس ان ارسل قائداً من قادة جيشه إلى رومة ليشخص البابا سرجيوس إلى قسطنطينية وقائداً آخر إلى سورية لينكل بالموارنة ويأتي إليه ببطريركهم. أما إرساله الجيش إلى رومة ليأتي إليه بالبابا فقد أثبته كثير من المؤرخين، ودونك ملخص ما رواه أحدهم روهربخر (في ك ٥٠ من تاريخه) نقلاً عن أنسطاس المكتبي في كلامه على البابا سرجيوس وعن بولس الشماس (في ك٢ من تاريخه فصل ١١) قال: «إنّ الملك ارسل زكريا أحد أعوانه ليشخص البابا إلى قسطنطينية فاستشاط أهل إيطاليا والمغرب عند سماع هذا الخبر، فزحف الجنود من رافنا وغيرها تباعاً إلى رومية غيرة على دينهم ورئيسه، وشعر زكريا بدنوهم من المدينة ففزع إلى البابا يسأله أن يوصد أبواب المدينة ويقيم الحراس لئلا يقتلوه، ولم يعبأ الجنود بتوصيد الابواب ولا بالحراس وانتهوا إلى قصر لاتران حيث كان البابا، فأسرع زكريا مرتعداً إلى مخدع البابا يسأله بدموع سخينة ان ينجيه من الموت، واختبأ تحت سرير البابا مرتعشاً مضيعاً رشده، فسكّن البابا روعه وأشرف على الجنود والشعب الغفير المتألب هناك فجاملهم وأسكن جيشانهم ولم ينفكوا حتى طردوا زكريا من رومة مذعوراً مسبوباً.

وأما يوحنا مارون البطريرك فقد أنبأنا البطريرك إسطفانس الدويهي أن الملك عزم أولاً أن يرسل إليه لاون قائد جيشه ليأتي به مكبّلاً، فأحجم القائد عن المسير معتذراً بأن البطريرك معزز بقومه فلا يمكن الإتيان به إلا بعد حرب شديدة، وكان هذا القائد يحب الموارنة وقد أنجدوه في حربه للعرب. فسخط الملك على لاون وطرحه في السجن، وأمر موريق ومرقيان أن يسيرا بجيش إلى سورية، وأشاع انه سيرهم لقتال العرب ودرى البطريرك بما دبره الملك فاستدعى ابن اخته الأمير إبراهيم فأتاه باثني عشر ألف مقاتل، فنقلوا البطريرك من دير القديس مارون على العاصي إلى سمر جبيل. وإليك ما رواه السمعاني (مجلد من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠٥) نقلاً عن الدويهي في تاريخ الموارنة في شأن هذه الحملة عليهم: «لما كانت سنة ٦٩٤ بلغ جيش الملك في أواخر الربيع إلى سورية فوثبوا أولاً على دير القديس مارون لأنه علة هذه الحرب وقتلوا من رهبانه خمسماية راهب، وجعلوا الدير قاعاً صفصفاً وتحولوا من هناك إلى قنسرين والعواصم وضربوا هذين البلدين المهمين في ذلك العمل، وقرض أصحاب المشيئة الواحدة سكانهما عن آخرهم، وتركوا كل ما فيهما غنيمةً للجنود، ولم يتوقفوا عن قتل أحد من اصحاب الإيمان القويم إلى ان انتهى مريق ومرقيان إلى مدينة طرابلس وخرجوا منها، فضرب جيشهما أطناب خيامه في السهول المجاورة المدينة، فالتقاهم سكان الكورة واعدين أنهم يصنعون ما أمر الملك به إذا أعطوهم الامان، فاعطوه بطيبة خاطر بعد أن أقرّوا بالضلال (أي بدعة المشيئة الواحدة)، فحلَّ الجيش في السهل الذي بين قرية أميون وقرية الناوس الواقعتين في سفح جبل لبنان، فقدم لهم سكان القرى المجاورة ما يحتاجون من الزاد وغيره. وسأل بعض أعيان تلك البلاد مريق ومرقيان القائدين ان يعطيهم هدنة واعدين ان يحملوا قومهم في تلك المدة على الطاعة والخضوع لمولاهم، فهادنوهم وأرسلوا إلى أمراء المردة رسائل يحضونهم بها على العمل بمقتضى أوامر الملك، واستحوذ الرعب على السكان الكاثوليكيين لدنو العدوّ إليهم، وأيقنوا انهم لم يعد لهم منجاة إلا بالالتجاء إلى الله بصلوات خاشعة ودموع هامعة، فاستجاب الرب صلواتهم وعزاهم بحدوث حدث لم يكن في حسبانهم، فقد وردت حينئذٍ رسائل من قسطنطينية من لاون (أولانتس) القائد المذكور آنفاً إلى البطريرك يوحنا وإلى سمعان أمير لبنان يبشرهما فيها بخلع يوستينيانس من الملك وترقيته هو (أي لاون) إلى منصته، ويأمرهما بضرب الجيش الذي أرسل إلى سورية بمنزلة عدو للملك،

وذاع هذا الخبر بين الكاثوليكيين فحمدوا الله وشكروه على هذه المنة واستبشروا بنصر مبين وارتأوا أنه لا يلزم انتظار العدو ليقدم إليهم فاندفقوا من أعالي الجبال اندفاق الماء المنهمر ووثبوا على جيش يوستينيانس وثبة الاسود، حتى ان كثيرين من الاعداء ولوا الفرار قبل وصول الواثبين إليهم، وتفرقت صفوف العدو وأحاق بهم الموارنة من ورائهم ومن جانبيهم فاثخنوا فيهم وابسلوا كثيرين منهم، ووقع موريق قتيلاً فأخذ أهل الكورة جثته ودفنوها في أميون » . وقال السمعاني بعد ذلك أنّ الدويهي استكمل خبر انتصار الموارنة مستشهداً كتاب تعليم اليعاقبة واشعار البطريرك يوسف العاقوري واليك ما اشار السمعاني إليه من مقال الدويهي: « وهكذا اخبر اليعاقبة في كتاب معتقدهم » ولما انتهى الملكية إلى قرية اسمها اميون تميز مويرين (بالتصغير تحقيراً) وابن اخته بريهيم من الملكية ولحقوا سمر جبيل وحموا أهلها من اداء الجزية التي فرضها الملكية على من لا يتبع مذهبهم ووافق مارون كل السريان الذين في جبل لبنان ونجوا مما كانوا يخشون » . وإلى ذلك أشار الخوري يوسف العاقوري (الذي صار بطريركاً على الموارنة بعد ذلك) في زجلياته التي اخبر بها عن قدوم عسكر الروم إلى لبنان في الميمر الذي الفه سنة ١٦٢٠م.

خرجوا من اسطنبول متفقين ... مع جوقة أعداء شياطين
والسيوف على الموارنة مسلولين ... خالفوا لمارون وطاعوا الملكية
فيهم من طاع ومن خالف ... والسيف فوق رأسه مؤلف
والبعض من الفزع تخلف ... وطاعوا إلى الملكية
داموا في الشر مصطدمين ... حتى نزل الأمير مسعود والمقدمين
والعساكر في أميون مجتمعين ... والقتل وقع في الملكية
انقتلوا القواد في أميون ... وانتصر جماعة مارون
والروم على موريق ابتون ... كنيسة لليوم مسمية

هذا ما أشار السمعاني إلى ان الدويهي استكمل به خبر إنتصار الموارنة وأردفه بقوله إن الدويهي قال في مريق ومرقيان عند تفنيده مزاعم سعيد بن بطريق بطريرك الإسكندرية : « من البيّن أن مريق قتل في الحرب التي ذكرناها ، ودفنه الملكية في

قرية أميون، وأقاموا على مدفنه كنيسة وجعلوا عيداً لذكره في اليوم ٢٦ من تموز وهو من الأعياد المشهورة عندهم. وأما مرقيان فجرح في وقعة الحرب فحمل إلى قرية شويتة في عكار ومات بعد قليل من الزمان، وأقام الملكية له هيكلاً وعيداً» وقد ورد مثل ذلك في مقالة مرهج بن نمرون الباني في أصل الموارنة.

انتهى كلام السمعاني وقد أشرنا أن ننقل عنه كلام الدويهي مترجماً عن اللاتينية من ان ننقل كلام الدويهي العربي؛ أولاً: لأن نقل العلامة السمعاني له يزيده قوة وثباتاً ولاسيما انّ السمعاني قد انتقد الدويهي في كل ما كان من كلامه محلّاً للنقد كما سترى، وشرح كل ما كان مبهماً أو غامضاً فيه ثانياً، لأن نسخ تاريخ الدويهي التي اعتمد عليها السمعاني في رومة أصحّ من النسخ العربية التي تتداولها ايدينا في سورية، وقد رأيت آنفاً ما أبناه من الخطأ في النسخة التي اعتمد عليها العلامة البطريرك بولس مسعد وطابع كتاب تاريخ الدويهي، ثالثاً لأننا نظن السمعاني لم يروِ ما رواه عن الدويهي إلا معارضاً بنسخ كتابه العربية التي كانت في رومة وبترجمته إلى اللاتينية. وقد أنبأنا (مجلد ١ من مكتبة الشرقية صفحة ٤٠٥) أن العلامة الآخر الاب بطرس مبارك اليسوعي الماروني قد ترجم هذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية، وهذا ايضاً مما يزيد شهادة الدويهي ثبوتاً وثقة بصدقها.

عد ٧٠٣

الإنقسام بين الموارنة والملكية

يشهد الله، ويعلم كل من عاشرني وأطلع على دخيلتي، أني والحمد لله منزه عن كل تعصّب طائفي لغير الحق وهائم بالإلفة والوفاق بين كل اصحاب المذاهب الدينية أيها كان، كلفاً بالراحة والتضافر على كل ما به الخير العام والخاص والنجاح والقوة التي لا تقوم إلا بالإتحاد والخضوع للسلطة الشرعية. وعليه فما ذكرته في الفصل السابق، وما سأذكره الآن، لا يحملني عليه وآيم الله إلا بيان الحق كما يحصحص لي ويتجلى عليَّ، ولا أشاء ان انتقص ملة أو أحداً أيًا كان بل ان اكشف عن وجه الحقيقة التاريخية كما أراها في كتب القدماء الموثوق بصدقهم.

روى الدويهي في تاريخه ان بدء الإنقسام بين الموارنة والملكية إنما كان بسبب التحامل على يوحنا مارون وبسبب الواقعة التي كانت بين جيش الروم وأهل الكورة وبين مجاوريهم الموارنة . فالذين تبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سموا ملكية نسبة إلى الملك الذي كان من أهل البدعة، والذين ثبتوا على الإيمان وطاعة البطريرك يوحنا مارون استمروا يسمون موارنة. وقد أورد السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٧) . قول الدويهي كما ذكرناه وقول ابن نمرون الباني الماروني إلا أنّ بعضهم رأى أن تسمية الملكية أقدم من ذلك العصر وقال انهم ينتسبون إلى الملك مرقيان والمجمع الرابع (الخلكيدوني) . وأول من قالوا بهذا القول من السريان على ما اعلم إنما هو ديونيسيوس بن صليبا سنة ١١٦٠م (في الفصل الاول من شرحه رتبة القداس) وهاك قوله «إنما سموا ملكية لانهم تركوا إيمان الآباء واتبعوا رأي الملك مرقيان». وقال مثل ذلك من اليونان نيكوفور كالستس الذي كان مشهوراً في سنة ١٣٣٠م (في تاريخه ك١٨ فصل ٥٢) وهاك قوله «ظهر في سورية شقاق عظيم في أيام يعقوب (البردعي) هذا الذي كان يدعو إلى بدعة الطبيعة الواحدة، فمن تشبثوا بالإيمان القويم سموا ملكية لأنهم اتبعوا المجمع الرابع المقدس والملك لان ملكو عند السريان تأويلها ملك». ولا أذكر أحداً من المؤرخين اليونان والعرب واللاتينيين الذين كانوا بعد نيكوفور وابن صليبا كساويرس أسقف الاشمونيين ، وابن الراهب مؤلف التاريخ الشرقي وجيورجيوس بن العميد الذين اتبع بارونيوس رأيهم لأنهم انتحلوا كلام ابن صليبا ونيكوفور، ولا أحفل بذكر سعيد بن البطريق البطريرك الإسكندري وان كتب في القرن العاشر، وذكر الملكية متواتراً (مجلد ٢ صفحة ١٦ و ٣٣، و٧٩ و٩٥ و١٠٠ و١٠٣) ولم يذكر اصل هذا الاسم بل يتبين من كلامه انه كان مستعملاً قبل مرقيان الملك مراداً به اصحاب الإيمان القويم لأنه قال (صفحة ١٠٠) : «وكان مرقيان الملك حسن الامانة وكان يدين ويقاتل عن امانة الملكية» ولا اعبأ ايضاً بقول توما الحاراقي اسقف كفرطاب من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة الذي كانت محاورة بينه وبين يوحنا بطريرك الملكية سنة ١٠٨٩م، في ان في المسيح مشيئة واحدة اثبت فيها ان الملكية سموا بهذا الاسم لأنهم اتبعوا بإرشاد القديس مكسيمس المعترف الملوك : مرقيان وأخاه وموريق سلفاء هرقل، وإليك قوله (عن كتابه الذي هو الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية). «ان مكسيمس مضى إلى الملكيين مرقيان وأخيه وإلى

موريق الذي خلفهما في قسطنطينية فرخصوا له أن ينذر بمشيئتي المسيح في سورية، فمن امتثلوا اوامرهم سموا ملكية ». قلت لا أعبأ بهذا القول لانه لا شاهد له بل هو مخالف لجميع آثار التاريخ الكنسي التي نصت على ان الملك مرقيان كان قبل موريق الملك بمئة سنة ونيف وانه لم يكن أخ يشاركه في الملك ولم يكن في أيامه ولا في ايام موريق الملك بحث في مشيئتي المسيح بل نشأ هذا البحث في ايام الملك هرقل خليفة فوقا وموريق لنحو سنة ٦٢٨م .

والذي أراه راجحاً انّ اسمي الملكية والمردة كانا في عصر واحد وأحدهما يخالف الآخر ، ولم يكونا يدلان في أول استعمالهما على دين أو طقس كما ارتأى بعض العلماء الموارنة ، بل على غرض او حزب مدني، وان دلاَّ على ذلك بعداً أعني لما افترق كل فريق منهما عن الآخر بطقسه ورعاته ومذهبه، لان من عصوا الملك بسورية سموا مردة اي عصاة ومن استمروا على طاعة الملك سموا ملكية، وإنما كان هذا في أيام الملك قسطنطين اللحياني لما استحوذ المردة على كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف بالجبل الاقرع) إلى مدينة أورشليم المقدسة كما أثبت توافان وشدرانس. ويؤيد ذلك صمت جميع الآباء والمؤرخين القدماء عن ذكر الملكية، فقلب ما شئت كتب الآباء في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع فلا تجد ذكراً للملكية ، ودقّق في مطالعة تواريخ بروكوب وأفاغريوس وتوافان وشدرانس وزوناراس وتوافيلكتس ، فلا تلقى أثراً لهذا الاسم في كتبهم بل لا نجد ذكراً للملكية في كتب اولي البدع ايضاً كبطرس القصار، وفيلوكسينس المنبجي، وساويرس، وبطرس الالثغ، ويوحنا فيلوبون، والداراوي وغيرهم ، بل تراهم سمّوا الكاثوليكيين متواتراً خلكيدونيين او مجمعيين ولم يسمّوهم قط ملكيين . وبعكس ذلك ترى توافان وشدرانس صرّحا مرات بذكر المردة ولم يصماهم ببدعة وهذا دليل واضح على ان اسمهم دال على غرض او حزب مدني لا على زيغان عن الدين ، ولذلك سمي اعداء المردة ملكيين بلغة موطنهم. ولو أشعرت هذه التسمية ببدعة لكان من كتبوا تاريخ تلك الايام والبدع التي نشأت فيها بسورية وصفوا إحدى الفرقتين باراتيكية ثم ان هذين الاسمين سريانيان واول استعمالهما كان في سورية، ويؤيد ذلك اللفظ نفسه، وإقامة المردة والملكية قديماً وإلى الان في سورية. وقد ندر او انقطع وجود الامتين في غيرها، ولهذا لا يعبأ بقول باجيوس (في تاريخ سنة ٦٢٢م) إن اسم ملكية وضع في ايام

مرقيان في مصر ... إذ لم نرَ مؤرخاً قبل سعيد بن بطريق عزا اسم ملكية إلى مرقيان ولو وضع هذا الاسم في مصر لما سمي الكاثوليكيون ملكية، وهو لفظ سرياني او عربي بل باسيلين عن لفظ ملك في اليونانية ، او بلفظ آخر من لغة المصريين والامر بيّن كالنور. فالمصريون لم يستعملوا السريانية قط ولم يتكلموا بالعربية إلا بعد مرقيان، والمجمع الخلكيدوني بقرنين لما فتح عمر بن الخطاب مصر. وأما تسمية العلماء الحدثاء الروم المصريين ملكية فلا يحفل بها لأن اسم اليعاقبة لا مراء في انه منسوب إلى رجل سرياني، ووضع في سورية، وقد سمي به بعد ذلك اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في مصر. فإن هذه الاسماء عرضة لتغير مدلولها ، يؤيد ذلك اسم الملكية فقد كان اولاً دالاً على السريان الكاثوليكيين والآن هو عبارة عن الروم المتحدين وغير المتحدين وعن المصريين اصحاب الطقس اليوناني، واللبنانيون كانوا يسمون في القرن السابع مردة، والآن يسمون موارنة نسبة إلى القديس مارون الذي بني له الدير على العاصي في جانب أباميا، وفيه نشأ يوحنا بطريركهم وقد سمي لذلك مارون». انتهى كلام السمعاني مترجماً بحروفه ولا يتسنى لي أن أزيده بياناً. فعمدة برهان هذا العلامة أنّ اسمَيّ مردة وملكية يقابل أحدهما الآخر وقد كانا في عصر واحد ونشآ في بلاد واحدة وهي سورية وجل الخلاف في نسبة الملكية إلى مرقيان الملك. وهذه النسبة غير ثابتة إذ لا تجد لها ذكراً في كتاب من جميع كتب العلماء والمؤرخين من القرن الرابع إلى القرن العاشر كاثوليكيين كانوا أو هراطقة. وأول من ذكرها هو رجل هائم أن يشرف امته ومعروف بطيشه وكثرة اغلاطه وهو سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري الملكي ومن أخص قواعد الانتقاد أنّ الاحداث الهامة إذا لم يذكرها مؤرخو القرن الذي حدثت فيه فلا يركن إلى صحتها ومن قالوا كسعيد بن البطريق بصحة هذه النسبة إلى مرقيان الملك يحمل كلامهم على انتحاله عنه أو على المتابعة له على زعمه ولا تصلح شهادتهم لتأخرها قروناً عن هذه التسمية ولم يعزوها إلى مؤرخ معاصر فلا أساس راهن لها ، وعليه فهي ساقطة ولو كثر عدد القائلين بها من المتأخرين ولو صدقت هذه التسمية على من اتبعوا المجمع الخلكيدوني والملك مرقيان لكان رهبان القديس مارون أحق بها من سواهم ؛ إذ ناضلوا عن هذا المجمع وسفك كثيرون منهم دمهم في الدفاع عنه كما روى كثيرون من القدماء والمتأخرين ، وكما تشهد الكنيسة الرومانية بتعييدها لهم، ولا نرى أحداً دعاهم ملكية. والحق أقول أني لم

أجد أنا أيضاً في مطالعاتي (وان لم تقس على شيء من مطالعات العلامة السمعاني) قولاً واحداً من أقوال العلماء قبل القرن العاشر يثبت هذه النسبة، واحسبني سعيداً ان ظفرت بشيء من ذلك لأغيّر رأيي هذا.

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون واسقفيته وبطريركيته وتآليفه

عد ٧٠٤

منشأ القديس يوحنا مارون

نعتمد في ترجمة القديس يوحنا مارون على ما دوّنه العلامة السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٦ وما يليها) نقلاً عن الكتاب العربي الذي خطه سنة ١٤٩٥م جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي اسقف نيكوسيا بقبرص إلى القس جيورجيوس بن بشاره رداً على اليعاقبة، وقد اذاعه الأب فرنسيس كوراسمس مترجماً إلى اللاتينية سنة ١٦٣٩م في مؤلفه وصف الارض المقدّسة (ك ١ فصل ٢٧ صفحة ٩٦)، ونقلاً عن العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب محاماته عن الموارنة (ك ١ فصل ٧ وما يليه).

قال السمعاني في المحل المذكور ولد يوحنا في قرية تسمى سروم موقعها في جبل السويدية على مقربة من مدينة انطاكية، وقد استشهد لصحة ذلك افاغريوس (في ك ٤ من تاريخه فصل ٣٨) وكاتب ترجمة يعقوب البردعي بالسريانية على ما روى الاهدني (في الفصل السادس من تاريخ الموارنة) حيث يقول: «اشتهر يعقوب بحفظ ايمان الرسل الذي تلقيناه من يعقوب أسقف أورشليم الاول، وملأ الكنيسة بأسرها بأعماله الحسنة، وإذ يلتقي الآن الهراطقة وأصحاب الايمان القويم فيسألهم الهراطقة من أنتم ومن تتبعون، فيجيبهم الارثوذكسيون اننا نتبّع ايمان

يعقوب اول الرسل الذي سمي اخا الرب بالجسد وهذا الايمان قد أرشدنا إليه يعقوب هذا الإلهي (أي البردعي) .واما المخالفون فيقولون نحن نتبع افرام الآمدي (بطريرك انطاكية الذي ذكرنا ترجمته) أو يوحنا السرومي وهو البطريرك المخالف لله ». ولا مراء في أنّ كاتب هذه الترجمة اليعقوبي يريد بيوحنا السرومي يوحنا مارون الذي كان يناصب اليعاقبة في سورية لا يوحنا السرومي الآخر الذي خلف افتيشيوس بطريرك قسطنطينية في أيام يوستنيانس الملك كما روى افاغريوس في المحل المذكور، لأنّ هذا السرومي لم تكن له علاقة أو بحث مع سكان لبنان وسورية بل ربما لم يعرفوه ولم يسمعوا باسمه.

وقد جاء في تاريخ البطريرك اسطفانس الدويهي أنّ ابا يوحنا مارون كان اسمه اغاتون، وكان اسم أمه انوهاميا، وأنهما كانا حسيين شريفين من نسل ملوك فرنسا. وقد اعتمد في ذلك على كتاب قديم كرشوني كان في كنيسة السيدة بدمشق قيل فيه: « كان رأس الأمة المارونية رجل اسمه يوحنا فاضل عالم مستقيم كثير الفضائل وهو من أصل شريف، اسم أبيه اغاتون واسم أمه انوهاميا واسم جده اليديس ابن أخت ملك فرنسا » وجاء مثل ذلك في ترجمة يوحنا مارون التي كتبها جبرائيل اللحفدي اسقف نيكوسيا إلى القس جرجس بن بشاره سنة ١٤٩٥م كما مرّ. وارتأى الدويهي وابراهيم الحاقلي (في شرحه قصيدة عبد يشوع الصوباوي) أنّ يوحنا مارون هو المراد بقول عبد يشوع ܝܘܚܢܢ ܒܪ ܦܪ̈ܢܓܝܐ أي يوحنا ابن الافرنج. على أنّ هذه الرواية لا يمكن تحقيقها ولا القطع بصحتها وان كنا لا ننكر أنّ كثيرين من الافرنج كانوا يسكنون وقتئذٍ في سورية للاتجار وللهرج الذي احدثه الغطط والبندالة وغيرهم في اوروبا في القرنين الخامس والسادس، بل قد اثبت القديس ايرونيموس أنه كان من أيامه كثيرون من الاوروبيين في سورية، وإن كان الدويهي بعد ان روى ان اليديس جد يوحنا مارون كان ابن أخت كارلس الكبير ملك فرنسا، انتبه إلى ما يرد على ذلك من ان هذا الملك كان بعد يوحنا مارون بسنين متطاولة، وحل هذا المشكل بأنّ كثيرين من ملوك فرنسا سموا باسم كارلس وأنّ كارلس المذكور لم يكن ملكاً بل كان أميراً في انطاكية، ودعي ملكاً. جرياً على عادة السريان والعرب أن يسموا كل حاكم أو متولٍ ملكاً إلّا أنّ كل ذلك لا يبلغ هذه الرواية إلى درجة التحقيق بل إلى درجة احتمال الصحة فقط، وقد أثبت العلامة السمعاني (مجلد ٢ صفحة ٣٠٦) أنّ الدويهي والحاقلي قد

انخدعا برواية عبد يشوع الصوباوي وصحيح كلامه ܝܘܚܢܢ ܒܪ ܦܚܪ̈ܐ أي يوحنا ابن الفخارين لا ابن الافرنج، فمن ذكره عبد يشوع إذاً ليس يوحنا مارون فلا يثبت قوله أنّه كان افرنجياً.

إنّ والدي يوحنا سلماه مذ حداثته إلى المدارس لاقتباس العلوم في انطاكية أولاً ثم في دير القديس مارون، فنبغ في العلوم اللغوية والرياضية والآلهية، ولشدة هيامه بالعلم سار إلى قسطنطينية فاتقن تعلم اليونانية بفنونها، والفلسفة، وانكبّ على مطالعة كتب الآباء القديسين وتفسيراتهم، وبلغه نعي والديه فعاد إلى انطاكية وكانت له شقيقة لها ابنان يسمى احدهما ابراهيم والآخر قورش، وكان ابراهيم فطناً أديباً شجاعاً فسلم إليه تدبير البيت والأملاك وساد بعد ذلك في قومه وأخذ يوحنا قورش أخاه وصعد به إلى دير القديس مارون الذي على ضفة العاصي زاهداً في العالم ومجده وكرامته، فلبس هو وابن اخته قورش زي الرهبان ونذر يوحنا نفسه لله ورقي إلى درجة الكهنوت وسمي يوحنا مارون نسبة إلى القديس مارون أو إلى ديره، وتفانى في حب خلاص النفوس وارشاد الناس إلى الايمان القويم والفضائل مناضلاً اولي البدع ومناصباً الأشرار، فصنّف كتباً كثيرة ووضع مقالات شتى سنأتي على ذكرها، وكان ينمو بالحكمة والنعمة كل يوم ويعظم ثوابه لدى الله ويرتفع قدره لدى الناس ولم نظفر بما ينبئنا بسنة مولده وقد أجمعوا على أنه توفاه الله سنة ٧٠٧م، فإن قُدِر أنّه عاش ثمانين سنة كان مولده سنة ٦٢٧م.

عد ٧٠٥

أسقفية القديس يوحنا مارون

جاء في ترجمة يوحنا مارون التي ذكرها السمعاني (مجلّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٩) أنَّ يوحنا مارون هدى كثيرين إلى الإيمان القويم، وكان كثيرون يأتون إليه ويعملون بما يشير عليهم به. ولذلك رأى أوجان البرنس (أي أمير أنطاكية) وجميع الإفرنج المقيمين في أنطاكية أن يقدموا يوحنا إلى الكردينال سفير الكرسي الرسولي الروماني ليرقيه إلى درجة الأسقفية على مدينة البترون، ليقي أهل جبل لبنان من الضلال ويثبتهم في إيمان الكنيسة الرومانية. وقد صرَّح اليعاقبة بإقرارهم بذلك في كتاب معتقدهم الذي كان في العربية بمكتبة مدرسة الموارنة

برومة حيث يقول مؤلف هذا الكتاب: «أنتم كلكم سريان وكان كرسي بلدكم لانطاكية السريان إلّا لمّا جارت ملوك الروم على السريان وقتلوهم قام مارون ووافق ملك الإفرنج الذي في أنطاكية وكان اسمه أوجان برنس، وقال له يا ملك الزمان نخاف على جبل لبنان أن تستميله أمّة الملكية إلى معتقدهم فقلْ للكردينال الذي عندك وألزمه يكرسني مطراناً حتى أمسك بعض الناس على أمانة الفرنجية، إلّا أمانة يعقوب فلا أذكرها فكرسه مطراناً على البترون» انتهى كلام مؤلف كتاب تعليم اليعاقبة ولا شكَّ في أنَّه يريد بمارون يوحنا مارون راهب دير القديس مارون.

ولم نرَ السمعاني تصدى في المكتبة الشرقية لشرح هذه الفقرة من ترجمة يوحنا مارون، لكننا رأيناه شرحها بإسهاب في الكتاب الرابع من مكتبته في الناموس الديني والمدني في ثلاثة فصول هي: الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرون من الكتاب المذكور حيث أطال وأجاد في ذكر إقامة يوحنا الفيلادلفي (أسقف فيلادلفيا وهي المعروفة اليوم بعمان في عبر الأردن) نائباً للكرسي الرسولي في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم كما ذكرنا في كلامنا على بطاركتهما في القرن السابع إذ لم تمكن الحال من إقامة بطريركين فيهما، وأورد البراءة التي نصب فيها البابا مرتينس يوحنا الفيلادلفي في هذه النيابة ومما قاله فيها: «ونحرضك على أن تكون نائباً لنا في هذه الأمصار الشرقية في جميع المقتضيات البيعية فأسرع إلى إصلاح كل ما كان إصلاحه لازماً، وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة بطريركيتي أنطاكية وأورشليم، إننا نأمرك بذلك بالسلطان الرسولي الذي أولانا الله إياه بواسطة بطرس زعيم الرسل (عن براءة البابا مرتينس التي أثبتها لاباي في مجلَّد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ٢٠). وقد أنفذ البابا مرتينس أيضاً رسالة أخرى عامة إلى جميع الكهنة والأساقفة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم قال فيها إنَّه بالسلطان الذي أولاه الله إياه قد أقام يوحنا الفيلادلفي نائباً له في المشرق، ويناشدهم أن يحسنوا الطاعة له وأن يجانبوا الأراطقة ولاسيما مكدونيوس الذي غصب كرسي أنطاكية وبطرس الذي تدخَّل على كرسي اسكندرية وأعلمهم بحرمه بدعة المشيئة الواحدة في مجمع لاتران، وأنَّه أرسل إلى يوحنا الفيلادلفي نسخة من أعمال هذا المجمع ليطلعهم عليها. وقد ذكر هذه الرسالة أيضاً لاباي في مجموعة المجامع (مجلَّد ٦ صفحة ٢٩) والسمعاني في مكتبة الناموس (في المحل المذكور آنفاً).

فأتم الفيلادلفي ما عهد إليه به البابا مرتينس رغماً عن تشيّع الملك قسطنس بن هرقل وبطاركة قسطنطينية لأصحاب بدعة المشيئة الواحدة، وتيسّر له العمل بنيابته بعد موت قسطنس وخلافة ابنه قسطنطين اللحياني له، إذ كان حسن المعتقد كثير الغيرة على الإيمان الكاثوليكي؛ وقد رأيت ما كان من السطوة حينئذٍ لسكان لبنان وقد كان مكدونيوس ومكاريوس بطريركا انطاكية حينئذٍ متشبثين ببدعة المشيئة الواحدة مقيمين في قسطنطينية. فسأل الكاثوليكيون في أنطاكية ولبنان يوحنا الفيلادلفي أن يرقي القس يوحنا مارون الذي كان اشتهر بعلمه وفضيلته ومناضلته أصحاب البدع إلى أسقفية البترون فرقّاه إليها سنة ٦٧٥ أو سنة ٦٧٦م.

حقق ذلك السمعاني في ك ٢ فصل ٢ من مكتبته في الناموسين وفي مجلّد ٢ في مؤلفي تاريخ إيطاليا، والبطريرك يوسف أسطفان قسم ٣ فصل ٦ في قداسة يوحنا مارون، والخوري أنطون قيالة البيروتي في رده كلام القس يوحنا عجيمي الملكي الكاثوليكي وروهر بخر في تاريخه لسنة ٦٦٨م حيث قال: «إنَّ يوحنا الفيلادلفي الذي أقامه البابا مرتينس نائباً للكرسي الرسولي في المشرق سر بما بلغه من امتداد سطوة الموارنة، ولئلا يفتقروا إلى المساعدات الروحية أقام لهم أسقفاً يوحنا مارون راهب دير القديس مارون». روى كل ذلك البطريرك بولس مسعد في الدرّ المنظوم صفحة ١٤١.

وجاء في الترجمة التي أثبتها السمعاني في المجلّد المذكور من المكتبة الشرقية أنَّ يوحنا مارون بعد ترقيته إلى أسقفية البترون انتقل من دير القديس مارون إلى فينيقية أي إلى أبرشيته، وتفانى في حراثة كرم الرب، وردَّ إلى الإيمان القويم كثيرين من أصحاب بدعتي الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة من رعيته وغيرها، فنما شعبه وكثر عديدهم، وانبسطت مساكن كثيرين منهم حتى أورشليم وبلاد الأرمن وكان يعضدهم بكثرة الكهنة ورؤساء الكهنة لخلاص نفوسهم، بل أقام لهم أمراء وقادة لجيشهم يذبّون عن جماعتهم ويحمون حماهم من كل معتد وكان من أمراء جيشهم ابراهيم ابن اخته الذي مرَّ بنا ذكره، وكانت لهم السطوة والغزوات التي رويناها عن توافان وشدرانس وزوناراس وغيرهم حتى ألجأوا معاوية وعبد الملك بن مروان إلى الإتّفاق مع ملوك الروم عليهم بشرط أن يصدُّوا غزواتهم ويجلوا عسكرهم كما مرَّ.

وأمّا دعوى القس يوحنا عجيمي الملكي الكاثوليكي برسالته المنفذة إلى الخواجه الياس عبدو الحلبي بأنَّ يوحنا مارون رقاه إلى الأسقفية مكاريوس بطريرك أنطاكية المتسكع ببدعة المشيئة الواحدة فهي دعوى باطلة لم ينوّرها صاحبها بدليل راهن أو حجة قاطعة ولم يقل بها مؤرخ صادق، بل هي مخالفة لأقوال المؤرخين المحققين ومضادة لتصريح الأحبار الأعظمين ولاسيما البابا بناديكتس الرابع عشر العلّامة، وقد فنَّد الخوري أنطون القيالة البيروتي تلميذ مدرسة الموارنة في رومة رسالة القس يوحنا عجيمي المذكورة، وأثبت هذا التفنيد المطران ارسانيوس شكري أسقف حلب الماروني وقد طبع في بيروت هذه السنة ١٨٩٩م في كتاب المحاماة عن الموارنة وقديسيهم، فمن شاء زيادة بيان في هذا الشأن فليطالع الكتاب المذكور.

عد ٧٠٦

بطريركية القديس يوحنا مارون

جاء في ترجمة يوحنا مارون التي أثبتها السمعاني في المحل المذكور من المكتبة الشرقية أنَّه في السنة الثانية للملك يوستنيانس (الأخرم وهي سنة ٦٨٥م) قضي أجل توافان الذي أقامه آباء المجمع السادس بطريركاً على أنطاكية فاجتمع الرؤساء ليختاروا رجلاً صحيح المعتقد ليخلفه، وبعناية الله أجمعوا على انتخاب يوحنا الأسقف بطريركاً على أنطاكية وقلَّدوه رئاسة الكرسي الأنطاكي. وروى البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة أنَّه سار مع قاصد البابا من طرابلس إلى رومة إلى البابا سرجيوس فأحسن استقباله لأنَّه كان أنطاكيّ الأصل، ووشحه بدرع الرياسة ودفع إليه التاج والخاتم والعصا وخوَّله كل ما كان لأسلافه من المنح وعاد إلى أنطاكية، فأرغمه أصحاب البدع أن يفرَّ أولاً إلى دير القديس مارون ومنه انفذ إلى اللبنانيين كتابه الموسوم بإيضاح الإيمان، ثم لم ينجُ هناك أيضاً من اضطهاد الملك يوستنياس الأخرم وأولي البدع ففرَّ إلى لبنان وأقام أولاً في سمر جبيل، ثم في كفرحى حيث بنى ديراً على اسم القديس مارون ووضع فيه هامته التي كان قد نقلها من ديره على العاصي.

على أنَّ السمعاني ذيَّل كلام البطريرك اسطفانس الدويهي بحاشية قال فيه ما ملخصه: «اعتمد اسطفانس الدويهي في بطريركية يوحنا مارون على التقليد العام

عند الموارنة، وعلى إقرار اليعاقبة الذي مرَّ ذكره، وعلى مقدِّمة كتاب يوحنا مارون الموسوم بإيضاح الإيمان الذي دوَّنه وأنفذه إلى سكان لبنان حيث قيل: «ورأى (يوحنا) مارون أنَّ الأولى به أن يغير مقام كرسيه ولا يغير الإيمان القويم الذي علمه الآباء الذين اجتمعوا في نيقية وأثبتته باقي المجامع ففر من أنطاكية وأتى إلى دير في جهة اباميا على ضفة العاصي (وهو دير القديس مارون) وكان في ذلك الدير ثماني مئة راهب أطهار قديسون فأقام كرسيه بينهم، وكتب ثمَّ هذا الكتاب وأنفذه إلى سكان لبنان المقدس». وهذه المقدمة تراها في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية مدونة بالسريانية والعربية كما رويناها إلَّا في تغيير يسير، وهذا الكتاب قد خط سنة ١٧٠٣ يونانية الموافقة لسنة ١٣٩٢ للميلاد على أنَّ انتخاب يوحنا مارون بطريركاً في مجمع أساقفة في أنطاكية لم يقل به إلَّا الإهدني ولو انتخب بطريركاً في أنطاكية باجتماع أصوات الأساقفة لذكر المؤرخون الروم واللاتينيون اسمه في سلسلة بطاركة أنطاكية سواء كان كاثوليكياً أو أراتيكياً كما ذكروا أسماء جميع بطاركة أنطاكية الكاثوليكيين وغير الكاثوليكيين ممن كانوا قبله أو صيروا بعده. ولهذا أظن أنَّ الأمثل أن يقال إنّه لم ينتخبه أساقفة الكرسي الأنطاكي الذين كانوا طوع يدي يوستنيانس ملك الروم، بل انتخبه بطريركاً أساقفة المردة أي الموارنة. ويظهر لي أنَّه يؤيد هذا اعتياد الموارنة إلى اليوم أن يقيموا لأنفسهم بطاركة بالإنفصال عن الروم واليعاقبة والنساطرة، ولا يصدق أنَّ جمهوراً كبيراً من الناس وقد استحوذوا على كلّ ما كان من الجبل الأسود إلى أورشليم كان خلياً من رئيس وراع، وانضوى إلى أمة واحدة تخالف غيرها في طقوسها وعوايدها دون أن يكون لهم رئيس يجمع شملهم، ولهذا لا ترى المؤرخين الروم واللاتينيين ذكروا أعمال يوحنا مارون لأنَّها كانت في جبل لبنان ولم يذكر المؤلفون الروم بطريركيته لأنَّ رعيته جميعها كانت من السريان وهم لا يذكرون إلى الآن خلفاء يوحنا مارون من بطاركة الموارنة في عداد البطاركة الأنطاكيين. أما ما رواه كوارسمس في ترجمة يوحنا مارون من أنَّه أتى إلى رومة وأقامه البابا سرجيوس بطريركاً على أنطاكية فأظن مصدره أنَّ يوحنا مارون والموارنة تشبثوا بعرى الكرسي الرسولي الروماني خلافاً لباقي السريان انتهى كلام السمعاني.

وقد انتحل لكويان (في مجلَّد ٣ من المشرق المسيحي صفحة ٤٩ في بطاركة الموارنة) كلام السمعاني برمته ولم يزد عليه إلَّا فقرة من كتاب يوحنا سافريوس في

رحلته إلى أورشليم (فصل ٢٧) نقلها عن مقالة نيرون الباني في الموارنة (صفحة ٣١) وهي: «أنَّ الموارنة لوجودهم بين أصحاب البدع الكثيرة في سورية التمسوا من الحبر الروماني أن يقيم عليهم بطريركاً خاصاً بهم فأجاب سؤلهم وأقام (يوحنا) مارون في المقام البطريركي . .. فعاش مجملاً بالقداسة ومذ ذاك الحين أخذ الموارنة يختارون لأنفسهم دائماً بطريركاً خاصاً».

والحاصل مما مرَّ أنَّ ترقية يوحنا مارون إلى البطريركية اختلفت فيها الأقوال فمن قائل إنَّ القاصد الرسولي في سورية أخذه بعد موت توافان إلى رومة وكان وقتئذٍ أسقفاً على البترون فأقامه البابا سرجيوس بطريركاً على أنطاكية. ومن قائل: إنَّ الأساقفة اجتمعوا في أنطاكية وأقاموه بطريركاً واضطرَّ أن يهرب منها إلى دير القديس مارون ثم إلى لبنان كما روى الاهدني. ومن قائل أنَّ أساقفة الموارنة اجتمعوا في لبنان واختاروه بطريركاً أنطاكياً عليهم كما روى السمعاني. وكل هذه الأقوال نراها محتملة الصحة ولا يتسنى لنا أن نرجح أحدها على الآخر ولاسيما أنَّ العلامة السمعاني لم يقطع بصحة قوله بل عبَّر عنه بكلمة أظن، ولم يقم عليه دليلاً إلَّا صمت المؤرخين اليونان واللاتين عن ذكر يوحنا مارون وخلفائه في سلسلة بطاركة أنطاكية. وكلّ يعلم أنَّ هذا الدليل وحده ليس بقاطع ولكن بأيّ هذه الأقوال قلنا تبين أنَّ الأحبار الرومانيين أقروا ليوحنا مارون بالبطريركية على أنطاكية ولاسيما أنّ توافان أثبت (في تاريخ سنة ٧٤٣م) أنَّ كنيسة أنطاكية لم يقم فيها راع مدة أربعين سنة، وتوافيلكتس روى أنَّها استمرت حينئذٍ خمسين سنة خالية من بطريرك وتابعه على ذلك إدوار برنردس في سلسلة بطاركة أنطاكية واعتمد لكويان هذه الأقوال (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) ولم يحقق وجود بطريرك يقيم في أنطاكية إلَّا أسطفانس أقيم سنة ٧٤٢م (طالع عد ٦٩٢) ولا تسة عما كانت عليه حال سورية في تلك الأيام من الحروب والتشيع للبدع وما كان للمردة أي الموارنة من السطوة والصولة واستحواذهم على كل البلاد من الجبل الأسود إلى أورشليم. فهل يخطر على بال أنَّ الأحبار الرومانيين تركوا أنطاكية وسورية حلواً من رئيس يعني بأمر المؤمنين ويقيهم الضلال ويثبتهم في الإيمان الكاثوليكي، ويكفينا مؤونة البرهان في ذلك قول العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر بخطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م حيث قال: «لا يفوتكم أنَّه في أواخر القرن السابع عندما فشت بدعة القائلين بمشيئة واحدة في المسيح وأفسدت سكان

البطريركية الأنطاكية، جزم الموارنة حينئذٍ رغبةً في وقاية طائفتهم سالمة من ذلك الفساد أن يختاروا لهم بطريركاً يثبت من الحبر الروماني». وقد أجمع كل من ذكروا هذه الأحداث أنَّ البطريرك الذي اختاره الموارنة حينئذٍ إنَّما هو البطريرك يوحنا مارون.

وقد ورد في تاريخ أنسطاس المكتبي أنَّه كان في السنة الأولى ليوسستنيانس الملك توادورس البطريرك القسطنطيني، واسكندر البطريرك الأنطاكي. ولكن اسكندر هذا قل من ذكره ممن كتبوا تاريخ بطاركة أنطاكية، وأثبت العلامة السمعاني في مكتبة الناموس (مجلَّد ٥ صفحة ٢٧) أنَّ اسكندر هذا إنَّما هو جيورجيوس الآتي ذكره وكذلك سماه كثيرون جيورجيوس أو اسكندر وعن لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) أنَّ ابن البطريق لم يذكر اسكندر بل ذكر توما، وقال إنَّه استمرَّ في البطريركية عشرين سنة وقام بعده جيورجيوس في السنة الأولى لخلافة عبد الملك بن مروان، فقال لكويان هذا عن التاريخ الصحيح بمراحل. وأمَّا جيورجيوس فقد جاء اسمه في جملة توقيعات الأساقفة على مجمع قصر الملك الذي عقده يوستنيانس الأخرم سنة ٦٩٢م وقال فيه لكويان (في المحل المذكور) إنَّه يظهر من أعمال المجمع السادس المسكوني أنَّ جيورجيوس هذا كان راهباً كاهناً في سبسطية (السامرة) بفلسطين وكان في جملة نواب بطريركية أورشليم في هذا المجمع، ويظهر من توقيعه على مجمع قصر الملك ان صير بعد ذلك بطريركاً على أنطاكية، ولكنّ يتبين من توقيعه أنَّه زيد بعد انحلال المجمع من يد كاتب حديث. وقال السمعاني (في مكتبة الناموس مجلَّد ٥ صفحة ٣١) ان توقيعه على هذا المجمع، كان على الهامش بهذه الصورة: «الحقير جيورجيوس أسقف أنطاكية وقعت حاكماً بما رسم» وإنَّه هو الذي سماه مكاريوس البطريرك الملكي في فهرست بطاركة أنطاكية، اسكندر وأوجب أنَّه شهد مجمع قصر الملك لكنَّه أثبت أنَّ البطاركة الأنطاكيين مكدونيوس ومكاريوس وتوافان وجيورجيوس هذا ارتقوا إلى بطركية أنطاكية في قسطنطينية، واستمروا فيها إلى يوم وفاتهم إلَّا مكاريوس فإنَّه توفي في رومة بعد أن عزله المجمع السادس، وحضور جيورجيوس في مجمع قصر الملك الذي نبذه الكرسي الرسولي إلى الآن والذي كان فيه الأساقفة طوع يدي يوستنيانس الأخرم لا يدل البتة على أنَّ جيورجيوس كان صحيح العقيدة، ويظن أنَّه كما اختار

قسطنت الملك مكدونيوس ومكاريوس بطريركي أنطاكية لتشيعّهما لبدعة المشيئة الواحدة كما حقق السمعاني (مجلّد ٤ من مكتبة الناموس فصل ٢٠) هكذا اختار يوستنيانس الأخرم جيورجيوس هذا وأقام في قسطنطينية كأسلافه. والحاصل ممَّا مرَّ أنَّ جيورجيوس يشكُّ في صيرورته بطريركاً أنطاكياً إذ لا يستدلُّ على ذلك إلَّا بتوقيعه وتوقيعه يشك في صحته علىْ ما رأيت من كلام لكويان والسمعاني ويرجِّح أنَّه لم يكن صحيح العقيدة وإنَّ يوستنيانس أقامه بطريركاً إن صحَّت بطريركيته، ومن المؤكَّد أنَّه لم يقم في أنطاكية كما رأيت وقد فرغت بطريركية أنطاكية من بطريرك بعد ذلك أربعين سنة أو خمسين كما أثبتنا وقد حققه السمعاني (في مكتبة الناموس مجلَّد ٥ صفحة ٢٧ و٥٠٠ و ٥٠١) وفي مقالته في بطاركة اليعاقبة المعلقة على ترجمته لتاريخ ابن الراهب صفحة ١٧١).

فإذاً الخليفة الشرعي والكاثوليكي لتوافان الذي أقامه المجمع السادس بطريركاً لأنطاكية إنَّما هو القديس يوحنا مارون، وفي مدَّة أربعين أو خمسين سنة بعد ذلك لم يقم بطريرك على أنطاكية، ولمْ يكن بطريركها الكاثوليكي إلَّا القديس يوحنا مارون، ومن بعده قورش ابن اخته وخلفاؤهما كما سترى. نعم إنَّه كان بطريركاً خاصاً على الموارنة ولكن لم يكن في تلك الحقبة بطريرك أنطاكي كاثوليكي سواه وكان الموارنة السواد الأعظم من سكان هذه البطريركية الكاثوليكيين، وكانوا محتازين كل ما كان من الجبل الأقرع إلى أورشليم كما رويناه عن ثقاة من المؤرخين، وكان باقي السكان إما يعاقبة ولهم بطريرك خاص بهم ينسب إلى أنطاكية، وإما متسكعين ببدعة المشيئة الواحدة إتباعاً لأكثر ملوك قسطنطينية ورؤسائها، وإما كاثوليكيين ولكنهم مشتتون في أصقاع كثيرة ويمنع الخلفاء من إقامة بطريرك في أنطاكية، ولمَّا رخصوا للنصارى بذلك اختاروا أسطفانس المارّ ذكره في أواسط القرن الثامن لكنه لم يكن بطريركاً عاماً لأنَّ النساطرة أنشقوا عن بطريركية أنطاكية وأقاموا لهم بطريركية في بابل. واليعاقبة بعد موت ساويرس أخذوا يختارون بطاركة خاصين بهم يسمونهم أنطاكيين والموارنة اعتادوا إقامة بطريرك خاص بهم يثبته الكرسي الرسولي ويوليه حقوق بطريركية أنطاكية كما رأيت وسترى، فلم تكن أهمية للبطريرك المقيم في أنطاكية، ولم يكن يلي إلَّا الكاثوليكيين القلائل المشتتين عدا الموارنة ولم يكن جميع هؤلاء البطاركة كاثوليكيين، ولم يمضِ زمان طويل إلَّا عمَّ انفصال كنيسة الروم المشرق وأخذوا

يقيمون بطاركة في أنطاكية إلى اليوم، ولما زحف الإفرنج إلى هذه البلاد أقاموا بطاركة على أنطاكية وغيرها ولكن على اللاتينيين وحدهم ولما طردوا من هذه البلاد لم يبق لمن سمي بطريركاً إلّا الشرف. وعلى هذا المنوال استمرّ خلفاء القديس يوحنا مارون البطاركة الشرعيين الكاثوليكيين وحدهم لأنطاكية قروناً كثيرة. وفي القرن السابع عشر ارتدَّ بعض الملكية المنفصلين إلى الإيمان القديم فرخص لهم الحبر الروماني في القرن الثامن عشر أن يقيموا بطريركاً خاصاً بهم وأن يسمى أنطاكياً وارتدَّ بعض السريان عن اليعقوبية إلى الإيمان الكاثوليكي فرخص لهم الحبر الروماني أن يقيموا بطريركاً خاصاً بأمتهم وأن يسمى أنطاكياً أيضاً. فقد كانت هذه البطريركية أشبه بشجرة قصمت بعض أغصانها القديمة ونبت في موضعها فروع حديثة واستمرّ غصن فيها متمسكاً بالأصل مزهراً مثمراً والحاصل من ذلك أنَّ القديس يوحنا مارون وخلفاءه إلى اليوم هم البطاركة الشرعيون الكاثوليكيون لكرسي أنطاكية خلفاء توافان خليفة بطرس في الكرسي الأنطاكي. وإليك إثبات هذه الحقيقة بأقوال الأحبار الأعظمين أنفسهم والقول ما قالوا.

قال البابا أينوشنسيوس الثالث في رسالته إلى بطريرك الموارنة وأساقفتهم وشعبهم سنة ١٢٠٧م ما ترجمته: «إننا نثبت أيها الأخ البطريرك لكنيستك على اسم العذراء بيانوح كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها الخاضعين بحق الرئاسة لك ولخلفائك؛ أي مطرانية مار اسيا تربل المنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقا وتأخذ الباليوم درع ملء الخدمة الحبرية بحسب العادة فيسلمه إليك بطريرك أنطاكية اللاتيني وكان البابا قد أرسل الباليوم معه إليك) من غير ما صعوبة ونثبت لك العوايد الجارية التي كانت لك ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الأنطاكية إلى الآن ونهبها لك ولخلفائك بالسلطان الرسولي». وإنَّ كانت حالة القرون الوسطى لم تؤذن لنا بإيراد أقوال من الأحبار الأعظمين أسلاف أينوشنسيوس الثالث فلنا الغنى عنها بقوله نثبت لك العوائد الجارية التي كانت لك ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الأنطاكية ولا نغفل عن أن براءات الأحبار الأعظمين الخمس عشرة التي كان الأسقف جبرائيل القلاعي يذكر البطريرك بأنّها موجودة في كرسيه بختومها ورصاصها ما برحت محفوظة في الكرسي البطريركي الماروني وجميعها نسجت على منوال براءة أينوشنسيوس الثالث، ومنها براءة من البابا اسكندر الرابع يثني فيها على البطريرك لقبوله في جملة رعيته من تخلفوا في سورية من اللاتين بعد

طرد الصليبيين منها ويسميه بطريركاً أنطاكياً كما صرَّح بذلك بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية المكرر ذكرها والبابا لاون العاشر في رسالته إلى البطريرك سمعان الحدثي في ١ آب سنة ١٥١٥م حيث يقول «إنَّنا اطلعنا في براءتي أينوشنسيوس (الثالث) واسكندر (الرابع) الصالحي الذكر أنَّ أرميا الذي يسمى بطريركاً أنطاكياً (هو بطريركنا أرميا العمشيتي) أدى الطاعة كما اعتاد البطاركة تأديتها للكرسي المقدَّس في مدينة طرابلس بحضرة المطارنة والأساقفة على يد بطرس الكردينال ... قاصد الكرسي الرسولي». وكتب البابا أدريانس السادس إلى البطريرك المذكور في ٢٢ تشرين الأوَّل سنة ١٥٢٢م: «أدريانس الأسقف عبد، عبيد الله إلى الأخ الموقر (سمعان) بطرس البطريرك الجالس على كرسي أنطاكية». وكذا كتب البابا بولس الخامس إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م، والبابا غريرغوريوس الخامس عشر في براءته إلى هذا البطريرك في ١ تموز سنة ١٦٢٢م، والبابا أوربانس الثامن في ٣٠ آب سنة ١٦٢٥م وفي رسالته إلى البطريرك جرجس عميرة في ٣ آذار سنة ١٦٣٥م وأينوشنسيوس العاشر في رسالته إلى البطريرك يوسف العاقوري في ٢٠ أيلول سنة ١٦٤٦م، وفي رسالته إلى البطريرك يوحنا الصفراوي في ١٣ أيلول سنة ١٦٤٩م ومثلهم كتب البابا اسكندر السابع إلى البطريرك جرجس السبعلي في ٩ آذار سنة ١٦٥٩م حيث قال «إنَّ الكنيسة البطريركية الانطاكية التي تخصُّ طائفة الموارنة وكان يدبرها يوحنا الصفراوي بطريرك أنطاكية أضاعت تعزيتها براعيها لوفاة البطريرك يوحنا المذكور اذ قضى دين الطبيعة». وكذا كتب البابا اكليمنضس العاشر إلى البطريرك الدويهي في ٦ آب سنة ١٦٧٢م. وفي ١٢ كانون الأوَّل من السنة المذكورة وفي ٢٠ أيار سنة ١٦٧٣م وأينوشنسيوس الحادي عشر في ٢٣ تشرين الآخر سنة ١٦٨٠م والبابا أكليمنضس الثاني عشر في رسالته ١ نيسان سنة ١٧٣٢م إلى البطريرك يعقوب عواد. وفي رسالته في ٢٩ تشرين الآخر سنة ١٧٣٥م إلى البطريرك يوسف درغام الخازن وكل هؤلاء الأحبار الأعظمين كانوا قبل البابا بناديكتس الرابع عشر الذي يدعي خصوم الموارنة أنَّه أوَّل من سمى بطريركهم أنطاكياً.

ولا حاجة مع شهادة الأحبار الأعظمين إلى شاهد آخر، لكننا نورد شيئاً من شهادات العلماء مقتصرين على قول الأب فرنسيس سوريانس نائب اسكندر

السادس في الأرض المقدسة من رسالته في ٢٥ تشرين الآخر سنة ١٤٩٤م إلى البطريرك سمعان الحدثي: «إلى الأب الموقر (سمعان) بطرس الحدثي الرابع من استحق بنعمة سابغة أن يُدعى بطريرك أنطاكية ومدبِّر كرسيها من الخادم الحقير فرنسيس سوريانس رئيس أديار الإفرنج ومدبر الإخوة الصغار في أورشليم ونائب قداسة سيدنا البابا اسكندر في جميع الأرض المقدسة». وقول باجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م: «إنَّ بطريرك الموارنة يسميه الأحبار الأعظمون في براءتهم الرسولية منذ أيام أينوشنسيوس الثالث بطريرك الموارنة الأنطاكي». وقول ديلاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلَّد ٢ صفحة ٢٣٢) وهو «إنَّ هذه الكنيسة (المارونية) يمكن أن تسمى الكنيسة الأولى في المشرق لكاثوليكيتها وللبطريركية: الانطاكية التي هي كرسيها». وقول دومينيكس ماكري في اسم بطريركية وهو «إنَّ في رومة أربع كنائس بطريركية تعين للبطاركة الأربعة إذا عقد مجمع عام في رومة وهي كنيسة مار يوحنا لاتران للبابا، وكنيسة القديس بطرس لبطريرك قسطنطينية وكنيسة القديس بولس لبطريرك اسكندرية، وكنيسة مريم الكبرى لبطريرك أنطاكية وهو وحده الآن كاثوليكي يرؤس ويدبر الطائفة المارونية الشديدة التعلُّق بالكنيسة المارونية الشديدة التعلُّق بالكنيسة الرومانية». طالع كتابنا روح الردود المطبوع مع ترجمته اللاتينية في بيروت صفحة ٢٧٣ إلى صفحة ٢٩٠.

وأمَّا أعمال القديس يوحنا مارون في مدة بطريركيته فقد جاء ذكرها بإيجاز في ترجمته التي أثبتها السمعاني في المحل المذكور فقال إنَّه بعد أن فرَّ إلى دير القديس مارون على العاصي أمَّر ابن أخته ابراهيم على جماعته واستدعى إليه سمعان من لبنان، وسار بجيش وافر من دير القديس مارون إلى قلعة سمر جبيل فوق البترون، وقد ذكر ذلك مؤلف كتاب معتقد اليعاقبة إذ قال: «لما وصل تملّك الملكية إلى قرية اسمها أميون ارتفع مويرين (مصغراً للتحقير) وابن اخته بريهم إلى سمر جبيل وحماهم من الجزية التي فرضها الملكية على من لا يتبع دينهم ووافقه كل السريان والذين في جبل لبنان وتبعوا مارون». وبعد أن ظفرت جماعة البطريرك بجيش مريق ومرقيان كما مرَّ واستراح من عواصف الإضطهاد وأخذ يجول في أعمال لبنان مجاهداً فيثبت المؤمنين ويعني برد المخالفين إلى حظيرة الحياة، وينشئ كنائس وأدياراً ويقيم لها كهنة وخداماً وينصب أساقفة ويهتم بحالة كراسيهم ويجعل لهم أوقافاً تتكفَّل بحاجات معاشهم. ولما رأى أنَّ جيش

موريق ومرقيان دك دير القديس مارون وقتل رهبانه وضبط أملاكه» ليستأصل ذكره، أنشأ ديراً آخر على اسمه في شرقي قرية كفرحي من عمل البترون. ويقال: إنَّه نقل إليه هامة القديس مارون من ديره على العاصي، وفرض عيداً في الخامس من كانون الثاني الذي كرست فيه الكنيسة على اسمه ولما أتمَّ جهاده ودبَّر قومه تدبير الرعاة الصالحين انتقل من دار الشقاء إلى دار البقاء لينال ثواب أعماله الصالحة ومبراته الجزيلة ممن لا يضيع أجر التعيين في كرمه الروحي، وكان انتقاله في التاسع من شباط (سنة ٧٠٧) في دير مارون بقرية كفرحي، فاجتمع الأساقفة والكهنة والرهبان وجمع لا يحيطه العدد من كل بلاد الموارنة ليتباركوا بجسده الطاهر، وحملوه بالمصابيح والبخور والترانيم ودفنوه في الدير المذكور كما جاء في ترجمته أنَّه مات قديساً ودفن في كفرحي وقال الأسقف جبرائيل اللحفدي في قصيدته في المجامع: «في كفرحي مات ذا المختار».

عد ٧٠٧

مؤلفات القديس يوحنا مارون

لما كان البطريرك أسطفانس الدويهي وابراهيم الحاقلي الماروني قد ظنا أنَّ يوحنا ܒܪ ܦܪ̈ܢܓܝܐ (ابن الإفرنج) والصحيح ܒܪ ܦܚ̈ܪܝܐ (ابن الفخارين) الذي ذكره عبد يشوع في قصيدته هو يوحنا مارون عزوا إلى هذا البطريرك الكتب السبعة التي عزاها عبيد يشوع إلى يوحنا المذكور وأطال في شرحها، ولما كان العلامة السمعاني قد أثبت أنَّهما انخدعا بهذا الاسم وأنَّ يوحنا ابن الفخاري هو كاتب نسطوري لا يوحنا مارون اقتصرت على ذكر مؤلفات يوحنا مارون التي روى السمعاني أنَّها في المكتبة الواتيكانية وأوَّلها.

نافور أي رتبة القداس

إنَّ فاتحة هذا النافور ܡܪܝܐ ܡܠܟܐ ܕܡܠܟ̈ܐ ܘܡܪܐ ܕܡܪ̈ܘܬܐ ܐܢܬ أمامك يا ملك الملوك وسيد السادات وهو مثبت في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي

في المكتبة الواتيكانية صفحة ١٠٠، وقد خطَّ في كمبليني بقبرص سنة ١٨٤٦ لاسكندر وهي سنة ١٥٣٥ للميلاد وقد ذكره الدويهي في كتابه المناير العشر (فصل ٢ في مؤلفي النوافير الكاثوليكية) حيث قال «يوحنا المسمى مارون الذي ارتقى بعد توافان بطريرك أنطاكية إلى ذلك الكرسي في سنة ٦٨٥م صنّف النافور الذي بدؤه ܡܫܒܚ ܡܠܟܐ ܕܡܠܟܐ. وقد نبذ رينودوسيوس (في مجلّد ٢ من تأليفه في الليتورجيات الشرقية صفحة ١٥) هذا النافور مع غيره من مؤلفات يوحنا مارون ولم يورد سبباً لنبذه إلَّا قوله: «لا وجود له في مكتبة وإن توافرت فيها الكتب الشرقية» فكأنَّه اطَّلع على جميع المكاتب أو قلَّب كل الكتب في كل منها أو لم يبقَ في المشرق أثر لأحد المؤلفين إلَّا أتى به إلى مكاتب أوروبا. وقد احتج بعضهم على هذا النافور، بحجتين فقال إنَّه مجموع من نوافير اليعاقبة الكثيرة. كما يظهر لمن يقابل وإنَّ من طبعوا كتاب قداس الموارنة سنة ١٥٩٤م لم يطبعوا فيه هذا النافور فأجبنا في كتابنا روح الردود على الحجة الأولى أنَّ كلَّ النوافير التي يستعملها السريان قلَّ ما يختلف أحدهما عن الآخر ولا يمكن من يعارضها أن يقول إنَّ أحدها لا يشبه الآخر، ولم يبيِّن المعترض أي فقرات هذا الكتاب انتحلت إليه، ومن أي النوافير جمعت فيه، فلا سبيل إلى الإسهاب برد حجته القاصرة. واجبنا على الحجة الثانية بأنَّ النوافير الكاثوليكية التي نعتقد صحتها خمسة وعشرون نافوراً ولم يطبع منها في كتاب قداسنا المذكور إلَّا أربعة عشر نافوراً فلا يستدل بعدم طبعه مع عشرة نوافير أخرى كاثوليكية على أنَّه مجموع من نوافير اليعاقبة ولا على أنَّه كان غير معلوم لأنَّ الكتاب الواتيكاني المذكور المثبت فيه هذا النافور قد خطَّ قبل إحدى وستين سنة من طبع كتاب قداسنا الذي اتَّخذ حجة.

كتاب إيضاح الإيمان

قال العلَّامة السمعاني (مجلَّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣) إنَّ هذا الكتاب أنفذه يوحنا مارون إلى اللبنانيين من دير القديس مارون وهو مثبت بالسريانية مع ترجمته العربية في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية، وقد خطَّ سنة ١٣٩٢م كما يتبيَّن من الذيل المعلَّق على آخره وهو: «كان الفراغ

من نسخ هذا الكتاب كتاب إيمان الكنيسة المقدَّسة سنة ١٧٠٣ (يونانية توافق سنة ١٣٩٢ للميلاد) بيد رجل حقير خاطي اسمه الشماس يوسف غريب من قرية اسمها ثمانية ومئة وثلاثين (يريد ܚܩܠ ؛ بالسريانية وهي حاقل موطن ابراهيم الحاقلي) من عمل جبيل ساكن بقرية بان من جبة بشرّي وكان الفراغ منه في ٢٠ شهر شباط » وقد عثر الأب نوا العالم أحد كهنة باريس الفقهاء على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الأمة في باريس في ٢٠٣ منها خطت سنة ١٤٧٠م ونشرها بالسريانية مع ترجمتها إلى الإفرنسية في هذه السنة في القسم الأوَّل من كتابه الموسوم بكتب مارونية وأهدى إلينا هذا الكتاب. وفي مكتبة بطريركيتنا نسختان منه إحداهما خطها الشدياق موسى وأخوه عيسى أبناء الخوري يوسف من قرية حاقل وقد اطَّلع عليها الأسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي وكتب عليها بعض تعليقات بخطه سنة ١٥٠٣م وقد طالعتها مرات، والثانية قدمها بيِّن لكنَّها خلت من تاريخ نسخها لتمزق أولها وآخرها وفاتحته مترجمة عن السريانية: « بسم الله نأخذ في تدوين كتاب الإيمان المقدَّس الذي أَلَّفه مارون المدعو يوحنا وكان بطريركاً على مدينة الله أنطاكية وسائر الشام وسورية وكان تأليفه بدير القديس مارون الطوباوي المتَّشح بالله ». وفاتحة ترجمته العربية « بسم الله نبتدي نكتب إيضاح الإيمان المقدَّس اعتقاد البيعة الرسولية الذي كتبه القديس يوحنا بطريرك أنطاكية في دير مارون على نهر العاصي بلد حماه وحمص وأورد ذلك إلى جبل لبنان ولأجل يسموا أهل الجبل المذكور موارنة على اسم الدير، ويسمى يوحنا المذكور مارون هو أيضاً على اسم الدير » .

قد علّق الناسخ السرياني على هذا الكتاب مقدِّمة قال فيها ما ترجمته: « لما أنشأ نسطور وأوطيخا الأبله المعتقد الذي فصم وحدة ربنا وجعل اختلاطاً وامتزاجاً بين طبيعتي ربنا الممجدتين والمتحدتين وطفق تلاميذ هذين المبتدعين يدافعون عن ضلالهما أخذ حينئذٍ يوحنا الذي سمي مارون يؤنبهم تونيباً متصلاً ويرد زعمهم بالشهادات القاطعة الآتي ذكرها، وكذلك فعل برده مزاعم تلاميذ انتيمس (وعلى الهامش قورش وهو بطريرك اسكندرى من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة كأنتيمس) الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً لملوك ذلك الزمان ويوحنا نفسه أرسل هذا الكتاب إلينا » . وقال السمعاني بعد ذكره هذه المقدِّمة: « لا امتري في أنَّ العبارة ، وكذلك فعل برده مزاعم تلاميذ أنتيمس الخ قد أدخلها المترجم العربي

على الاصل لأنَّ يوحنا بطريركنا هذا لم يدافع عن بدعتهم كما جسر هذا المترجم أن يقول في ترجمته العربية ما نصُّه بحروفه: « وعندما نهضت مقالة نسطور الجاهل في تأنس ربنا أقنومين ومن آخر يسمى أوطيخا قال إنَّ خاصَتَي لاهوت الابن وناسوته تبلبلت واختلطت وصارت واحدة وعندما انقبل قولهم من كثيرين جعل يوحنا مارون يوضح بالبرهان ويردهم إلى الصدق من شهادات الكتب المقدَّسة الأنبياء والآباء. وأيضاً جعل شهادات ترد كثرة مقالات إخوتنا الملكيين أهل الراهب مكسيمس تلك المقالة التي جعلها على يد الملكيين مرقيان وأخيه باعتقاد مشيئتين » فقال السمعاني بعد إيراده هذا القول « ما هذه إلَّا أضغاث أحلام توما الكفرطابي فليس في كتاب يوحنا مارون كلمة في البحث عن مشيئتي المسيح بل هو برمته في رد مزاعم النساطرة وبدعة الطبيعة الواحدة مثبتاً أنَّ في أقنوم المسيح الواحد طبيعتين كاملتين وقد شهد البطريرك أسطفانس الدويهي الإهدني (في ك٢ من محاماته عن الموارنة » انَّ توما الكفرطابي إنَّما هو الذي ترجم هذا الكتاب إلى العربية وحرَّفه وأدخل عليه هذه العبارة وذلك بيِّن من النفس فإنَّ هذه العبارة هي بنفسها في كتاب توما المقسوم إلى عشر مقالات منفذاً إلى يوحنا بطريرك الملكيين، وهو معلَّق في آخر كتاب إيضاح الإيمان ليوحنا مارون، وقد أفرغ جهده بإيراد حجج واهنة ليؤيد بها بدعة المشيئة الواحدة طالع ما كتبه في شأنه نيرون الباني في كتابه افوبليا (سلاح) الإيمان صفحة ٦٩ ولا عجب من أنَّ توما المغوي ببدعة المشيئة الواحدة يحرف كلام يوحنا مارون ليخدع الموارنة باسمه، وقد بلغ من جهله أن يزعم خلافاً لكل تاريخ صحيح أنَّ مكسيمس المعترف ابتدع بدعة المشيئتين في المسيح في أيام مرقيان وأخيه الملكين (ومرقيان لم يكن له أخ شاركه في الملك وكان قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بنحو من قرنين) وقد عزا الكفرطابي إلى سفريانس أسقف جبلة أيضاً كلاماً لم يقله ليخدع الناس ببدعته » انتهى كلام السمعاني وقد تابعه عليه لكويان (في مجلَّد ٣ من الشرق المسيحي صفحة ١٨) مبيناً تحريف الكفرطابي ومكره وترى في النسخة القديمة لهذا الكتاب في مكتبة بطريركيتنا أنَّ الأسقف جبرائيل اللحفدي ضرب بقلمه تلك العبارة وهي جعل شهادات كثيرة ترد مقالات إخوتنا الملكيين أهل الراهب مكسيمس » الخ. وكتب بخط يده « من هنا تبرهن أنَّ توما يعقوبي ».

أمَّا توما الكفرطابي هذا فقد روى لنا خبره البطريرك اسطفانس الدويهي (فصل

١٦ من كتاب تاريخ الموارنة ورد التهم) فقال إنَّ توما مطران كفرطاب الأراتيكي أتى لبنان سنة ١١٠٤م وأقام فيه ست سنين مجداً في إضلال الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة كما يظهر من تأليفه الموسوم بالمقالات العشر رداً على يوحنا بطريرك الملكية الأنطاكي ولرغبته في خدعة الموارنة سمى نفسه مارونياً. وقد ذكره الأسقف جبرائيل اللحفدي القلاعي بقوله وهو بحروفه:

تبعهم توما من حاران ... من قصته الصدق يبان
في كورة حلب كان مطران ... وكرسيه ليس هو سمعاني(١)
قلت لي أنَّه من مردين ... زدتني به رغبة ذا الحين
مردين مسكن الشياطين ... نسطور ويعقوب سكاني
قلت إنَّه جاء لجبل لبنان ... شهدت أنَّه جاب الطغيان

وقال الإهدني أيضاً إنَّ القلاعي عثر سنة ١٥٠٣م على كتاب المقالات العشر للكفرطابي فكتب عليه بخط يده: «إنَّ توما هذا ما كان مارونياً ولا كان للموارنة أسقف في كفرطاب وأنَّ جماعته اليعاقبة نفوه فسار إلى لبنان وأقرَّ بالطبيعتين خدعة للموارنة ليضلّهم ببدعة المشيئة الواحدة» (وقد طالعت بنفسي ما خطَّه القلاعي فإنَّ هذا الكتاب ما زال محفوظاً في خزانة بطريركيتنا) إلى أن يقول الإهدني إنَّ البطريرك يوسف الجرجسي والمطران أرسانيوس أسقف العاقورة ناصبا الكفرطابي فلم يغوِ بضلاله إلَّا الخوري فرشع في بلاد جبيل ونفراً قليلاً فعاد بخفي حنين نادباً سوء المنقلب، لكنَّه ترجم في مدَّة إقامته في لبنان كتاب الإيمان ليوحنا مارون فحرَّف بعض عباراته وأدخل الزيادة المحكى، عنها وكذا فعل في كتاب القوانين للأسقف داود الماروني الذي سوف يأتي ذكره.

وقد ضمَّن القديس يوحنا مارون كتابه هذا شهادات نحو من ثلاثين أباً من آباء الكنيسة الكاثوليكية وبعضهم شهادتين وثلاثاً وأكثر واستشهد أيضاً بأقوال المجامع ولاسيما الأربعة الأولى المسكونية لكنَّه لم يستشهد المجمعين الخامس والسادس، أمَّا الخامس فلأنَّه لم يكن فيه ما يستعين به على إثبات مقصده لأنَّ كلَّ ما كان في

---

(١) أي ليس هو بيطرسي أو كاثوليكي.

هذا المجمع إنّما هو تحريم الفصول الثلاثة وليس ثم ما يؤيد غرضه، وأمّا عدم استشهاده بالمجمع السادس فالأظهر فيه عند العلّامة السمعاني أنّ يوحنا مارون كتب كتابه هذا قبل انعقاد هذا المجمع إذ كان أسقفاً أو كاهناً وتسميته بطريركاً في عنوان الكتاب المذكور إنّما كتبها الناسخ لا المؤلّف الذي لا إشارة في كتابه هذا إلى أنّه كان بطريركاً عندما كتبه.

كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة

أمّا كتابه في ردّ مزاعم أصحاب الطبيعة الواحدة فهو مثبت في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية بعد كتاب إيضاح الإيمان المذكور من صفحة ١٠٣ فصاعداً وفاتحته: «ثم نكتب شيئاً من الأبحاث رداً على أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح وهم من يزعمون أنّ طبيعة كلمة الله البسيطة قد امتزجت واختلطت بطبيعة ناسوته فكانت فيه طبيعة واحدة» إلى أن يقول: «قولوا لنا أيّها الإخوة الأبرار أنّ هذه الطبيعة التي تعتقدونها بربنا من بعد الإتّحاد أهي مساوية للآب جوهراً أم غير مساوية» أمّا كتابه في رد مزاعم النساطرة فهو مثبت في كتب الحاقلي المذكور أيضاً صفحة ١١٤ وفاتحته «ثم نكتب قليلاً من كثير في رد مزاعم النساطرة» إلى أن يقول: «قال بولس الرسول إنّ الله رضي عنا بموت ابنه».

رسالة في التريصاجيون

ويعزى إلى يوحنا مارون رسالة في التريصاجيون أي التقديسات الثلاثية قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، عنوانها جواب على من يزعمون أنّنا نعزو الصلب إلى الثالوث الأقدس، إذ نزيد على التقديسات يا من صلبت لأجلنا. وهذه الرسالة مثبتة في كتاب الحاقلي المذكور صفحة ١٢٥ لكنها مكتوبة بخط يختلف عن خط باقي أجزاء هذا الكتاب. ولذلك ارتاب السمعاني في صحة نسبتها إلى القديس يوحنا مارون لوجهين: الأوّل لأنّ الكتاب أردفها بمحاورة بين رجل سرياني ورجل رومي على هذه الزيادة ومؤلف تلك المحاورة غير معروف في

كتاب الحاقلي لأنَّه ممزَّق أو لأنَّه لم يكتب اسمه ، ولكن قد أنبأنا ابن العبري في كتاب ادبياته ان مؤلِّف هذه المحاورة إنَّما هو داود بن بولس من أساقفة اليعاقبة ، والبراهين الواردة في رسالة يوحنا مارون هي البراهين نفسها الواردة في المحاورة. والثاني أنَّ بعض ورقات الرسالة ساقط من الكتاب المذكور وفاتحة المحاورة ساقطة أيضاً فأدمج الكاتب الأثرين معاً، ثم إنَّ الغرض من الرسالة والمحاورة واحد والنتيجة واحدة هي أن يثبت الكاتب أنَّ السريان بزيادتهم يا من صلبت لأجلنا على التقديسات لا يعنون أقانيم الثالوث الأقدس بل أقنوم الابن الذي وحده تأنَّس وصلب، كما لا يعتقدون أن الأقانيم الثلاثة تجسَّدت هكذا لا يعتقدون أنَّها صلبت وإذا زادوا على التقديسات يا من صلبت يختصون بهذه الزيادة أقنوم الابن الذي تجسد. وقد نشر الأب نو الإفرنسي هذه المحاورة في جملة ما أشهره السنة ١٨٩٩م معنوناً كتب مارونية آخذاً إياها عن كتاب قديم في مكتبة باريس في عد ٢٠٣. ومهما يكن من أمر هذه الرسالة فليوحنا مارون فقرة من كتابه بهذا المعنى في شرح رتبة القداس (فصل ١٩) قال فيها: « إنَّنا نبيِّن لسؤالكم أيها الأبناء الأحباء هل ينبغي أن يترنَّم بالتقديسات مع الزيادة عليها يا من صلبت من أجلنا ومتى يترنَّم بذلك، فاعلموا أنَّ هذه التسبحة توجَّه تارة إلى الثالوث الأقدس وتارةً إلى أحد الأقانيم الإلهية فقط فإذا وجِّهت إلى الثالوث المسجود له لم يسغ البتة أن يلحق بها يا من صلبت، فانَّ هذا إنَّما هو ضلال بطرس بطريرك أنطاكية الملقَّب بالقصار الذي زعم أنَّ الثالوث صلب بجملة أقانيمه وأوجب الألم على طبع أسمى من كل ألم وهذا اثم يرجح على كل اثم ولذا حرم عدلاً وحطَّ عن كرسيه على أنَّ التسبحة توجَّه أحياناً إلى أحد أقانيم الثالوث وهو الإبن وذلك بيِّن في نوافير الرسل القديسين وآبائنا الأطهار الذين ذكرناهم آنفاً فمتى وجِّهت هذه التسبحة إلى الإبن فلا مانع أن يزاد عليها ذكر الآلام والصلب والموت والدفن والقيامة وباقي أسرار تدبير مخلِّصنا إذ لا مراء أنَّ الابن تألَّم وصلب ومات من أجلنا » .

كتابه في الكهنوت

قال السمعاني (في مجلَّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٠) في جملة مؤلفات يوحنا مارون : « كتابه في الكهنوت مقسوماً إلى أربعين فصلاً وهو مثبت في

الكتاب ٦٤ من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية وقد خطته يد الحاقلي نفسه ولم يبيِّن عن أيَّة نسخة كتبه. والمحقق عندي أنَّ هذا الكتاب ليوحنا أسقف دارا كما سأبيِّن عند الكلام فيه». وقال في المجلَّد الثاني من هذه المكتبة عند الكلام في الداراوي (صفحة ١٢٣) «إنَّ قدم الكتاب (أي كتاب الداراوي) الذي أطلعت عليه يثبت إثباتاً كافياً أنَّ ذلك الكتاب هو للداراوي لا ليوحنا مارون ومنه إثنان وثلاثون فصلاً مثبتة في الكتاب الذي خطَّه الحاقلي بيده وعزاه إلى يوحنا مارون» على أنَّه في كتابه الموسوم بفهرست الكتب القديمة المخطوطة في المكتبة الواتيكانية الذي شاركه في تأليفه ابن اخته المطران أسطفانس عواد السمعاني ذكر كتاب الكهنوت ليوحنا مارون في عد ١٠١ في جملة الكتب التي عزاها إليه وقال إنَّ يوحنا أسقف دارا وديونيسيوس بن صليبا أسقف آمد انتحلا منه أشياء كثيرة فكأنَّه رجع عن رأيه الذي قال به في المكتبة الشرقية ويؤيِّد ذلك قول يوحنا مارون في فاتحة كتابه في شرح رتبة القداس (الذي سنثبت صحة نسبته إليه) «بعد أن كتبنا في الكهنوت البيعي بإسهاب ... بقي علينا أن نكتب في الذبيحة غير الدموية» هذا وقد كان يوحنا الداراوي بعد يوحنا مارون وكان من عادة القدماء أن ينتحل المتأخِّر كلام المتقدِّم فأي العجب من أن يكون الداراوي انتحل كلام يوحنا مارون في كتاب سماه باسم كتابه وأن تكون تلك الفصول التي ذكرها السمعاني انتحلها الداراوي عن كتاب يوحنا مارون ولم يأخذها الحاقلي عنه ويعزوها إلى يوحنا مارون.

كتابه في شرح رتبة القداس

قال السمعاني (مجلَّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٠) في جملة تآليف يوحنا مارون «كتاب في شرح رتبة القداس وهو مثبت في الكتاب ٦٤ من كتب الحاقلي بعد كتابه في الكهنوت وقد خطَّه الحاقلي بيده وهو مقسوم إلى خمسين فصلاً واستشهد به نيرون الباني في كتابه الموسوم بسلاح الإيمان، والإهدني في محاماته عن الموارنة وكلاهما أخذا عن الحاقلي الذي كثيراً ما استشهد هذا الكتاب في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي، ولكن قد ظنَّ رينودوسيوس (في مجلَّد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٧٤) إنَّ الصحيح أنَّ هذا الكتاب هو لديونيسيوس بن صليبا وسوف أثبت بأدلَّة سديدة ظنَّه نظراً إلى هذه

المقالة الأخيرة عند كلامي في ابن صليبا». على أنّه يظهر أنَّ السمعاني عدل عن رأيه هذا لأنّه لمَّا تكلَّم في كتاب ابن صليبا في المجلَّد الثاني من هذه المكتبة صفحة ١٧٦ لم يأت بشيء من الأدلة السديدة التي وعد بها في المجلَّد الأوَّل ولم يقل إنَّ كتاب يوحنا مارون في شرح رتبة القداس هو لابن صليبا بل عزا إلى ابن صليبا كتاباً موسوماً بهذا العنوان وقال ذكره الإهدني في فصل ٧ في مؤلفي النوافير من الهراطقة قائلاً: «ديونيسيوس هو يعقوب بن صليبا من ملطيني أسقف آمد له شرح لرتبة القداس أنفذه إلى اغناطيوس مطران بيت القدس سنة ١٤٨٠ يونانية (توافق سنة ١١٦٩ م) ليقاوم به الإفرنج الذين كانوا قد تملَّكوا الأرض المقدَّسة». إلى أن يقول السمعاني: «وذكره رينودوسيويس في المجلَّد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٥٤ ونيرون في فهرست المؤلفين الذين ذكرهم في كتابه سلاح الإيمان. وفي المكتبة الواتيكانية نسخة له حديثة الخطّ وهي في عد ٣٦ من كتب الحاقلي، وجزء كبير من هذا التأليف الذي يعزوه السريان إلى ابن صليبا تراه كأنّه بألفاظه في المقالة التي عزاها الحاقلي إلى يوحنا مارون كما أشرت في المجلَّد الأوَّل صفحة ٥٢٠». والمطالع يرى أنَّ لاستشهاد السمعاني بالإهدني والباني إنَّما هو ليثبت أنَّ لابن صليبا أيضاً كتاباً في شرح رتبة القداس لا ليعزو إليه كتاب يوحنا مارون، وقوله إنَّ جزءاً كبيراً منه في المقالة التي عزاها الحاقلي إلى يوحنا مارون يحتمل المعنى أنَّ ابن صليبا انتحل كلام يوحنا مارون عن أنَّ الجزء وإن كبيراً لا يطلق على الكتاب كلّه.

هذا وقد ذكر السمعاني في فهرست المجلَّد الأوَّل من مكتبته الشرقية صفحة ٥٧٨ في جملة كتب الحاقلي «عد ٣٦ شرح رتبة القداس لابن صليبا موجهاً إلى اغناطيوس أسقف اليعاقبة قاطني أورشليم خطّه يوسف الحصروني ابن خاطر سنة ١٦٤٦م». وفي صفحة ٥٨٠ «عد ٦٤ كتابان ليوحنا مارون: الأوَّل في الكهنوت والثاني شرح رتبة قداس السريان مقسوماً إلى خمسين فصلاً صفحة ٢٤٩ خطّه الحاقلي». وقد صرَّح بأنَّ كتاب ابن صليبا ينطوي على عشرين فصلاً فقط وذكر خلاصة كل منها مع ذكره أنَّ كتاب يوحنا مارون يُحوي خمسين فصلاً ثم أنَّ الأب بطرس مبارك الماروني اليسوعي علَّق مقالتين على ترجمته لكتب القديس أفرام السرياني إلى اللاتينية، واستشهد بكتاب يوحنا مارون هذا مرات منها في صفحة ٨ و ٣٦ و ٤١ و ٤٨ و ٥٠، وكان السمعاني نفسه

الفاحص للمقالتين والمؤذن بطبعهما كما يظهر مما علّقه عليهما وكان بينهما إخاء، فكان على السمعاني لا أقل من أن ينبهّه إلى أخطائه بعزوه كتاباً يعقوبياً إلى أوّل بطاركة الموارنة. والمجلّد الأوّل من المكتبة الشرقية طبع سنة ١٧١٩م وإجازة السمعاني طبع مقالتي مبارك كان سنة ١٧٤٠م، ثم إنَّ يوسف لويس السمعاني ابن أخي السمعاني الشهير ألّف كتاباً في رتب القداس عنوانه codexliturgicus أي كتاب الرتبي، وأثبت كتاب شرح رتبة القداس ليوحنا مارون في المجلّد الرابع من تأليفه المذكور مترجماً من السريانية إلى اللاتينية، وقد أيّد بأدلّة قاطعة أنَّ هذا الكتاب ليوحنا مارون وطبعه في رومية سنة ١٧٥٢م بحضرة عمّه السمعاني، فلو لم يكن عمّه ارعوى عن رأيه لنهاه عن طبع كتاب لأحد اليعاقبة معزواً إلى بطريرك الموارنة. وقد أثبت البطريرك يوسف أسطفان (في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ٨) إنَّ كتاب شرح رتبة القداس هو ليوحنا مارون حقيقة مورداً لتحقيق ذلك حججاً دامغة.

ولنأتِ إلى القول الفاصل في هذا الجدال! قد عثرت في مكتبة بطريركيتنا على كتاب شرح رتبة القداس ليوحنا مارون، خطّه الخوري بطرس مخلوف (الذي صار بعداً أسقفاً على قبرص) سنة ١٦٧٠م في رومة فعارضته بالفقرات التي رواها السمعاني في كتاب ابن صليبا فألفيت الفرق بينهما أظهر من أن يبين، فكتاب ابن صليبا موجّه إلى اغناطيوس أسقف اليعاقبة في أورشليم ولا شيء من ذلك في كتاب يوحنا مارون، وكتاب ابن صليبا ينطوي على عشرين فصلاً وكتاب يوحنا مارون يشتمل على خمسين فصلاً، وفي كتاب يوحنا مارون أمور شتى لا يمكن أن يقولها ابن صليبا وفي كتاب ابن صليبا أمور شتى لا يمكن أن يقولها يوحنا مارون، منها قول يوحنا مارون في فصل ١٦: «وأوحد اللاهوت والنفس والجسد بالأقنوم الإلهي وشوهد بطبيعتين إلهية وبشرية». وقوله في فصل ١٩ في التقديسات: «إذا وجهت إلى الثالوث المسجود له لم يسغ البتة أن يزاد عليها يا من صلبت فإنَّ هذا إنّما هو ضلال بطرس بطريرك أنطاكية الملقّب بالقصار . .. ولذا حرم عدلاً وحطَّ عن كرسيه» وقوله في هذا الفصل: «كل من لا يعترف بأنَّ كلمة الله اتحاد جوهري بالجسد مع حفظ الطبيعتين الإلهية والبشرية خواصهما متّحدتين بأقنوم الكلمة الواحد دون اختلاط . .. فليكن محروماً». وقوله في فصل ٢١ في تباع ديوسقورس «الذين زعموا في ربّنا طبيعة واحدة

فكيف يمكن أن يكون بطبيعة واحدة إنساناً وإلهاً مائتاً وغير مائت صانعاً ومصنوعاً خالقاً ومخلوقاً أزلياً وزمنياً». وقوله في هذا الرأس أيضاً: «حاشا أن نقول إنَّ ابن الله تألَّم وصلب ومات بطبعه الإلهي ... لكنَّه تألَّم وصلب ومات بالجسد». وأمثال ذلك كثيرة مما لا يمكن ابن صليبا أن يقوله لأنَّه نقض صريح لمذهبه. وممَّا قاله ابن صليبا ولا يمكن يوحنا مارون أن يقوله قوله في فصل ٦: «يلزم أن تكون البرشانات وتراً لا شفعاً إلَّا الإثنتين». وقال يوحنا مارون فصل ١٨ مفنداً هذا الضلال: «أمَّا نحن فنقول إنَّه يجوز للكاهن أن يقدِّم ما أراد من البرشانات وتراً أو شفعاً». وقال ابن صليبا في فصل ٦ أيضاً «يتألَّف خبز الأسرار من القمح سر المياه ومن الخمير سر الهوى ومن الملح سر الأرض ومن الزيت سر النار هاك الإستقصات الأربع». وقال يوحنا مارون في فصل ١٦: «إنَّ الخبز المقدَّم على المذبح يلزم أن يكون من القمح ولا شيء غيره». وقال ابن صليبا فصل ٧ «رتب الرسل ما كتب في القانون أنَّ القربان يرفع على المذبح يوم خبزه لا بعد يوم فهذا لا يجوز». وأسهب الكلام في فصل ١٤: «إنَّ القديس يتم بكلمات الرب ودعوة الروح القدس». واستشهد في فصل ١٦ «ساويرس البطريرك المسكوني» إلى غير ذلك ممَّا لا يمكن أن يقوله يوحنا مارون أو ممَّا صرَّح بتفنيده. وعليه فلا يبقى محل للإرتياب في أنَّ كتاب يوحنا مارون غير كتاب ابن صليبا الذي كان في أواخر القرن الثاني عشر قد انتحل بعض كلام يوحنا مارون الذي كان في القرن السابع على عادة القدماء، فلا مرية إذاً في أنَّ كتاب شرح رتبة القداس إنَّما هو ليوحنا مارون، وإذا ثبت ذلك رجح أن لم نقل ثبت أنَّ الكتاب في الكهنوت أيضاً لهذا البطريرك إذ قال في مطلع كتاب الشرح المذكور: «بعد أن تكلَّمنا في الكهنوت بقي أن نتكلَّم في الذبيحة غير الدموية» كما مرَّ. طالع كتابنا روح الردود من صفحة ١٨٨ إلى صفحة ٢٠٣ من طبعة بيروت.

عد ٧٠٨

هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة

قال السمعاني (مجلَّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٠) هل كتب يوحنا مارون شيئاً في مشيئتي المسيح؟ لا اجترئ أن أقطع بذلك فإني لم أرَ له إلى الآن

مقالة في هذا الصدد ويظهر في إيضاح الإيمان الذي أنفذه إلى اللبنانيين أنَّه لم يتكلَّم قط في هذا البحث ولو كان قد كتب شيئاً يؤيِّد هذه البدعة لالفيناه بلا مراء في هذا الكتاب الذي ترجمه توما الكفرطابي إلى العربية وحرَّفه، بل لكان توما المذكور استشهده في كتابه الذي أنفذه إلى يوحنا بطريرك الملكيين (الأنطاكي) ليدافع عن بدعة المشيئة الواحدة حيث أسهب في كلامه على الموارنة والملكية، وبعكس ذلك أنَّ يوحنا مارون لو كان قد فنَّد بدعة المشيئة الواحدة لتعقبه توما وندَّد به ولا أقل من أن يغتابه كما اغتاب القديس مكسيمس، ولوجد له في إيضاح الإيمان ما يؤنبه عليه لقوله في المسيح مشيئتين، ولو قال شيئاً من ذلك لاستشهد به علماء الموارنة والباني والحاقلي وابن القلاعي وغيرهم من القدماء ليبرئوا أمَّتهم من بدعة المشيئة الواحدة. وبما أنَّني لم أجد أحداً فعل كذلك أرجِّح أنَّ يوحنا مارون لم يكتب شيئاً في هذا البحث. وقد أورد الباني في مقالته في أصل الموارنة ودينهم وباجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م فقرة من كتاب يوحنا مارون في شرح رتبة القداس قال فيها: «قد كتبنا بإسهاب في هذه الأمور وأثبتنا بشهادات آبائنا الأولين في كتابنا الذي أنفذناه إلى محبتكم رداً على من خلطوا طبيعتي ربنا ومشيئتيه». على أنَّه وإن ثبت أنَّ هذا الكتاب ليوحنا مارون (وسأبيِّن رأيي فيه) فالأظهر عندي أنَّ هذه الفقرة زادها عليه كاتب حديث لأنَّنا لا نرى يوحنا مارون كتب في إيضاح الإيمان شيئاً يثبت المشيئتين، وقلّ مثل ذلك في كل ما أورده الباني في مقالته المذكورة من أقوال يوحنا مارون ولِمَ لم يكتب يوحنا مارون شيئاً في هذه البدعة. فالذي أراه إمَّا أنَّه كتب قبل انتشارها، وإمَّا أنَّ اللبنانيين الذين كتب إليهم لم يكونوا يبالون بهذه البدعة بل كان كل جدالهم للنساطرة واليعاقبة في وحدة أقنوم المسيح وطبيعتيه وبدعة المشيئة الواحدة فرع لبدعة الطبيعة الواحدة. (كما مرَّ) فاعتقد أنَّ تفنيده بدعة الطبيعة الواحدة هو تفنيد أيضاً لبدعة المشيئة الواحدة وقد يكون كتب إيضاح الإيمان وهو راهب قبل أن تشتهر هذه البدعة ويحرمها المجمع السادس» انتهى كلام السمعاني ملخصاً.

على أنَّ البطريرك يوسف أسطفان قد أثبت (في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ٧ وما يليه) رأي السمعاني أنَّ يوحنا مارون لم يدافع عن بدعة المشيئة ولكن تعقبه في قوله إنَّه لم يكتب شيئاً يدحضها به، مبيناً أنَّ السمعاني لم يقطع بصحة رأيه بل عبَّر عن ذلك بقوله يظهر، ولا اجترئ على القطع بذلك وأرجح. ثم أخذ في نقض أدلته وأولها أنَّه لو كتب يوحنا مارون رداً على بدعة

المشيئة الواحدة لهجاه توما الكفرطابي كما هجا القديس مكسيمس، فيجيب البطريرك يوسف أسطفان أنَّ توما الكفرطابي كان يدَّعي أنَّه ماروني ويعزو القول بالمشيئة الواحدة إلى يوحنا مارون، فكان يخالف غرضه أن يهجو يوحنا مارون ويقرعه كما قرع مكسيمس وهذا بين بديهي وثانيها أن ليس من كتاب إيضاح الإيمان إشارة إلى تفنيد يوحنا مارون هذه البدعة، فردَّ البطريرك يوسف اسطفان هذا الدليل بأنَّ توما الكفرطابي تلاعب بهذا الكتاب فأسقط منه العبارات التي تدل على هذا التفنيد وأنَّ نسخته التي كانت بيد السمعاني هي التي خطَّها الحاقلي كما صرَّح السمعاني، ويوسف قد نسخها عن الكتاب الذي عبث وعاث فيه توما الكفرطابي، وهذه النسخة نفسها كانت بيد ابراهيم الحاقلي وبيد مرهج بن نيرون الباني فلا عجب من أنَّهما لم يستشهدا بكلام يوحنا مارون في دحض هذه البدعة لأنَّ الكفرطابي كان قد كشط منها ترويجاً لغرضه كل ما يدل على ذلك. وقال لكننا نعرف نسخاً أخرى من هذا الكتاب لم تزل باقية إلى اليوم فقد ذكر البطريرك أسطفانس الدويهي (في القسم الثالث من كتاب احتجاجه عن الموارنة) نسختين من هذا الكتاب ونسخة في خزانة مدرسة الموارنة في رومة وأخرى في بطريركية الموارنة ونسخة عند المطران أرسانيوس عبد الأحد مطران دمشق وقد كتبها جبرائيل القلاعي في بيروت على ورق سنة ١٤٩٨م. ففي أكثر هذه النسخ ترى يوحنا مارون قال: ܘܐܝܬܘܗܝ ܗܘܐ ܠܗ ܬܪ̈ܝܢ ܟܝܢ̈ܐ ܐܠܗܝܐ ܘܐ̱ܢܫܝܐ ܘܕܐܝܬ ܠܗܘܢ ܕܠܗܘܢ ܬܪ̈ܝܢ ܨܒܝܢ̈ܐ ܘܡܥܒܕܢܘ̈ܬܐ ܐܝܟ ܕܟܬܝܒ ܒܗܘܢ ܓܡܝܪ̈ܬܐ أي وكان له (للمسيح) طبيعتان إلهية وبشرية لهما مشيئتان وفعلان كاملان كما كتب فيهما» (وفسَّر الدويهي هذه الجملة الأخيرة بقوله كما كتبنا فيهما) وقال في محل آخر من هذا الكتاب في المسيح: «له مثلنا نفس ناطقة عاقلة وله مشيئة خصوصية علة فاعلة طبيعية لجميع ما يشاء والذي كان يتألَّم مثلنا كان له كما لنا أفعال خصوصية طبيعية وبشرية». وهذا صريح بأنَّ المسيح كان فيه طبيعتان ومشيئتان وفعلان، ثم أنَّ كثيراً من الشواهد التي ذكرها يوحنا مارون في إيضاح الإيمان ينتج منه انّ في المسيح فعلين ومشيئتين، من ذلك شهادة القديس يوستينس الشهيد التي قال فيها «كما أنَّ الإنسان واحد وله طبعان مختلفان يفتكر بأحدهما ويعمل بالآخر ما افتكر به ... هكذا المسيح هو ابن واحد له طبيعتان بإحداهما يفعل المعجزات وبالأخرى يقاسي الآلام، فبما أنَّه من الآب هو إله صانع

الآيات، وبما أنّه من العذراء هو إنسان قاسٍ لأنّه أراد الصلب والآلام وما أشبه بطبعه البشري . .. فمقابلة الأفعال ببعضها تبيّن الإختلاف بينها » . فهذا نص صريح في إثبات الفعلين في المسيح .

وقد جاء في فاتحة كتاب إيضاح الإيمان بالسريانية أنَّ يوحنا لم يناصب النساطرة واليعاقبة فقط بل أصحاب المشيئة الواحدة أيضاً إذ قيل هناك: « وكذلك فعل برد مزاعم تلاميذ أفتيمس (أو قورش) بطريرك اسكندرية الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملوك ذلك الزمان». قلنا إنَّ السمعاني قال إنَّ هذه العبارة أدخلها المترجم العربي على الأصل السرياني لأنَّ يوحنا مارون لم يفه بكلمة في بدعة المشيئة الواحدة ، لكنَّه قال أيضاً إنَّ الكفرطابي هو الذي ترجم هذا الكتاب إلى العربية وعبث به على أنَّ الكفرطابي لا يدخل هذه العبارة المخالفة لزعمه وهي واردة بالأصل السرياني لا بالترجمة العربية . ولم يؤيد السمعاني كلامه هذا بغير دعواه وهي أنَّ يوحنا مارون لم يكتب شيئاً في هذه البدعة وهو موضع البحث فلا يصلح أن يكون كلامه حجة له. وقد أثبت البطريرك يوسف أسطفان أنَّ هذه العبارة مثبتة في نسخ كثيرة غير نسخة السمعاني ولاسيما في الأصل السرياني، وأورد لإثبات رأيه أدلة أخرى كثيرة منها أنَّه جاء في ترجمة يوحنا مارون في سنكساري الموارنة ما نصَّه: « فصوب الطوباوي يوحنا مارون رأي علماء الكنيسة الرومانية وألَّف مقالة أثبت فيها المشيئتين والفعلين بربنا من الكتب المقدَّسة والأدلَّة اللاهوتية ». ومنها أنَّ هذا التقليد كان مستمراً عند الموارنة، ومنها أنَّ يوحنا مارون في كتابه شرح رتبة القداس الذي أثبتناه له في العدد السالف قال في الفصل الحادي والعشرين منه ما ترجمته: « وقد تمصَّل بهؤلاء (أي تباع ديوسقورس) من بلبلوا مشيئتي ربَّنا وفعليه وعزوا ما قاله الآباء عن وحدة الإرادة والقوة والسلطان في الثالوث الأقدس إلى سر تدبيره الخلاصي وخلطوا ما بين البسيط والمركب، على إنَّنا لما كتَّا كتبنا في هذه الأمور بإسهاب وحقَّقنا بشهادات آبائنا الأطهار التي جمعناها في كتابنا نقضاً لزعم من يبلبلون طبيعتي ربَّنا ومشيئتيه ويخلطون خواصه وأرسلنا كتابنا إلى محبتكم فلنعد الآن إلى ما كنا في صدده » وقال في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب: « كل من لا يعترف ويقول إنَّ ربَّنا اتَّحد بالجسد اتحاداً جوهرياً حفظت فيه طبيعتاه بخواصهما الإلهية والبشرية في أقنوم الكلمة الواحد متميزتين بالإتّحاد ومتَّحدتين بالتمييز بلا اختلاط ولا امتزاج فليكن محروماً، لأنَّه قاص عن

الإيمان القويم وظلوم للحق». وقال في الفصل الثالث والثلاثين من هذا الكتاب: «حاربها قديماً سيمون الساحر فسقط من الجوّ، حاربها آريوس فأفرت كرشه، حاربها مكدونيوس مجدفاً على الروح القدس فطرح من كرسيه، حاربها نسطور مجدفاً على العذراء والدة الله فتهرّأ لسانه وانتن، حاربها ديوسقورس الإسكندري وبلبل مع اوطيخا طبيعتي ربّنا، وحاربها قورش الإسكندري وأتباعه وبلبلوا مشيئتي ربّنا وفعليه فبادوا وتبدّدوا كالدخان في ما زالت ثابتة حتى انقضاء العالم لأنّها مبنية على صخرة لا تتزعزع كما وعدها ربنا» وذكر البطريرك يوسف أسطفان بعض ما ذكرناه في إثبات كتاب شرح رتبة القداس ليوحنا مارون واسترسل هذا البطريرك العلّامة في كلامه إلى إيراد حجج أخرى عدلنا عن ذكرها حباً بالإيجاز إلى أن قال ماذا يا ترى جرى على كتاب يوحنا مارون في المشيئتين والفعلين في المخلِّص، وأجاب أن تقادم الدهر وما شنَّ من الحروب وما أصاب الموارنة من إتلاف كتبهم وتحريف بعضها وإخفاء بعضها حرمتنا وصول هذا الكتاب إلينا كما حرمنا من التوصّل إلى كتب كثيرين من الآباء مع علمنا بها ولاسيما في الأعصر التي لم تكن فيها المطابع. ومن شاء زيادة في البيان فليطالع كتاب المحاماة عن الموارنة المطبوع حديثاً حيث يجد كتاب البطريرك يوسف أسطفان المذكور برمته وعندي نسخة من هذا الكتاب قد استنسختها في رومة سنة ١٨٩٣م عن نسخة في مدرسة الرهبان الموارنة الحلبيين وهي أصح من النسخة المطبوعة ولاسيما في الفقرات السريانية التي انسربت بها أغلاط.

وإنَّ حق لمثلي أن يبدي رأياً في هذا الجدال بين هذين الجهبذين العلامتين السيد السمعاني والبطريرك يوسنف أسطفان قلت يظهر لي أنَّ حجج البطريرك ترجِّح على ما ذكره السيِّد السمعاني من الأدلَّة بل تبطلها ولا أقل من أن تضعفها كثيراً، وليس من المعقول أنَّ يوحنا مارون وقد ناصب بدعتي نسطور وأوطيخا لم يكتب شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة وكانت السائدة في أيامه، وقد تسكّع بها مكدونيوس ومكاريوس بطريركا أنطاكية وعقد المجمع السادس لنبذها وحرمها، وقد شهد البابا بناديكتس الرابع عشر أنَّ يوحنا مارون أقيم لوقاية الموارنة من فسادها ولاسيما إني موقن اعتماداً على ما قلته آنفاً بأنَّ كتاب شرح رتبة القداس إنَّما هو ليوحنا مارون، وقد رأيت أقواله فيه وتصريحه بأنَّه كتب ضد هذه البدعة وأدلَّة السمعاني الثلاثة سلبية وهي عدم هجو الكفرطابي ليوحنا مارون، وعدم استشهاد الباني والحاقلي

بكلامه وعدم وجود ما يستدل به من كتابه بأنَّه كتب ضدَّ بدعة المشيئة الواحدة وردّ البطريرك على هذه الأدلة سديد وكأنَّه قاطع إذ قال في الرد على الأوَّل أنَّ الكفرطابي ادَّعى أنَّه ماروني فلا يوافق غرضه أن يهجو يوحنا مارون. وقال في الثاني إنَّ الباني والحاقلي اعتمدا على نسخة حذف الكفرطابي منها كل ما يمكن أن يستشهد به. وقال في الثالث إنَّ السمعاني أيضاً اعتمد على هذه النسخة المعثو بها فلم يجد فيها ما يستدل به . فهذه خلاصة الكلامين وأظنُّ كلَّ متبصِّر منصف يرى ما رأيت وأيّ عجب من علامة كالسمعاني لا يصيب في أمر فلله الكمال

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدَّ معائبه

وما تسامى به العلَّامة السمعاني نزاهته عن التعصّب فلا يصرفه عما يراه حقاً حب أمته أو وطنه، وأعظم شاهد لذلك اراؤه هنا في كتب يوحنا مارون في الكهنوت وفي شرح رتبة القداس وفي الرسالة وفي التقديسات، ونفيه كتابه في رد بدعة المشيئة الواحدة. فكذا كذا فليكن العالم والكاتب قدرنا الله أن نكون كذلك .

عد ٧٠٩

قداسة يوحنا مارون

قد أفرد ، المطران اسطفانس عواد السمعاني (ابن أخت السيِّد السمعاني الشهير كتاباً لإثبات قداسة يوحنا مارون دوَّنه في اللغة الإيطالية وطبعه في رومة سنة ١٧٦٩م، وترى ترجمة عربية له في الكتاب الموسوم بالمحاماة عن الموارنة وقديسيهم والمطبوع هذه السنة ١٨٩٩م. وكذلك أفرد البطريرك يوسف أسطفان كتاباً آخر لهذا الغرض نفسه كنا قد استنسخناه عن نسخة في رومة سنة ١٨٩٣م وقد طبع الآن في كتاب المحاماة المذكور. والداعي لتأليف هذين الكتابين هو ما ذكره مؤلفاهما أنَّ بعض إخواننا الملكيين الكاثوليكيين شرعوا سنة ١٨١٥م يذيعون بين العامة أنَّ القديس مارون الرئيس أبا الطائفة المارونية ليس بقديس حقيقة بل تحتمل الكنيسة الرومانية الموارنة يعتدونه قديساً، فشق هذا الأمر على الموارنة ورفع بعض رؤسائهم عريضة إلى الكرسي الرسولي يشكون من هذا التجني ويبينون ما لهم من المستندات في قداسة مارون الرئيس، فوكَّل الكرسي الرسولي إلى بولس ماريا

لوشيني (الذي صار بعداً كردينالاً) الفحص عن هذا الأمر فرفع إلى الكرسي الرسولي حكمه بعد الفحص ومما قاله فيه: «إنَّ قداسة القديس مارون ثابتة وإن لم تكن فيها براءة رسمية ككثيرين غيره من أصفياء الله في القرون الغابرة وإن وضعت قداسته تحت الريب اتَّسع المجال لإنكار قداسة كثيرين من الآباء والنساك والأبرار» فخمد سعير الخصومة لكنه لم يطفأ فإنَّ بعض الملكيين الكاثوليكيين حملوا بطريركهم كيرلس تاناس سنة ١٧٥٠م على تمزيق صورة للقديس مارون مطبوعة في رومة مدعياً تبعاً لزعم سعيد بن البطريق أنَّه مبتدع. وبلغت أخبار هذه الأحداث البابا بناديكتس الرابع عشر فكتب منشوراً إلى نيقولاوس لاركاري كاتب مجمع نشر الإيمان المقدَّس مؤرخاً في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣ يثبت به قداسة القديس مارون ويبرئه من تهمة البدعة ويؤنب البطريرك كيرلس على فعلته وسوف نثبت ترجمة هذا المنشور برمته. وكان يرجى أن يسد باب المناظرة بحكم الكرسي الرسولي بهذا البحث إلَّا أنَّ أصحاب تلك الضغائن لما ضاق ذرعهم عن التشبث باتِّهام القديس مارون الرئيس ورأوا أنَّهم يعيدون له في ١٤ شباط عدلوا عنه إلى اتِّهام القديس يوحنا مارون بطريرك الموارنة الأوَّل بما كانوا قد اتَّهموا به القديس مارون وكتب أحد كهنتهم بحلب سنة ١٧٦٥م رسالة باسم طائفته إلى السيِّد أرسانيوس شكرى مطران الموارنة بحلب. ومما قاله فيها: «إنَّ الملكية لا يريدون أن يكرموا مارون آخر غير مارون الرئيس الذي كتب ترجمته توادريطس، أمَّا يوحنا مارون فيعدونه من القائلين بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح ما لم يعترفه الحبر الروماني قديساً ويعلن قداسته بمنشور رسولي، واتبع ذلك بكثير من الطعن على الموارنة وبالغض من كرامة المطران أرسانيوس وكتب مثل ذلك إلى مجمع نشر الإيمان المقدَّس. وعقد الملكيون مجمعاً في حلب حضره رؤساؤهم ورؤساء السريان والأرمن واستدعوا إليه رؤساء المرسلين اللاتينيين واليسوعيين والفرنسيسيين والكرمليين والكبوشيين وبعض علماء الموارنة فقضى من شهدوا المجمع بالإتِّفاق أنَّ يوحنا مارون قديسٌ يحق له الإكرام الذي يقدمه له الموارنة إلَّا الملكيين فإنَّهم كابروا وأبوا الإذعان، وما انفكوا عن مثالبهم فكان هذا الداعي الذي حمل المطران أسطفانس عواد السمعاني وهو في رومة إلى تدوين كتابه في قداسة يوحنا مارون وتبرئته وتبرئة الموارنة من وصمة بدعة المشيئة الواحدة. وكذلك حمل البطريرك يوسف أسطفان أن يكتب إلى رئيس مجمع نشر الإيمان رسالة باسمه وباسم أساقفته

ويردفها بكتابه في يوحنا مارون. فالكرسي الرسولي بعد التروّي والتحقيق على عادته أثبت رأي الموارنة، وأكبر شاهد لذلك منح البابا بيوس السابع في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي يوم عيده في ٢ آذار كل سنة، ثمّ مد هذا الغفران إلى جميع كنائس الأمة المارونية في منشوره في ٢٧ أيار سنة ١٨٢١م وسوف نثبت ترجمة المنشورين. وعن الكتابين المذكورين نأخذ نحن ما سنذكره في هذا الصدد بما يمكن من الإيجاز.

فقد استشهد البطريرك يوسف اسطفان لقداسة يوحنا مارون أولاً علماء الموارنة وهم جبرائيل القلاعي أسقف نيكوسية بقبرص الذي أخذ سنة ١٤٩٥م ترجمة يوحنا مارون عن كتاب قديم عثر عليه وضمها إلى كتابه إلى القس جرجس بن بشارة المار ذكره وقد ترجم الأب كواريسمس الفرنسي هذه القصة من العربية إلى اللاتينية، ونشرها في مؤلفه في وصف الأرض المقدَّسة، ثم البطريرك أسطفانس الدويهي وقد أخذ ترجمة يوحنا مارون عن كتاب قديم أطلعه عليه القس مخائيل المطوشي قيل فيه: «قد كان رأس الأمة المارونية اسمه يوحنا وكان رجلاً فاضلاً عالماً صالحاً مزيناً بكل الفضائل والمحامد». ثم مرهج بن نيرون الباني وقد أخذ ترجمة يوحنا مارون عن كتاب رآه عند الخوري يوحنا الرزي خوري بيروت ثم السمعاني الشهير وقد رأيت ترجمة يوحنا مارون مأخوذة عنه وقد انتحل كلامه برمته الأب مخائيل لكويان في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي (مجلَّد ٣ في بطاركة الموارنة). واستشهد هذا البطريرك لذلك أيضاً بترجمة يوحنا مارون في سنكسارى الموارنة وقال إنَّ منه نسختين قديمتين بالعربية والأحرف الكرشونية في مكتبة الواتيكان في عد ٢٧ و ٢٨ وفيها أخباره التي رويناها في ترجمته عن أصله وعلومه وترهبه وأسقفيته وبطريركيته وجهاده ومناضلته المبتدعين ولاسيما أصحاب المشيئة الواحدة، واستشهد أيضاً بالمقدّمة المعلقة بالعربية واللاتينية على طبعة كتاب قداس الموارنة سنة ١٧١٦م بعد أن فحصت ورخص بطبعها حيث ثناء وافر على هذا البطريرك وقداسته وحيث طبع نافور القداس الذي ألّفه معنوناً نافور القديس يوحنا مارون البطريرك الأنطاكي.

ثم أخذ هذا البطريرك في القسم الثاني يخص بيوحنا مارون ما أثبت البابا بناديكتس الرابع عشر في المجلَّد الثاني من تأليفه في تطويب القديسين أنَّه لازم في التطويب وهو العيد المشهور الإحتفالي وحفظ صورة المطوّب في الكنيسة بين صور

القديسين والذكر له في الرتب البيعية والقداس في يوم انتقاله وتعارف الناس إياه طوباوياً وقديساً، وأفرد لكل منهما فصلاً فقال في الأوَّل إنَّ الكنيسة المارونية قد عيَّنت من أقدم الأيام اليوم التاسع من شهر شباط عيداً للقديس يوحنا مارون كل سنة كما يظهر من فهرست الأعياد السنوية المعلَّق على كتب القداس وكتب الفروض وخصَّ بالذكر الفهرست المعلَّق على كتاب الشحيم الذي طبع في رومية سنة ١٦٢٤ وسنة ١٦٤٧م بعد أن دقِّق النظر فيه بأمر الأحبار الرومانيين بولس الخامس وغريغوريوس الخامس عشر وأدريانس الثامن وجماعة من العلماء منهم الكردينال بلرميلس الشهير. ففي هذا الفهرست «اليوم التاسع من شباط عيد القديس مارون البطريرك» ومثل ذلك فهرست في كتاب قديم في كرسي قنوبين وهو الآن في بطريركية الموارنة وفي كتاب آخر قديم في مكتبة الواتيكان في عد ٧ خطٌّ في نيموسية بقبرص سنة ١٨١٩ يونانية توافق سنة ١٥٠٨م. وفي كتب أخرى كان الموارنة يعيدون للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني كما يظهر من كتاب للشدياق الياس بن داود الطرابلسي خطٌّ سنة ١٤٩٤م ومن كتاب لجرجس البرديوط خطٌّ سنة ١٥٢٣م اعتماداً على التقليد بأنَّ يوحنا مارون كرَّس في ذلك اليوم كنيسة كفرحي على اسم القديس مارون ووضع فيها هامته ورجَّح أن يكون البطريرك يوسف العاقوري قرَّر أن يكون هذا العيد مفروضاً في مجمع عقده في دير حراش في ٥ تشرين الأوَّل سنة ١٦٤٤م، ونسخة من أعمال هذا المجمع في المكتبة الواتيكانية في عدد ٣٣ كتب فيها: «مار يوحنا مارون البطريرك في ٩ شباط» وكذلك في الفهرست المعلَّق على الشحيمة الصغيرة أي كتاب الفرض الأسبوعي المطبوع بأمر البابا أينوشنسيوس بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٦٤٧م وفي طبعاته التالية إلى سنة ١٧١٣م، إلى أن حسن لدى بطاركة الموارنة أن يفرضوا للقديس مارون ويوحنا مارون عيداً واحداً في ٩ شباط مجانبة لكثرة الأعياد كما يرى في كتاب القداس المطبوع برومية سنة ١٧١٦م. وفي مطبعة روتلي سنة ١٧٦٢م حيث قيل: «٩ شباط عيد القديس مارون رئيس الدير والقديس يوحنا المسمى مارون أيضاً بطرك أنطاكية»، إلى أن أمر البطريرك يوسف أسطفان أن يعيد للقديس يوحنا مارون وحده في الثاني من آذار سنداً إلى التقليد القديم أنَّ وفاته كانت في ذلك اليوم. والحاصل من كل ذلك أنَّ الموارنة كانوا وما برحوا يعيِّدون عيداً احتفالياً للقديس يوحنا مارون بعلم الكرسي الرسولي ورضاه وإثباته بل قال برتلماوس بياتسا في كتابه السنكساري الروماني الذي طبع في رومة سنة ١٦٧٦م وسنة ١٦٩٠م ما ترجمته: «في ٩ شباط

يقام في رومة العظمى في كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي كنيسة مدرسة الموارنة عيد احتفالي للقديس يوحنا مارون الذي أقامه الكرسي الرسولي بطريركاً على الأمّة المارونية يوم كانت تفشو البدع في الشرق فأعانه الله حتى صان بحسن تدبيره وحميد مسلكه تلك الأمّة نقية لم يمسها ضر البدعة وقد كابد في سبيل صونها شيئاً كثيراً من العناء والمشاق» .

وقال في الدليل الثاني اللازم للتطويب وهو تعليق صورة المطوَّب بين صور القديسين في الكنائس إنَّ البطريرك اسطفانس الدويهي حقَّق في الفصل ٨ من كتابه الثاني في الاحتجاج أنه رأى بعينيه صورتين للقديس يوحنا مارون إحداهما في قرية معاد في كنيسة القديس شربل والأخرى في كنيسة بحديدات ببلاد جبيل المبنية على اسم القديس توادورس، وقال إنَّ شكل بناء الكنيستين والنقوش التي فيهما تدلُّ على أنَّ بناءهما كان قبل عصر البطريرك أرميا العمشيتي الذي زار رومة في بدء القرن الثالث عشر. وقال الدويهي لولا تواتر الحروب والنكبات وخراب الكنائس في سورية لكان لنا أدلَّة أخرى كثيرة. وقد طبعت في رومة في أوائل القرن الماضي صورة القديسين بطرس ومرشلينس وإلى جانبيهما صورتا القديسين البطريركين يوحنا مارون وأرميا وفي أسفلهما كتابة هذا نصها: «القديس يوحنا مارون البطريرك الأنطاكي» ووزعت هذه الصورة في الآفاق برضى الكرسي الرسولي .

وقال في الدليل الثالث وهو ذكر المطوَّب في الرتب البيعية إنَّ ذكر القديس يوحنا مارون ورد متواتراً في كتب فروض الموارنة ورتبهم من ذلك ذكره في آخر صلوات المساء أيام الآحاد والأعياد حيث يقال ܘܕܟܪ ܡܪܝ ܝܥܩܘܒ ܥܡ ܡܪܝ ܡܪܘܢ ܘܕܥܡܗ ܡܢ ܢܨܚ̈ܢܘܗܝ : أي ليذكرالقديس يعقوب مع القديس مارون ويذكر رفقاؤه وفي صلوة الصباح يوم السبت يقال «يُنذر في الكنيسة المقدَّسة بالإيمان الذي علمنا إياه الآباء القديسون أعمدة البيعة والرعاة الصادقون والمعلمون المحقون ومفندو البدع باسيليوس وغريغوريوس الكبير وأتناسيوس وكيرلس برج الحق واوسطانيوس ويوحنا فم الذهب ܘܡܪܝ ܐܦܪܝܡ ܓܒܝܐ ܘܡܪܝ ܝܥܩܘܒ ܥܡ ܡܪܝ ܡܪܘܢ أي والقديس أفرام المختار والقديس يعقوب والقديس مارون . قلت وقد أثبت السمعاني (في المجلَّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٨٤) إنَّ المراد بمارون هنا القديس يوحنا مارون البطريرك لا القديس مارون الناسك الذي لا تحصيه الكنيسة في جملة علمائها المناضلين عن الإيمان بل في

جملة قديسيها النساك الأفاضل. وهذه الصلوات في كنيستنا من أقدم الأيام بل لا نعرف لها بدءًا لتوغلها في القدم. وذكر مثل ذلك البطريرك يوسف أسطفان وقال إنَّ مثل هذا التذكار وارد أيضاً في كتاب فروض الأعياد السنوي في صلوة عيد الختانة مع تذكار القديسين باسيليوس وغريغوريوس وفي كتاب خدمة القداس المطبوع في رومة أربع مرات، وإنَّ الموارنة يذكرون في رتبة قداسهم بعد التقديس ستة تذكارات أي لرعاة الكنيسة الأحياء وجميع المؤمنين الكاثوليكيين والملوك المسيحيين والعذراء مع القديسين والمعلمين الأبرار والموتى المؤمنين واستشهد الدويهي (فصل ٣ من كتاب الإحتجاج) حيث قال إنَّه عثر على كتاب خدمة قديم ذكر فيه في تذكار القديسين بولا وأنطونيوس وبخوميوس ومكاريوس وسمعان العمودي . .. والقديس مارون الطوباوي». وفي تذكار المعلمين القديسين «نذكر أيضاً المعلمين القديسين: الذين علموا الإيمان الحقيقي وبثوه في أقاصي العالم وهم الكواكب النيرة في البيعة المقدَّسة أي اقليمس وديونيسيوس وأغناطيوس وايريناوس . .. وغريغوريوس . .. ويوحنا فم الذهب . .. وإسحق ومارون ويعقوب السروجي». فمن لا يرى أنَّ مارون الوارد ذكره في جملة النساك المتوحدين هو القديس مارون الناسك ومارون الوارد ذكره في جملة ملافنة البيعة هو القديس يوحنا مارون البطريرك. واستشهد أيضاً بعنوان نافور القداس الذي ألَّفه يوحنا مارون آخذاً إيَّاه عن الكتاب السرياني الذي في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٩ وهو «نافور القديس يوحنا بطريرك أنطاكية ومعلِّم البيعة المدعو مارون».

وقال في الدليل الرابع وهو إقامة القداس في يوم انتقال المطوَّب ليس عند الشرقيين قداس خاص بكل من القديسين بل في رتبهم طلبات أو أبيات يتلوها الخادم في القداس مدحاً للقديس ففي عيد القديسين مارون ويوحنا مارون في ٩ شباط يترنَّم خادم القداس بما يلي: «هلمَّ نمدح مرشدنا مارون العظيم الذي صاننا من الضلال والبدع ووساوس المحتال . .. ويوحنا مارون الفريد بالقداسة والرأي السديد الذي نرجو بطلباته الرضاء والقبول من الفادي المسؤول» وحقق البطريرك أنَّ هذا مدوَّن في كتاب الخدمة الذي فحصه الكرسي الرسولي وأثبته وأمر بطبعه في رومة ونهى أن لا يستعمل سواه وأنَّ فيه ذكراً مبجلاً ليوحنا مارون يقال في كل قداس وإنَّ الكاهن يقول في التذكارات بصوت عال: «ساعدنا وثبتنا في محبتك بصلوات هؤلاء الملافنة الذين حملوا بشارتك مجتهدين في المسكونة وثبتوا بيعتك

المقدَّسة بإيمان مستقيم لكي نصعد لك المجد معهم وبينهم » . فيجيبه الخادم بما هو مثبت في الخدمة المطبوعة بروما (صفحة ٧٣) « وهو أننا لنذكر أيضاً أولئك الذين تقدَّموا ورقدوا بين القديسين واستراحوا بالقداسة وحفظوا الإيمان الرسولي بغير عيب وإياه سلمونا . .. ونذكر آباءنا ومعلمينا المتوشحين بالله المستقيمي المجد ذلك الرسول يعقوب أخا الرب وذاك الشهيد ورئيس الأساقفة أغناطيوس وديونيسيوس وأثناسيوس وباسيليوس . .. والبار المنتخب القديس مارون الأب الطوباوي المقبول في كنيسة رومة المقدَّسة الكاثوليكية والبارّ يعقوب والبار أفرام الأفواه الناطقة وأعمدة بيعتنا المقدَّسة » . ولا مراء في أنَّ مارون المذكور هنا في جملة ملافنة البيعة هو القديس يوحنا مارون .

وقال في الدليل الخامس على القداسة وهو أن يتعارف الناس المطوَّب بقديس وطوباوي، أن تعارف الخاصة والعامة يوحنا مارون بطوباوي أو قديس مستفيض في المشرق والمغرب، فإنَّه ينعت بقديس في عنوان كتبه القديمة ولاسيما نافوره المذكور وكتابه إيضاح الإيمان كما ذكرناه في محلِّه (في العدد السابق) وفي كثير من كتب الموارنة، وقد أثبتت الكنيسة المارونية اسمه في طلبة القديسين بين الأساقفة والمعلمين القديسين بعد اسمي أثناسيوس وكيرلس كما هو ظاهر في كتاب خط سنة ١٥٨٢م وهو اليوم في مكتبة مدرسة الموارنة وينعت بقديس في المجامع اللبنانية وفي السنكساري وفي كل ما كتبه الأسقف جبرائيل القلاعي ومرهج بن نيرون الباني والبطريرك أسطفانس الدويهي والسيِّد يوسف السمعاني والأب بطرس مبارك اليسوعي وغيرهم ممَّن كتبوا بالسريانية أو العبرية أو اللاتينية. وأمَّا من اللاتينيين فنكتفي بأن نذكر منهم الأب كوارسمس الذي طبع ترجمته باللاتينية في الكتاب الأوَّل من تأليفه في وصف الأرض المقدَّسة (صفحة ٣٧) ويوحنا شيواريوس في كتاب رحلته إلى أورشليم وقد ذكرنا قوله آنفاً وممَّا قاله: « إنَّ يوحنا مارون سلك كل حياته مسلك الفضل والقداسة ». ومنهم عبد الأحد ماكري في رحلته إلى لبنان وكرلس برتلماوس في كتابه في السنكساري الروماني، والبولانديون فإنَّهم لم يذكروا يوحنا مارون إلَّا مع وصفه بالقديس كما ترى في المجلَّد الرابع لشهر تموز صفحة ٣ ومنهم باجيوس في الحواشي التي علَّقها على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٣٣م والأب لكويان في المجلَّد ٣ من تأليفه الموسوم بالشرق المسيحي (صفحة ١١) حيث قال: « ما أعجب ما فعل يوحنا مارون في سبيل إفادة أمته في أيام

بطريركيته فقد رقى أساقفة وكهنة وأرسلهم إلى أطراف البلاد ووضع كتباً كثيرة يتألّق فيها سناء علمه الفريد ويتلألأ إيمانه الصحيح الوطيد». إلى أن يقول: «إنّه مات شهيداً بالقداسة ودفن في كفرحي وله في الكنيسة المارونية تذكار سنوي يقام في ٩ شباط».

ومن هؤلاء أيضاً الأب إيرونيمس دنديني اليسوعي فقد قال في كتاب بعثته إلى لبنان: «إنَّ يوحنا مارون أرسل إلى الحبر الأعظم رقاه المقام البطريركي ووكل إليه رعاية أولئك المؤمنين الذين ما برحوا امناء ومتمسكين أبداً بعروة الدين الكاثوليكي، ولم ينفكوا منذ حينئذٍ يؤدون الإحترام والطاعة للكرسي الرسولي الروماني ويوحنا المشار إليه سار سيرة الفضلاء والقديسين والموارنة يعدُّونه من أصفياء الله وقديسيه وينعتونه بالقديس في مقدمة القداس ويدعون باسمه». ومنهم ديلاروك في رحلته إلى سوريا في المجلّد الثالث المطبوع في أمستردام سنة ١٧٢٣م، ومنهم الكردينال أورسي في تاريخه لسنة ٦٣٦م في المجلّد ٢١ صفحة ٣٢٢ من طبعة رومة سنة ١٧٦٧م، وقال لولا خشية ملل القارئ لذكرنا كثيرين غير هؤلاء. انتهى كلام البطريرك يوسف أسطفان ملخصاً وجاء مثله في كتاب المطران اسطفان عواد ولا نرى حاجة إلى الزيادة على ذلك.

الفصل الثالث

براءة المارونين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

عد ٧١٠

براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة

إنَّ براءة القديس مارون الرئيس من بدعة المشيئة الواحدة أصبحت في هذا العصر حقيقة مقررة يخجل كل من كان له أقلّ إلمام بالتاريخ أن يتَّهمه بهذه البدعة لئلا يثبت جهله بهذا الاتِّهام ولا ينقض من كرامة هذا القديس شيئاً. فمن الحقائق المقررة باجماع المؤرخين أنّ القديس يوحنا فم الذهب توفّاه الله في أوائل القرن الخامس، وفي جملة رسائله الرسالة السادسة والثلاثون منفذة إلى القديس مارون، وقد ترجمناها بحروفها (في عد ٦٤٢) نقلاً عن أصلها في كتب فم الذهب التي طبعها الأب مين. وفم الذهب كان في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس. ثم من هذه الحقائق المجمع عليها أنَّ توادوريطس أسقف قورش كتب ترجمة القديس مارون في كتابه في النساك، وقد ترجمنا كلامه بحروفه في العدد المذكور من كتابنا هذا نقلاً عن كتاب توادوريطس في طبعة الأب مين، ومما لا خلاف فيه أنَّ توادوريطس توفاه الله سنة ٤٥٨م، ومن البديهي أنَّ مارون كان قبله ومِمَّا لا خلاف فيه أيضاً أنَّ بدعة المشيئة الواحدة نشأت في نحو سنة ٦٢٨م أي بعد وفاة القديس مارون بقرنين ونيف. فأي منصف أو أي عالم يتَّهمه ببدعة لم يكن لها عين ولا أثر في الكنيسة إلَّا بعده بقرنين؟ نعم وجد من قال بذلك في أعصر الجهل وهو سعيد بن البطريق البطريرك الإسكندري الملكي. لكنَّ روايته نفسها كفتنا مؤونة ردها فكانت مما قال فيه أحد خطباء الفرنسيس إنَّ بعض الأقوال يكفي لردِّها ذكرها وحده فإنَّ هذا البطريرك قال: «كان في عصر موريق ملك الروم راهب

اسمه مارون قال إنَّ لسيدنا يسوع المسيح طبيعة ومشيئة واحدة وأفسد مقالة الناس . .. فسمَّى التابعون لدينه موارنة نسبة إلى مارون ولمَّا مات مارون بنى أهل حماه ديراً سموه دير مارون » . وقد أبنّا بطلان هذا القول من نفسه في عدد ٦٦٨ ولاسيما أنَّ موريق استوى على أريكة الملك سنة ٥٨٢م وتوفي سنة ٦٠٢م وهذا مجمع عليه والقديس مارون قضى نحبه سنة ٤١٠م فيكون بين ارتقاء موريق إلى منصَّة الملك ووفاة القديس مارون مئة واثنتان وسبعون سنة ، وبين وفاة موريق سنة ٦٠٢م وظهور بدعة المشيئة الواحدة سنة ٦٢٨م ست وعشرون سنة. فبطلان قول سعيد بن بطريق بيّن من الوجهين ؛ فلا مارون كان في أيام موريق ولا بدعة المشيئة الواحدة ظهرت في أيامه .

إنَّ مثل هذه الأغلاط في تاريخ سعيد بن بطريق كثير متواتر وقد أشار إلى ذلك كثيرون من العلماء منهم لوقا هلستين في رسالته إلى الكردينال أنطونيوس ، وارينس حيث قال في تاريخ ابن البطريق : « إنَّ هذا الكتاب طبعه السلداني ويخالف في أشياء كثيرة ما كتبه مؤرخو ذلك القرن ، وعندما طالعته تبيَّن لي نصّه أعجمياً مفعماً بالخرافات . .. ولا فائدة منه البتة بل يبلبل عقول من اعتادوا تصديق الخزعبلات وإيثارها على شهادة المؤرخين المحققين ». وقال الأب فلوري (في مجلَّد ١٣ من تاريخه مقالة ٣ عد ٧) : « إنَّ تاريخ سعيد بطريرك اسكندرية . .. قد كتب فيه أموراً مضحكة ، وقد خلا كلامه من التدقيق حتى في ذكره أحداث عصره ». وقال الأب لكويان (في الفهرست المعلّق بالمجلَّد ٣ من تأليفه المشرق المسيحي) : « من البيِّن أنَّ تاريخ سعيد هذا لا يستحق أقلّ تصديق ، فإنَّ تأليفه طام في كل محل منه بخزعبلات وترّهات شنيعة ويشوّش بذلك كل تواريخ القرون التي تقدمته ». وقال دومينيكس منسى في حواشيه على تاريخ غرافيزون (مجلَّد ٤ مقالة ٥ صفحة ٧٠ إنَّ ترّهات سعيد في التاريخ الإسكندري لم يفضح بطلانها إلا تيوس فقط في ما كتبه على ما أشهره سلدانوس منها بل السمعاني الشهير أيضاً في مكتبته الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٤٩٨، وقال غرافيزون نفسه في المجلَّد المذكور إنَّ تاريخ سعيد مشحون بغوايات وحكايات كثيرة . وقال بروكوكيوس الذي ترجم هذا التاريخ إلى اللاتينية وطبعه السلداني في فاتحة ترجمته : « إنَّه يشتمل على خرافات كثيرة في الأخبار القديمة » .

على أنَّنا لم نرَ في كلام هؤلاء العلماء وعلمائنا الموارنة إلَّا هذه الأحكام

العامة، ولم نطَّلع على أمثلة لهذه الترّهات أو الخرافات - كما سموها. وليس لدينا كتاب سعيد بن البطريق لننقده بنفسنا ونورد مثالاً لأغلاطه. فاجترأنا أن نأخذ مثالاً لذلك من كلام لكويان في بطاركة أنطاكية وأورشليم حيث ذكر ابن البطريق. قال: «إنَّ جيورجيوس خلف مكدونيوس (في بطريركية أنطاكية) في السنة الثالثة لخلافة عثمان ورقي في قسطنطينية وأقام فيها خمس سنين ولم يأتِ إلى أنطاكية بل مات في قسطنطينية ودفن فيها». ولم يذكر أحد من المحققين جيورجيوس هذا بل لم يذكروا بطريركاً بين مكدونيوس ومكاريوس اللذين ذكرهما ابن البطريق والسنة الثالثة لخلافة عثمان توافق سنة ٦٤٨ أو سنة ٦٤٩م لأنَّه بويع بالخلافة سنة ٢٤ للهجرة وهي سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ للميلاد. وكان مكدونيوس حياً سنة ٦٤٩م، والمؤكَّد أنَّه توفي سنة ٦٥٥م وخلفه مكاريوس الذي قال في رسالة: إنّ مكدونيوس سالفه كان في أيام بطرس البطريرك القسطنطيني وشهد مجمعه الذي نبذ فيه التعليم الكاثوليكي وهذا قوله فيها بطرس الكلي القداسة البطريرك المسكوني وسالف حقارتي مكدونيوس ذو الذكر السعيد». والمؤكَّد أنَّ بطرس هذا رقي إلى بطريركية قسطنطينية سنة ٦٥٥م واستمرَّ إلى سنة ٦٦٦م. فإذاً مكدونيوس كان حياً في كل المدَّة التي قال ابن البطريق إنَّ جيورجيوس كان فيها بطريركاً فضلاً عن انفراده بذكره بين بطاركة أنطاكية. ولذلك عقب لكويان كلامه في هذا المحل بقوله: «إنَّ تاريخ ابن البطريق لا يوثق به».

وقال ابن البطريق في مكاريوس المذكور: «في السنة العاشرة لعثمان (وهي سنة ٦٥٥م) صير مكاريوس بطريركاً أنطاكياً وأقام في قسطنطينية ثماني سنين ولم يأتِ إلى أنطاكية ومات في قسطنطينية ودفن فيها». فيظهر من قوله إنَّ مكاريوس توفي سنة ٦٦٣م. وقد أجمع المؤرخون على أنَّ مكاريوس حضر المجمع السادس سنة ٦٨١م وأصرَّ على ضلاله ببدعة المشيئة الواحدة ولذلك حرم وأرسل إلى رومة ومات فيها بعد ذلك مصرّاً على غيّه هذا. ويظهر من رسالة الملك قسطنطين اللحياني إلى البابا دمنس المعلقة في صدر المجمع السادس أنَّ مكاريوس كان في قسطنطينية سنة ٩٧٨ وابن البطريق يحصيه بين الموتى مذ سنة ٦٦٣م. فتأمَّل. قال بعد ذلك وخلف توما توافان: «ومات بعد أن استمرَّ في البطريركية عشرين سنة وقام بعده جيورجيوس في السنة الأولى لخلافة عبد الملك بن مروان» وهي سنة ٦٨٤ أو سنة ٦٨٥م والمجمع عليه أنَّ المجمع السادس بعد أن عزل مكاريوس سنة

٦٨١م أقام توافان مكانه. وهذا بيّن من أعمال هذا المجمع فمن أين أتى ابن البطريق بتوما هذا. ومن أين العشرون سنة التي استمرّ فيها توما بطريركاً بعد توافان حتى خلفه جيورجيوس سنة ٦٨٥م. فهذه العشرون سنة كان فيها على كرسي أنطاكية مكاريوس وتوافان كما رأيت. ولذلك قال لكويان بعد إيراده قول ابن البطريق هذا عن الصحة بمراحل بالنسبة إلى التاريخ الصحيح. وجيورجيوس الذي ذكره لم يؤكّد المحققون أنّه كان بطريركاً وهبه كان حقيقة فابن البطريق قال إنّه استمرّ بطريركاً أربعة وعشرين سنة، فتكون نهاية بطريركيته على زعمه سنة ٧٠٩م لأنّه صير بطريركاً سنة ٦٨٥م. وقال بأثر ذلك إنّ كرسي أنطاكية خلا من بطريرك خمسين سنة ٧٥٩م. وعاد يقول: إنّ أسطفانس صير بطريركاً على أنطاكية في السنة الأولى للاون الايسوري وهي سنة ٧١٧م فمن سنة ٧٠٩م إلى سنة ٧١٧م ثماني سنين فأين الخمسون سنة فتأمّل بهذا الخلط. والصحيح أنّ كرسي أنطاكية خلا حينئذٍ من بطريرك أربعين أو خمسين سنة وأقيم اسطفانس بطريركاً نحو سنة ٧٤٤م في السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤١م كما حقّق توافان في تاريخه.

وقال بعد ذلك إنّ توادورس الأوّل صير بطريركاً على أنطاكية في سنة ٢٠ لخلافة ابي جعفر وهي سنة ٧٧١م، وانّه استمرّ بطريركاً ثلاثاً وعشرين سنة والصحيح ما رواه توافان أنّه صير بطريركاً سنة ٧٥١م. وقال ابن البطريق بعد ذلك: إنّ توادوريطس خلف توادورس المذكور في السنة الثامنة لخلافة هرون الرشيد. والمحقّق أنّ هرون الرشيد رقي منصّة الخلافة سنة ١٧٠ للهجرة الموافقة لسنة ٧٨٧ للميلاد. وكان توادوريطس حينئذٍ بطريركاً لأنّه في هذه السنة كان المجمع النيقاوي الثاني وكان القس توما الراهب نائباً عنه في هذا المجمع. فكيف يصدق قوله إنّ توادوريطوس صير بطريركاً في السنة الثامنة للرشيد وقوله: إنّ توادورس سالفه دبّر البطريركية ٢٣ سنة وقد زعم أنّه صير بطريركاً سنة ٧٧١م.

وفي تاريخه لبطاركة أورشليم قال في إيليا بطريركها إنّه صير بطريركاً في السنة السابعة عشرة لهشام وهي توافق سنة ٧٤٠ للميلاد. والصحيح أنّ توادورس سالفه رقي إلى البطريركية سنة ٧٥٢م واستمرّ حياً بعد سنة ٧٦٧م لأنّه كتب في هذه السنة رسالة إلى البابا بولس الأوّل. ولا يعلم كم سنة عاش بعد ذلك ورسالته هذه بلغت بعد وفاة البابا بولس الأوّل إلى البابا قسطنطين الدخيل على الكرسي

الروماني سنة ٧٦٧م فأرسلها إلى بيبين ملك فرنسة، وذكر خلاصتها البابا أدريانس الأوَّل في رسالته إلى الملك كرلس الكبير وبرَّأ هذا البابا توادورس مما طعنه به مخالفو المجمع النيقوي الثاني. فإبن البطريق إذاً ذكر هنا الخلف قبل السلف مشوّشاً سنيّ التاريخ، وإيليا الذي زعم أنَّه صير بطريركاً سنة ٧٤٠م لا شكَّ في أنَّه كان حياً سنة ٧٨٧م إذ روى البولانديون في ٢٥ شباط أنَّ يوحنا الكاهن أتى إلى نيقية ليشهد المجمع السابع المسكوني نائباً عن إيليا البطريرك الأورشليمي وكذا يرى توقيعه على آخر المجلس السابع من هذا المجمع. ورجَّح لكوريان أنَّ وفاته كانت سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م فإن صحَّ زعم ابن البطريق أنَّه صير بطريركاً سنة ٧٤٠م كانت مدَّة بطريركيته سبعاً وخمسين سنة وابتلعت بطريركية توادورس سالفه.

وقال بعد ذلك إنَّ جيورجيوس صير بطريركاً سنة ٢٠ لخلافة أبي جعفر المنصور وهي على زعمه سنة ٧٧٢ (وعن باجيوس أنَّها سنة ٧٥٤م)، وأنَّه استمرَّ على البطريركية ثلاثين سنة. وقد مرَّ بك أنَّ إيليا سالفه توفي سنة ٧٩٧م. فمن هذه السنة إلى سنة ٨٠٧م التي قام فيها توما خليفته عشر سنين فمن أين العشرون سنة؟ وارتقاء توما سنة ٨٠٧م إلى بطريركية أورشليم ثابت برسائل منه إلى البابا لاون الثالث.

قال ابن البطريق: «إنَّ سلمون صير بطريركاً على أورشليم في السنة العاشرة لخلافة المتوكِّل على الله واستمرَّ بطريركاً خمس سنين». فالمتوكِّل على الله ارتقى إلى عرش الخلافة في آب سنة ٨٤٦م؛ فتكون ترقية سلمون إلى البطريركية سنة ٨٥٦م وكان قد قال في سالفه سرجيوس إنَّه أقيم سنة ٨٤٣م واستمرَّ ست عشرة سنة؛ فيكون سرجيوس بقي على زعمه في البطريركية إلى سنة ٨٥٩م. فضلاً عن أنَّ الظاهر من المجمع الثامن المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٨٦٩م أنَّ البطريرك سرجيوس الأورشليمي كان في جملة من حرموا فوتيوس في هذا المجمع؛ فيكون خطأ ابن البطريق مضاعفاً أي في تعيينه مدة سرجيوس، وفي قوله إنَّ سلمون رقي إلى البطريركية سنة ٨٥٦م وتوفي بعد خمس سنين أي سنة ٨٦١م.

قال بعد ذلك: «إنَّ إيليا صير بطريركاً على أورشليم في السنة العاشرة لخلافة المهتدي، وإنَّه كان ابن منصور الذي ساعد على فتح دمشق وجلس على الكرسي

٢٩ سنة ». قال لكويان: « وأمّا قول ابن البطريق أنّه كان ابن منصور الذي ساعد على فتح دمشق فهو من جملة هذياناته. ففتح دمشق كان سنة ٦٣٥م قبل ارتقاء هذا البطريرك بمئتين وثلاث وأربعين سنة.

وقال بعد ذلك: « إنَّ لاون (يسميه اللاتينيون لاونتيوس) صير بطريركاً للسنة الثالثة من خلافة المقتدر بالله ابن المقتفي بالله واستمرَّ سبع عشرة سنة ».

وقال ابن العميد (في ك ٢ فصل ١٩): « إنَّ جعفر أبا الفضل المقتدر بالله بن المعتضد بالله بويع بالخلافة يوم وفاة أخيه المقتفي بالله ». فالمقتدر إذاً أخو المقتفي لا ابنه كما وهم ابن البطريق.

فهذا قليل من كثير من أغلاط ابن البطريق على سبيل المثال ودونك هذا المؤرّخ الثقة المحقّق المدقّق الذي ما برح خصوم الموارنة يحجونهم بحديث خرافة استنبطه وهذى به أنَّ القديس مارون الرئيس أنشأ بدعة المشيئة الواحدة وهو كان قبل إنشائها بقرنين وأكثر كما أثبتنا بيّنات وحجج دامغة، ولا يريد بعض من هؤلاء الخصوم أن يقفوا عند التواريخ الصادقة وأن يذعنوا للحجج القاطعة أو يصدقوا الأحبار الرومانيين، والقول ما قالوا في أمور الدين، أو أن يلتفتوا إلى أنَّ هذه الخرافة لم يأت بذكرها أحد من كل من كتبوا من أيام مارون إلى أيام ابن البطريق في القرن العاشر بل يكابرون ويتعنّتون بانتحال بعض المؤرخين هذه الخرافة في أعصر الجهل عن سعيد بن البطريق قبل عصر الإنتقاد الذي أصلح كثيراً من التواريخ. وقد فنّد علماء الموارنة وأنا أحقرهم وفي آخرهم هذه التهمة مرات وما برح بعض العذل أو الحسد يعيدون ذكرها دون أن يكلفوا نفوسهم لرد حجج التفنيد لها وعليه يفضي الجدال إلى ما لا نهاية له. والعقل وقواعد الجدال تقضي عليهم أن ينقضوا ما أتى به علماؤنا، وما أتينا به في هذا الكتاب، وما أوردناه في كتابنا روح الردود بهذا الصدد، قبل أن يحجونا بهذه الأقوال الساقطة.

عد ٧١١

إثبات البابا بناديكتس الرابع عشر قداسة القديس مارون

إننا رغبة في إبكام المتعنتين نثبت هنا منشور البابا بناديكتس الرابع عشر العلاّمة الذي أثبت قداسة القديس مارون الرئيس بداعي أنَّ البطريرك كيرلس تاناس مزّق

صورة هذا القديس، وعرض أمر هذا التجنّي على قداسته فأنفذ إلى الأب نيقولاوس لركاري كاتب مجمع نشر الإيمان رسالة بنمط منشور هذه ترجمتها عن كتاب براءته (مجلّد ٤ صفحة ٨٦ عن طبعته في رومة سنة ١٧٥٨م) البابا بناديكتس الرابع عشر.

أيها الإبن الحبيب السلام والبركة الرسولية

١- قد وجدنا بين القراطيس التي قدمتها لنا أخيراً عند مثولك لدينا ما يختص بتكريم القديس مارون الرئيس فان ولدنا العزيز الأخ داسيداريوس الراهب الفرنسيسي من كازاباشيانا الذي كنا قد أرسلناه قاصداً إلى الأخ المحترم بطريرك الموارنة كتب إلى مجمع نشر الإيمان أنَّ الأخ المحترم كيرلس بطريرك الروم الملكيين مزَّق صور القديس مارون المطبوعة في رومة، وأعلن أنَّه لا يجوز إحصاؤه بين القديسين لأنَّه عاش هراتيكياً، وأنَّ هذا أنشأ مخاصمات ومشاجرات بين الموارنة والروم الملكيين، وأنَّه يخشى من زيادة هذه الخصومات يوماً فيوماً لأنَّه لم يستطع إخماد نار المشاجرة بل بعد أن برح المحل الذي كان فيه مجدّاً في إطفائها قال له بعض الكهنة جهاراً إنَّ لا سلطان له في فصل هذه المسألة. والحكم بأنَّ مارون كان قديساً أو مبتدعاً ولاسيما أنَّ بطريركهم كان ينذر أنَّه عاش ومات ملطّخاً بالبدعة، ولذلك توجَّه إلى دير المخلِّص حيث يقيم بطريرك الروم الملكيين ليحدثه في هذه المسألة. فلم يفز بمشاهدته وتعذَّر عليه أن يلحقه.

٢- فنحن لم نتعجَّب فقط بل اغتظنا أشدَّ الاغتياظ مما فعله الأخ المحترم كيرلس البطريرك بجسارة وعلى غير روية، وكأنَّه أراد أن يتباهى بعلمه وبخبرته، فلم يصلح ذات البين بل حاول أن يحكم بسلطانه في هذا الجدال كأن أمره مجهول عندنا وعند المجمع. وأقبح من ذلك أنَّه افرغ جهده في أن يحرم من وصف بالقداسة مذ أجيال كثيرة برضى الكرسي الرسولي وإثباته من أن يوصف بقديس أو أن يُقدَّم له التكريم الذي يقدَّم للقديسين.

٣- وأنت تعلم أنَّ القديس مارون كان في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس وتوادوريطس الذي يمكن أن يسمّى معاصراً له (لأنَّه اشتهر في منتصف القرن الخامس) كتب ترجمته، فأثنى على فضائله السامية، وأطرأ أفعاله الحميدة.

فتوادوريطس هذا أسقف قورش ألَّف كتاباً في تراجم الآباء عنونه بمحبّ الله أو التاريخ الديني؛ ولهذا الكتاب ترجمتان لاتينيتان: إحداهما في كتاب تراجم الآباء الذي وضعه رسفيدس، والأخرى في المجلَّد الثالث من مؤلفات توادوريطس التي جمعها جنتيانس هروات وطبعها سيرمندس. فتوادوريطس يثني على قداسة القديس مارون في ستة مواضع من تآليفه كما يظهر من طبعة رسفيدس لكتاب تراجم الآباء؛ أعني فصل ١٦ صفحة ٨٢٧ و ٨٢٨ وفصل ٢١ صفحة ٨٣٢ وفصل ٢٢ صفحة ٨٣٨ وفصل ٢٤ صفحة ٨٤٠ وفصل ٣٠ صفحة ٨٥٠، وفي جملة رسائل القديس يوحنا فم الذهب رسالته السادسة والثلاثون إلى القديس مارون الرئيس وقد أطرأ فيها فضائله، واستغاث بصلواته على أنَّ بعضاً من أصحاب التعاليم غير الصحيحة أفرغوا جهدهم في أن يضعفوا شهادة توادوريطس في كتابه تراجم الآباء. ومن هؤلاء: أندراوس ريفيتس في كتابه الرابع الموسوم الإنتقاد المقدَّس فصل ٢١، وروبرتس كوكس في كتابه الموسوم بانتقاد بعض المؤلفين القدماء صفحة ٣٩٠، وفريدريكس سبانهاميوس في كتابه في التاريخ المسيحي للقرن الخامس فصل ١٠ صفحة ١٠٣٠ . فناصب هؤلاء كثيرون من أصحاب العلم السامي والانتقاد الدقيق، وسدّوا أفواههم بمدافعتهم عن صحة تاريخ توادوريطس وترفعه عن كل شائبة، وفي جملة هؤلاء لاباي في مقالته في توادوريطس المعلّقة على تأليف بلرمينس في الكتبة البيعيين الذي طبع في البندقية سنة ١٧٢٨م صفحة ١٥٥، ثم كرنيليوس في مقالته الثانية المعلقة على المجلَّد الخامس من كتب توادوريطس المطبوعة في باريس سنة ١٦٨٤م صفحة ١٩٩، وتلمون في ترجمة توادوريطس فصل ٤٨ مجلَّد ١٥ صفحة ٣٢٩، ونطاليس اسكندر في تاريخه البيعي للقرن الخامس فصل ٤ جزء ٢٨، ثم الفقيه كلير في تاريخه العام للمؤلفين الملهمين والبيعيين مجلَّد ١٤ فصل ١٤ جزء ٢ صفحة ٩٤ .

٤- وأهم من كل ذلك أنَّ أدق مؤرخي عصرنا وأوفرهم خبرة وأبعدهم عن الإسراع إلى تصديق كل ما يقال قد اعترفوا بصحَّة ترجمة القديس مارون التي كتبها توادوريطس، وأثنوا على فضائله، وأطرأوا أعماله المجيدة كما فعل توادوريطس، وهذا أكبر دليل على اعتقادهم صحة ما كتبه توادوريطس في ترجمة القديس مارون فطالع كتب البولانديين في اليوم الرابع عشر من شباط في المجلَّد الثاني لهذا الشهر، وبيلاتيوس في تراجم القديسين في اليوم الرابع عشر المذكور،

وتلمون في المجلَّد ١٢ من تاريخه البيعي في ترجمة القديس مارون صفحة ٤١٢ وما يليها. ولا ينبغي أن نسهو عن أنَّه لمَّا طبع كتاب قداس الموارنة في أيام حبرية البابا اكليمنضس الثامن وكان الكردينال جبرائيل بليوتس محامياً عن هذه الطائفة طلب الرخصة من الحبر الأعظم في طبع الكتاب المذكور فرخَّص له على شريطة أن تُعلَّق على صدر الكتاب ترجمة القديس مارون مأخوذة عن تاريخ توادوريطس. فأتمَّ ذلك إذعاناً للأمر كما شهد بذلك الكردينال يعقوب برونيوس الشهير حيث قال: «خاطبت سيدنا الكلي القداسة في شأن طبع كتاب القداس للموارنة الذي كان قد طبع قبلاً فأجاب سؤالي، وأمر أن يعلَّق في صدر هذا الكتاب ترجمة القديس مارون مأخوذة عن توادوريطس.

٥- ثم إنَّه قد كان دير شهير للقديس مارون - كما يظهر في رسالة رؤساء أديار سورية الثانية إلى هرمزدا الحبر الأعظم سنة ٥١٧م موقعاً عليها من اسكندر رئيس دير القديس مارون؛ وهذا ظاهر في المجلَّد الخامس من مجموعة المجامع للاباي، المطبوعة في البندقية صفحة ٥٩٨، وفي تاريخ بارونيوس لسنة ٥١٧م عد ٥٣. وقد جاء في أعمال المجمع القسطنطيني الذي عقد ٥٣٦ ذكر لهذا الدير، وقد وصف دائماً مارون باسم قديس أو طوباوي - كما يظهر للمطالع في المجلَّد الخامس من مجموعة لاباي المذكورة صفحة ٩٦٧ وصفحة ٩٧٨ و ٩٩٤ و ٩٩٩ و ١٠٧٥ و ١٠٨٣ و ١٠٩٩ و ١١١١ و ١٢٢٣ ثم إنَّ باجيوس في تنقيحه تاريخ الكردينال بارونيوس لسنة ٤٠٠م عد ١٧ وما يليه قد أثنى على فضائل القديس مارون، ثم فاض في الكلام على ديره، وأطرأ كثيراً تشبُّث رهبانه بعرى الإيمان الكاثوليكي، وشبّهه بقلعة حصينة للدين الكاثوليكي في المشرق كلّه لمقاومة أصحاب البدع. وذكر استشهاد ثلاثماية وخمسين راهباً من رهبانه تكلّلوا بإكليل الشهادة في أيام الملك أنسطاس، لمدافعتهم عن المجمع الخلكيدوني. وذكر هؤلاء الأبطال في اليوم ٣١ من تموز في السنكساري الروماني حيث نرى شروحاً علَّقها عليه الكردينال بارونيوس. ولا نغفل عن أنَّ صورة القديس مارون مقامة على المذبح الكبير في كنيسة مدرسة الموارنة في هذه المدينة العظمى، ويقدم لها الإكرام العلني، ويعيّد للقديس مارون عيداً احتفالياً.

٦- إنَّ هذه الحجج كلَّها تثبت إثباتاً قاطعاً قداسة القديس مارون، وتبيِّن إنَّنا تصرَّفنا تصرُّفاً محكماً وعادلاً في استجابتنا سؤال الأخ المحترم سمعان عواد بطريرك

الموارنة الأنطاكي واقتفائنا آثار سلفائنا - ولاسيما سالفنا البابا اكليمنضس الثاني عشر؛ إذ منحنا في براءتنا المبرزة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين ذكوراً وإناثاً الذين يعترفون ويتناولون القربان الأقدس في اليوم التاسع من شباط الذي يحتفل به الموارنة بعيد القديس مارون شفيعهم الخصوصي، ويزورون كنيسة من كنائس الرهبان أو الراهبات من جمعية القديس أنطونيوس الكبير أو جمعية القديس أشعيا في جبل لبنان ويصلّون من أجل الاتّفاق بين الملوك المسيحيين واستئصال البدع وارتفاع شأن الأم الكنيسة المقدّسة. فكل واحدة من هذه الحجج تبيّن صريحاً سوء تصرّف الأخ المحترم البطريرك كيرلس في مقاومته غير القانونية لتكريم القديس مارون.

٧- ولا يعسر علينا أن نبحث في الأسباب التي حملت الأخ المحترم البطريرك كيرلس على صنيع هذا الأمر؛ فقد أثبت الموارنة أنّ منشأ تسميتهم عن القديس مارون الرئيس، وإنّهم لم ينحرفوا قط عن محبّة الدين الكاثوليكي، ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك أنّهم إذا كانوا جدّدوا اتحادهم مع الكنيسة الرومانية وقتاً ما فلا ينبغي أن يتأوّل ذلك بمعنى أنّهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا إليه. على أنّ غيرهم يرون الخلاف ويزعمون أنّ الموارنة برزوا من مدرسة أصحاب المشيئة الواحدة، وأنّ مارون رئيسهم نفسه اتّبع هذه البدعة، وأنّهم لم يرجعوا عنها إلّا في سنة ١١٨٢م على يد ايميريكس الثالث بطريرك أنطاكية اللاتيني. فكل هذه الأقوال يمكن الإطّلاع عليها في المعجم العام الافرنسي اللاتيني في المجلّد الخامس في كلمة موارنة، وفي معجم موراريوس طبعة باريس صفحة ١٧٤٧ مجلّد ٦ في كلمة موارنة.

٨- ثم إنّ أصحاب الرأي المضاد يوردون شهادة غوليلمس رئيس أساقفة صور الذي روى في كتاب ٢٢ في الحرب المقدّسة فصل ٨ ما أشرنا إليه آنفاً على أنّ شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الرأي المضاد للموارنة، ولربّما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله. ولذلك عزاه إلى المجلّد الثاني من تاريخ سعيد الإسكندري الذي كتب في صفحة ١٩١ هكذا: «وكان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول إنّ في المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً وأقنوماً واحداً. ولما مات مارون بنى له سكان مدينة حماه ديراً سموه دير مارون واتّبعوا اعتقاد مارون».

٩- على أنَّ علماء الموارنة لم يألوا جهداً في تبيان الأغلاط التي تسكَّع بها سعيد المذكور وغوليلمس الصوري وسائر من اتبعهما، وفي تفنيد هذه الأغلاط وهذا بيّن من مقالة مرهج بن نيرون في أصل الموارنة واسمهم ودينهم. وممَّا أجاد في إبانته بفقاهة سامية ولدنا العزيز يوسف سمعان السمعاني المقدَّم في بلاطنا في المجلَّد الأوَّل من مكتبته الشرقية صفحة ٤٩٨، وتابعهما على ذلك باجيوس الافرنسي في تنقيحه تاريخ الكردينال بارونيوس سنة ١١٨٢م. والحق نقول إنَّ بدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح إنَّما كان أوَّل ظهورها في أيام هرقل الملك؛ وهذا قد أجمع عليه العلماء فكيف أمكن أن يشتهر هذا الضلال في أيام موريق الملك، وكيف يصحّ ما قاله سعيد من أنَّ الدير أنشئ بعد موت مارون الذي تكلَّم فيه مع أنَّ هذا الدير قد بني قبل مئتي سنة على اسم القديس مارون الرئيس، وبروكوبيوس القيصري أثبت في كتابه الخامس في أبنية يوستنيانس الملك أنَّ هذا الملك دمَّر دير القديس مارون. ومن البيِّن أنَّ الملك يوستنيانس توفي سنة ٥٦٥م وموريق توفي سنة ٦٠٢م.

١٠- إنَّنا لا نطيق أن يقضّ شيء من محبة الكرسي الرسولي للموارنة وقد جمعنا نحن تقاريظ سلفائنا لهذه الأمة، وأضفنا إليها ثناءنا عليها في خطبتنا في محفل كرادلة الكنيسة المطبوعة في حاشية كتاب «بولاتنا» مجلَّد ٢ صفحة ٤٢. وإذا تركنا جانباً كل استمالة إلى الأمة المارونية، وأطلقنا لعلماء الموارنة المقيمين في رومة أن يردُّوا سهام خصومهم ويثبتوا تشبثهم الدائم بعرى الإيمان الكاثوليكي إذا دعت الحاجة (ولا نرى حاجة)، ويؤيدوا نسبتهم إلى القديس مارون الرئيس، وافترضنا ما رواه سعيد صحيحاً للحق فلا يمكن أن ينتج من ذلك إلَّا أنَّه كان ماورنان: أحدهما قديس، والثاني هراتيكي. فإنَّ الاسم وحده لا يجعل القديس أراتيكياً أو الأراتيكي قديساً، ولا الإكرام المقدَّم للقديس يحسب مقدماً للمبتدع ومن هذا ينتج نتيجاً واضحاً أنَّ الأخ المحترم البطريرك كيرلس بنهيه عن تقديم التكريم للقديس مارون لم يتخطَّ حدود سلطانه فقط بل تصرَّف تصرفاً مخالفاً للتقوى في حق رجل حُسِبَ أجيالاً كثيرة بين مصافّ القديسين ولم يأبَ الأحبار الرومانيون أن يغروا الشعب بتقديم الإكرام له بمنحهم الغفرانات المقدَّم ذكرها.

١١- قد قلنا قبلاً إنَّه وإن سلمنا بصحة ما رواه سعيد لا ينتج من ذلك إلَّا أنَّه كان مارونان: أحدهما قديس، والآخر أراتيكي. فالأراتيكي إنَّما هو من تكلَّم فيه

سعيد وقال إنَّه عاش في أيام موريق الملك الذي قلنا آنفاً إنَّه توفي سنة ٦٠٢م، والقديس إنَّما هو من اشتهر في أيام الملك أركاديوس الذي دبَّر الملك من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨م، وقد كتب توادوريطس ترجمته وكان توادوريطس معاصراً له وثقة. وقد أثبتنا أيضاً أنَّ الاسم وحده لا يكون سبباً يجعل القديس أراتيكياً أو الأراتيكي قديساً، أو لاحتساب الإكرام المقدَّم للقديس تكريماً للأراتيكي؛ وهذا أمر مقرَّر وظاهر بالنور الطبيعي ولا حاجة له إلى إثبات. لكننا نورد مثلاً لتسمية اثنين اسماً واحداً. فقد كان اثنان باسم ريمندس لوليوس، واثنان باسم يوحنا كنتس؛ وقد تكلَّمنا على هؤلاء في كتابنا في تطويب القديسين. فأحد المسمّين ريمندس كان شهيداً مشهوراً، والآخر تعيساً حكم عليه بالموت. وأحد المسمين يوحنا كنتس هو طوباوي والكرسي الرسولي يثبت الإكرام العلني المقدَّم له، والآخر كان من أولي البدعة. ومن ذلك كلّه يظهر جلياً أنَّ الأخ المحترم البطريرك كيرلس تصرَّف تصرُّفاً مخالفاً للقوانين والتقوى بنهيه عن تقديم التكريم المقدَّم على زعمه لمارون الأراتيكي الذي ذكره سعيد مع أنَّه بالحقيقة قد حرم من هذا الإكرام مارون الكاثوليكي الذي أثنى عليه توادوريطس، وأنّ الكرسي الرسولي لم يقصد بمنحه الغفران إلَّا تكريم ذلك الطوباوي مارون الرئيس الذي كتب توادوريطس ترجمته وأثنى على قداسته؛ وهذا يظهر جلياً مما ذكرنا آنفاً أنَّ البابا اكليمنضس الثامن عمله. فلك إذاً أن تخبر المجمع بكل هذا وتتَّخذ الوسائل اللازمة والمناسبة وتكتب بأمرنا وأمر المجمع إلى الأخ المحترم البطريرك كيرلس أن يرعوي عما أقدم عليه ولا يجسر من الآن فصاعداً أن يحرم من الإكرام الإحتفالي القديس مارون الرئيس، ويمتنع عن إلقاء الفتنة بين الروم الملكيين والموارنة. وإن رأيت موافقاً أن تبعث إليه بهذه الرسالة المنفذة إليك ليكون على يقين من معرفة إرادتنا فالإرادة لك بهذا الخصوص ونمنحك في الختام البركة الرسولية.

أعطي برومة حذاء كنيسة القديسة مريم المعروفة الكبرى في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣م وهي السنة الرابعة عشرة لحبريتنا.

فهذا المنشور المحصَّن بهذه الأدلَّة السديدة والحجج القاطعة لا يزاد تبييناً وتأكيداً بل نذيّله بما كتبه البابا بناديكتس الرابع عشر نفسه بعد إبرازه هذا المنشور إلى البطريرك سمعان عواد في رسالته إليه في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥م وهو: «إنَّنا لا نرتاب في أنَّ الأب ايسيدورس قاصدنا المارّ ذكره حقّق لإخوتك ما لنا من الحلم

رسولي والغيرة والمحبّة لك أيّها الأخ المحترم وللاخوان المطارين المكرمين وسائر أبناء أمتك الجليلة العزيزة أي الموارنة كلّهم الذين يتفاخرون بإقرارهم بأنّهم تلقوا الاعتقاد بالإيمان الكاثوليكي من القديس مارون بالنوع الأخص وبشفاعته نما وثبت فيهم. ولما كان قلبنا موعباً بهذه المحبة لأمتك قد شقّ علينا أنّ بعض الناس لا يحسنون الرأي في قداسة القديس مارون والإكرام المقدَّم له، فبرّأنا قداسته من التهم وأثبتناها بالسلطان الرسولي، وقد أخبرنا قاصدنا المذكور أنّه كان لذلك وقع حسن، فسرَّ الجميع به، وقد جرى في وقت ملائم ونافع. فسررنا نحن أيضاً لسرورهم». ويرى كل منصف أنّه لم يبق من مجال للامتراء في قداسة القديس مارون أو للجدال في براءته من بدعة المشيئة الواحدة بعد حكم الكرسي الرسولي بذلك في المنشور المار ذكره وفي مناشير منح الغفران في يوم عيده وبعد كل ما أوردناه من الحجج الدامغة هدى الله المكابرين.

عد ٧١٢

براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة

نجزئ كلامنا في إثبات هذه الحقيقة إلى الإستدلال عليها. أولاً. بشهادة الأحبار الأعظمين. ثانياً. بسيرة يوحنا مارون وتأليفه. ثالثاً. بشهادة أعدائه أنفسهم. رابعاً. بشهادة العلماء المحققين. خامساً. ببيان بطلان ما يرد على ذلك.

شهادة الأحبار الأعظمين

قال البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م: «لا يخفى عليكم أنّه في أواخر القرن السابع عندما فشت بدعة القائلين بمشيئة واحدة بالمسيح وأفسدت سكان البطريركية الأنطاكية جزم الموارنة حينئذٍ رغبة في وقاية طائفتهم سالمةً من ذلك الفساد أن يختاروا لهم بطريركاً يثبته الحبر الروماني». وقد أجمع كل من ذكروا يوحنا مارون أو سلسلة بطاركة الموارنة أنّ البطريرك الذي اختاره الموارنة حينئذٍ إنّما هو القديس يوحنا مارون. أيتفق أن يكون يوحنا مارون من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة وأن يختاره الموارنة ليقوا

طائفتهم من فسادها؟ أو يعرف هذا البابا العلامة أنَّ يوحنا مارون متلوث بهذه البدعة ويقرظ الموارنة على انتخابه ليقيهم فسادها ؟

إنَّ البابا بيوس السابع قد منح في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي بيلاد البترون يوم عيده في الثاني من شهر آذار، ثم عمم نيل هذا الغفران لمن يزور أية كنيسة كانت من كنائس الموارنة في ذلك اليوم. وهذه ترجمة صورة منح الغفران: «إنَّ سيّدنا الكلي القداسة بيوس السابع البابا بعناية الله قد منح بواسطتي أنا المدون اسمي أدناه كاتب مجمع نشر الإيمان المقدَّس غفراناً كاملاً مؤبداً يمكن تقديمه إسعافاً للنفوس المعتقلة في المطهر لجميع المؤمنين إفراداً وإجمالاً رجالاً ونساءً الذين يزورون بعبادة كنيسة القديس يوحنا مارون التي بقرية كفرحي في أبرشية البترون في يوم عيد القديس يوحنا مارون المذكور بحيث يكونون نادمين ندامة حقيقية ويعترفون ويتناولون القربان الأقدس ويبتهلون لله خاشعين مدة من ذلك اليوم من مشرق الشمس إلى مغيبها من أجل انتشار الإيمان المقدَّس. أعطي في رومة من ديوان المجمع المقدَّس في اليوم والسنة المذكورين أعلاه مجاناً ودون دفع شيء ولو بأية حجة كانت.

كرلس ماريا بيديشيني – كاتب المجمع

طبع في مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدَّس وهذه ترجمة صورة تعميم الغفران في مواجهة سيدنا الكلي القداسة في ١٧ أيار سنة ١٨٢١م.

إنَّ الغفران الكامل المؤبد الممنوح في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م لمن يزورون بعبادة كنيسة القديس يوحنا مارون بطريرك الموارنة الأنطاكي يوم عيد هذا القديس في اليوم الثاني من آذار كل سنة من جميع المؤمنين رجالاً ونساءً بحيث يكونون نادمين ندامة حقيقية ويعترفون ويتناولون القربان الأقدس؛ فهذا الغفران قد تعطَّف قداسة سيدنا البابا بيوس السابع بواسطتي أنا المدوّن اسمى أدناه كاتب مجمع نشر الإيمان المقدَّس وجعله عاماً لجميع كنائس الطائفة المارونية ولاسيما الكنيسة التي بنيت حديثاً إكراماً للقديس البطريرك المذكور، ويروم قداسته أن يستمر هذا الغفران موبداً مع حفظ كل شيء بحسب قوة المنح السابق وصورته أعطي

برومة من ديوان المجمع المقدَّس المذكور، في اليوم والسنة المار ذكرهما مجاناً دون دفع شيء بأي حجة كانت.

كرلس ماريا بيديشيني

كاتب المجمع

طبع بمطبعة مجمع نشر الإيمان المقدَّس

إنَّ خصوم الموارنة يتهمونهم بهذه البدعة سنداً إلى أنَّ مارون أو يوحنا مارون ابتدعاها أو تلوثا بها وعليه فجميع شهادات الأحبار الأعظمين التي أثبتوا فيها أنَّ الموارنة استمروا دائماً متشبثين بالإيمان الكاثوليكي ولم يزيغوا عنه البتة نثبت اتباعاً أنَّ هذين القديسين براء خلاء من هذه البدعة، وجمعنا كثيراً من شهاداتهم في كتابنا روح الردود وسنورد بعضها في العدد التالي وعلى شهاداتهم المعول في أمر الدين ولا يوازيها شاهد أياً كان، ومن قال إنَّ أحدهم منح غفراناً تكرمةً لمبتدع أو ضال كان هو من الضالين.

ثم إنَّ تسمية الأحبار الأعظمين من أقدم الأيام هذه الأمة باسم موارنة دليل ناطق على أنَّهم لم يعتدوا مارون ويوحنا مارون هراتيكيين لأننا نراهم لم يسموا اليعاقبة الذين رجعوا إلى الإيمان الكاثوليكي يعاقبة بل سموهم سرياناً كاثوليكيين وكذلك لم يتركوا الكلدان الذين اتبعوا المذهب الكاثوليكي يسمون نساطرة بل كلداناً كاثوليكيين ولا الأرمن براصمة بل أرمناً كاثوليكيين، فلو كان أحد المارونين هراتيكياً لسموا المنتسبين إليهم سرياناً كاثوليكيين لا موارنة. وهذا دليل واضح وقاطع وقد ذكره كثيرون من العلماء اللاتينيين.

الدليل بسيرة يوحنا مارون وتآليفه

إنَّ تاهمي الموارنة يزعمون سنداً إلى اوهام سعيد بن البطريق أنَّ يوحنا مارون ابتدع بدعة المشيئة الواحدة، وهذا يستحيل عليهم إثباته إذ أجمع العلماء على أنَّ هذه البدعة كان أوَّل ظهورها سنة ٦٢٨م وأجمل كل من ذكروا يوحنا مارون أنَّه صير بطريركاً سنة ٦٨٥م وتوفاه الله سنة ٧٠٧م وقد مر انّا لو فرضنا أنَّه عاش ثمانين سنة

لكان مولده سنة ٦٢٧م قبل ظهور هذه البدعة بسنة واحدة افطفل يدع بدعة؟ وإن قالوا إنَّه تلوث بهذه البدعة وتشبث بها بعد بلوغه فإليك رد قولهم. إنَّ كل ما أوردناه في عد ٧٠٩ في قداسة يوحنا مارون من شهادات العلماء والكتب القديمة لإثبات قداسته والتعييد له كسائر أصفياء الله القديسين وعرض صوره في الكنائس كصورهم وذكره في الرتب البيعية في جملة أسماء الملافنة الكاثوليكيين ككيرلس وفم الذهب وأفرام وغيرهم وإقامة القداس يوم عيده وتعارف الناس والعلماء الكاثوليكيين له قديساً وطوباوياً، فكل هذه بل كل واحدة منها تثبت أنَّ يوحنا مارون براء من كل بدعة ولاسيما بدعة المشيئة الواحدة. وقد مرَّ أنَّ كثيرين من المؤرخين أثبتوا أنَّ الملك يوستنيانس الأخرم المغوي ببدعة المشيئة الواحدة والمحامي عنها قد اضطهد يوحنا مارون وأرسل جنوداً للقبض عليه فأحرقوا دير القديس مارون ودكوه وزحفوا إلى جهات طرابلس للقبض على البطريرك والتنكيل بقومه، فناصبهم الموارنة حرباً بارشاد هذا البطريرك وبقيادة ابن اخته الأمير ابراهيم. وقد ذكر كثيرون من أولئك المؤرخين أنَّ هذه الحرب كانت بسبب الدين ويؤيد ذلك حرق الدير ودكه فكيف يوفق هذا مع كون يوحنا مارون ورعيته من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة التي كان يوستنيانس يعنى بنشرها وتأييدها. ثم إنَّ كلَّ ما أوردناه في عد ٧٠٧ و ٧٠٨ في تأليفات يوحنا مارون من تحقيقنا قوله في كتابه إيضاح الإيمان: «إنَّ للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية ولهما مشيئتان كاملتان وفعلان كاملان» وقوله «إنَّ الذي كان يتألَّم مثلنا كان له كما لنا أفعال خصوصية طبيعية وبشرية». ومن تصحيحنا ما جاء في فاتحة كتابه المذكور من أنَّه: «كان يرد مزاعم تلاميذ قورش بطريرك اسكندرية الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً لملوك ذلك الزمان. ومن إثباتنا له كتابه في شرح رتبة القداس وقد قال فيه قد تمثل تباع ديوسقورس من بلبلوا مشيئتي ربَّنا وفعليه . . . وحققنا بشهادات آبائنا الأطهار التي جمعناها في كتابنا نقضاً لزعم من يبلبلون طبيعتي ربنا ومشيئتيه ويخلطون خواصه وأرسلنا كتابنا إليكم». وقال فيه أيضاً: «كل من لم يعترف ويقول إنَّ ربَّنا اتَّحد بالجسد اتحاداً جوهرياً حفظت فيه طبيعتاه بخواصهما الإلهية والبشرية . . . فليكن محروماً». وقال أيضاً: «حاربها (أي الكنيسة) قورش الإسكندري واتباعه وبلبلوا مشيئتي ربنا وفعليه فبادوا وتبددوا كالدخان». فكل هذه الأقوال التي حققنا أنَّ يوحنا مارون كتبها لم تثبت فقط إثباتاً جلياً براءته من بدعة المشيئة الواحدة بل تفنيده لها ومناضلة أصحابها أيضاً.

شهادة أعداء يوحنا مارون لبراءته من البدعة

إنَّ شهادة الخصم لخصمه لا مرد لها وقد أنبأتنا الآثار وكتب اليعاقبة أنفسهم أنَّهم كانوا دائماً أعداء ليوحنا مارون والموارنة فشهادتهم لهذا القديس بينة دامغة فقد جاء في كتاب تعليمهم الذي كان محفوظاً في مكتبة مدرسة الموارنة بروما ما نصَّه بحروفه: « قام مارون (لا شكَّ في أنَّ المراد يوحنا مارون كما هو بيِّن من الكلام الآتي) ووافق ملك الفرنج وكان أوجان البرنس وقال له يا ملك الزمان نحن خائفون على جبل لبنان أن تديره طائفة الملكية إلى أمانتهم (يظهر منه أنَّهم كانوا يعتقدون حينئذٍ المشيئة الواحدة) فقل للكردينال الذي عندك أن يكرِّسني مطراناً حتى أمسك هؤلاء الناس على الأمانة الفرنجية والأمانة اليعقوبية لا أذكرها فكرَّسه مطراناً على البترون ». وكان هؤلاء اليعاقبة يقذفون يوحنا مارون لأنَّه كان يعتقد طبيعتي المسيح ومشيئتيه ويهزأون به كأنَّه يدَّعي أنَّه أعلم من السيد المسيح فمن أقوالهم عليه في كتابهم المذكور: « إنَّ مارون كان أعلم من السيَّد المسيح بذاته وبسر اتحاده متى سمعنا السيد المسيح قال إنَّ لي طبيعتين ومشيئتين » ويذكرون اسمه مصغراً تحقيراً له فمن أقوالهم في هذا الكتاب: « عندما وصل تملَّك الملكية إلى قرية اسمها أميون ارتفع ميورين وابن اخته بريهيم عن الملكية إلى سمر جبيل وحماهم من الجزية التي فرضها الملكية » . وقالوا في الكتاب المذكور أيضاً « ما رضيت الطوائف أن يؤمنوا حتى قلتم أنتم يا موارنة طبيعتين ومشيئتين » طالع كتابي روح الردود ومن صفحة ١٤٧ إلى ١٥٧) في أقوال اليعاقبة هذه في كتاب تعليمهم وفي مؤلف هذا الكتاب الذي أثبتنا أنَّه ليس ليعقوب البردعي تبعاً لما حققه السمعاني في مجلَّد ٢ صفحة ٦٨ من مكتبته الشرقية، ثمَّ عزاه في مجلَّد ٢ من مكتبته الشرقية صفحة ٤٦٨ إلى نوح البقوفاوي اللبناني بطريرك اليعاقبة .

شهادة العلماء المحققين

استشهدنا في عد ٧٠٩ لقداسة يوحنا مارون بأقوال الأب كوارسميوس في الكتاب الأوَّل من مؤلفه في وصف الأرض المقدَّسة وشيواريوس في كتاب رحلته إلى أورشليم وكرلس برتلماوس في كتابه السنكساري الروماني والبولنديين في المجلَّد

الرابع لشهر تموز والأب لكويان في المجلّد الثالث من كتابه المشرق المسيحي والأب ايرونيمس دنديني في كتاب بعثته إلى لبنان ودي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية والكردينال أورسي في تاريخه لسنة ٦٣٦م وباجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٣٣م. فكل هؤلاء شهدوا لقداسة يوحنا مارون وباولى حجة براؤه من بدعة المشيئة الواحدة ونزيد عليهم أيضاً الأب روهر بخر في تاريخه لسنة ٦٣٨ حيث قال: «إنَّ يوحنا الفلادلفي الذي أقامه القديس مرتينس البابا نائباً للكرسي البطريركي الرسولي في المشرق سرّه ما بلغه من أنَّ الموارنة استحوذوا على جبل لبنان وما كان من أنطاكية إلى أورشليم فلكي لا يحرموا من المساعدات الروحية أقام له يوحنا مارون راهب دير القديس مارون على العاصي أسقفاً عليهم». وقد برأ علماء الموارنة يوحنا مارون من هذه التهمة بل أثبتوا قداسته وقد ذكرنا بعضهم آنفاً وأبنّا ما اعتمدوا عليه في أقوالهم منهم جبرائيل اللحفدي أسقف نيكوسية بقبرص في محال كثيرة من تآليفه وابراهيم الحاقلي وجبرائيل الصهيوني الإهدني والبطريرك أسطفانس الدويهي في كتاب احتجاجه عن الموارنة ومرهج بن نمرون الباني في كتابه في أصل الموارنة واسمهم ودينهم ويوسف سمعان السمعاني في محال كثيرة من مكتبته الشرقية وفي مجلّد ٢ فصل ٢٠ من مكتبته في الناموس ويوسف ولويس السمعاني في كتابهما في الرتب البيعية وأسطفانس عواد السمعاني في كتابه في أعمال الشهداء الشرقيين والغربيين وفي كتابه في قداسة يوحنا مارون والأب بطرس مبارك اليسوعي الماروني والبطريرك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون في فصول شتى والخوري أنطوان قيالة في رده كراسة القس يوحنا عجيمي وأخيراً العلامة البطريرك بولس مسعد في ردّه المنظوم. وما أحسن ما قاله البطريرك يوسف أسطفان (في قسم ٣ فصل ٤ من كتابه في قداسة يوحنا مارون) في درّه زعم من يقول إنَّ الموارنة لا تقبل شهادتهم لبطريرك طائفتهم فقد قال ما ملخّصه «لِمَ يصدق مؤرخو فرنسة وإسبانيا وإيطالية واوستريا وبلاد الروم في أخبار بلادهم وقبائلهم ولا يصدق الموارنة في رواية أخبار بلادهم ورؤسائهم، ولو صحَّ مبدأ الخصوم لم يبق تاريخ يعتمد عليه. ونرى المحققين يؤثرون الاعتماد في تواريخ كل قبيلة على ما كتبه علماؤها فضلاً على ما كتبه الأجانب عنها لزيادة المخبرة في الوطني على الأجنبي ولا يتصوَّر البتة أنَّ علماء كثيرين كمن ذكرناهم من الموارنة ومنهم أساقفة وبطاركة يتواطئون على نشر الكذب وعلى استنباط أخبار لم يتلقوها

عن قدمائهم وعليه فشهادة علماء الموارنة في تاريخ بطريركهم هي أهل للتصديق كشهادة غيرهم. ولاسيما أننا ذكرنا شهادة كثيرين من اللاتينيين تطابق شهادتهم.

إنَّ لنا شهوداً آخرين كثيرين يتبيَّن لأوَّل نظرة أنَّ شهادتهم سلبية وهي بالحقيقة وضعية موجبة، فإذا حدثت مثلاً جريمة وشهد شاهدان عدل أنَّ زيداً اقترفها وشهد مئة شاهد على أنَّهم لم يروه اقترفها حكم بشهادة الشاهدين وردت شهادات المئة شاهد لأنَّها قامت على السلب أو النفي، لكن الحكم على زيد بأنَّه الفاعل تبرئة من الجريمة لكل من سواه وتكون هذه التبرئة وضعية موجبة لا سلبية. وكذلك في مبحثنا فقد عقدت مجامع للفحص عن بدعة المشيئة الواحدة ومبتدعيها وكتب تاريخها وغيرها من البدع علماء كثيرون وقضت تلك المجامع وأولئك العلماء أنَّ مبتدعيها إنَّما هم سرجيوس وبيرس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريرك اسكندرية ومكدونيوس ومكاريوس بطريركا أنطاكية وتوادورس أسقف فاران ببلاد العرب وأثناسيوس بطريرك اليعاقبة وبعض الكهنة المحازبين لهؤلاء ولا ذكر لمارون أو الموارنة في واحد من كتب تلك المجامع أو أولئك العلماء وهذا تبرئة قاطعة للمارونين والموارنة.

وإليك هذا البرهان مبسوطاً قد عقد لنبذ بدعة المشيئة الواحدة مجمع في أورشليم سنة ٦٣٤م عقده البطريرك صفرونيوس ومجمع آخر فيها سنة ٦٤١م ومجمع في قبرص سنة ٦٤٣م وأربعة مجامع في هذه الحقبة في إفريقية اهتمَّ بها القديس مكسيمس لمناصبة بيروس بطريرك قسطنطينية ومجمع في رومة سنة ٦٤٦م دعا إليه البابا توادورس ومجمع آخر فيها سنة ٦٤٩م عقده القديس مرتينس البابا ومجمع في مديولان سنة ٦٧٩م ومجمع آخر في رومة سنة ٦٨٠م ثم عقد المجمع السادس المسكوني سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٨١م والمجمع المعروف بمجمع قصر الملك سنة ٦٩٢م ومجمع آخر في قسطنطينية سنة ٧١٢م تاييداً لهذه البدعة ومجمع آخر فيها سنة ٧١٥م دفعاً لها ولا أثر في كتب هذه المجامع كلها كاثوليكية أو غير كاثوليكية لمارون أو الموارنة. وكان من الأحبار الأعظمين مذ نشأت هذه البدعة إلى حين وفاة يوحنا مارون أنوريوس الأوَّل واسفارنيس الثاني ويوحنا الرابع وتوادورس ومرتينس الأول وأوجانيوس وڤيتاليوس ودوداتس ودونس وأغاتون الذي عقد المجمع السادس ولاون الثاني الذي أثبته وبناديكتس الثاني ويوحنا الخامس وقونون وسرجيوس الذي أثبت يوحنا مارون بطريركاً ويوحنا السادس ويوحنا السابع الذي

توفي في أيامه البطريرك المذكور ولا نرى أثراً في رسائلهم أو براءاتهم أو كتبهم لمارون أو الموارنة وترى فيها متواتراً ذكر مبدعي هذه البدعة وانصارها كما ذكرناهم.

وكان في زمان ظهور هذه البدعة وانتشارها علماء كثيرون منهم القديس مكسيمس المعترف البطل الكمي في مقاومتها والقديس صفرونيوس بطريرك أورشليم وقد ذكر في تآليفه أصحاب هذه البدعة ثم أندراوس المعروف بواضع القوانين ويوحنا الفيلادلفي نائب الكرسي الرسولي في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم وقبله أسطفانس أسقف دورا (الطنطورة). وبعد انتشار هذه البدعة يوحنا الدمشقي وقد عدد في كتبه البدع والمبدعين، وبولس الشماس وتوافان في القرن الثامن وقد ذكر غزوات المردة وسطوتهم، وأنسطاس المكتبي في القرن التاسع وقد ذكر غزوات الموارنة ولانسيوس في القرن العاشر وشدرانس في القرن الحادي عشر وزوناراس في الثاني عشر وقد ذكرا صولة الموارنة ونيكوفور كاليستس في الرابع عشر وقد عدد بدع المشرق وغير هؤلاء كثيرون ولا ترى خطة في كتبهم أجمع تشير إلى أنَّ مارون أو الموارنة أبدعوا في بدعة أو تشبثوا بها فيا لأمر عجيب غريب لا يعرف له في التواريخ مثيل أن يبدع مارون أو الموارنة بدعة ولا يظهر لهم أثر يشير إلى ذلك في المجامع أو رسائل الأحبار الأعظمين أو كتب العلماء في قرون كثيرة كما رأيت.

بطلان ما يرد على ذلك

أجل ورد أثر لذلك في كتاب سعيد بن بطريق البطريرك الملكي الإسكندري في منتصف القرن العاشر وهو قوله الذي ذكرناه أكثر من مرة وابنا بطلانه ولاسيما أنَّه زعم أنَّ مارون كان في أيام موريق الملك وهو كان في أيام أركاديوس وبينهما نحو من قرنين، وأنَّ مارون ابتدع بدعة المشيئة وهي لم تظهر إلَّا في سنة ٦٢٨م، فكان مارون قبلها بأكثر من قرنين بل قد فنَّد بناديكتس الرابع عشر نفسه قوله كما رأيت في منشوره بالعدد السابق وقد نفعنا ابن البطريق بقوله بعد موت مارون بنى أهل حماه ديراً له على العاصي فكان كلامه تبرئة ليوحنا مارون لأنَّ هذا الدير بني

على اسم مارون قبل يوحنا مارون بأكثر من قرنين كما رأيت ذلك في منشور البابا بناديكتس الرابع عشر. وكذا يصدر الله من الشر خيراً فكلام ابن البطريق في مارون فرية وتهمة وقوله الآخر في بناء الدير تبرئة ليوحنا مارون من تلك التهمة.

وورد قول آخر لغوليلمس أسقف صور (في تاريخ الحرب ك ٢٢ فصل ٨) قال فيه إنَّ الموارنة: «تشبثوا بضلال مارون نحو خمس مئة سنة، ثمَّ أقلعوا عنه بالإلهام الإلهي ... وكان ضلالهم أنَّ في المخلِّص مشيئة واحدة وفعلاً واحداً كما يظهر من المجمع السادس الذي عقد ضدهم وحرموا فيه» وقد انتحل غوليلمس هذا الكلام عن سعيد بن البطريق بدليل أنَّه قال في فاتحة كتابه «ألَّفنا تاريخاً ينبسط إلى خمس مئة وسبعين سنة ... واقتفينا بشهادة الرجل المحترم سعيد بن بطريق البطريرك الإسكندري» فكلامه إذاً مبني على شهادة سعيد الباطلة وما بني على الباطل باطل ويظهر أنَّ غوليلمس التقف كلام سعيد دون تروٍ أو تحرٍّ يدلُّنا على ذلك قوله إنَّ المجمع السادس عقد ضد الموارنة وقد حرمهم، ولو طالع أعمال المجمع السادس ولاسيما ترجمتها اللاتينية لأدرك أنَّ المجمع السادس حرم سرجيوس وبيرس إلى آخر من ذكرناهم آنفاً لا مارون أو الموارنة الذين ليس في المجمع المذكور خطة تشير إليهم ويكفينا مؤونة الرد لزعمه قول البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره الذي أثبتناه آنفاً: «إنَّ أصحاب الرأي المضاد (للموارنة) يوردون شهادة غوليلمس أسقف صور (وعين المحل الذي ذكرناه) على أنَّ شهادة غوليلمس لا تكفي لتأييد الرأي المضاد للموارنة ولربما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله، ولذلك عزاه إلى المجلَّد الثاني من تاريخ سعيد البطريرك الإسكندري، وسوف نسهب الكلام إن شاء الله في رد زعم غوليلمس هذا في تاريخ القرن الثاني عشر. وإلى حينه طالع كتاب الدر المنظوم للعلامة البطريرك بولس مسعد صفحة ١٥١ وما يليه. وكتابنا روح الردود من صفحة ١٢٣ إلى صفحة ١٣٢.

قيل إنَّه جاء في ترجمة عربية لأعمال المجمع السادس اسم مارون في جملة من تلوثوا بهذه البدعة؛ فإن صحَّ هذا القيل كان زيادة من زيادات أعداء الموارنة على بعض الكتب ولا عبرة له البتة لأنَّ الأصل اليوناني والترجمة اللاتينية لا أثر فيها لاسم مارون كما حقَّق البطريرك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ١ وكذا لا عبرة لأقوال كثيرين من الحدثاء الذين انخدعوا بقول سعيد بن البطريق وغوليلمس الصوري لعدم ترويهم، وقد خالفهم في ذلك كثيرون

من الأحبار الأعظمين والعلماء المحققين. راجع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرن السادس .

عد ٧١٣

براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

إنَّ كل ما ذكرناه في براءة القديسين مارون ويوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة هو حجج قاطعة لبراءة الموارنة من هذه البدعة لأنَّ جميع من اتُّهموا الموارنة بها زعموا أنَّهم تابعوا عليها مارون أو يوحنا مارون، فإذا قوض الأساس أصبح بناء هذه التهمة في الجو ولا أساس له فيسقط لا محالة وكان لنا أن نكتفي بهذه الحجج لكننا لا نكتفي بها بل نزيد عرضنا إثباتاً بشهادة الأحبار الأعظمين والعلماء المحقّقين وبايراد بعض اعتبارات تاريخية تؤيّد هذه البراءة .

شهادات الأحبار الأعظمين

قد جمعنا في كتابنا روح الردود الذي طبع سنة ١٨٧١م بالعربية واللاتينية كل ما تسّنى لنا الوصول إليه من شهادات الأحبار الأعظمين المثبتة استمساك الموارنة في كل وقت مذ نشأتهم إلى الآن بعرى الإيمان الكاثوليكي وعدم زيغان امتهم عنه، وأوردنا أقوالهم اللاتينية وترجمتها العربية. فنورد الآن بعض هذه الشهادات فمنها رسالة البابا أينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٠٧ إلى بطريرك الموارنة التي يثبت له فيها حقوق البطريركية الأنطاكية، ورسالة البابا اسكندر الرابع في منتصف القرن الثالث عشر التي يوصي بها بطريرك الموارنة ان يعتد الإفرنج الذين لبثوا في سورية كشعبه. وقال البابا لاون العاشر في رسالته إلى البطريرك سمعان الحدثي في ١ آب سنة ١٥١٥م: «إنَّك وشعبك ترون رأياً قوياً في الإيمان بل تجهدون نفوسكم كثيراً بالأصوام والخصال الحميدة والتقشف ومبرة السيرة؛ وهذا قد أطلعنا عليه في رسائلكم التي تولانا بتلاوتها السرور والبهجة وطابت باستماعها نفسنا وملئ فؤادنا فرحاً لا يوصف، فتحتم علينا أن نحمد الله ونشكره ما قدرنا على ما أسبغه عليكم من نعمة إذ اصطفاكم من بين الكنائس الشرقية لتعبدوه مؤمنين مصونين من الغرق

في لجة الكفر والنوائب كما صين الورد من الشوك ليتمجّد بذلك اسمه القدوس ولتكونوا عبرةً صالحة لرجوع غير المؤمنين بمحافظتكم على عادات الكنيسة الجامعة الرومانية ورتبها بنقاوة دون خوف ولم تزيغوا عن محبة الإيمان القويم مع تواتر تيار الضنك والإضطهاد المزمجر به غير المؤمنين والهراطقة والمشاقون باغضو اسم مخلّصنا كما علمنا من رسالتكم ورسالة الأب فرنسيس سوريان (قاصده عند الموارنة) المار ذكره، بل تزدادون قوةً وثباتاً في تحمُّل المصائب والتعيير حباً بالله) ومما قاله له في هذه الرسالة «إنَّا فهمنا من براءات اينوشنسيوس (الثالث) واسكندر (الرابع) المذكورين الصالحي الذكر ان أرميا الذي يسمى بطريركاً أنطاكياً أدَّى فروض الطاعة كما اعتاد البطاركة تأديتها للكرسي المقدَّس في مدينة طرابلس بحضرة المطارنة والأساقفة على يد بطرس الكردينال كاهن كنيسة القديس مرشلّس ذي الذكر الصالح».

وقال البابا بيوس الرابع في براءته إلى البطريرك موسى العكاري في ١ أيلول سنة ١٥٦٢م: «قد علمنا من رسالتكم ما لكم من التوقير السامي والتجلة والتعلّق الشديد بكرسي بطرس زعيم الرسل وثباتكم وثبات أمتكم في التشبث بعرى الإيمان الذي تعلمه الكنيسة المقدَّسة الرومانية فنهنيك وأمتك ونسدي الشكر لرأفة الله من صميم فؤادنا لأنَّه استبقى له في هذه الأمصار القاصية ألوفاً كثيرة لم تحنُ ركبها لباعال ولم يروِّعها ثقل نير غير المؤمنين لتبعد عن الإيمان القويم ولم يعثُ بها قربها من الهراطقة والمشاقين ولم يستطع أن يفصلها عن الكنيسة الكاثوليكية». وقال البابا غريغوريوس الثالث عشر في براءة إنشائه مدرسة للموارنة في رومة سنة ١٥٨٣م: «إنَّ الملة المارونية القاطنة في جبل لبنان ما فتئت مذ قرون شتى متمسكة بالإيمان الكاثوليكي مزدانة بصنوف الطاعة والانقياد للكنيسة الرومانية المقدَّسة ولو أحدقت بها الملل الأراتيكية وغير المؤمنين». وقال البابا اكليمنضس الثامن في رسالته إلى البطريرك سركيس الرزي في ١ نيسان سنة ١٥٩٥م: «أمَّا أنت أيُّها الأخ المحترم فنعانقك وأمتك معانقة مودة خاصة وحب فريد لاتحادكم بنا بوثاق المحبة وقيامكم أمامنا بالروح كل وقت مع بعدكم عنا بالجسد بعداً شاسعاً، وقد استحققتم أن تنزلوا عندنا منزلة الأبناء الأعزاء جداً لثبوتكم في الإيمان الكاثوليكي وخضوعكم الفريد للكرسي الرسولي المقدَّس ولم تبرحوا على عادة أسلافكم الحميدة تجاهرون بالطاعة المتوجبة لامكم وأم جميع المؤمنين ومعلمتهم الكنيسة الرومانية المقدَّسة

وتحفظون بنعمة الله السابغة عليكم الإيمان الذي أخذتموه عن الكنيسة الرومانية كاملاً سالماً وان احاطت بكم أمم غير مؤمنة وبدع المشاقين». وكذلك قال البابا بولس الخامس في رسالته إلى البطريرك يوسف الرزي في ١٣ كانون الآخر سنة ١٦٠٦م: «نسأل أبا المراحم الأزلي أن يفيض الخيرات السموية عليكم وعلى سائر الإخوة الأساقفة والأبناء الأعزاء الإكليرس والشعب، لأنَّنا نراكم مزهرين بنعمة الله كالورد بين الأشواك». وقال مثل ذلك في رسالته إلى الموارنة في ٢٨ كانون الأوَّل سنة ١٦٠٨م .

وأجاد بمثل هذا التقريظ البابا اوربانس الثامن في رسالته إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ٣٠ آب سنة ١٦٢٥م قائلاً في الموارنة: «لم يذبل جمال الكرمل ولم يذو مجد لبنان ولو مدَّ العدو الباغي إليه يداً». ومشبهاً إياهم: «بجبل صهيون يزدرون الزعازع إذ وعده الرب أنَّه لن يتزعزع إلى الأبد». ومثل ذلك قال البابا اكليمنضس الحادي عشر في رسالته إلى البطريرك اسطفانس الدويهي في ٧ شباط سنة ١٧٠٢م وفي رسالته إلى البطريرك جبرائيل البلوزوي في ١٠ حزيران سنة ١٧٠٥م وفي رسالته إلى البطريرك يعقوب عواد في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٧٢١م ومثله كتب البابا اينوشنسيوس الثالث عشر إلى البطريرك المذكور في ١٢ شباط سنة ١٧٢٣م والبابا اكليمنضس الثاني في رسالته إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م مشبهاً الموارنة بوردة بين الأشواك وبصخرة صلدة تزدري بتيار بحر هذا العالم. وقد أثنى البابا بناديكتس الرابع عشر العلامة على الموارنة في رسائل وبراءات كثيرة نخصُّ منها بالذكر خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م حيث قال: «إنَّ الموارنة كانوا دائماً كما هم الآن كاثوليكيون للغاية مرتبطون بالاتحاد بهذا الكرسي المقدَّس ومودون الإحترام والطاعة الكاملة لبطريركهم والحبر الروماني». واستطرد إلى ذكر ما قرظهم به أسلافه مما مرَّ بنا ذكر بعضه واجاد بمثل ما مر البابا اكليمنضس الثالث عشر في منشوره إلى الأعيان والإكليرس والشعب الماروني في ١٩ حزيران سنة ١٧٦٧م والبابا اكليمنضس الرابع عشر في رسالته إلى البطريرك يوسف أسطفان في ١٠ تشرين الأوَّل سنة ١٧٧٠م والبابا بيوس السادس في رسالته إلى المطارين والأساقفة والإكليرس والأعيان والشعب في ١٧ تموز سنة ١٧٧٩م والبابا بيوس السابع في رسالته إلى البطريرك يوحنا الحلو وأساقفته في ١ تشرين الثاني سنة ١٨١٦م وفي

رسالته إليهم في ٢٠ أيار سنة ١٨١٩م والبابا بيوس الثامن في رسالته إلى البطريرك يوسف حبيش في ١١ ك ٢ سنة ١٨٣٠م والبابا غريغوريوس السادس عشر في رسالته إلى البطريرك المذكور في ١٤ تموز سنة ١٨٣٢م. ومثل ذلك كتب البابا بيوس التاسع في رسائل عديدة إلى البطريرك بولس مسعد وقد كتب إلى حقارتي في ٢٩ آب سنة ١٨٧٢م: «إنَّ إيمان طائفتك الذي لم يشبه دنس وطاعتهم المستمرة لهذا الكرسي المقدَّس التي دافعت عنها بصواب في محل آخر (أي في روح الردود) وبرأتها من الشبهات . .. كل ذلك كان له عندنا أحسن قبول». وفريد عصره وزينة دهره البابا لاون الثالث عشر المالك سعيداً في كثير من رسائله وخطبه، من ذلك ما قاله في خطبته في تثبيت البطريرك يوحنا الحاج وهو: «إنَّ الموارنة منتشرون في أنحاء لبنان . .. وهم أمة اشتهرت بالوقائع الجليلة لكنها امتازت خاصة بالثبات الذي حفظت به الإيمان الكاثوليكي صحيحاً سالماً في بهرة امتحانات ومصاعب كثيرة». وقال في رسالته إليه في ١٧ آذار سنة ١٨٩٥م: «إنَّ ما كتبته حديثاً عن إيمانك وإيمان أمتك غير المتزعزع وعن طاعتكم السامية لهذا الكرسي الرسولي قد كان ساراً لنا للغاية فإنَّ هذه الأمور وإن كانت واضحة لدينا من ذي قبل فإعادة ذكرها تطربنا كثيراً». إلى أن يقول: «إنَّ الإيمان الذي حفظته ملتكم الشريفة سالماً كاملاً غير منثلم لا يدعنا نرتاب في أنَّكم وإن لم تحضروا في اجتماعاتنا مع الإخوة المحترمين البطاركة الشرقيين تذعنون لكل ما رسم في الرسائل الرسولية» وقد كتب إلى حقارتي في ٢٢ آب سنة ١٨٧٨م: «قد سررنا بما ابنته أيها الأخ المحترم عن طاعتك وإجلال الموارنة لهذا الكرسي الرسولي فتعلق الموارنة بهذا الكرسي الرسولي في كل وقت كان شديداً وما قاسوه من المحن الثقيلة من أجل هذا السبب بمكر أعدائهم كان عظيماً ولكن أعظم من ذلك عذوبة لدينا ما يبدونه لنا من مظاهر التكريم».

فشهادة كل هؤلاء الأحبار الأعظمين في بحث ديني بحت لا تقوم أمامها شهادة العلماء والمؤرخين أياً كانوا، وهي أكثر من كافية، ومع ذلك لا نقتصر عليها بل نورد شهادة العلماء المحققين.

نؤثر أن نورد أولاً شهادات كرادلة الكنيسة الرومانية لتيقّن صدقهم ومخبرتهم لقربهم من مركز وحدة الإيمان، فلشهادتهم المحل الثاني بعد شهادة الأحبار الأعظمين. قال الكردينال بنديني في رسالته إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ٣٠

تموز سنة ١٦٢٥م مخبراً عن طبع بعض كتبنا البيعية في رومة: «بعد البحث الجهيد في هذه الكتب ومطالعة لاهوتيين آخرين لها عرضنا نتيجة فحصها على الآب الأقدس فتولاه سرور لا يوصف لأنَّ الله تنازل بحنوه الوافر أن يحفظ عندكم إيمان الكنيسة الرومانية كاملاً سالماً من الفساد وإن كنتم بعيدين عنها وبينكم وبينها أصقاع وبحور وإن احدق بكم من كل جانب أعداء كثيرون لهذه الكنيسة». وقال الكردينال يوليوس ماريًا دلا صوماليا رئيس مجمع نشر الإيمان المقدَّس في رسالته إلى البطريرك يوسف حبيش في ١٤ آب سنة ١٨٢٤م: «إنَّ سرور الآب الأقدس البابا لاون الثاني عشر لدى مطالعته إيضاحات طاعتكم الإبنية وتعلقكم الشديد بكرسيه ومظاهر البهجة التي أبديتموها تهنئة له بارتقائه إلى كرسي القديس بطرس كان سامياً وعظيماً كعظمة ثبوت الأمة المارونية على ممر الأيام في حفظ وديعة الإيمان من غير دنس وقيامها على الإتّحاد بالكرسي الرسولي الروماني المقدَّس من دون انفصال في وقت من الأوقات» ورغبة في الإيجاز نقتصر على شهادة أخرى حديثة لكنَّها صريحة وقاطعة وهي شهادة الكردينال لودوكسكي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدَّس الآن في رسالته إلى البطريرك يوحنا الحاج في ١٨ شباط سنة ١٨٩٥م حيث قال إنَّ رسالتكم إلى الآب الأقدس هي: «على غاية من اللياقة بحبر شريف ورئيس الكنيسة والأمَّة المارونية المجيدة التي كانت متحدة في كل وقت وبكل إخلاص بكرسي القديس بطرس المعصوم من الغلط وقد عرفت أن تحافظ على الإيمان الكاثوليكي المقدَّس في المشرق وتدافع عنه في كل عصر من أعصر الكنيسة بل ان تساعد مساعدة فعَّالة على ارتجاع غيرها من الطوائف الشرقية إليه من ذلك على سبيل المثل مساعدتها على رجوع السريان والروم الملكية في القرن الماضي».

وبعد شهادة الكرادلة نثبت شهادات بعض من أرسلهم الكرسي الرسولي إلى المشرق لمهام دينية أو أدبية وأقاموا سنين متطاولة بين الموارنة فمن هؤلاء الأب فرنسيس سوريانس وقد أقام مدات بين الموارنة قال في عريضة رفعها إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٤م: «إنَّ الموارنة أجمع محافظون بلا ريب على وديعة الإيمان القويم ومتشبثون بعراه ويؤدون كنيسة رومة المقدَّسة عظيم التكريم كالأبناء الصالحين المتعبدين ولم يزيغوا في وقت من الأوقات عن شيء مما يخص خلاص النفوس». ونسخة من هذه العريضة محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة أتى بها من رومة القس بطرس الماروني رسول البطريرك سمعان الحدثي إلى البابا لاون العاشر.

ومن هؤلاء أيضاً الإب إيرونيمس دنديني اليسوعي وقد أرسله البابا اكليمنضس الثامن إلى الموارنة وعقد رؤساؤهم بحضرته مجمعهم سنة ١٥٩٥م فهذا قال في فصل ١٩ من كتاب سفارته هذه متكلماً في يوحنا مارون وكان يرى أنَّه مضى إلى رومة وهذه ترجمة قوله: «وعاد منها بطريركاً على أولئك المؤمنين الذين ما انفكوا أمناء ثابتين في الدين الكاثوليكي وما فتئوا من تلك الأيام إلى الآن يؤدون الكرسي الرسولي الروماني فروض طاعتهم». وقال في فصل ٢٧ من هذا الكتاب متكلماً عما يتهم الموارنة به: «قد بذلت أعظم الإهتمام باحثاً عن ذلك بنفسي ومتخذاً وسائل أخرى مدققة فلم أجد ما يدلُّ على ذلك البتة . . . وأدركت جيداً أنَّ ما ذلك إلَّا تهمة رشقوا بها وما نسبة ذلك إليهم إلَّا من أفظع الكذب» ومن هؤلاء الاب عبد الأحد أنطونيوس دي لوكا من رهبان القديس فرنسيس فإنّه قال في خطبته في ٦ نيسان سنة ١٧٦٧م بحضرة البابا اكليمنضس الثالث عشر والكرادلة ولفيف من الطوائف الشرقية بمعرض تثبيت البطريرك يوسف اسطفان وهاك قوله: «أيُّها الأب الأقدس إنَّ ما أثبته البابا بناديكتس ١٤ سالف قداستكم متكلماً في أصل السريان الموارنة وإيمانهم وهو «إنَّ الموارنة كانوا كلَّ حين كما هم الآن كاثوليكيين للغاية ومتحدين أكمل اتحاد بهذا الكرسي المقدَّس». فهذا يشهد به إخوتنا أيضاً وهم ما زالوا يشتغلون بحسب طاقتهم في كرم الرب بسورية وفلسطين منذ زمان أبينا الأقدس فرنسيس حتى اليوم وأشهد به أنا أيضاً وقد باشرت الرسالة الرسولية في تلك الأصقاع سنين متطاولة على أنَّه ما حاجتنا إلى شهود وقد سمعنا في هذا النهار بطرس الرسول الذي أسَّس الكنيسة الأنطاكية مجتازاً بها وخلف لهذا الكرسي الروماني الرفيع السلطان الرسولي الذي قبله من المخلِّص متكلماً بفم قداستكم بتقريظ سام ومشرف ليوسف بطرس المنتدب بطريركاً أنطاكياً ولأمته الموما إليها».

ومن شهادات باقي العلماء والمؤرخين نقتصر على إيراد شهادات من يأتي ذكرهم قال الأب يوسف بيسون اليسوعي في كتابه في سورية المقدسة: «إنَّ الأمَّة المارونية كلّها مسيحية، كلّها كاثوليكية منذ اثني عشر قرناً». يريد بذلك من أيام القديس مارون الذي انتقل إلى ربِّه في أوائل الخامس إلى القرن السابع عشر الذي كان فيه المؤلف. وقال الأب بريسيوس الكبوشي في حواشيه على مختصر تاريخ بارونيوس لسنة ٤٠٧م وهذا الكتاب طبع في رومة سنة ١٦٥٣م وهاك قوله

ملخصاً: «لا ذكر في التواريخ القديمة للبيعة ولا في المجامع العامة أو الخاصة أنَّه كان رجل أراتيكي في أحد الأعصار اسمه مارون وليس من عادة المجامع الصمت عن ذكر المبدعين والبدع وحرمها فقد ذكر فيها الأراطقة فرداً فرداً ولم نجد ذكراً لمارون أراتيكي في مجمع أو تاريخ، وليس من دأب المؤرخين أن يغفلوا عن أمر كهذا فقد عدد نيكوفورس المؤرِّخ في تاريخه اليوناني المبتدعين الشرقيين كافةً واحداً فواحداً ولم يأت بذكر مارون أو الموارنة وإن قيل أنَّ ذلك ورد في الترجمة العربية للمجمع السادس وفي تاريخ سعيد بن بطريق وغيره من الملكية ومن نقل عنهم قلنا تلك زيادة من زياداتهم على المجامع وكذبها بيّن فأعمال المجامع اليونانية واللاتينية لا خطة فيها تشير إلى ذلك. وقد ترجمت العربية عنها فظهر أنَّ هذا من فضول الملكية المتأخرين» وقال أنطونيوس زنوليني معلِّم اللغات الشرقية في مدرسة بادوا في أبحاثه عن اللغة السريانية المعلقة على مجمعه السرياني في صفحة ١٢: «إنَّ الإيمان الذي تلقاه الموارنة عن الرسول حفظوه كلَّ حين سالماً كاملاً لم يعره فساد بعناية القديس مارون وتلامذته واهتمامهم المتواصل فقد روي أنَّ أكثر المشرق ترك هذا الإيمان بحيل المبتدعين فإنَّهم حاولوا نقض الإيمان الرسولي في المشرق متشيعين لنسطور أو أوطيخا ولهذا حقَّ للقديس مارون وتلامذته الذين أقاموا في الأديار التي أنشأوها أن يسميهم جميع السريان الشرقيين أئمة الإيمان الكاثوليكي كما يظهر جلياً من الرسائل المعلقة على أعمال المجمع الخامس المسكوني». وقال باجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م عدد ١٣: «يظهر من اسم الموارنة نفسه أنَّهم لم يتَّخذوا هذا الاسم عن مارون الأراتيكي فالعادة المستمرة في المشرق والمغرب أنَّ الأراطقة إذا رجعوا إلى الإيمان الكاثوليكي فإن كانوا غربيين كتباع لوتارس وكلوينس سموا كاثوليكيين، وإن كانوا شرقيين فإن يعاقبة دعوا سرياناً وإن نساطرة كلداناً والمراد بهؤلاء جميعاً كاثوليكيين .. . ولما كان الموارنة يسمّون الآن بهذا الاسم وبطريركهم يدعوه الأحبار الأعظمون في براءتهم منذ أيام اينوشنسيوس الثالث بطريرك الموارنة الأنطاكي فينتج نتجاً لازماً أنَّ لفظة ماروني دلَّت كل حين على شخص كاثوليكي.

وقال الأب ميخائيل لاكويان في الفهرست المعلَّق في آخر المجلَّد الثالث «زعم كثير من المؤلفين الحدثاء مستندين خاصة إلى شهادة سعيد البطريرك الإسكندري في القرن العاشر، وشهادة غوليلمس الصوري في القرن الثاني عشر أنَّ الموارنة تلطّخوا

في بدعتي الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وانهم جحدوا أخيراً في القرن الثاني عشر بدعة المشيئة الواحدة التي ابتدعها مارون ما هو عمدة في شيعتهم وكان أحدث كثيراً من مارون الآخر. إلَّا أنَّه من الواضح أنَّ سعيد المذكور لا يستحق شيئاً من تصديق أقواله وأنَّ تأليفه مشحون غالباً بخرافات فظيعة وقد شوَّش بذلك تاريخ القرون الثلاثة التي كانت قبله. وأمَّا رواية غوليلمس عن رجوع الموارنة في أيامه إلى حظيرة الكنيسة فيلزم قصرها قطعاً على بعضٍ منهم قد تلوَّث بالأراطقة سنين قليلة قبل ذلك». إنَّ برجه صاحب المعجم اللاهوتي كان قد اتَّبع بعض المؤلفين الحدثاء في اتهام الموارنة فذيل الأب اكليمنضس بياجيوس كلامه بحاشية قال فيها إنَّ المؤلِّف صدق جاهلاً حالة المؤلفين أعداء السريان الموارنة من كلامه الذي ذكره على أنَّ المؤلِّف الفقيه صاحب المحاماة عن القديس يوحنا السرومي المسمى مارون أوَّل بطاركة السريان الموارنة الأنطاكي المطبوعة في رومة سنة ١٦٦٩م (وهذه المحاماة هي للمطران اسطفان عواد السمعاني) قد أبان بأدلة لا يشوبها ريب وحجج كثيرة قاطعة أنَّ كنيستهم كاثوليكية مذ وجدت ولم تكن مشاقة أو أراتيكية قط في أحد الأوقات بل استمرت متمسكة دائماً بعرى إيمان الكنيسة الرومانية فالإيجاز المندبون إليه في هذا المعجم لا يؤذن لنا أن نبيِّن كل ما يلزم هنا من الأحداث وأن نكشف عن المكر الذي يستخدمه أعداء كنيسة السريان الموارنة هذه ولا أن نبيِّن مستشهدين بأعمال سامية وفريدة كم للكنيسة الرومانية عند هؤلاء الموارنة من الحرمة والاجلال وكم قلوبهم وعقولهم مفعمة بالبساطة المسيحية الحميدة. فنجتزئ بإقامة بعض بينات وثيقة جداً على إيمانهم وهي ثمة الفحص المدقق الذي أجراه الأحبار الرومانيون عن إيمان الموارنة المضطهد والموسع بأقبح التهمات المكرية. فمن هؤلاء البابوات بيوس الرابع في براءته إلى بطريركهم موسى: «ويعدد كثيرين من الأحبار الأعظمين الذين قرظوا إيمان الموارنة إلى أن يقول: «والحاصل إنَّ الأمر المؤكَّد جداً والذي لا يشوبه ريب أنَّ كنيسة السريان الموارنة لم تنفصل قط عن الكنيسة الرومانية». وقال مثل ذلك الأب دومينيكس منسى المدقق الشهير في تنقيحه تاريخ نطاليس اسكندر عند ذكره قول تيموتاوس القس القسطنطيني وسنذكر كلامه في الرد على هذا القول، والعلامة يوحنا بلما مدرس التاريخ في مدرسة نشر الإيمان، ومدرسة الاكليروس الروماني في المجلَّد الثاني من دروس التاريخ البيعي صفحة ١٦٧. ونعدل اختصاراً عن ذكر كثيرين غير

هؤلاء منهم كانيسيوس اليسوعي في مؤلفه في التعليم المسيحي وأنطونيوس بيصوين اليسوعي في كتابه الاستعداد للإيمان وباجيوس في كتابه الموسوم بسورية المقدسة وروهر بوخر في تاريخه البيعي للقرن السابع ومن ذكرنا شهاداتهم آنفاً إثباتاً لقداسة يوحنا مارون، وأضف إلى شهادات كل هؤلاء شهادات العلماء الموارنة الذين ذكرنا أسماءهم وأسماء كثير من مؤلفاتهم في العدد السالف وأبنّا أنَّ شهاداتهم لأمتهم ليست أقل قدراً من شهادة غيرهم، وأي بحث تاريخي ورد في إثباته أكثر مما أوردناه من شهادات الأحبار الأعظمين والكرادلة والقصاد وهذا العدد الوافر من العلماء المحققين ونزيد على كل ذلك بعض براهين تاريخية.

براهين تاريخية

أولاً إنَّ كل من اتَّهموا الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة زعموا أنَّهم تابعوا على هذه البدعة أحد المارونين أو كليهما والحال أننا قد أثبتنا براءة المارونين منها بكل ما مرَّ من الكلام فيهما ولاسيما شهادة الأحبار الأعظمين التي لا ترد فالموارنة إذاً براء خلا من هذه البدعة فكبرى هذا القياس ثابتة بما أوردناه من قولي سعيد بن بطريق وغوليلمس الصوري وهما وكل من شانوا الموارنة بهذه التهمة لم يسندوها إلَّا إلى أنَّ مارون كان مبتدعاً ولم يبين أحد المتهمين أصلاً لهذه التهمة إلَّا هذا، وهذا غير صحيح. فتهمتهم غير صحيحة.

ثانياً: قد مرَّ في عد ٦٩٧ ان ما بدعة المشيئة الواحدة إلَّا فرع من بدعة الطبيعة الواحدة أو نتيجة لازمة عنها، فالمشيئة والفعل خاصتان لازمتان للطبيعة فحيث وجدت طبيعة واحدة وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد كما في الثالوث الأقدس. وحيث وجدت طبيعتان وجدت مشيئتان وفعلان كما في المخلِّص، وقد أثبتنا في العدد المذكور أنَّ بدعة المشيئة الواحدة ابتدعها أصحاب الطبيعة الواحدة ولم يكن تسليمهم الموقوت بالطبيعتين إلَّا خدعة حتى إذا اعتقد غيرهم المشيئة الواحدة خلعوا ثوب الرياء وعادوا يثبتون ضلالهم القديم بأنَّ في المسيح طبيعة واحدة بضلالهم الحديث بأنَّ فيه مشيئة واحدة، وقد حققت بينات لا ترد أنَّ الموارنة أنفوا دائماً من بدعة الطبيعة الواحدة وانفصلوا عن أصحابها لاسيما السريان

منهم أي اليعاقبة وقاسوا الاضطهاد لمدافعتهم عن الطبيعتين والمجمع الخلكيدوني حتى نال إكليل الشهادة ثلثماية وخمسون راهباً من رهبان القديس مارون كما مرَّ. ويوحنا مارون كتب كتابه إيضاح الإيمان رداً على أصحاب الطبيعة الواحدة وهذا الكتاب لا ينكره عليه أحد. وقد رأيت إقوال اليعاقبة عليه وعلى الموارنة وقد ذكر كثيرون من علمائهم أنَّ أمَّة الموارنة تخالف أمتهم منهم ابن صليبا في كتابه في البدع وابن العبري في كتابه تاريخ الدول لسنة ١٦٩ للهجرة وهي سنة ٧٨٥ للميلاد حيث قال إنَّ توافيلس الرهاوي كان يدين بدين الموارنة سكان لبنان (صفحة ٢٢٠ من طبعة الآباء اليسوعيين لهذا الكتاب) فلو اعتقد الموارنة المشيئة الواحدة بالمسيح لما أنفوا من اعتقاد الطبيعة الواحدة ولا عاداهم كل من يقولون بها كل هذه العداوة ويؤيد هذا ما يأتي.

ثالثاً قد عثر الأب نو الافرنسي الذي ذكرناه مرات في لوندرة على كتاب قديم في عد ١٧٢١٦ في التاريخ يعزى إلى قيس الماروني الذي كان في القرن التاسع فأذاعه بالسريانية ثم نشر ترجمته الافرنسية هذه السنة ١٨٩٩م. ومما جاء فيه هذا التاريخ ما ذكرناه قبلاً وهو: «في سنة ٩٧٠ (يونانية توافق سنة ٦٥٩ م) وهي السابعة عشرة لقسطنت الملك . . . في شهر حزيران أتى أساقفة اليعاقبة توادورس وسبكوت إلى دمشق وأقاموا جدالاً بحضرة معاوية في الإيمان مع رؤساء بني مارون وأفحم اليعاقبة، فأمر معاوية أن يدفعوا عشرين ألف دينار وأمرهم أن يلزموا الصمت فجرت هذه العادة على أساقفة اليعاقبة كل سنة فكانوا يدفعون هذا الذهب إلى معاوية كي لا يرخي بهم يده فيضايقهم بنو البيعة. ومن كان يسميه اليعاقبة بطريركاً كان يوزع هذا المبلغ على جميع مساكن الرهبان والراهبات وغيرهم من أبناء مذهبه فيقدمونه كل سنة، وجعل نفسه ܡܪܬܚܨܐ (وفسَّر الكلمة بالعربية مكتوبة بالأحرف الكرشونية والعربية مرتخص) لمعاوية لكي يطيعه كل اليعاقبة خوفاً منه» انتهى مترجماً عن النص السرياني. فهذا الأمر يتبين منه جلياً أنَّ الموارنة كانوا يخالفون اليعاقبة في معتقدهم وانهم أفحموهم بالجدال على مذهبهم وإنَّهم كانوا على الأيمان القويم إذ سماهم المؤلف بني البيعة أي كاثوليكيين، فاذاً كان الموارنة كاثوليكيين يجادلون الهراطقة في القرن السابع. وقد نشر العالم بروكس في المجلة الأسيوية الألمانية (سنة ١٨٩٦م صفحة ٢٦٩) كتاب تاريخ لعالم يعقوبي من حران أو الرها مجهول الاسم يتَّصل تاريخه إلى سنة ٨٤٦م ومما قال فيه: «وبعد أن ملك

أبسيمار ثلاث سنين عاد يوستنيانوس من المنفى في جيش عظيم وقتل جميع رؤساء الروم فقاموا عليه وقتلوه وابنه طيبارنوس وملكوا فيهم فيلييبك سنة ونصفاً، ولما أراد أن يعقد مجمعاً ليؤيد بدعة الموارنة قام عليه الروم وسملوا عينيه وملكوا عليهم أنسطاس (الثاني . . . وقبل هذا في أيام يوستنيانوس (الأخرم) وقسطنطين (الليحاني) التي كانت فيها بدعة الموارنة سنة ٩٩٠ (يونانية توافق سنة ٦٨٩ م) في ٣ نيسان حصل زلزال » الخ. فكلام هذا المؤلف اليعقوبي الذي كان في أواسط القرن التاسع بينة حديثة قاطعة على مخالفة الموارنة لليعاقبة في معتقدهم ولو اعتقد الموارنة حينئذٍ المشيئة الواحدة كما كان اليعاقبة يعتقدون لما سمى مذهبهم الديني بدعة كما رأيت (طالع مجلة الشرق عدد ١٠ من سنة ١٨٩٩م صفحة ٤٥٧) وقد حقق السمعاني (في مقالة في المونوفيزيين) أنَّ بدعة المشيئة الواحدة لم تثبت بعد تحريمها في المجمع السادس إلّا عند أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة.

رابعاً إذا نقبنا عن تاريخ القرون التابعة إلى آخر القرن الثاني عشر الذي يزعم الخصوم أنَّ الموارنة رجعوا فيه عن بدعة المشيئة الواحدة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وجدنا آثاراً تنبئ بأنَّهم كانوا في كل هذه القرون كاثوليكيين غير ملوثين ببدعة المشيئة الواحدة فسنذكر بطاركتهم الذين كانوا في القرون التابعة وإن لم يمكنا الغموض المستحوذ على تواريخ هذه القرون من الإطِّلاع على أعمالهم وأحوالهم وما كان بينهم وبين أحبار رومة من المراسلات ويكفينا أنَّه لا يوجد خطة في رسائل الأحبار الرومانيين الذين كانوا في مدة القرون الخمسة وفي أعمال المجمعين العامين السابع والثامن اللذين عقدا فيها تشير إلى أنَّ الموارنة ابتعدوا أو اتبعوا بدعة ولو كان ذلك لما غفلوا عن ذكره، ونعلم من جهة أخرى إنَّه كان من الموارنة في القرن الثامن توافيلس الرهاوي الماروني وذكر ترجمته السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٥٢١) نقلاً عن أبي الفرج ابن العبري في تاريخ الدول لسنة ١٦٥ للهجرة، وقال إنَّه كان من مذهب الموارنة سكان لبنان المخالفين لمذهبهم. وكان أيضاً صاحب التاريخ المشار إليه آنفاً الذي ذكره المسعودي وسماه قيساً الماروني وحقق الأب نو وقبله العالم نلدك الانكليزي (الذي نشر قسماً من هذا التاريخ) إنَّ هذا الكتاب لماروني ويتبين منه أنَّه كاثوليكي. وقد كان في منتصف القرن الحادي عشر المطران داود الماروني وقد ترجم سنة ١٠٥٩م كتاب القوانين ويسمى كتابه كتاب الهدى أيضاً وقد ذكره كثيرون من علمائنا وسوف

نذكر ترجمته في محلها ومما قاله في هذا الكتاب ما رواه مرهج الباني صفحة ٨٩ من مقالته في أصل الموارنة نقلاً عن نسخة لهذا الكتاب كانت في مكتبة مدرسة الموارنة في رومية وهو: «الملكية يتفقون مع المارونية في نطق المشيئتين وقالت المارونية مشيئتين للجوهرين الإلهي والانساني» ولا عبرة لبعض التحريف الذي أدخله توما الكفرطابي على هذا الكتاب وقد أبنَّا زيفه في كتابنا روح الردود من صفحة ١٠٠ إلى ١٢٢.

هذا وقد أشرنا إلى أنَّ توما أسقف كفرطاب أتى إلى لبنان سنة ١١٠٤م وأقام فيه ست سنين يفرغ مجهوده في استغواء الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة فقاومه البطريرك يوسف الجرجسي الماروني وأرسل ينهاه عن بث هذا الضلال وناصبه ارسانيوس مطران العاقورة الذي كان ساكناً في دير ماري أدنه قريباً من يانوح فأجابه الكفرطابي برسالة يثبت بها ضلاله وكل هذا بيّن في كتاب الكفرطابي الموسوم بالمقالات العشر حيث يندب سوء حظِّه إذ لم يذعن لبدعته إلَّا خوري قرية فرشع في بلاد جبيل ونفر قليل، وانَّه عاد من بلاد الموارنة بخفيّ حنين وهذه بينة قاطعة فلو كان الموارنة يعتقدون حينئذٍ المشيئة الواحدة لما أتى توما يستغويهم بها ولا قاومه بطريركهم ومطرانهم ولم يتابعه إلَّا كاهن واحد ونفر قليل.

وقد حقَّق الأسقف جبرائيل اللحفدي القلاعي في رسالته سنة ١٤٩٤م إلى البطريرك سمعان الحدثي والبطريرك أسطفانس الدويهي في كتاب احتجاجه عن الموارنة أنَّ بطريركهم يوسف الجرجسي أرسل وفداً إلى الحبر الروماني طالباً درع التثبيت فأرسله إليه معهم البابا بسكال الثاني الذي رقي إلى الكرسي الرسولي سنة ١٠٩٩م وأنَّ البابا إينوشنسيوس الثاني أرسل إلى المشرق الكردينال غوليلمس سنة ١١٣٠م فجدَّد بطريرك الموارنة وأساقفة وأعيان ملته إعلان طاعتهم للحبر الروماني بحضرة الكردينال المذكور في مدينة طرابلس فكل ما مرَّ كان قبل سنة ١١٨٢م التي زعم أكثر متهمي الموارنة أنَّهم رجعوا فيها عن بدعة المشيئة الواحدة.

والحاصل من كل ما أوردناه إلى الآن أنَّ الموارنة كانوا قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة يناضلون عن الإيمان الكاثوليكي والمجمعين الأفسسي والخلكيدوني حتى باراقة دمهم، وعند ظهور بدعة المشيئة الواحدة وانتشارها كانوا يناصبون أصحابها وكان بطريركهم يوحنا مارون يفند مزاعمهم بكتبه وخطبه تحقيقاً لامال شعبه بأن

يقيهم فسادها كما صرّح العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر وفي الحقبة التي كانت من وفاته إلى سنة ١١٨٢م التي زعم خصومهم أنّهم رجعوا فيها عن البدعة كانوا متشبثين دائماً بعرى الإيمان الكاثوليكي كما أثبتناه بكل ما مرَّ ولاسيما بهذه البراهين الأخيرة، وإن صحَّ شيء مما رواه غوليلمس عن ارتجاعهم سنة ١١٨٢م يلزم قصره على أفراد منهم كما أثبت العلامة لكويان في المشرق المسيحي وسوف نبيِّن ذلك في محله إن شاء الله. وأمّا الأمة بجملتها فكانت في كل وقت كاثوليكية براء خلاء من كل ضلال يخالف الإيمان القويم وسوف نرد دعوى كل معترض عليهم أو متهم لهم في كلامنا عليهم في تاريخ كل من القرون الذي كان لهم فيه متهم أو معترض ولما كان بعضهم يورد عليهم قولاً لتيموتاوس القسطنطيني زاعماً أنّه كان في هذا القرن السابع رأينا أن نرده هنا.

عد ٧١٤

تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة

إنَّ لتيموتاوس هذا القسطنطيني مقالة في من يقتربون إلى الكنيسة ألّفها وهو قس ونشرها كمبيفيسيوس في المجلّد الثاني صفحة ٤٥٩ من تأليفه فاذا فيها فقرة هذه ترجمتها: «إنَّ الموارنة الذين ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس ويزيدون الصلب على التقديسات الثلاثة ويقولون بمشيئة واحدة وفعل واحد بالمسيح سموا موارنة من دير مارون في سورية». فحجّ الموارنة خصومهم بهذه الفقرة وانخدع بها من لم يترووا فيها. وفي العصر الذي كان فيه تيموتاوس ومنهم نطاليس اسكندر في تاريخ القرن السابع وعنه أخذ القديس ليكوري في كتابه تاريخ البدع ودحضها على أنَّ المحققين كشفوا عن بطلان هذا الزعم وفندوه بأدلة كثيرة قاطعة أولها أنَّ تيموتاوس هذا كان قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بنحو قرن كامل وقبل المجمعين الخامس والسادس. قال السمعاني (في المجلّد الأوَّل من المكتبة الشرقية صفحة ٢٩١ في الحاشية): «إنَّ تيموتاوس هذا كان قساً في كنيسة قسطنطينية الكبرى، ثم خلف مكدونيوس بطريركها سنة ٥١١ كما شهد غوليلمس كافيوس مجلّد ٢ من تاريخه للعلماء صفحة ١٠١ وتوادورس القاري ك ٢ صفحة ٥٦٣ وكتابه المعنون في من يقتربون إلى ديننا الطاهر مثبت في كتب

الروم الطقسية وقد ألَّفه وهو كاهن». وجاء في التاريخ الرهاوي في كلامه في الملك أنسطاس: «إنَّه مكدونيوس البطريك القسطنطيني لأنَّه أبى أن ينبذ المجمع (الخلكيدوني) وأقام تيموتاوس خلفاً له». (ذكره السمعاني في المحل المذكور صفحة ٤٠٨) ومن البيِّن أنَّ الملك أنسطاس كان في بدء القرن السادس وقال كافيوس في المحل المذكور إنَّ تيموتاوس كان في أوائل القرن السادس كما يظهر من رسالة كتبها إليه البابا هرمزدا. ومما لا مرية فيه أنَّ هذا البابا كان في أوائل القرن السادس وقد طبع العلامة كوتيلاريوس كتاب تيموتاوس هذا وقال فيه صفحة ٣٧٧: «أظنه كان قبل أن تظهر بدعة المشيئة الواحدة لأنَّه لم يأت بذكرها. فظهر من ذلك جلياً أنَّ تيموتاوس كان في القرن السادس قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بقرن كامل فانَّى استطاع أن يثبت أنَّ الموارنة توحدوا فيها فهذه الفقرة إذاً زيدت على كتابه بيد أخرى متأخرة عن أيامه.

الثاني إنَّ كوتيلاريوس طبع كتاب تيموتاوس في الكتاب الثالث من تأليفه في آثار الكنيسة اليونانية صفحة ٣٧٧ عن نسخة كرميزارس الذي أثنى عليه كمبيفيسيوس كثيراً ولا ذكر فيه للموارنة، ولذلك قال السمعاني في المحل المذكور صفحة ٥٠٩ انَّ الكلمات المعزوة لتيموتاوس هي مدخلة في كتابه من يد روپمي متأخِّر كما يظهر من نصِّه الصحيح الذي طبعه كوتيلاريوس.

الثالث لا مرية في أنَّ العبارة الأولى من الفقرة المذكورة وهي: «إنَّ الموارنة ينبذون المجامع الرابع والخامس» هي كاذبة ولا يدعنا كل ما أوردناه حتى الآن أن نرتاب بكذبها، وهي أس بني عليه ما تلاها فإن سقطت لم يثبت ما بني عليه. ومما لا شكَّ فيه أنَّ خصوم الموارنة أنفسهم لا يشكونهم ببدعة الطبيعة الواحدة أو بالمخالفة لرسوم المجمع الخلكيدوني لتشبثهم برسومه بل عيّروهم بذلك ودعوهم خلكيدونيين، وكان هذا المجمع محور الجدال بين الموارنة واليعاقبة. وقال فيهم ابن العبري في كلامه في توافيلس الرهاوي إنَّه من الموارنة الذين هم إحدى فرق النصرانية أي من غير أمته ولذلك قال السمعاني (في المحل المذكور صفحة ٥٢١) بأثر إيراده قول ابن العبري هذا: «هوذا ما يقوله في الموارنة هذا المؤلف اليعقوبي. وهو دال على كذب تيموتاوس القس او اياً كان القائل لما رواه كمبيفيسيوس من أنَّ الموارنة ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس فلو كان هذا صحيحاً لما ميزهم ابن العبري عن ملته ولما جعلهم ملة قائمة بنفسها».

وقد ذيل الأب منسي المدقق التسهير قول نطاليس اسكندر بحاشية هذه ترجمتها: «إنَّ قول تيموتاوس هذا في الموارنة وإن كان ثابتاً في طبعة كمسيفيسيوس فلا وجود له في النسخة التي طبعها كوتيلاريوس في آثار الكنيسة اليونانية في المجلَّد الثالث صفحة ٣٧٧، ولذا يظن أنَّه زيد عليها بيد متأخِّرة إن صحَّ ظن كوتيلاريوس أنَّ تيموتاوس كان قبل المجمع السادس والنسخ التي يعد فيها الموارنة من أصحاب المشيئة الواحدة يقال فيها: «إنَّ الموارنة الذين ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس ويزيدون الصلب على التقديسات الثلاثة ويقولون بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح». فهذه الكلمات مشكوك فيها كما أشرت لأنَّ بدعة المشيئة الواحدة لم تحرَّم إلَّا في المجمع السادس ولا عجب إذا وجدنا هذه العبارة في بعض النسخ لأنَّ كتاب تيموتاوس هذا من جملة الكتب الطقسية التي تلحق بها كل كنيسة زيادات كإيثارها على أنَّ السمعاني أثبت في مكتبته الشرقية (مجلَّد ١ صفحة ٥٢١) أنَّ الموارنة براء من هذه البدعة خاصة». ولما كان القديس الفونس ليكوري اغتر في كتابه تاريخ البدع بقول نطاليس اسكندر المذكور فذيلنا ترجمتنا لكتابه المذكور بحاشية ضمناها بعض ما أوردناه هنا .

الباب الثامن

تاريخ سورية في القرن الثامن

القسم الأوَّل

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأوَّل

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن الثامن

عد ٧١٥

الوليد بن عبد الملك بن مروان

فرغنا من كلامنا في تاريخ الخلفاء في القرن السابع بذكر وفاة عبد الملك بن مروان وبعد وفاته بويع بالخلافة الوليد ابنه سنة ٨٦ للهجرة الموافقة لسنة ٧٠٥ للميلاد فكان السادس من خلفاء بني أميّة. وقال الوليد بعد دفن أبيه إنّا لله وإنّا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة. قالوا فكان أوَّل من عزى نفسه وهناها وقام عبدالله بن همام السامولي وهو يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى الله إلَّا سوقها إليك حتى قلدوك طوقها

وبايعه ثم بايعه الناس بعده ومما قاله في خطبته حينئذ: «أيُّها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإنَّ الشيطان مع المنفرد». وقد فتحت في أيامه الفتوحات الكثيرة منها فتح الأندلس فتحها طارق بن زياد وقصد أولاً إلى جبل منيف متَّصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق إلى اليوم والمضيق الذي هناك مضيق جبل طارق. وولى الحجاج خراسان مع العراقين فتغلغل في بلاد الترك وتغلغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الروم وفتح محمَّد بن القاسم الثقفي الهند وولي الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل في دار جده مروان ودعا عشرة من فقهاء المدينة فقال لهم لا أريد أن أقطع أمراً إلَّا برأيكم فما علمتموه من تعدي عامل أو من ظلامة فاعلموني به، فشكروا له وجزوه خيراً ودعا الناس له. وكتب الوليد إليه أن يوسع بناء المسجد وأن يدخل بيوت أزواج النبي في المسجد ويشتري ما في نواحيه حتى يجعله مئتي ذراع في مئتي ذراع. وقال من أبى أن يعطيك ملكه فقومه قيمة عدل وادفع إليه الثمن فأعطاه أهل الأملاك ما أحبَّ منها بأثمانها، وبعث الوليد إلى ملك الروم أنَّه يريد بناء المسجد فبعث إليه بمئة ألف مثقال من الذهب ومئة من الفعلة وأربعين جملاً من الفسيفساء فإن صحَّ أنَّ ذلك كان للسنة الثانية لخلافة الوليد كان ملك الروم الذي بعث هذه الهدايا يوستنيانس الثاني الأخرم بعد عوده إلى الملك لأنَّه استمرَّ على منصته إلى سنة ٧١١ وبنى الوليد أيضاً جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فأنفق عليه أموالاً عظيمة تجل عن الوصف. وعن ابن خلدون: «إنَّه لما أراد بناء مسجد دمشق كانت في موضعه كنيسة فهدمها وبناها مسجداً وشكوا ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال نرد عليكم كنيستكم ونهدم كنيسة توما فإنَّها خارج المدينة مما فتح عنوة ونبنيها مسجداً فتركوا ذلك». وعن أبي العباس القرماني في تاريخ الدول أنَّ الكنيسة كانت على اسم يوحنا فهدمها وزادها في الجامع. وكذلك روى أبو الفداء وأنَّ سليمان أخاه كمَّل عمارة هذا الجامع وإنَّ الوليد أيضاً بنى قبة الصخرة ببيت المقدس، وفي أيامه توفي الحجاج والي خراسان والعراقين وكانت مدة ولايته عشرين سنة. قال أبو الفداء قيل إنَّه احصي مس قتلهم الحجاج فكانوا مئة وعشرين ألفاً ثم توفي الوليد سنة ٩٦ للهجرة وهي سنة ٧١٥م وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر ودفن بدمشق خارج الباب الصغير. قال أبو الفداء أيضاً كان الوليد لحاناً دخل عليه إعرابي يشكو صهراً له فقال الوليد ما شأنك بفتح النون فقال الإعرابي أعوذ بالله من الشين فقال له سليمان بن عبد

الملك أمير المؤمنين يقول ما شأنك بضم النون فقال الإعرابي ختني (ظلمني) فقال الوليد من ختنك بالفتح فقال الإعرابي إنّما ختني الحجام وليس أريد ذا. فقال سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين من ختنك بالضم فقال هذا وأشار إلى خصمه. وكان أبوه عبد الملك فصيحاً وعرف بلحن ابنه فقال له إنّك يا بنيَّ لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب، فمكث الوليد كذلك مدة ولم يستفد (ملخَّص عن ابن الأثير في الكامل وابن خلدون وأبي الفداء في تاريخهما والقرماني في تاريخ الدول).

عد ٧١٦

سليمان بن عبد الملك بن مروان

هو السابع من خلفاء بني أمية بويع بالخلافة لما مات أخوه الوليد في جمادى الأخرى سنة ٩٦ للهجرة وهي سنة ٧١٥ للميلاد وأحسن السيرة وردَّ المظالم واتَّخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً وغزا أخوه مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم وفي سنة ٩٦ وهي سنة ٧١٥م خرج سليمان بالجيوش لغزو قسطنطينية ونزل بمرج دابق (في جهة قنسرين) وسير أخاه مسلمة إلى قسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها، فشتى مسلمة على قسطنطينية وزرع الناس بها الزرع وأكلوه حتى جاءه الخبر بموت سليمان أخيه فانصرف عنها (عن أبي الفداء في تاريخه صفحة ٢١١) وقد روى المؤرخون اليونان توافان وشدرانس وغيرهما غزوة مسلمة هذه إلى قسطنطينية وقالوا لما كان الشتاء في تراسة قاسياً شديداً وكان الثلج يغطي وجه الأرض نحواً من مئة يوم اشتدَّ الضيق على العرب وهلك كثير من خيلهم وجمالهم وبغالهم وفي فصل الربيع أتتهم نجدة من مصر وإفريقيا ووثبوا ليلاً على قسطنطينية حتى غطَّت سفنهم وجه البحر، ولكن هبَّت ريح عاصفة فأتلفت كثيراً من السفن وغرق كثيرون وسطا الروم على جيشهم في البر فتقهقروا وكان أهل آسيا يكمنون لهم ويرصدونهم على طريقة المردة (هذه كلمة شدرانس وأنسطاس المكتبي) فيقاتلونهم وأضرَّ بهم القحط وخلوهم من الزاد حتى أُلجئوا إلى أكل لحم البهائم. هذا ملخص ما رواه هؤلاء المؤرخون ولربما بالغوا في وصف خسائر العرب ومضارهم. وقد جاء في تاريخ ابن خلدون ما يشعر بذلك إذ قال (صفحة ٧١ من

الجزء الثالث) إنَّ مسلمة صاف وشتى محاصراً قسطنطيبية وأمر الناس بالزراعة فأتاه القون (يريد لاون الذي صار عندئذٍ ملكاً وهو لاون الايسوري) فقال له لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنَّك قصدتهم بالقتال فتأخذهم باليد وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنَّك تطاولهم فاحرق الزرع فقوى الروم وأصاب الناس الجوع فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وسليمان مقيم بدابق وحال الشتاء بينهم وبينه . فلم يقدر أن يمدهم حتى مات. وقد شرح ذلك ابن العبري (في تاريخ الدول ١٩٦) فقال : قالت الروم للاون البطريق ان صرفت عنا المسلمين ملكناك علينا واستوثق منهم وأتى مسلمة . .. ووعده أن يفتح له المدينة، غير أنه لا يتهيأ ذلك ما لم يتنحَّ عنهم ليطمئنوا ثم يكرّ عليهم فتنحى مسلمة ودخل لاون فلبس التاج وقعد على سرير الملك، واعتزل الملك توادوسيوس ولبس الصوف معتكفاً في بعض الكنائس . .. وأصبح لاون محارباً وقد خدع مسلمة خدعة لو كانت امرأة لعيبت بها وبلغ الخبر مسلمة فأقبل راجعاً ونزل بفناء قسطنطينية ثلاثين شهراً فشتى فيها وصاف ولقي جنده ما لم يلقه جيش آخر حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من العسكر وحده خوفاً من البلغاريين الذين استجاشهم لاون، ومن الافرنج الذين في السفن، ومن الروم الذين يحاربونهم من داخل وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وسليمان مقيم بدابق ونزل الشتاء فلم يقدر أن يمدهم حتى مات وانصرف مسلمة عن قسطنطينية .

وروى أبو الفداء والقرماني أنَّ سليمان كان نهماً كثير الأكل وبالغوا بوصف كثرة أكله حتى مات متخوماً وقد اصطنعوا الكنافة في أيامه فكان يتسحَّر في ليالي رمضان بكثير منها وهو الذي كمل عمارة الجامع الأموي كما مرَّ وكانت وفاته في صفر سنة ٩٩ لهجرة وهي سنة ٧١٨ للميلاد وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر .

عد ٧١٧
عمر بن عبد العزيز

هو الثامن من خلفاء بني أمية أوصى إليه بالخلافة سليمان بن عبد الملك لما اشتدَّ مرضه، وكان ابن عمه ووزيره وبويع بالخلافة في شهر صفر سنة ٩٩ هـ وهي

سنة ٧١٨ م ومن بواكير أعماله أنَّه أبطل سب علي بن أبي طالب وكان خلفاء بني أمية يسبونه في خطبهم على المنابر مذ سنة ٤١ التي خلع الحسن ابنه نفسه من الخلافة وكتب عمر إلى نوابه بابطاله ولما خطب بدل السب في آخر الخطبة بقراءة الآية «إنَّ الله يأمر بالعدل والاحسان وابناء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون فلم يسب علي بعد ذلك وقد مدح ابن عبد الرحمن الخزاعي عمر فقال:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف بريأ ولم تتبع سجية مجرمِ
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي فعلت فاضحى راضيـاً كل مسلمِ

(عن أبي الفداء صفحة ٢١٢ من المجلَّد الأوَّل). وروى القرماني أنَّه كان عفيفاً زاهداً ناسكاً ولما استخلف قومت ثيابه فإذا هنَّ يعدلنَّ اثني عشر درهماً، وانه قال في خطبته بعد مبايعته أيُّها الناس من أطاع الله تعالى وجبت طاعته ومن يعصو الله عزَّ وجلَّ فلا طاعة له أطيعوني ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. وكان لامرأته فاطمة بنت عبد الملك جواهر أمر لها بها أبوها فقال لها إمَّا أن تردي حليك إلى بيت المال وإمَّا أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن أكون أنا وأنتِ وهو في بيت واحد. قالت لا بل اختارك عليه وعلى اضعافه فأمر فوضع في بيت مال المسلمين، ولما مات وخلفه يزيد قال لها إن شئت رددت إليك حليك قالت لا والله لا أطيب به نفساً في حياته وارجع إليه بعد موته. قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على عمر بن عبد العزيز اعوده في مرضه الذي مات فيه فإذا عليه قميص مسخ فقلت لفاطمة اختي أغسلي ثوب أمير المؤمنين فإنَّ الناس يعودونه فقالت والله ما له قميص غيره وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أنَّ بعض عماله كتب إليه إنَّ مدينتنا خرجت فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمها به فكتب إليه عمر إذا قرأت كتابي هذا فحصّنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فانَّه مرمتها والسلام.

قال أبو الفداء وتوفي عمر بن عبد العزيز لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ وهي سنة ٧٢٠ م وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وعمره أربعين سنة وكانت وفاته بخناصره ودفن بدير سمعان، وقيل توفي في دير سمعان ودفن به. قال القاضي جمال الدين بن واصل مؤلف التاريخ المنقول هذا الكلام منه والظاهر عندي أنَّ دير سمعان هو المعروف الآن بدير القيرة من عمل معرة النعمان، وأنَّ قبره هو

هذا المشهور وكان موته بالسم عند أكثر أهل النقل. فإنَّ بني أمية علموا أنَّه إن امتدَّت أيامه أخرج الأمر من أيديهم وانه لا يعهده بعهده إلَّا لمن يصلح للأمر فعاجلوه وما أمهلوه انتهى كلام أبي الفداء وعن القرماني وعن ابن عساكر أن عمر شدَّد على أقاربه وانتزع كثيراً مما غصبوه فسقوه السمَّ.

عد ٧١٨

يزيد بن عبد الملك بن مروان

هو التاسع من خلفاء بني أمية بويع بالخلافة لما مات عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ وهي سنة ٧٢٠ م عملاً بعهد أخيه سليمان بن عبد الملك أن تكون الخلافة له بعد عمر وفي السنة الأولى لخلافته خرج عليه يزيد بن المهلَّب والي خراسان وكان عمر بن عبد العزيز حبس ابن المهلَّب ففرَّ من الحبس لما بلغه خبر مبايعة يزيد ابن عبد الملك، واجتمع إليه جمع فأرسل يزيد بن عبد الملك الخليفة أخاه مسلمة فقاتله وقتله وجميع آل المهلب وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة ولما فرغ مسلمة من حربهم ولاه أخوه يزيد على العراق وجمع له ولاية البصرة والكوفة وخراسان، وفي السنة الثانية لخلافته توفي عبيدالله بن عبدالله بن عتبة أحد الفقهاء السبعة بالمدينة وهم الذين انتشر عنهم الفقه والفتيا وقد نظم بعض الفضلاء أسماءهم فقال:

إلَّا كل من لا يقتدي بائمةٍ فقسمته ضئزى عن الحق خارجه
فخذهم عبدالله عروة قاسم سعيد سليمان أبو بكر خارجه

وسنأتي على ذكر بعضهم في جملة المشاهير (عن أبي الفداء وابن خلدون) وعن القرماني ان يزيد لما ولي قال خذوا بسيرة عمر بن عبد العزيز (سالفه) وسار بسيرته مدة فدخل عليه أربعون رجلاً من مشايخ دمشق وحلفوا له أن ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب في الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم، وكانت طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك. وأقبل على لذاته حتى قال يوماً إنَّ بعض الناس يقولون إنَّه لن يصفو لأحد من الملوك يوم واحد كاملاً من الدهر وإني أريد أن أكذبهم في ذلك، واختلى مع حبابة جاريته وأمر أن يحتجب عن سمعه وبصره

ما يكره فبينما هو على تلك الحال في صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حبابة رمانة وهي تضحك فغصت بها وماتت فنكد عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً. (وعن ابن العبري في تاريخ الدول أنَّ حبابه خرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فاستقبلتها بفيها فغصت بها وشرقت ومرضت بها وماتت. وهو مرض فمات بعدها سنة ١٠٥ لخمس بقين من شعبان وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً.

عد ٧١٩
هشام بن عبد الملك

إنَّ يزيد عهد بالخلافة بعده إلى هشام أخيه ابن عبد الملك وإلى ابنه الوليد من بعد هشام لأنَّ ابنه كان صغيراً عمره إحدى عشرة سنة فبعد وفاته بويع أخوه هشام بالخلافة سنة ١٠٥ هـ وهي سنة ٧٢٤م فكان العاشر من خلفاء بني أمية وفي أيامه أي في سنة ١٢١ وقيل سنة ١٢٢ هـ وهي سنة ٧٤٠ أو سنة ٧٤١ م خرج زيد ابن علي بن الحسين بن علي أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه وبايعه جمع كثير وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفي فجمع العسكر وقاتل زيداً فأصاب زيداً سهم في جبهته فمات فتطلبه يوسف حتى دل عليه واستخرجه وصلب جثته وبعث برأسه إلى هشام فأمر بنصب الرأس بدمشق ولم تزل جثته مصلوبة حتى مات هشام وولي الوليد فأمر بحرق جثته فأحرقت (أبو الفداء صفحة ٢١٥ من تاريخه). وعن ابن العبري (في تاريخ الدول صفحة ٢٠٠) إنَّ الشيعة تواعدوا بالخروج وجاءوا إلى زيد فقالوا ما تقول في أبي بكر وعمر فقال لا أقول فيهما إلَّا خيراً فتبرأوا منه ونكثوا بيعته وسعوا به إلى يوسف فبعث في طلبه قوماً فحاربوه وقتلوه كما مرَّ. وعن ابن الأثير في الكامل قيل ضرب رجل نصراني غلاماً لمحمَّد بن هشام فشجه فذهب خصي لمحمَّد فضرب النصراني وبلَّغ هشاماً الخبر وطلب الخصي فعاذ بمحمَّد ابنه فقال له محمَّد ألم آمرك فقال الخصي بلى والله قد أمرتني فضرب هشام الخصي وشتم ابنه وقال عبدالله بن علي ابن عبدالله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أرَ ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام ... وتفقد هشام بعض ولده فلم يحضر الجمعة فقال ما

منعك من الصلوة قال نفقت دابتي قال أفعجزت عن المشي فمنعه الدابة سنة وقيل له أتطمع في الخلافة وأنت بخيل جبان قال ولم لا أطمع فيها وأنا حليم عفيف. قالوا وكان هشام حازماً عاقلاً ذا رأي ومضاء وعزم وقلّة شر وانّه جمع من المال ما لم يجمعه خليفة قبله وفي أيامه غزا مسلمة أخوه إلى آسيا الصغرى حتى قسطنطينية فغنم وعاد.

قد توفي هشام سنة ١٢٥ هـ وهي سنة ٧٤٣م وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وبعض أيام ووفاته في الرصافة على عدوة الفرات ودفن فيها قال توافان (في تاريخه لسنة ٧٣٤ على مذهبه): «في هذه السنة توفي هشام أمير العرب وقد أعاد كنيسة أنطاكية المقدَّسة إلى حالتها الأولى فإنّها خلت من راع لها مدة أربعين سنة فإنَّ العرب كانوا قد نهوا عن انتخاب بطريرك لها وكان لهشام صديق راهب اسمه أسطفانس وكان أمياً لكنَّه شهير بسيرته الصالحة فأباح المسيحيين في الشرق أن يختاروا بطريركاً بشرط أن ينتخبوا هذا الراهب فرأوا أنَّ هذه إرادة الله فاختاروا أسطفانس بطريركاً على مدينة الله أنطاكية واستمروا على عادتهم هذه إلى اليوم دون أن يمنعهم المسلمون عن انتخاب بطريرك». وكان بين هشام والوليد ابن أخيه الذي خلفه ولما توفي هشام ضبط عياض كاتب الوليد كل ما كان له حتى لم يعطهم ما يسخنون الماء فيه لغسله فاستعاروا من الجيران قمقماً لتسخين الماء (عن أبي الفداء في المحل المذكور).

عد ٧٢٠
الوليد بن يزيد بن عبد الملك

هو الحادي عشر من خلفاء بني أمية كان الوليد مقيماً في البرية خوفاً من هشام في أسوأ حال مع أصحابه، ولما اشتدَّ الضيق أتاه الفرج بموت هشام فبويع بالخلافة يوم الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ وهي سنة ٧٤٣ م وعكف الوليد على شرب الخمر وسماع الغناء ومعاشرة النساء واستخفَّ بالدين (عن ابن الأثير وأبي الفداء والقرماني وغيرهم) وضيق على أهل هشام وأصحابه. وكان يقول كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به اصبعاً لكنه لم يخلُ من المبرات فانه لما ولي أجرى على زمني أهل الشام وعميانهم وكساهم وزاد الناس في العطاء

عشرات ولم يقل في شيء يسأله لا بل التمس بعضهم عذراً له وبرَّأ ساحته بأنَّه كان محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته من بني عمومته مع لهو كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه، وكان خلاله قرض الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ. قال يوماً لهشام يعزيه في مسلمة أخيه أن عقبى من بقي لحوق من مضى وعلى أثر ما سلف يمضي من خلف فتزوَّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى. وقالوا لما تعرض له بنو عمه ونالوا من عرضه أخذ في مكافأتهم فضرب سليمان ابن عمِّه هشام مائة سوط وغرّبه إلى معان من أرض الشام فحبسه إلى آخر دولته، وحبس أخاه يزيد بن هشام وفرق بين ابن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد فرموه بالفسق والكفر. وقد كان عهد بالخلافة لابنيه الحكم وعثمان مع صغرهما فازدادوا حنقاً عليه وكان أشدهم عليه في ذلك يزيد بن الوليد لأنَّه كان يتنسك، فكان الناس إلى قوله أميل، وأفسدوا الرعية عليه (ابن خلدون جزء ٣ من تاريخه صفحة ١٠٦).

فثارت الرعية على الوليد وبايعوا يزيد بن الوليد الأوَّل فركب الوليد بمن بقي معه وقاتل قتالاً شديداً ثم انهزم عنه أصحابه، فدخل القصر وأغلقه فحاصروه ودخلوا إليه وقتلوه وأخذوا رأسه وسيروه إلى يزيد بن الوليد فسجد يزيد شكراً لله ووضع الرأس على رمح وطيف به في دمشق. وكان قتله لليلتين بقيا من جمادى الاخرة سنة ١٢٦ هـ وهي سنة ٧٤٥ م وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر.

عد ٧٢١
يزيد بن الوليد الأوَّل

هو الثاني عشر من خلفاء بني أمية استقرت له الخلافة بعد مقتل الوليد الثاني في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ الموافقة لسنة ٧٤٥م، وقد نقص الجند العشرات التي زادها الوليد سالفه وقررهم على ما كانوا عليه أيام هشام، ولذلك سموه الناقص. وكان محمود السيرة مرضي الطريقة وقد خالفه أهل حمص وهجموا دار أخيه العباس بحمص ونهبوا ما بها وسلبوا حرمه وأجمعوا على المسير إلى دمشق لحرب يزيد، فأرسل إليهم عسكراً والتقوا قرب ثنية العقاب فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أهل حمص واستولى عليها يزيد وأخذ البيعة عليهم. ثم اجتمع أهل فلسطين

فوثبوا على عامل يزيد فأخرجوه من فلسطين وأحضروا يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه عليهم ودعا الناس إلى قتال يزيد الخليفة، فأجابوا إلى ذلك. وبلغ الخليفة خروجهم فأرسل إليهم جيشاً مع سليمان بن هشام بن عبد الملك ووعد كبراء فلسطين ومناهم فتخاذلوا عن صاحبهم، ولما قرب منهم الجيش تفرقوا وقد جيّش سليمان في أثر يزيد بن سليمان الخارج فهزمه وسار حتى نزل طبرية وأخذ البيعة بها ليزيد الخليفة ثم سار حتى نزل الرملة وأخذ البيعة على أهلها أيضاً للخليفة المذكور (عن أبي الفداء صفحة ٢١٧)، وكانت أمه اسمها شاه فرند ابنة فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى قال:

أنا ابن كسرى وأبي مروانُ ... وقيصر جدي وجدي خاقانُ

وإنّما جعل قيصر وخاقان جديه لأنَّ امَّه فيروز كانت ابنة كسرى وأمها ابنة قيصر وأم كسرى خاقان ملك الترك (عن ابن العبري في تاريخ الدول صفحة ٢٠٤ وعن ابن الأثير في الكامل). ولكن روى البلوي البيت هكذا:

كسرى أبو أمي أبى ابن مروان ... وقيصر جدي وجدي خاقان

وهذه الرواية أصح. قال القرماني نقش خاتمه يا يزيد قم بالحق تنصر. وعن ابن الأثير أنَّه نقشه العظمة لله. وقبل وفاته عهد بالخلافة إلى أخيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وتوفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦هـ وهي سنة ٧٤٥م وكانت خلافته ستة أشهر وليلتين وقيل خمسة أشهر واثني عشر يوماً وكان موته بدمشق.

عد ٧٢٢

ابراهيم بن الوليد الأوَّل ابن عبد الملك

هو الثالث عشر من خلفاء بني أمية قام بالخلافة بعد موت أخيه يزيد غير أنَّه لم يتم له الأمر وكان يسلم عليه بالخلافة تارة، وتارة بالامارة فمكث أربعة أشهر وقيل سبعين يوماً ودخلت سنة ١٢٧ هـ وهي سنة ٧٤٦م وفيها سار مروان بن محمَّد ابن مروان بن الحكم أمير ديار الجزيرة إلى دمشق الشام لخلع ابراهيم بن الوليد ولما وصل إلى قنسرين اتَّفق معه أهلها وساروا معه إلى حمص، فبايع أهلها مروان وساروا معه أيضاً، ولمَّا قرب مروان من دمشق بعث ابراهيم لقتاله الجنود مع

سليمان بن هشام عبد الملك، وكان جيشهم مائة وعشرين ألفاً وجيش مروان ثمانين ألفاً فاقتتلوا من ارتفاع النهار إلى العصر وكثر القتلى بينهم إلى أن انهزم عسكر ابراهيم ووقع فيهم القتل والأسر وهرب سليمان في من هرب إلى دمشق، واجتمعوا مع ابراهيم واختفى ونهب سليمان بن هشام بيت المال وقسمه في أصحابه وخرج من دمشق (أبو الفداء صفحة ٢١٨ من تاريخه). وعن القرماني ان ابراهيم جاء بعد ذلك إلى مروان وخلع نفسه من الأمر وسلمه إلى مروان، وبايعه طائعاً وعاش بعد ذلك إلى سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥١م وقتل في من قتل من بني أمية في وقعة السفاح الآتي ذكرها.

عد ٧٢٣

مروان بن محمَّد بن مروان بن الحكم

وهو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم بويع بالخلافة في دمشق سنة ١٢٧هـ وهي سنة ٧٤٦ م ولما استقرَّ له الأمر رجع إلى منزله بحران وأرسل ابراهيم بن الوليد المخلوع من الخلافة وسليمان بن هشام المار ذكره فطلبا منه الأمان فأمنهما. فقدما عليه ومع سليمان اخوته وأهل بيته فبايعوه. ومن الأحداث في أيام مروان أنَّ أهل حمص عصوه فسار من حران إليهم فسدَّ أهل المدينة أبوابها فأحدق بها ثم فتحوا له الأبواب وأظهروا طاعته ثم وقع بينهم قتال فقتل من أهل حمص خلقاً كثيراً وهدم بعض سورها وصلب جماعة من أهلها، ولم ينته من إخضاعهم إلَّا وجاءه الخبر بأنَّ أهل غوطة دمشق ثاروا عليه وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحاصروا دمشق فأرسل مروان عشرة آلاف فارس مع أبي الورد بن الكوثر وعمرو بن الصباح ولما وصلوا إلى قرب دمشق حملوا على أهل الغوطة وخرج من دمشق عليهم أيضاً فانهزم أهل الغوطة ونهبهم العسكر وأحرقوا المزة وقرى غيرها. وعقب ذلك خلاف أهل فلسطين وفي مقدمتهم ثابت بن نعيم فكتب مروان إلى أبي الورد المذكور يأمره بالمسير إليهم فسار واقتتلوا وانهزم ثابت بن نعيم على طبرية وتفرَّق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده فبعث بهم أبو الورد إلى مروان وأعلمه بالنصر ثم سار مروان إلى قرقيسيا فثار عليه سليمان بن هشام المذكور فخلعه. واجتمع إلى سليمان سبعون ألفاً من أهل الشام وعسكر معهم بقنسرين فسار إليه مروان والتقوا بأرض قنسرين وجرى

بينهم قتال شديد إلى أن انهزم سليمان وعسكره وأتبعتهم خيل مروان يقتلون ويأسرون وكانت القتلى من عسكر سليمان تزيد على ثلاثين ألفاً. ووصل سليمان إلى حمص فاجتمع إليه أهلها وبقية المنهزمين فلحقهم مروان وهزمهم ثانية وهرب سليمان إلى تدمر، وعصي أهل حمص فحاصرهم مروان مدة طويلة ثم طلبوا الأمان واستسلموا إلى مروان وسلموا إليه من كان عليهم من الولاة من قبل سليمان فأجابهم إلى ذلك وامنهم (عن أبي الفداء في تاريخه صفحة ٢١٩).

وفي أيام مروان ظهرت دعوة بني العباس في خراسان وبنو العباس ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم، فالعباس عم النبي وقد دعوا الناس إلى مبايعتهم بالخلافة أولاً سراً فأجابهم الناس إلى ذلك ومكثوا يكتمون الأمر إلى أن أظهروه سنة ١٢٩ هـ وهي سنة ٧٤٨م، وكان منهم رجل يسمى ابراهيم وهو ابن محمَّد بن علي ابن عبدالله بن العباس ويلقَّب بالإمام، وكان مقام ابراهيم الإمام وأهله بالشراة من الشام بقرية يقال لها الحميمة بينها وبين الشوبك أقل من مسيرة يوم (على ما قال أبو الفداء) وكان يدبر هذه الثورة وكتب أحد عمال مروان له أبيات شعر وهي:

أرى تحت الرماد وميض نارٍ وأوشك أن يكون لها ضرام[1]
فإن لم يطفها عقلاءُ قومٍ يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أميَّة أم نيام؟

فأمر مروان عامله بالبلقاء أن يسيِّر إليه ابراهيم فشده وثاقاً وبعث به إليه فألقاه مروان بالحبس في حران حتى مات وقيل إنَّه مات مسموماً. وكان لما مسكه مروان قد كتب إلى أهله ينعي نفسه، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس السفاح. فسار السفاح بأهل بيته منهم أخوه أبو جعفر المنصور وغيره إلى الكوفة فأقاموا بها متخفِّين.

ثم ظهروا في شهر ربيع الأوَّل سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥٠ م فسلم الناس على أبي العباس السفاح بالخلافة وعزوه في أخيه ابراهيم الإمام الذي كان قد توفي فدخل دار الامارة بالكوفة صبيحة يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأوَّل، ثمَّ خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس وحضهم على الطاعة ثم عاد إلى القصر

(١) وفي رواية اخرى: ويخشى ان يكون لها ضرام.

وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور يأخذ له البيعة علي الناس، وكان مروان بحران وبلغته هذه الأخبار فسار منها طالباً أبا عون عبد الملك بن يزيد الازدي المستولي على شهرزور من جهة بني العباس ووصل إلى الزاب وحفر عليه خندقاً وكان في مئة وعشرين ألفاً، وسار أبو عون من شهر زور إلى الزاب بما عنده من الجموع وأردفه السفاح بعساكر مع عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس وعقد مروان على الزاب جسراً وعبر إلى جهة عبدالله المذكور فالتقاه عبدالله وقد جعل على ميمنته أبا عون وعلى ميسرته الوليد بن معاوية فاشتدَّ القتال بين الجيشين وداخل عسكر مروان الفشل وصار لا يريد أمراً إلَّا وكان فيه الخلل حتى تمت الهزيمة على عسكر مروان فانهزموا وغرق منهم عدة كثيرة وكتب عبدالله إلى ابن أخيه السفاح بالفتح وأخذ من عسكر مروان سلاحاً كثيراً وكان ذلك يوم السبت في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥٠ م ومرَّ مروان هارباً بالموصل فسبَّه أهلها ، فسار عنها حتى أتى حران وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً ، حتى دنا منه عسكر السفاح فحمل أهله وخيله ومضى منهزماً إلى حمص وتبعه عبدالله بن علي المذكور، فسار مروان من حمص إلى دمشق ثم من دمشق إلى فلسطين . فكتب السفاح إلى عمه عبدالله باتباعه فسار عبدالله في اثره ووصل إلى دمشق وفتحها عنوة يوم الأربعاء لخمس مضين من رمضان في السنة المذكورة وأقام عبدالله في دمشق خمسة عشر يوماً ثم سار إلى فلسطين فورد له كتاب السفاح أمره فيه أن يرسل أخاه صالح في طلب مروان فسار صالح في طلبه وهو منهزم أمامه حتى دخل نيل مصر وأدركه صالح في كنيسة في بو صير من أعمال مصر وانهزم أصحابه فطعنه رجل برمح فقتله واحتز رجل من أهل الكوفة رأسه وأحضره قدام صالح وأرسله صالح إلى السفاح وكتب إليه :

قد فتح الله مصراً عنوةً لكم   وأهلك الكافر الجعدي إذ ظلما

ثم رجع صالح المذكور إلى الشام وخلف أبا عون بمصر وهرب ابنا مروان عبدالله وعبيدالله إلى الحبشة وقاتلهم الأحباش فقتل عبيدالله ونجا عبدالله في عدَّة ممن معه وبقي إلى خلافة المهدي فأمسكه عامل فلسطين وبعث به إليه . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنين وعشرة أشهر ونصفاً وكان يلقَّب بحمار الجزيرة لصبره في الحرب وشجاعته فيها وبالجعدي لأنَّه تعلَّم من الجعد بن أدهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر (ملخَّص عن تاريخ أبي الفداء صفحة ٢٢٣) .

وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد أمنه السفاح وأكرمه ثم قتله وقتل عمه عبدالله بن علي المذكور نحو تسعين رجلاً من بني أمية كانوا حضروا عنده وقتل بالبصرة منهم جماعة، وتشتت الباقون واختفوا في البلاد وهرب بعضهم إلى الأندلس، منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فبايعه أهل الأندلس بالخلافة سنة ١٣٩ هـ وهي سنة ٧٥٧ م وأقام والياً ثلاثاً وثلاثين سنة ثم خلفه هشام بن عبد الرحمن وخلف هذا ابنه الحكم واستمرت دولتهم في الأندلس إلى أواسط القرن الحادي عشر وكانت لهم الحروب الشهيرة مع ملوك أوروبا فكانت مدة خلافة بني أمية في دمشق نحواً من تسعين سنة وعدد خلفائهم أربعة عشر خليفة وانقرضت دولتهم سنة ٧٥٠ أو سنة ٧٥١ م وخلفتهم في ولاية سورية دولة بني العباس المار تعريفهم.

عد ٧٢٤
أبو العباس السفاح أوّل الخلفاء العباسيين

قد بويع السفاح بالخلافة بالكوفة سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥٠ م. وعن القرماني أنّه كان من أسخى الناس ما وعد عِدة قط فأخّرها عن وقتها، وكان سريعاً إلى سفك الدماء، وقد بنى مدينة الأنبار وجعلها عاصمة ملكه، وولى على الشام عمه عبدالله بن علي، وعلى مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد (ابن خلدون في الجزء الثالث من تاريخه صفحة ١٧٧) وخلع حبيب بن مرة المري طاعته هو ومن معه من أهل البثنية وحوران وكان حبيب المذكور من قواد مروان، وكان سبب ثورته الخوف على نفسه فسار إليه عبدالله والي الشام وقاتله دفعات، ثم خلع أبو الورد بن الكوثر المذكور آنفاً وهو أحد قواد مروان ولما بلغ عبدالله خروج أبي الورد دعا حبيباً إلى الصلح فصالحه وأمّنه ومن معه وسار نحو أبي الورد وكان أبو الورد بعد انهزام مروان قد بايع عبدالله بن علي ثم انتقض عليه ودعا أهل قنسرين إلى الخروج معه فأجابوه إلى ذلك، وعند مرور عبدالله بدمشق للقاء أبي الورد، خلف بها أبا غانم عبد الحميد الطائي في أربعة آلاف، وكان بدمشق أهل عبدالله وأمهات أولاده وثقله، ولما مضي إلى حمص انتقض له أهل دمشق وساروا مع عثمان بن عبدالله بن علي الازدي فلقوا أبا غانم فهزموه وقتلوا من أصحابه أناساً

كثيرين وانتهبوا ما كان عبدالله قد خلفه من ثقله ولم يعرضوا لأهله واجتمعوا على الخلاف، وكان مع أبي الورد جماعة من أهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر فقدم منهم ألوف، فوجَّه عبدالله إليهم أخاه عبد الصمد فقاتلهم وكثر القتل في الفريقين فانكشف عبد الصمد ومن معه وقتل منهم ألوف وانهزم عبد الصمد إلى أخيه عبدالله، فأقبل وجماعة القواد فالتقوا ثانية بمرج الأخرم فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أصحاب أبي الورد، وثبت هو في نحو خمسمائة من رجاله فقتلوا جميعاً، فأمن عبدالله أهل قنسرين وبايعوه ودخلوا في طاعته وانصرف راجعاً إلى أهل دمشق، فلما دنا منهم هرب الناس ولم يكن منهم. قتال فلم يأخذهم بما كان منهم وقيل إنَّ حرب عبد الله وأبي الورد كانت سنة ١٣٣ هـ وهي سنة ٧٥١ م (عن الكامل لابن الأثير مجلَّد ٥ صفحة ٢٠٦).

وقد ثار أهل الجزيرة (ما بين النهرين) أيضاً على السفاح وقدم عليهم إسحق بن مسلم العقيلي من أصحاب مروان فأرسل السفاح أخاه أبا جعفر فقاتلوه قتالاً شديداً، وأخره أنَّه هزمهم وسار اسحق إلى سميساط فتبعه أبو جعفر وكتب السفاح إلى عبدالله والي دمشق أن ينجده، فسار عبدالله إلى سميساط وأقبل إليها أبو جعفر فحاصروا بسميساط سبعة أشهر إلى أن طلب الصلح والأمان وكتبوا إلى السفاح بذلك فأمر ان أمنوهم فخرجوا من سميساط آمنين وولى السفاح أخاه أبا جعفر الجزيرة وأرمينية واذربيجان فلم يزل عليها حتى استخلف (ابن الأثير في المحل المذكور) وكان للسفاح حروب وأحداث أخرى خارجة عن دائرة غرضنا فلا نحفل بذكرها وأدركت المنية السفاح بمدينة الأنبار التي بناها وكان موته في ذي الحجة آخر سنة ١٣٦ هـ وهي سنة ٧٥٥ م بمرض الجدري وكانت مدة خلافته أربع سنين من لدن قتل مروان، وكان قد بويع بالخلافة قبل قتله بثمانية أشهر.

عد ٧٢٥

أبو جعفر المنصور

هو ثاني خلفاء بني العباس وأخو السفاح المذكور وقد عهد إليه بالخلافة ثم من بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى، ولما مات السفاح كان أبو جعفر في الحج فأخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى المذكور وأرسل يعلمه بذلك. ولما قدم أبو جعفر من الحج إلى الكوفة سنة ١٣٧ هـ أي سنة ٧٥٥ م صلى الجمعة بأهل

الكوفة وسار منها إلى الأنبار، فأقام فيها وكان عبدالله بن علي والي الشام قد حرج في الجنود إلى أطراف ولايته فبلغه خبر وفاة عمه السفاح وهو هناك، فأمر منادياً نادى بالصلاة جامعة فاجتمع الجنود عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ودعا الناس إلى نفسه، وأعلمهم أنَّ السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان دعا بني أبيه وقال من أراد منكم المسير إليه فهو ولي عهدي، وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت وشهد له بعض القواد بذلك فبايعوه. ثم سار عبدالله حتى نزل حران وكان أبو مسلم عاد من الحج مع أبي جعفر المنصور فأمره بالمسير لحرب عبدالله، وخشي عبدالله أن لا يناصحه أهل خراسان لأنَّ أبا مسلم خراساني فقتل منهم كثيرين واستعمل أحدهم حميد بن قحطبة على حلب، وكتب معه كتاباً إلى زفر بن عاصم عاملها يأمره بقتل حميد إذا قدم عليه. وقال حميد في طريقه إنَّ ذهابي بكتاب لا أعلم ما فيه لغرر فقرأه، ولما رأى ما فيه اعلم خاصته وسار إلى الرصافة وتبعه كثيرون منهم، ثم سار عبدالله والي الشام إلى نصيبين وخندق عليه، وقدم أبو مسلم وكتب إلى عبدالله إني لم أؤمر بقتالك ولكن أمير المؤمنين ولّاني الشام، فقال من مع عبدالله من أهل الشام له كيف نكون معك وهذا يأتي بلادنا ويقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا فنعود إلى بلادنا ونمنعه ونقاتله. فقال لهم عبدالله والله ما يريد الشام وما توجه إلَّا لقتالكم فأبوا إلَّا المسير إلى الشام فارتحل عبدالله نحو الشام وتبعه أبو مسلم واقتتلوا خمسة أشهر وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة وكان الفوز في أكثر وقعاتها لعبدالله، ورأى أبو مسلم بعض أهل خراسان يتراجعون فارتجز وقال:

من كان ينوى أهله فلا رجع　　فر من الموت وفي الموت وقع

وظهر أبو مسلم في آخر الحرب على عبدالله والي الشام فانهزم مع أخيه عبد الصمد فأتى عبدالله أخاه سليمان بالبصرة وأقام عنده متوارياً ومضى عبد الصمد إلى الرصافة فاستأمن له عيسى بن موسى فامنه المنصور وقيل بل أقام بالرصافة فأرسل إليه المنصور عمه من أوثقه وأحضره إليه فأطلقه (ملخص عن الكامل لابن الأثير جزء ٥ صفحة ٢٢١).

وكان المنصور يخشى أبا مسلم ويأخذ عليه أموراً فبعد أن هزم أبو مسلم عبدالله والي الشام كتب إليه المنصور بالولاية على مصر والشام وصرفه عن خراسان

فلم يجب أبو مسلم إلى ذلك، وتوجه إلى خراسان وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم يطلبه إليه، فاعتذر عن الحضور وطالت بينهما المراسلات وآخر الأمر أن حضر أبو مسلم في ثلاثة آلاف رجل ودخل على المنصور وقبّل يده وانصرف. ولما كان الغد ترك المنصور بعض حرسه خلف الرواق وأمرهم اذا صفق بيديه يخرجون ويقتلون أبا مسلم. وأخذ المنصور يعدد لأبي مسلم ذنوبه وهو يعتذر عنها ثم صفق المنصور فخرج الحرس وقتلوا أبا مسلم وكان ذلك سنة ١٣٧هـ وهي سنة ٧٥٥ م. وكان أبو مسلم من أكبر دعاة بني العباس وكان قد قتل كثيرين في مدة ولايته وفي أيام المنصور خرج قسطنطين الملك (وهو الملقب بالزبلي) فأخذ ملطية عنوةً وهدم سورها وعفا عن أهلها فأرسل المنصور فعمَّر المدينة في مدة ستة أشهر. وفي سنة ١٣٨هـ وهي سنة ٧٥٦ م وسَّع المنصور في المسجد الحرام (عن أبي الفداء مجلَّد ١ من تاريخه صفحة ٢٢٦).

وفي سنة ١٤١هـ وهي سنة ٧٥٩م خرج الراوندية على المنصور وهم قوم من خراسان على مذهب أبي مسلم الخراساني يقولون بالتناسخ فيزعمون أنَّ روح آدم في عثمان بن نهيك، وأنَّ ربَّهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور وأتوا إلى قصر المنصور وقالوا هذا قصر ربنا فحبس المنصور رؤساءهم فغضب أصحابهم وأخذوا نعشاً وحملوه ومشوا به كجنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب الحبس وأخرجوا رؤساءهم، ثم قصدوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت أبواب المدينة وخرج المنصور ماشياً واجتمع إليه الناس وكان معن بن زائدة متخفّياً من المنصور فظهر وقاتل الراوندية فعفا المنصور عنه وقتل في ذلك اليوم الراوندية عن آخرهم.

وفي سنة ١٤٥هـ وهي سنة ٧٦٣ م ظهر محمَّد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان المنصور قد حبس من بني الحسن احد عشر رجلاً ورحلهم من المدينة إلى الكوفة فضيق عليهم فيها حتى ماتوا، فاستولى محمَّد على المدينة وتبعه أهله فأرسل المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى إليه فجرى بين الفريقين قتال آخره ان محمَّد قتل هو وجماعة من أهل بيته وأصحابه وانهزم من بقي منهم ومحمَّد هذا كان يلقَّب المهدي والنفس الزكية وخرج أخوه ابراهيم بالبصرة فلم ينجح هذا أيضاً. وفي هذه السنة ابتدأ المنصور في بناء بغداد لأنَّه كره سكنى الهاشمية التي ابتناها أخوه بنواحي الكوفة لما ثارت عليه الراوندية فيها كما

مرّ، وكرهها أيضاً لجوار أهل الكوفة وكان لا يأمنهم على نفسه فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه فاختار موضع بغداد لأنَّها بين أنهار وهي متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط والموصل. وفي سنة ١٤٧هـ وهي سنة ٧٦٥ م خلع المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد وبايع لابنه المهدي بها (عن أبي الفداء في المجلَّد ٢ من تاريخه صفحة ٣ إلى ٥ وعن ابن العبري في تاريخ الدول صفحة ٢١٠) ولم نعثر على اسم من ولاه على الشام أي سورية بعد خلع عبدالله بن علي عن ولايتها بل وجدنا ابن خلدون يقول في ذكر العمال على النواحي أيام السفاح والمنصور أنَّ المنصور ولي على مصر صالح بن علي وعلى الشام . .. وعلى الهامش في طبعة مصر بياض في الأصل قال القرماني في ذكر خلافة المنصور « هو أوَّل خليفة كتبت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية ككتاب كليلة ودمنة واقليدس قال الذهبي في سنة ١٤١هـ شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عمرويه وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة . .. وصنَّف أبو حنيفة الفقه . .. وفي سنة ١٤٨هـ توطات الممالك كلها للمنصور وعظمت هيبته في النفوس ودانت له الأقطار ولم يبق خارجاً عنه سوى جزيرة الأندلس فقط، فانها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي وكانت وفاة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٨هـ وهي سنة ٧٧٥م بعد أن تولى الخلافة أكثر من عشرين سنة.

عد ٧٢٦
خلافة المهدي

هو ابن أبي جعفر المنصور واسمه محمَّد وهو الثالث من خلفاء بني العباس كان أبوه عهد إليه بالخلافة بعد أن خلع من ولاية العهد عيسى بن موسى – كما مرَّ – ومات أبوه في الحج فبايعه الناس في منتصف ذي الحجة سنة ١٨٥هـ وهي سنة ٧٧٥ م وحجَّ في السنة التالية وفرق في الناس أموالاً عظيمة. وفي سنة ١٦١هـ وهي سنة ٧٧٨ م تجهز المهدي لغزو الروم وجمع العساكر واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب معه ابنه هرون الرشيد ولما وصل إلى حلب بلغه أنَّ في تلك الناحية زنادقة فجمعهم وقتلهم، وجهز ابنه هرون إلى الغزو فتغلغل هرون

في بلاد الروم وفتح فتوحات كثيرة ، ثم عاد سالماً منصوراً وفي السنة المذكورة قتل المقنع الخراساني وكان رجلاً ساحراً ادعى الربوبية وأطاعه جماعة كثيرة وقال إنَّ الله حلَّ في آدم ثمَّ في نوح ثمَّ في نبي بعد آخر حتى حلَّ فيه، فاجتمع عليه الناس وحصروه في قلعة كان قد بناها فسقى نساءه سماً فمتن به ، ثمَّ تناول منه فمات وقتل ما كان في قلعته. وكان لا يسفر عن وجهه بل اتَّخذ له وجهاً من ذهب تقنَّع به ولذلك سمِّي المقنَّع. وفي سنة ١٦٥هـ وهي سنة ٧٨٢ م أرسل المهدي ابنه هرون الرشيد إلى غزو الروم في جيش كثير فسار حتى بلغ خليج قسطنطينية فغنم شيئاً كثيراً وقتل في الروم وعاد (عن أبي الفداء في المجلَّد الثاني من تاريخه صفحة ١٠) وعن ابن العبري (في تاريخ الدول صفحة ٢١٨) ان ايرينا امرأة الملك لاون الرابع كانت مدبرة الملك حينئذٍ بصفة وصية على ابنها قسطنطين السادس فطلبت الصلح من الرشيد وافتدت به مملكتها بسبعين ألف دينار كل سنة . وقد استوزر المهدي رجلاً اسمه يعقوب بن داود بن طهمان وسارت الأمور إليه وتمكن عنده ، فحسده أصحاب المهدي وسعوا فيه فأمسكه وحبسه وبقي محبوساً إلى خلافة الرشيد . وفيه يقول بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم ... ان الخليفة يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعودِ

وأقام المهدي سنة ١٦٦هـ وهي سنة ٧٨٣ م بريداً بين مكة واليمن بغالاً وابلاً (عن أبي الفداء مجلَّد ٢ صفحة ١٠) . وكان المهدي خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وبايع بها ابنه محمداً الهادي . وتوفي عيسى المذكور قبل المهدي سنة ١٦٧هـ وهي سنة ٧٨٣ م وكان قد عهد بولاية العهد لابنه هارون الرشيد بعد أخيه الهادي وفي سنة ١٦٩هـ وهي سنة ٧٨٥ م توفي المهدي واختلف في سبب موته فقيل مات مسموماً من بعض جواريه وقيل حسدت احدى جواريه الأخرى وأرسلت إليها كمثرى سمَّت منه كمثراة فاجتاز الخادم بالمهدي وكان يحب الكمثرى فأخذ الكمثراة المسمومة فأكلها فمات بها. وسمعت المرسلة وكان اسمها حسنة بموته فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول أردت أن أنفرد بك فقتلتك. وقيل حاز صيداً فدخل وراءه إلى خربة فدق الباب ظهره فكان ذلك سبب موته (ابن خلدون جزء ٣ صفحة ٢١٤ وابن العبري في تاريخ الدول صفحة ٢١٩) .

عد ٧٢٧
خلافة الهادي

هو الرابع من الخلفاء العباسيين ويسمى موسى الهادي عهد إليه أبوه بالخلافة بعده ومن بعده لأخيه الرشيد ثم بدا له أن يقدم الرشيد عليه فلم يقدر أن ينجز ذلك قبل وفاته فبويع الهادي بالخلافة في عسكر المهدي يوم وفاته لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩هـ وهي سنة ٧٨٥م، وكان الرشيد مع أبيه بماسبذان حيث توفي فكتب إلى الآفاق بوفاة المهدي وأخذ البيعة للهادي، واشتد الهادي في طلب الزنادقة وقتل كثيرين منهم وفي السنة الأولى لخلافته خرج الحسين بن علي من ذرية عليّ بن أبي طالب في المدينة واشتدَّ أمره وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز من ذرية عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر المذكور وبايع الناس الحسين، وأقام هو وأصحابه بالمدينة احد عشر يوماً ثم خرجوا. ووصل الحسين إلى مكة ولحق به جماعة من عبيد مكة، وكان قد حجَّ تلك السنة جماعة من بني العباس فاقتتلوا مع الحسين فانهزم أصحاب الحسين وقتل هو واحتز رأسه وجمع معه من رؤوس أصحابه ما يزيد على مائة رأس. وكان الحسين شجاعاً كريماً قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلَّا فروة لم يكن تحتها قميص (عن ابي الفداء صفحة ١٢) وقلَّ ما كان في خلافة الهادي من الأحداث. قد توفي الهادي في سنة ١٧٠هـ وهي سنة ٧٨٧م.فلم يبق في الخلافة إلَّا سنة وثلاثة أشهر واختلف في سبب موته فقيل إنَّه أصابته قرحة في جوفه (عن القرماني وابن الأثير). والمشهور من أقوالهم أنَّ أمَّه المسماة الخيزران عملت على قتله. فإنَّها كانت تستبدُّ بالأمور دونه، وكلمته يوماً في حاجة ولم يجد إلى إجابتها سبيلاً، فقالت لا بدَّ من الاجابة. فغضب الهادي وقال والله لا قضيتها لك. قالت والله لا أسألك حاجة أبداً. قال لا أبالي. فقامت مغضبة فقال مكانك والله لئن بلغني أنَّه وقف في بابك أحد من قوادي لاضربنَّ عنقه. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ فانصرفت وهي لا تعقل ومرض فوضعت جواريها عليه فغمين عليه وجلسن على وجهه فمات وعمره ست وعشرون سنة (عن ابن الأثير وابن خلدون وابن العبري).

عد ٧٢٨

خلافة هرون الرشيد

بويع بالخلافة ليلة مات فيها أخوه الهادي سنة ٧٨٧م وكان عمره حينئذٍ اثنتين وعشرين سنة وهو الخامس من الخلفاء العباسيين. ومن بواكير خلافته عمارته مدينة طرسوس وهي ترسيس، والمراد تجديد بنائها أو توسيعها وتحصينها؛ فهذه المدينة أقدم كثيراً من هرون الرشيد. وفي سنة ١٦٧هـ وهي سنة ٧٩٣ م خرج يحيى بن عبدالله بن الحسن من ذرية علي بن أبي طالب بالديلم، واشتدَّت شوكته فجهز إليه الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي في جيش كثيف فكاتبه الفضل وبذل له الأمان وما يختاره فأجابه يحيى إلى ذلك وطلب يمين الرشيد بخطه وشهادة الأكابر ففعل الرشيد وحضر يحيى إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيراً ثم أمسكه وحبسه حتى مات في الحبس (عن أبي الفداء صفحة ١٤). وفي هذه السنة كانت فتنة بدمشق بين المضرية واليمانية وكان على دمشق حينئذٍ عبد الصمد بن علي فجمع الرؤساء وسعوا في الصلح بينهم فأتوا المضرية وكلموهم في الصلح فأجابوهم إليه، وأتوا اليمانية وكلموهم فقالوا انصرفوا عنا حتى ننظر، ثمَّ ساروا إلى المضرية وقتلوا منهم نحو ست مئة رجل فاستنجد المضرية بني قضاعة وسليحا فلم ينجدوهم، واستنجدوا بني قيس فنجدوهم وساروا معهم إلى العواليك من أرض البلقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وكثر القتال بينهم ثمَّ عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولى عليها ابراهيم بن صالح بن علي ودام القتال بين المذكورين نحو سنتين، إلى أن سار جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي إلى الشام سنة ١٨٠هـ أي سنة ٧٩٦ م فسكن هذه الفتنة (عن أبي الفداء وابن الأثير).

وفي سنة ١٨٧هـ وهي سنة ٨٠٣م أوقع الرشيد بالبرامكة فانه كان قد استوزر جعفر بن يحيى البرمكي وأحبه وعظّم منزلته ثم تغيَّر عليه، وذكروا لهذا التغير أسباباً منها أنَّه كان للرشيد أخت اسمها عباسة لا يصبر عنها وكان لا يصبر عن جعفر أيضاً فقال لجعفر أزوجك إياها ليحل لك النظر إليها ولا تقربها فإني لا أطيق الصبر عنها، فأجابه جعفر إلى ذلك فزوجها منه وكانا يحضران معه ثمَّ يقوم عنهما وهما شابان فحملت من جعفر فولدت غلاماً، وخافت الرشيد فسيَّرته مع حواضن إلى مكة، وكان بين عباسة وبعض جواريها نفرة فانهين إلى الرشيد وبحث عن الأمر

فعلمه فجزم على قتل جعفر. وقيل أيضاً إنَّ الرشيد دفع يحيى ابن عبدالله بن علي بن أبي طالب إلى جعفر ليحبسه فأطلقه جعفر بعد مدة ولما سأل الرشيد عن ذلك قال علمت أنَّه لا مكروه عنده، فقال له الرشيد قتلني الله إن لم أقتلك ثم قتله. وقيل إنَّ جعفر ابتنى داراً أغرم عليها عشرين ألف ألف درهم فرفع ذلك إلى الرشيد وقيل هذه غرامته على دار فما ظنك بنفقاته وصلاته وغيرها. وكان جعفر وأهله البرامكة استكبروا وعظم أمرهم واشتهر كرمهم وأحبهم الناس فكل هذه الأسباب أو بعضها بعث الرشيد على قتل جعفر فأرسل فقتله في الأنبار وأرسل رأسه وجيفته إلى بغداد وأمر بنصب رأسه وقطعة من جثته على جسر ونصب الباقي منها على جسر آخر، وأرسل من أحاط بيحيى أبيه وولده وجميع اسبابه، وأخذ ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وأرسل إلى سائر البلاد بقبض أموالهم ووكلاءهم وسائر أسبابهم وفي ذلك يقول الرقاشي، وقيل أبو نواس :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا	واسمك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد امنتِ من السرى	وطي الفيافي فدفداً بعد فدفدِ
وقل للمنايا قد ظفرتِ بجعفرٍ	ولن تظفري من بعده بمسوَّدِ
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي	وقل للرزايا كل يوم تجدَّدي
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً	أصيب بسيفٍ هاشمي مهنَّدَ

وحبس الرشيد يحيى أبا جعفر والفضل أخاه حتى ماتا (ملخَّص عن الكامل لابن الأثير) وقيل: إنَّ الرشيد بعد قتله البرامكة أمر باخته عباسة فجعلت في صندوق ودليت إلى بئر وهي حية وأمر بابنها أو بابنيها (إذ يقال إنَّها ولدت توأمين) فأحضرا ونظر إليهما ملياً وبكى ثم أمر بهما فرميا في البئر وطمرهما. وقيل إنَّ البرامكة اسرة فارسية مشهورة كان لهم قبل الاسلام بمائتي سنة رتبة الامامة والكهنوت في بلخ، وكان المنصور قد ولي خالد بن برمك جد جعفر على الموصل واذربيجان وولى ابنه يحيى أبا جعفر على أرمينية ووكله المهدي بكفالة الرشيد، ولما ولي الرشيد استوزره ثم استوزر ابنه جعفر المذكور (عن ابن خلدون صفحة ٢٢٣ من الجزء الثالث).

قد مرَّ أنَّ هرون الرشيد كان قد غزا الروم في ولاية أبيه المهدي وان ايرينا الملكة صالحته وافتدت المملكة الرومانية بسبعين ألف دينار تدفعها كل سنة، ولما استوى نيقوفور على منصة قسطنطينية سنة ٨٠٢م نفى ايرينا إلى جزيرة لسبوس وكتب إلى الرشيد: «من نيقوفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب اما بعد فان الملكة ايرينا حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقياً بأن تحمل أضعافه إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهنَّ، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما أخذت وإلَّا فالسيف بيننا وبينك». فلمَّا قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب وكتب في ظهر الكتاب: «من هرون أمير المؤمنين إلى نيقوفور زعيم (ويروى كلب) الروم. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه». وسار من يومه حتى نزل على مقربة من قسطنطينية بعد أن دمَّر وأحرق المدن التي مرَّ بها فارتاع نيقوفور وطلب الصلح والأمان متعهداً بأن يدفع جزية كل سنة، فكان أوهن من ايرينا فقفل الرشيد راجعاً ولم يصل إلى بغداد إلَّا وأخلف نيقوفور وعده وأبى دفع الجزية التي تعهد بدفعها، فعاد الرشيد إليه ولم يبالِ بالثلج والبرد القارس حين عودته فانتهب ودمَّر مواضع كثيرة في آسيا الصغرى وانتهى إلى البوسفور فأخذ الرعب في قلب نيقوفور كلَّ مأخذ فتذلل للرشيد كلَّ التذلل ودفع الجزية ووثق باليمين وعده بأن لا يخل في ما يعد بتأديتها فعاد الرشيد ظافراً متفاخراً، على أنَّ بخل نيقوفور بعثه على الشجاعة فألَّب جيشه وسار فيه قاصداً هرون الرشيد وانتهى إلى فريجية فالتقاه الخليفة وكان بين الفريقين هناك قتال شديد فجرح نيقوفور وتشتَّت جيشه وقد قتل منه نحو من أربعين ألف رجل، وأغزى الرشيد جيشه في جهات كثيرة فانتهبوا آسيا الصغرى وأحرقوا مدناً كثيرة وسبوا كثيرين، وافترض الرشيد على ملك الروم غرامة ثلاثين ألف دينار كل سنة وقيل إنَّه اشترط أن يكون على دنانير الغرامة اسمه وأسماء أبنائه الثلاثة واستعمل الرشيد في مدة هذه الحرب حميد بن يعبوب (ويروى معيوف) على سواحل الشام ومصر إلى قبرص فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً فبيعوا وبلغ فداء أسقف قبرص الفي دينار (روى ذلك كثيرون من المؤرخين المسلمين بل كثيرون أيضاً من المؤرخين النصارى منهم دي لاروك في موجز تاريخ الملك السافل وروهر بخر في تاريخه).

ورغب الرشيد في موالاة كيرلس الكبير (شرلمان) فأرسل إليه وفوداً وهدايا نفيسة فيها ساعات كانت في أعين أهل المغرب وقتئذٍ من المدهشات وفيلاً كبيراً

وكان يجمعهما عداوتهما لايرينا ولنيقوفور ملك الروم. وقيل إنَّ الرشيد أرسل إليه مفاتيح كنيسة القبر المقدَّس، وكان هرون الرشيد محباً للعلم والعلماء وعني بترجمة كثير من كتب العلماء من السريانية واليونانية إلى العربية ومات الرشيد لثلاث خلون من صفر سنة ١٩٣هـ وهي سنة ٨٠٩م وكان قد مضى إلى خراسان ولما بلغ إلى جرجان اشتدَّ مرضه وسار إلى مدينة اسمها طوس فمات بها وكانت مدة خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وبعض أيام وعهد بالخلافة بعده إلى أبنائه إلى الأمين أولاً ومن بعده إلى المأمون وإلى القاسم ولقبه المؤتمن بعد المأمون، وجعل أمر استقرار القاسم وعزله إلى المأمون إن شاء استمرَّ به وإن شاء عزله عنه (عن أبي الفداء في تاريخه صفحة ٢٠).

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينويون في القرن الثامن

عد ٧٢٩

بعض المشاهير الدنيويين بسورية في هذا القرن

مكحول الشامي

لم يكن مكحول شامياً أي سورياً أصلاً بل الراجح أنَّه من كابل بافغان سبي فوقع إلى سعيد بن العاص فوهبه إلى امرأة من بني هذيل فأعتقته. وكان يقيم بدمشق وكان معلم الإمام الأوزاعي. قال الزهري العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا وكان لا يفتي حتى يقول لا حول ولا قوة إلَّا بالله هذا رأيي والرأي يخطي ويصيب وكان في لسانه عجمة ظاهرة يبدّل بعض الحروف بغيره قال نوح بن قيس سأله بعض الأمراء عن القدر فقال أساهر أنا؟ يريد أساحر أنا وكان يقول بالقدر ورجع. عنه وقال معقل بن عبد الأعلى القرشي سمعته يقول

لرجل ما فعلت تلك الهاجة يريد الحاجة. وتوفي مكحول سنة ١١٨ هـ وهي سنة ٧٣٧م، وقيل قبل ذلك (ملخَّص عن ابن خلكان عن وفيات الأعيان عد ٧٤٩) .

الإمام الأوزاعي

ذكر ترجمته ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان فقال ما ملخصه هو أبو عمرو عبد الرحمن بن يحمد الأوزاعي إمام أهل الشام ولم يكن بالشام اعلم منه وكان يسكن بيروت وكانت ولادته في بعلبك سنة ٨٨هـ وقيل سنة ٩٣ أي سنة ٧٠٧ أو سنة ٧١٢ م ومنشأه بالبقاع ثم نقلته أمه إلى بيروت وتوفي سنة ١٥٧هـ وهي سنة ٧٧٤ م يوم الأحد لليلتين بقيتا من صفر وقيل في شهر ربيع الأوَّل بمدينة بيروت ورثاه بعضهم بقوله :

جاد الحيا بالشام كل عيشة   قبراً تضمن لحده الأوزاعي
قبر تضمن فيه طود شريعة   سقياً له من عالم نفاعِ
عرضت له الدنيا فأعرض مقلعاً   عنها بزهدٍ ايما إقلاع

وقبره في قرية على باب بيروت يقال لها حنتوش وأهلها مسلمون وهو مدفون في قبلة المسجد وأهل القرية لا يعرفونه بل يقولون ها هنا رجل صالح ولا يعرفه إلَّا الخواص من الناس والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي بطن من ذي الكلاع من اليمن وقيل هي بطن من همذان واسمه مرشد بن زيد. وقيل الأوزاع قرية بدمشق على طريق باب الفراديس ولم يكن أبو عمرو من أهلها، وإنَّما نزل فيهم فنسب إليهم وهو في سبي اليمن، وبيروت هي بلدة بساحل الشام «انتهى ملخصاً عن ابن خلكان» ونرى إلى اليوم بئراً في تلك الناحية يسمى بئر حنتوش.

ديك الجن الشاعر

ذكر ترجمته ابن خلكان (في ٣٩٤ في ترجماته) فنلخصه عنه قال: «هو أبو محمَّد عبد السلام بن رغبان إلى تميم الكلبي الملقَّب بديك الجن الشاعر المشهور أصله من سلميّه ومولده بمدينة حمص وهو من شعراء الدولة العباسية، ولم يفارق الشام ولا رحل إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً ولا متصدياً لأحد، وله مراثي في

الحسين وكان ماجناً خليعاً عاكفاً على القصف واللهو ومتلافاً لما ورثه وشعره في غاية الجودة، وكان مولده سنة ١٦١هـ سنة ٧٧٨م وتوفي سنة ٢٣٦هـ وهي سنة ٨٥١م. وقد اجتاز أبو نواس بحمص قاصداً مصر وسمع ديك الجن بوصوله فاستخفى منه خوفاً أن يظهر لأبي نواس أنّه قاصر بالنسبة إليه، فقصده أبو نواس في داره وهو فيها فطرق الباب واستأذن عليه فقالت الجارية ليس هو هنا فعرف مقصده فقال لها قولي له اخرج فقد فتنت أهل العراق بقولك:

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها

فلما سمع ديك الجن خرج إليه واجتمع به وهذا البيت من جملة أبيات منها:

وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغرٍ ولا تسق إلّا خمرها وعقارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفَّه من الشمس أو من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها فتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

موردة الخ

وكانت له جارية اسمها دينا اتهمها بغيره فقتلها ثم ندم على ذلك فأكثر من التغزل فيها وقال في ولد كان له منها فمات:

بأبي نبذتك بالعراء المقفرِ وسترت وجهك بالتراب الأعفرِ
بأبي بذلتك بعد صون للبلى ورجعت عنك صبرت أو لم تصبرِ
لو كنت أقدر أن أرى أثر البلى لتركت وجهك ضاحكاً لم يقبرِ

عد ٧٣٠

من عاصر هؤلاء المشاهير خارجاً عن سورية واولاً

الفقهاء السبعة

كان في صدر الاسلام بالمدينة سبعة فقهاء في عصر واحد منهم انتشر العلم والفتيا، وقد أشرنا إليهم قبلاً وإلى جمع بعض الشعراء اسمائهم في بيت وهو:

فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد سليمان أبو بكر خارجة

وأولهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث إلى مخزوم القرشي المخزومي وكان يسمى راهب قريش، ومولده في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ٩٤هـ وهي سنة ٧١٣م. وهذه السنة تسمى سنة الفقهاء وإنّما سمّيت بذلك لأنّه مات فيها جماعة منهم وإنّما خصوا بهذه التسمية لأنَّ الفتيا بعد الصحابة صارت إليهم وشهروا بها وكان في عصرهم جماعة من العلماء التابعين ولكنَّ الفتوى لم تكن إلّا لهؤلاء السبعة. والثاني هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري وكان تابعياً جليل القدر أدرك زمان عثمان بن عفان وتوفي خارجة سنة ٩٩ وقيل سنة ١٠٠هـ وهي سنة ٧١٨ أو سنة ٧١٩م. والثالث هو سالم وكنيته أبو عمر ويقال أبو عبدالله بن عمر بن الخطاب وكان من سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم روى عن أبيه وغيره وتوفي سنة ١٠٦ وقيل ١٠٨هـ وهي سنة ٧٢٥ أو سنة ٧٢٧م. ومما قيل فيه دخل سليمان بن عبد الملك الكعبة فرأى سالماً فقال له سلني حوايجك فقال والله لا سألت في بيت الله غير الله تعالى. والرابع سليمان وكنيته أبو أيوب ويقال أبو عبد الرحمن ويقال أبو عبدالله وهو ابن يسار وكان عالماً ثقة عابداً ورعاً وكان المستغني إذا أتى سعيد بن المسيب يقول له اذهب إلى سليمان بن يسار فانَّه اعلم من بقي اليوم وقال قتادة قدمت المدينة فسألت من اعلم أهلها بالطلاق فقالوا سليمان بن يسار وتوفي سنة ١٠٧ وقيل سنة ١٠٠ وقيل سنة ٩٤هـ وهي سنة ٧٢٦ أو سنة ٧١٩ أو سنة ٧١٣ م. والخامس عبيدالله وكنيته أبو عبدالله وهو ابن عتبة بن مسعود إلى مخزوم بن صبح وهو من اعلام التابعين لقى خلقاً كثيراً من الصحابة وقال فيه الزهري سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أني قد اكتفيت حتى لقيت عبيدالله فاذا كاني ليس في يدي شيء وكانت وفاته سنة ١٠٢ وقيل سنة ٩٩هـ وهي سنة ٧٢١ أو سنة ٧١٩م. والسادس عروة الزبير بن العوام إلى كلاب القرشي الاسدي وأبوه الزبير بن العوام أحد الصحابة العشرة وكان عالماً صالحاً أصابته آكلة في رجله وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك فقطعت رجله وعاش بعد قطعها ثماني سنين. وهو الذي احتفر بئر عروة بين مكة والمدينة وتوفي سنة ٩٣ وقيل سنة ٩٤ للهجرة وهي سنة ٧١٢ أو سنة ٧١٣ للميلاد. والسابع قاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق وكان من سادات التابعين وروى عن جماعة من الصحابة وروى عنه جماعة من كبار التابعين. وقال يحيى بن سعيد ما أدركنا

أحداً نفضله على القاسم بن محمّد وتوفي سنة ١٠١ أو سنة ١٠٢هـ وهي سنة ٧٢٠ أو سنة ٧٢١م (قد لخصنا ترجمة هؤلاء الفقهاء السبعة عن كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان في كلامه على كل منهم).

عد ٧٣١
أئمة الفقه أصحاب المذاهب الأربعة

كان في القرن الثاني للهجرة جماعة من الفقهاء بلغوا من علم الفقه درجة الاجتهاد فسّموا أئمة مجتهدين وكانت لهم مذاهب مختلفة في بعض مسائل هذا العلم مصدرها الاختلاف في تفسير كلام السلف. وأشهرها المذاهب الأربعة للأئمة الأربعة الآتي ذكرهم: الأول الإمام أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن زوطا الفقيه الكوفي كان خزازاً يبيع الخز وجده زوطا من أهل كابل وقيل من أهل بابل وقيل غير ذلك وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة وكان عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ونقله أبو جعفر المنصور من الكوفة إلى بغداد وأراد أن يوليه القضاء فأبى وأصرّ الخليفة على توليته وأمر به إلى السجن. وأراد المهدي أيضاً أن يوليه القضاء في الرصافة فأبى فقال له إن لم تفعل ضربتك بالسياط فقال أو تفعل؟ فقال الخليفة نعم. فقعد في القضاء يومين ثم مرض ستة أيام فمات سنة ١٥١هـ على الأصح وهي سنة ٧٦٩ أو سنة ٧٦٨م. ورووا كثيراً من أخبار زهده وورعه وعزوا إليه كثيراً من الحكم. وقال اسمعيل بن حماد بن أبي حنيفة مررت مع أبي بالكناسة (موضع بالكوفة) فقلت يا أبتِ ما يبكيك فقال يا ابني هذا الموضع ضرب ابن أبي هريرة ابي فيه عشرة أيام كل يوم عشرة أسواط على أن يلي القضاء فلم يفعل.

والثاني الإمام المالك وكنيته أبو عبدالله وهو ابن انس بن مالك بن أبي عامر وأخذ العلم عن ربيعة الرأي ثم افتى معه وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنة وكانت ولادته سنة ٩٥هـ وهي سنة ٧١٤م وتوفي سنة ١٧٩هـ وهي سنة ٧٩٦م وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع وقد رثاه أبو محمّد جعفر بن احمد بن الحسين بقوله:

سقى جدثاً ضم البقيع بمالك   من المزن مر عاد السحائب مبراق

إمام موطّاه[١] الذي طبقت به　　أقاليم في الدنيا فساح وأفاق
أقام به شرع النبي محمّد　　له حذرٌ من أن يضام واشفاق
له سند عالٍ صحيح وهيبة　　فللكل منه حين يرويه اطراق
وأصحاب صدق كلّهم علم فسل　　بهم أيهم أنت سايلت حذاق[٢]
ولو لم يكن إلّا ابن ادريس وحده　　كفاه إلّا أنَّ السعادة أرزاق

والثالث الإمام الشافعي وهو أبو عبدالله محمَّد بن أدريس بن العباس إلى هاشم ابن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي الشافعي قال ابن خلكان: «يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف المذكور». ولد بغزة وقيل بعسقلان سنة ١٥٠هـ وهي سنة ٧٦٧م وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وقدم بغداد سنة ١٩٥هـ سنة ٨١١م فأقام بها سنتين ثم خرج إلى مكة ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩٨هـ وأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها سنة ١٩٩ وقيل سنة ٢٠١ أي سنة ٨١٥ أو سنة ٨١٧ ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٢٠٤هـ وهي سنة ٨٢٠م، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار بها بالقرب من المقطم قال ابن خلكان: «قد اتّفق العلماء قاطبة من أهل الفقه والحديث والأصول واللغة والنحو وغير ذلك إلى ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه وله أشعار كثيرة منها»:

إنَّ الذي رزق اليسار ولم يصب　　حمداً ولا أجراً لغير موفقِ
الجد يدني كل أمرٍ شاسعٍ　　والجد يفتح كل باب مغلقِ
وإذا سمعت بأنَّ مجدوداً حوى　　عوداً فأثمر في يديه فصدّقِ
وإذا سمعت بأنَّ محروماً أتى　　ماءً ليشربه فغاض فحققِ
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني　　بنجوم أقطار السماء تعلقي
لكن من رزق الحجى حرم الغنى　　ضدان مفترقان أي تفرقِ
ومن الدليل على القضاء وكونه　　بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمقِ

---

(١) كتابه الذي سماه الموطأ.
(١) ويروى المصراع الثاني هكذا　　بهم من تسل عنهم يجاوبك حذاق

وفي رواية بيتان آخران وهما :

وأحق خلق الله بالهم امرء ذو همَّة يبلى بعيش ضيقِ

ولربما عرضت لنفسي فكرة فأود منها أنني لم أخلقِ

والرابع : أحمد بن حنبل وهو ابن محمَّد بن حنبل بن هلال إلى شيبان بن ذهل بن ثعلبة خرجت أمُّه من مرو وهي حامل به فولدته في بغداد سنة ١٦٤هـ وهي سنة ٧٨١م، وقيل إنَّه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع وكان إمام المحدثين صنف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتَّفق لغيره وكان من أصحاب الإمام الشافعي ولم يزل مصاحباً له إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر، وقال في حقه خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا أفقه من ابن حنبل. وأخذ عنه الحديث جماعة من الأماثل منهم محمَّد بن اسمعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع وتوفي سنة ٢٤١هـ وهي سنة ٨٥٦م ببغداد وقبره مشهور بها يزار (ملخَّص عن وفيات الأعيان لابن خلكان) .

عد ٧٣٢
أئمة النحو في هذا القرن

أولهم الخليل هو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (نسبة إلى فراهيد وهي بطن من الأزد) الأزدي كان إماماً في علم النحو وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً واحداً وسماه الخبب. وكان له معرفة بالإيقاع والنغم فتلك المعرفة أحدثت له علم العروض فاخترعه من ممر له بالصفارين (النحاسين) من وقع مطرقة على طست. وقد أمدَّ سيبويه في علم النحو بما صنف به كتابه المشهور. وكان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً وقيل فيه إنَّه أقام بخص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال، وكان له راتب على سليمان بن حبيب المهلبي الازدي وكان والي فارس والأهواز فاستدعاه إليه فأجابه الخليل

أبلغ سليمان أني عنه في سعةٍ وفي غنى غير اني لست ذا مالِ
شحا بنفسي اني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حالِ
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتالِ
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المالِ

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إنَّ الذي شقَّ فمي ضامن لي الرزق حتى يتوفاني
أحرمتني مالاً قليلاً فما زادك في مالك حرماني

فكتب سليمان إلى الخليل يعتذر إليه وأضعف راتبه فقال الخليل:

بازالة يكثر الشيطان ان ذكرت منها التعجب جاءت من سليماناً
لا تعجبن لخير زلَّ عن يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

وللخليل من التصانيف كتاب «العين» في اللغة وهو مشهور وكتاب «العروض» وكتاب «الشواهد» وكتاب «النقط والشكل» وكتاب «النغم» وكتاب «العوامل» وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون إنَّ كتاب العين المنسوب إلى الخليل ليس تصنيفه وإنَّما كان شرع فيه ورتب أوائله فمات فأكمله تلامذته فما جاء عملهم مناسباً لما وضعه الخليل فأخرجوا الذي وضعه الخليل وعملوا أيضاً الأوَّل فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله. ويقال إنَّه كان له ولد تخلف فدخل على أبيه وهو يقطع بيت شعر بأوزان العروض فخرج إلى الناس وقال إنَّ أبي قد جن فأخبروه بما قال ابنه فقال لهُ:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني إذ كنت تجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنَّك جاهل فعذرتكا

وكانت ولادة الخليل سنة ١٠٠هـ وهي سنة ٧١٩م وتوفي بالبصرة سنة ١٧٠ وقيل سنة ١٧٥هـ وهي سنة ٧٨٧ أو سنة ٧٩٢م.

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقَّب سيبويه ولد بالبيضاء من أعمال فارس وكان اعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو لم يوضع فيه مثل كتابه وذكره الجاحظ يوماً فقال لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله وجميع الكتب عليه عيال. وأخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد المقدم ذكره وعن عيسى بن عمر ويونس ابن حبيب وغيرهم وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر. وقد ورد إلى بغداد من البصرة والكسائي يومئذٍ يعلم الأمين بن هرون الرشيد فجمع بينهما وتناظرا، وزعم الكسائي أنَّ العرب تقول كنت أظن العقرب أشد لسعاً من الزنبور فإذا هو اياها. فقال سيبويه ليس المثل كذا بل فاذا هو هي وتشاجرا طويلاً واتَّفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر، وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لأنَّه معلِّمه فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه، فقال أريد أن تقول كما قال الكسائي، فقال إنَّ لساني لا يطاوعني على ذلك فقرروا معه أن يقول كما قال الكسائي. وحضر العربي فقال الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب فعلم سيبويه أنَّهم تجاملوا عليه وتعصبوا للكسائي(١) فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس فتوفي في قرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء سنة ١٨٠ وقيل سنة ١٧٧هـ وهي سنة ٧٩٧ أو سنة ٧٩٤م. وعن ابن دريد أنَّ قبره بشيراز وقيل إنَّ ولادته كانت في البيضاء المذكورة وقد كتب على قبره هذه الأبيات وهي لسليمان بن يزيد العدوي

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ... ونأى المزار فاسلموك واقشعوا
تركوك أوحش ما يكون بقفرة ... لم يأنسوك وكربةً لم يدفعوا
قضي القضاء وصرت صاحب حفرةٍ ... عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

---

(١) وصوب جمهور النحاة قول سيبويه لانك لو عبرت عن الضميرين بالاسمين الظاهرين وقلت فإذا الزنبور العقرب لم يكن وجه لنصب العقرب لأن إذا من حروف الابتداء فلا يجوز النصب بعدها إلّا بعد إتمام الكلام ثم لا يمكن القول فإذا هو إياها الا على سبيل جعل اياها حالاً والحال لا تكون إلّا بعد تمام الكلام وهو ناقص ولا تكون إلا نكرة واياها معرفة .

وقال معاوية بن بكر العليمي إنَّه كان في لسان سيبويه حبسة ونظرت في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه وقال ابن خلكان سيبويه لا يقال بالتاء البتة وهو لقب فارسي معناه بالعربية رائحة التفاح وهو مثل نفطويه وعمرويه وغيرهما والعجم يقولون سيبُوْيَه بضم الباء وسكون الواو وفتح الياء لأنهم يكرهون أن يقع في آخر الكلمة ويه لأنها للندبة . وقيل إنَّ والدته لقبته بهذا اللقب لرائحة جسمه. وقيل أيضاً إنَّ المبرد كان يسأل من طلب أن يعلمه هل اجتزت بالبحر يريد هل طالعت كتاب سيبويه فإن أجابه نعم قال له لا حاجة لك إلى التعليم وإن قال لا قبله بين تلامذته .

الكسائي

هو أبو الحسن على بن خمرة بن عبدالله الأسدي أحد القراء السبعة وكان إماماً في النحو واللغة ولم يكن له في الشعر يد حتى قيل ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر، وكان يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ويعلمه الأدب ولم يكن له زوجة ولا جارية فكتب إلى الرشيد يشكو الغربة في أبيات منها :

قل للخليفة ما تقول لمن　　أمسى إليك بحرمه يدلي
ما زلت من سار الأمين معي　　عبدي يدي ومطيتي رجلي

فأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار وجارية حسناء وخادم وبرزون وقيل إنَّه سأل معلِّمه الخليل أين اقتبست علم اللغة فأجابه في بقاع الحجاز فمضى إلى الحجاز وأقام فيها طويلاً وأخذ عن العرب شيئاً كثيراً. وإنَّما سمي بالكسائي لأنَّه دخل الكوفة وجاء إلى حمزة بن حبيب الزيات وهو ملتف بكساء فقال حمزة من يقرأ فقيل له صاحب الكساء فبقي علماً عليه وقيل غير ذلك، وتوفي سنة ١٨٧هـ وهي سنة ٨٠٥م بالري وكان قد خرج إليها مع هرون الرشيد ويقال إنَّ الرشيد كان يقول فيه دفنت الفقه والعربية بالري .

الأخفش

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي النحوى البلخي المعروف بالأخفش الأوسط أحد نحاة البصرة والأخفش الأكبر أبو الخطاب وكان نحوياً أيضاً من أئمة

العربية وقد أخذ عن سيبويه وكان أكبر منه وكان يقول ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً وعرضه عليَّ وكان يرى أنَّه أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه وهو الذي زاد في العروض بحر الخبب كما سبق، وله من الكتب المصنفة كتاب الأوسط في النحو وكتاب تفسير معاني القرآن وكتاب المقاييس في النحو وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب معاني الشعر وكتاب الملوك وكتاب الأصوات وكتاب المسائل الكبير وكتاب المسائل الصغير وغير ذلك ومعنى الأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما كانت وفاته سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢٢١هـ وهما سنة ٨٣١ أو سنة ٨٣٧م.

وكان في هذا القرن من المشاهير في النحو يونس أبو عبد الرحمن بن حبيب النحوي ولد سنة ٩٠هـ وهي سنة ٧١٠م وتوفي في سنة ١٨٢هـ وهي سنة ٧٩٨م ومن تلامذته سيبويه والكسائي والفرّاء وأبو عبيدة (ملخَّص عن وفيات الأعيان لابن خلكان).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثامن

الفصل الأوَّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٧٣٣
بطاركة أنطاكية في القرن الثامن

قد مرَّ في الكلام على بطاركة أنطاكية في القرن السابع (عد ٦٩٢) أنَّ كرسي أنطاكية خلا من بطريرك مدة أربعين أو خمسين سنة ولم يكن في تلك المدة بطريرك أنطاكي كاثوليكي إلَّا القديس يوحنا مارون وخلفاؤه. وروى توافان في تاريخ السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤٢م: «في هذه السنة كانت وفاة هشام خليفة العرب وكان هذا قد رد كنيسة أنطاكية المقدسة إلى حالها الأولى وكانت هذه الكنيسة مترملة من راع لها أربعين سنة لمنع العرب لهم عن إقامة بطريرك لها وكان راهب اسمه أسطفان عزيزاً لديه وكان أمياً لكنه ورع فاطلق لهم أن يختاروه بطريركاً على مدينة الله أنطاكية موقنين أنَّ هذه هي إرادة الله ولم يعد العرب يصدونهم عن إقامة بطريرك إلى الآن» ولا ذكر لاسطفانس في كتاب إدوار برنردس في بطاركة أنطاكية بل تابع توافيلكتس على قوله إنَّ كرسي أنطاكية استمرَّ

فارغاً خمسين سنة وأما سعيد بن البطريق فقال إنَّ أسطفانس رقي إلى بطريركية أنطاكية في السنة الثالثة لخلافة سليمان وهي السنة الأولى لملك لاون الأيسورى أي سنة ٧١٧ للميلاد واستمرَّ في البطريركية ستاً وعشرين سنة وتوفي سنة ٧٤٣. قال لكويان في كلامه على بطاركة أنطاكية في كتابه المشرق المسيحي: «إنَّ تاريخ سعيد بن البطريق مشحون بالغلط فيلزم اصلاح قوله هذا بمقتضى قول توافان فهو ثقة وروايته أمثل».

وخلف توافيلكتس أسطفانس المذكور روى توافان في تاريخ السنة الرابعة لقسطنطين الزبلي أنَّ مروان الخليفة رخص للنصارى بعد موت أسطفانس أن ينتخبوا توافيلكتس بطريركاً وكان كاهناً من الرها سريانياً مجملاً بالتقوى والزهد واستمرَّ في البطريركية ثماني عشرة سنة على ما روى إدوار برنردس ولكن قال توافان إنَّه استمرَّ بطريركاً ست سنين وتوفي سنة ٧٥٠م.

وخلف توادورس الأول توافيلكتس المذكور وذكر توافان بدء خلافته في تاريخ السنة الحادية عشرة لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٥٠ أو سنة ٧٥١م وكان توادورس على الصحيح من بلاد الموابيين في عبر الأردن وقال سعيد بن البطريق إنَّه صير بطريركاً في سنة ٢٠ لخلافة أبي جعفر المنصور وهي سنة ٧٧٧ لأنَّ أبا جعفر بويع بالخلافة سنة ١٣٧ للهجرة وهي توافق سنة ٧٥٧ وانه استمرَّ بطريركاً ثلاثاً وعشرين سنة فتكون وفاته على رواية ابن البطريق سنة ٧٩٧. وهذا يخالف كثيراً قول توافان كما رأيت على أنَّ توافان لم يذكر سنة وفاة توادورس بل قال إنَّ العرب نفوه لدعواهم عليه أنَّه يراسل قسطنطين ملك الروم وانَّه ردَّ إلى كرسيه بعد سنين والظاهر من كلام إدوار برنردس في بطاركة أنطاكية انَّه توفي سنة ٧٩٥ ويظهر مما سيأتي أنَّه توفي قبل سنة ٧٨٧م.

وخلف توادوريطس توادورس المذكور ويظهر من أعمال المجمع النيقوي الثاني الذي عقد سنة ٧٨٧م أنَّ توما الراهب الكاهن كان نائباً عن توادوريطس في هذا المجمع وهذا بيِّن بطلان زعم ابن البطريق في توادوريطس هذا أنَّه رقي إلى بطريركية في السنة الثامنة لهرون الرشيد واستمرَّ فيها سبع عشرة سنة وهرون الرشيد بويع بالخلافة سنة ١٧٠هـ وهي توافق سنة ٧٨٧م وكان توادوريطس حينئذٍ بطريركاً أنطاكياً كما ظهر من أعمال المجمع النيقوي. وقال ابن العبري في تاريخه السرياني

إنَّ الخليفة أبا جعفر المنصور أمر بأن يلقي في السجن ببغداد جيورجيوس بطريرك اليعاقبة وتوادوريطس بطريرك الروم ويعقوب بطرك النساطرة ولبثوا فيه تسع سنين إلى أن خلى سبيلهم بوساطة كبريانس أسقف نصيبين النسطوري على ما روى لكويان في المشرق المسيحي (في كلامه على بطاركة أنطاكية). وقد أثبت ابن العبري (في تاريخ بطاركة اليعاقبة) أنَّ جيورجيوس انتخب بطريركاً سنة ٧٥٨م وعاش سنتين بعد أن خلى سبيله من السجن في أيام المهدي أبي هرون الرشيد إلى أن توفي سنة ١١٠١ يونانية وهي توافق سنة ٧٩٠م وأثبت ذلك العلَّامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ صفحة ٣٤٠) فاذاً جيورجيوس كان بطريركاً لليعاقبة في أيام أبي جعفر المنصور وقد سجن بأمره مع توادوريطس بطريرك أنطاكية وابن البطريق يقول إنَّ توادوريطس صير بطريركاً في السنة الثامنة لهرون الرشيد والظاهر من قول ابن العبري والسمعاني أنَّه كان بطريركاً في أيام جده أبي جعفر فتأمَّل في خلط ابن البطريق وتشويشه تاريخ القرون التي كتب تاريخها كما قال فيه الكثيرون من المدققين. ويظهر من كلام إدوار برنردس أنَّ توادوريطس توفي سنة ٨١٢ (ملخَّص عن لكويان في المشرق المسيحي مع زيادة على كلامه وشرح له).

عد ٧٣٤

بطاركة أورشليم في القرن الثامن

قد مرَّ في تاريخ بطاركة أورشليم في القرن السابع أنَّ كرسي أورشليم خلا بعد موت صفرونيوس من بطريرك إلى أوائل القرن الثامن فقد جاء في تاريخ توافان أنَّ يوحنا الخامس أقيم بطريركاً على أورشليم في السنة الأولى بعد عود يوستنيانس الأخرم إلى الملك وهي سنة ٧٠٥م ودبر كنيسة أورشليم ثلاثين سنة وقد ذكره القديس يوحنا الدمشقي في رسالته إلى جردانس الارشمندريت ولقبه برجل الله وبرأ ساحته من التهمة بأنَّه يزيد: «يا من صلبت لأجلنا» على التقديسات موجهة إلى الأقانيم الثلاثة الإلهية وقال الدمشقي عن نفسه إنَّه كان تلميذاً له وروى توافان أنَّه حرم مع أساقفة المشرق ضلال محاربي الصور سنة ٧٢٩م واختلف في سنة وفاته فقد رأيت قول توافان إنَّه دبر كنيسة أورشليم ثلاثين سنة فتكون وفاته سنة ٧٣٥م والذي رواه سعيد بن البطريق ان صدقت روايته أنَّه استمرَّ بطريركاً أربعين سنة فتكون وفاته سنة ٧٤٥م والأظهر أنَّ خليفته توادورس الآتي ذكره لم يرتقِ إلى بطريركية

أورشليم إلّا سنة ٧٥٢ أو سنة ٧٥٤م ويحتمل إن كان بين يوحنا هذا وتوادورس المذكور بطريرك آخر اسمه يوحنا أيضاً إلّا أن نقول أنّ الكرسي الأورشليمي خلا من بطريرك مدة ما. قال لكويان (في المشرق المسيحي في كلامه على بطاركة أورشليم) إنَّ سوء حال المشرق في هذا القرن حال دون العلم بالبطاركة الذين دبروا شؤون بطريركيات اسكندرية وأنطاكية وأورشليم في تلك الحقبة ولم يتفرغ للبحث عنهم إلّا علماء لاتينيون في القرن الثاني عشر وما يليه فكانت أخبارهم غير مقطوع بصحتها وفاتهم العلم ببعض البطاركة. فقد روى توافان في تاريخ السنة ٢٣ لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٦٤ للميلاد ان قزما أسقف ابيفانية (وهي حماه) بسورية شكاه أهل مدينته إلى توادورس بطريرك أنطاكية أنّه شايع محاربي الصور فحرمه توادورس بطريرك أنطاكية وتوادورس بطريرك أورشليم وقزما بطريرك اسكندرية ومن خضع لولايتهم من الأساقفة. وروى دي شسن في تاريخ افرنسة (مجلد ٣) أنَّ توادورس هذا أنفذ رسالة إلى البابا بولس الأول فبلغت بعد وفاته إلى قسطنطين الدخيل على البابوية سنة ٧٦٧م فأرسلها إلى بيبين ملك افرنسة وكان البطريرك قد صرَّح بها بأنه هو والبطريرك الاسكندري والانطاكي يوافقون اللاتينيين في معتقدهم. وذكر البابا ادريانس الأول خلاصة هذه الرسالة في رسالة وجّهها إلى الملك كرلس الكبير سنة ٧٩٤م فنّد بها ما يطعن به مخالفو المجمع النيقوي الثاني على توادورس هذا. ويظهر مما مرَّ أنَّ توادورس هذا كان معاصراً لتوادورس بطريرك انطاكية ولقزما بطريرك اسكندرية على أنَّ هذين البطريركين يختلف في مدة ولايتهما فلا يمكن تحقيق بدء بطريركية توادورس. والراجح أنه لم يصير بطريركاً قبل سنة ٧٥٢ أو سنة ٧٥٤م. ويظهر من حرمه قزما أسقف ايفانية بالاتفاق مع قزما الاسكندري وتوادورس الانطاكي سنة ٧٦٤م كما مرَّ أنَّ الثلاثة كانوا أحياء حينئذ، ويظهر من رسالته المذكورة إلى البابا بولس الأول سنة ٧٦٧م أنه استمرّ حيّاً إلى تلك السنة أيضاً ولا يعلم كم سنة عاش بعد ذلك.

جاءَ في ترجمة القديس مدلواي الأسقف الافرنسي التي كتبها هوغو في القرن الحادي عشر وأثبتها لاباي (مجلد ١ من مجموعته) وباجيوس في تاريخ سنة ٧٧٦م أنَّ هذا القديس أتى إلى أورشليم سنة ٧٧٢ أو سنة ٧٧٣م وكان بطريركها حينئذ يسمّى أوسابيوس، إلا أنَّ جداول بطاركة أورشليم خلت من أوسابيوس هذا ويرى فيها اسم ايليا الثاني خليفة توادورس الأول. ومن أغلاط سعيد بن البطريق

الفاحشة أنَّ ايليا هذا رقي إلى بطريركية أورشليم في السنة السابعة عشرة لخلافة هشام وقد بويع هشام بالخلافة سنة ١٠٦هـ وهي سنة ٧٢٥م فالسابعة عشرة من خلافته هي سنة ٧٤٢م على أنَّ توادورس سالفه رقي إلى بطريركية أورشليم سنة ٧٥٢م وبقي حيّاً بعد سنة ٧٦٧م كما رأيت. ولا شك في أنَّ ايليا كان حيّاً سنة ٧٨٧م التي عقد فيها المجمع النيقوي الثاني المسكوني. فقد جاءَ في ترجمة ترازيوس البطريرك القسطنطيني التي دوَّنها اغناطيوس الشماس ورواها البولانديون في ٢٥ شباط أنَّ ترازيوس أتى من قسطنطينية إلى نيقية ليشهد المجمع المذكور وكان مصحوباً بنواب البطاركة وفي جملتهم يوحنا الكاهن نائباً عن ايليا البطرك الأورشليمي. وترى توقيع يوحنا المذكور في آخر المجلس السابع من هذا المجمع ولم يشهد البطريركان الاسكندري والانطاكي هذا المجمع لتشوّش الراحة وحفيف الأخطار بالطرق. وقد روى لاونس الدمشقي في ترجمة القديس اسطفانس ابن أخي القديس يوحنا الدمشقي أنَّ راهباً اسمه توادورس سعى بالبطريرك ايليا لدى الحاكم مشنّعاً به فنفي إلى بلاد فارس واستمرَّ فيها سجيناً مكبّلاً بالقيود زماناً وغصب توادورس المذكور البطريركية إلى أن ردَّ ايليا إلى بطريركيته ولا تعلم سنة ردّه ولا سنة موته. والأظهر أنَّ وفاته كانت سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م على ما روى لكويان في المحل المذكور.

وخلف جيورجيوس ايليا وكان كاتبه واختاره هو قبل وفاته على ما روى لاونس الدمشقي في ترجمة القديس اسطفانس المذكور. ومن أغلاط سعيد بن البطريق قوله إنَّ جيورجيوس هذا صير بطريركاً في السنة العشرين لخلافة أبي جعفر المنصور وهي توافق سنة ٧٧٥م. وقد مرَّ أنَّ لكويان رجّح أنَّ ايليا سالفه استمرَّ حيّاً إلى سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م وقال إنَّ جيورجيوس دبَّر البطريركية ثلاثين سنة. فمن سنة ٧٩٦م التي توفي فيها ايليا إلى سنة ٨٠٧م التي قام فيها خليفته توما الآتي ذكره إحدى عشرة سنة فمن أين الثلاثون سنة؟ ويظهر أنَّ هذا البطريرك إنما هو الذي أرسل إلى الملك كرلس الكبير مفاتيح كنيسة القبر المقدس ومحل الجلجلة وراية من أورشليم على سبيل التبرّك. وكان هذا الملك قد أرسل إليه صدقات لتوزَّع على المسيحيين. روى ذلك اندراوس دي شسن (مجلد ٢ من تاريخ المؤلفين الافرنسيين). ولعل هذه الرواية أصحّ من رواية بعضهم أنَّ الخليفة هرون الرشيد أرسل هذه المفاتيح إلى الملك كرلس الكبير. على أنَّ دي شسن لم يذكر اسم

البطريرك وسمّاه بعضهم يوحنا. قال لكويان (في المحل المذكور) الأظهر أنَّ جيورجيوس هذا ولا نعلم متى كانت وفاة هذا البطريرك. ويظهر من تاريخ إقامة توما خليفته أنه مات سنة ٨٠٧ (انتهى ملخّصاً عن المشرق المسيحي للكويان في بطاركة أورشليم مع زيادة على كلامه).

عد ٧٣٥
من عرفناهم من أساقفة سورية في القرن الثامن

عرفنا من أساقفة بيروت في هذا القرن اثناسيوس. والراجح أنه هو الذي كتب خبر الآية الشهيرة التي صنعها الله في بيروت سنة ٧٦٣م والتي يحتفل لذكرها في السنكسارى الروماني في التاسع من شهر آب وقد تلي خبرها مفصَّلاً في المجمع السابع المسكوني وهو النيقوي الثاني في المجلس الرابع. وإليك خلاصة ما رواه أنسطاس المكتبي عن هذه الآية (نقلاً عن مكتبة الآباء اللاتينيين مجلد ١٢٩ صفحة ٢٨٣ من طبعة مين) قال: «كان اليهود كثيرين ببيروت وقد استأجر أحد المسيحيين داراً على مقربة من مجمعهم وكانت في غرفته صورة المصلوب. ولما انتقل إلى دار أخرى غفل عن أن يأخذ تلك الصورة مع أثاثه واستأجر الدار الأولى يهودي وضافه رجل من أمته فأبصر الصورة فقال له كيف وأنت يهودي تدع هذه الصورة في منزلك؟ وطفق يجدّف على المسيح وخرج فأخبر رؤساء المجمع بما رأى. فاجتمع في اليوم التالي حشد من اليهود يؤنّبون ساكن البيت ويهدّدونه وأنزلوا الصورة من محلّها وقالوا هلمَّ نصنع بها ما صنع أجدادنا بالمصوّر بها فبصقوا في وجهها ولطموها وأفرطوا بإهانتها، وقالوا سمعنا أنَّ أجدادنا ثقبوا يديه ورجليه بالمسامير فلنصنع بصورته كذلك وفعلوا ثم ضربوا رأس الصورة بقصبة وطعنوا جنبها بحربة اقتداء بأجدادهم فجرى منها دم وماء غزيران. فقالوا زعم النصارى أنه صنع آيات كثيرة فهلمَّ نأخذ شيئاً من هذا الدم والماء إلى المجمع ونستدعي المرضى والأعلاء وندهنهم بهما ونرى إن كان ما يزعمون حقاً. فأدنوا إناءً من محل الطعنة فملأوه وأتوا به إلى مجمعهم ودعوا المرضى وكان أول من دهنوهم مخلّعاً عند مولده يعرفه أهل المدينة كلهم فقفز يعدو وأتوا بعميان فأبصروا للحال وبأعلاء فبرأوا لساعتهم حتى غصَّ المجمع بحشد المرضى والناظرين، فاستولت الدهشة على الجميع وهتف الكهنة والشيوخ والرجال

والنساء لا شك في أنَّ المسيح الذي صلبه أجدادنا وصلبنا صورته إله حقاً فلنؤمن به ونسأله أن يغفر لنا ومضى كثيرون منهم إلى الأسقف وأخذوا الصورة معهم فقصّوا عليه خبر ما صنعوا والآيات التي رأوها وسألوه أن يعمّدهم فعلّمهم الأسقف وكهنته قواعد الدين المسيحي وشرحوا لهم أسراره وأقام الأسقف أياماً يعمّدهم وحوّل مجمعهم إلى كنيسة على اسم المخلّص وصنع كذلك في سائر مجامع اليهود ببيروت إجابة إلى سؤالهم وعظم السرور وتوالت مجالي الأفراح ببيروت لاهتداء اليهود وإبراء المرضى .

هذه خلاصة المقالة التي كتبها اثناسيوس أسقف بيروت على الأظهر وعند تلاوتها في المجمع السابع المسكوني قال قسطنطين أسقف قسطنسيا بقبرص (على ما روي في أعمال هذا المجمع) إنَّ أعين كثيرين من الأساقفة اغرورقت بالدموع إذ رأوا أنَّ الصور لا يلزم إجلالها فقط بل إنَّ الله يصنع بها معجزات باهرة فقال ترازيوس بطريرك قسطنطينية إن سأل سائل لِمَ لا تصنع الصور التي لدينا مثل هذه الآية؟ فنجيبه بقول الرسول إنَّ الآيات يعطاها غير المؤمنين ومن لجأوا من أهل بيروت إلى صورة المخلّص كانوا كذلك، فصنع الله هذه الآية أمام أعينهم ليقتادوهم إلى الايمان . ومما جاء في المقالة المذكورة إنَّ الأسقف وضع من الدم الكريم في آنية من زجاج ووزّعه في الكنائس وأمر أن يعيّد لذكر هذه الآية في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني . أقول قد رأيت مرات صورة هذه الآية منقوشة في سقف كنيسة القديس بطرس مغلّلاً بالسلاسل في مدينة رومة ومما يحمل على اليقين بصيروزة هذه الآية ما كان في الكنيسة في ذلك القرن من بدعة محاربي الصور الذين كانوا ينكرون على القديسين والصليب التكريم لهم وما جسروا عليه من تمزيق صورهم وحرقها، فتدارك الله هذه العقيدة بصنع هذه الآية وغيرها من الآيات إبكاماً للمخالفين وانتصاراً للحق وقد انتشر خبر هذه الآية مذ حينئذ شرقاً وغرباً والمجمع السابع الذي قضى بصحتها كان عقده سنة ٧٨٧م أي بعد أربع وعشرين سنة من صيرورتها .

قد ذكر هذه الآية الأب ميخائيل جوليان اليسوعي في مقالته التي نشرها في جريدة الرسالات الكاثوليكية التي تطبع في ليون في نشرتها ١٤٢٣ و١٤٢٤ و١٤٢٥م في شهر أيلول سنة ١٨٩٦م وعنون مقالته بعض تذكارات مسيحية ببيروت . ومما زاده فيها على ما رويناه ترجيحه أنَّ كاتب المقالة في الآية المذكورة إنما

هو أحد أساقفة بيروت وأنه كان قد توفي قبل المجمع السابع الذي عقد سنة ٧٨٧م وأنَّ لكويان في المشرق المسيحي جنح إلى التيقّن بأنَّ كاتب المقالة في الآية إنما هو اثناسيوس أسقف بيروت الذي كانت الآية في أيامه، وأنَّ هذه الآية لم يذكرها انسطاس المكتبي وحده بل ذكرها بارونيوس أيضاً في تاريخه لسنة ٧٨٧م وجاءَ ذكرها ثلاث مرات في مكتبة الآباء اليونان التي طبعها مين (مجلد ١٨ صفحة ٧٩٥م وما يليها) وأنَّ كنيسة المخلِّص التي كانت مجمعاً لليهود كان موقعها على مقربة من الجامع المعروف الآن بجامع السراي، وأنَّ الآباء الفرنسيسيين أقاموا ديرهم ببيروت في منتصف القرن الثالث عشر بجانبها. وقال في هذه المقالة إنه كان ببيروت كنائس أخرى عديدة منها كنيسة الأربعين شهيداً وكان موقعها في المحلة الواقعة بين كنيسة الموارنة الكاتدرائية الآن وبين الكنيسة المسكوبية والمسماة الآن محلة الرجال الأربعين وأنَّ الكنيسة الكبرى التي بناها اوسطاتيوس أسقف بيروت في القرن الخامس كانت على مقربة من الكنيسة الكبرى الحاليّة أو في محلّها.

وقد روى الأب جوليان أنَّ صورة المخلِّص التي سال الدم منها نقلها الملك يوحنا سمسق إلى قسطنطينية عندما غزا بيروت في القرن العاشر وأقامها في كنيسة المخلِّص التي بناها في عاصمة ملكه. وقد أسند الأب جوليان روايته هذه إلى لاون الشماس الذي كان في القرن العاشر أيضاً (نقلاً عن مجلد ١١٧ صفحة ٨٩٥ من مكتبة الآباء اليونان في طبعة الأب مين). ويظهر أنَّ المسيحيين أحدثوا مثالاً لهذه الصورة بعد أخذها إلى قسطنطينية وأقاموه في كنيستهم. ويظنّ أنَّ هذا منشأ التقليد الذي استمرَّ في بيروت بالأعصر الخالية بأنَّ هذه الصورة بقيت في كنيستهم وقد ذكر هذا التقليد الأب ناكي اليسوعي في رسالته سنة ١٧٢٠م إلى رئيس جمعيتهم العام.

وقد عرفنا من أساقفة صيدا في هذا القرن بولس منشأه انطاكية دخل الرهبانية أولاً ثم صير أسقفاً على صيدا ذكره ابراهيم الحاقلي في كتابه في اسم البابا وعزا إليه كثيراً من المؤلفات منها محاماة للدين المسيحي اقترحها عليه أحد أصدقائه من المسلمين شرح فيها بعض العقائد المسيحية ولاسيما سرّي التثليث والتجسّد، وقال إنَّ في المكتبة الواتيكانية نسخة من هذه المحاماة وقد ذكرها العلّامة السمعاني في فهرست الكتب الواتيكانية المعلّق على آخر المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٥١١ ك ٥٠ من الكتب العربية وبين كتبه وموضوعاتها فقال: «الكتاب الخمسون

لبولس الأنطاكي أسقف صيدا يشتمل على موجز في اللاهوت مقسّم إلى اثنين وعشرين فصلاً ». وذكر موضوع كل فصل منها: « وعلى مقالة في مجيء المسيح فنّد بها مزاعم اليهود ورسالة أنفذها إلى أحد المسلمين من صيدا بيّن فيها ما يقوله النصارى في محمد وسنّته وصحّة الدين المسيحي ومقالة في البدع يفنّد فيها آراء المبدعين ومقالة في التثليث والتجسّد أنفذها إلى رجل اسمه أبو سرور وخطبة (لم يرد في هذا الكتاب اسم مؤلفها) في تفسير بعض آيات الإنجيل ولاسيما قوله من نظر إلى امرأة ليشتهيها الخ. وخطبة في الايمان القويم وثمانين مبحثاً في مواد شتّى وكتاب في ممارسة الفضائل لم يذكر مؤلفه وإحدى وسبعين قضية مأخوذة عن الأسفار المقدسة والآباء. هذا ما اشتمل عليه هذا المجلد وهو مكتوب على ورق باللغة العربية وأحرفها وعدد صفحاتها ١٦٤ صفحة ». انتهى كلام السمعاني وهو لم يذكر من أية طائفة كان هذا الأسقف ويؤخذ من مقالته في البدع أنه كان ملكياً لأنه يدافع بها عن الملكيين.

وعرفنا من أساقفة دمشق بطرس الثاني وكان في أيام القديس يوحنا الدمشقي وهو الذي اقترح على هذا القديس أن يكتب كتيبه الموسوم بالرأي القويم إذ نراه افتتحه بقوله: « يا أفضل الآباء وأقدس الرعاة أراني يتنازعني عاملا الخوف الجسيم ومشقة الخطبة فأخشى أن أخالف لك أمراً وأرتعد من أن تبهظني الخطة الشاقة على أنني آثرت أن أذعن لأمرك ». يظهر أنَّ الدمشقي كتب هذا الكتاب قبل أن يمضي إلى فلسطين لينضوي إلى الرهبانية وفي مبادي ظهور بدعة محاربي الصور كما يؤخذ عن فقرة في آخره قال فيها: « انبذ كل بدعة إلى البدعة التي نشأت الآن ضد كنيسة المسيح إلهنا المقدسة ». وقد كتب الدمشقي هذا الكتاب ليرفعه الياس أسقف يبرود إلى بطرس رئيس أساقفة دمشق المذكور وكتب الدمشقي أيضاً كتابه في ردّ مزاعم اليعاقبة بإيعاز بطرس أسقفه المذكور وباسمه وأنفذه إلى أسقف داريا اليعقوبي كما يتبيَّن من المقدّمة المعلَّقة على هذا الكتاب وسيأتي لنا الكلام في ذلك. وروى توافان في تاريخ سنة ٧٣٤م (على مذهبه وهي سنة ٧٤٢م على مذهب عامتهم) ما ملخَّصه: « إنَّ بطرس أسقف دمشق هذا جسر أن يؤنِّب الحاكم بحضرته فأمر بقطع لسانه ونفيه إلى بلاد العرب وكان مع ذلك يحسن التلفّظ بكلمات قداسه وصلواته كما حقَّق من سمعوه بأنفسهم ومات بالعربية ». ولا يعلم في أية سنة كانت وفاته. قال لكويان في كلامه عليه بكتابه المشرق

المسيحي «وهو على ما أظنّ بطرس متروبوليت دمشق الذي يعيد له الروم في الخامس عشر من شباط».

وكان في هذا القرن ايليا أسقف يبرود فجاء في عنوان كتاب يوحنا الدمشقي في الرأي القويم في بعض النسخ مدوّناً هكذا كتاب الايمان الذي دوّنه يوحنا الدمشقي الراهب الكاهن ورفعه ايليا أسقف يبرود إلى بطرس متروبوليت دمشق.

وكان في اللاذقية يوحنا تلميذ القديس يوحنا الدمشقي وقد أملى عليه كتابه في المبادي الأولى لإدراك علم اللاهوت كما سيأتي. وذكر الدمشقي قزما أسقف مايوما وأهدى إليه كتابه الموسوم بينبوع العلم وقد افتتح هذا الكتاب هكذا «إلى الأب الكليّ القداسة والورع المكرَّم بالله قزما أسقف مايوما من الحقير يوحنا الراهب الكاهن السلام بالرب». وذكر صاحب الملحق بتاريخ نطاليس اسكندر أنَّ قزما هذا كان من أورشليم وكان ذكيّاً عالماً وذكره سويدا مطرئاً إياه. وكان أولاً رئيس دير ثم رقي إلى درجة الأسقفية على مدينة مايوما التي كان موقعها على مقربة من غزة كما حقّق كاران في كتابه في اليهودية صفحة ٢١٩ إلى ٢٢١ حيث ذكر قزما هذا أيضاً وهو ولا ريب غير قزما معلم يوحنا الدمشقي الآتي ذكره وغير قزما رئيس آخر ذكره يوحنا موسكس في كتابه المرج الروحي. أقول الصحيح أنه قزما رفيق الدمشقي في تعلّمه كما سترى. وهذا ظاهر من المقدمات المعلّقة على تأليف قزما هذا الشعري في مكتبة الآباء اليونان مجلد ٩٨ صفحة ٤٥٧ من طبعة مين من حيث يظهر أنّ قزما هذا كان من أورشليم وكان رفيقاً للدمشقي في دروسه صديقاً دائماً له وقد تعاونا على وضع ضوابط الألحان وصير سنة ٧٤٣ أسقفاً على مايوما وكان قبله أسقف عليها اسمه بطرس.

وكان في فلسطين أيضاً في هذا القرن توادورس أبو كارا. والمعلوم أنه كان تلميذاً ليوحنا الدمشقي ثم رقي إلى أسقفية حران في فلسطين على الأظهر سنة ٧٧٠م. وله مؤلفات مثبتة في المجلد ٩٧ من مكتبة الآباء اليونان من صفحة ١٤٤١م فصاعداً من طبعة مين منها كتاب في ردّ مزاعم اليهود وأصحاب البدع وغيرهم ومقالة في التجسّد واتحاد كلمة الله بالجسد.

وقد ذكرنا استطراداً قزما أسقف ابيفانية أي حماه وحرم البطاركة له لضلاله وقلَّ من نعرف غير هؤلاء في هذا القرن الذي كانت فيه كنيسة سورية في أسوأ

حال من جهة الاضطرابات الداخلية والمنازعات الأهلية ولاسيما من قبل الاضطهاد الذي أجراه ملوك الروم على الكنيسة بسبب تكريم الصور.

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون السوريون ومن عاصرهم في القرن الثامن

عد ٧٣٦

القديس يوحنا الدمشقي وغيره من السوريين

قد ولد هذا القديس بدمشق نحو سنة ٦٧٦م من والدين حسيبين وكان أبوه اسمه منصور وكان عزيزاً عند خلفاء بني أمية مرفوع المقام لديهم، ورأى ذات يوم بين الأسرى النصارى راهباً إيطالياً اسمه قزما كان الغزاة قد أسروه من سفينة فسأله عن حاله وعما يحسنه من العلم فأجابه أنه أتقن كل علوم المسيحيين كالرياضيات والفصاحة والفلسفة واللاهوت، وكان منصور يتطلّب من مدة طويلة رجلاً عالماً ورعاً يلقّن ابنه يوحنا العلم ففكّر أنَّ الله أرسل إليه هذا الكاهن، وسأل الخليفة العفو عنه فأجابه إلى سؤاله وأقام قزما في دار منصور يعلّم ابنه العلوم فتعلّم يوحنا منه نحو اللغة اليونانية والحساب والجبر والهندسة والموسيقى والشعر وعلم النجوم ولاسيما اللاهوت أي علم الدين المسيحي وبرع يوحنا في كلها، وكان رفيقه في هذه الدروس يتيماً من أورشليم اسمه قزما أيضاً ولما أكمل دروسه هجر العالم وأوى إلى دير القديس سابا في ناحية أورشليم واتخذ السيرة الرهبانية إلى أن دعاه الله ليكون أسقفاً على مايوما. واستمرّت الصداقة والإخاء بينه وبين يوحنا الدمشقي كما رأيت آنفاً، وأما يوحنا فمات أبوه بعد تكملة دروسه فأقامه الخليفة رئيساً للجنة مشورته وقرّبه إليه وأعزّه ولكن يوحنا آثر الزهد والانفراد على مجد العالم ورفعة المقام ولحق برفيقه قزما إلى دير القديس سابا وقضى حياته هنالك متورّعاً متهجّداً

منكبّاً على تأليف كتبه الكثيرة الآتي ذكرها حتى قرّ له كل من عرفه أنه كان زينة عصره وفريد مصر. وفي جملة ما عني به تهذيبه الألحان البيعية ووضعه لها ضوابط عاونه عليها قزما رفيقه الذي رقي إلى أسقفية مايو كما مرّ فأخذتها عنهما كنيسة الروم وبعض كنائس السريان وأجهد نفسه في مقاومته بدعة منكري إكرام الصور غير مبالٍ بسخط الملكين لاون اليسوعي وقسطنطين الزبلي عليه مع شدة غلوّهما في تأييد هذه البدعة واضطهاد مخالفيها حتى بالقتل والنفي والتعذيب. وقد زعم بعض من كتبوا ترجمته في العربية أنَّ الملك لاون الإيسوري زوّر رسالة ووقّع عليها بخط يشبه خطّه وأرسلها إلى الخليفة فقطعت يمينه التي كان يكتب بها تفنيد هذه البدعة وأنه أخذ يده المزلومة وخشع إلى صورة العذراء فأعادت إليه يده كما كانت وانتحل عن هؤلاء يوحنا بطريرك أورشليم الذي كان في منتصف القرن العاشر هذه القصة وأخذها عنه كثيرون من المؤرخين وأرى تبعاً للمقدمات المعلّقة على كتب الدمشقي أنَّ هذه القصة لا يوثق بصحتها ولو صحَّت لما غفل القديس يوحنا عن ذكر هذه الآية الباهرة في أحد كتبه ولا ذكر لها في نسخة صحيحة من كتبه وأيضاً لما غفل المجمع النيقوي الثاني الذي عقد سنة ٧٨٧م لإثبات تكريم الصور عن الاستعانة بها لتأييد غرضه. وقد أثبتت هذه القصة في سنكسار طائفتنا في ترجمة هذا القديس في اليوم الرابع من كانون الأول كما وردت في غيرها من تراجم القديسين عند بعض الطوائف الشرقية وأرى الأفضل ترك ذكرها. ففي كنيسة الله آيات أخرى لا تحصى فلا حاجة إلى التشبّث بما كان منها غير مؤكد. وكان الدمشقي بين الآباء الشرقيين كما كان القديس توما الأكويني بين الآباء الغربيين فكل منهما جدَّ في مطابقة مذاهب بعض الفلاسفة القدماء على الفلسفة المسيحية وقد توفّاه الله في دير القديس سابا. قال العلّامة لكويان في مقدماته على كتبه لم تكن وفاته قبل سنة ٧٥٦م. وفي كتب بعض المحققين أنه توفي نحو سنة ٧٥٤م وقد ذكر في سنكسار طائفتنا أنَّ الله توفّاه سنة ٧٥٠م وربما كان ذلك زلة من قلم بعض الناسخين فالأولى إصلاحه وتعيين سنة ٧٥٦م لوفاته. وتعيّد لذكره الكنيسة اللاتينية في السادس من أيار والرومية في ٢٩ من تشرين الثاني وفي ٤ كانون الأول. وقد مرَّ أنَّ كنيسة الموارنة تعيّد له في الرابع من كانون الأول. (انتهى ملخّصاً عن مقدمات كتبه لميخائيل لكويان).

وأما مؤلفاته فكثيرة نذكر منها ما طبع في طبعة الأب مين وهي أجمع مما

سواها، وقد ضمَّنها الأب مين في المجلدات ٩٤ و٩٥ و٩٦ من مكتبة آباء اليونان وأوّلها سبع مقالات لاهوتية أثبتها الأب مين لا بألفاظها بل منسوقة مع شرح العلّامة ميخائيل لكويان لها وثانيها كتابه الذي عنونه ينبوع العلم مشتملاً على ثلاثة أسفار: الأول في المنطق والمبادي الفلسفية يشتمل على ثمانية وستين فصلاً رفعه القديس إلى قزما أسقف مايوما (على مقربة من غزة) المذكور آنفاً. والثاني في المبتدعين وقد عدَّ منهم نحواً من مئة مبتدع. والثالث في شرح الايمان القويم وقد قسمه إلى أربعة أقسام ضمَّن الأوَّل أربعة عشر فصلاً والثاني ثلاثين فصلاً والثالث ثمانية وعشرين فصلاً والرابع سبعة وعشرين فصلاً. والثالث من تأليفه كتاب تفنيده بدعة محاربي الصور وقد قسمه إلى ثلاث خطب مشبعة. والرابع كتابه في الرأي القويم كتبه باسم بطرس رئيس أساقفة دمشق وقد ذكرنا قبلاً فاتحته. والخامس كتابه في ردّ مزاعم اليعاقبة وقد كتب باسم أسقفه بطرس الدمشقي المذكور مراراً. وجاء في مقدمة هذا الكتاب في طبعة الأب مين: «وأما من كان هذا الأسقف اليعقوبي الذي كتب هذا الكتاب لردّه إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية فلا يسهل العلم به. فلم يذكر في فاتحته من هو بل قيل هو من الأمة نفسها ويسمى بالاسم نفسه. وهذا يشير إلى أنه من دمشق واسمه بطرس من أنساب بطرس الأسقف أو اسمه يوحنا من أنسباء الدمشقي نفسه، ويرجِّح الأوَّل لأنَّ هذا الكتاب كتب باسم بطرس ويمكنني أن أقدّر أنَّ اسمه ايليا لأنَّ كتاب الدمشقي الرأي القويم المارّ ذكره كان يلزم ايليا أن يعترف به. وأوضح من ذلك كلمة داريا التي وردت في هذا الكتاب فكأنه يقرأ في عنوانه إلى أسقف داريا، وداريا بليدة قريبة من دمشق».

أقول إنَّ ما ييسّر حلّ هذا المشكل إنما هو ما رواه العلّامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٤٦٧) في كلامه على لاون أسقف حاران أنه كتب إليه ايليا بطريرك اليعاقبة رسالة بها يذكر القديس يوحنا الدمشقي ويردّ أقواله ويسخر منه مسمّياً إيّاه يني لا يوحنا. وإليك ألفاظه في الفصل السادس من رسالته: «هكذا كتب يني الدمشقي في الفصل الثاني عشر من فصوله المئة والخمسين التي كتبها مدافعة عن تعليمكم في جداله» إلى أن يقول: «فعلى هذا النحو زعم يني المذكور نفسه في مقالته التي دوَّنها باسم بطرس أسقفه ليقاومنا بها». ورسالة ايليا هذه إلى لاون الحاراني مثبتة في الكتاب المخطوط السرياني المحفوظ في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٤ من الكتب السريانية. ثم ذكر السمعاني (في المكتبة المذكورة مجلد ٢

صفحة ٩٥) ترجمة ايليا هذا فقال بما ملخَّصه أنه صير بطريركاً على اليعاقبة بعد يوليانس سنة ١٠١٩ يونانية أي سنة ٧٠٨ للميلاد. وكانت مطالعته في كتب ساويرس البطريرك الانطاكي وغيره من أصحاب بدعته قد استغوته فترك الايمان الكاثوليكي ولحق ببدعة أصحاب الطبيعة الواحدة كما أقرَّ هو نفسه في كتابه المحفوظ في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٤ من الكتب السريانية وهو الذي ذكرناه آنفاً وعنوانه (رسالة اعتذار ايليا إلى لاون الحاراني القائل بالطبيعتين متضمّنة بيان ما بعثه على ترك شركة الخلكيدونيين ومشايعته من يقولون إنَّ لسيدنا يسوع المسيح كلمة الله المتجسّد طبيعة واحدة». ولخَّص السمعاني فحوى هذا الكتاب إلى أن قال: «قد أبنّا في المجلد الأوّل أنَّ ايليا صرَّح بهذا الكتاب أنَّ المقالة التي كتبها يوحنا الدمشقي باسم بطرس أسقفه إنما كتبها ردّاً عليه أي على ايليا المذكور». فقد ظهر إذاً أنَّ الدمشقي وضع كتابه الخامس المذكور ردّاً على ايليا بطريرك اليعاقبة هذا.

والكتاب السادس من كتب الدمشقي محاورة لردّ مزاعم المانويين بين مسيحي ومانوي. ويلحق بهذا الكتاب مباحثة بين مسلم ومسيحي ومقالة موجزة في التنين وهو إبليس كل هذا في المجلد الأوّل من تأليفه في طبعة الأب مين وفي المجلد الثاني منها مقالة موجزة في الثالوث الأقدس وتليها رسالة في التقديسات الثلاثية أنفذها إلى يردانس الأرشمندريت حيث نهى عن أن يُزاد على هذه التقديسات يا من صلبت لأجلنا ارحمنا. وفي بعض نسخ هذه الرسالة ما يشعر بأنَّ الموارنة يستعملون هذه الزيادة في صلواتهم وسوف نفنّد ذلك في الملحق في تاريخ الموارنة في آخر هذا الباب ويلي ذلك مقالة في الأصوام المقدسة وأخرى في ثمانية أرواح السوء أي في الخطايا المعروفة بالرأسية لأنَّ كلًا منها رأس لخطايا أخرى وضبطها عامتهم بسبع وعدّها الدمشقي ثماني وهي: النهم، والطمع، والبخل، والغم، والغضب، والكسل، وحبّ المجد الباطل، والكبرياء. فكلامه موعظة بليغة للتحاشي عن هذه الخطايا. وله أيضاً مقالة في المباديء الأولية لإدراك علم اللاهوت أملاها على تلميذه يوحنا أسقف اللاذقية ضمَّنها شروحاً في ماهيات الجوهر والطبيعة والصورة والأقنوم والفصل والخواص وما أشبه، ومقالة في الطبيعة المؤلفة ردّاً على الأشافالي أصحاب الطبيعة الواحدة غير كتابه في ردّ مزاعم اليعاقبة، ومقالة في مشيئتي المسيح ردّاً على أصحاب المشيئة الواحدة، ومقالة في تفنيد بدعة نسطور. وله بعض فقر في موضوعات مختلفة وضوابط وجدول لمعرفة يوم وقوع عيد الفصح،

ومقالة في من توفّاهم الله مؤمنين، ورسالة في الاعتراف، وسلطان الحل والربط، ومقالة في وجوب تكريم الصور ردّاً على الملك قسطنطين الزبلي وجميع أولي البدع، ورسالة إلى الملك فيلبس في القديسين ولزوم تكريم صورهم، ومقالة في الفطير، ومقالة في جسد المسيح ودمه، ومقالة في شرح قواعد الايمان. ثمّ له كتاب في تفسير رسائل بولس الرسول مقتطف من تفسيرات يوحنا فم الذهب ومن أبدع كتبه كتابه في الموازنات المقدسة حيث يورد في كل حقيقة من حقائق الايمان وكل فضيلة من الفضائل المسيحية كل ما جاء إثباتاً لها في جميع الأسفار المقدسة. ويلحق بذلك أقوال الآباء والعلماء. وله خطب كثيرة في تجلّي المخلّص وفي التينة التي يبست والاستعداد لآلام المخلّص والسبت المقدس وبشارة العذراء ومولدها وانتقالها وتقريظ للقديس يوحنا فم الذهب وتقريظ للقديسة بربارة. ويظهر منه أنها كانت من بفلاغونيا. وله أشعار وأغاني وله كتاب ترجمة القديسين برلام ويوصاف اللذين يعيّد في كنيستنا لهما في ٢٧ تشرين الثاني وشرح آلام القديس ارتيميوس عن تاريخ فيلوستورجيوس ومحاورة بين يوحنا الأرثوذكسي ومانوي وجدال مسيحي ومسلم. وله ست قصائد شعرية في مدح بعض الآباء والقديسين ورسالة إلى البابا قسطنطين وفقرات في تفسير بشارة متى.

وقد كان في بداية هذا القرن اندراوس أسقف اكريت. فهذا ولد في دمشق وربما كان رفيقاً للدمشقي في تعلّمه ثم مضى إلى أورشليم وأقام في بعض الأديار مدة. ولذلك يسمّى الأورشليمي. ثم مضى إلى قسطنطينية واشتهر بتقواه وفصاحته وفرغ كرسي اكريت من أسقفه فرقّي إليه وقد جنح أولاً إلى بدعة المشيئة الواحدة لكنه طالع أعمال المجمع السادس فأقلع عن تلك البدعة معتقداً بالمشيئتين كما أقرّ في قصيدة نظمها سنة ٧١٣م. وله خطب كثيرة منها تقريظ بليغ للقديس جيورجيوس الشهيد يبيّن فيه أنّ منشأه الكبادوك ويصف الأعذبة التي أجراها عليه ديوكلتيانس الملك ويعظّم الآيات التي صنعها الله على يده.

ونعلم أسماء كثيرين من العلماء السوريين في هذا القرن ولم نظفر بترجماتهم. من هؤلاء: بطرس ولاونتيوس الدمشقيان واسطفانس كاهن كنيسة أورشليم وانسطاس رئيس دير القديس أوتيميوس بفلسطين صاحب التأليف في الردّ على اليهود الذي ترجمه توريان إلى اللاتينية وطبعه كانيزمس في المجلد الثالث من العاديات أشرت إلى ذلك تنبيهاً لخاطر من يريد التنقيب عن مثل هذه الأمور.

عد ٧٣٧

القديس توافان المؤرخ

كثيراً ما استشهدنا بأقوال هذا المؤرخ فيجدر بنا أن ندوّن ترجمته هنا إذ كان في هذا القرن وهو من مشاهير العلماء قد كان كثيرون من العلماء يسمّون باسم توافان . فمنهم توافان الميليطي كاتب مواقع بمبايوس القائد الروماني الشهير وتوافان البيزنطي الذي كان في أيام الملك يوستينس الثاني وقد كتب عشرة كتب في تاريخ حرب الفرس وتاريخ الرومانيين وذكره فوتيوس في مكتبته ك ٦٤ وتوافان الملقّب بالصغير وكان أسقفاً على نيقية إلى غير هؤلاء . أما توافان الذي ندوّن ترجمته الآن فقد ولد في قسطنطينية وكان أبوه اسحق من أصحاب الثروة والحسب فمات فربّته أمّه وزوجته وعمره اثنا عشر سنة فأغرى عروسه بحفظ العفّة وعنّته حموه والملك لاون ابن الملك قسطنطين الزبلي وأرسله إلى مدينة شيزيك في آسيا الصغرى مع عروسه فاجتمع في مدينة سيفريانة القريبة من هناك برجل اشتهر بالفضل والقداسة اسمه غريغوريوس الشيخ وكان رئيس دير هناك فأنس به وأكثر من التردّد عليه ومات حموه والملك لاون بعد ثلاث سنين فأطلق لعروسه أنّ تدخل برضاها دير راهبات في ذلك البلد وانضوى هو إلى رهبان دير سيفريانة واشتهر بزهده وورعه وفضله وانتدبه الرهبان بعد وفاة الرئيس إلى الرئاسة على الدير وأخذ يناضل عن حقايق الايمان ولاسيما تكريم الصور مقاوماً بدعة محاربيها فحنق عليه الملك لاون المعروف بالأرمني (ارتقى الملك سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٢٠م) فألقاه في السجن سنتين معذّباً إيّاه بالجوع والإهانات ثمّ نفاه إلى جزيرة سمقراط حيث أدركته المنيَّة بعد عشرين يوماً من وصوله إليها ومضى إلى ربه لينال ثواب جهاده ومبراته سنة ٨١٨م على الأظهر . وتعيّد له كنيسة الروم في ١٢ آذار وكذلك كنيستنا المارونية على أنه قيل في تذكاره أنه بعد دخوله الدير حبس نفسه في قلّاية وأخذ يجاهد الجهاد الحسن بعمل يديه وهو نسخ الكتب . وليس ثَمّ إشارة إلى إجهاد نفسه بالتأليف ولا ذكر لسنة وفاته فنحسن زيادة ذلك على ترجمته .

وأما تأليفه فتاريخ ابتدأ فيه من سنة ٢٨٣م وانتهى فيه سنة ٨١٣م وقد شهد العلماء بصحة روايته الأخبار وتحرير الصدق فيها ولكن كثيراً ما انتقدوه في ذكر السنين، وله مذهب في إيرادها مؤخرة سبع أو ثماني سنين عما ذكره عامتهم مثلاً

جعل وفاة الملك يوستنيانس الأوّل وخلافة الملك يوستنيانس الثاني له سنة ٥٥٨م وعامتهم تؤرِّخ ذلك سنة ٥٦٥م. ولعلَّ هذا المذهب كان مطروقاً في أيامه وقد ترجم الأب كوار من رهبان القديس عبد الأحد تاريخه من اليونانية إلى اللاتينية وذيَّله بحواشٍ وأعدَّه للطبع فعاجله الموت قبل أن ينجز عمله فطبعه عالم آخر من هذه الرهبانية وهو كمفيسيوس الشهير في المطبعة الملكية في باريس مزاداً عليه حواشي أخر ثمَّ طبعه الأب مين في جملة مكتبة الآباء الذين كتبوا باليونانية سنة ١٨٦٣م في المجلد ١٠٨ من هذه المكتبة.

عد ٧٣٨

جيورجيوس سنشلس الملازم وبولس الشماس

كان جيورجيوس هذا راهباً وملازماً[1] لدى ترازيوس بطريرك قسطنطينية فكتب في سنة ٧٩٢م تاريخاً ابتدأ فيه من بدء العالم إلى أيام ديوكلتيان ملك الرومانيين سنة ٢٨٣م وكان في عزمه أن يكمله إلى أيامه أي إلى آخر القرن الثامن لكن عاجلته المنية فلم يقدر على تكميله، فأتمه القديس توافان المذكور مبتدئاً من حيث انتهى جيورجيوس أي من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٨١٣م كما رأيت آنفاً. وقال فيه توافان في تاريخه إنَّ جيورجيوس الرئيس ملازم ترازيوس بطريرك قسطنطينية الكلي القداسة كان متسامياً بالعلم والفقاهة دوَّن كتباً كثيرة من التاريخ ودقَّق فيها مجتهداً وابتدأ في تاريخه في آدم إلى أيام ديوكلتيان الملك مضطهد المسيحيين ونقب في أحوال الأعصر وعارض بعضها ببعض وأصلح اخلالاً في تاريخها واهتدى إلى ما غفل عنه غيره وفصلْ أخبار الملوك والقبائل والكراسي أي كراسي رومية وقسطنطينية واسكندرية وأنطاكية وأورشليم وأنبأ عما كان فيها من عقائد الإيمان ومن تتالي الأحبار وذكر البدع ومبدعيها إلّا أنَّ الموت كفَّه عن تكملة تاليفه الذي شرع فيه ومضى إلى لقاء ربِّه لينال ثواب إيمانه القويم ومبراته، وقضت علينا فروض الصداقة التي كانت بيننا وبينه أن نكمل ما لم يقدر على انجازه وقد ترك لنا

(١) كان الملازم عند بطاركة قسطنطينية اكليريكياً يلازم البطريرك ليشهد على اعماله إلى ان أمسى هذا الوصف اسماً لمرتبة أو مقام عندهم.

ما نستعين به على ذلك وقد توفي جيورجيوس في نحو سنة ٨٠٠م وقد طبع تأليفه في مدينة بون في ألمانيا سنة ١٨٢٩م ويظهر أنّه اعتمد فيه على تاريخ يوليوس الافريقي الذي ذكرنا ترجمته وروى روهر بخر (ك ٥٣ من تاريخه) إنَّ محاربي الصور أجروا عليه أعذبة متنوعة وأنَّ أثارها كانت باقية في جسمه وأنَّ أنسطاس المكتبي أطرأه كثيراً وقد قرظه المجمع السابع المسكوني.

أما بولس الشماس ويسمى فرنفريد فكان شماساً في كنيسة أكويلايا وكاتباً للملك ديسيداريوس ملك اللومبرديين الأخير اسره مع ملكه واشراف دولته الملك كرلس الكبير ملك افرنسة سنة ٧٧٤م فاعزه وأكرم مثواه عنده ثم وقعت له شبهة بأمانته فنفاه إلى جزيرة ديوميدا ثم فرَّ منها إلى أريكيزو والي بنافتنو بايطاليا صهر الملك ديسيداريوس المذكور ثم دخل في رهبانية القديس مبارك ورضي عنه كرلس الكبير وكتب له رسالة شعرية يحقق له فيها محبته ورفعة منزلته عنده ويسأله أن يصلي لأجله وقد أدركته الوفاة سنة ٧٩٠م وقيل بعد ذلك بسنين حتى أدرك القرن التاسع ومن تأليفه مختصر تاريخ الرومانيين في مجلدات كثيرة وتاريخ اللمبرديين في ستة كتب يتضمن تاريخهم من خروجهم من سكاندنفيا وينتهي في سنة ٧٤٤. وتاريخ أساقفة متز اقترحه عليه انجلرام أسقفها، وترجمة القديس غريغوريوس الكبير، وترجمة القديس كبريانس أسقف قرطجنة وغيرهما من تراجم القديسين والشهداء ومجموعة خطب اقترحها عليه كرلس الكبير وحضَّ على اقتنائها بعد تأليفه، ويقال إنَّه ألَّف له معجماً علمياً لم يطبع بعد وله ترنيم في فرض الكنيسة الرومانية يقال في عيد القديس يوحنا المعمدان. انتهى ملخصاً عن نطاليس اسكندر وروهر بخر في كلامهما عليه في تاريخيهما.

عد ٧٣٩

بيدا المكرّم

كثيراً ما ورد في كتبنا البيعية ذكر بيدا ولاسيما في تراجم القديسين وهو من مشاهير آباء الكنيسة في هذا القرن فافردنا هذا الفصل لترجمته. ولد بيدا في جزيرة سكوتسيا احدى جزر بريطانيا سنة ٦٧٣م ومنذ حداثته أقامه والداه في دير فرموت لاكتساب العلم والفضيلة ثم صرف حياته في دير جارو فاتقن الفضيلة ونبغ في العلم ودرس الألحان البيعية على يوحنا الذي كان مرنماً في كنيسة القديس بطرس

بالواتيكان، ثم أرسله البابا أغاتون إلى انكلترا مع القديس بناديكتس بسكوب وتعلّم اليونانية من توادورس رئيس أساقفة كنتربري والقديس أدريان الرئيس ورقاه القديس يوحنا أسقف هكسام إلى درجة الشماسية سنة ٦٩١م وعمره نحو تسع عشرة سنة وواظب على تكملة علومه إلى سنة ٧٠٢م حين رقاه الأسقف المذكور إلى درجة الكهنوت وكان اخوته الرهبان يصرفون زماناً كل يوم في عمل اليد فكان يشاطرهم العمل وينكب في ما بقي من وقته على المطالعة والكتابة والصلوة والتأمّل، وأخذ مذ صير كاهناً يؤلف الكتب لخير الدين ويعلم رهبان ديري فرموت وجارو وكل من أراد أن يشهد تعليمه من الرهبان حتى ربا عدد تلامذته على الست مئة. وكان منهم أساقفة ورؤساء وعلماء وكان ينكب في أوقات فراغه على التأليف وقد أخبر عن نفسه في موجز تاريخه لانكلترا أنَّه مذ رقي إلى درجة الكهنوت إلى حين تدوينه الكتاب المذكور (وكان ذلك في السنة ٥٩ من عمره) ألَّف كتباً كثيرة لمنفعة نفسه ونفع الآخرين وعدد تلك الكتب فكانت جملتها خمسة وخمسين كتاباً وموضوعات أكثرها تفسير أسفار العهد القديم والحديث وقلَّما ترك فناً أو علماً ولم يكتب به من فلسفة ولاهوت وتاريخ وفصاحة ورياضيات وجغرافية وعلم هيئة فلكية ونحو وشعر إلى غير ذلك فكان دائرة معارف حية ويمكن أن يقال فيه إنَّه هو الذي فتح كنوز العلوم في انكلترا وافرنسة وألمانيا وله تاريخ موجز عام من خلق العالم إلى أيامه وكتب تراجم القديسين في كل يوم من أيام السنة وتاريخاً مطولاً لكنيسة انكلترا وقسّمه إلى خمسة أسفار تكلم فيه على سكان بريطانيا وأطوارهم القديمة والملوك الرومانيين الذين تولوا فيهم واعتناقهم إيمان المسيح ومشاهير أساقفتهم وفرغ من تأليفه هذا سنة ٧٣١م وكان وديعاً لين العريكة لطيف المعاشرة محبوباً فعلمه واتضاعه أكسباه منزلة رفيعة من الوقار وأبعداه عن حسد الحاسدين وكتب إليه البابا سرجيوس رسالة أنيقة يستدعيه بها إلى رومية ليأنس بمرآه ويستشيره في بعض المهام فلم يلبِّ دعوته ولم يذكر هو هذه الدعوة ولا سبب إحجامه عن تلبيتها اتضاعاً ولم يكدر بيدا من تآليفه إلَّا كتابه في حقب العالم الست فانَّه قسم تاريخ العالم إلى ست حقب كما صنع غيره من المؤلفين أي من آدم إلى الطوفان ومن الطوفان إلى دعوة ابراهيم ومن دعوة ابراهيم إلى داود ومن داود إلى سبي بابل ومن سبي بابل إلى المسيح ومن المسيح إلى نهاية العالم واتَّبع في ذلك حساب السنين على موجب الأصل العبراني تاركاً جانباً حساب الترجمة السبعينية على أنَّ

السنين التي خلت من آدم إلى المسيح على موجب النص العبراني هي نحو من أربعة آلاف سنة فقط مع أنَّ الترجمة السبعينية تجعل هذه المدة خمسة إلى ستة آلاف سنة فسخر منه بعض الجهلة واعتدُّوه مبدعاً وألفوا أغاني للتشنيع به فغمه نسبة البدعة إليه وكتب إلى أحد أصدقائه يعتذر عما قرفوه به ويبين رأيه ويفند زعم من يزعمون تبعاً لبعض اليهود أنَّ العالم سينقضي بعد نهاية ستة آلاف سنة لأنَّ المخلِّص صرَّح بأنَّ ذلك اليوم لا يعلمه إلَّا الآب.

وقد توفي بيدا سنة ٧٣٥ في ديره بجارو وعمره ثلاث وستون سنة ودفن في الدير المذكور ثم نقل رفاته إلى درهام وقد أطلق عليه وصف المكرَّم حتى ظنَّ بعضهم سنداً إلى هذا الوصف أنَّ بيدا لم تحسبه الكنيسة في مصاف القديسين وليس ظنُّهم بصائب فانَّ في كتاب تراجم القديسين في الكنيسة الرومانية يعيد لذكره في ٢٧ أيار ويقال فيه (ذكر وفاة بيدا الكاهن المكرم الشهير بالقداسة والعلم» وقال بارونيوس في حواشيه على هذا الكتاب إنَّ المؤلفين البيعيين نعتوه دائماً بقديس واعتقدوا أنَّه في جملة مصاف القديسين وأحسن ما يقال في تغلُّب وصف المكرم عليه ما رواه الأب ريكاردي معلِّم البلاط الرسولي في كتابه في الطلبات وهو أنَّه عرض لبيدا ما كان للقديس أفرام السرياني من أنَّ بعض الكنائس أخذت تتلو في فروضها في حياته بعض الصلوات التي الفها ولا يمكن إطلاق وصف القديس على الانسان ما دام حياً فكانوا يلقبونه بالمكرم فغلب هذا الوصف عليه بعد وفاته أيضاً وقد وصفه كثيرون من العلماء بقديس بعد وفاته كما مرَّ.

الفصل الثالث

بدعة محاربي الصور والمجمع السابع المسكوني

عد ٧٤٠

بدعة محاربي الصور

أثار الوثنيون واليهود والمانويون وبعض أولي البدع قديماً حرباً على الصور على ما جاء في أعمال المجمع السابع المسكوني في المجلسين الأوّل والخامس على أنَّ من تسبَّب بمحاربتها في هذا القرن إنَّما هو رئيس يهودي اسمه سارانتابك مضى إلى يزيد الخليفة ابن عبد الملك بن مروان فأغراه بأن يصدر أمراً ينهي به المسيحيين عن تكريم الصور في معابدهم لأنَّ استعمال الصور محظور بسنّة المسلمين فانقاد الخليفة لاغرائه وأصدر أمراً ينهي عن ذلك فقلق النصارى. ولما كان هؤلاء الخلفاء قد اعتادوا ترك النصارى وما يدينون لم يتشبث يزيد بتنفيذ أمره بل أغضى عنه فكان أحلم وأعدل من بعض المسيحيين ولاسيما الملكين لاون الأيسوري وابنه قسطنطين الزبلي اللذين أثارا حرباً عواناً على الصور ومن يكرمها حتى زادا كثيرين في عداد الشهداء. فانَّ الملك لاون كان قد وعد اليهود بأنَّه سيصنع كل ما يسألونه ليعاونوه على ترقّيه إلى منصة الملك فبعد أن استوى عليها زينوا له أنَّ تكريم الصور ضرب من عبادة الأوثان وقد نهت عنه الأسفار المقدسة في العهد القديم فانحاز إلى رأيهم وكان في ذلك الحين أنَّ قسطنطين أسقف ناكولية بفريجية طردته رعيته من كرسيه لآثامه فلجأ إلى الملك لاون وتزلف إليه بممالأته له على رأيه بابطال تكريم الصور فازداد الملك جرأة وأمر برفع الصور عن جدران الكنائس فهاج الشعب وماج فاضطرَّ الملك إلى أن يخاتلهم بقوله إنَّه لم يقصد أن ينتزعوا الصور من الكنائس بل أن يرفعوها إلى محل أعلى لا تتّسخ من تقبيل الناس لها وعاد يحتال على تمزيق الصور

وحرقها فناصبه القديس جرمانس بطريرك قسطنطينية وكتب إلى كثيرين من الأساقفة يحذرهم من ممالأة الملك ورفع رسالة إلى البابا غريغوريوس الثاني ينبئه بسوء نية الملك فأجابه مثنياً على غيرته ومشجعاً له على مقاومة هذا الضلال وثار سكان بلاد اليونان والجزائر على الملك فحاربهم وبدد شملهم وازداد قحة وجسارة واستدعى البطريرك جرمانس إليه أملاً أن يستميله إلى رأيه أو يخاتله فذكّره البطريرك بيمينه عند تكليله أن لا يغيِّر شيئاً من تقليدات الكنيسة ولم يخشَ أن يقول له إنَّ من يبطل تكريم الصور يعد دجالاً واستدعى الملك كثيرين من الأساقفة سنة ٧٣٠م وجعلهم يحكمون بالإنكفاف عن تكريم الصور غير مميزين بين الاكرام الإضافي والاكرام المطلق ولا بين التعبد الواجب لله وبين التكريم لقديسيه من أجله، وحاول أن يكره البطريرك على إثبات حكمهم فأبى وآثر العزلة عن كرسيه على توقيعه على ذلك الحكم وانتزع عنه وشاحه وقال للملك اصنع بي ما بدا واطرحني بالبحر إن حسبتني كيونان فلا أحدث شيئاً يخالف الإيمان إلّا بمجمع عام ومضى إلى بلاطه فأرسل الملك جنوداً يطردونه منه فانزوى البطريرك في بيت أبيه يعيش بزي راهب وهناك أنهى حياته السعيدة. وتعيّد الكنيسة الرومانية لذكره في الثاني عشر من أيار وتعيّد كنيستنا المارونية له في ١٣ منه.

وبعد وفاة القديس جرمانس اختار الملك خليفة له أنسطاس تلميذه الخؤون له وأدخله على كرسيه بالعنف والقسوة واكراه الجنود للرعية وأرسل أحد جنوده المسمى يوفينس يكسر صورة للمسيح على الصليب مقامة على باب بلاط الملك، ويقال إنَّ الملك قسطنطين أمر بصنعها ذكراً للصليب الذي ظهر له في الجو فاسرعت إلى هناك جماعة النساء الفتيات تضرعن إلى يوفينس عن كسر تلك الصورة فأعارهن أذناً صماء وصعد على سلم وضرب وجه الصوره بفأس كانت بيده فاقلبت النسوة السلّم ورجم الجندي بالحجارة حتى مات وذهبن إلى دار انسطاس يرجمنه بالحجارة ويصحن به يا عدو الحق الشرير قد اختلست الرئاسة لتنقض تكريم الصور. فشقت على أنسطاس هذه الإهانة وشكى النسوة إلى الملك فأماتهنَّ مع عشرة رجال وكنيسة الروم تعيد لذكر هؤلاء في التاسع من آب. وأحرق بعد ذلك مكتبة كان الملوك أسلافه قد جمعوها وأقاموا عليها اثني عشر عالماً يعلمون العلوم المقدسة والشرائع وكانوا يجلونهم ويستشيرونهم في المشكلات فافرغ الملك مجهوده باستغوائهم ولما لم يذعنوا لغوايته أحاط دار المكتبة بالحطب ليلاً وأقام

جنوداً على المنافذ إليها وأضرم النار فابيدت المكتبة ومن كان فيها وأمر أن يطلو بالكلس أو بالجص ما كان منها على الجدران فأبى كثيرون إلّا المخالفة لأمره فقتل وعوّه كثيرين ونال اكليل الشهادة حينئذٍ كثيرون من الاكليروس والعامة.

وبلغت هذه الأخبار إيطاليا فالقوا إلى الأرض صور الملك ووطئوها فاحتدم غيظاً وكتب إلى رومة آمراً بانتزاع الصور من الكنائس ومهدداً البابا غريغوريوس الثاني بالعزل والنفي إن مانع من تنفيذ أمره، فكتب الحبر الروماني رسالة عامة إلى جميع المؤمنين يحذرهم بها من هذا الضلال ومن مطاوعة الملك عليه وعزم سكان إيطاليا أن يقيموا ملكاً ويحملوه إلى قسطنطينية فيثلوا عرش لاون ويملكوه مكانه، وامل البابا ارعواء لاون الملك عن غيه فجعلهم يحجمون عن حزمهم ثم توفي البابا غريغوريوس الثاني وخلفه سنة ٧٣١م البابا غريغوريوس الثالث ونراه أجاب الملك لاون عن رسالة أنفذها إليه وإلى سالفه قبيل وفاته مبيناً له خطأه ومخالفته سنّة الكنيسة في تكريم الصور ومما قاله له «أتظن أنّك تروعنا بقولك اني أبعث إلى رومة فاكسر تمثال القديس بطرس (هو تمثال قديم شهير كان في رومة) واقتاد البابا غريغوريوس مغللاً بالقيود كما فعل الملك قسطنطس بالبابا مرتينس فاعلم أنّ أحبار رومة قضاة السلم بين المغرب والمشرق وإننا لا نرهب تهديدك بل لا نبالي به» وكان الملك يهين رسل البابا إليه أو يمنع من بلوغ الرسائل إليه واتّصل بحمقه ان جهز أسطولاً وأرسله ينكل باهل إيطاليا ورشا رجالاً من الأئمة ليقتلوا البابا فقيض الله ريحاً عاصفة أغرقت تلك السفن في الأدرياتيك وأحبطت مساعي من تعمدوا اغتيال الحبر الروماني. وتتالت المصائب على الملك لاون فحدثت في مملكته مجاعات وأوبئة وحروب أخذ بها الخلفاء العباسيون كثيراً من أعمال ملكه وأصيب بأمراض كانت تعذبه إلى أنّ سقته كاس المنون سنة ٧٤١م.

وخلف لاون قسطنطين ابنه وهو الملقّب بالزبلي (لأنّه تغوط في ماء تعميده) فكان على شاكلة أبيه بل شراً منه وثار عليه أرتيباستي والي أرمينية وهو من أنسبائه وطرده من قسطنطينية وأخذ في إصلاح ما أفسد ولكن تغلّب قسطنطين ثانياً على الملك فقبض على أرتيباستي وابنيه فسمل عيونهم وفقأ عيني أنسطاس البطريرك بحكم الله العادل وطوفه في المدينة راكباً حماراً ووجهه إلى الوراء لكنه أعاده بعد ذلك إلى كرسيه إذ لم يجد شراً منه فعاجلته نقمة الله وقضي تعساً، وأراد قسطنطين أن يبرئ أعماله بسلطة الكنيسة فجمع كثيرين من الأساقفة سنة ٧٥٤م

في قسطنطينية وعقدوا فيها مجمعاً لم يكن فيه نائب عن الحبر الروماني ولا نواب عن بطاركة اسكندرية وأنطاكية وأورشليم وكان كرسي قسطنطينية فارغاً قضوا فيه بدسائس الملك وتهديداته وشر بعض الأساقفة بأنّه لا يجوز تكريم صور القديسين والالتجاء إلى شفاعتهم لأنَّ ذلك يحسب عبادة صنمية ولم يبق من أعمال هذا المجمع إلَّا دستور الإيمان الذي وضعه وقد ذكره المجمع السابع العام وفنّده. وبعد هذا المجمع ازداد الملك جرأة وقسوة على الكاثوليكيين وقتل وعذب كثيرين ونال كثيرون اكليل الشهادة واختصَّ باضطهاده الرهبان ففرَّ كثيرون منهم من قسطنطينية وما جاورها إلى دير القديس أوكسان في ضواحي نيكوميدية وكان رئيسه أسطفان رجلاً فاضلاً ورعاً فسأله الرهبان ما يصنعون فأجابهم لم يبقَ ناجياً من هذه البدعة إلَّا جزيرة قبرص وليسيا السفلى ومن طرابلس إلى صور إلى يافا ونابولي ورومة فأشير عليكم أن تتصرَّفوا إلى هذه الأصقاع وأنتم تعلمون أنَّ أحبار رومة وبطاركة أنطاكية وأورشليم واسكندرية ينبذون هذا الضلال بل لم ينكفوا عن تونيب الملك برسائلهم على جحوده الإيمان القويم وتورطه بهذه البدعة ويوحنا الدمشقي الكاهن الحكيم الورع الذي يسميه الملك منصور (باسم أبيه) ما برح يوبخ الملك ويحجه بأدلته السديدة. فهذا الكلام الذي رواه روهر بخر عن تاريخ توافان يبين لنا أنَّ بدعة محاربي الصور لم تنشر كثيراً في سورية ومصر وان الخلفاء المسلمين كانوا أحلم وأنصف من لاون الأيسوري وابنه قسطنطين الزبلي وعاجل الله الملك قسطنطين بنقمته فانه بينما كان ذاهباً لمحاربة البلغار أصابته جمرات في فخذيه وقد صحبتها حمى محرقة فمات في طريقه في ١٤ أيلول سنة ٧٧٥م.

فخلف قسطنطين الزبلي ابنه لاون الرابع فأظهر أولاً تشبثه بالإيمان القويم تمكيناً لملكه وأباح الرهبان المشتتين العود إلى أديارهم ولما استتبَّ الملك عاد يحذو حذو أبيه وجدّه إلَّا أنَّ ملكه لم يستمر إلَّا خمس سنين وأصابه مرض أشبه بمرض أبيه فقضى به سنة ٧٨٠م.

وخلف لاون الرابع ابنه قسطنطين الخامس وكان حينئذٍ حدثاً عمره عشر سنين فكانت أمّه ايرينا تدبر الملك وكانت مشهورة بالتقوى والورع والتشبث بالإيمان القويم فكتبت باسمها واسم ابنها الملك إلى البابا أدريانس سائلة إياه أنَّ يأمر بعقد مجمع مسكوني يشهده بنفسه أو بنوابه لاصلاح شؤون الكنيسة فأجابها الحبر الروماني مثنياً على غيرتها وواعداً بارسال من ينوب عنه في هذا المجمع (كل ما في

هذا الفصل ملخص عن تواريخ توافان وشدرانس وزاناراس وغيرهم نقلاً عن تواريخ نطاليس اسكندر وروهر بخر ومعجم التاريخ (لكاران).

يجدر بنا أن نذيل هذا الفصل بكلام موجز يبين حقيقة هذا البحث ولزوم نبذ هذه البدعة أنَّ الدين المسيحي والذوق السليم يرشداننا إلى أنَّ العبادة السامية المعبَّر عنها في اليونانية بلاتريا أي التعبد السامي لا تحق إلَّا لله خالق السماء والأرض وما فيها على أنَّهما يرشداننا أيضاً إلى أنَّه يسوغ لنا أن نكرم بعد الله ولأجل الله بعض المخلوقات التي أبدى بها قداسته وجوده وقدرته كالملائكة والقديسين الفائزين بسعادته بل يقضي علينا الدين والعقل أن نكرم والدينا المحسنين إلينا وملوكنا في الأرض أيضاً وأنَّ في جملة صنوف هذا التكريم أن نصور صورتهم ونكرمها إكراماً يعود إليهم طبعاً لا إلى النسيج أو الورق المصورة عليه الصورة فكيف لا يسوغ إذاً للمسيحي أن يكرم صورة المسيح أو العذراء والدته أو القديسين أصفيائه كما يكرم الابن صورة أبيه أو أمه أو المحسن إليه صورة من أحسن إليه أو أحد خدام الملك أو رعيته صوره وما يبديه الانسان من الإكرام ينظر فيه إلى نيته وندر أن يكون بين أهل الحضارة من يعتقد أنَّ الصورة هي المصور بها نفسه وإن وجد بين أهل الهمجية من هو كذلك لزم إرشاده إلى ما هو معقول لا النهي المطلق عن تكريم الصور الذي لا تنكر منفعته بإيقاظ عواطف العبادة وذكر فضائل المصور، ولم ينه الله بوصاياه عن اتخاذ صورة أو تمثال إلَّا لنبذ عبادة الوثنيين التي كانوا يعتقدون بها أنَّ أصنامهم قوة بنفسها وإن كانت خشباً أو خزفاً أو نسيجاً بل نراه تعالى أمر أن يصنع في مظلة العهد القديم وفي الهيكل كاروبين ونقوشاً وأمر أن تقام الحية النحاسية إلى غير ذلك ومنذ صدر النصرانية استعملت الكنيسة الصور في المعابد ولذلك أمثال كثيرة ذكرها ثقات وقد كشف في مدافن رومة ومخبآتها عن كثير منها وقد نقشت قبل ظهور بدعة محاربي الصور بقرون.

عد ٧٤١

المجمع السابع المسكوني وهو النيقوي الثاني

لما بلغت أجوبة البابا أدريانس إلى الملكة والملك وترازيوس بطريرك قسطنطينية حاوية الترخيص بعقد مجمع مسكوني أرسل البطريرك كهنة متنكرين إلى بطاركة

أنطاكية وأورشليم واسكندرية يستدعيهم أن يشهدوا المجمع إن استطاعوا أو يوفدوا نواباً عنهم إليه وكان الخلفاء وملوك الروم حينئذٍ على عداوة مستمرة فاضطرَّ رسل ترازيوس أن يتزيوا لئلَّا يحسبوا جواسيس فيعرضوا نفوسهم ومن حلوا عنده للخطر إلى أن دخلوا أحد أديار فلسطين واجتمعوا برهبانه واسرّوا إليهم بغرضهم فارتاع أولئك الرهبان وسألوهم أن يحرصوا على كتم سرهم وأن لا يطمعوا في مشافهة البطاركة لئلّا يعود ذلك عليهم وعلى المسيحيين بالضر، فشق على رسل البطريرك أن يعودوا إليه وهم لم يتموا شيئاً مما أراد، وسألوا أولئك الرهبان أن يختاروا منهم من ينوب عن البطاركة في المجمع ويعلموا البطاركة بما صنعوا فاعتذر الرهبان أولاً وألحَّ الرسل فاختاروا كاهنين يوحنا وتوما أمَّا يوحنا فكان شهيراً بعلمه وفضيلته وكان قبل ترهبه كاتباً لبطريرك أنطاكية وأمَّا توما فكان كاتباً لبطريرك اسكندرية ثمَّ ترهَّب وصار رئيساً لدير القديس أرسانيوس في مصر وكان يوحنا نائباً عن توادوريطس بطريرك أنطاكية، وعن إيليا بطريرك أورشليم وتوما نائباً عن بوليتيان بطريرك اسكندرية ونرى توقيعهما في أعمال المجمع: «يوحنا وتوما نائبا الكراسي الثلاثة الرسولية في المشرق» فكأنَّ البطاركة الثلاثة عهدوا إليهما معاً في ما بعد بالنيابة عنهم وعاد الرسل وهذان النائبان إلى قسطنطينية. هذا ما رواه لاباي مجلّد ٧ صفحة ١٧١ .

وعيّن اليوم الأوَّل من شهر آب سنة ٧٨٦م لافتتاح المجمع في كنيسة الرسل في قسطنطينية وأخذ الأساقفة يجتمعون وكان أكثرهم ملوثاً ببدعة محاربي الصور وكان أكثر الشعب وجنود الحرس على شاكلتهم. وقد وثب الجنود يوم افتتاح المجمع على الكنيسة منتضين سيوفهم مهددين المجتمعين، فرأت الملكة والملك ان الأوْلى تأخير افتتاح المجمع إلى وقت آخر. وكان قاصدا البابا بلغا إلى صقلية فكتبت الملكة إليهما أن يتوقفا هناك وأمسكت قاصدي بطاركة المشرق في قسطنطينية واستأتت في شهر أيلول جنوداً آخرين من تراسة وابعدت من العاصمة الجنود الذين كانوا في خدمة حميها قسطنطين الزبلي وقد اشربوا ضلاله، ولما بلغ الجنود المبعدون الأناضول انتزعت سلاحهم وطردتهم من الجندية وأرسلت كلاً إلى بلاده وألحقت به عياله، ولما أمنت من الجنود ورؤسائهم أرسلت في شهر أيار سنة ٧٨٧م تستدعي الأساقفة إلى الاجتماع في نيقية بيتينيا فاجتمعوا في مدة الصيف وافتتح المجمع في ٢٤ أيلول سنة ٧٨٧م في كنيسة القديسة صوفيا، وكان البابا أدريانس قد أرسل

قاصدين يقومان مقامه في المجمع وهما بطرس رئيس كهنة الكنيسة الرومانية وبطرس رئيس دير القديس سابا برومة وأصحبهما برسالتين: الأولى إلى الملك والملكة، والثانية إلى البطريرك ترازيوس.

وقد ذكر في أعمال المجلس الأوَّل اسما قاصدي البابا ثم اسم ترازيوس البطريرك القسطنطيني ثم أسماء نائبي بطاركة المشرق، وكان في المجمع غير هؤلاء نحو من ثلاثمائة أسقف وكثيرون من رؤساء الرهبانيات والأديار، وكان من قبل الملك مفوضان وطلب أساقفة صقلية أن يفتتح ترازيوس البطريرك الكلام ووافقهم الباقون على ذلك فاستهلَّ بالشكر لله على ما أولى الكنيسة من الحرية بعناية الملك والملكة، وحضَّ الأساقفة أن ينبذوا كل أمر محدث وأن يتشبثوا بتقليد الكنيسة الصحيح، وسمح لمن كان من الأساقفة في السنة السالفة قد حاد عن جادة الحق بأن يدخلوا المجمع ويوردوا ما لهم من الحجج، ثم تليت رسالة الملك والملكة إلى آباء المجمع حيث كانا يأمران أن تتلى رسائل الحبر الروماني ليكون معلوماً ما تعتقده الكنيسة الكاثوليكية. ومن بعد تلاوة هذه الرسائل تقدَّم باسيليوس أسقف أنكورا وتوادورس أسقف ميرا وتوادوسيوس أسقف امريون (مدينة بغلاطية) وكانوا في السنة السالفة يدافعون عن محاربي الصور فأعلنوا ارعواءهم عن ضلالهم وعودهم إلى التمسك بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، فأمرهم المجمع أن يجلسوا في كراسيهم ثمَّ تقدَّم سبعة أساقفة آخرون وصرَّحوا بندامتهم على ممالأتهم محاربي الصور وبعد تلاوة قوانين المجامع السالفة وكلام بعض الآباء القديسين في هذا الشأن أمر المجمع هؤلاء الأساقفة أن يقرأوا صك ارعوائهم فقرأوه، فقال ترازيوس إنَّ صكَّ دعواهم مستوفٍ وسوف يقبلون في جملة الآباء في مجلس آخر إن لم يكن مانع.

وعقد المجلس الثاني في ٢٦ أيلول وأتى غريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة الذي كان مترئساً في مجمع قسطنطينية سنة ٧٥٤م فأقرَّ بغلطه وطلب المسامحة فلامه ترازيوس على سوء صنيعه في المجمع المذكور، وأجَّل قبوله إلى المجلس المقبل ريثما يرفع إلى المجمع صك ارعوائه، ثم تليت رسائل البابا أدريانس إلى الملك والملكة حيث كان يثبت تكريم الصور مبيناً أنَّ الكنيسة تلقنت ذلك من القديس بطرس الرسول، ثمَّ رسالة هذا البابا إلى ترازيوس البطريرك وسأله القاصدان أن يثبت كل ما انطوت عليه رسالة البابا فأجاب أنَّ الحبر الروماني بيَّن في كلتا الرسالتين

بياناً شافياً تقليد الكنيسة في اكرام الصور، وأنّه هو فحص بنفسه عن آيات الأسفار المقدسة وأقوال الآباء المؤيدة ذلك، وأنّه متيقن لزوم تكريم الصور تكريماً إضافياً والتعبد لله عبادة اللاتريا وتابعه آباء المجمع كلهم على هذا الإيضاح وعلى اثبات رسائل البابا.

وعقد المجلس الثالث في ٢٨ أيلول سنة ٧٨٧ وقرأ غريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة صك ارعوائه وجلس في جملة الأساقفة، وكذلك كان للأساقفة السبعة الذين مرّ ذكرهم في المجلس الأوّل ثم تليت رسالة ترازيوس إلى البطاركة الشرقيين وجواب هؤلاء إلى البطريرك القسطنطيني، وتبيّن منه أنّهم مذعنون للمجامع الستة المسكونية ونابذون مجمع قسطنطينية الذي عقد سنة ٧٥٤م وسماه أصحابه المجمع السابع العام. ومما قالوا في هذا الجواب إنّ غيبة بطاركة المشرق الثلاثة والأساقفة الخاضعين لهم عن أن يشهدوا المجمع لا ينبغي أن توقف الآباء عن الاجتماع إذ لم تؤذن لهم حالهم السياسية بالمسير إلى أنحاء قسطنطينية كما لم يشهدوا للأسباب المذكورة نفسها المجمع السادس المسكوني، ولم يتوقف هذا المجمع عن بت ما بته من عقائد الدين ولاسيما أنّ الحبر الروماني الأقدس راضٍ عن المجمع وقد أرسل إليه قاصديه وتليت حينئذٍ رسالة أخرى كان توادورس بطريرك أورشليم أرسلها على سبيل العادة إلى بطريركي اسكندرية وأنطاكية، وبها يصرّح بوجوب تكريم صور القديسين. وصرّح قاصد البابا بأن هذه الرسائل مطابقة لتعليم البابا أدريانس والكنيسة الكاثوليكة ..

وعقد المجلس الرابع في ١ تشرين الأوّل سنة ٧٨٧م فأحضر البطريرك ترازيوس كثيراً من كتب الآباء القديسين ليتبين منها تقليد الكنيسة في بحث تكرمة الصور وبُدئ في مطالعة آيات الأسفار المقدسة حيث الكلام في الكاروبيم على تابوت العهد وفي الهيكل، ثم تليت فقرات شتى من كتب الآباء القديسين كيوحنا فم الذهب وغريغوريوس نيصص النزينزي وكيرلس الاسكندري، ثم تقرير كتبه القديس اثناسيوس في المعجزات التي صنعها الله بواسطة صورة المصلوب في بيروت التي أجرى اليهود عليها الأعذبة التي أجراها قدماؤهم على المسيح كما مرّ في عد ٧٣٥ والمعوّل عليه الآن أنّ القديس أثناسيوس كاتب هذا التقرير إنّما هو أسقف بيروت وقتئذٍ ثم تلوا فقراً أخرى كثيرة وفي جملتها فقرة من تأليف لاونس أسقف نيوبولي بقبرص بيّن بها أنّ تكريم الصور لا يراد به الصورة بنفسها بل المصور بها حيث

قال: «إنَّ يعقوب قبّل قميص يوسف لا حباً أو تكرمة لهذا الثوب بل حباً بيوسف الذي كان يخيَّل إليه أنَّه بين يديه إذ كان يقبّل قميصه».

وعقد المجلس الخامس في ٤ تشرين الأوَّل وتليت فيه فقرات أخرى من كتب الآباء والعلماء يتبيَّن منها أنَّ محاربي الصور اقتدوا باليهود والوثنيين والمانويين باعتقادهم أنَّ تكريم الصور عائد إلى الصور بنفسها مع أنَّ الكنيسة الكاثوليكية اعتقدت وتعتقد أنَّ هذا التكريم عائد إلى القديسين ولاسيما الله الذي أظهر قوته، وجوده فيهم إذ منَّ عليهم بنعمه ليثبتوا في محبته ويتحملوا من أجله ما تحملوه من المشاق والأعذبة أيضاً.

وعقد المجلس السادس في ٦ من تشرين الأوَّل وتلي فيه تفنيد دستور الإيمان الذي وضعه مجمع قسطنطينية سنة ٧٥٤م ولاسيما تفنيد زعم أساقفة هذا المجمع بوصف مجمعهم بالمجمع السابع المسكوني مع أنَّه لم يكن فيه نائب عن الحبر الروماني ولا أحد من إساقفة المغرب ولا أحد من بطاركة المشرق أو نواب عنهم وتليت فقرات شتى من الأسفار المقدسة وكتب الآباء تبيِّن وجوب هذا التكريم وقدمه في الكنيسة وبراءته من كل وصمة بعبادة الأوثان والفرق بين اكرام الصور والتعبُّد لله.

وعقد المجلس السابع في ١٣ تشرين الأوَّل سنة ٧٨٧م وتلي فيه دستور الإيمان ورسم المجمع في شأن الصور أمَّا دستور الإيمان فلم يكن إلَّا دستور الموضوع في مجمع نيقية الأوَّل مزيداً عليه الحرم للمبدعين الذين نشأوا بعد ذلك ولاسيما نسطور وأوطيخا وديوسقورس وسرجيوس وقورش وغيرهم وأما رسم المجمع للمؤمنين في شأن الصور فملخَّصه ما يأتي: «إنَّنا بعد أن بذلنا العناية والجد وكل ما أمكن من التدقيق نحكم أنَّ الصور سواء كانت بالألوان أم بمادة أخرى يلزم عرضها لتكريم المؤمنين لها كصورة صليب مخلصنا يسوع المسيح في الكنائس وعلى الآنية والملابس المقدسة وعلى الجدران وفي البيت والطرق نعني صورة سيدنا يسوع المسيح وأمِّه القديسة والملائكة وجميع القديسين فإنَّ النظر إليها بتواتر يحملنا على تذكر من صوروا بها ويوقظ في الناظرين عواطف المحبة والاجلال لهم ويلزم أن يقدَّم لهذه الصور الاكرام والاجلال لا التعبد الحقيقي المعروف باللاتريا الذي يخص به الإيمان الطبيعة الإلهية ولا يجوز تقديمه لغيرها على أنَّه يمكن تقدمة البخور وإسراج

الأنوار أمام هذه الصور كما يكرم بذلك الصليب والأناجيل وغير ذلك من الأشياء المقدسة. وكل ذلك مطابق لما مشى عليه القدماء الصالحون. فان تكريم الصورة عائد إلى من صور بها ومن انحنى أمام صورة انحنى أمام من تمثله فهذا هو تعليم الآباء القديسين والكنيسة الكاثوليكية ومن جسر أن يعتقد أن يعلّم خلافاً لذلك أو كان ناقضاً كالمبدعين تقليد الكنيسة أو أحدث تعليماً مضاداً لذلك أو انتزع شيئاً مما يحفظ في الكنائس كالأناجيل والصليب والصور أو ذخائر القديسين الشهداء أو استعمل الآنية المكرسة أو الأديار استعمالاً عالمياً فنأمر أن كلًّا من هؤلاء يحط عن مقامه إن كان أسقفا أو إكليريكياً ويحرم إن كان راهباً أو عامياً» فوقّع قاصد البابا وجميع أساقفة المجمع على هذا المرسوم وكان عدد الأساقفة ثلاثمئة وخمسة أساقفة وفي جملتهم بعض كهنة وشمامسة كانوا نواباً للأساقفة الغائبين وحرموا أخيراً المجمع الذي عقد في قسطنطينية سنة ٧٥٤م وكتب بعد ذلك ترازيوس البطريرك وأساقفة المجمع رسالتين الأولى إلى الملك والملكة والثانية إلى اكليروس قسطنطينية. فاستدعى الملك والملكة البطريرك والأساقفة إلى قسطنطينية فاجتمعوا في ٢٣ تشرين الأوّل بحضرتهما وتلي باحتفاء عظيم دستور الإيمان ورسم المجمع ووقعت الملكة إيرينا ثم ابنها قسطنطين على ذلك وقد فرض هذا المجمع اثنين وعشرين قانوناً موضوعها بعض التهذيب البيعي ورفع ترازيوس البطريرك إلى البابا أدريانس نسخة من أعمال المجمع ورسالة ضمنها الشرح لكل ما كان فيه فاثبت الحبر الروماني هذا المجمع وارسل نسخاً من أعماله مترجمة إلى اللاتينية إلى الملك كرلس الكبير وغيره من ملوك وأمراء الكنيسة اللاتينية.

وفي سنة ٧٩٤م استدعى الملك كرلس كبير أساقفة مملكته إلى الاجتماع في فرنكفرت فاجتمع أساقفة افرنسة وإيطاليا وألمانيا وانكلترا وكانوا نحواً من ثلاثمئة أسقف وشهد الملك بنفسه المجمع فحرم الأساقفة بعض المبتدعين وفرضوا ستة وخمسين قانوناً ونبذوا في القانون الثاني منها المجمع النيقوي الثاني وسموه القسطنطيني مغترين بأنَّ هذا المجمع أوجب للصور التعبد السامي المعروف بالـلاتريا الذي لا يحق إلّا لله ودونك الفاظ هذا القانون: «سئل ما القول في المجمع الحديث الذي عقده الروم في قسطنطينية حيث قيل فليكن محروماً من لا يقدم لصور القديسين الاكرام والسجود اللذين يقدمان الثالوث الأقدس والجواب انَّ آباء هذا المجمع مجمعون على نبذ هذا التعليم ويحرمون كل نوع من هذا السجود

والتعبد». ومما لا يمتري فيه أنَّ الأساقفة المجتمعين في فرنكفرت لم ينبذوا ما حكم به مجمع نيقية من الاكرام للصور إلَّا لأنَّه قام في ذهنهم غلطاً أنَّ مجمع نيقية أوجب للصور عبادة اللاتريا، مع أنَّ هذا يخالف كل الخلاف لما حكم به في نيقية. فالسواد الأعظم من الأساقفة المجتمعين في فرنكفرت كانوا يجهلون اليونانية والترجمة التي كانت بين أيديهم لم تكن مطابقة للأصل وقد قرأوا فقرة من كلام قسطنطين أسقف قبرص هكذا: «أنا أقبل وأكرم الصور المقدسة والموقرة كما أكرم واعبد الثالوث المحيي والمتساوي جوهراً» والنص الأصلي الصحيح هو «أنا أقبل باكرام الصور المقدسة والموقرة واقدم تعبد اللاتريا للثالوث الأقدس وحده واحرم من يفتكر أو يقول خلافاً لذلك» وعليه فلم تكن مخالفة مجمع فرنكفرت لمجمع نيقية إلَّا من قبيل الغلط والخطأ في الترجمة. (انتهى ملخصاً عن معجم المجامع للأب باليا من طبعة الأب مين).

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

عد ٧٤٢

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

إنَّ ابعاد الملك يوستنيانوس الاخرم اثني عشر الفاً من شبان الموارنة عن لبنان كما مرّ في تاريخهم في القرن السابع قد اضعف قوتهم وأوهن عزيمتهم وعاد بضرر كبير على مملكة الروم إذ كانوا بمثابة سد من نحاس لها كما قال كثيرون من المؤرخين الروم أنفسهم على أنّ هذا لا يخلو من نفع، فقد احكمت التجارب الموارنة وعلمتهم أن لا يصغوا لوساوس الأجانب وأن يؤثروا الطاعة والانقياد للحكومة السائدة بهم على المعاندة والمخالفة لها وعلى مرضاة أصحاب السياسة

الذين لا يهمهم إلّا أغراضهم، فإذا قضوا منهم أوطارهم أحرقوا الآلة نفسها التي استخدموها لنيل تلك الاغراض إذا اقتضت ذلك مصلحتهم فتمثّل الموارنة بهذه الامثولة وكفوا عن تلك الغزوات، وشن تلك الغارات، ولزموا السكينة، واخلصوا في الطاعة لسلطة الخلفاء الأمويين والعباسيين، وتفرغوا لحراثة اراضيهم، وتربية ماشيتهم آمنين، متحصنين بلبنان. ويظهر أنّ حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان، وتعذر احراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم، والمزاحمة لهم في امتلاك اراضيه وغاباته فعاشوا فيه بهذا القرن وما يليه آمنين محافظين على دينهم وشأنهم، ويظهر أنّ الخلفاء كانوا يولون عليهم رجالاً منهم أو ولاةً مسيحيين، بل حقق العلامة السمعاني في الكتاب الرابع من مكتبة الناموس صفحة ٣٩٤ أنّ الخلفاء أبقوا حينئذٍ والياً على المردة من ابناء ملتهم كما كانوا قد ابقوا بطرس الشريف المسيحي والياً في بلاد العرب الحجرية وبنتليون في الارض المقدّسة والياً على بعض المدن، وعزز السمعاني قوله بشهادة ابي الفرج بن العبري في القسم الأول من تاريخه السرياني. وذكر بعضهم امراء للموارنة بعد ابراهيم ابن اخت القديس يوحنا مارون الذي توفي سنة ٧٢٨م مذ القرن الثامن إلى نهاية القرن الرابع عشر، ولكن لما كنا لا نقدر أن نثبت ذلك بأدلة قاطعة عدلنا عن ذكر هؤلاء الأمراء مقتصرين على القول اننا لا نجد في لبنان أثراً من تلك الاعصر يدل على اقامة حكام أو رعايا من المسلمين في انحاء لبنان قبل القرن الثالث عشر فلا أثر فيها لجوامع أو مآذن قبل القرن المذكور ومما لا يمتري فيه المؤرخون أنَّ المسلمين المقيمين على الشطوط البحرية من صيدا إلى طرابلس أو في سفح لبنان الغربي إنَّما كانت إقامتهم بعد أن طرد الملوك المسلمين الصليبيين من هذه الأمصار فاسكنوا عشائر من التركمان وغيرهم من المسلمين في شواطئ البحر ليكونوا حاجزاً بين الافرنج إن عادوا إلى سورية وبين نصارى لبنان فمن هؤلاء من بقي إلى الآن من المسلمين في كورة طرابلس السفلى والبترون وجبيل وآثار الجوامع في المحلات المذكورة وفي ساحل علما وغيرها إلى صيدا.

على أنَّه لا يمكننا أن نصحح ما ورد في تاريخ الموارنة الذي طبع حديثاً في بيروت من أنَّه في سنة ٧٥٢م سار المقدم الياس إلى البقاع فنهب تلك القرى وقتل أهلها فأرسل صاحب الشام إليه رسولاً ليعقد معه صلحاً ثمَّ أرسل فكبسه في حين غفلة وقتله، وبعد رجوع عسكر الشام رجعت القرية تسمى قب الياس أي قبر

الياس وأنّه أقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن أخت المقتول، فثارت عليه عساكر الشام وكانت وقعة بينه وبينهم في قرية المروج ودامت الحرب مدة طويلة فإن صحَّ خبر هذه الأحداث فنظنّها كانت في أواخر القرن السابع لا في منتصف القرن الثامن هذا وقد روى كثيرون أنَّ اسم قب الياس مكسر عن قبر الياس وإنَّ القرية سميت بذلك لقتل أحد أمراء المردة ودفنه فيها. إلّا أنَّ ذلك لم يكن في منتصف القرن الثامن، وأكبر شاهد له ورد بعيد ذلك في الكتاب المذكور نقلاً عن تاريخ ابن القلاعي أنَّ قتل الأمير الياس وولاية ابن أخته الأمير سمعان كانا في أيام عبد الملك بن مروان الذي توفي في أوائل القرن الثامن وفي أيام يوستنيانس الأخرم الذي كانت وفاته سنة ٧١١م. ومما يلزم الانتباه إليه الغلط الواقع في خبر الأمير سمعان المذكور إذ بعد أن قيل إنَّه كان في أيام عبد الملك بن مروان قال إنَّه مضى يزور يوسف أمير جبيل فلاقاه البطريرك غيغوريوس الحالاتي الذي كان في عهد البابا أينوشنسيوس الثاني الجالس يومئذٍ سنة ١١٣٠م. فرياسة البطريرك غريغوريوس الحالاتي على الموارنة في القرن الثاني عشر لا شكَّ فيها ولكن أين هو من الأمير سمعان الذي كان في أواخر القرن السابع؟ فلا مراء في أنَّ النسخة التي نقل عنها من طبع تاريخ الموارنة لم تكن صحيحة، فروى الطابع ما رواه عنها على علاته ولم يتعرَّض تأدباً لرد قول رآه معزواً إلى ابن القلاعي، لكننا على يقين أنَّ ابن القلاعي لم يقل ذلك بل الناسخ جمع بين خبر الأمير سمعان وخبر آخر ذكره ابن القلاعي عن أمير جبيل المذكور وبطريرك الموارنة في أيامه في القرن الثاني عشر إلى أن نقول إنَّ المراد بالبطريرك غريغوريوس لا الحالاتي بل غريغوريوس آخر. فإنَّ الخامس في سلسلة بطاركتنا بعد يوحنا مارون يسمى غريغوريوس أيضاً كما سترى. وحينئذٍ يلزم أن يكون الأمير سمعان لا سمعان الذي كان في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن بل سمعان آخر والله أعلم.

عد ٧٤٣

بطاركة الموارنة في القرن الثامن

قد نظم سلسلة بطاركة الموارنة العلامة البطريرك أسطفانس الدويهي في مقالة أفردها لذلك وترجمها من العربية إلى اللاتينية يوسف عسكر الكاهن الماروني الحلبي وطبعها في باريس سنة ١٧٣٣م، وقد روى البطريرك سمعان عواد الذي دوَّن ترجمة

الدويهي أنَّ هذا البطريرك طاف بنفسه أكثر القرى الكبرى التي يسكنها الموارنة وقلب ما كان في كنائسها أو منازل الوجهاء منها من الكتب القديمة وكانت عادة النساخ القدماء أن يذيلوا ما ينسخونه من الكتب باسم بطريرك الطائفة ومطران الأبرشية في أيامهم فاستعان الدويهي بهذه التعليقات على ما دوَّنه في مقالته المذكورة.

وقد نظَّم العلامة السمعاني أيضاً سلسلة بطاركة أنطاكية الموارنة في مقالة كتبها بالعربية وطبعها القس يوحنا نطين الراهب الحلبي اللبناني سنة ١٨٨١م في رومة بمطبعة مجمع نشر الإيمان المقدَّس، ثمَّ ذكر السمعاني سلسلة هؤلاء البطاركة في كتاب المجمع اللبناني (الذي هو مؤلفه) من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن الذي عقد المجمع اللبناني في أيامه سنة ١٧٣٦م. وقلَّ ما كان من الخلاف بين روايتي الدويهي والسمعاني ونشر المعلِّم رشيد الشرتوني الماروني هذه السلسلة فصولاً متتابعة في مجلة «المشرق» في بيروت للآباء اليسوعيين الأفاضل ثمَّ ضمَّها إلى درج واحد. وقد ذكر العلامة لكويان (في مجلَّد ٣ صفحة ٤٩ وما يليها من مؤلفه الموسوم بالشرق المسيحي) سلسلة بطاركة الموارنة معتمداً فيها على مقالة البطريرك أسطفانس الدويهي التي ترجمها يوسف عسكر المذكور إلى اللاتينية ونحن نعتمد هنا رواية لكويان لاعتقادنا إياها أصح وأسلم من النسخ المخطوطة وأقرب إلى الأصل الصحيح وتزيدها شهادة لكويان وعسكر تأييداً وتحقيقاً.

بعد أن توفى الله القديس يوحنا مارون سنة ٧٠٧م اجتمع أساقفة الموارنة فاختاروا قورش ابن أخته بطريركاً مكانه فكتب إلى الحبر الروماني يلتمس درع الرياسة والتثبيت فأرسله إليه، وقد جاء في ترجمة القديس يوحنا مارون (في المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٤٩٨) إنَّه عند مضيه إلى دير القديس مارون أخذ معه ابن اخته قورش فاتَّشح بالثوب الرهباني. فبعد وفاة خاله جعلوه خليفة له فدبر رعيته تدبير الأبرار المجاهدين إلى حين وفاته التي لا نعلم متى كانت، فاختار الأساقفة خليفة له جبرائيل الأوَّل. قال لكويان روى الدويهي أنَّه بعد وفاة قورش انتخب جبرائيل من جبل لبنان وهذا وجدناه في بعض الكتب القديمة وانَّ الملكية عادوا بعد موت يوستنيانس الثاني إلى الاعتقاد بطبيعتين ومشيئتين بالمسيح وانَّهم اختاروا في أيام قسطنطين الزبلي بطريركاً جعل إقامته في دمشق.

وبعد وفاة جبرائيل اختير يوحنا الثاني وسُمّي مارون أيضاً لأنَّه كان من رهبان القديس مارون وقد كتب عنه ابن القلاعي في قصيدته في المجامع :

وبعدُ، قام مارون ثانٍ من الدير الرباني . معلم شاطر ملفاني . يدعى يوحنا البار . وجاء ليانوح وبطرك كان . ومسكنه في جبل لبنان . وإيمان مارون ما تغيَّر .

وعندما رأى نفسه قريباً من الموت استدعى الأساقفة والكهنة واختار لهم بطريركاً يدعى يوحنا، وهو الثالث بهذا الاسم وكان من قرية دملصا ببلاد جبيل. قال الدويهي وعنه لكويان إنَّ هذا وجد مدوناً في كتاب قديم كتب فيه خبر وفاة يوحنا الثاني المذكور .

قال لكويان (في المحل المذكور) قال الدويهي إنَّ هؤلاء البطاركة لا شكَّ في أنَّهم توطنوا في جبل لبنان وخلف أحدهم الآخر، ويؤيِّد ذلك رسالة كتبها الأسقف جبرائيل القلاعي إلى القس جرجس بن بشاره فصل ١١ سنة ١٤٩٥م، وقد وجدنا أسماءهم مدونة في صفحة كتبت باللغة السريانية وكانت هذه الصفحة عند سالفنا البطريرك جرجس من قرية بسبعل مأخوذة عن كتاب كتبه رجل اسمه داود بن ابراهيم سنة ١٦٢٦ يونانية توافق سنة ١٣١٥ للميلاد، فهو قبل أيام ابن القلاعي بنحو مئة وثمانين سنة واطلعنا أخونا المحترم جرجس حبقوق مطران العاقورة على نسخ كثيرة تذكر هؤلاء البطاركة ولم يتعيَّن بها مدة بطريركيتهم فكتبنا كما وجدنا. اما القس جرجس بن بشاره المذكور فكان مارونياً وانحاز إلى اليعاقبة فكتب له الأسقف جبرائيل القلاعي كتاباً مستقلاً يفنّد به مذهب اليعاقبة، ويبين له أصل الموارنة وثبوتهم في الإيمان الكاثوليكي .

ولما كنا لا نعلم عدد السنين التي دبر بها كل من هؤلاء البطاركة الأمة المارونية افترضنا أنَّهم كانوا في هذا القرن الثامن تقريباً فوقفنا عند ذكرهم في تاريخ هذا القرن .

عد ٧٤٤

توافيلس الرهاوي الماروني

قد أخذ السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٥٢١) ترجمة توافيلس هذا عن أبي الفرج بن العبري في تاريخ الدول لسنة ١٦٥ للهجرة، فقال إنَّه اشتهر

سنة ٧٧٠م: «وحكي أنّه لمّا همّ المهدي بالخروج إلى ماسبذان تقدّم إلى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت إلى توفيل بن توما النصراني المنجّم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدي (يراد بالمنجّم الخبير بعلم النجوم ولا يخفى ما كان لهم في ذلك العصر من الرغبة في رعي النجوم) قائلة له إنّك أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفراً لم يكن في الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك. فلما بلغته رسالتها قال للجارية التي أتته بها ارجعي إليها وقولي لها إنّ هذه الإشارة ليست مني، واما دعاؤك عليّ بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تتوهمي أنّ دعوتك استجيبت، ولكن اعدي لنفسك تراباً كثيراً فإذا مت فاجعليه على رأسك. فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعد عشرين يوماً وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى، وله كتاب تاريخ حسن ونقل كتابي أوميرس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة». انتهى كلام ابن العبري.

وذيل السمعاني قوله بأنّ توفيل كان على مذهب الموارنة بحاشية قال فيها: «هذا ما قاله المؤلف اليعقوبي وهو ناطق بالدلالة على كذب تيموتاوس القس القسطنطيني أو الأولى أن نقول ما كتب باسمه في نسخة كمبيفيسيوس (مجلّد ٢ في المؤلفين صفحة ٤٥٩)» إنّ الموارنة ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس «فلو صحّ هذا الزعم ما ميزهم قط أبو الفرج عن اليعاقبة ولا جعلهم فرقة مستقلة عمّن سواها من فرق النصارى».

على أنّ لابن العبري قولاً آخر في توافيلس هذا أكثر بياناً فإنّه قال في كتاب تاريخه السرياني الذي طبع في باريس (صفحة ١٢٧) ما ترجمته: «وقد اشتهر في هذا الزمان (أي زمان المهدي) توافيلس بن توما الرهاوي المنجّم الماهر الذي كان تابعاً لبدعة الموارنة وله في التاريخ كتاب نفيس بالسريانية وإن طعن فيه على مستقيمي الإيمان وقرعهم» يريد بمستقيمي الإيمان اليعاقبة أهل شيعة ابن العبري، ولذلك سمى مذهب الموارنة بدعة وهذه بينة أخرى قاطعة على براءة الموارنة من بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة.

وأتمّ السمعاني ترجمة توافيلس بقوله قد توفاه الله على ما روى ابن العبري سنة ١٦٩هـ أي نحو سنة ٧٨٥م وهي السنة التي توفي المهدي بها. وذكر أبو الفرج

تاريخ توافيلس في كتابه المذكور أيضاً صفحة ٦٣. ويتبيَّن مما رواه ان رأى توافيلس أنَّه كان من خلق العالم إلى بدء ملك اسكندر المكدوني ٥١٩٧ سنة (فاذا أضفت إليها ٣١١ من اسكندر إلى الميلاد كانت جملة السنين من آدم إلى الميلاد على رأيه ٥٥٠٨). وقد حقق الحاقلي (في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي في المؤلفين صفحة ١٨٠) إنَّ رأي جمهور العلماء السريان أنَّ توافيلس الرهاوي إنَّما هو الذي جعل صورة الحركات السريانية الخمس على شبه صورة الحركات اليونانية في ترجمته كتب أوميرس كيلا تختلف الألفاظ السريانية لاسيما الأعلام التي تكتب في اللغتين بأحرف واحدة عن الألفاظ اليونانية. وقد ذكر السمعاني ذلك في محل آخر أيضاً (المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٦٤) متكلماً في الكتاب السرياني القديم وهو الثالث من الكتب التي أتى بها من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية مشتملاً على تفسير القديس أفرام السرياني لأسفار العهد القديم، وقد خطَّ سنة ١١٧٢ يونانية وهي سنة ٨٦١م. حيث قال «ومما يلزم الإنتباه إليه في هذا الكتاب القديم إنَّما هو أنَّ صورة الحركات الخمس السريانية فيه هي أشبه بصور الحركات اليونانية ويحققون أنَّ مخترع هذه الصور إنَّما هو توافيلس الرهاوي الماروني ... فانَّه عند ترجمته أشعار أوميرس من اليونانية إلى السريانية ضبط الألفاظ الملتبسة بالحركات اليونانية فتابعه على كتابة صور هذه الحركات على هذا النحو السريان إلَّا النساطرة. وكتابة الكتاب المذكور القديم جداً تؤيِّد هذا الأمر في مواضع كثيرة منه ولاسيما تفسير القديس أفرام لنبوة هوشع في صفحة ١٣٣ و ١٣٤ منه وارد أمثلة لذلك». إلى أن قال «وقد أبنَّا أنَّ هذا الكتاب خطَّ في الرها سنة ٨٦١م أي بعد وفاة توافيلس بنحو من سبعين سنة ومن نظر في الكتاب المذكور علم أنَّ ناسخ هذا الكتاب إنَّما هو الذي ضبطه بالشكل».

عد ٧٤٥

رد ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على الموارنة

إنَّ في بعض نسخ كتب القديس يوحنا الدمشقي فقرتين استشهد بهما خصوم الموارنة للطعن فيهم الأولى في رسالته إلى بردانوس الأرشيمندريت في التقديسات الثلاثية جاء في بعض نسخها ما يأتي: «إنَّ زيادة يامن صلبت لأجلنا على التقديسات الثلاثة» هي من هذيان بطرس القصار فانه لم يخجل أن يلحق هذه

الزيادة على التقديسات بل أقدم بقحة وجسارة ودون خجل كأنَّه أعلم من الساروفيم وكأنه ظنَّ ذلك ثوباً متسخاً أراد تنظيفه كقصار، فان ترنمنا بالتقديسات الثلاثة موجهة إلى الابن فلا يبقى التباس ونكون زدنا الصلب على التقديسات كما يصنع الموارنة ». وفي اليونانية مارونيزمن أي نتمورن .

فنجيب على ذلك أولاً أنَّ في المكتبة الملكية في باريس نسختين من هذه الرسالة إحداهما في عد ١٨٢٩ والثانية في عد ٣٤٤٢ وفي كلتا النسختين لا ترى كلمة «ماترونيز من» أي نصنع كالموارنة بل ترى في مكانها «بارونيز من» أي نصنع كما يصنعه السكارى. وقد طبعت هذه الرسالة في بال والكلمة فيها «بارونيز من» لا «مارونيز من». وقد ذكر ذلك الأب ميخائيل لكويان الذي ترجم كتب الدمشقي إلى اللاتينية وذيلها بحواشٍ فصرَّح في الحاشية التي علقها على الفقرة المذكورة أنَّ الكلمة في نسختي المكتبة الملكية المذكورتين وفي طبعة بال «بارونيز من» لا «مارونيز من». ومع ذلك تراه في حاشيته المذكورة متردداً في هذا البحث بين أن يصحح ما ورد في بعض النسخ على الموارنة وبين أن يبرئهم من الضلال سنداً إلى أنَّ هذه الزيادة تستعمل بمعنى كاثوليكي وقد استعملها الموارنة كذلك، على أنَّه لم يبقَ بعداً على هذا التردد بل أثبت في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي بحجج قاطعة وبينات دامغة ثبوت الموارنة في كل حين في الإيمان الكاثوليكي كما رأيت في ما أوردناه من كلامه في الباب السابق. وقد طبع لكويان ترجمته لكتاب الدمشقي سنة ١٧١٢م في باريس وكتابه الشرق المسيحي طبع سنة ١٧٤٠م .

ثانياً إنَّ كلمة مارونيزمن أي نصنع كالموارنة لا تلتحم بكلام الدمشقي السابق والتابع فهو قد عدد في أحد كتبه جميع المبدعين والبدع من سيمون الساحر إلى بدعة محاربي الصور التي نشأت في أيامه ولم يذكر الموارنة في جملتهم، وتكلم في المجامع الستة العامة وبين من نبذتهم وحرمتهم ولم يأت ببنت شفة تدل على الموارنة. ورد مزاعم اليعاقبة في مقالة أفردها لذلك ولم يشر بخطة إلى متابعة الموارنة لهم على بدعتهم أو على زيادة ذكر الصلب على التقديسات، وقد تكلَّم في الفقرة المعترض بها على قحة بطرس القصار واقدامه على الزيادة المذكورة فلا يلتحم هذا مع قوله مارونيزمن بل كان الأولى أن يقول نيافيزومن أي نصنع كبطرس القصار المسمى نيافايوس أو ياكوبيزمن أي نصنع كاليعاقبة .

ثالثاً إنَّ السريان والروم والعرب لم يكونوا يسمّون في أيام الدمشقي الموارنة موارنة بل مردة كما سماهم توافان وشدرانس وزاناراس وغيرهم وكما حقق السمعاني في مكتبة الناموس (مجلَّد ٥ صفحة ٤٩٥) ولا عجب من أن يكون أحد خصوم الموارنة بدل حرف الباء من كلمة بارونيزمن بحرف الميم حتى صارت مارونيز من، وقد رأينا أصحاب البدع والأغراض السيئة حرّفوا كثيراً من أقوال الآباء وأدخلوا على بعضها فقرات بل فصولاً برمتها. ونسخة المكتبة الملكية في باريس التي وردت بها كلمة مارونيزمن هي أحدث من النسخ التي وردت فيها كلمة بارنيزمن كما حقق البطريرك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون (فصل ١١).

رابعاً لو سلمنا مجاراةً أنَّ الدمشقي كتب مارونيزمن لم ينتج من ذلك أنَّ الموارنة لم يكونوا كاثوليكيين إذ لنا بيّنات قاطعة على أنَّ زيادة ذكر الصلب على التقديسات لم تعتدها الكنيسة دائماً أراتيكية فان القديس أفرام الآمدي البطريرك الأنطاكي أثبت في محاماته عن القديس لاون الحبر الروماني والمجمع الخلكيدوني أنَّ هذه الزيادة يستعملها الكاثوليكيون في بطريركية أنطاكية بمعنى كاثوليكي، فيسبحون المخلِّص بقولهم يا من صلبت لأجلنا ارحمنا وأمَّا أهل بطريركية قسطنطينية والغربيون فيوجهون هذه التقديسات إلى الثالوث الأقدس المتساوي جوهراً فيأنفون من هذه الزيادة، وعليه فالفريقان أرثوذكسيّان: «روى كلامه هذا فوتيس في مكتبته كتاب ٢٢٨ ومثل ذلك قال اولوجيوس البطريرك الاسكندري على ما روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٥٢٠) والقديس اسحق الكبير في خطبته في الام الكلمة المتجسد والقديس يعقوب السروجي في خطبته في الآلام أيضاً (طالع المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٢٢٣)، وقال القديس يوحنا مارون في كتابه في شرح رتبة القداس الذي اثبتنا نسبته إليه: «نرى أنَّه يلزمنا أن نبيِّن لكم هنا إجابة إلى سؤالكم أيها الأبناء الأعزاء إذا كان يجوز استعمال هذه الزيادة ومتى يجوز ذلك فاعلموا أنَّ هذا الترنيم يوجه تارة إلى الثالوث الأقدس المسجود له فلا يجوز قطعاً أن يلحق بذلك يا من صلبت لأجلنا لأنَّ هذا ضلال بطرس القصار البطريرك الأنطاكي الذي كان يزعم أنَّ الثالوث بجملته صلب، وقد عزا الآلام إلى طبع تنزه عن كل ألم وهو اثم يرجح على كل أثم ولذلك حرم وحطَّ عن كرسيه بكل عدل .. وأمَّا إذا خصَّ هذا الترنيم الابن

وحده فلا مانع من أن يزاد على ذلك ذكر الآلام والصلب والموت والدفن وسائر أسرار فداء المخلّص لنا لأنّ ابن الله تألّم ومات وصلب حقاً».

إنّ الأب نو أستاذ كلية باريس الكاثوليكية عثر على كراريس قديمة وأذاعها في السنة السالفة في اللغة السريانية ثمّ ألحقها بترجمتها إلى الفرنسية في كتابه الذي عنوانه «كراسات مارونية» وفي جملتها كراسة عثر عليها بين الكتب السريانية المخطوطة في باريس في عد ٢٠٣ تشتمل على محاورة بين سرياني ويوناني في هذا الموضوع، فاليوناني يسأل السرياني قل لي أيّها السرياني لماذا تزيدون يا من صلبت لأجلنا عندما تصلون قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت؟ فيجيبه السرياني مبيناً نفع هذه الزيادة إلى أن يقول له اليوناني ألا تعلم أيّها السرياني أنّك إذ تقول قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت تسبح الثالوث الأقدس، وإذ تزيد على ذلك يا من صلبت تصلب الثالوث الأقدس، فأبن لي أين وجدتم مكتوباً أنّ الثالوث صلب، ومن علمكم من آبائكم هذه الزيادة؟ فيجيبه السرياني أتقول إنّ أحد أقانيم الثالوث تجسّد أم الثالوث كلّه؟ فقال اليوناني نقول أحد الأقانيم تجسّد لا الثالوث كلّه، فأجابه السرياني إن كان واحد من الأقانيم الثلاثة تجسّد لا الثلاثة تجسّد الثالوث كلّه، فنحن نقول إنّ واحداً من الأقانيم الثلاثة صلب لا الثالوث كلّه لأنّ من لم يتجسّد لم يصلب، ونحن أيّها اليوناني لا نقول إنّ الثالوث صلب كما تزعم، بل نعترف أنّ أحد أقانيم الثالوث صلب لأجلنا فإذا قلنا: قدوس الله الذي صلب لأجلنا لا نقصد ولا نعني الثالوث كلّه بل أحد أقانيم الثالوث وهو ربنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور». فهذا أيضاً برهان صريح على أنّ السريان الكاثوليكيين كانوا يفهمون هذه الزيادة بمعنى كاثوليكي وإذا ثبت أنّ الموارنة استعملوها بهذا المعنى فلا يؤخذ من ذلك أنّهم كانوا غير كاثوليكيين ولو ثبت أنّ الدمشقي قال مارونيزمن مع أنّ ذلك غير ثابت كما رأيت، على أننا لا ننكر أنّ هذه الزيادة استعملت وقتاً ما في كتب فروضنا ولكن بالمعنى الكاثوليكي الذي أشار إليه القديس يوحنا مارون والذي أثبته القديس أفرام البطريرك الأنطاكي وغيرهما كما مرّ. ولذلك لما أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر (في رسالته ١٤ شباط سنة ١٥٧٧م) برفع هذه الزيادة من كتبنا البيعية لم يوجب على الموارنة شبهة بدعة بل أثنى عليهم اقتفاءً بآثار سلفائه وأطرأ ثبوتهم كل وقت في الإيمان الكاثوليكي

وقال إنَّ هذه الزيادة دخلت في كتبهم دون تعمد وقصد وأمر برفعها ليكونوا متفقين مع الكنيسة الرومانية في كل تقليداتها » .

وأمَّا الفقرة الثانية التي يعترض بها على الموارنة من كتب الدمشقي فقد وردت في بعض نسخ كتابه الموسوم بالرأي القويم وقد عنونت بعض نسخه هكذا « كتيب ألَّفه الدمشقي ليرفعه إيليا الأسقف إلى بطرس متريبوليت دمشق ». ففي آخر هذا الكتيب يقال في بعض النسخ « أقسم بالثالوث الأقدس المسجود له والمتساوي جوهراً دون مكر ولا مخاتلة، إنَّ هذا ما أراه ولا أعتقد شيئاً يخالفه ولا أشترك مع أحد ممن لا يعتقدون هذا المعتقد ولاسيما الموارنة ». فهذه الفقرة يمكن ردها بما ردت به الفقرة الأولى من البراهين التي ذكرناها آنفاً لأنَّ قوله: « ولاسيما الموارنة » لا وجود له في نسخ كثيرة من هذا الكتاب ولا يتنسق مع كلام الدمشقي الذي لم يذكر الموارنة في جملة أصحاب البدع وقد عدَّ منهم نحواً من مئة بدعة وذكر في هذا الكتاب نفسه المجامع الستة العامة ومن حرموا فيها ولم يأت بذكر الموارنة فضلاً عن أنَّهم كانوا في أيام الدمشقي يسمون مردة لا موارنة. وكل ذلك يبين أنَّ قوله ولاسيما الموارنة رقعة أدخلتها يد حديثة على كلامه أو هو تحريف والأصل « ولاسيما المانويين » الذين كان بعضهم قد جدد بدعتهم في ذلك العصر. وكتب الدمشقي محاورة بين مسيحي ومانوي كما رأيت في جدول كتبه وقد رد هذه التهمة المعزوة إلى الدمشقي العلامة السمعاني في مؤلفه مكتبة الناموس (ك ٥ فصل ٢٠) ومرهج بن نيرون الباني في مقالته في أصل الموارنة وأسمهم ودينهم (صفحة ١٣١) والبطريرك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون (قسم ٣ فصل ١١) والبطريرك بولس مسعد في كتابه الموسوم بالدر المنظوم (صفحة ١٤٩)، بل إنَّ الأب ميخائيل لكويان الذي كان قد جنح في ترجمته كتاب الدمشقي إلى رأي خصوم الموارنة قد ارعوى عن رأيه هذا في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي وأثبت في مواضع شتى في المجلَّد الثالث منه براءة الموارنة من كل ضلال، وقد أوردنا كثيراً من أقواله في تاريخ الموارنة في القرن السابع بل نظم سلسلة بطاركة الموارنة من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن الذي قال في آخر كلامه إنَّه البطريرك الآن على الموارنة إذا لم يكن قد توفي ولم يقل في أحد منهم إنَّه ضلَّ عن الإيمان بل ذكر جميعهم بمنزلة بطاركة كاثوليكيين. طالع أيضاً كتابي روح الردود في الرد على هذه التهمة.

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع

القسم الأوَّل

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأوَّل

الخلفاء في القرن التاسع وما كان من الأحداث في أيامهم

عد ٧٤٦

الأمين بن هرون الرشيد

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن الثامن بذكر وفاة هرون الرشيد سنة ٨٠٩م فبعد وفاته في طوس كما مرَّ بايع عسكره ابنه الأمين بالخلافة وكان الأمين في بغداد، فأرسل إليه أخوه صالح خاتم الخليفة والبردة والقضيب وأخذت له البيعة ببغداد وتحول إلى قصر الخلافة وقدمت عليه زبيدة أمّه من الرقة ومعها خزائن الرشيد. ومن الأحداث في أيامه انَّه في سنة ١٩٤هـ وهي سنة ٨١٠م اختلف أهل حمص على عاملهم اسحق بن سليمان فانتقل عنهم إلى سلميّة فعزله الأمين واستعمل مكانه عبدالله بن سعيد الحرسي (وعن الكامل لابن الأثير الحرشي بالشين) فقاتل أهل

حمص حتى سألوا الأمانة فأمنهم. ولم يكن الأمير من أهل السياسة ففي سنة ١٩٥هـ وسنة ٨١١م أبطل اسم المأمون أخيه من الخطبة وكان أبوهما عهد إلى الأمين ثم من بعده إلى المأمون وخطب الأمين باسم ابنه موسى ولقبه بالناطق بالحق. وكان موسى طفلاً صغيراً فأدّى ذلك إلى خلاف بين الأخوين وجهز الأمين جيشاً لحرب أخيه المأمون وأمَّر عليه علياً بن عيسى بن ماهان، وكان طاهر بن الحسين في الري من قبل المأمون بعسكر قليل فخلع طاهر بيعة الأمين وبايع المأمون واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فانهزم عسكر الأمين وقتل علي أميره ورفع رأسه إلى طاهر فأرسله إلى المأمون فأمر المأمون أن يخطب له ويخاطب بأمير المؤمنين. ثم سير الأمين جيشاً آخر أمَّر عليه أحمد بن مرشد وعبدالله بن حميد لحرب طاهر فاختلفا في طريقهما فرجعا ولم يلقيا طاهراً فتقدَّم طاهر قاصداً بغداد وأتبعه المأمون بهرثمة وجيش آخر، فحاصرا بغداد سنة ١٩٧هـ وهي سنة ٨١٣م ومنعا دخول الميرة إليها، فغلت الأسعار ودام الحصار وشدَّة الحال إلى أن انقضت هذه السنة ثم هجم طاهر على بغداد سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م بعد قتال شديد ونادى مناديه من لزم بيته فهو آمن، وأخذ الأمين أمَّه وأولاده إلى عنده بمدينة المنصور وتحصن بها وتفرق عنه عامة جنده وخصيانه، وحاصره طاهر هناك وسدَّ عليه المنافذ، فطلب الأمين الأمان من هرثمة وأن يطلع إليه فراجع هرثمة في ذلك إلى طاهر فأباه وخرج الأمين وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود، فأرسل إليه هرثمة يقول إني غير مستعد لحفظك فأقم إلى الليلة القابلة، فأبى الأمين إلَّا الخروج ودعا ابنيه وضمهما إليه وقبلهما وبكى، ولما بلغ الشط وجد حراقة (وهي نوع من السفن بها مرامي) هرثمة فصعد إليها فاحتضنه هرثمة وقبَّل يديه ورجليه ثم شدَّ أصحاب طاهر على حراقة هرثمة حتى غرقوها، فاخرج الملاح هرثمة من الماء وأمَّا الأمين فشقَّ ثيابه وسبح إلى الجانب الآخر فأخذه بعض أصحاب طاهر وهو عريان، فحبسه طاهر في بيت وأرسل إليه ليلاً قوماً من العجم فقتلوه وأخذوا رأسه فنصبه طاهر على برج من أبراج بغداد، ثمَّ أرسله إلى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل إليه البردة والقضيب. (روى بعضهم أنَّ الأمين فرَّ فأدركه بعض الجنود فقطعوا رأسه وأتوا به إلى طاهر) ودخل طاهر المدينة وصلى بالناس وخطب للمأمون وكان قتل الأمين لست بقين من المحرم سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م، وكانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة (ملخَّص عن تاريخ أبي الفداء جزء ثانٍ صفحة ٢٠ وعن تاريخ ابن خلدون وغيرهما).

ومما قالوا في الأمين إنّه كان منهمكاً في اللذات أرسل إلى جميع البلاد في طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن اخوته وأهل بيته، وقسم الأموال والجواهر في خواصه وفي الخصيان والنساء وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد وصوَّر الفيل والعقارب والحية والفرس وأنفق في عملها مالاً عظيماً. وذكر أبو نواس فقال:

سخَّر الله للأمين مطايا لم تسخَّر لصاحب المحرابِ
فاذا ما ركابه سِرنَ براً سار في الماء راكباً ليث غابِ
عجب الناس إذ رأوك عليه كيف لو أبصروك فوق العقابِ
ذات سور ونسر وجناحين م تشق العباب بعد العباب

(ملخَّص عن الكامل لابن الأثير).

عد ٧٤٧
المأمون بن هرون الرشيد

استوثق الأمر في المشرق والمغرب للمأمون بعد قتل الأمين سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م وهو السابع من الخلفاء العباسيين وظهر في سنة ١٩٩هـ سنة ٨١٥م ابن طباطبا العلوي وهو محمَّد بن ابراهيم من وُلد علي بن أبي طالب، وكان القيم بأمره أبو السرايا السري بن منصور وبايعه أهل الكوفة فأرسل المأمون إليه الحسن بن سهل بعشرة آلاف مقاتل، فهزم ابن طباطبا لكنه مات فجأة بعد ذلك قيل سمه أبو السرايا ليستبد بالأمر وأقام مكانه غلاماً من ولد علي بن أبي طالب واستولى على البصرة وواسط وكانت بينه وبين عساكر المأمون عدة وقائع آخرها أن انهزم أبو السرايا سنة ٢٠٠هـ سنة ٨١٦م من الكوفة في ثمان مئة فارس وتفرق عنه أصحابه فقبض عليه بعضهم، وقطع الحسن بن سهل رأسه وأرسله إلى المأمون. وكان هرثمة المار ذكره إنَّما هو الذي طرد أبا السرايا من الكوفة وكانت بينه وبين الحسن بن سهل عداوة فسعى به لدى المأمون فأمر هرثمة أن يسير إلى الشام والحجاز فقدم على المأمون مخالفاً مرسومه فضربه المأمون وحبسه ثم دس عليه من قتله في الحبس.

وفي سنة ٢٠١هـ سنة ٨١٧م جعل المأمون علياً بن موسى بن جعفر من ولد علي بن أبي طالب ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وأمر جنوده بطرح السواد ولبس الخضرة وكتب بذلك إلى الآفاق، فصعب ذلك على بني العباس فخلعوا المأمون من الخلافة وبايع أهل بغداد بالخلافة لابراهيم بن المهدي وسموه المبارك ولكن مات علي في السنة التالية فكتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم بموته وقال إنّما نقمتم عليَّ بسببه وقد مات فخلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدي ودعوا للمأمون بالخلافة، وتخلى عن ابراهيم اصحابه فاختفى وكانت مدة خلافته سنة واحدى عشر شهراً وما برح مختفياً إلى سنة ٢١٠هـ وهي سنة ٨٢٦م حين أخذ وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة فحبسه المأمون ثم أطلقه. وعاد المأمون إلى بغداد بعد خلع ابراهيم وانقطعت الفتن بقدومه وكان لباسه ولباس أصحابه عند قدومه الخضرة وكان الناس يدخلون عليه في الثياب الخضر ودام ذلك ثمانية أيام، ثم تكلّم بنو العباس وقواد خراسان في ذلك فترك الخضرة وأعاد لبس السواد.

وفي سنة ٢١٣هـ سنة ٨٢٩م ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر، وفي سنة ٢١٥هـ سنة ٨٣١م سار المأمون لغزو الروم ووصل إلى منبج ثم إلى أنطاكية ثمّ إلى المصيصة وطرسوس (ترسيس) ففتح بعض الحصون في أملاك الروم وعاد إلى دمشق ثم عاد في السنة التالية إلى بلاد الروم فقتل وسبى وفتح عدة حصون وعاد إلى دمشق ثم سار منها إلى مصر وعاد من مصر إلى دمشق سنة ٢١٧هـ سنة ٨٣٣م. ومرض المأمون سنة ٢١٨هـ سنة ٨٣٣م وقيل إنَّ علَّة مرضه افراطه في أكله الرطب ولما شعر بدنو المنون عهد بالخلافة بعده إلى أخيه المعتصم وأوصاه بأولاد عمه وأولاد أعمامه وحمله أخوه المعتصم وابنه العباس إلى طرسوس فدفناه بدار جلعان خادم الرشيد أبيه. وعن ابن خلدون أنّه توفي بطرسوس وكانت وفاته في رجب من السنة المذكورة وكانت مدة خلافته نحواً من عشرين سنة (ملخَّص عن ابن خلدون وأبي الفداء وغيرهما).

وقال القرماني في وصفه إنّه كان عظيم العفو وكان يقول لو يعلم الناس ما أجد في العفو من اللذة لتقربوا إليَّ بالذنوب. وكان جواداً بالأموال عارفاً بعلم النجوم وغيره لم يلِ الخلافة من بني العباس اعلم منه. قال أبو الفرج بن العبري: «قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي أنَّ العرب في صدر الإسلام لم تُعنَ بشيء من العلوم إلَّا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب، فانَّها كانت

موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية، فلما أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبّت الفطن من ميتتها وكان أوّل من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور. وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم ثمّ لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هرون الرشيد أتمّ ما بدأ فيه جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حضّ الناس على قراءتها ورغّبهم في تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأنَّ أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده وانَّهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا بما يرغب فيه غيرهم من التنافس في دقة الصنائع العلمية والتباهي بأخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية إذ علموا أنَّ البهائم تشكرهم فيها وتفضلهم في كثير منها». وذكر ذلك كثيرون من مؤرخي الافرنج في تاريخ سنة ٨٢٦م مبيناً أنَّ الكتب التي ترجمت للمأمون كانت ترجمتها عن كتب يونانية وسريانية وعبرانية .

عد ٧٤٨

المعتصم بن هرون الرشيد

هو الثامن من الخلفاء العباسيين ويكنى بأبي اسحق بويع له بالخلافة بعد موت المأمون أخيه فتشغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون فاستحضر المعتصم العباس فبايعه وخرج إلى الجند فقال لهم قد بايعت عمي فسكتوا وانصرف المعتصم إلى بغداد ومعه العباس ابن أخيه. وفي سنة ٢٢٣هـ سنة ٨٣٨م خرج توافيل ملك الروم في جمع عظيم فبلغ زبطره وقتل وسبى وبلغ المعتصم ذلك وانَّ امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم وامعتصماه فاستعظمه وجمع العساكر وتجهز جهازاً لم يعهد قبله مثله، وبلغه أنَّ عمورية هي عين النصرانية وهي أشرف عندهم من قسطنطينية وانَّه لم يتعرض أحد إليها مذ كان الاسلام وأرسل عساكره وأمر بحريق القرى وتخريب بلاد الروم حتى وصلوا إلى عمورية فحاصرها خمسة وخمسين يوماً

وافتتحها وقتل أهلها ونهبها وهدمها وأحرقها. هذا ما جاء في كتب المؤرخين العرب وجاء في كتب المؤرخين النصارى ولاسيما شدرانس في كلامه عن توافيل الملك أنَّ المعتصم أرسل جيشاً كثيفاً ينكِّل بالروم في آسيا الصغرى فهبَّ توافيل ملك الروم لطردهم، فكان بين الفريقين وقائع هائلة أوشك الملك في إحداهما أن يأخذه المسلمون أسيراً. ونحو سنة ٨٣٩م غزا توافيل سورية فأخذ سميساط ونهبها وصنع كذلك بزبطرة (بايسوريا الشمالية) فاحتدم المعتصم غيظاً لنهب زبطرة لأنَّه كان قد ولد فيها وعزم أن يخرب عمورية (يسميها الافرنج Amorium وهي مدينة في غلاطية) التي ولد توافيل فيها، فسار بجيش كثيف يخرب وينهب في طريقة وأسرع توافيل إلى تحصين عمورية وقاد جيشه بنفسه، فحاصر المعتصم المدينة وشدَّ عليها الحصار وراسله توافيل بطلب الصلح فأمسك الخليفة رسله واستمرَّ على رمي المدينة بالمناجق، فهدى أحد سكانها الخونة إلى محل ضعيف فيها فدخلت عساكر المسلمين منه إلى المدينة فذبح سكانها وأحرق دورها وكانت أعمر مدينة في الشرق. وبعد ذلك أطلق المعتصم رسل توافيل وقال لهم قولوا لمولاكم قد أخذت بثار زبطرة. انتهى. وفيما كان عائداً إلى بغداد بلغه أنَّ العباس ابن أخيه قد بايعه جماعة من القواد وهو يريد أن يثب عليه ويأخذ الخلافة منه فدعاه إليه وأمسكه وسلَّمه إلى أحد قادته، فلما وصل إلى منبج طلبَ الطعام فأكل ومنع الماء حتى مات بمنبج.

ومن الأحداث في أيام المعتصم خروج بابك المجوسي واستيلاؤه على جبال طبرستان مدة عشرين سنة وقد عظم أمره وهزم عدة مرار عساكر المعتصم حتى انتدب لقيادة جيشه رجلاً اسمه الافشين خيذر فانتصر على بابك وأخذ مدينته المسماة «ألبذ» وأسره وأحضره إلى المعتصم فقتله، ثم غضب امعتصم على الافشين وحبسه حتى مات في حبسه وصلب جثته ثم أحرقها. وكان الرشيد أبوه قد شرع في بناء مدينة القاطون ولم يتمّها وخربت فجدد المعتصم بناءها وسماها «سُرَّ من رأى» فرخمها الناس سامرّا وصارت مأوى لملوكهم من لدن المعتصم ومن بعده وكان بناؤها سنة ٢٢٠هـ أي سنة ٨٣٦م (ابن خلدون جزء ٣ صفحة ٢٥٧). وخرج بفلسطين رجل اسمه أبو حرب المبرقع اليماني سنة ٢٢٧هـ سنة ٨٤٢م وكان سبب خروجه أنَّ بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب فمنعه بعض نسائه فضربها الجندي فلما رجع إلى داره شكت إليه ما فعل بها الجندي فقتله وهرب، وألبس وجهه برقعاً وقصد بعض جبال الأردن فأقام به. وكان يظهر بالنهار

متبرقعاً وأظهر الزهد والورع وكان يعيب الخليفة. فاستجابه قومٌ من فلاحي تلك الناحية وكان يزعم أنَّه من بني أمية. ولما كثر تباعه دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعاً في أهل اليمن ورجلان من أهل دمشق، ودرى المعتصم بأمره فأرسل إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل فرآه في عالم كثير فكره رجاء مواقعته وعسكر في مقابلته حتى كان أوان الزراعة فتشتت أصحابه وتوفي المعتصم وولي الواثق وثارت الفتنة في دمشق كما سيأتي، فأمر الواثق رجاء بقتال من أراد الفتنة والعودة إلى المبرقع، ففعل ذلك وعاد إلى المبرقع ولما التقى العسكران كرَّ المبرقع فقال رجاء لجنده أفرجوا له فأفرجوا. وحمل مرة أخرى فأحاطوا به وأخذوه أسيراً. وقيل كان خروجه سنة ٢٢٦هـ سنة ٨٤١م وأنَّه خرج بنواحي الرملة وصار في خمسين ألفاً، فوجَّه إليه المعتصم رجاء فقاتله وقتل من أصحابه نحواً من عشرين ألفاً وأسره مع ابن بيهس وحملهما إلى سامّراء (عن الكامل لابن الأثير جزء ٦ صفحة ٢١٤).

وتوفي المعتصم لثماني عشر مضت من ربيع الأوَّل سنة ٢٢٧هـ، وهي سنة ٨٤٢م بسامرا وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر، وهو أوَّل من أضاف إلى اسمه اسم الله فقيل المعتصم بالله وكان طيب الأخلاق ولكنه إذا غضب لا يبالي من قتل وما فعل. وحكي عنه إنَّه انفرد عن أصحابه في يوم مطر فرأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك وقد توحل الحمار ووقع الحمل والشيخ ينتظر من يمر عليه ويساعده، فنزل المعتصم عن دابته وخلَّص الحمار ورفع معه الحمل عليه ثم لحقه أصحابه فأمر لصاحب الحمار بأربعة آلاف درهم.

عد ٧٤٩

الواثق بالله ابن المعتصم

هو التاسع من الخلفاء العباسيين وهو ابن المعتصم بن هرون الرشيد واسمه هرون بويع بالخلافة يوم وفاة أبيه لثماني عشر مضين من ربيع الأوَّل سنة ٢٢٧هـ وهي سنة ٨٤٢م، وثارت في بدء خلافته القيسية في دمشق وعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم بدمشق فأرسل إليهم الواثق عسكراً مع رجاء بن أيوب المار ذكره فقاتلهم وكانوا قد اجتمعوا بمرج راهط فقتل من القيسية نحو ألف وخمسماية رجل وانهزم

الباقي، وصلح أمر دمشق. وذكر بعض المؤرخين العرب أنَّ المسلمين غزوا جزيرة صقلية في أيام الواثق بالله واستحوذوا على مسينا وغيرها، والذي علمناه من أمر هذا الفتح نقلاً عن شدرانس ان اوفيميوس والي احدى المدن بهذه الجزيرة أحب راهبة فخطفها من ديرها وتزوجها فشكا أخوها الوالي إلى الملك فأمر بقطع لسانه، ففر إلى افريقية ولجأ إلى الخليفة الأغلبي الذي كان يسكن في القيروان ووعده أن يسلم إليه صقلية إن أرسل معه جيشاً لفتحها، فجهز مئة سفينة وشحنها بعشرة آلاف مقاتل وسبعماية فارس وسمّى اوفيميوس ملكاً على صقلية فاستحوذوا على بعض مدن الجزيرة وبلغوا إلى سيراكوسا عاصمة الجزيرة فقتل اوفيميوس غيلة ولم يتمكن المسلمون حينئذٍ من فتحها كلها. والذي عليه المعول أنَّ هذه الغزوة الأولى كانت سنة ٨٢٧ ثمَّ كرَّر المسلمون الافريقيون الحملة على الجزيرة وعاونهم خلفاء بغداد والأندلس إلى أن افتتحوا الجزيرة كلها وتولوها بعد سنين متطاولة وكانوا يشنون الغارة على كالابريا وسائر جنوبي إيطاليا حتى رومة، ولذلك جدد الأحبار الرومانيون بناء اوستيا عند مصب التيبر وحصّنوا رومة، وأصل هؤلاء الأغلبيين ابراهيم بن أغلب استعمله هرون الرشيد في إفريقية سنة ٧٨٩م فاستقلَّ فيها وانفصل عن خليفة بغداد وامتدت ولايته من مصر إلى تونس، وداموا في هذه الولاية إلى سنة ٩٠٩م حين انتزعها من يدهم الخلفاء الفاطميون. وكان الوالي الأوّل على صقلية من الأغلبيين محمَّد بن عبدالله بن أغلب وكان مقيماً في بلرم ولم يخرج منها، ولكن كان يجهز الجيوش والسرايا ويفتح ويغنم وكانت ولايته على صقلية تسع عشرة سنة وتوفي سنة ٢٣٧هـ (عن أبي الفداء جزء ٢ صفحة ٣٨).

وفي سنة ٢٣١هـ سنة ٨٤٦م كان الفداء بين المسلمين والروم عملاً باتفاق جرى بين الفريقين واجتمع المسلمون على نهر الاس على مسيرة يوم من ترسيس، وأتى الروم ومن معهم من الأسرى المسلمين وكان المسلمون يطلقون أسيراً ويطلق الروم أسيراً فيلتقيان في وسط الجسر فاذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا وإذا وصل الرومي إلى الروم صاحوا كيريليسون فكانت عدة اسارى المسلمين ٤٤٦٠ نفساً، ومن النساء والصبيان ٨٠٠ ومن أهل الذمة ١٠٠ نفس.

وفي سنة ٢٣٢هـ سنة ٨٤٧م توفي الواثق بالله لست بقين من ذي الحجّة وكان مرضه الاستقصاء وعولج بالإقعاد في تنور سخن ووجد عليه خفة فعاوده وشدَّ سخونته وقعد فيه أكثر من اليوم الأوَّل فحمي عليه وأخرج منه في محفة

فمات فيها. وكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكسراً وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان يبالغ في اكرام ولد علي والاحسان إليهم وفرّق في الحرمين أموالاً عظيمة حتى لم يبق في الحرمين في أيام الواثق سائل، ولما بلغ أهل المدينة موته كانت نساؤهم يخرجن إلى البقيع كل ليلة ويندبن الواثق لفرط احسانه إليهم. (عن أبي الفداء).

عد ٧٥٠

المتوكل على الله بن المعتصم بالله

هو عاشر الخلفاء العباسيين وأخو الواثق بالله واسمه جعفر، فلما مات الواثق عزم كبراء دولته على البيعة لمحمّد ابنه فألبسوه قلنسوة ودراعة سوداء وهو غلام أمرد قصير فلم يروا ذلك مصلحة فتناظروا ثم أحضروا جعفراً أخا الواثق فبايعوه بالخلافة يوم مات الواثق فيه وسمي المتوكل على الله وكان عمره حينئذٍ ستاً وعشرين سنة. ومن بواكير أعمال المتوكّل على الله أنّه قبض على وزيره محمّد بن عبد الملك الزيات لجوره، وحبسه وأخذ أمواله وعذّبه بالسهر ثمّ حطّه في تنور خشب فيه مسامير حديد أطرافها إلى داخل التنور يمتنع من يكون فيه من الحركة ولا يقدر على الجلوس فبقي كذلك أياماً ومات. وكان ابن الزيات هو الذي عمل هذا التنور وعذّب به ابن اسباط المضري وأخذ أمواله.

وفي سنة ٢٣٦هـ سنة ٨٥١م أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه، وكان شديد البغض لعلي بن أبي طالب وكان يجالس من اشتهر ببغضه مثل ابن الجهم الشاعر وأبي السمط من ولد مروان فغطى ذمه لعلي على حسناته وإلّا فكان من أحسن الخلفاء سيرة. وفي سنة ٢٤٤هـ سنة ٨٥٩م سار المتوكل إلى دمشق وعزم على المقام فيها ونقل دواوين الملك إليها فقال يزيد بن محمّد المهلبي في ذلك:

أظن أن الشام يشمت بالعراق   إذا عزم الإمام على الطلاق[1]
فان تدع العراق وساكنيه   فقد تبكي المليحة بالطلاق

(١) ويروى على انطلاق.

ثم استوبأ المتوكل دمشق فرجع إلى سامرّاء ولم يكن مقامه بدمشق إلّا شهرين وأياماً. وفي السنة المذكورة قتل المتوكل أبا يوسف يعقوب بن اسحق المعروف بابن السكيت صاحب كتاب «اصلاح المنطق في اللغة» وغيره فقيل إنَّ المتوكِّل سأله من إحب إليك: ابناك المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين؟ فغض ابن السكيت عن ابنيه وذكر عن الحسن والحسين ما هما أهله، فأمر مماليكه فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات. وقيل إنَّ ابن السكيت أجابه أنَّ قنبراً خادم علي خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل سلوا لسانه من قفاه ففعلوا ذلك به فمات (ملخَّص عن تاريخ أبي الفداء).

وعن ابن خلدون أنَّه في سنة ٢٣٧هـ سنة ٨٥٢م: «وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث (في محل آخر من كتاب ابن خلدون أبي المغيب بالباء وان وثوب أهل حمص به كان سنة ٢٣٩) موسى بن ابراهيم الرافقي بسبب أنَّه قتل بعض رؤسائهم فأخرجوه وقتلوا من أصحابه، فولى المتوكِّل مكانه محمَّد بن عبد ربه الانباري فأساء إليهم وعسف بهم فوثبوا به، فأمده المتوكِّل بجند من دمشق والرملة وظفر بهم وقتل منهم جماعة وأخرج النصارى من المدينة وهدم كنائسهم وأدخل منها بيعة في الجامع كانت تجاوره، وعقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وولى أحدهم المنتصر العراق والحجاز وثانيهم المعتز خراسان والريّ وثالثهم المؤيِّد الشام، ثم ندم على عهده لابنه المنتصر وأبغضه لما كان يتوهم فيه من استعجاله الأمر لنفسه وكان يسميه المنتصر والمستعجل، وداخل المنتصر في قتل أبيه وأعدَّ لذلك جماعة من الموالي بعثهم مع ولده فابتدروا المتوكل فقتلوه. وألقى الفتح بن خاقان وزيره نفسه عليه ليقيه القتل فقتلوه. وقال المنتصر إنَّ الفتح قتل أبي فقتلته. وبايعه أخواه المعتزّ والمؤيد وكان ذلك سنة ٢٤٧هـ سنة ٨٢٦م وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر. وكان في أيام المتوكل حنين بن اسحق الطبيب النصراني العبادي صاحب التآليف والترجمات المشهورة وسنأتي على ذكره.

عد ٧٥١

المنتصر والمستعين والمعتز

أمَّا المنتصر وهو الحادي عشر من الخلفاء العباسيين فقد بايعه الناس صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل بعد أن خرج أحمد بن الخطيب إلى الناس وقرأ عليهم كتاباً من المنتصر أنَّ الفتح بن خاقان قتل أبي المتوكل فقتلته به، ثمَّ ألحَّ على المنتصر

بعض المقربين إليه أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد من عهد الخلافة ووعدوه أن يبايعوا ابنه عبد الوهاب ولم يزالوا به حتى خلعهما بالكره منه ومنهما، ثم دعاهما وقال لهما اترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ولكن هؤلاء (وأشار إلى سائر الموالي) ألحوا عليَّ في خلعكما، وولّي على دمشق عيسى بن محمَّد النوشزي ومات المنتصر لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ سنة ٨٦٣م. وكان كثيرون حين أفضت الخلافة إليه إلى أن مات يقولون إنَّما مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه فكانت خلافته ستة أشهر ومات وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر (عن تاريخ ابن خلدون جزء ٣ صفحة ٢٨٢). ومن بعد موت المنتصر اتَّفق كبراء الدولة على تولية المستعين وهو ابن المعتصم بالله وكرهوا أن يولوا بعض ولد المتوكل لقتلهم أباهم ولئلَّا يغتالهم من ولوه منهم فبايعوا بالخلافة المستعين بالله لستٍ خلون من ربيع الآخر من السنة المذكورة وهو الثاني عشر منهم، وفيها شغب أهل حمص على كيدر عاملهم فأخرجوه عنهم فولّى المستعين عليهم الفضل بن قارن فقتلوه، فأرسل المستعين إليهم موسى بن بغا الكبير فحاربوه بين حمص والرستن فهزمهم وافتتح حمص فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وأحرقها سنة ٢٤٩هـ سنة ٨٦٤م. وكثر الشغب في أيام المستعين. فشغب الجند الشاكرية والعامة ببغداد على كبراء الدولة لسبب استيلائهم على أمور الدولة، فيقتلون من شاءوا من الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير ديانة ولا نظر للمسلمين. ثمَّ وقعت فتنة في سامرَّاء من العامة وفتحوا السجون وأطلقوا من فيها فقتل من العامة جماعة، وثار الموالي باتاش وزير المستعين فقتلوه ونهبوا من داره أموالاً جزيلة، لأنَّ المستعين كان أطلق له ولوالدته (والدة المستعين) التصرف في بيوت الأموال. وظهر يحيى بن عمر من ولد على بن أبي طالب بالكوفة وكثر جمعه فاستولى عليها وجهز المستعين عليه محمَّد بن عبدالله بن طاهر فقتل يحيى وحمل رأسه إلى المستعين وتفرَّق أصحابه. وظهر الحسن بن زيد من ولد علي أيضاً وكثر جمعه بطبرستان واستقلَّ بملكها وسمي بالداعي إلى الحق وبقي مستولياً إلى سنة ٢٨٧هـ سنة ٩٠١م حين قتل وقام بعده الناصر الحسن بن علي (عن أبي الفداء جزء ٢ صفحة ٤٥).

وفي سنة ٢٥١هـ سنة ٨٦٦م اتَّفق بغا الصغير ووصيف وزير المستعين وقتلوا أحد وجهاء الدولة، فكان شغب على المستعين وحصره المشاغبون مع وزيريه في

قصره بسامرَّاء فهربوا في حراقة وانحدروا إلى بغداد واستقرَّ المستعين بها، فأخرج المشاغبون المعتز بن المتوكل على الله وكان في الحبس وبايعوه، واستولى على الأموال التي كانت للمستعين وامه بسامرَّاء وأنفق على الجند الذين سيَّرهم مع أخيه طلحة لحرب المستعين في بغداد، وجرى بين الفريقين قتال كثير واتَّفق كبراء الدولة ببغداد على خلع المستعين وأكرهوه على ذلك فخلع نفسه من الخلافة سنة ٢٥٢هـ سنة ٨٦٧م، وخطب ببغداد للمعتز بالله بن المتوكِّل وهو الثالث عشر من الخلفاء، وأقام المستعين بالبصرة، فأمر المعتز بقتله وكتب إلى أحمد بن طولون فلم يقتله بل أخذه وسلَّمه إلى الحاجب سعيد بن صالح فقتله، وأرسل رأسه إلى المعتز. وكانت خلافة المستعين بالله إلى أن خلع ثلاث سنين وتسعة أشهر.

وولى المعتز عيسى بن الشيخ بن السليك من ولد جساس بن مرة على الرملة ولما رأى ما كان من الشغب في العراق وبغداد تغلَّب على دمشق وأعمالها وقطع ما كان يحمل من الشام إلى الخليفة، واستبدَّ بالأموال، وكان ذلك سنة ٢٥٢هـ سنة ٨٦٧م. ثم ولى المعتز أحمد بن طولون على مصر سنة ٢٥٤هـ سنة ٨٦٩م وسترى أنَّه عصا الخليفة بالولاية على مصر. وفي سنة ٢٥٥هـ سنة ٨٧٠م اتَّفق الأتراك والمغاربة والفراعنة على خلع المعتز لأنَّهم طلبوا أرزاقهم فلم يكن عند المعتز مال يعطيهم إياه، ونزلوا معه إلى خمسين ألف دينار فأرسل وسأل أمَّه وكانت تسمَّى قبيحة لحسنها فقالت ما عندي فصاروا إلى بابه وقالوا اخرج إلينا، فقال قد شربت أمس دواء وقد أفرط في العمل، فإن كان لا بدَّ من الاجتماع فليدخل بعضكم إليَّ فدخل جماعة منهم وجروه برجليه إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس فكان يضع رجلاً ويرفع أخرى لشدة الحر ثمَّ سلَّموه إلى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام، ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات. وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر إلَّا سبعة أيام وكشفوا عن مطمور لامِّه قبيحة فوجدوا أموالاً عظيمة وكثيراً من الزمرد والياقوت واللؤلؤ فقالوا عرَّضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذه الأموال كلُّها (ملخَّص عن أبي الفداء).

عد ٧٥٢

المهتدي والمعتمد على الله

المهتدي هو الرابع عشر من الخلفاء العبّاسيّين وهو ابن الواثق بالله وقد بويع

بالخلافة بعد خلع المعتز سنة ٢٥٥هـ سنة ٨٧٠م وظهر في أيام المهتدي صاحب الزنج وهو علي بن محمَّد بن عبد الرحيم من ولد عبد قيس وجمع إليه الزنج وكانوا يسكنون في جهة البصرة وادَّعى أنَّه من ولد علي بن أبي طالب وكانت بينه وبين المهتدي ومن تبعه من الخلفاء وقائع كثيرة لا محل لذكرها هنا. لم تكن خلافة المهتدي إلَّا احد عشر شهراً ونصفاً لأنَّه قصد أن يقتل موسى بن بغا وكان معسكراً قبالة بعض الخوارج وكتب إلى بايكبال أحد مقدمي جنده أن يقتله ويصير موضعه، فاتفقا على قتل المهتدي وسارا إليه. ودخل بايكبال عليه فحبسه المهتدي ثم قتله وركب لقتال موسى، ففارقه كثير من أصحاب موسى وانقلبوا على المهتدي ففرَّ ودخل بعض الدور فأمسكوه وداسوا خصيته وصفحوه فمات.

فأخرج كبراء الدولة أبا العباس أحمد بن المتوكِّل من الحبس وبايعوه بالخلافة سنة ٢٥٦هـ سنة ٨٧١م ولقب بالمعتمد على الله وهو الخامس عشر من خلفائهم واستوزر عبدالله بن يحيى بن خاقان وعزل عيسى بن الشيخ الذي كان والياً في الرملة واستولى على الشام كما مرَّ ونهب المال الذي كان مرسلاً من مصر إلى الخليفة وقطع الحمل عن بغداد وولى المعتمد مكان عيسى ماجور على دمشق وأعمالها، وبلغ الخبر إلى عيسى فبعث ابنه منصور في عشرين ألف مقاتل فانهزم وقتل وسار عيسى أبوه إلى أرمينية على طريق الساحل (أبو الفداء وابن خلدون وغيرهما).

وخرج في أيام المعتمد أحمد بن طولون والي مصر فاستقلَّ في الولاية على مصر وسورية، ثمَّ خلفه ابنه خمارويه وابناه فاستبدوا بولايتهم مدة نحو ربع قرن ولذلك أفردنا الفصل التالي للكلام عليهم ثم نعود إلى الكلام في المعتمد وخلفائه.

عد ٧٥٣

أحمد بن طولون وولده أصحاب مصر وسورية

قد مرَّ أنَّ أحمد بن طولون ولاه المعتز مصر سنة ٨٦٩م، ففي سنة ٢٦٤هـ سنة ٨٧٨م مات ماجور (ويروى أماجور) والي دمشق وسار أحمد بن طولون ولي مصر من القاهرة فملك دمشق ثم حمص ثم حماه ثم حلب ثم سار إلى أنطاكية وكان أميرها يسمى الطويل فدعاه إلى الدخول في طاعته فأبى، فقاتله وقتله وملك

أنطاكية عنوةً، ثمَّ سار إلى طرسوس (ترسيس) وعزم على المقام بها للجهاد فغلا بها السعر وقلَّ القوت وقلق أهلها فعاد إلى الشام. وقد استبدَّ بولاية الشام أي سورية ومصر وكان ابن طولون ولّى غلاماً له اسمه لؤلؤ على حمص وحلب وقنسرين وديار مضر من الجزيرة فخالفه سنة ٢٦٩هـ سنة ٨٨٣م، وكاتب الموفق أخا المعتمد الخليفة في المسير إليه، ثمَّ سار إليه وأمر حينئذٍ المعتمد في المسير إليه ثمَّ سار إليه، وأمر حينئذٍ المعتمد بلعن أحمد بن طولون على المنابر، ولعن أحمد بن طولون المعتمد على المنابر في جميع أعماله بمصر وغيرها، ولم يأمر المعتمد بلعن ابن طولون إلَّا مكرهاً لأنَّ هواه كان لابن طولون، لأنَّ الموفَّق أخاه كان تغلَّب على الخلافة ولم يبقَ لأخيه الخليفة منها إلَّا اسمها. ولذلك كتب المعتمد إلى ابن طولون سراً يشكو إليه حاله من أخيه فأشار إليه ابن طولون باللحاق به بمصر ووعده بالانتصار له، وأرسل عسكراً إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليهم، وسار المعتمد من بغداد فأمسك اسحق بن كنداج عامل الموصل القواد الذين كانوا مع المعتمد عن المسير معه إلى ابن طولون وأرسلهم إلى بغداد، وتقدَّم إلى المعتمد بالعود عن اللحاق بابن طولون ومخالفة أخيه فاضطرَّ أن يضرب عن عزمه. وسير أحمد بن طولون جيشاً مع قائدين إلى مكة فوصلوا إليها وجمعوا الحناطين والجزارين وفرَّقوا فيهم مالاً، وكان عامل مكة هرون بن محمَّد، وأرسل الموفَّق عسكراً فاقتتل الفريقان فقتل من أصحاب ابن طولون مائتا رجل وانهزم الباقون (ملخَّص عن ابن الأثير وابن خلدون وابي الفداء وغيرهم).

وفي سنة ٢٧٠هـ سنة ٨٨٤م توفي أحمد بن طولون صاحب مصر والشام، قالوا إنَّه لمَّا وصل إلى أنطاكية قدم له لبن جاموس فأكثر منه فأصابه منه تخمة، وكان الأطباء يعالجونه وهو يأكل سراً فلم ينجع به الدواء فتوفي وكان حازماً عاقلاً وهو الذي بنى قلعة يافا ولم يكن لها قبل ذلك قلعة، وبنى بين مصر والقاهرة الجامع المعروف به وهو جامع عظيم مشهور هناك، وقيل إنَّه كان له سبعة عشر ابناً وسبع عشرة بنتاً وترك أموالاً عظيمة ومماليك كثيرين. فخلف أحمد بن طولون خمارويه ابنه وأقام بملكه أحسن قيام ودبَّره أحسن تدبير وانتقضت عليه دمشق فبعث إليها العساكر وعادت إلى طاعته. وكان يومئذٍ اسحق بن كنداج والياً بالموصل والجزيرة ومحمَّد بن أبي الساج والياً على الأنبار فكاتب الموفَّق أخا المعتمد الخليفة في المسير إلى الشام واستمداه فأذن لهما ووعدهما بالمدد، فسارا وملكا ما

يجاورهما من بلاد خمارويه واستحوذا على أنطاكية وحلب وحمص وكاتبهما نائب خمارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز إليهما فملكا دمشق أيضاً. وبلغ الخبر إلى خمارويه فسير الجيوش إلى الشام فاستردُّوا دمشق وهرب النائب الخائن إلى شيزر حيث كان أسحق بن كنداج وابن ابي الساج المذكوران فسار جيش خمارويه من دمشق إليهم فطاولهم ابن كنداج وابن أبي الساج ينتظرون المدد من العراق وهجم الشتاء وأضرَّ بجيش خمارويه فتفرقوا في المنازل بشيزر، ووصل عسكر العراق فلم يشعروا حتى كبسهم في المنازل فقتل منهم مقتلة عظيمة وسار من سلم إلى دمشق، فسار المعتضد بن الموفق الذي كان أمير جيش العراق فجلوا عن دمشق إلى الرملة وملك هو دمشق سنة ٢٧١هـ سنة ٨٨٥م وأرسل قائد جيش خمارويه يخبره بما كان فخرج من مصر في عساكره قاصداً الشام.

وسار المعتضد في جيش العراق إلى الرملة وبلغها خمارويه فاجتمع بعساكره على ماء الطواحين، وقد أكمن للمعتضد فانهزم خمارويه أولاً وملك المعتضد خيامه واشتغل أصحابه بالنهب فخرج عليهم الكمين، فانهزم المعتضد إلى دمشق فلم يفتح له أهلها فراح إلى طرسوس، وأمر خمارويه أخاه سعداً على جيش فاستحوذ على الشام كلها، وثار أهل طرسوس بابي العباس واليهم فأخرجوه وسار إلى بغداد وولوا عليهم ساذيار، فأرسل إليه خمارويه مالاً وهدايا نفيسة فدعا له فانبسطت ولاية خمارويه من مصر إلى طرسوس.

وفي سنة ٢٧٣هـ سنة ٨٨٧م وقعت فتنة بين محمَّد بن أبي الساج واسحق بن كنداج المار ذكرهما فأرسل محمَّد إلى خمارويه يستنجده على اسحق وأرسل له ابنه ليكون رهينة يضمن له طاعته دائماً، فبعث إليه خمارويه مالاً جزيلاً، وسار إلى الشام فاجتمع هو ومحمَّد لقتال اسحق بن كنداج وكانت بينهما حرب انهزم فيها ابن كنداج، وعبر خمارويه الفرات وقوي امر محمَّد بن أبي الساج واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه فيهما ثم لنفسه من بعده.

على أنَّه في سنة ٢٧٥هـ سنة ٨٨٩م انتفض ابن أبي الساج على خمارويه فسار من مصر في عساكره نحو الشام والتقاه ابن أبي الساج فكان قتال بين الفريقين في جهة دمشق فانهزم ابن أبي الساج واستبيح عسكره وأخذت الأثقال والدواب التي كانت معه، وكان قد خلف في حمص شيئاً كثيراً فسير خمارويه

عسكراً سبق ابن أبي الساج إليها ومنع اعتصامه بها واستولى على ماله، فمضى ابن أبي الساج إلى حلب ثمَّ إلى الرقة ثمَّ إلى الموصل وخمارويه في أثره فطرده من الموصل، ولما رأى اسحق بن كنداج انقلاب خمارويه على ابن أبي الساج عدوه تزلَّف إلى خمارويه وعاونه على كبت ابن أبي الساج، وعاد خمارويه بعد أن قهر ابن أبي الساج إلى دمشق، ولما بويع المعتضد بالخلافة أرسل إليه خمارويه هدايا وسأله أن يزوج ابنته قطر الندى بعلي ابن المعتضد. فقال أنا أتزوجها فزفها إليه. وفي سنة ٢٨٢هـ ٨٩٦م قتل خمارويه في دمشق ذبحه بعض خدامه على فراشه وكان سبب ذلك أنَّه نقل إلى خمارويه انَّ جواريه قد أخذت كل واحدة منهنَّ خصياً وجعلته لنفسها كالزواج، وقصد خمارويه تقرير بعض الجواري على ذلك فاجتمع جماعة من الخدم واتَّفقوا على قتله، وبايع قواد جيشه ابنه جيش وكان صبياً وخلعه طغج بن جف أمير دمشق، واختلف جنده عليه لصباه وتقريبه الأراذل وتهديده لقواد أبيه، فثاروا به فقتلوه ونهبوا داره ونهبوا مصر وأحرقوها، ثمَّ أقعدوا أخاه هرون ابن خمارويه في الولاية سنة ٢٨٣هـ سنة ٨٩٧م فلم تكن ولاية جيش إلَّا تسعة أشهر. وفي أيام المعتمد ظهر بالكوفة قوم يعرفون بالقرامطة نسبة إلى رجل يسمى قرمط ابتدع بدعة وادَّعى الألوهية وأرسل اثني عشر داعياً سماهم الحواريين، فانخدع كثيرون وأحدثوا الشغب فكبتهم الولاة وسار بعضهم إلى الشام وجمع جموعاً من الاعراب وأتى دمشق وبها طغج بن جف من قبل هرون بن خمارويه، فكانت بينهم وقعات وحاصروا دمشق فقتل يحيى زعيم القرامطة فولوا مكانه أخاه الحسين فحاصر حمص وفتحها ومضى إلى دمشق فصالحه أهلها على مال وعاد إلى حمص وأخذ حماة والمعرة وقتل كثيرين وعاد إلى بعلبك وقتل أكثر أهلها، وسار إلى سلميّة فحاربه أهلها ثمَّ طلبوا الأمان فأمنهم ودخل المدينة فقتل كل من بها حتى الأطفال والبهائم. وجيّش المكتفي سنة ٢٩٢هـ سنة ٩٠٥م جيشاً مع محمَّد بن سليمان فانتصر على القرامطة واستولى على دمشق وسار حتى دنا مصر وصاحبها حينئذٍ هرون بن خمارويه ففارقه كثير من قواده ولحقوا بعسكر الخليفة وخرج هرون بمن بقي معه وجرى بينه وبين محمَّد بن سليمان وقعات، ثمَّ وقع في عسكر هرون خصومة أدَّت إلى قتال فركب هرون ليسكن الفتنة فزرقه بعض المغاربة بمزراق فقتله، فقام ابن عمه شيبان بالأمر ثمَّ طلب الأمان من محمَّد بن سليمان فأمنه ثمَّ هرب شيبان تحت الليل فلم يوجد واستولى ابن سليمان على مصر وأمسك

بني طولون وكانوا بضعة عشر رجلاً واستصفى مالهم وقيدهم وحملهم إلى بغداد. وكتب إلى المكتفى بالفتح وهكذا انقرضت دولة بني طولون في مصر والشام (عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء.

عد ٧٥٤

تتمة أخبار المعتمد وخلافة المعتضد

إنَّ المعتمد كان عهد بالخلافة بعده إلى أخيه أبي أحمد طلحة وسمي الموفق بالله وأرسله إلى حرب الزنج، فاشتغل بمحاربتهم سنين كثيرة إلى أن ظهر عليهم وقتل رئيسهم وشتت شملهم وأخذ مدينتهم وأحرقها، فتحكم بأخيه المعتمد حتى لم يبق له أمر وتغلَّب القواد والأجناد على الأمر لقلة خوفهم وأمنهم غائلة ما يفعلونه لاشتغال الموفق بالله بقتال صاحب الزنج ولعجز الخليفة المعتمد على الله وخلعه ابنه جعفر المسمى المفوض من ولاية عهده وجعل المعتضد ابن أخيه الموفق ولي عهده. وفي سنة ٢٧٩هـ سنة ٨٩٣م توفي المعتمد فحمل إلى سامرَّاء فدفن فيها وكان عمره خمسين سنة وستة أيام، وكان أخوه الموفق قد تحكَّم فيه وضيَّق عليه حتى انَّه احتاج إلى ثلاث مئة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب ان مثلي　　يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً　　وما من ذاك شيء في يديه

ويروى وما منها يسير في يديه.

وفي صبيحة الليلة التي مات فيها المعتمد بويع لأبي العباس أحمد بن الموفق بالخلافة ولقِّب بالمعتضد بالله وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين، وقد تزوَّج بقطر الندى بنت خمارويه صاحب مصر والشام ومن أهم الأحداث في أيامه إيقاعه بالاعراب والأكراد في الموصل وقتله كثيرين منهم وغرق كثيرين، وفتحه قلعة ماردين وكانت لحمدان، ونقله ما كان فيها وهدمها. وفي سنة ٢٨٣هـ سنة ٨٩٧م سار الصقالبة فحاصروا قسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً فجمع ملك الروم من كان عنده من أسرى المسلمين وسلحهم فأزاحوا الصقالبة عن قسطنطينية، وخاف الملك على نفسه من المسلمين فانتزع السلاح منهم وفرقهم في البلاد حذراً

من جنايتهم عليه. وفي سنة ٢٨٩هـ سنة ٩٠٢م انتشر القرامطة بسواد الكوفة، فأخذ رئيسهم وسير إلى المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يداه ورجلاه وقتل. وفي هذه السنة احتضر المعتضد فأنشد أبياتاً منها:

ولا تـأمننَّ الـدهر إنـي أمنـتـه ... فلم يبقِ لي خلاً ولم يرعَ لي حقا
قتلت صناديد الرجال ولم أدع ... عدواً ولم أمهل على بغيه خلقا
وأخليت دار الملك من كل نازع ... فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقاً
فلما بلغت النجم عزاً ورفعةً ... وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رماني الردى عنه فاخمد جمرتي ... فها أنا ذا في حفرتي عاجلاً ألقى

ثمَّ مات لثمان بقين من ربيع آخر سنة ٢٨٩هـ سنة ٩٠٢م ودفن ليلاً في دار محمَّد بن طاهر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً وخلفه ابنه علي ولقب بالمكتفي بالله وسيأتي الكلام عليه في بدء تاريخ القرن العاشر.

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن التاسع

عد ٧٥٥

أبو تمام صاحب الحماسة

هو حبيب ابن أوس بن الحارث وينسب إلى طي ولد سنة ١٩٥هـ سنة ٨٠٦م وقيل سنة ١٨٨هـ وهي سنة ٨٠٠م بجاسم وهي قرية من بلد الجيدور من أعمال دمشق بين دمشق وطبرية ونشأ بمصر. قيل إنَّه كان يسقي الناس ماءً بالجرة في جامع مصر، وقيل إنَّه كان يخدم حايكاً ويعمل عنده بدمشق، وكان أبوه خماراً بها، وكان فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة. قال الصولي قال قوم إنَّ أبا تمام هو

حبيب بن ندوس النصراني، وغيَّر فصير أوساً. وكان واحد عصره في ديباجة فضله ونصاعة شعره وحسن أسلوبه وله كتاب الحماسة التي دلَّت على غزارة فضله واتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر سماه (فحول الشعراء) جمع فيه بين طائفة كثيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء، وكان له من المحفوظ ما لا يلحقه فيه غيره. ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم وجاب البلاد وقصد البصرة وبها عبد الصمد بن المعذل الشاعر فخاف من قدومه أن يميل الناس إليه فكتب إليه أبياتاً يهجوه بها، ولما قرأها أبو تمام كتب إليه:

أفيَّ تنظم قول الزور والفندِ ... وأنت أنقص من لا شيء في العدد

أشرجت قلبك من غيظٍ على حنق ... كأنَّها حركات الروح في الجسد(١)

أقدمت ويلك من هجوي على خطرٍ ... كالعير يقدم من خوفٍ على الأسدِ(٢)

فلما قرأ عبد الصمد البيت الأوَّل قال ما أحسن علمه بالجدل أوجب زيادة ونقصاناً على معدوم. ولما قرأ البيت الثاني قال الاشراج من عمل الفراشين لا مدخل لها هاهنا. ولما قرأ البيت الثالث عضَّ على شفته وقال قد ذكر ذلك أبو الفتح محمود بن الحسين.

قال العلماء خرج من قبيلة طي ثلاثة كل واحد مجيد في بابه: حاتم طي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره.

وقالوا إنَّه مدح الخليفة في قصيدته السينية فلما انتهى فيها إلى قوله:

اقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم احنف في ذكاء اياس

قال له الوزير اتشبِّه أمير المؤمنين باجلاف العرب؟ فاطرق ثم رفع رأسه وأنشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروداً في الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراسِ

وقد ذكر أبو بكر الصولي في كتاب أخبار أبي تمام أنَّه لما أنشد القصيدة المذكورة لاحمد بن المعتصم بالله وانتهى إلى قوله اقدام عمرو وقال له أبو يوسف

---

(١) ويروى اسرجت قلبي من بغضي على حنق ... اضر من حرقات الهجر للجسد

(٢) ويروى اطلت روعك حتى صرت لي غرضاً ... قد يقدم العير من ذعر على الاسد

يعقوب بن الصباح الكندي الفيلسوف الأمير فوق من وصفت فأطرق قليلاً ثمَّ زاد البيتين الآخرين، ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها البيتين فعجبوا من سرعته وفطنته. وقيل إنَّ الخليفة سأله حينئذٍ ما تريد فقال أريد الموصل فأعطاه إياها فتوجه إليها. قال ابن خلكان لا صحة لولايته الموصل بل انَّ الحسن بن وهب ولاه بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين ثمَّ مات بها. والذي يدل على ذلك انَّ القصيدة ليست في أحد من الخلفاء بل مدح بها أحمد بن المعتصم، وقيل أحمد بن المأمون ولم يل واحد منهما الخلافة. وتوفي أبو تمام في الموصل سنة ٢٣١ أو سنة ٢٣٢هـ وهي سنة ٨٤٦ أو سنة ٨٤٧م ودفن فيها. قال البحتري بنى على مدفنه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة ورأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان والعامة تقول هذا قبر تمام الشاعر. ورثاه الحسن بن وهب بقوله من قصيدة :

سقى بالموصل القبر الغريبا ... سحائب ينتحبن له نحيبا
إذا اظللنه أظللن فيه ... شعيب المزن يتبعه شعيبا[1]
ولطمت البروق به خدوداً ... واشققن الرعود به جيوبا

ورثاه محمَّد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم بقوله :

نبأ أتى من أعظم الأنباء ... لما ألمَّ مقلقل الأحشاء
قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم ... ناشدتكم لا تجعلوه الطائي

(ملخَّص عن ابن خلكان في وفيات الأعيان) .

عد ٧٥٦

البحتري

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشاعر المشهور ولد بمنبج (بولاية حلب) وقيل بزردفنه وهي قرية من قراها ونشأ وتخرَّج بها ثمَّ خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء وخلقاً كثيراً من الاكبار والرؤساء، وأقام ببغداد دهراً طويلاً ثمَّ عاد إلى الشام وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلب وضواحيها، وكان يتغزَّل

(١) ويروى هذا المصراع صبيب المزن يتبعه صبيبا

بها وقد روى كثيراً من شعره أبو العباس المبرد ومحمَّد بن خلف وأبو بكر الصولي وغيرهم، وقد تشبب في أشعاره بعلوة بنت زريعة الحلبية. وحكى أبو بكر الصولي أنَّ البحتري كان يقول أولى نباهتي في الشعر إني سرت إلى أبي تمام وهو بحمص وعرضت عليه شعري وكان يجلس فلا يبقى شاعر إلَّا قصده وعرض عليه شعره، فلما سمع شعري أقبل عليَّ وترك سائر الناس وقال لي بعد تفرقهم أنت اشعر من أنشدني فكيف حالك، فشكوت خلة فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لي بالحذف وشفع لي إليهم، وقال امتدحهم فصرت إليهم فاكرموني ووظفوا لي أربعة آلاف درهم فكانت أوَّل ما أصبته. وقال عن نفسه أوَّل مرَّة رأيت أبا تمام اني دخلت إلى أبي سعيد محمَّد بن يوسف فامتدحته بقصيدتي التي أولها:

أأفاق صب من هوى فافيقا ام خان عهداً أم أطاع شفيقا

فلما اتممتها سُرَّ بها وقال لي حسن الله إليك يا فتى. فقال له رجل في المجلس هذا شعري علقه، هذا فسبقني به إليك فتغيَّر أبو سعيد وقال لي قد كان في نسبك ما يكفيك أن تزدلف إلينا ولا تحمل نفسك على هذا، فقلت هذا شعري أعزك الله فقال الرجل سبحان الله يا فتى لا تقل هذا، ثمَّ أنشد من القصيدة أبياتاً فخرجت متحيراً لا أدري ما أقول حتى ردَّني أبو سعيد وقال لي أتدري من هذا؟ قلت لا! قال لي هذا ابن عمِّك حبيب بن أوس الطائي أبو تمام فقم إليه، فقمت إليه وعانقته ثمَّ أقبل إليَّ يقرضني ويصف شعري، وقال إنَّما مزحت معك. فلزمته بعد ذلك وكثر عجبي من سرعة حفظه. وقيل للبحتري إيما أشعر أنت أم أبو تمام؟ فقال جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه. وكان يقال لشعر البحتري سلاسل الذهب. ويقال إنَّه قيل لأبي العلاء المعرّي أي الثلاثة أشعر أبو تمام أم البحتري أم المتنبي فقال حكيمان (أي أبو تمام والمتنبي) والشاعر البحتري.

ومن أخبار البحتري أنَّه كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمَّد الهاشمي مات أبوه وخلف له مقدار مئة ألف دينار فأنفقها على الشعراء والزوار في سبيل الله، فقصده البحتري من العراق فقيل له إنَّه قعد في بيته لديون ركبته فاغتمَّ البحتري لذلك وبعث المدحة إليه، فلمَّا وصلته ووقف عليها بكى ودعا غلاماً له وقال له بع داري فقال تبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس؟ فقال لا بدَّ من بيعها فباعها بثلاث مئة دينار وأخذ صرة وربط فيها مئة دينار وأنفذها إلى البحتري

وكتب إليه معها هذه الأبيات:

لو يكون الحباء حسب الذي أنت لـديـنـا بـه مـحـل واهـلُ
لحييت اللجين والدر واليا قوت حشواً وكان ذاك يقلُّ
والأديب الأريب يسمح بالعذ رِ إذا قصَّر الصديق المقلُّ

فلما وصلت الرقعة إلى البحتري ردَّ الدنانير وكتب إليه:

بأبي أنت أنت للبر أهلُ والمساعي بعداً وسعيك قبلُ
والنوالُ القليلُ يكثر إن شا ءَ مرجيك والكثير يقلُّ
غير إني رددت برك إذا كا نَ ربا منك والربا لا يحلُّ

فلما عادت الدنانير إليه حلَّ الصرة وضمَّ إليها خمسين ديناراً أخرى وحلف إنَّه لا يردها عليه وسيرها إلى البحتري فلما وصلت إليه أنشأ يقول:

شكرتك ان الشكر للعبد نعمة ومن يشكر المعروف فالله زايدُه
لكل زمان واحد يقتدى به وهذا الزمان أنت لا شكَّ واحدهُ

ولم يزل شعر البحتري غير مرتَّب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما صنعا بشعر أبي تمام. وللبحتري أيضاً كتاب حماسة على مثال حماسة أبي تمام وله كتاب معاني الشعر.

وقد وُلد البحتري في أوائل القرن الثالث للهجرة أي نحو سنة ٨٢٠ للميلاد وتوفي نحو سنة ٢٨٤هـ أي نحو سنة ٨٩٨م وكانت وفاته بمنبج وقيل بحلب. وعبيدالله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن الوليد البحتري اللذان مدحهما المتنبي بعدة قصائد هما حفيدا البحتري وكانا رئيسين في زمانهما والبحتري نسبة إلى بحتر أحد أجداده، ومنبج بفتح الميم وسكون النون وكسر الباء بلدة بالشام بين حلب والفرات (ملخَّص عن وفيات الأعيان).

عد ٧٥٧
بعض مشاهير العلم غير السوريين في القرن التاسع

قطرب

هو أبو علي محمَّد بن المستنير بن أحمد النحوي البصري أخذ الأدب عن سيبويه وعن جماعة من العلماء البصريين وكان يكّر إلى سيبويه قبل حضور أحد من التلامذة، فقال له يوماً ما أنت إلَّا قطرب ليل فبقي عليه هذا اللقب وقُطرُب اسم ذويبة لا تزال تدأب ولا تفتر وكان من أئمة عصره وله من التصانيف كتاب معاني القرآن، وكتاب القوافي، وكتاب النوادر، وكتاب الأزمنة، وكتاب الفرق، وكتاب الأصوات، وكتاب الصفات، وكتاب العلل في النحو، وكتاب الأضداد. وغيرها. وهو أوَّل من وضع المثل في اللغة وكتابه وإن كان صغيراً لكن له فضيلة السبق، وبه اقتدى أبو محمَّد عبدالله بن السيد البطليوسي وغيره وقد نسج على منواله المطران جرمانس فرحات الماروني في كتابه الموسوم بالمثلثات الدرية. ومما رووه له هذان البيتان:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي إذا غُيِّبت عن بصري
والعين تنظر من تهوى وتفقده وباطن القلب لا يخلو من النظر

وتوفي قطرب سنة ٢٠٦هـ سنة ٨٢٢ م.

الفـرّاء

هو يحيى بن عبدالله بن منصور الديلمي الكوفي وفي كنيته أبو زكريا ويلقَّب بالفرّاء لا لأنَّه كان يعمل الفراء أو يبيعها بل انَّه كان يفري الكلام أي يقطعه أو يصلحه. وكان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللّغة وفنون الأدب وحكي عن أبي العباس انَّه قال: لولا الفرّاء لما كانت عربية ولولاه لسقطت لأنَّها كانت تنازع ويدعيها كلٌّ من أراد، ويتكلَّم الناس بها على مقادير عقولهم وقرائحهم. وقد أخذ النحو عن الكسائي واتَّصل بالمأمون بن هرون الرشيد فأمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع بالعربية وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار، وأن يقدِّم

له كل ما يحتاج إليه حتى لا تتشوق نفسه إلى شيء، وألزمه وراقين أي كتبة يكتبون ما يمليه عليهم فكتب كتابه المعروف بالحدود في سنتين ثمَّ ابتدأ في كتابة كتاب المعاني في القرآن وقيل إنَّ كتابه هذا لم يعمل مثله ولا يمكن أحداً أن يزيد عليه. ووكل المأمون إليه أن يلقن ابنيه النحو وقد تنازعا يوماً تقديم نعل الفرَّا له واصطلحا أن يقدم كل منهما فرداً، وعلم المأمون بذلك فعتبه فقال خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها وقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما فليس يكبر الرجل وان كان كبيراً عن ثلاث: تواضعه للسلطان، ووالده، ومعلمه العلم. ومن المشهور قوله: «أموت وفي نفسي شيء من حتى لأنَّها تخفض وترفع وتنصب». وقُلْ ما كان من الشعر. وله من التصانيف عدا كتابيه في الحدود والمعاني كتابان في الشكل أحدهما أكبر من الآخر وكتاب البهي، وهو صغير الحجم وكتاب اللغات وكتاب المصادر في القرآن، وكتاب الجمع والتثنية فيه وكتاب الوقف والابتدا وغيرها من الكتب. وقد توفي سنة ٢٠٧هـ سنة ٨٢٣م وعمره ثلاث وستون سنة.

الأصمعي

هو أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك المعروف بالأصمعي الباهلي وكان عالماً باللغة والنحو وإماماً في الأخبار والنوادر والمُلح والغرائب وهو من أهل البصرة وقدم بغداد في أيام هرون الرشيد قال فيه اسحق الموصلي لم أرَ الأصمعي يدَّعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه، وقد طلبه المأمون بن هرون الرشيد ليصير إليه فاحتجَّ بضعفه وكبره، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. وقد ولد الأصمعي سنة ١٢٢ أو سنة ١٢٣هـ أي سنة ٧٤١ أو ٧٤٢م. وتوفي سنة ٢١٧هـ أي سنة ٨٣٣م على الأظهر وله كثير من المُلَح والنوادر. قال أبو العينا كنا في جنازة الأصمعي فجذبني أبو قلابة حيث الجرمي الشاعر فأنشدني:

لعن الله أعظماً حملوها ... نحو دار البلى على خشباتِ
أعظماً تبغض النبيّ وأهل الـ ... ـبيتِ والطيبين والطيباتِ

وجذبني أبو العالية الشامي وأنشدني:

لا در در نبات الأرض إذ فجعت ... بالأصمعي لقد أبقت لنا أسفا

عش ما بدالك في الدنيا فلست ترى   في الناس منه ولا من علمه خلفا

قال فعجبت من اختلافهما فيه. وللأصمعي من التأليف كتاب خلق الانسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء، وكتاب الهمز، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب الفرق، وكتاب فعل وافعل، وكتاب الأمثال، وكتاب الأضداد، وكتاب النوادر، وكتاب أصول الكلام، وكتاب القلب والابدال إلى كثير غيرها.

أبو نواس الشاعر

هو أبو علي الحسن بن هاني المعروف بأبي نواس الشاعر المشهور كان أبوه من جند مروان آخر ملوك بني أمية وكان من أهل دمشق، وانتقل إلى الأهواز فولد أبو نواس بالبصرة ونشأ بها ثمَّ خرج إلى الكوفة ثمَّ صار إلى بغداد وأوَّل ما قال من الشعر وهو صبي:

حامل الهوى تعبٌ يستخفُّه الطرب   إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهيةً والمحب ينتحب   تعجبين من سقمي صحتي هي العجب

وهو من الطبقة الأولى من المولدين وشعره عشرة أنواع وهو مجيد في العشرة وقد اعتنى بجمع أشعاره أبو بكر الصولي وعلي بن حمزة الأصبهاني وغيرهما. وقيل إنَّ المأمون كان يقول لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس:

الا كل حي هالكٌ وابن هالكٍ   وذو نسب في الهالكين عريقِ
فقل لقريب الدار إنَّك ظاعنٌ   إلى منزل نائي المحل سحيقِ
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له من عدوٌّ في ثياب صديقِ

وله قصائد شتى للخلفاء في أيامه ونوادر حسنة ووقائع شتى منها أنَّ محمدًا الأمين بن هرون الرشيد سخط عليه فتهدده بالقتل وحبسه فكتب إليه من السجن:

بك أستجير من الردى   متعوذاً من سطو باسك

وحـيــاة رأســك لا اعــو ذُ لمثـلـهـا وحـيـوة رأسـك
مـن ذا يـكـون أبـا نـواسـك إذ قـتـلـت أبـا نــواســك

والمشهور أنّه ولد سنة ١٣٦هـ سنة ٧٥٤م. وتوفي سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م ببغداد.

المازني

هو أبو عثمان بكر بن محمّد بن عثمان بن حبيب المازني البصري النحوي كان أمام عصره في النحو والآداب، أخذ ذلك عن أبي عبيدة والأصمعي وأخذ عنه أبو العباس المبرد وله من التصانيف كتاب ما يلحن فيه العامة وكتاب الألف واللام، وكتاب التصريف، وكتاب العروض، وكتاب القوافي. وكان في غاية الورع وقالوا اتّفق ان غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجي:

أظـلـوم ان مـصـابـكـم رجـلاً اهـدى الـسـلام تحـيـة ظـلـمُ

فاختلف من في الحضرة اعراب رجل فمنهم من نصبه على أنّه اسم ان ومنهم من رفعه على أنّه خبرها والجارية مصرّة على أنّ شيخها المازني لقّنها إياه بالنصب فأحضره الواثق وسأله فقال الوجه النصب يا أمير المؤمنين لأنّ مصابكم مصدر بمعنى إصابتكم والرجل مفعول مصابكم والدليل عليه انّ الكلام معلّق إلى أن تقول ظلم فيتم الكلام فالمعنى أنّ إصابتكم رجلاً أهدى السلام ظلم. فاستحسنه الواثق. وقد توفي المازني سنة ٢٤٨ أو سنة ٢٤٩هـ وهي سنة ٨٦٣ أو سنة ٨٦٤م.

حنين بن اسحق الطبيب

هو أبو زيد حنين بن اسحق العبادي قوم من نصارى العرب من قبائل شتى انفردوا عن الناس واجتمعوا في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة وتسموا بالعباد لأنّ الكلمة لا تضاف إلّا إلى الخالق. وأمّا العبيد فتضاف إلى الخالق والمخلوق وكان اسحق والد حنين صيدلانياً وأحبّ حنين العلم فحضر بغداد وتتلمذ ليوحنا بن ماسويه الطبيب النصراني وجعل يخدمه ويقرأ عليه، فغضب عليه يوحنا فمضى إلى بلاد الروم وأحكم اللغة اليونانية والفلسفة ودخل البصرة وبرع في العربية وكان

جبرائيل بن بختيشوع طبيب الخلفاء النصراني أيضاً يجلّه، ولما سئل في أمره قال والله لئن مدَّ له في العمر ليفضحن سرجيس وهو سركيس الراسعيني او الرشعيني الذي ذكرنا ترجمته وهو ناقل علوم اليونان إلى اللغة السريانية. ولحنين مصنفات في الطب وترجمات لكثير من كتب علوم اليونان واتّصل خبره بالخليفة المتوكل بالله فأحضره إليه فأقطعه اقطاعاً وكثرت جوائزه له، وقال له يوماً أن يصف له دواء يقتل به عدواً له فقال حنين ما تعلمت غير الأدوية النافعة فهدده الخليفة وحبسه سنة ثمّ أعاده إليه وأعاد طلبه فقال قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية قال الخليفة فاني أقتلك فقال حنين لي رب يأخذ لي حقي غداً، فتبسّم المتوكّل وقال له طب نفساً فإننا أردنا امتحانك فقبّل الأرض حنين وشكر له. فقال الخليفة ما الذي منعك من الإجابة قال حنين شيئان الدين والصناعة . أمّا الدين فانّه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فما ظنّك بالأصدقاء . وأمّا الصناعة فانّها موضوعة لنفع الناس ومعالجتهم، وفي رقاب الأطباء عهد موكد بايمان مغلظة أن لا يعطوا أحداً دواءً قتالاً فقال الخليفة إنّهما شرعان جليلان وأمر بالخلع فافيضت عليه. وكان الطيفوري النصراني الكاتب يحسد حنيناً واجتمعا يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل أمامها فقال حنين لصاحب البيت ليس هذا المسيح ولا هؤلاء الرسل وإنّما هما صور، فلِمَ تضيع الزيت؟ فقال الطيفوري إن لم يستحقّوا الاكرام فابصق عليهم فبصق، فاشهد عليه الطيفوري ورفعه إلى المتوكّل وسأله إباحة الحكم عليه بحسب دين النصارى، فبعث إلى الجاثليق والأساقفة فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره. وانصرف حنين إلى داره ومات من ليلته فجأة. وقيل إنّه سقى نفسه سماً فمات سنة ٢٦٠هـ سنة ٨٧٤م. وكان لحنين ابنان داود واسحق، أما اسحق فحذم على الترجمة وأحسن فيها وكانت نفسه أميل إلى الفلسفة، وأمّا داود فكان طبيباً للعامة وكان له ابن أخت يقال له حبيش بن الأعسم أحد الناقلين من اليونانية والسريانية إلى العربية، وقيل إنَّ من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له فان أكثر ما نقله حبيش نسب إلى حنين (ملخّص عن ابن العبري في تاريخ الدول وعن ابن خلكان في وفيات الأعيان) .

وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته المشهورة فقال حنين بن اسحق الف فصولاً في مخافة الله وكتاباً في قواعد اللغة (غرامطيقاً) ومعجماً. وقال السمعاني في شرحه كلام الصوباوي من (المكتبة الشرقية مجلّد ٣ صفحة ١٦٤)

إنَّ حُنينًا كان نسطورياً وانَّه توفي سنة ٨٧٦، وروى عن هوتينجروس عن ابن العبري أنَّ حنيناً ألَّف خمسة وعشرين كتاباً خلا ما ترجمه عن اليونانية إلى السريانية والعربية، ونقل السمعاني عن ابن العبري ما رويناه عنه في كتابه تاريخ الدول. ورواية أخرى في كتابه في جثالقة الشرق قال فيها إنَّ حنينا شكا الطيفوري إلى الخليفة بانَّه يعبد الأوثان فكبس الخليفة بيت الطيفوري وأتوا منه بصورة العذراء، فقال حنين هذا صنمه. فقال الطيفوري أبصق عليه إن كان صنماً فبصق فشكاه إلى الجاثليق فحرمه. ومن كتب حنين كتاب في خلاصة فلسفة أرسطو وقد اختصره ابن العبري وشرحه (طالع المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ صفحة ٢٧٠ و ٢٧٢).

المبرد

هو أبو العباس محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الازدي البصري المعروف بالمبرد النحوي ولد سنة ٢١٠هـ سنة ٨٢٦ أو سنة ٨٢٣م وتوفي سنة ٢٨٦ وقيل سنة ٢٨٥هـ سنة ٩٠٠ أو سنة ٨٩٩م ببغداد وكان إماماً في النحو وله التآليف النافعة في الأدب منها: كتاب الكامل، وكتاب الروضة المقتضب وغيرهما. أخذ الأدب عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وقد أخذ عنه نفطويه وغيره من الأئمّة وكان المبرد وأحمد بن يحيى الملقَّب بثعلب صاحب كتاب الفصيح عالمين متعاصرين وفيهما يقول أبو بكر بن عبد الأزهر الذي كان في عصرهما:

أيا طالب العلم لا تجهلن   وعذ بالمبرد أو ثعلبِ
تجد عند هذين علم الورى   فلا تكُ كالجمل الأجربِ
علومُ الخلائق مقرونةٌ   بهذين في الشرق والغربِ

وكان المبرد كثير الأمالي حسن النوادر فمما أملاه ان المنصور أبا جعفر ولى رجلاً على التصدق على العميان والأيتام والقواعد من النساء اللاتي لا أزواج لهن فدخل على هذا المتولي رجل ومعه ولده فقال له إن رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعد، فقال المتولي القواعد نساء فكيف اثبتك فيهنَّ؟. فقال ففي العميان فقال أمَّا هذا فنعم لقوله تعالى لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. فقال وتثبت ولدي في الأيتام. فقال وهذا أيضاً افعله فمن تكون أنت؟

أباه؟ فهو يتيم. وكان المبرد كثيراً ما ينشد في مجالسه:

يا من تلبس أثواباً يتيه بها   تيه الملوك على بعض المساكينِ
ما غيَّر الجل أخلاق الحمير ولا   نقش البراذع أخلاق البراذينِ

ولما مات نظم ابن العلاف فيه وفي ثعلب هذه الأبيات:

ذهب المبرد وانقضت أيامه   وليذهبن أثر المبرد ثعلبُ
بيت من الآداب أصبح نصفه   خرباً وباقي بيتها فسيخربُ
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا   للدهر أنفسكم على ما يسلبُ
وتزودوا من ثعلب فبكاس ما   شرب المبرد عن قريب يشربُ
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه   إن كانت الأنفاس مما يكتبُ

واختلف في سبب تلقيبه بالمبرد ومما رووه انَّه اختبأ يوماً ما في مزمَّلة وهي خابية يبرد الماء فيها فلقب بالمبرد بتشديد الراء وفتحها.

الزجّاج

هو أبو اسحق ابراهيم بن محمَّد بن السري بن سهل الزجّاج النحوي كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنَّف كتاباً في معاني القرآن وله كتاب الأماني وكتاب ما فسّر من جامع المنطق وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب مختصر في النحو وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف وكتاب شرح أبيات سيبويه وكتاب النوادر إلى غيرها، وأخذ الأدب عن المبرد وثعلب واختصَّ بصحبة الوزير عبدالله بن سليمان بن وهب وعلم ولده القاسم الأدب، ولما استوزر القاسم أفاد معلِّمه مالاً جزيلاً. وقد توفي الزجّاج سنة ٣١٦هـ سنة ٩٢٩م وقد اناف عمره على ثمانين سنة (وقد لخَّصنا أكثر ما في هذا الفصل عن وفيات الأعيان لابن خلكان).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع

الفصل الأوَّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٧٥٨

بطاركة أنطاكية في القرن التاسع

فرغنا من كلامنا في بطاركة أنطاكية في القرن الثامن بذكر توادوريطس ونقول الآن إنَّ توادوريطس خلفه أيوب وأقام في البطريركية احدى وثلاثين سنة أي من سنة ٨١٢ إلى سنة ٨٤٣ على ما روى إدوار برنردس. وقال سعيد بن البطريق إنَّ أيوب أقيم بطريركاً على أنطاكية في السنة الأولى لخلافة المأمون بن هرون الرشيد، والمأمون بويع له بالخلافة سنة ١٩٨هـ وهي سنة ٨١٣م أو سنة ٨١٤م وانه استمرَّ على هذا الكرسي احدى وثلاثين سنة فتكون وفاته سنة ٨٤٤ أو سنة ٨٤٥م. والفرق بين الروايتين قليل وهذا ظاهر أيضاً من كتاب يوحنا كوروبلات الذي كتب التاريخ البيزنطي. ومن كتاب مكمل تاريخ قسطنطين بورفيروجانت الذي سماه يعقوب بدلاً من أيوب ومع ذلك سترى أنَّه لا يمكن القطع بصحة ذلك. وخلف

أيوب بعد وفاته كريستوفر ولا ريب في أنّه كان في أيام الملك توافيل لأنَّ هذا الملك كتب رسالة في شأن تكريم الصور إلى أيوب بطريرك اسكندرية وكريستوفر بطريرك أنطاكية وباسيليوس بطريرك أورشليم وهذه الرسالة ذكرها قسطنطين بورفيروجانت على أنَّ توافيل استوى على منصة الملك من سنة ٨٢٩ إلى سنة ٨٤٢م فيلزم من ذلك أن يكون أيوب سالفه توفي قبل سنة ٨٤٤م خلافاً لما ذكرناه آنفاً. ولذلك قلنا إنَّه لا يمكن القطع بسنة أيوب سالفه ولا بصحة قول إدوار برنردس وابن البطريق بأنَّه دبَّر كنيسة أنطاكية احدى وثلاثين سنة على أنَّ إدوار وابن البطريق لم يذكر أيوب بطريرك اسكندرية وكريستوفر بطريرك أنطاكية في هذا القرن .

وخلف نيقولاوس كريستوفر سنة ٨٤٧م وجاء في المجلس الأوَّل من المجمع الثامن العام الذي عقد في قسطنطينية سنة ٨٦٩م أنَّ كرسي أنطاكية لم يكن فيه حينئذٍ بطريرك لأنَّ الخليفة كان قد نفى البطريرك تلك السنة على ما روى في المجمع المذكور إيليا نائب البطريرك الأورشليمي. وجاءَ في مختصر أعمال المجمع المذكور الذي ترجم عن اليونانية إلى اللاتينية أنَّ نيقولاوس هذا كان قبل المجمع الثامن قد حرم فوتيوس لغصبه كرسي اغناطيوس البطريرك الشرعي على قسطنطينية .

وذكر ابن البطريق في تاريخه أنَّ أسطفانس الرابع صُيِّرَ بطريركاً على أنطاكية وجلس على الكرسي يوماً واحداً وتوفي يوم ارتقائه، وقام بعد ذلك توادوسيوس وذكره ادوار برنردس وسماه تادي، وقال إنَّ مدَّة بطريركيته وبطريركية أسطفانس كانت اثنتين وعشرين سنة أي من سنة ٨٦٩ إلى سنة ٨٩١م وعن ابن البطريق أنَّ توادوسيوس استمرَّ وحده ٢٢ سنة وجاء اسم توادوسيوس في أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس في أيام الملك باسيليوس وانَّه أرسل كاهناً اسمه باسيليوس إلى مجمع فوتيوس وانَّ باسيليوس هذا كان نائباً عن إيليا أيضاً الذي كان يدبر حينئذٍ كنيسة أورشليم .

وخلف اوسطاتيوس توادوسيوس المذكور ولم نعرفه إلَّا من رسالة أنفذها إليه فوتيوس معنونة إلى اوسطاتيوس بطريرك أنطاكية، ويظهر أنَّ فوتيوس كان بطريركاً لمَّا أرسل إليه هذه الرسالة. وخلف سمعان الأوَّل أوسطاتيوس وقد ذكره ابن البطريق وقال إنَّه كان ابن زرناكي وجلس على كرسي أنطاكية سنة ٨٩١م وأقام في

البطريركية اثنتي عشرة سنة وكذلك روى إدوار برنردس وقال إنّه توفي سنة ٩٠٣م (ملخّص عن المشرق المسيحي للكويان في كلامه على بطاركة أنطاكية).

عد ٧٥٩
بطاركة أورشليم في القرن التاسع

خلف توما جيورجيوس الذي ذكرناه في تاريخ القرن الثامن وزعم بعض المؤرخين أنَّ فرتوناتس كان قبل توما بطريركاً على أورشليم ولكن أثبت لكويان في صفحات كثيرة أنَّ فرتوناتس لم يكن بطريركاً على أورشليم بل على البندقية، وأنَّ توما اختير بطريركاً بعد وفاة جيورجيوس سنة ٨٠٧م على ما يظهر من ترجمة العشرين شهيداً التي ذكرها البولانديون في اليوم العشرين من شهر آذار. وممَّا كتبه لاونتسيوس في ترجمة القديس أسطفانس راهب دير القديس سابا. وقد أنفذ توما البطريرك سنة ٨٠٩م إلى البابا لاون الثالث رسالتين إحداهما باسمه والأخرى باسم رهبان دير جبل الزيتون في أورشليم في شأن خلاف كان بينهم في عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن أيضاً وأثبت لكويان رسالة هؤلاء الرهبان وجواب الحبر الروماني إليهم مشتملاً على دستور الإيمان وقد أوفد هذا البطريرك إلى الملك لاون المعروف بالأرمني توادورس وأخاه توافان راهبي دير القديس سابا ليدافعا عن عقيدة تكريم الصور، فسخط الملك عليهما وعذبهما ونفاهما. وهذا بيّن من ترجمتها التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ٨١٧م عن مؤلف لم يذكر اسمه. والظاهر مما رواه باجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس أنَّ توما بقي حياً سنة ٨٢١م وأنَّه توفي سنة ٨٢٩م التي قام فيها باسيليوس خليفته.

وخلف باسيليوس توما المذكور ولا شكَّ في أنَّه كان يدبر كنيسة أورشليم في أيام الملك توافيل الذي استوى على منصة الملك سنة ٨٢٩م لأنَّ باسيليوس هذا قد كتب هو وأيوب البطريرك الاسكندري وخريستوفر البطريرك الأنطاكي إلى هذا الملك محاماة عن تكريم الصور، وهذا ظاهر من المقالة التي كتبها قسطنطين برفيروجانت في نقل صورة المسيح المرسلة إلى أبجر ملك الرها من هذه المدينة إلى قسطنطينية، وهذه المقالة قد نشرها كمبيفيسيوس وأثبتها باجيوس في تنقيح تاريخ

بارونيوس لسنة ٨٣٣م. ولم يجمع العلماء على اسمي أيوب وخريستوفر بل سماها بعضهم بغير هذين الاسمين. ولم يتفقوا أيضاً على الزمان الذي كان فيه هؤلاء البطاركة. وقد ذكر اسم باسيليوس في الجدول اللاتيني لبطاركة أورشليم ولكن لم تعين سنة ارتقائه أو سنة وفاته. ويؤخذ من ارتقاء سرجيوس خليفته إلى البطريركية سنة ٨٤٣م ان باسيليوس توفي تلك السنة.

وخلف سرجيوس باسيليوس وقد ذكر اسمه في الجدول اللاتيني المذكور: وقال فيه سعيد بن البطريق إنَّه صير بطريركاً في السنة الثانية لخلافة الواثق بالله واستمرَّ بطريركاً ست عشرة سنة. فالواثق بالله بويع له بالخلافة في ١٨ ربيع الأوَّل سنة ٢٢٧هـ. وقال جرجس بن العميد إنَّ بدء هذه السنة الهجرية كان في ٢١ تشرين االأوَّل سنة ٨٤١م، فالثامن عشر من ربيع الأوَّل يوافق ٥ كانون الثاني سنة ٨٤٢م. ولما كان قد رقي في السنة الثانية لخلافة الواثق كانت ترقيته سنة ٨٤٣. قال لكويان عند ذكره ما مرَّ هنا هذا ما رواه سعيد بن البطريق وهو كثير الغلط والخطأ، فلا يركن إلى قوله، وكثيراً ما لزم إصلاح خطأه، على أنَّه لا يتحتم نبذ كل ما يقوله ولاسيما ما قاله هنا في سرجيوس الذي كان قريباً من عصره. وقد جاء ذكر سرجيوس هذا في صلاة عيد المجمع الثامن المسكوني في جملة البطاركة الذين حرموا فوتيوس وغريغوريوس أسقف سيراكوزا. وجاء ذكره أيضاً في أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩م في أيام الملك باسيليوس والبابا يوحنا الثامن إذ قيل هنالك إنَّ إيليا كاتب سرجيوس شهد هذا المجمع نيابةً عنه، لكنَّ أعمال هذا المجمع لا يركن إليها ولا يعتمد عليها إذ حقق أهل النقد أنَّ فوتيوس أدخل عليها أموراً كثيرة غير صحيحة. وإذا صحَّ ما قاله سعيد بن البطريق من أنَّ سرجيوس ظلَّ بطريركاً ست عشرة سنة فتكون وفاته سنة ٨٥٨ أو سنة ٨٥٩م إذ صير بطريركاً على قوله سنة ٨٤٣م.

وخلف سلمون أو سليمان سرجيوس المذكور وقال فيه ابن البطريق إنَّه صُيِّر بطريركاً في السنة العاشرة لخلافة المتوكِّل على الله، والمعلوم أنَّ المتوكِّل بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق في ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ وقال ابن العميد إنَّ هذه السنة الهجرية كان بدؤها في ٢٨ آب سنة ٨٤٧م، وعليه فخلافة المتوكِّل في ذي الحجة توافق أوائل آب سنة ٨٤٨م، والسنة العاشرة لخلافته توافق سنة ٨٥٨م كما مرَّ. ويؤيد ذلك أنَّ أنسطاس المكتبي قال في رسالته إلى البابا أدريانس الثاني

(المثبتة في المجلّد ٨ في مجموعة المجامع للاباي) ما ملخّصه: «إنَّ سلمون كان عامياً وما دخل في الإكليريكية إلّا وصير بطريركاً وهذا لم يكن له مثيل منذ أيام يعقوب الرسول إلاّ إذا صير عن عهد قريب فوتيوس بطريركاً بُعيد أن صار أكليريكياً». وفوتيوس صير بطريركاً سنة ٨٥٧، وما ذكرته يخالف بعض الخلاف ما ذكره لكويان في هذا المحل لسهو في التوفيق بين السنين الهجرية والمسيحية. وقد توفي سلمون قبل انعقاد المجمع الثامن سنة ٨٦٩ وربّما كانت وفاته سنة ٨٦٣ أو سنة ٨٦٤.

وخلف توادوسيوس (ويسمى توادورس أيضاً) سلمون وقال فيه ابن البطريق إنَّه صُيِّرَ بطريركاً في السنة الأولى لخلافة المستعين بالله واستمرَّ بطريركاً تسع عشرة سنة. والمشهور أنَّ المستعين بالله بويع بالخلافة لست خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨ للهجرة. وعن ابن العميد أنَّ هذه السنة كان بدؤها السادس من آذار سنة ٨٦٢م فان صحَّ قول ابن البطريق كان ارتقاء توادوسيوس إلى البطريركية سنة ٨٦٢ أو سنة ٨٦٣م وكانت وفاته سنة ٨٨١ أو سنة ٨٨٢م. على أنَّه يظهر من أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩م أنَّ توادوسيوس كان قد مات قبل ذلك لأنَّ الذي ناب في هذا المجمع عن البطريرك الأورشليمي قال مراتٍ في المجمع إنَّ الذي أرسله إنَّما هو إيليا بطريرك أورشليم خليفة توادوسيوس الذي توفي من عهد قريب. أجل إنَّ أعمال هذا المجمع لا يركن إليها كما مرَّ ولكن مثل هذا القول لا مصلحة لأحد في إدخاله عليها، فتبيَّن منه أنَّ هذا البطريرك توفي سنة ٨٧٩م قبل عقد المجمع لأنَّنا نعلم أنَّ البابا يوحنا الثامن أنفذ إليه رسالة مؤرخة في ٢ أيار سنة ٨٧٩م (ذكرها لاباي في مجلّد ٣) ومجمع فوتيوس عقده في شهر أيلول من هذه السنة. ونعلم أيضاً أنَّ توادوسيوس كتب رسالة إلى اغناطيوس بطريرك قسطنطينية سنة ٨٦٧م قبل انعقاد المجمع الثامن العام بسنتين وتليت هذه الرسالة في المجلس الأوَّل منه، وكان توادوسيوس يعتذر فيها عن أن يحضر المجمع بنفسه وعن أن يكاتب اغناطيوس بطريرك قسطنطينية بتواتر خشية من مراقبة الحكومة له، ويقول إنَّه أناب إيليا كاتبه عنه. وقال إيليا هذا في المجلس الخامس من هذا المجمع: «قد بلغنا إلى هنا منذ سنتين قبل بلوغ نواب الحبر الروماني».

وخلف إيليا الثالث توادوسيوس المذكور وإن صدقنا شيئاً من أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩م ظهر أنَّ إيليا خلف توادوسيوس تلك السنة قبل انعقاد المجمع، وأنَّه كان محازباً لفوتيوس ومحالفاً لاغناطيوس وأنَّ نائب إيليا صرَّح

بأنَّ سالفه توادوسيوس كان على شاكلته. لكنَّ هذا التصريح الأخير تهمة تدحضها رسالة توادوسيوس إلى أغناطيوس التي ذكرناها آنفاً ويفندها نص المجمع الثامن، فالظاهر أنَّ الملك باسيليوس وفوتيوس استمالا إيليا بطريرك أورشليم إلى الرضى برد فوتيوس إلى البطريركية بعد عزله عنها. قال لكويان (في كلامه على هذا البطريرك) لما كانت أعمال مجمع فوتيوس لا يمكن الاعتماد عليها لا أجسر أن أحقق أنَّ إيليا شايع فوتيوس في حياة اغناطيوس. وقال ابن البطريق في إيليا هذا إنَّه صُيِّرَ بطريركاً في السنة العاشرة لخلافة المهتدي، وانَّه كان ابن منصور الذي عاون على فتح دمشق وظلَّ بطريركاً تسعاً وعشرين سنة. والمشهور أنَّ المهتدي بويع له بالخلافة سنة ٢٥٥هـ، وعن ابن العميد أنَّ هذه السنة كان بدؤها في ٢٠ كانون الأوَّل سنة ٨٧٠م فالسنة العاشرة من خلافته التي صير إيليا بطريركاً فيها كانت سنة ٨٧٩ أو سنة ٨٨٠م. على أنَّ قول البطريق أنَّه كان ابن منصور الذي عاون على فتح دمشق إنَّما هو من أغلاطه الفاضحة، فإن فتح دمشق كان سنة ٦٣٥م قبل ارتقاء هذا البطريرك بمئتين وخمس وأربعين سنة. ولهذا البطريرك رسالة إلى الملك كرلس الصغير ملك افرنسة وإلى أساقفتها وأعيانها يلتمس فيها معاونته على إصلاح كنائس فلسطين. وروى ابن العميد أنَّ الملك لاون أراد أن يتزوج بامرأة رابعة فعارضه نيقولاوس بطريرك قسطنطينية زاعماً أنَّ هذا مخالف سنَّة الشرقيين، فكتب الملك إلى غيره من بطاركة المشرق فأفتوه بأنَّ ذلك حلال فتزوج، ونفى البطريرك نيقولاوس، ثمَّ مات إيليا بطريرك أورشليم سنة ٩٠٧م ان صحَّ قول ابن البطريق. (انتهى ملخصاً عن الشرق المسيحي للكويان).

عد ٧٦٠

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن التاسع

نأسف شديد الأسف على أننا مع تنقيبنا في كل ما لدينا من الكتب عن أسماء الأساقفة الذين كانوا بسورية في هذا القرن لم نجد منها إلَّا نزراً قليلاً لا لأنَّه لم يكن أساقفة بل لأنَّ الاضطرابات المتتالية والغزوات المتواترة والغارات التي كان الغزاة المسلمون يشنونها على بلاد الروم وسطو عساكر ملوك الروم على بلاد المسلمين كل ذلك منع الناس والنصارى خاصة عن التفرغ للعلم والانكباب على

التأليف فقلَّ ما خلف لنا من عاشوا بسورية في تلك الأعصر ما ننتفع به بمعرفة أخبارهم، أو إذا كانوا خلفوا شيئاً فأتلفته غِيَرُ الزمان ولم يتَّصل إلينا. وكانت المراقبة شديدة شأن كل بلد كثر فيه الشغب أو تواتر إليه الغزو فلا يباح رؤساؤه ووجهاؤه السعي في سبيل تقدم العلوم والمعارف والخروج من مواطنهم ليعرفهم الأجانب ويدوِّنوا أخبارهم، بل كانوا يحاذرون المكاتبات إلى الأجنبيين أيضاً. ولنا مثال لذلك في ما كتبناه عن عجز الأساقفة والبطاركة عن أن يشهدوا المجمع السابع النيقوي في القرن الثامن حتى ناب كاهنان عن ثلاثة بطاركة، وما سندونه عن تعذرهم عن المضي إلى المجمع الثامن في هذا القرن ولو استطاعوا أن يشهدوا هذين المجمعين لتوصلنا بذلك إلى معرفة كثيرين منهم بالوقوف على توقيعاتهم كما عرفنا كثيرين منهم بتوقيع أسمائهم في المجامع السابقة، أو بذكر كلامهم أو الكلام عنهم. فللّه الأمر ولا حول ولا قوَّة إلَّا به. ومن عرفناهم من أساقفة سورية في هذا القرن إنَّما هم أولاً أغابيوس نقل من كرسي سلوقية بياريا إلى كرسي حلب في أيام الملك باسيليوس الذي ارتقى إلى منصَّة الملك سنة ٨٦٨م. ذكره نيكوفور كاليستوس (ك ٩ فصل ٣٩) وعنه لكويان في المشرق المسيحي في أساقفة حلب.

ثانياً توما، وقد ذكر فوتيوس في المجمع الذي عقده سنة ٨٧٩م أنَّه شهد المجمع الثامن بمنزلة نائب عن بطريرك أنطاكية مع أنَّه لم يكن أسقفاً على بيروت ولم يُنبهُ بطريرك أنطاكية عنه، ونتج من ذلك أنَّ رسائل البطاركة الشرقيين الثلاثة إلى المجمع الثامن الذي حرمه كانت مزورة، إلى أن قال فوتيوس، في مجمعه إنَّ توما نقل بعد ذلك إلى صور فطلب من البطاركة الاسكندري والأنطاكي والأورشليمي المغفرة والصفح عمَّا صنعه في المجمع الثامن مخالفاً به فوتيوس وتليت في المجلس الثاني من مجمع فوتيوس رسالة معنونة توبة توما متروبوليت صور ادَّعى فوتيوس أنَّ ميخائيل البطريرك الاسكندري أرسلها إليها، على أنَّ أعمال هذا المجمع ليست بصحيحة ولربَّما كانت تلك الرسالة مختلقة.

ثالثاً روى غوليلمس كافيوس في تاريخه عند كلامه في فوتيوس القسطنطيني وكتابه في المجامع أنَّه أي فوتيوس قال إنَّ في مكتبته بين الكتب اليونانية كتاباً موجزاً في المجامع لكنه ليس من تآليفه بل أنَّ مؤلفه إنَّما هو فوتيوس أسقف صور (ملخَّص عن لكويان في الشرق المسيحي) وقد طالعنا الفصول التي ينشرها المنسنيور شابو في المجلة الموسومة بالمشرق المسيحي نقلاً عن الكتاب القديم السرياني

الذي وجد في الرها معزواً إلى مخائيل الكبير بطريرك اليعاقبة، فوجدنا هناك كثيراً من أسماء الأساقفة اليعاقبة الذي رقاهم بطاركتهم إلى كراسي أبرشياتهم في حلب وحمص وبعلبك ودمشق من القرن الثاني عشر، ولكن ليس هناك إلّا الأسماء وحدها فضربنا عن ذكرها لقلة الفائدة من معرفة الأسماء مجردة واجتزأنا بهذه الإشارة .

الفصل الثاني

مشاهير العلم الديني في القرن التاسع

لم نعرف أحداً من مشاهير العلم الديني بسورية في هذا القرن فاقتصرنا على ذكر بعضهم من غير سورية جرياً على مساق تاريخنا إلى الآن

عد ٧٦١

ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة

قد استشهدنا مرات بتاريخ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة فأفردنا هذا الفصل لذكر ترجمة موجزة فقد اتَّخذ السيرة الرهبانية أولاً في دير قنسرين ثم انتقل إلى دير القديس يعقوب في كيشوم أو خيشوم (بين حلب والرها)، ولمَّا اجتمع أساقفة اليعاقبة لانتخاب بطريرك يخلف فوريتس الذي توفي سنة ٨١٧م ولم يتَّفقوا على أسقف أهل للبطريركية نهض توادورس الأسقف الذي كان من دير خيشوم فقال إني أرى ديونيسيوس الراهب الذي أقام عندنا في دير خيشوم منذ سنتين أهلاً لذلك فتابعه على رأيه باسيليوس أسقف تكريت، ويوحنا أسقف مرعش، أنسطاس أسقف دمشق وغيرهم من الأساقفة، ووقعوا على صك الانتخاب فاستدعوه ورقوه يوم الجمعة إلى درجة الشماسية ويوم السبت إلى درجة الكهنوت ويوم الأحد في اليوم

الأوَّل من آب سنة ١١٢٩ يونانية (توافق سنة ٨١٨م) إلى المقام البطريركي كما أخبر هو عن نفسه على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة. وكان بين اليعاقبة حينئذٍ شقاق وفي مقدمة المخالفين أسقف اسمه ابراهيم سموه بطريركاً فلم يخضع مع محازبيه لديونيسيوس بل استمروا مخالفين له مدة حياة ابراهيم المذكور، وكثيراً ما أزعجوا الخليفة المأمون بشكاويهم وعدم إذعانهم. واختلف اليهود أيضاً وكان بينهم شقاق على الرئاسة فإنَّ يهود طبرية رأسوا عليهم رجلاً اسمه داود ويهود بابل رأسوا عليهم دانيال من العنايتين وهم شيعة منهم استبدلوا السبت بالأربعاء ورفعوا دعواهم إلى المأمون فأبرز أمراً فحواه أنَّه إذا اتَّفق عشرة رجال من أي مذهب كانوا على إقامة رئيس ساغ لهم سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مجوساً وتوفي ابراهيم البطريرك المشاق سنة ٨٣٧م فاختار أصحابه خليفة له أخاه سمعان. وتوفي ديونيسيوس في ٢٢ آب سنة ٨٤٥م (عن ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة).

وقد ألَّف ديونيسيوس تاريخاً ابتدأ فيه من خلق العالم إلى آخر أيامه، ولهذا التاريخ نسختان تتداولهما أيدي السريان إحداهما مطولة سلك بها مسلك أوسابيوس القيصري وغيره من المؤرخين اليونان، والثانية موجزة حذا بها حذو أوسابيوس القيصري المذكور في الكرونيكون، فيذكر السنين ويدون ما كان في كل منها بإيجاز. وقد روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ صفحة ٩٨) إنَّه عثر على نسخة قديمة من هذا الموجز في دير العذراء والدة الله في الاسقيط وأنَّ ديونيسيوس كتب هذا الكتاب قبل بطريركيته لأنَّه قال إنَّه كان الفراغ منه في أيام البطريرك جيورجيوس الذي كان هو الثالث بعده، ودعا فيه كهنة الدير آباءه الروحيين. وهذا التاريخ ينتهي في نسخة الاسقيط المذكورة سنة ٧٧٥م. وقد قسَّم تاريخه أربعة أقسام تكلَّم في الأوَّل على ما كان من خلق العالم إلى أيام قسطنطين الكبير واعتمد فيه على تاريخ أوسابيوس القيصري، وفي الثاني على ما كان من أيام قسطنطين إلى أيام توادوسيوس الصغير واعتمد فيه على تاريخ سقراط، وفي الثالث على ما كان من أيام توادوسيوس إلى أيام يوستينيانوس الملك واعتمد فيه على تاريخ يوحنا أسقف آسيا، وفي الرابع على ما كان من عهد يوستينيانوس إلى أيامه واعتمد فيه على مطالعته. وقد أرَّخ فيه بثلاثة أعصر: عصر خلق العالم من آدم إلى ابراهيم، وعصر ابراهيم من مولده إلى أيام قسطنطين الكبير، وعصر اسكندر وأرَّخ فيه من

أيام قسطنطين إلى آخر تاريخه وجعل سني التاريخ من آدم إلى الطوفان ٢٢٤٢ سنة، ومن الطوفان إلى ابراهيم ٩٤٢، ومن ابراهيم إلى المسيح ٢٠١٦ سنة. فكان على رأيه ميلاد المخلِّص سنة ٥٢٠٠ لخلق آدم، وهذا يقرّب من التاريخ الذي يؤخذ عن الترجمة اليونانية وقد خطّأه السمعاني في مسائل كثيرة من تاريخه (طالع المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ من صفحة ٩٨ إلى ١١٦). وقد ذكر السمعاني أيضاً ترجمته عن ابن العبري في المجلَّد المذكور (من صفحة ٣٤٤ إلى ٣٤٨)، وقال في هذا المحل الأخير إنَّ تاريخ ديونيسيوس المطول ينتهي في سنة ٨٤٤م، مع أنَّ تاريخ الموجز ينتهي في سنة ٧٧٥م، على ما في نسخته التي عثر عليها في دير الأسقيط، لكنَّه قال إنَّ آخرها ساقط.

عد ٧٦٢
يوحنا الداراوي وموسى بركيفا

أمَّا يوحنا فكان أسقف دارا في الجزيرة واختلف في العصر الذي كان فيه فمن قائل إنَّه كان في القرن السادس أو السابع أو الثامن، وقطع السمعاني في المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ صفحة ١١٨) إنَّه لم يكن قبل سنة ٧٠٠ للميلاد ولا بعد سنة ٨٥٠م. والأوضح من ذلك ما ذكره في المجلَّد المذكور صفحة ٣٤٧ نقلاً عن ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة من أنَّ ديونيسيوس بطريركهم المار ذكره كتب في آخر حياته ليوحنا هذا تاريخه يصف له المضايق التي يتحملها وما يقاسيه من الغم والكدر حتى يشتهي الموت وبذلك كانت نهاية تاريخه ومات بُعيد ذلك وكان موته سنة ٨٤٥م كما مرَّ، فإذاً، كان الداراوي حينئذٍ حياً. وقد ذكر السمعاني مؤلفات الداراوي نقلاً عن كتاب قديم خطُّ سنة ٩٣٢م وكان من كتب ابراهيم الحاقلي الماروني وهو الآن في جملة الكتب المعزوة إليه في المكتبة الواتيكانية عد ١٦ فقال إنَّ مؤلفاته هي أربعة أسفار في قيامة الأجساد: يشتمل الأوَّل منها على أحد عشر فصلاً والثاني على ١٥ فصلاً والثالث على ٨ فصول والرابع على ٢٤ فصلاً. وسفران في المراتب السموية والبيعية وأربعة أسفار الكهنوت، يشتمل الأوَّل منها على ٨ فصول والثاني على ٢٢ فصلاً والثالث على فصلين والرابع ممزَّق آخره والباقي منه سبعة فصول. وقال السمعاني بعد إيراده فحوى كل من هذه الفصول

إنَّ بعضها مثبت في الكتاب الذي خطَّه الحاقلي في الكهنوت معزواً إلى القديس يوحنا مارون، وقد استوفينا الكلام على ذلك عند ذكرنا مؤلفات هذا القديس في عد ٧٠٧، وللداراوي أيضاً نافور (أي رتبة القداس) ذكره مؤلف جدول النوافير على ما روى سكولنجيوس (مجلَّد ٣ صفحة ١٠٦) وهو يعقوبي المذهب.

أمَّا موسى بركيفا (أي ابن الصخرة أو ابن بطرس) فقد ذكر السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ صفحة ١٢٧) ترجمته في جملة تراجمة المؤلفين اليعاقبة، فقال إنَّه اشتهر في أواخر القرن التاسع وكان في شبابه قد اتَّخذ السيرة الرهبانية في دير سرجيوس بالجبل المعروف بطورا صهيا (أي الجبل القاحل) على دجلة ثمَّ رقي إلى الأسقفية وسمي ساويرس، ونراه سمي تارة أسقف بيت رمان وطوراً أسقف بيت كينا وحيناً أسقف الموصل، وقد أدركته الوفاة سنة ٩١٣م على ما روى ماسيوس في مقدمته على كتابه في الفردوس. أمَّا مؤلفاته فعدها ماسيوس كما يأتي: وأوَّلها كتابه في ستة أيام الخليقة، والثاني في الفردوس وقد ترجمه أندراوس ماسيوس إلى اللاتينية وطبع في سنة ١٥٦٩م، والثالث يشتمل على تفسير أسفار العهدين القديم والحديث وقد استشهد به أبو الفرج ابن العبري متواتراً في تفسيره آيات الأسفار المقدَّسة، والرابع نافور ترجمه رينودسيوس إلى اللاتينية (مجلَّد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٩١)، وقد ذكره البطريرك أسطفانس الدويهي الشهير في كتابه «المنابر العشر» (فصل ٧ في مؤلفي النوافير غير الكاثوليكيين عد ١٥) فقال: « ساويروس وهو موسى بركيفا أسقف بيت رمان له نافوران بدء الأوَّل ܡܪܝ ܐ ܐܠܗܐ ܢܘܗܪܐ ܡܫܡܗ ܡܡܠ: (أي أيُّها الرب الإله النور الأزلي) والثاني ما وقع في يدنا » والخامس شرح النافور السرياني، والسادس في النفس، والسابع في البدع، والثامن في تلبيس الثوب الرهباني، والتاسع خطب في الأعياد الاحتفالية، وقد ذكره السمعاني أيضاً في المجلَّد المذكور من المكتبة الشرقية صفحة ٢١٨ مبيناً نسبه وسيرته وأسقفيته ومؤلفاته نقلاً عن ابن العبري وعن الكتاب القديم الذي هو ٣٢ من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية، وقال إنَّ الكتاب السرياني الذي أرسله حديثاً أندراوس اسكندر الماروني إلى المكتبة الواتيكانية وهو في عد ٣١ يشتمل على تآليفه الآتي ذكرها وهي: كتابه في النفس يحوى ٤٠ فصلاً، وكتابه في شرح الميرون المقدَّس وفيه ٥٠ فصلاً، وكتابه في المعمودية وفيه ٢٤ فصلاً، وكتابه في صعود المخلِّص وفيه ٢٠ فصلاً.

وقد ذكره ابن العبري في تاريخ بطاركة أنطاكية، وذيل السيدان العالمان يوحنا أبالوس ويوسف لامي أستاذا كلية لوفان (اللذان ترجما هذا التاريخ وعلقا حواشي عليه) قول ابن العبري بحاشية أثبتا فيها ما رويناه عن السمعاني وزادا عليه أنَّ في الكتاب القديم السرياني الكائن في المتحف البريطاني في عد ٧٢١ والذي خطَّ في القرن العاشر والحادي عشر يسمى موسى ܐܦܣܩܘܦܐ ܕܒܝܬ ܪܡܢ ܘ ܕܥܡܐ ܥܪ̈ܒܝܐ. أي أسقف بيت رامان (كما مرّ)، وأسقف العرب أي أسقف حيرة النعمان كما قال السمعاني في مقالته في المونوفيزيتيين صفحة ٦٥ و ٨٨، وزادا على تأليفه «كتاباً في شرح كتب الفصاحة ذكره ابن العبري في الجزء الثاني من تاريخه، وكتاباً في شرح أقوال القديس غريغوريوس النزينزي قسمه في مجلدين، وكتاباً في تاريخ الكنيسة ذكره السمعاني في المكتبة الشرقية مجلَّد ٢ صفحة ٢١٩ وربما كان له كتاب في الكهنوت». واعتمدا في قولهما هذا الأخير على ما ذكره الخوري يوسف داود من أنَّه وجد هذا الكتاب معزواً إلى موسى بركيفا في مكتبة دير الشرفة وتركا لغيرهما أن يحقق على صحة نسبة هذا الكتاب أليوحنا مارون هو أم للداراوي أو لموسى بركيفا وقد ذكرنا ذلك في كتابنا «روح الردود».

عد ٧٦٣
أنسطاس المكتبي وسمعان متفرست

أمّا أنسطاس فهو كاهن كان برومة ناظراً على مكتبة الكنيسة الرومانية ولذلك يوصف بالمكتبي، وكان في أيام الأحبار الرومانيين نيقولاوس الأوَّل وأدريانس الثاني ويوحنا الثامن أي في النصف الآخر من القرن التاسع، وكان ضليعاً باللغة اليونانية وترجم منها إلى اللاتينية أعمال المجامع السادس والسابع والثامن العامة، وقد شهد المجمع الأخير منها الذي عقد في قسطنطينية سنة ٨٦٩م، وكتب ترجمة القديس يوحنا الرحوم البطريرك الاسكندري، وترجمة القديس ديمتريوس الشهيد، وتراجم الأحبار الرومانيين من القديس بطرس إلى البابا نيقولاوس الأوَّل، وارتأى بارونيوس أنَّه كتب أيضاً ترجمة البابا أدريانس الأوَّل واسطفانس السادس، ولكن خالفه كثيرون وقالوا إنَّ هاتين الترجمتين زادهما على كتابه غوليلمس المكتبي. ولأنسطاس المكتبي أيضاً تاريخ كنسي اعتمد فيه على تاريخ توافان وجيورجيوس سنشلس المار

ذكرهما وله مجموعة رسائل ومقالات في بدعة أصحاب المشيئة الواحدة جمع أكثرها من كتب يونانية وترجمها إلى اللاتينية. (انتهى ملخصاً عن تاريخ نطاليس اسكندر في القرن التاسع).

أمّا سمعان متفرست فكان ابن والدين حسيبين غنيين بقسطنطينية وتراقى في المناصب العالية فكان رئيس كتبة لاون السادس ملك الروم المعروف بالفيلسوف أو الحكيم الذي ضبط زمام الملك سنة ٨٨٦م إلى سنة ٩١١م وترجماناً له ثمّ رئيس قصره، وقد وصفه أندراوس أسقف رودس بالرجل الكلي الشهرة في كتبة الروم الذي تتلى أقواله كل يوم في كنائسهم (كما يظهر من المجلس السابع من المجمع الفلورنتيني) وكانوا يسمونه اللاهوتي الحديث. وقد كتب تراجم القديسين جامعاً إياها من خزائن الكنائس والأديار، ثم أشهر راهبًا يونانيًا اسمه أغابيوس موجزاً عن كتابه عنوانه: «كتاب الفردوس أي تراجم القديسين عن سمعان متفرست وقد طبع هذا الكتاب في البندقية سنة ١٥٤١م وعدد الترجمات التي كتبها سمعان مئة واثنتان وعشرون ترجمة، وقد أثبتها البولانديون باليونانية واللاتينية في كتاب أعمال القديسين، وله تاريخ يبتدئ من سنة ٨١٣م إلى أيامه نشره كيميفيسيوس مترجماً إلى اللاتينية وقد طبع في بون سنة ١٨٣٨م، وقد انتقد بعض العلماء منهم الكردينال بلرمينس على متفرست بعض أخباره عن القديسين وكلمة متفرست وصف أصبح لقباً له فانها يونانية معناها المترجم والشارح لكتابته تراجم القديسين (ملخّص عن نطاليس اسكندر وغيره).

الفصل الثالث

الشقاق الذي كان في كنيسة قسطنطينية في القرن التاسع

عد ٧٦٤

فوتيوس والقديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني وما كان بينهما

وُلد فوتيوس في قسطنطينية نحو سنة ٨١٥م من أسرة حسيبة غنية وكانت أمُّه أخت القديس ترازيوس البطريرك القسطنطيني الذي ذكرناه قبلاً، وانكبَّ على العلم منذ حداثته فنبغ فيه وحاز فيه قصبات السبق على اقرانه في عصره وترقى في المناصب في البلاط الملكي فكان رئيس كتبة الملك، وعضواً في ندوة المدينة ثمَّ صير سفيراً للملك في فارس، وله تآليف كثيرة جزيلة النفع أوَّلها مكتبته الشهيرةالتي عدد بها الكتب التي طالعها وأبدى رأيه فيها وشرح ما احتاج منها إلى شرح، وقد أوصل إلى الخلف فِقَراً ونُبَذاً للسلف لم تكن معلومة عند أهل عصره، وأحسن طبعة لهذا الكتاب النفيس طبعت في جانو سنة ١٦٦٢ باليونانية واللاتينية ثمَّ طبع هذا الكتاب باليونانية في برلين سنة ١٨٢٤م. ولفوتيوس أيضاً مجموع لقوانين الكنيسة ومعارضتها بشرائع الملوك، وقد طبع في باريس سنة ١٥٥١م، ثم طبعه الأب مين في مكتبة الآباء مع باقي كتب فوتيوس سنة ١٨٦٠م، وله معجم للغة اليونانية طبعه هرمان سنة ١٨٠٨م في لبسيك ثم طبع في لوندره سنة ١٨٢٢م. وله مقالات كثيرة منها مقالته في مخالفة الكنيسة اللاتينية ومقالة في انبثاق الروح القدس ومقالة في رد مزاعم المانويين إلى غير ذلك.

وكان في هذا العصر القديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني فهذا كان ابن الملك ميخائيل كوروبالات، ولما ثل عرش أبيه نفي هو إلى أحد الأديار فاتَّخذ

السيرة الرهبانية واشتهر بعلمه وفضيلته، ولما توفي متوديوس بطريرك قسطنطينية اختير اغناطيوس سنة ٨٤٦م بطريركاً فعمَّ السرور الشعب. على أنَّ شدَّة غيرته في المحافظة على الإيمان وحقوق البطريركية جعلت له أعداء الدَّاء أولهم غريغوريوس أسقف سيراكوسا الذي كان قد عزله عن أسقفيته لجرائم ثبتت عليه. وأخص هؤلاء الأعداء وأقدرهم برداس أخو الملكة توادورا امرأة الملك توافيل، وكان هذا الملك قد أقام برداس وصياً على ابنه ميخائيل الثالث وكان برداس قد طلَّق امرأته وتسرى بكنته الأرملة، وكان البطريرك ينهاه عن هذا الأثم ويأمره بإزالة هذا العثار وفصله أخيراً من شركة المؤمنين، فحنق عليه برداس وهدده بالقتل وأخذ يطعن به لدى الملك ان تمكَّن من أن يطرده من كرسيه سنة ٨٥٨م وينفيه إلى جزيرة ترابيينثا، وطفق يخادع ويتملَّق كثيرين من الأساقفة، ويعد كثيرين منهم بالبطريركية إذا عزلوا اغناطيوس. فهذه الوسائل، ومكائد غريغوريوس أسقف سيراكوسا المذكور حملت كثيرين على عزل اغناطيوس فعزلوه متمحلين لذلك علة بأنَّ ترقيته إلى البطريركية كانت مخالفة لقوانين الكنيسة، وعزم برداس أن يرقي فوتيوس إلى البطريركية وهو عامي ومن عمال الملك، ولقَّن كلاً من الأساقفة الذين كان قد وعدهم بالبطريركية أن يتردد عن قبولها أولاً تأدباً واحتشاماً، فأوقعهم باحبولته وانتخبوا فوتيوس ورقوه إلى كل الدرجات المقدَّسة حتى البطريركية في ستة أيام. وكان المرقي له غريغوريوس أسقف سيراكوسا المنحط عن الأسقفية، فاعترضه غير هؤلاء من الأساقفة وشرطوا عليه لقبوله البطريركية أن يتنازل اغناطيوس عنها بطواعيته وأصروا على نبذهم الطاعة لفوتيوس، فاضطرَّ أن يرفع رسالة إلى البابا نيقولاوس الأوَّل سنة ٨٦٠م مداهناً مخادعاً آملاً أن ينال بكلمة في الجواب يتوكأ عليها لعرفانه بطريركاً، وحمل برداس الملك أن يكتب إلى الحبر الروماني أنَّ اغناطيوس قد أعجزه الهرم عن حمل أعباء البطريركية فاستقال منها، وإنَّ فوتيوس أكره على حمل هذا الوقر الثقيل الذي تعجَّز عن حمله مناكب الملائكة. وكان برداس وفوتيوس في هذه المدة يبذلان قصارى جهدهما في اكراه القديس اغناطيوس والتضييق عليه بالحبس والضرب أيضاً ليدون صك استقالته فلم ينالا منه مأرباً (عن نيقيطا في ترجمة القديس اغناطيوس وعن رسالة فوتيوس إلى البابا نيقولاوس الأوَّل التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ٨٥٩م، وعن رسالة هذا البابا المثبتة في مقدمة أنسطاس المكتبي على أعمال المجمع الثامن، وعن تاريخ شدرانس وغيرهم).

أمَّا البابا نيقولاوس فلمَّا بلغته رسالتا الملك وفوتيوس لم يَرَ من السداد أن يصدق كلَّما جاء فيهما وآثر أن يسلك محاذراً المكر فأرسل ذكريا أسقف أنانيا، ورودوالد اسقف برتو إلى قسطنطينية وأمرهما أن يفحصا أولاً وينقبا عن حقيقة الحال، وأنفذ معهما رسالة إلى الملك شكا بها من عزل اغناطيوس دون استماحة رضى الكرسي الرسولي. وختمها بقوله إنَّه مُرسل قاصدين للفحص فلا يبرز حكمه قبل الوقوف على حقيقة الحال. وكتب إلى فوتيوس يلومه على وثوبه السريع من حالة العامي على أعلى مرتبة في الكنيسة، فأمسك برداس وفوتيوس القاصدين في العاصمة مدة طويلة ولم يضنا بحيلة ولا وسيلة من وعد ووعيد وتملُّق وتقادم واكرام لنيل رضاهما باثبات انتخاب فوتيوس وعزل اغناطيوس في مجمع يعقد بحضرتهما فعقد هذا المجمع سنة ٨٦١م وشهده جمهور غفير من الأساقفة وأتى إليه الملك بنفسه، وكان فوتيوس قد أخذ من القاصدين رسائل الحبر الروماني لتترجم من اللاتينية إلى اليونانية فحرقت بعض عباراتها وطبقت على ما يرام وتليت كذلك في المجمع ودعي القديس اغناطيوس فاتَّشح بملابسه الحبرية اشعاراً ببراءته، فالتقاه أحد عمال الملك ينهاه من قبله عن أن يحضر في المجمع إلَّا بثوبه الرهباني، فتعرى من زينة الجسد وازدان ببسالته وشجاعته، وسأل القاصدين إخراج فوتيوس الغاضب من المجمع أن يبرئ نفسه ويثبت صحة ترقيته فلم يستمع له، بل ألحُّوا عليه أن يستقيل ولم يقووا أن يكرهوه على ذلك، لأنَّه استغاث بالحبر الروماني ورفع دعواه إليه فأحضروا في المجمع شهوداً كثيرين شهدوا زوراً بأنَّه نال المقام البطريركي بقوة السلطة العالمية ودبر الكنيسة بصرامة متناهية وحكموا عليه بالعزل سنداً إلى قانون من القوانين المنسوبة إلى الرسل قيل فيه: «إذا تولى أسقف تدبير كنيسة بقوة السلطة العليا فليعزل». وأجرى أعوان الملك على القديس اغناطيوس كل ما عنَّ لهم من الأعذبة والسجن والاهانات ليوقع على حكم المجمع فلم يفعل، فأخذ أحدهم يده ورسم بها شكل صليب وكتب فوتيوس بجانبه ما يشعر باقراره أنَّه غصب البطريركية ودبر الكنيسة بصرامة (عن نيقيطا في ترجمة القديس اغناطيوس وعن رسالة هذا القديس إلى البابا نيقولاوس الأوَّل، وعن رسائل هذا البابا ٧ و ٨ و ٩، وعن أنسطاس المكتبي في مُقدماته على المجمع الثامن) ورفع فوتيوس إلى البابا نيقولاوس رسالة أكثر فيها من التذلل والمداهنة له والاعتذار بضرورة الحال التي ألجأته إلى قبول البطريركية لخير الكنيسة، وأصحب ذلك بما شاء من أعمال المجمع والحجج المؤيدة صحة انتخابه وصحة حكم المجمع

على اغناطيوس وكتب إلى البابا مصادقاً على ما عرضه فوتيوس فلم ينخدع البابا الحاذق بهذه الرسائل، وبلغته بعد ذلك الاستغاثة التي رفعت إليه باسم اغناطيوس واسماء الأساقفة والرهبان الذين لبثوا أمناء له، ورفع إليه أيضاً زكريا أسقف أنانيا أحد قاصديه تقريراً يعترف به بخطأه وانخداعه في المجمع الذي عقده بقسطنطينية، فعقد البابا مجمعاً في رومة سنة ٨٦٣م حط فيه فوتيوس عن مقامه الاكليريكي وهدده بالحرم إن أصرَّ على طلب البطريركية أو أعاق اغناطيوس عن تدبير كنيسته فلم يذعن فوتيوس لهذا الحكم، ولذلك أطلق عليه البابا نيقولاوس الحرم سنة ٨٦٤م ثمَّ كرَّر اعلان حرمه سنة ٨٦٥م، فبعث فوتيوس كبرياؤهُ أن يعقد مجمعاً آخر بقسطنطينية حضره بعض الأساقفة المحازبين له فحرموا فيه البابا نيقولاوس وسموا مجمعهم مسكونياً، ولم يكن فيه إلَّا أساقفة قليلون، فزاد فوتيوس عليه توقيعات كثيرين من الأساقفة والكهنة والشمامسة مع أنَّ السواد الأعظم من هؤلاء لم يعلم بعقد مجمع وأشاعوا أنَّ البابا حرمه مجمع مسكوني. وأنفذ فوتيوس رسائل عامة إلى بطاركة الشرق ينبئهم بها ما كان في مجمعه وينتقد الكنيسة اللاتينية بصوم بنيها يوم السبت كاليهود وبنقصها أسبوعاً من الصوم وأكل بنيها البياض أيام الانقطاع، وحظرها الكهنة عن الزواج ومنعها الكهنة عن منح سر التثبيت، وتحريفها قانون الإيمان بزيادتها عليه ان الروح القدس ينبثق من الآب «والابن» وسمى نفسه في هذه الرسائل البطريرك المسكوني. وكل ذلك بين في رسالة فوتيوس التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ٨٦٣م نقلاً عن كتاب قديم. وأرسل فوتيوس أعمال مجمعه إلى لويس ملك افرنسة وكتب إليه أنّ أساقفة هذا المجمع كانوا يدعون بتوفيقه وتوفيق الملكة أملاً أن يعاونه ملك الغرب أيضاً على الحبر الروماني. (عن نيقيطا في ترجمة اغناطيوس وأنسطاس في المحل المذكور).

وعاجلت نقمة الله برداس سنة ٨٦٧م، فإنَّ الملك ميخائيل قتله ثم قتل باسيليوس الملك ميخائيل وملك مكانه، فطرد فوتيوس من كنيسة قسطنطينية ونفاه إلى دير بعيد، وأرسل فأخذ القديس اغناطيوس بمركبته الملكية من محل منفاه إلى كرسيه والتقاه بالتكريم والاحتفاء، وكتب إلى البابا نيقولاوس يخبره بطرده فوتيوس وإعادته اغناطيوس (كما هو ظاهر من رسالة الملك هذه المعلقة في أعمال المجلس الثالث من المجمع الثامن). وكان البابا نيقولاوس توفي سنة ٨٦٧م فبلغت رسائل الملك إلى البابا أدريانس الثاني خليفته فأجابه مثنياً على غيرته ومثبتاً أعمال سالفه.

وعقد مجمعاً في رومة سنة ٨٦٨م أعاد فيه حرم فوتيوس ونبذ رسائله المذكورة، ولمَّا كان فوتيوس ومشايعوه لم ينفكوا عن الشغب ووسوسة الناس عزم البابا أدريانس على عقد مجمع في قسطنطينية فعقد فيها سنة ٨٦٩م وسنفرد له الفصل التالي. وقد حرم فيه فوتيوس وغريغوريوس أسقف سيراكوسا وكل من شايعهما ولم ينفكَّ فوتيوس مكابراً هائماً بالعود إلى البطريركية ثالباً هذا المجمع وطاعناً بمن كانوا فيه إلى أن انتقل القديس اغناطيوس إلى رحمة الله سنة ٨٧٨م وله من العمر ثمانون سنة. والكنيستان اللاتينية والشرقية تعيدان لذكره في ٢٢ من شهر تشرين الأوَّل.

لم يدخر فوتيوس بعد نفيه حيلة يزدلف بها إلى الملك باسيليوس، من ذلك انَّه كتب بأحرف اسكندرية قديمة على ورقة رثة ألصقها بكتاب قديم في المكتبة الملكية وكان ما كتبه مشعراً بأن نسب بيكلاس والد الملك باسيليوس يتَّصل بتريدات ملك الأرمن، وأنَّ باسيليوس سينيف على جميع ما تقدمه في الملك سعادة ونجاحاً، وأوعز إلى أحد أصدقائه أن ينبه الملك إلى هذه الكتابة القديمة، وان ليس من يحلّ رموزها إلَّا فوتيوس، فاستدعاه الملك ففسَّر له ما كتب كما أحب فرضي باسيليوس عنه وأقامه على تعليم ابنيه قسطنطين ولاون، فلم تمضِ ثلاثة أيام بعد وفاة اغناطيوس إلَّا وارتقى فوتيوس إلى كرسي البطريركية. ولهيامه بأن يثبت فيه هذه المرة أخذ يسترضي الأساقفة ويرشو بعضهم ويعد بعضهم ويهدد بعضهم ومن لم تنجح بهم هذه الوسائل عزله أو نفاه أو عذَّبه، ورفع رسالة إلى البابا يوحنا الثامن قال فيها إنَّه أكره على العود إلى البطريركية وإنَّه مستعد لتركها إن لم يرضَ عنه. وبعث الملك على أن يكتب للبابا مبتهلاً إليه أن يحل فوتيوس من الحرم الذي طعنه به أسلافه والمجمع الثامن ويقبله في شركته، وحمل كثيرين من الأساقفة على أن يوقعوا على عريضة للحبر الروماني بهذا الصدد. وكان البابا يوحنا يحتاج إلى معاونة الملك على صد غزوات العرب في إيطاليا فأجاب البابا الملك أنَّه يرتضي بقبول فوتيوس بشرط أن يبدي أدلة توبته في مجمع يلتئم بحضرة قصاده بقسطنطينية (كما روى نيقيطا في ترجمة اغناطيوس). وقد ندد بعض المؤرخين بتسامح البابا يوحنا على هذا النحو وعذره بعضهم بأنَّ الضرورة دعته إليه. وأرسل البابا من لدنه الكردينال بطرس ليرأس هذا المجمع نائباً عنه مع بولس وأوجانيوس اللذين كانا قاصدين في الشرق. وعند بلوغ الكردينال إلى قسطنطينية أخذ فوتيوس منه رسالة البابا ليترجمها إلى اليونانية فحرَّفها وطبقها على ما أحبَّ، واستدعى

الأساقفة فاجتمع كثيرون منهم سنة ٨٧٩م وعقد المجمع الذي يدعوه الروم المجمع الثامن المسكوني مع أنَّه لم يكن مسكونياً ولا صحيحاً لأنَّ فوتيوس رأسه ودبَّر كلَّ شيء فيه كما أحبَّ خلافاً لإرادة الحبر الروماني ولرأي قصاده فيه وأثبت نفسه في البطريركية، ونقض رسوم المجمع الثامن الصحيح الذي كان قد عقد سنة ٨٦٩م. وبدلاً من أن يبدي في هذا المجمع أدلة توبته زاد جسارة وبدل عبارات البابا الدالة على وجوب توبته بالتقريظ له وسخر من القصاد، ولما درى البابا يوحنا الثامن بما كان استأنف الحرم لفوتيوس ولمجمعه المذكور وأرسل قاصداً آخر إلى قسطنطينية اسمه مارينس أشهر هذا الحرم وكذلك صنع خليفته مرتينس الثاني وأدريانس الثالث. على أنَّ فوتيوس لم يعبأ بحرم الأحبار الرومانيين وجرأه على ذلك تغير وقع حينئذٍ بين الملك باسيليوس والكرسي الرسولي لأنَّ الملك باسيليوس شقَّ عليه حرم فوتيوس وطرح مارينس قاصد البابا في السجن ثلاثين يوماً، على أنَّ الملك باسيليوس قد خرمته المنية سنة ٨٨٦م وخلفه ابنه لاون الملقَّب بالحكيم فنفذ حكم الحبر الروماني على فوتيوس إذ طرده من الكرسي البطريركي ونفاه إلى دير للأرمن في بردي، ويقال إنَّه عاش هناك خمس سنين وتوفي. فإن صحَّ ذلك كانت وفاته سنة ٨٩١م. وقال بعض علماء الروم إنَّه توفي كاثوليكياً في حظيرة الكنيسة الرومانية. ولكن الظاهر من حرم البابا يوحنا الثامن له، ومن استئناف خلفائه هذا الحرم، ومن عدم وجود دليل على ارعوائه أنَّه مات منفصلاً عن الكنيسة الكاثوليكية. ومهما يكن من أمره فلا مرية في أنَّه كان أوَّل متسبب لهذا الانفصال الكائن حتى اليوم بين الكنيسة الرومانية وكنيسة الروم غير الكاثوليكية.

عد ٧٦٥
المجمع الثامن المسكوني

عقد هذا المجمع بقسطنطينية سنة ٨٦٩م إذ سأل الملك باسيليوس البابا أدريانس الثاني عقد مجمع لإزالة الخلاف الذي كان يومئذٍ في قسطنطينية، وأوفد البابا إليه ثلاثة قصاد: دونتس أسقف أوستيا وأسطفانس أسقف نابي، ومارينس شماس الكنيسة الرومانية، وصحبهم البابا برسالتين الأولى إلى الملك باسيليوس والثانية إلى اغناطيوس البطريرك القسطنطيني، فبلغ القصاد قسطنطينية في ٢٤ أيلول سنة ٨٦٩م

وأعلنوا افتتاح المجمع في ٥ تشرين الأوَّل في كنيسة اجيا صوفيا، وجلس القصاد في المحل الأوَّل ومن بعدهم اغناطيوس البطريرك، ثمَّ نواب بطاركة الشرق خلا بطريرك اسكندرية فإنَّه لم يُنِبْ أحداً عنه إلَّا في المجلس التاسع، وكان في مصاف الأساقفة إثنا عشر أسقفاً ممن عاملهم فوتيوس سوء المعاملة لمدافعتهم عن اغناطيوس البطريرك وكان في المجمع من قبل الملك احد عشر رجلاً من أصحاب المناصب في دولته فعقد المجلس عشرة مجالس.

المجلس الأوَّل عقد في ٥ تشرين الأوَّل السنة المذكورة وتلي فيه خطاب الملك المنفذ إلى المجمع، ثمَّ رسالتا الحبر الروماني إلى الملك واغناطيوس البطريرك، ورسالة من توادوسيوس بطريرك أورشليم إلى اغناطيوس بطريرك قسطنطينية، ثمَّ دستور الاتّحاد على مثال الدستور الذي كان البابا هرمزدا قد أرسله سنة ٥١٩م لإزالة الخلاف الذي كان في أيامه في كنيسة قسطنطينية.

والمجلس الثاني عقد في ٧ تشرين الأوَّل ودخل إليه عشرة أساقفة وبيد كل منهم صك اعترافه بخطإه في متابعة فوتيوس على مناصبة القديس اغناطيوس يصرحون فيه أنَّهم ما أقدموا على ذلك إلَّا خشية من الاضطهاد الذي كان فوتيوس ينزله بمخالفيه، فقبلهم المجمع بعد أن وقَّعوا على صك الترضية الذي كان القصاد قد أتوا به من رومة إلى المجمع كل بحسب مقامه، وقبل المجمع أيضاً على الوجه المذكور احد عشر كاهناً وتسعة شمامسة وسبعة شدايقة وهؤلاء كان اغناطيوس أو متوديوس قد رقياهم لكنهم انحازوا إلى فوتيوس، وأشهر القديس اغناطيوس عليهم مما يلزمهم عمله من التفكير.

والمجلس الثالث عقد في ١١ من الشهر المذكور وفيه لم يشأ بعض الأساقفة أن يوقِّعوا على الدستور المؤتى به من رومة، وأمر بتلاوة رسالة الملك باسيليوس ورسالة البطريرك اغناطيوس إلى البابا نيقولاوس وجواب البابا أدريانس إلى هذا البطريرك.

ثمَّ عقد المجلس الرابع في ١٣ من الشهر المذكور وجرى البحث في شأن أسقفين كان متوديوس قد رقاهما، ثمَّ شاركا فوتيوس اسم أحدهما توافيل والآخر زكريا ولم يريدا أن يوقِّعا على التعهد بالمدافعة عن الإيمان الكاثوليكي والاذعان لحكم الكنيسة الرومانية في كل شيء، فطردا من المجمع بعد أن قبلا فيه.

والمجلس الخامس عقد في ١٩ من الشهر المذكور واستدعى إليه فوتيوس فسأله

القصاد: «أتذعن لما رسمه البابا نيقولاوس الأوّل، وما أثبته أدريانس خليفته؟ وأعيد عليه السؤال مرات فظلَّ صامتاً. فقيل له إن لم تجب حكمنا عليك. فقال لي أسوة بالمسيح فقد حكم عليه صامتاً» فتليت حينئذٍ في المجمع رسائل الكنيسة الرومانية المنفذة إلى الملك ميخائيل وإلى فوتيوس نفسه، ونهض إيليا نائب توادوسيوس بطريرك أورشليم وقال باسمه واسم غيره من نواب الشرق إنَّه مضى عليه سبع سنين وهو ملازم بطريرك أورشليم ويمكنه أن يشهد ويثبت أنَّ كنيسة أورشليم لما تبلغها رسائل من فوتيوس وهي لم تكاتبه البتة وكذلك كنيسة أنطاكية، وهذا نفسه يبيِّن أنَّ فوتيوس لم تقبله احدى الكنائس البطريركية وإنَّه قد غصب بطريركية قسطنطينية. وقال في الختام انَّ فوتيوس يلزمه أن يقر بخطأه ويندم عليه ندامة مخلصة، فإذا فعل ذلك ساغ له أن تقبله الكنيسة بمنزلة أحد المؤمنين، فارتأى المجمع أنَّ لا حاجة إلى حكم حديث على فوتيوس بل أن يعتمد على الحكم الذي أبرزه عليه البابا نيقولاوس وأثبته البابا أدريانس. وألحَّ عليه البطريق باهان (أحد نواب الملك) أن يبرئ نفسه فقال: «إنَّ تبرئتي لا تكون في هذا العالم ولو كانت فيه لسمعتموها. فدلَّ هذا الجواب الأساقفة على اضطراب مخيلة فوتيوس وخروجه عن الرشد فأمهلوه إلى مجلس آخر عساه يستفيق».

والمجلس السادس عقد في ٢٥ من شهر تشرين الأوَّل وشهده الملك باسيليوس وأمر أن تتلى مذكرة القصاد حيث كانوا يبينون ما كان في المسألة بايجاز، ويستخلصون بقولهم إنَّ الكنيسة جمعاء ترى نبذ فوتيوس، وأنَّ لا إفادة من استماع مماحكات محازبيه ولم يؤذن لهم بالدخول، بل تليت على مسامعهم رسالتا البابا نيقولاوس الأوَّل إلى الملك ميخائيل وإلى فوتيوس، وقصَّ عليهم إيليا نائب بطريرك أورشليم ما كان في عزل اغناطيوس وترقية فوتيوس إلى البطريركية. وأطال الكلام إلى أن قال لا ألوم الأساقفة الذين شهدوا ترقية فوتيوس لاكراه الملك لهم على ذلك، بل ألوم غريغوريوس السيراكوسي الذي رقاه مع أنَّه كان محطوطاً عن أسقفيته منذ سنين. فأذعن الأساقفة المحازبون لفوتيوس وارعووا عن اخطائهم واستغفروا المجمع فغفر لهم. وأمَّا الأساقفة الذين كان فوتيوس قد رقاهم فأصرُّوا وكابروا وتمحلوا لهم حججاً لنبذ سلطة الحبر الروماني وإيراد أمثلة لمخالفة المجامع رسوم الأحبار الرومانيين، فأجابهم متروفان أسقف أزمير أنَّهم وفوتيوس طلبوا حكم البابا نيقولاوس فلم يبق لهم حق أن يشكوا من حكمه، وإلَّا فلا يبقى حكم ثابتاً

إذ ما من محكوم عليه يكون راضياً عن الحكم عليه، وردَّ الحجج والأمثلة التي أتوا بها اثباتاً لزعمهم. وختم الملك هذا المجلس بخطبة ألقاها وحضَّ بها الأساقفة المخالفين على الاذعان وأعطى مهلة سبعة أيام ليصرّح بعدها متروفان والأساقفة المخالفون بعزمهم الأخير.

والمجلس السابع عقد في ٢٩ تشرين الأوّل وشهده فوتيوس أيضاً وأبى أن يقدِّم صك ارعوائه وتابعه الأساقفة المحازبون له على ذلك فلم يشاءوا أن ينبذوا فوتيوس وأعمال مجامعه وأن يحرموا غريغوريوس أسقف سيراكوزا وأن يخضعوا للبطريرك اغناطيوس وأن يعملوا بمراسيم الكنيسة الرومانية، فتلا على فوتيوس وعليهم التنبيه الأخير من المجمع ليرعووا تحت طائلة الحرم من غيهم ويذعنوا لما يرسمه المجمع، ولما لم يذعنوا حرمهم المجمع.

والمجلس الثامن عقد في ٥ تشرين الثاني فحرقت فيه أوراق شتى كان فوتيوس قد أخذها من كثيرين من الاكليروس والعامة على سبيل التعهُّد بلزوم طاعته والانقياد له، وحرقت أيضاً الكتب التي كان فوتيوس كتبها مضاداً بها البابا نيقولاوس وأعمال مجامعه التي نبذ فيها اغناطيوس البطريرك وأدخلوا إلى المجمع من شهدوا مجمع فوتيوس ضد البابا نيقولاوس، ومن طعنوا على الكنيسة الرومانية بمقالتهم، ومن حضروا هذا المجمع بصفة نواب عن بطاركة المشرق وغيرهم، فظهر لدى استنطاقهم أنَّه لم يشهد أحد منهم ذلك المجمع وانَّهم لم يعرفوا شيئاً من أعماله إلّا بهذا الفحص. ولمّا انفضح هذا المكر والتزوير طلب قصاد البابا أن يتلوا في المجمع القانون الأخير من المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ٦٤٩م الذي يوجب الحرم على من يجسر على مثل هذا التزوير، ثمَّ تليَ مرسوم البابا نيقولاوس المبرز في المجمع الذي عقد برومة سنة ٨٦٣م على محاربي الصور وأدخلوا بعضهم إلى المجمع فارعووا عن ضلالهم، وحرموا رؤساءهم، وحرم المجمع بدعة هؤلاء، والمجمع الذي عقدوه ورؤساءهم وأعادوا حرم فوتيوس.

والمجلس التاسع لم يعقد إلّا في ١٢ شباط سنة ٨٧٠م وقد حضر فيه نائب عن ميخائيل البطريرك الاسكندري، وقد استنطق في هذا المجلس من أدوا شهادة كاذبة على اغناطيوس البطريرك، ولمّا أقرّوا بكذبهم فرضت عليهم كفارة، وأشخصوا أيضاً من كان فوتيوس قد أدخلهم إلى مجمعه بصفة نواب عن البطاركة، وبعض

الأساقفة ليتحقق يوسف نائب بطريرك اسكندرية مكر فوتيوس واحتياله، فأقروا مرة أخرى أنَّ فوتيوس أكرههم على أن يجعلوا نفوسهم نواباً ولكي يكونوا كذلك فصفح المجمع عنهم بسبب ما أنزله فوتيوس بهم من الاكراه.

والمجلس العاشر عقد في ٢٨ شباط وشهد الملك باسيليوس وابنه قسطنطين وعشرون بطريركاً من بطاركة المملكة، وسفراء لويس ملك إيطاليا وافرنسة وسفراء ميخائيل ملك بلغاريا، ومائة أسقف ونيف وتلوا حينئذٍ سبعة وعشرين قانوناً فرضها هذا المجمع وفي جملتها القانون الرابع قيل فيه: «إنَّ فوتيوس لم يكن أسقفاً وعليه فكل الدرجات التي رقي إليها تحسب باطلة ويعاد تكريس الكنائس التي كرَّسها». والقانون السادس قيل فيه: «فليكن محروماً فوتيوس لأنَّه مكر بتسمية نواب من لم يكونوا كذلك واخترع كتابات ضدَّ البابا نيقولاوس وليكن محروماً كل من يقدم في ما بعد على مثل هذه الخدعة والمكر». وفي القانون ٢٥: «إنَّ المجمع يحط الأساقفة والكهنة والشمامسة الذي رقاهم متوديوس أو اغناطيوس إذا استمروا مصرين على المشايعة لفوتيوس، ولا بقي لهم أمل بالعود إلى درجاتهم». وباقي القوانين تلاحظ التهذيب البيعي وحرم بدعة محاربي الصور إلى غير ذلك. وبعد تلاوة هذه القوانين تلي دستور الإيمان على مثال الدستور الذي وضع في المجمع السابع، ووقع قصاد البابا على أعمال المجمع أولاً ثمَّ البطريرك اغناطيوس ثمَّ نواب البطاركة. ثمَّ الملك باسيليوس وابناه قسطنطين ولاون ثمَّ رئيس أساقفة أفسس ثمَّ سائر الأساقفة وعدتهم مئة أسقف وأسقفان (انتهى ملخصاً عن معجم المجامع لباليا طبعة الأب مين).

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع

عد ٧٦٦
بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر

إنَّ البطريرك أسطفانس الدويهي بعد ذكره البطاركة الذين دبروا كنيسة الموارنة إلى يوحنا مارون الثاني كما مرَّ في تاريخ القرن الثامن قال (في كتابه في سلسلة بطاركة الموارنة): «أما باقي بطاركة الموارنة الذين رقوا إلى الكرسي الأنطاكي وأقاموا في لبنان إلى حين قدوم الافرنج إلى سورية فما أمكننا أن نعرف أخبارهم لقلة من كتبوا في تلك الأيام ولاتلاف غِيَرِ الدهر ما وجد من الكتب واضطرار الناس إلى التنقل متواتراً، وقد حرقت بعض كتبنا وتشتت كثير منها على أنَّنا عثرنا من مدَّة على كتاب قديم يشتمل على رتبة القداس وقد علقت على آخره الصلوات التي يتلوها الخادم في القداس كل يوم، وفي احدى هذه الصلوات ذكر البطاركة الذين دبروا رعية المسيح في الكرسي الأنطاكي وإليك ترجمة ما جاء في هذه الصلوات عن اللغة السريانية: «نذكر أيضاً جميع الرعاة المحققين والآباء القديسين من بطرس زعيم الرسل وأول جميع الرعاة. واغناطيوس تلميذه إلى توافيلس ويشوع وداود وغريغوريوس ودوميط واسحق ويوحنا الذين خدموا مقام رئاسة الكهنوت في البيعة المقدَّسة الكاثوليكية والرسولية في الكرسي المقدَّس المجيد كرسي مدينة الله أنطاكية فارحمنا اللهمَّ بصلواتهم المقدَّسة». ويلي ذلك تذكار آخر أطول من الأوَّل كتب فيه ما ترجمته: «نذكر توافيلس وغريغوريوس وأسطفانس ومرقس وأوسابيوس ويوحنا ويشوع وداود وغريغوريوس وتوافيلكتس ويشوع ودوميط واسحق ويوحنا وسمعان وأرميا ويوحنا وسمعان. وسمعان هذا

حبيب الله الذي يدبرنا الآن فارحمنا اللهمَّ بصلوات هؤلاء جميعاً». قال العلامة الدويهي حصل عندنا ريبة في البطاركة الأربعة عشر الذين مرَّ ذكرهم من وجهين الأوَّل إنَّ طقسنا قريب من طقس اليعاقبة فخشينا أن يكون هؤلاء البطاركة يعقوبيين. والثاني إنَّه ندر أن يسمي الموارنة يشوع بطريركاً حرمة لمن فدانا بدمه. لكننا بالوقوف على سلسلة بطاركة اليعاقبة حصلنا على نسختين من كنيستهم في دمشق وحلب فلم نجد فيهما ذكراً لهؤلاء البطاركة الأربعة عشر، فتحققنا أنَّهم لم يكونوا يعاقبة بل من بطاركة أمَّتنا المارونية، وأمَّا اسم يشوع فليس إلَّا عيسى وكثيرون منا يسمون بهذا الاسم». انتهى كلام الدويهي وقد تابعه عليه لكويان في المشرق المسيحي ناقلاً عنه كلامه برمته قلنا إنَّ بطاركة اليعاقبة معروفون الآن جيداً وقد نظم ابن العبري سلسلتهم إلى أيامه في تاريخه البيعي الذي ترجمه السيدان أبولس ولامي أستاذا كلية لوفان إلى اللاتينية وعلقا على ترجمتها فوائد كثيرة وقد ذكر السمعاني أيضاً سلسلتهم عن ابن العبري في المجلَّد الثاني من المكتبة الشرقية وليس منهم البطاركة الأربعة عشر المذكورون.

وجاء في مجمعنا اللبناني قسم ٣ فصل ٦ في كلامه على البطريرك والكرسي البطريركي ما يأتي: «وكان الكرسي البطريركي أولاً في دير القديس مارون بكفرحي من أبرشية البترون وجلس عليه من البطاركة من سنة ٦٨٥م فصاعداً يوحنا مارون وقورش وجبرائيل ثمَّ نقل الكرسي إلى دير القديسة مريم بيانوح من أبرشية البترون المذكورة، وجلس عليه بعد جبرائيل المذكور يوحنا الثاني ويسمى مارون أيضاً ثمَّ يوحنا من دملصا وغريغوريوس واسطفانس ومرقس وأمسابيوس ويوحنا ويشوع وداود وغريغوريوس الثاني وتوافيلكتس ويشوع الثاني ودوميط واسحق ويوحنا وسمعان ويوسف الجرجسي إلى سنة ١١٢٠م ونقل الكرسي ثالثاً إلى دير القديسة مريم حذاء ميفوق بوادي ايليج في أبرشية جبيل».

تتداول أيدي الموارنة كتاباً يشتمل على عدَّة تواريخ منها تاريخ بعض الأسرات وتاريخ بعض أحداث في جبة بشري وتاريخ الرهبنة اللبنانية وفي جملتها سلسلة لبطاركة الموارنة من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف حبيش وبعد أن ذكر أكثر البطاركة الذين ذكرناهم هنا أورد أسماء نحو من أربعين بطريركاً إلى البطريرك يوسف الجرجسي ولم يسند كلامه إلى شاهد ولا نعلم من أين جمع كلَّ هذه الأسماء التي غفل عنها العلّامتان البطريرك أسطفانس الدويهي ويوسف السمعاني،

ولذلك لا نرى ما رواهُ صحيحاً. ويعزى هذا الكتاب إلى الشيخ أنطونيوس أبي خطار من عينطورين الذي كان مشهوراً بحبه المطالعة.

ولا نعجب من عدم التوصُّل إلى الأخبار المفصلة عن البطاركة الذين ذكرناهم في القرون الأربعة من بدء القرن الثامن إلى آخر القرن الحادي عشر فكل يعلم أنَّ هذه القرون تسمى قرون الجهل وأنَّ التاريخ الشرقي البيعي في هذه القرون ولاسيما تاريخ سورية هو سقيم غامض ومن دونه حنادس جهل لا يهتدي فيه إلى أمور أخرى أكثر أهمية. وقد رأيت ما قاله لكويان في الشرق المسيحي عن بطاركة أنطاكية وأورشليم في هذه القرون أنَّه لم يكن لهم تاريخ غير ما نقب عنه الافرنج بعد استحواذهم على سورية في بدء القرن الثاني عشر وما ظنك ببطاركة الموارنة الذين لم يقيموا في المدن الشهيرة كأنطاكية وأورشليم بل في كفرحي ويانوح بين قمم لبنان الوعرة الصعبة المسالك مؤثرين العزلة في أصعب المحال مسلكاً على الاقامة في المدن والتعرُّض للأخطار، وتعوزهم جميع وسائل العلم ويحسبون من السعادة أن يعيشوا مع رعاياهم آمنين ومحافظين على إيمانهم القويم.

عد ٧٦٧

قيس الماروني

جاء في كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي الذي طبع في ليدن سنة ١٨٩٤م صفحة ١٥٢ عند كلامه في مارون: «ولبعض متبعيه من المارونيين ويعرف بقيس الماروني كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم وأخبارهم وانتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي، ولم أرَ للمارونية في هذا المعنى كتاباً مؤلفاً غيره». انتهى كلام المسعودي. والمعلوم أنَّ المكتفي بويع له بالخلافة سنة ٢٨٩هـ الموافقة سنة ٩٠٢م وتوفي سنة ٢٩٥هـ أي سنة ٩٠٨م وعليه فيكون قيس الماروني عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر على ما ذكر المسعودي ولكن من هو قيس هذا وما هو كتاب تاريخه الحسن؟ فزعم بعضهم أنَّه ليس هو إلَّا توافيلس الرهاوي الماروني الذي ذكرنا ترجمته في القرن الثامن، وهذا الزعم باطل من أوجه أخصّها أنَّ توافيلس كان في أيام المهدي وتوفي

في أيامه كما أبنّا في ترجمته، والمهدي توفي سنة ١٦٩هـ الموافقة لسنة ٧٨٦م والمسعودي قال إنَّ قيس انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي وهذا بويع بالخلافة سنة ٩٠٢م كما رأيت فكان قيس بعد توافيلس بأكثر من مئة سنة فلم يكن إياه.

وقد عثر الأب نو المستشرق الافرنسي في لندره على كتيب سرياني في عدد ١٧٢١٦ من الكتب المخطوطة ونشره في كتابه الذي عنوانه Opuscnlus Maronites (أي كراسات أو كتيبات مارونية) وطبعه في باريس سنة ١٨٩٩م. ففي صفحة ٣٢ فصاعداً من هذا الكتاب أثبت ما استطاع أن يقرأه من نصه السرياني واسماً إياه بفقر من تاريخ سرياني ماروني، وقد اهدى إليَّ الأب نو كتابه المذكور فطالعت فقراته وقد استشهدت ببعضها كما رأيت، وكل أصل هذا الكتيب يشتمل على خمسة عشر صفحة كما أشار الأب نو في نسخة الأصل، وجل ما تضمنه كلام موجز في آدم وبعض الآباء وبعض رؤساء كهنة اليهود وبعض ملوك اليونان وبعض ملوك الرومانيين وكلام في ماني المبتدع وأبو لينار اللاذقي المبتدع، وذكر بعض الزلازل وبعض الأحداث في أيام معاوية. وقد ظنَّ نو وغيره أنَّ تلك الفقرات مقاطع من كتاب قيس الماروني. وقد ذهب العلامة ريت الذي تكلَّم في الكتب السريانية القديمة المحفوظة في المتحف البريطاني أنَّ ذاك الكتيب قديم العهد واستبدل بصورة كتابته على أنَّه خُطَّ في القرن الثامن أو التاسع. وقد أطال العلامة نلدك (في المجلَّة الآسياوية-الألمانية) الكلام في هذه الفقر وبين عظم أهميتها وعزاها إلى كاتب ماروني، وذهب إلى أنَّ الكاتب كان راهباً أو ناسكاً لكثرة ما ورد في تلك المقاطع من أسماء الأديار والمناسك ولم يقطع بأنَّه قيس الماروني.

فالحاصل من ذلك على ما نرى أولاً أن لا ريب في أنَّه كان مؤلِّفٌ بين القرنين التاسع والعاشر يسمى قيس الماروني، وأنَّه ألَّف كتاباً حسناً جامعاً تواريخ كثيرة كما أشار المسعودي الذي هو ثقة في نقله وقريب من عصر المؤلف المذكور ولا غرض له في أن يختلق هذا الخبر. ثانياً إنَّه من المؤكَّد أيضاً أنَّ قيس الماروني غير توافيلس الرهاوي الماروني لا من قبيل التباين بين عصريهما كما مرَّ بل من قبل أوجه أخرى أيضاً، منها أنَّ توافيلس كان رئيس منجِّمي المهدي والمقاطع المذكورة التي يرجَّح أنَّها من كتاب قيس يظهر منها على ما ذهب إليه نلدك أنَّ كاتبها كان راهباً أو ناسكاً. ثالثاً إنَّ الأرجح عندنا أنَّ القطع التي أشهرها نلدك أو الكتيب الذي أذاع الأب نو أصله وترجمته الافرنسية ليس هو كتاب قيس برمته حتى ولو أمكن قراءة

كل ما قال نو إنَّه وجده ممحواً أو لم يتيسَّر له أن يقرأه، لأنَّ هذا الأثر لا يشتمل أصله إلَّا على خمس عشرة صفحة، والمسعودي قال إنَّ كتاب قيس يتضمَّن ابتداء الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم فتاريخ كل ما ذكره لا تسعه خمس عشرة صفحة وإن وسَّعته فلا يكون كتاباً حسناً في التاريخ كما وصفه المسعودي. رابعاً يظهر لنا أنَّ المقاطع المذكورة والكتيب السرياني الذي نشره نو عن الأصل الكائن في المتحف البريطاني إنَّما هي جزء من كتاب قيس المذكور أو فقرات منه نسخها غير المؤلِّف، إذ شهد من نقبوا عنها أنَّ فيها أغلاطاً لغوية مع صحة أخبارها ومطابقتها لما كتبه علماء ذلك العصر الذي لا نعرف فيه من علماء الموارنة إلَّا توافيلس وقيس المذكور. والله أعلم.

الباب العاشر

تاريخ سورية في القرن العاشر

القسم الأوَّل

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأوَّل

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن العاشر

عد ٧٦٨

المكتفي بالله

فرغنا من كلامنا في تاريخ الخلفاء في القرن التاسع بذكر وفاة المعتضد بالله ونقول الآن إنَّه بعد وفاته بويع ابنه علي بالخلافة سنة ٢٨٩هـ أي سنة ٩٠٢م ولقب المكتفي بالله، وهو السابع عشر من الخلفاء العباسيين. وفي السنة الثانية لخلافته وهي سنة ٩٠٣ اشتدَّت شوكة القرامطة المار ذكرهم حتى حاصروا دمشق بعد أن هزموا جيش أميرها طفج بن جف ثمَّ اجتمعت عليهم العساكر وقتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ، فأقام القرامطة فيهم أخاه الحسين وتسمى أحمد وأظهر شامة في وجهه وزعم أنَّها آيته وكثر جمعه فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه فانصرف عنهم إلى حمص فغلب عليها وخطب له على منابرها وتسمى

بالمهدي أمير المؤمنين، وعهد إلى عمه عبدالله ولقبه المدثر وزعم أنّه المدثر الذي في القرآن. ثمّ سار إلى حماة والمعرة وغيرهما فقتل أهلها حتى الأطفال والنساء وسار إلى سلمية فأخذها بالأمان ثمّ قتل (وفي نسخة كتبت) أهلها حتى صبيان المكتب، ولمّا اشتدّ أمر القرمطي خرج المكتفي من بغداد ونزل الرقة وأرسل إليه الجيوش، وفي سنة ٢٩١هـ سنة ٩٠٤م واقعت جيوش الخليفة المكتفي القرمطي صاحب الشامة وأصحابه بمكان يبعد عن حماه اثني عشر ميلاً (وقال بعضهم إنّها تمتع وهي قرية من بلاد المعرة على الطريق بين حماه وحلب) فانهزم القرامطة وتبعهم عسكر الخليفة يقتلونهم وهرب القرمطي ومعه ابن عمه المدثر المذكور وغلام له رومي فأمسكوا في البرية وأحضروا إلى المكتفي وهو بالرقة فسار بهم إلى بغداد وقتلهم وطيف برأس القرمطي في أسواق بغداد (انتهى عن تاريخ أبي الفداء في صفحة ٦٣ من الجزء الثاني).

وفي سنة ٢٩٢هـ سنة ٩٠٥م بعث المكتفي الجيش إلى الشام فاستولى على دمشق وكان صاحبها حينئذٍ هرون بن خمارويه بن طولون حتى دنا جيشه من مصر وأميره محمّد بن سليمان قاتل هرون المذكور وقتله وأمسك أسرة بني طولون وكانوا بضعة عشر رجلاً واستصفى مالهم وقيدهم وحملهم إلى بغداد كما مرَّ وكتب إلى المكتفي بفتح الشام ومصر. على أنّه في سنة ٢٩٣هـ سنة ٩٠٦م بعد أن توجّه محمّد بن سليمان أمير جيش المكتفي عن مصر خرج بها خارجي يدعى ابراهيم الخلنجي من قواد بني طولون وقويت شوكته فسار عليهم عامل دمشق أحمد بن كيغلغ وطمع القرامطة في دمشق لغيبة عاملها فقصدوها ونهبوا وقتلوا، ونهبوا طبرية ثمّ ساروا إلى جهة الكوفة فسير المكتفي إليهم جيشاً فاقتتلوا وتمّت الهزيمة على جيش الخليفة وقتل منهم خلق كثير وغنم القرامطة منهم شيئاً كثيراً. ولكن انتصر عامل دمشق على الخلنجي في مصر بعد حروب متّصلة وفرَّ واختفى ثمّ قبض عليه وحمل بمن معه إلى بغداد. وفي سنة ٢٩٤هـ سنة ٩٠٧م وثب القرامطة على الحجاج في طريق العراق وقتلهم عن آخرهم وكان عدد القتلى عشرين ألفاً وأخذوا منهم أموالاً عظيمة، وكان كبيرهم يسمى ذكرويه فجهز المكتفي إليهم عسكراً واقتتلوا فانهزم القرامطة وقتل منهم خلق كثير وأسر ذكرويه كبيرهم مجرحاً ومات بعد ستة أيام وقدم العسكر برأسه إلى بغداد وطيف به (عن أبي الفداء صفحة ٦٥ من الجزء المذكور وابن خلدون صفحة ٣٥٦ جزء ٣).

وروى ابن خلدون (٣٥٧ من الجزء المذكور) أنَّه في سنة ٢٩٢هـ سنة ٩٠٥م أغار الروم على مرعش ونواحيها فخرج أهل المصيصة وطرسوس فأصيب منهم جماعة فعزل المكتفي أبا العشائر عن الثغور وولى عليها رستم بن بردو فكان على يده الفداء وفودي ألف من المسلمين. ثمَّ أغارت الروم سنة ٢٩٣هـ سنة ٩٠٦م على موارس (وفي تاريخ الدول لابن العبري قورش) من أعمال حلب وقاتلهم أهلها فانهزموا وقتل منهم خلق ودخلها الروم فأحرقوا جامعها وأخذوا من بقي فيها. وفي سنة ٢٩٤هـ سنة ٩٠٧م غزا ابن كيغلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف سبياً واستأمن من الروم بطريقاً، ثمَّ عاود ابن كيغلغ الغزو وقتل من الروم خلقاً ثمَّ استأمن البطريق المتولي الثغور من جهة الروم وخرج بمئتي أسير من المسلمين. وشعر ملك الروم بأمره فبعث من يقبض عليه فقتل الأسرى المسلمون من أرسلهم الملك للقبض عليه واجتمع الروم على محاربة هذا البطريق وزحف المسلمون لخلاصه وخلاص من معه من الأسرى المسلمين، فبلغوا قونية وخرَّبوها وانصرف الروم (عن ابن خلدون صفحة ٣٥٧ وابن الأثير صفحة ٢١٨ من الجزء السابع).

قد توفي المكتفي في شهر جمادى سنة ٣٩٥هـ سنة ٩٠٨م بعد أن عهد بالأمر إلى أخيه جعفر وكان وزيره العباس بن الحسن فاستشار أصحابه في من يوليه فأشار محمد بن داود بن الجراح بعبدالله بن المعتز ووصفه بالعقل والرأي والأدب، وأشار أبو الحسين بن محمَّد بن الفرات بجعفر بن المعتضد بعد أن أطال في مفاوضته ومما قال له اتَّقِ الله ولا تولِ إلَّا من خبرته ولا تولِ البخيل فيضيق على الناس في أرزاقهم ولا الطماع فيشره إلى أموالهم ولا المتهاون بالدين فلا يجتنب المآثم ولا يطلب الثواب ولا تولِ من خبر الناس وعاملهم واطَّلع على أحوالهم فيستكثر على الناس نعمهم واصلح الموجودين مع ذلك جعفر بن المعتضد. فقال الوزير ويحك وهو صبي وما حاجتنا بمن لا يحتاج إلينا ويستبد علينا فمالت نفس الوزير إلى جعفر كما أشار ابن الفرات وكما أوصى أخوه المكتفي وكانت مدَّة خلافة المكتفي ست سنين وستة أشهر (عن ابن خلدون وابن الأثير وابن الفداء).

عد ٧٦٩

المقتدر بالله

هو جعفر بن المعتضد أخو المكتفي بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥هـ سنة ٩٠٨م ولقب بالمقتدر بالله وهو ثامن عشر الخلفاء، ولما بويع استصغره الوزير إذ كان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة وكثر كلام الناس فيه فعزم على خلعه. وفي سنة ٢٩٦هـ سنة ٩٠٩م اجتمع القواد والقضاة والوزير فخلعوه وبايعوا عبدالله بن المعتز ولقب المرتضي بالله ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى الدار التي كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة فأجابه سمعاً وطاعة وسأله الامهال إلى الليل، ولمّا كان الغد جرت بين غلمان الدار المريدين للمقتدر وبين المريدين لابن المعتز حرب كان آخرها أنَّ ابن المعتز انهزم واختفى وفرَّق أصحابه وحبس ليلتين وقتل خنقاً وأظهروا أنّه مات حتف أنفه وأخرجوه إلى أهله. وكان فاضلاً شاعراً وتشبيهاته وأشعاره مشهورة، وأخذ العلم عن المبرد وثعلب ولم يلِ الخلافة إلَّا يوماً واحداً. وقال حين تولى قد آن للحق أن يتَّضح وللباطل أن يفتضح وعاد المقتدر إلى الولاية وأهم ما كان من الحوادث في أيام المقتدر انقراض دولة الأغالبة وابتداء دولة العلويين الفاطميين بافريقية. وقد علمت أنَّ هرون الرشيد ولى ابراهيم بن الأغلب على افريقية سنة ١٨٤هـ سنة ٨٠١م إلى أن أفضت الولاية في ذريته إلى زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن الأغلب. ففي سنة ٢٩٠هـ سنة ٩٠٣م قتل زيادة الله أبا عبدالله لأنَّه كان حبسه على شرب الخمر فاتَّفق مع ثلاثة من خدم أبيه الصقالبة على قتله فقتلوه وأحضروا رأسه إلى ابنه زيادة الله وهو في الحبس ولما تولى أمر بهم فقتلوا وهو الذي كان أمرهم بذلك. وانعكف زيادة الله بعد ولايته على اللذات وملازمة المضحكين وقتل كل من قدر عليه من أعمامه واخوته وقوي في أيامه أمر عبدالله الشيعي القائم بدعوة الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب، فأرسل زيادة الله لكبته جميع عسكره وكانوا أربعين ألفاً فهزمهم أبو عبدالله الشيعي، ولمّا رأى زيادة الله أنَّ لا طاقة له على مقاومة الشيعي جمع ما قدر عليه من المال وسار عن ملكه إلى الشرق فقدم مصر وبها النوشري عاملاً للمقتدر فكتب إلى الخليفة بأمره، وسار زيادة الله إليه فأمره أن يعود إلى المغرب لقتال الشيعي، وكتب إلى النوشري عامله بمصر أن يمدَّه بالعساكر والأموال وعاد زيادة الله إلى مصر وخرج لقتال الشيعي فماطله النوشري بالمدد وهو لازم شرب الخمر واستماع الملاهي وطال مقامه وتفرَّق

عنه أصحابه وتتابعت به الأمراض وآيس من النوشري فسار إلى القدس للمقام بها فمات بالرملة ودفن بها ولم يبقَ أحد بالمغرب من بني الاغلب وانقرضت دولتهم سنة ٢٩٦هـ سنة ٩٠٩م. فتكون مدة ملكهم بالمغرب ١٠٨ سنوات فسبحان الذي لا يزول ملكه (عن ابي الفداء صفحة ٦٧ وغيره).

إنَّ الذي كان عبدالله الشيعي يدعو له من العلويين هو عبيدالله بن محمَّد بن عبدالله إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وقيل هو عبيدالله بن أحمد بن اسماعيل الثاني إلى الحسين. واختلف العلماء في صحة نسبه فصححه بعضهم وأنكر بعضهم صحته بل جعل بعضهم نسبه في اليهود، ومهما يك من ذلك فعبيدالله أول الدولة التي تسمى دولة العلويين لنسبتهم إلى علي بن أبي طالب، ودولة الفاطميين لنسبتهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول زوج علي. ولما كان عبدالله الشيعي استحوذ على المغرب وقرض دولة الأغالبة وكان عبيدالله قد فرَّ من وجه المقتدر وعامله النوشري في مصر وقبض عليه في سجلماسة فمضى عبدالله الشيعي وقاتل صاحب سجلماسة وهزمه وأخرج عبيدالله وولده من السجن وأركبهما ومشى ورؤساء القبائل بين أيديهما. وعن القراماني أنَّ أمير سجلماسة كان قد قتل عبيدالله فأخذ عبدالله الشيعي يهودياً كان في السجن وقال للناس إنَّه عبيدالله المهدي الذي كان يدعو له ولما وصل عبيدالله إلى مقر ولايته في افريقية دوّن الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال إلى سائر بلاد المغرب واستعمل على جزيرة صقلية (التي كانت حينئذٍ من ملك الأغالبة) الحسن بن أحمد بن أبي خنزير وكان ذلك لسنة ٢٩٧هـ وهي سنة ٩١٠م وسمي المهدي، وهو أول دولة الفاطميين التي نازعت العباسيين ولاية مصر وسورية وغيرهما كما سترى. وباشر المهدي الأمور بنفسه ولم يبق حكم لأبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس والفطام صعب فنقما على المهدي لسوء صنيعه معهما فدعاهما المهدي وقتلهما سنة ٢٩٨هـ سنة ٩١١م على الأصح (عن أبي الفداء وغيره).

أمَّا المقتدر فقبض سنة ٢٩٩هـ سنة ٩١٢م على وزيره أبي الحسين بن الفرات ونهب داره وهتك حرمه وولى الوزارة أبا علي محمَّد بن يحيى بن خاقان فتحكَّم عليه أولاده فكان كل منهم يسعى لمن يرتشي منه فكان يولي العمل الواحد عدداً من العمال في أيام قليلة، فقيل فيه:

وزير قد تكامل في الرقاعة ... يولي ثمَّ يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا اجتمعوا عليه ... فخير القوم أوفرهم بضاعة

والخليفة مع ذلك يتصرّف على مقتضى إشارة النساء والخدام ويرجع إلى قولهم وآرائهم فخرجت الممالك وطمع العمال في الأطراف، ففي سنة ٣١٥هـ سنة ٩٢٦م يئس الجند والقواد من اصلاح المقتدر ومنع استيلاء النساء والخدم على الأمور وكثر أخذهم الأموال والضياع ووقعت وحشة بين المقتدر وخادمه مؤنس فاجتمعت العساكر إلى مؤنس وقصدوا دار الخلافة فأخرجوا منها المقتدر ووالدته وخالته وخواص جواريه وأولاده وحملوهم إلى دار مؤنس واعتقلوا بها وأحضروا أخاه محمّد بن المعتضد وبايعوه ولقبوه القاهر بالله وألزموا المقتدر أن يشهد على نفسه بالخلع، ونهبت دار الخلافة واستخرجوا من قبر بَنَتْهُ أم المقتدر ست مئة ألف دينار، وفي اليوم الثالث بعد خلعه حضرت الرجال المصافية بالسلاح إلى دار الخلافة يطالبون بحق البيعة واشتدَّ صراخهم فخرج من عند القاهر من يطيب خاطرهم فوثبوا عليه وقتلوه وهجموا على القاهر فهرب واختفى وتفرقت الناس عنه ولم يبقَ بدار الخلافة، ثمَّ قصد الرجال دار مؤنس وطلبوا المقتدر منه فأخرجه وسلَّمه إليهم فحملوه على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة واستقرَّ المقتدر بالخلافة وسكنت الفتنة (عن أبي الفداء صفحة ٧٨). وفي سنة ٣٢٠هـ سنة ٩٣٣م عظمت الوحشة بين المقتدر ومؤنس الخادم، ومضى مؤنس إلى الموصل فاستولى المقتدر على اقطاعه وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب إلى بني حمدان أمراء الموصل بصدِّه عن مدينتهم فقاتلوه وانتصر مؤنس على الموصل. واجتمعت العساكر إليه فسار بهم إلى جهة بغداد فرأى المقتدر ضعفه وانعزال العسكر عنه فانحدر من بغداد إلى واسط واتَّفق مع من بقي عنده على قتال مؤنس، وخرج لقتاله وبين يديه الفقهاء والقراء منهم فوقف على تل وألحَّ عليه أصحابه بالتقدم فتقدم وانهزم أصحابه ولحق المقتدر قوم من المغاربة فقال لهم ويحكم أنا الخليفة، فقالوا قد عرفناك يا سفلة فضربه واحد بسيفه فذبحوه ثمَّ حفروا له في موضعه وعفى قبره. وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وبعض أيام (عن أبي الفداء صفحة ٨١ وابن الأثير وغيرهما).

عد ٧٧٠

غزوات المهدي العلوي لمصر وغيرها

وفي سنة ٣٠١هـ سنة ٩١٤م سير المهدي العلوي جيشاً مع ولده أبي القاسم محمّد إلى ديار مصر فاستولى على الاسكندرية والفيوم فأرسل إليه الخليفة المقتدر

مع مؤنس الخادم جيشاً فأجلاهم عن مصر وعادوا إلى المغرب على أنَّ المهدي أرسل في السنة التالية أي سنة ٩١٥م جيشاً آخر مع مقدم يقال له جاشه (وفي نسخة هباشة وعن ابن الأثير حباسة) في البحر فاستولى على الاسكندرية، وأرسل المقتدر جيشاً مع مؤنس الخادم فاقتتلوا بين مصر والاسكندرية أربع دفعات انهزمت فيها المغاربة وعادوا إلى بلادهم وقتل من الفريقين خلق كثير.

وفي سنة ٣٠٦هـ سنة ٩١٩م جهز المهدي جيشاً كثيفاً مع ابنه القاسم إلى مصر فوصل إلى الاسكندرية واستولى عليها ثمَّ سار حتى دخل الجيزة وملك أشمونين وكثيراً من الصعيد، وبعث المقتدر مؤنساً الخادم فوصل إلى مصر وجرى بينه وبين القاسم عدة وقعات ووصل إلى الاسكندرية من افريقية ثمانون مركباً نجدة للقاسم وأرسل المقتدر خمسة وعشرين مركباً لقتال مراكب القاسم، فاقتتلت مراكب الفريقين على رشيد واقتتلت عساكرهما في البحر وكانت الهزيمة على عساكر المهدي ومراكبه فعادوا إلى افريقية بعد أن قتل منهم وأسر (عن الكامل لابن الأثير وأبي الفداء).

قد ذكرنا آنفاً أنَّ المهدي العلوي استعمل على صقلية الحسن بن أحمد فبقي مدَّة يسيرة وأساء السيرة في أهلها فثاروا به وحبسوه وكتبوا إلى المهدي بذلك واعتذروا، فقبل عذرهم واستعمل عليهم علي بن عمر البلوى وكان شيخاً ليناً فلم يرض أهل صقلية بسيرته فعزلوه وأبقوه عندهم وولوا على أنفسهم أحمد بن قرهب (وفي نسخ مرهب) ثم رأى من أهل صقلية ما يكره واختلف العسكر عليه وأحرقوا خيمته وأرادوا قتله فمنعهم العرب الساكنون في صقلية فدعا أحمد الوالي الناس إلى طاعة المقتدر الخليفة العباسي فأجابوه إلى ذلك، فخطب له في صقلية وقطع خطبة المهدي العلوي، وجهَّز جيشاً وأرسله في البحر إلى ساحل افريقية فلقوا هناك أسطول المهدي ومقدمة الحسن بن أحمد الوالي السابق فأحرقوا أسطول المهدي وقتلوا الحسن المذكور وحملوا رأسه إلى ابن قرهب، وسار الأسطول الصقلي إلى سفاقس (صفاقس) فخرَّبوها وساروا إلى طرابلس فوجدوا فيها القائم بن المهدي فعادوا، ووصلت الخلع السود (شعار العباسيين) والألوية إلى ابن قرهب من قبل المقتدر الخليفة العباسي فسير ابن قرهب الأسطول ثانية إلى افريقية فخرج عليه أسطول المهدي فبدده فأدبر امر ابن قرهب وطمع فيه الناس وعصوا أمره وكاتبوا المهدي وثاروا بابن قرهب وأخذوه أسيراً وأرسلوه إلى المهدي مع جماعة من خاصته

فقتلهم على قبر الحسن بن أحمد الذي كان الصقليون قد قتلوه، واستعمل المهدي على صقلية أبا سعيد موسى بن أحمد وسير معهم جماعة كثيرة لأنَّ ابن قرهب كان قد كتب إليه أن أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم ولا يطيعونهم ولا يزول ذلك إلَّا بعسكر يقهرهم فخاف أهل صقلية من العسكر فاجتمعوا على واليهم الحديث وقاتلوه فظهر عليهم وقتل جماعة من رؤسائهم وأسر جماعة فطلبوا الأمان فأمَّنهم إلَّا رجلين هما أثارا الفتنة فرضيوا بذلك وأخذ الرجلين وسيرهما إلى المهدي وأتاه كتاب المهدي يأمره بالعفو عن العامة فاستتبت الراحة بصقلية وتمكنت فيها ولاية المهدي (عن الكامل لابن الأثير في تاريخ سنة ٣٠٠هـ وهي سنة ٩١٣م) .

عد ٧٧١

خلافة القاهر بالله

بعد قتل المقتدر أشار مؤنس الخادم باقامة ابنه أبي العباس فاعترض عليه اسحق ابن اسماعيل النوبختي بأنَّه صبي فكان كالباحث على حتفه بظلفه فان القاهر قتل النوبختي المذكور فيما بعد فأحضروا محمَّد بن المعتضد وبايعوه لليلتين بقيتا من شوال سنة ٣٢٠هـ سنة ٩٣٣م وسموه القاهر بالله وهو تاسع عشر من الخلفاء ثمَّ أحضر القاهر أم المقتدر وسألها عن الأموال فاعترفت بما عندها من المصاغ والثياب فقط فضربها أشد ما يكون من الضرب وكانت مريضة ثمَّ علَّقها برجلها فحلفت أنَّها لا تملك غير ما أطلعته عليه، واستوزر القاهر أبا علي بن مقلة وعزل وولّى وقبض على جماعة من العمال. وفي سنة ٣٢١هـ سنة ٩٣٤م حصلت الوحشة بين القاهر ومؤنس الخادم، وكان مؤنس أقام ابن بليق حاجباً وجعل أمر دار الخلافة إليه فضيّق على القاهر واتّفق مع مؤنس الخادم على خلعه وإقامة أبي أحمد بن المكتفي مكانه واتَّفق معهما الوزير ابن مقلة على ذلك، واتَّفق القاهر مع بعض القواد على القبض عليهم وأكمن رجالاً في الدهاليز والممرات وحضر ابن بليق بجماعة وأظهر أنَّه يريد الاجتماع بالخليفة بسبب القرامطة وكان قصده القبض على الخليفة، فلمَّا دخل دار الخلافة قبض عليه الكامنون له وحضر أبوه فقبضوا عليه أيضاً، وأرسل القاهر يستدعي مؤنساً فامتنع عن الحضور فحلف له القاهر أنَّه آمن ويريد أن يعرفه ما بلغه من اتفاق بليق وابنه على خلعه، فحضر مؤنس وقبض عليه أيضاً وعزل ابن

مقلة عن الوزارة واستوزر محمّد بن القاسم وجدَّ في طلب أبي أحمد بن المكتفي فظفر به فبنى عليه حائطاً فمات. وشغب الجنود لحبس مؤنس وطلبوا اطلاقه فعمد القاهر إلى ابن بليق وذبحه ووضع رأسه في طست (في الكامل طشت بالشين) وكان حبسهم متفرقين ثم أحضر الرأس في الطست إلى ابن بليق فأخذ يبكي ويترشف الرأس ثمّ قتله القاهر وأرسل رأسيهما في الطست إلى مؤنس، فلمّا رأى مؤنس الرأسين تشاهد ولعن قاتلهما فقتله أيضاً وأطلع الرؤوس الثلاثة فطيف بها في بغداد ونودي هذا جزاء من يخون وجعلت في خزانة الرؤوس على جاري عادتهم وقبض على اسحق النوبختي المار ذكره وحبسه ثمّ قتله (عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وفي أيام القاهر كان ابتداء دولة بني بويه وهم ثلاثة عماد الدولة عليّ وركن الدولة الحسن ومعز الدولة أحمد أولاد أبي شجاع بويه، يقال إنَّ نسبهم يتَّصل بآخر ملوك الفرس وكانوا من الديلم ثمّ خرجوا منها وساروا إلى مرداويج أمير طبرستان فقبلهم أحسن قبول وقلَّد أحدهم عماد الدولة كرج فاستمال أهلها بالصلات والهبات فأحبوه وملكوه وقوي جانبه واستولى على أصفهان وارجان أيضاً وأنفذ أخاه ركن الدولة الحسن إلى بعض أعمال فارس فاستخرج منها أموالاً جزيلة وعاد غانماً سالماً. وفي سنة ٣٢٢هـ سنة ٩٣٥م استولى عماد الدولة على شيراز وملكها وسترى ما كان من أمرهم في ما بعد (عن ابن الأثير وأبي الفداء وابن العبري في تاريخ الدول).

وفي سنة ٣٢٢هـ سنة ٩٣٥م المذكورة كان خلع القاهر فانَّه كان قد قبض على طريف السبكري أكبر قواده الذي كان قد اتَّفق معه على قتل مؤنس وبليق وابنه وأودعه السجن وكان الوزير ابن مقلة الذي عزله مستتراً من القاهر ويجتمع بالقواد ويغريهم به وكان ابن مقلة يظهر تارة بزي عجمي وتارة بزي مكدي وأعطى بعض المنجمين مئة دينار ليقول للقواد إنَّ عليهم قطعاً من القاهر وأعطى كذلك بعض معبري المنامات الذي يعبِّر لسيما القائد ليعبر له أحد مناماته بما يخوفه من القاهر ففعلوا ذلك واستوحش سيما القائد وغيره من القاهر وكانوا قد رأوا قسوته وحنثه بإيمانه لمن أمنهم فاجتمعوا عليه وكان القاهر قد بات يشرب أكثر ليلته وهو سكران، وأحدقوا بالدار فاستيقظ مخموراً وأوثقت الأبواب عليه فهرب إلى سطح حمام هناك فتبعوه وأتوا به إلى الموضع الذي فيه طريف السبكري، فأخرجوا طريفاً

وحبسوا القاهر ثم سملوا عينيه وكانت خلافته سنة واحدة وستة أشهر وثمانية أيام وعاش بعد ذلك خاملاً إلى أن مات سنة ٣٣٨هـ سنة ٩٥٠م (عن أبي الفداء وغيره) .

قال القرماني في ابن مقلة الوزير المار ذكره «كان كاتباً جواداً وهو الذي عرب الخط الكوفي إلى طريقتنا هذه وذكر أنَّ الكتابة العربية أولاً كانت حميرية يتداولها أهل اليمن وغيرها إلى قبيل الاسلام بمدة ثمَّ نقلت إلى الكوفية على يد شخص يسمى مرامر بن مرة وتكوفت ونسبت إلى الكوفة فشهرت واستعملها الناس، فلمَّا ظهر النبي صلعم استمر الناس يكتبون على هذا القلم وهو طريقة كتابة المصحف العثماني. وفي المائة الثانية استقصى الناس الطريقة العربية لسهولتها وحادوا فيها عن تحرير الكوفي وبعد ذلك ظهر أبو علي محمَّد بن مقلة الوزير فنقل الخط إلى العربي ولم يترك فيه شيئاً يشابه الكوفي فصار في أيامه الخط عربياً فقط» .

عد ٧٧٢
ذكر خلافة الراضي بالله

لما قبض على القاهر كان أبو العباس أحمد بن المقتدر ووالدته محبوسين فأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر وسلموا عليه بالخلافة ولقبوه بالراضي بالله وبويع لست خلون من جمادى الأوَّل سنة ٣٢٢هـ سنة ٩٣٥م وهو العشرون من الخلفاء العباسيين وأشار سيما القائد بوزارة ابن مقلة فاستوزره الراضي بالله وراودوا القاهر أن يشهد عليه بالخلع فامتنع وهو في الحبس أعمى. وفي هذه السنة توفي المهدي عبيدالله العلوي الفاطمي بالمهدية التي كان بناها وسماها باسمه، وأخفى ابنه القائم موته لتدبير ما كان له. ولما أظهر ابنه المذكور وفاته بايعه الناس واستقرت ولايته وكانت مدة ولاية المهدي أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً .

وفي سنة ٣٢٣هـ سنة ٩٣٦م تولى الأخشيد وهو محمَّد بن طغج بن جف مصر من جهة الراضي بالله وكان قبل ذلك تولى مدينة الرملة سنة ٣١٦هـ سنة ٩٢٧م من جهة المقتدر وأقام بها إلى سنة ٣١٨هـ سنة ٩٣١م فوردت إليه كتب المقتدر بولايته دمشق فسار إليها وتولاها، وكان حينئذٍ المتولي على مصر أحمد بن .

كيغلغ فلما تولى الراضي عزل أحمد بن كيغلغ وولى الأخشيد مصر وضمَّ إليها البلاد الشامية فسار الأخشيد من الشام إلى مصر واستقرَّ بها.

وفي سنة ٣٢٤هـ سنة ٩٣٦م قبض الحجرية والمظفر بن ياقوت على الوزير ابن مقلة وأرسلوا أعلموا الخليفة فاستحسن ذلك ثمَّ اتَّفقوا على وزارة علي بن عيسى فامتنع فولوا الوزارة أخاه عبد الرحمن ثمَّ قبض عليه وولوا الوزارة محمَّد بن قاسم الكرخي ثمَّ عزلوه واستوزروا سليمان بن الحسن. وانقطع بعض الولاة عن حمل المال إلى الخليفة فراسل الخليفة محمَّد بن رائق وكان والياً بواسط وقلده إمارة الجيش وأمر أن يخطب له على المنابر فبطلت الوزارة من بغداد وبقي ابن رائق هو الناظر في الأمور جميعها، وتغلَّب عمال الأطراف عليها ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها لابن رائق وليس للخليفة حكم. فكانت البصرة في يد ابن رائق المذكور وخروستان في يد البريري، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمَّد بن الياس، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير بن زيّاد أخي مردوايج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعه في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الأخشيد محمَّد بن طغج المذكور، والمغرب وافريقية في يد القائم العلوي ابن المهدي المار ذكره، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمَّد الأموي الملقَّب بالناصر، وخراسان وما وراء النهرين في يد نصر بن أحمد بن سامان، وطبرستان وجرجان في يد الديلم. والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي (عن ابن الأثير وأبي الفداء صفحة ٨٩ وغيرهما) واستبدَّ كل من هؤلاء الولاة بولايته وكثر النزاع بينهم.

وعظم تحكُّم ابن رائق بالخليفة فأشار عليه ابن مقلة أن يقبض عليه ويقيم مكانه يُحكم (كذا روى اسمه ابن خلدون ورواه ابن الأثير وأبو الفداء بجكم بالباء والجيم) والي واسط، وعرف ابن رائق بذلك فطلب إلى الخليفة أن يحبس ابن مقلة فحبسه الراضي ثمَّ حمله على قطع يد ابن مقلة فأخرجوه من الحبس وقطعوا يده فعولج وبرا وعاد يسعى بالوزارة وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب. وبلغ ابن رائق سعيه وانَّه يدعو عليه وعلى الراضي فأمر بقطع لسانه فقطع وضيِّق عليه في الحبس، ولم يكن عنده من يخدمه فيه فقاسى شدَّة إلى أن مات بالحبس سنة ٣٢٨هـ سنة ٩٤٠م. وفي هذه السنة جهز يُحكم المذكور جيشاً سار فيه من واسط إلى بغداد يريد خلع ابن رائق من إمارة الأمراء، وجهز ابن رائق إليه عسكراً فهزمهم

يُحكم فهرب ابن رائق إلى عكبرا واستتر، فدخل يُحكم إلى بغداد فخلع عليه الراضي وجعله أمير الأمراء. وكانت إمارة ابن رائق سنة وعشرة أشهر وكان يُحكم بخدمة ابن رائق وانتسب إليه حتى كتب على رامية الرائقي، وسيره ابن رائق إلى الأهواز فاستولى عليها وطرد ابن البريري، ولما استولى ابن بويه على الأهواز سار يُحكم إلى واسط ثمَّ سار إلى بغداد فطرد ابن رائق واستولى على بغداد وعلى حضرة الخليفة، ثمَّ ظهر ابن رائق مع جماعة انضموا إليه ببغداد فخافه الخليفة ويُحكم وولياه على حران والرها وقنسرين والعواصم فسار واستولى عليها وسترى أنَّه تولى بعد ذلك دمشق. وفي سنة ٣٢٩هـ ٩٤١م توفي الراضي بالله في منتصف ربيع الأوَّل وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة وكان أديباً شاعراً ومن شعره من أبيات :

كل صفو إلى كدر　　كل أمنٍ إلى حذر
أيُّها الآمن الذي　　تاه في لجة الغير
أين من كان قبلنا　　درس العين والأثر
لا در درُّ المشيب من　　واعظ ينذر البشر

قال أبو الفداء وكان الراضي آخر خليفة من العباسيين جالس الجلساء وآخر خليفة كانت نفقته وجراياته وخزانته ومطابخه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين فأمست بعده الخلافة لتدبير أمور الدين غالباً واستبدَّ كل من الولاة بولايته .

عد ٧٧٣

ولاية الأخشيد وابن رائق في سورية

قد مرَّ أنَّ المقتدر كان قد ولى الأخشيد على الرملة سنة ٩٢٧م ثمَّ ولاه دمشق سنة ٩٣١م ولما قام الراضي بالخلافة ولاه مصر وضمَّ إليها البلاد الشامية فاستعمل الأخشيد بدراً بن عبدالله الأخشيدي على دمشق. وقد مرَّ أيضاً أنَّ ابن رائق تولى حران والرها وقنسرين والعواصم فلمَّا استقرَّ بها حدَّثته نفسه بملك الشام فسار إلى حمص فملكها ثمَّ سار إلى دمشق وبها بدر المذكور من قبل الأخشيد والي مصر والشام فملكها وهزم بدراً منها ثمَّ سار إلى الرملة ومنها إلى عريش مصر يريد ملك

الديار المصرية أيضاً ولقيه الأخشيد محمَّد بن طغج فانهزم أولاً، وملك أصحاب ابن رائق خيامه ثمَّ خرج كمين الأخشيد فانهزم ابن رائق إلى دمشق، وبعث الأخشيد في أثره أخاه أبا ناصر فعاد إليهم ابن رائق من دمشق والتقوا بالجون على مقربة من الناصرة وهزمهم وقتل أبو نصر فكفنه ابن رائق وحمله مع ابنه مزاحم إلى أخيه الأخشيد بمصر وكتب يعزيه أنَّه لم يقتل بأمره، وقال إن أحببت فاقتل ولدي مزاحم به فخلع الأخشيد على مزاحم وأعاده إلى أبيه واصطلحا أن تكون مصر للأخشيد من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق ويعطي الأخشيد عن الرملة في كل سنة مئة وأربعين ألف دينار (عن ابن خلدون صفحة ٤٠٨ وأبي الفداء صفحة ٩٢).

ثمَّ كتب المتَّقي بالله الخليفة الآتي ذكره إلى ابن رائق يستدعيه فسار إليه واستخلف بالشام أبا الحسن بن أحمد بن علي بن مقاتل وحارب كوزبكين الذي كان قد استولى على الأمر فظفر به وحبسه، فخلع عليه الخليفة وجعله أمير الأمراء. ثم عاد ابن البريدى سنة ٣٣٠هـ سنة ٩٤٢م فاستولى على بغداد وهرب ابن رائق والخليفة المتقي إلى جهة الموصل، ولما وصلا إلى تكريت كاتبا ناصر الدولة بن حمدان والي الموصل وديار بكر يستمدانه وقدما الموصل فخرج عنها ناصر الدولة إلى الجانب الآخر فأرسل المتَّقي إليه ابنه أبا منصور وابن رائق فأكرمهما ناصر الدولة ونثر على ابن الخليفة دنانير، ولمَّا قاما لينصرفا وركب ابن المتَّقي قال ناصر الدولة لابن رائق تقيم اليوم عندي نتحدَّث في ما نعمله فاعتذر له بابن الخليفة، فألحَّ عليه ابن حمدان فاستراب ابن رائق به وجذب كمه من يده فقطعه وأراد الركوب فشبَّ به الفرس فسقط، فأمر ناصر الدولة فقلبه القائد في دجلة وبعث إلى المتَّقي يقول إنَّه علم أنَّ ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ما فعل، فرد المتقي عليه رداً جميلاً وأمره بالمسير إليه فسار فخلع المتَّقي عليه ولقَّبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء وخلع على أخيه أبي الحسين ولقَّبه سيف الدولة. ولمَّا قتل ابن رائق سار الأخشيد من مصر إلى دمشق وكان فيها محمَّد بن يزداد من جهة ابن رائق فاستأمن إلى الأخشيد وسلَّم إليه دمشق فأمَّره عليها ثمَّ نقله إلى مصر (عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء في تاريخ سنة ٣٣٠).

وفي سنة ٣٣٣هـ سنة ٩٤٥م عاد الأخشيد إلى مصر فسار سيف الدولة علي ابن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان المار ذكره إلى حلب وبها يأنس المؤنسي فأخذها

سيف الدولة منه واستولى عليها وسار من حلب إلى حمص فاستولى عليها ثمَّ سار إلى دمشق فحصرها ثمَّ رحل عنها لأنَّ الأخشيد قصد سيف الدولة ثمَّ التقيا بقنسرين ولم يظفر أحد العسكرين بالآخر ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة. ولمَّا رجع الأخشيد إلى دمشق عاد سيف الدولة إلى حلب. وفي سنة ٣٣٥هـ سنة ٩٤٧م مات الأخشيد في دمشق وكان قد سار إليها من مصر وقالوا إنَّه قبل مسيره من مصر قد وجد بداره رقعة مكتوباً عليها: «قدرتم فأسأتم وملكتم فبخلتم ووسع عليكم فضيقتم وأدرّت لكم الأرزاق فقنطتم أرزاق العباد. واغتررتم بصفو أيامكم ولم تفتكروا في عواقبكم واشتغلتم بالشهوات واغتنام الملذّات ... ولو تأملتم في هذا حق التأمُّل لانتبهتم. أو ما علمتم أنَّ الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى فكفى بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم ... افعلوا ما شئتم فانا صابرون وجوروا فانا بالله مستجيرون وثقوا بقدرتكم فانا بالله واثقون وهو حسبنا ونعم الوكيل». وبقي الأخشيد بعد سماع هذه الرقعة في فكر وسافر إلى دمشق فمات وولي الأمر بعده ابنه أبو القسم أنوجور وتفسيره محمود، واستولى على الأمر كافور الخادم الأسود وهو من خدم الأخشيد لأنَّ أنوجور كان صغيراً وسار كافور بعد موت الأخشيد إلى مصر فسار سيف الدولة إلى دمشق وملكها وأقام بها، واتَّفق أنَّ سيف الدولة ركب يوماً والشريف العقبقي فقال سيف الدولة ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد، فقال العقبقي هي لأقوام كثيرين. فقال سيف الدولة لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرعوا منها فاعلم العقبي أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافور يستدعونه فجاءهم فأخرجوا سيف الدولة عنهم فاستقرَّ سيف الدولة بحلب ورجع كافور إلى مصر وولى على دمشق بدراً الأخشيدي فأقام سنة ثمَّ وليها أبو المظفر بن طغج (عن أبي الفداء وابن خلدون وابن الأثير) وسنأتي على أخبار سيف الدولة.

عد ٧٧٤

في خلافة المتَّقي بالله

لما مات الراضي بالله بقي الأمر موقوفاً انتظاراً لقدوم أبي عبدالله الكوفي كاتب يُحكم أمير الأمراء من واسط واحتيط على دار الخلافة، فورد كتاب يُحكم مع أبي

عبدالله الكوفي يأمر فيه أن يجتمع مع سليمان بن الحسن وزير الراضي كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والقضاة والعباسيون ووجوه البلد فاجتمعوا واتّفقوا على ابراهيم بن المقتدر بالله وبويع له بالخلافة في العشرين من ربيع الأوّل سنة ٣٢٩هـ سنة ٩٤١م وعرضت عليه الألقاب فاختار المتقي لله وهو الحادي والعشرون منهم. وفي هذه السنة قتل يُحكم أمير الأمراء فانّه كان قد أرسل جيشاً لقتال أبي عبدالله البريدي وسار من واسط في أثرهم فأتاه الخبر بنصرة عسكره وهرب البريدي فقصد الرجوع إلى واسط فسمع أنَّ هناك أكراداً لهم ثروة عظيمة فشرهت عينه وقصدهم بجماعة قليلة وأوقع بهم فهربوا من بين يديه وجاء صبي من الأكراد من خلفه وطعنه برمح في خاصرته ولا يعرفه فمات من تلك الطعنه فاستولى المتّقي على دار يُحكم وأخذ منها أموالاً عظيمة وأتى البريدي الفرج من حيث لا يحتسب وكانت مدة إمارة يُحكم سنتين وثمانية أشهر وأياماً.

وفي السنة التالية أي سنة ٩٤٢م كان استيلاء ابن البريدي على بغداد وقتل ابن رائق كما مرَّ، وفي سنة ٣٣١هـ سنة ٩٤٣م دخل تورون التركي بغداد عنوة فخلع المتّقي عليه وجعله أمير الأمراء وبقي المتّقي خائفاً منه. وفي هذه السنة أرسل ملك الروم يطلب من المتّقي منديلاً كان في بيعة الرها يقال إنَّ المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه (مرَّ لنا كلام في هذه الصورة في عد ٥١٧) وأنّه إن أرسله أطلق كثيراً من أسرى المسلمين فأحضر المتّقي القضاة والفقهاء واستفتاهم في ذلك فاختلفوا فقال بعضهم دفعه إليهم اطلاق الأسرى أولى. وقال بعضهم إنَّ هذا المنديل لم يزل في بلاد الاسلام ففي دفعه إليهم غضاضة فقال الوزير علي بن عيسى إنَّ خلاص المسلمين من الأسر أولى من حفظ هذا المنديل، فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وأرسل من تسلَّم الأسرى فأطلقوا. هذا ما رواه المؤرخون المسلمون وقد رواه كثيرون من المؤرخين النصارى منهم الملك قسطنطين برفير وجاء في مقالة أفردها لتاريخ هذا المنديل وشدرانس في تاريخه. هذان من القدماء المعاصرين ونقله عنهما كثيرون من الحدثاء وقالوا إنَّ هذا المنديل حمل وقتئذٍ إلى قسطنطينية وخرج لملقاه البطريرك والاكليروس وحشد كبير من الشعب إلى بيتنيا ودخلوا به العاصمة في ١٥ من شهر آب ووضعوه في كنيسة اجيا صوفيا باحتفاء شهده الملك وأسرته ورجال الندوة وحشد لا يحصى من الناس، ثمَّ نقل بعد ذلك إلى القصر الملكي. وقد مرَّ في عد ٥١٧ أنَّ الوفد الذي أرسله أبجر ملك الرها إلى المخلِّص قد أتى

بهذا المنديل إلى الرها وان الراجح أنَّ ذلك الوفد كان يحسن صناعة التصوير فصوَّر صورة المخلِّص على ذلك المنديل.

وفي سنة ٣٣٢هـ سنة ٩٤٣م استراب المتَّقي بتورون الذي جعله أمير الأمراء وخشي على نفسه منه، فسار من بغداد إلى جهة ناصر الدولة بالموصل والتقاه ناصر الدولة إلى تكريت وأصعده إلى الموصل ثمَّ سار الخليفة وبنو حمدان إلى الرقة وأقاموا بها. وظهر للمتقي تضجر بني حمدان منه فكتب إلى تورون يطلب الصلح منه ليقدم إلى بغداد وكان قد كتب إلى الأخشيد صاحب مصر والشام يشكو إليه حاله وما هو فيه فسار الأخشيد إلى حلب ثمَّ إلى الرقة وحمل هدايا عظيمة إلى المتَّقي واجتهد أن يسير معه إلى مصر والشام فلم يفعل ثم أشار عليه بالمقام بالرقة وخوفه من تورون وأرسل تورون يحلف للمتَّقي أن يعامله كما أراد فانحدر إلى بغداد سنة ٣٣٣هـ سنة ٩٤٤م ووصل إلى هيت وأرسل يجدد اليمين على تورون فسار تورون للمتقى الخليفة وأنزله في مضربه ثمَّ قبض عليه وسلَّمه وأعمى عينيه فصاح المتَّقي وصاح من عنده من الحرم والخدم فأمر تورون بضرب الدبادب لئلا تظهر أصواتهم ثمَّ أخذ المتَّقي إلى بغداد وهو أعمى. فكانت خلافة المتَّقي ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرين يوماً (عن أبي الفداء في تاريخ سنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٣).

عد ٧٧٥
خلافة المستكفى بالله والمطيع لله

لما قبض تورون على المتقي بويع أبو القاسم عبدالله بن المكتفي بالله بالخلافة ولقب المستكفى بالله وهو الثاني من العباسيين وكانت بيعته في صفر سنة ٣٣٣هـ سنة ٩٤٤م أو سنة ٩٤٥م وفي هذه السنة ولَّى سيف الدولة حلب ودمشق كما مرَّ وفي سنة ٣٣٤هـ سنة ٩٤٦م مات تورون أمير الأمراء فعقد الأجناد الأمرة عليهم لابن شيرزاد وأرسل إلى المستكفى فاستحلفه، فحلف له بحضرة القضاة وولاه أسرة الأمراء. ولمَّا علم معز الدولة بن بويه والي الأهواز بموت تورون سار إلى بغداد، ولما قرب منها اختفى المستكفي وابن شيرزاد أمير الأمراء فكانت امارته ثلاثة

أشهر. وقدم الحسن بن محمَّد المهلبي صاحب معز الدولة إلى بغداد وسارت الأتراك عنها إلى الموصل، فظهر المستكفي واجتمع بالمهلبي وأظهر له السرور بقدوم معز الدولة، ثمَّ وصل معز الدولة واجتمع بالمستكفي وحلف له وخلع عليه لقبه في ذلك اليوم بمعز الدولة، وأمر أن تضرب ألقاب بني بويه على الدنانير والدراهم، ورتب معز الدولة للمستكفي كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات المستكفي ثمَّ حضر معز الدولة وعسكره إلى دار الخليفة فاجلس معز الدولة على كرسي فحضر رجلان من نقباء الديلم وتناولا يد المستكفى فظنَّ أنَّهما يريدان تقبيلها فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في عنقه. ونهض معز الدولة فاضطرب الناس وساق النقيبان المستكفى ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة. وكانت مدة خلافة المستكفى سنة وأربعة أشهر. ولما بويع المطيع سلم إليه المستكفي فسمله وأعماه وبقي محبوساً إلى أن مات (عن أبي الفداء في تاريخ سنة ٣٣٤ وغيره).

ولما قبض على المستكفى بويع المفضل (ويروى الفضل) بن المقتدر بالله بالخلافة في جمادى الأخرى سنة ٣٣٤هـ سنة ٩٤٦م وسمي المطيع لله وهو الثالث والعشرون منهم وازداد أمر الخلافة ادباراً، وتسلَّم نواب معز الدولة العراق بأسره ولم يبق في يد الخليفة غير ما اقطعه له معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته. وفي سنة ٣٣٥هـ سنة ٩٤٧م سار ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل إلى بغداد ليأخذها من يد معز الدولة بن بويه واقتتل الفريقان وصالح أخيراً أحدهما الآخر واستمرَّ كل منهما على ولايته. وفي هذه السنة أي سنة ٣٣٥هـ توفي القائم بأمر الله محمَّد بن المهدي صاحب المغرب وقام بالأمر بعده ابنه اسمعيل وتلقَّب بالمنصور بالله. ومات الأخشيد صاحب مصر والشام وتولى دمشق سيف الدولة بن حمدان وأخرجه أهلها منها كما مرَّ. وفي سنة ٣٣٩هـ ٩٥١م وما بعدها كانت حروب بين سيف الدولة بن حمدان أمير حلب وقواد ملوك الروم سنفرد لها الفصل التابع. وكانت في السنين التابعة حوادث يطول الكلام بها وهو خارج عن دائرة غرضنا وجله منازعات بعض هؤلاء الولاة لبعضهم فاضربنا عنه مقتصرين على القول إنَّ المطيع لله قد طالت خلافته إلى سنة ٣٦٣هـ سنة ٩٧٤م فاعتراه مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فخلع نفسه من الخلافة وسلمها إلى ولده عبد الكريم ولقب الطائع لله وكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر.

عد ٧٧٦

غزوات سيف الدولة أمير حلب في بلاد الروم وغزوات الروم في بلاد المسلمين

نذكر أولاً أقوال المؤرخين المسلمين ثم نذيلها بأقوال المؤرخين النصارى. قال أبو الفداء في تاريخ سنة ٣٣٨هـ سنة ٩٥٠م: «في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم فأوغل فيها وغنم في عدد يسير». وقال في تاريخ سنة ٣٤١هـ سنة ٩٥٣م: «في هذه السنة ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالها وخرَّبوا المساجد». وفي تاريخ سنة ٣٤٣هـ سنة ٩٥٥م: «في هذه السنة في ربيع الأوَّل غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فغنم وقتل ووقع بينه وبين الروم وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم كثير وانتصر فيها سيف الدولة». وفي تاريخ سنة ٣٤٥هـ سنة ٩٥٧م: «سار فيها سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم فغنم وسبى وفتح عدة حصون ورجع إلى ادنة فأقام بها ثمَّ ارتحل إلى حلب». وفي سنة ٣٤٩هـ سنة ٩٦١م: «غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم في جمع كثير ففتح وأحرق وقتل وغنم وبلغ خرشنه، وفي عوده أخذت الروم عليه المضائق واستردُّوا ما أخذه وأخذوا أثقاله وأكثروا القتل في أصحابه، وتخلَّص سيف الدولة في ثلاثماية نفس. وكان قد أشار إليه أرباب المعرفة بأن لا يعود على الطريق فلم يقبل، وكان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد لئلَّا يقال إنَّه أصاب برأي غيره. وفي تاريخ سنة ٣٥١هـ سنة ٩٦٣م: «سارت الروم مع الدمستق (الكلمة معرب Domesticus ومعناها الخادم لقب لقادة الروم) وملكوا عين زربه بالأمان، فقتلوا الروم على حلب أو في قلعتها وكان قد سار إليها الدمستق ولم يعلم به سيف الدولة إلَّا عند وصوله، ولم يتيسر له أن يجمع وخرج في من معه وقاتل الدمستق به فانهزم سيف الدولة في نفر قليل وقتل أكثر أصحابه، وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب، فوجد الدمستق فيها ثلاثماية بدرة من الدراهم وأخذ لسيف الدولة ألف وأربعماية بغل ومن السلاح ما لا يحصى، وملكت روم الحواضر وحصروا وثلموا السور وقاتلهم أهل حلب أشد القتال فتأخَّر الروم إلى جبل جوش ثمَّ وقع بين أهل حلب ورجالة الشرطة فتنة بسبب نهب كان قد وقع بالبلد، فاجتمع بسبب ذلك الناس ولم يبق على الأسوار أحد فوجد الروم السور خالياً فهجموا البلد وفتحوا

أبوابه وأطلقوا السيف في أهل حلب وسبوا بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة، فلما لم يبق معهم ظهر يحمل الغنائم أمر الدمستق فأحرقوا ما بقي بعد ذلك. وأقام الدمستق تسعة أيام ثمَّ ارتحل عائداً إلى بلاده ولم ينهب قرى حلب وأمرهم بالزراعة ليعود من قابل إلى حلب في زعمه». إلى أن قال: «وفي هذه السنة في شوال أسر الروم أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان من منبج وكان متقلداً فيها». وفي سنة ٣٥٢هـ سنة ٩٦٤م: «قتل الروم ملكهم (سيأتي ذكره) وملكوا غيره وصار ابن شمشيق دمستقاً». وفي سنة ٣٥٤هـ سنة ٩٦٦م: «سار ملك الروم إلى المصيصة فحاصرها وفتحها عنوة بالسيف يوم السبت ١٣ رجب ووضع السيف في أهلها ثمَّ رفع السيف وأخذ من بقي أسرى ونقلهم إلى بلد الروم، وكان أهلها نحو مائتي ألف انسان ثم سار إلى طرسوس فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلَّم طرسوس وسار أهلها عنها في البر والبحر، وسير ملك الروم معهم من يحميهم حتى وصلوا إلى أنطاكية ... وعمَّر طرسوس وحصَّنها وتراجع إليها بعض أهلها وتنصَّر بعضهم ثمَّ عاد ملك الروم إلى القسطنطينية».

على أنَّه في السنة المذكورة أي سنة ٩٦٦م: «أطاع أهل أنطاكية بعض المقدمين الذين حضروا من طرسوس وخالفوا سيف الدولة وكان اسم المقدم الذي أطاعوه رشيقاً فسار إلى جهة حلب وقاتل عامل سيف الدولة قرعوبه وكان سيف الدولة بميافارقين فأرسل عسكراً مع خادمه بشاره فاجتمع قرعوبه، العامل بحلب مع بشاره وقاتلا رشيقاً فقتل وهرب أصحابه ودخلوا أنطاكية» (أبي الفداء أيضاً). وقال في تاريخ سنة ٣٥٥هـ سنة ٩٦٧م: «في هذه السنة خرجت الروم ووصلوا إلى آمد وحصروها ثمَّ انصرفوا عنها إلى قرب نصيبين وغنموا، وهرب أهل نصيبين ثمَّ ساروا من الجزيرة إلى الشام ونازلوا أنطاكية وأقاموا عليها مدة طويلة ثمَّ رحلوا عنها إلى طرسوس وفي هذه السنة افتدى سيف الدولة ابن عمّه أبا فراس بن حمدان من الأسر وكان بينه وبين الروم الفداء فخلص عدة مسلمين من الأسر». وقد توفي سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان بن حمدون التغلبي الربعي وكانت وفاته بحلب سنة ٣٥٧هـ سنة ٩٦٩م وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها وكان مولده سنة ٣٠٣هـ سنة ٩٠٦م، وهو أوَّل من ملك حلب من بني حمدان أخذها من حمد بن سعيد الكلابي نائب الأخشيد، وكان سيف الدولة شجاعاً كريماً وله شعر فمنه ما قاله في أخيه ناصر الدولة:

وهبتُ لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرقُ
وما كان لي عنها نكول وإنَّما تجاوزت عن حقي فكان لك الحقُ
أما كنت ترضى أن أكون مصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبقُ

ولما توفي سيف الدولة ملك بلاده بعده ابنه سعد الدولة شريف وكنيته أبو المعالي ابن سيف الدولة بن حمدان. فهذا ما رواه المؤرخون المسلمون.

عد ٧٧٧

ما رواه المؤرخون النصارى من هذه الحوادث

قد روى كثيرون من المؤرخين النصارى أيضاً هذه الأحداث فأحببنا أن نذكر روايتهم تأكيداً لتاريخ هذه الأحداث وللزيادة في بيانها قالوا إنَّه بينما كان رومانس الثاني ملك الروم لاهياً عن تدبير ملكه معتكفاً على لذاته كان القائدان لاون ونيقوفور فوقا مجدين في اصلاح شؤونها ولم شعثها، فحارب نيقوفور المسلمين في جزيرة كريت وحصروها واستردها من يدهم. وكثرت الوقعات بين المسلمين ولاون بسورية فقد ظهر عليهم في بعضها وأسر منهم كما رويناه عن أبي الفداء وأخذ الأسرى إلى قسطنطينية، على أنَّ ذلك لم يضعف عزيمة المسلمين وحميتهم وأخذوا يشنون الغارة على أطراف المملكة فسار لاون في جيش كثيف إلى سورية وافتتح حصوناً واتَّصل بفتحه إلى الفرات ثمَّ عاد إلى الجنوب، فأخذ عين زربه وظهر على الأمير حمدان أبي سيف الدولة الذي أراد أن يقطع عليه الطريق المؤدية إلى حلب واستحوذ على داره الذي خارج المدينة، فوجد فيها نحواً من ثلاثماية بدرة من الفضة وأخذ منه أربعة عشر ألف بغل وكثيراً من الأسلحة، وحاصر حلب فدفعه السكان عنها، ولكن نشأت فتنة بينهم وبين الشرطة وانتهز هذه الفرصة وثلم السور ودخل المدينة فقتل كل من وجده وأخذ غنيمة عظيمة وبلغ عدد الأسرى من الصبيان والصبيات إلى ألفي أسير. ولم يُعنَ بفتح قلعة حلب لأنَّه رأى أنَّ فتحها يحتاج إلى حصار مديد لا تتيسر له المحافظة عليها فعاد إلى تخوم المملكة وأخذ بالمسير إلى قسطنطينية، فبلغه في طريقه خبر وفاة رومانس الثاني ويظنّ أنَّ امرأته سمته وكان له ابنان باسيليوس وقسطنطين ففتح نيقوفور كريت. وظفره بحلب

وتنكيله بسكان سورية حمل أهل العاصمة أن يلتقوه ملقى ظافر، فدخل قسطنطينية باحتفاء عظيم وسير أمامه غنائم سورية وسمي القائد العام بجميع جيوش المملكة وأطلقت له السلطة ولم يمضِ على ذلك مدة إلّا ونادى به الجنود ملكاً فسمى أباه برداس قيصر والسمسق ويسمى شوموشقيق أو شمشقيق (وهي كلمة أرمنية معناها قصير القامة) قائداً لجيش المشرق أو دمستقاً، وتزوج بالملكة توافانة أم الملكين باسيل وقسطنطين، وظفر السمسق في حروبه بكيليكيا فهزت الملك نيقوفور غيرته وارتياحه إلى الحرب فحشد جيشاً سار فيه من قسطنطينية ودخل سورية فخرَّب كل ما كان حول خليج أيسوس وهو خليج اسكندرونة، ثمَّ عهد إلى أخيه لاون أن يحاصر طرسوس وهو أقام الحصار على المصيصة فاستوليا على المدينتين وظفرا بمن أتى لنجدتهما، وأتلفا أسطولاً مصرياً كان يحمل مؤناً لطرسوس. ودكَّ نيقوفور القلاع والحصون التي بتلك الجهة وعاد يستريح من قسطنطينية تاركاً أحد قادة جيشه يحاصر جزيرة قبرص التي كان المسلمون تولوها من قرن فأكثر، وعاد في شهر شباط سنة ٩٦٥ إلى سورية يحاول ردَّها إلى ملكه ففي أوائل آذار أقبل إلى أنطاكية وكانت من أوَّل مدن سورية فحاصرها وفتحها وفتح بعدها كل مدن لبنان واستحوذ على كل ما كان من شاطئ فينيقية إلى الفرات فذلت له حلب وطرابلس ودمشق وفتح عرقا ذات الثروات الكبرى بعد حصارها تسعة أيام وأخرب حمص، فاضطرَّ المسلمون أن يتركوا هذه المدن ويحتشدوا بانطاكية فعاد نيقوفور إليها على أنَّه لم يبق في هذه البلاد ما يقوم بأور جيش الروم لخرابهم المدن والقرى وكثرة هطل الأمطار، وأواحل الطرق حالت دون الحركات العسكرية، فبنى نيقوفور قلعة في جهات أنطاكية وترك فيها خفراً كافياً قائده برساز وأمرهم أن يضايقوا ما أمكن أهل أنطاكية ولا يهاجموهم قبل أيام الربيع وعاد في بعض الجيش إلى العاصمة وبعد مضيه كان الخفر يضايقون من بأنطاكية ويدنون من الأسوار، ورشا رئيسهم أحد المسلمين فأعلمه بارتفاع أحد الحصون فاصطنع مراقي وتسلَّق عليها جنوده في ليلة مظلمة فامتلك الحصن وأرسل يستمد قائد الجيش المشتى في تلك الجهة وكان الملك قد نهاهم عن المهاجمة.

فبقي بطرس قائد ذلك الجيش متردداً بين أن يخالف أمر الملك أو أن يترك أولئك الجنود الباسلين الذين ملكوا الحصن عرضة ليهلكهم أعداؤهم وآثر الخلاف للأمر متيقناً أنَّه لا يلزمه في حالة لم يسبق النظر إليها فسار بجنده لنجدة برساز قائد

الجند الذين ملكوا الحصن فوجدهم قد دافعوا ثلاثة أيام ثمَّ خرجوا من الحصن فكسروا أحد أبواب أنطاكية ودخلوها وهزموا أهلها والحامية التي كانت بها وانتهبوها، وكان بطرس وبرساز يتوخيان حسن الجزاء من قبل الملك فكان عكس ما أملا لأنَّ الملك استاء من مخالفة أمره فعزلهما عن قيادتهما فأفضت هذه القسوة التي لم يكُ لها من مثال إلى مقت الملك والشكوى منه. على أنَّه كان هائماً باتمام ما بدأ فيه في المشرق فسار في ٢٢ تموز سنة ٩٦٨ من قسطنطينية فاجتاز الفرات وحاصر نصيبين فلم يتمكن من فتحها ولم ينجح في الاستيلاء على آمد بل دخل أرمينيا وخرَّب البلاد وأحرق الرها فكانت حملته هذه مضرة بأعدائه وغير نافعة لملكه، وكادت عليه امرأته توفانا واتَّفقت مع سمسق فقتله في بلاطه واستبدَّ بالملك .

إنَّ سمسق بعد أن تسلَّم زمام الملك أعلن كما كان يعلن نيقوفور فوقا أنَّه لا يريد أن يكون إلَّا شريك الملكين باسيل وقسطنطين في الملك ووصياً عليهما لأنَّ أكبرهما كان عمره احدى عشرة سنة، وطرد من قسطنطينية الملكة توافانا التي كانت حملته على قتل زوجها نيقوفور وحبسها في دير ونفى من كانوا قد شاركوه في القتل، وبعد أن أخضع بولغارية لسلطته عاد إلى العاصمة ظافراً وأقام صورة العذراء في العربة المعدة لاستقباله وهم أن يعيد إلى مملكة الروم رونقها القديم في الشرق وقصد أن يأخذ أورشليم وجميع المدن التي على سواحل البحر المتوسط فجهَّز جيشاً كثيفاً وأمَّر عليه دمستق واجتاز الفرات وأراع سكان الجزيرة إلى بغداد واستحوذ على آمد وهي ديار بكر، وسار نحو منبع دجلة وانتهب ميافارقين وعظم نجاحه لضعف ولاية الخلفاء وانقسام ولايات البلاد واستبداد العمال كل ببلاده ومعاداة بعضهم لبعض. ومع ذلك قد توغَّل جيش الروم في البلاد مستخفين فأهلك المسلمون كثيرين منهم، على أنَّ هذا لم يضعف عزيمة السمسق بل نراه في ربيع سنة ٩٧٤ سار بنفسه في مقدمة جيشه فدخل المدن التي كان افتتحها جنوده ومكن سلطته عليها وعاد إلى العاصمة بغنائم عظيمة يسَّرت له حملاته التالية. ولما كانت المدن التي كان الروم يفتحونها كانت بعد انصرافهم تعود إلى ما كانت عليه قبل الفتح وإذ لم يكن في مملكة الروم من الجنود من يكفي للقتال وللمحافظة على المدن المفتتحة عزم سمسق أن يغيِّر هذا النهج وأن لا يسير من محل قبل أن يطمئن على بقائه طائعاً معاوناً مما يليه من البلاد، وصنع كذلك في أباميا وحمص وبعلبك ثمَّ زحف إلى دمشق فدخل واليها في طاعته وفرض عليه جزية سنوية، ثمَّ اجتاز

لبنان وانحدر إلى مدن فينيقية وحاصر طرابلس فأصابه مرض أرغمه أن يسير نحو أنطاكية، فأغلق أهلها الأبواب في وجهه فاستاء من هذه الإهانة كلَّ الاستياء فسار حتَّى وصل إلى سفح جبل أولمبس حيث أدركته المنية في ١٠ كانون الثاني سنة ٩٧٦. وروى بعضهم أنَّه بلغ قسطنطينية فمات فيها بُعيد بلوغه إليها (عن شدرانس وزاناراس وبولس الشماس وغيرهم).

عد ٧٧٨
ذكر حوادث أخرى في سورية

بعد وفاة سيف الدولة بن حمدان أمير حلب تولاها بعده ابنه سعد الدولة شريف وكنيته أبو المعالي سنة ٣٥٦هـ سنة ٩٦٧م وفي السنة التالية وهي سنة ٩٦٨م حصلت وحشة بين أبي المعالي أمير حلب وأبي فراس والي حمص وطلبه أبو المعالي فانحاز إلى صدد فأرسل أبو المعالي عسكراً مع قرعويه أحد قواد عسكره فكبسوا أبا فراس في صدد وقتلوه وكان أبو فراس خال أبي المعالي وابن عم سيف الدولة وهو الذي ذكرنا قبلاً أسره وافتداء سيف الدولة له. وقال بعضهم إنَّ أبا فراس لما مات سيف الدولة عزم على التغلُّب على حمص فاتَّصل خبره بأبي المعالي وغلام أبيه قرعويه فأرسله إليه فقاتله فقتل في صدد وقيل بقي مجروحاً أياماً ومات وقال بعض الشعراء في مقتله بصدد:

وعلمني الصد من بعده ... عن النوم مصرعه في صدد
فسقياً لها إذا حوت شخصه ... وبعداً لها حيث فيها ابتعد

ثم إنَّ قرعويه استولى سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م على حلب وأخرج منها ابن مولاه أبا المعالي بن سيف الدولة فسار أبو المعالي إلى عند والدته بميافارقين وأقام عندها ثمَّ قصد حماه وأقام بها وقصد جيش الروم حلب فتحصَّن قرعويه في قلعتها وملك الروم المدينة وحصروا القلعة ثمَّ اصطلحوا على مالٍ يحمله قرعويه إلى ملك الروم كل سنة وكانت المصالحة بحمل المال المقرر على حلب وما معها من البلاد وهي حماة وحمص وكفرطاب والمعرة وأباميا وشيزر وما بين ذلك ورفع أهل حلب الرهائن بالمال إلى الروم عن حلب وعاد المسلمون إليها. وكان لقرعويه مولى يقال

له بكجور وقد جعله نائبه فغوى بكجور واستفحل أمره وقبض على مولاه قرعويه وحبسه في قلعة حلب واستولى بكجور على حلب فكاتب أهلها أبا المعالي بن سيف الدولة فسار إليهم وأنزل بكجور بالأمان وحلف له أن يوليه حمص فنزل بكجور وولاه أبو المعالي حمص واستقرَّ بحلب.

ومما كان في سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م أنَّه بعد وفاة القائم بن عبيدالله أول الخلفاء العلويين قام بالملك بعده ابنه المعز لدين الله فسير في السنة المذكورة جوهراً غلام والده في جيش كثيف إلى الديار المصرية وكان أهل مصر بعد موت كافور عبد الأخشيد قد تفرقت آراؤهم واختلفت أهواؤهم فانتهز المعز هذه الفرصة وأرسل عساكره إلى مصر فلم يكن من يقاومها، وانهزم الأخشيديون فاستولت عساكر المعز على مصر وأقيمت الدعوة في الجوامع، ولمَّا استقرَّ قدم جوهر بمصر سير جمعاً كثيراً مع جعفر بن فلاج إلى الشام فبلغ الرملة وبها الحسن بن عبدالله بن طغج وجرت بينهما حروب كان الظفر بها لعسكر المعز وأسر ابن طغج وغيره من القواد فسيرهم جوهر إلى المعز واستولوا على تلك البلاد وجبوا أموالها ثمَّ ساروا إلى طبرية فوجدوا أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصول العسكر، فساروا عنها إلى دمشق فقاتلهم أهلها وظفرت عساكر المعز بهم وملكوا دمشق ونهبوا بعضها وأقاموا الخطبة يوم الجمعة للمعز لدين الله وقطعت الخطبة العباسية وكان ذلك لسنة ٣٥٩هـ سنة ٩٧٠م. وجرت فتنة في دمشق بين أهلها وجعفر بن فلاج ووقعت بينهم حرب فقطعوا الخطبة ثمَّ استظهر جعفر عليهم فزالت الفتن واستقرت دمشق للمعز لدين الله العلوي. وخطب له في حمص وحلب وخطب بمكة للمطيع لله العباسي وبالمدينة للمعز.

وفي سنة ٣٦٠هـ سنة ٩٧١م وصل القرامطة إلى دمشق وبلغ خبرهم جعفر بن فلاج (وفي الكامل فلاح بالحاء) نائب المعز لدين الله فاستهان بهم فكبسوه خارج دمشق وقتلوه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها ثمَّ ساروا إلى الرملة فملكوها واجتمع عليهم خلق من الأخشيدية فقصدوا مصر ونزلوا بعين شمس وجرى بينهم وبين المغاربة وجوهر قائد عساكر المعز قتال انتصر فيه القرامطة، ثمَّ انتصر المغاربة، فعاد القرامطة إلى الشام وكان رئيسهم حينئذٍ اسمه الحسن بن أحمد بن بهرام ولبهرام هذا شعر منه في المغاربة أصحاب المعز:

زعمت رجال الغرب اني هبتها فدمي إذاً ما بينهم مطلولُ
يا مصر إن لم أسقِ أرضك من دمٍ يروى ثراك فلا سقاني النيلُ

وفي سنة ٣٦١هـ سنة ٩٧٢م انتقل معز الدين من الغرب إلى مصر واستصحب معه أهله وخزانته وفيها أموال عظيمة واستعمل على بلاده بافريقية بلكين بن زيري الصنهاجي وعلى صقلية أبا القاسم علي بن الحسن وعلى طرابلس الغرب عبدالله بن يخلف الكتامي وبلغ إلى اسكندرية سنة ٣٦٢هـ سنة ٩٧٣م وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم ودخل القاهرة في خامس شهر رمضان من السنة المذكورة. وفي سنة ٣٦٣هـ سنة ٩٧٤م سار القرامطة إلى ديار مصر وجرى بينهم وبين عساكر المعز حروب آخرها أنَّ القرامطة انهزموا وقتل منهم خلق كثير وأرسل المعز في أثرهم عشرة آلاف فارس فسار القرامطة إلى الاحساء والقطيف بالعربية وفارقوا الشام فأرسل المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي إلى دمشق فدخلها وعظمت حاله وكثرت جموعه ثمَّ وقع بين أهل دمشق والمغاربة فتن كثيرة وأحرقوا بعض دمشق ودامت الفتن بينهم إلى سنة ٣٦٤هـ سنة ٩٧٥م (في الكامل لابن الأثير ابفتكين).

وفي سنة ٣٦٥هـ سنة ٩٧٦م استولى افتكين على دمشق وكان افتكين هذا من موالي معز الدولة بن بويه وهزمه عضد الدولة من العراق فسار إلى حمص ثمَّ إلى دمشق وكان عاملها من جهة المعز لدين الله العلوي ريان (ويروى زيان) الخادم فاتَّفق أهل دمشق مع افتكين وأخرجوا ريان الخادم وقطعوا الخطبة للمعز وولوا افتكين، فعزم المعز على المسير من مصر إلى الشام لقتال افتكين فمات المعز في تلك الأيام وتملَّك مكانه ابنه الملقَّب بالعزيز فجهز القائد جوهراً إلى الشام ووصل إلى دمشق وحصر افتكين فأرسل افتكين إلى القرامطة فساروا إلى دمشق ولما قربوا منها رحل عنها عائداً إلى مصر فسار افتكين والقرامطة في أثره فعمد إلى صيدا فحصروها وفيها ابن التنبح ومعه المغاربة وكانوا كثيرين وخرجوا إلى افتكين فاستحرمهم حتى أبعدوا ثمَّ عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف، وطمع في أخذ عكا فتوجه إليها وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا واجتمع إليه خلق كثير، فلحقوا جوهراً قرب الرملة ورأى جوهر ضعفه عنهم فدخل عسقلان فحصروه بها حتى أشرف جوهر وعسكره على الهلاك من الجوع فراسل افتكين

وبذل له أموالاً عظيمة ليطلقه، فرحل افتكين عنه وصار جوهر إلى مصر واعلم العزيز بما كان فخرج العزيز بنفسه إلى الشام فوصل إلى ظاهر الرملة وسار إليه افتكين والقرامطة وجرى بينهم قتال شديد وانهزم افتكين والقرامطة وكثر فيهم القتل والأسر، وجعل العزيز لمن يحضر افتكين مئة ألف دينار. ونزل افتكين بيت مفرج بن دغفل (ويروى دعفل) الطائي وكان صديقاً لأفتكين وحضر مفرج إلى العزيز وأعلمه بأسر افتكين وطلب منه المال فأعطاه ما ضمن وأرسل معه من أحضر افتكين ولما مثل بين يدي العزيز أطلقه ونصب له خيمة وأطلق كل من كان في الأسر من أصحابه واهدى إليه أموالاً وخلعاً ثمَّ عاد العزيز إلى مصر وافتكين صحبته على أعظم ما يكون من المنزلة وبقي كذلك حتى مات افتكين بمصر. وفي الكامل أنَّ وزير العزيز المسمى يعقوب ابن كلس حسده وسقاه سماً فمات فحزن العزيز عليه واتَّهم الوزير بقتله فحبسه نيفاً وأربعين يوماً ثمَّ أعاده إلى الوزارة (ملخَّص عن أبي الفداء وابن الأثير وابن خلدون في تاريخ السنين المذكورة).

عد ٧٧٩

الطائع لله والقادر بالله

بعد أن خلع المطيع نفسه من الخلافة لعجزه بويع بها ابنه عبد الكريم ولقِّب بالطائع لله وهو الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين وكان ذلك لسنة ٣٦٣هـ سنة ٩٧٤م وتزوج ابنه عضد الدولة بن بويه. وفي سنة ٣٧٩هـ سنة ٩٩٠م كانت وحشة بينه وبين أخيه أحمد الذي سُمِّيَ فيما بعد بالقادر وسببها أنَّ أحمد كان بينه وبين أخت له منازعة على ضيعة وكان الطائع قد مرض وشفي فسعت بأخيها المذكور إلى الطائع وقالت إنَّ أخي شرع في طلب الخلافة عند مرضك، فتغير الطائع على أخيه أحمد وأرسل ليقبض عليه فهرب واستتر وفي سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة أمير العراق على الطائع لله لطمعه في ماله فأرسل إليه يسأله الاذن ليجدد العهد به فجلس الطائع على كرسي ودخل بعض الديلم كأن يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه عن كرسيه وهو يقول إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. ويستغيث فلا يغاث وحمل إلى دار بهاء الدولة واشهد عليه بالخلع وكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً. ولما تولى أخوه القادر حمل

إليه الطائع وبقي عنده مكرماً إلى أن توفي سنة ٣٩٣هـ سنة ١٠٠٣م. قال أبو الفداء (في تاريخ السنة المذكورة): «لم يكن في ولايته من الحكم ما يستدل به على حالته وكان في الناس الذين حضروا القبض عليه الشريف الرضي فبادر بالخروج من دار الخلافة. وقال في ذلك أبياتاً من جملتها:

أمسيت ارحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العز والهونِ

ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضرَّاء يبكيني

أمَّا القادر بالله هو الخامس والعشرون منهم فكان هارباً من وجه المطيع كما مرَّ فلمَّا خلع أرسل بهاء الدولة إلى القادر خواص أصحابه ليحضر ولما قرب من بغداد خرج بهاء الدولة وأعيان الناس لملتقاه فدخل دار الخلافة وبايعه الناس وخطب له سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م. وفي هذه السنة وصل باسيل ملك الروم إلى الشام ونازل حمص ففتحها ونهبها ثمَّ سار إلى شيزر فنهبها ثمَّ سار إلى طرابلس فحاصرها مدَّة ثمَّ عاد إلى بلاد الروم (عن أبي الفداء). وقلَّما وجدنا في كتبهم ذكراً لأعماله فان سورية قد استحوذ عليها الخلفاء العلويون الفاطميون والجزيرة والعراقين وفارس وما جاورها وما وراءها من البلاد استبدَّ في كل منها حاكم وكثر النزاع بين هؤلاء الحكام وبقي للخليفة مقامه الديني. قال ابن خلدون (جزء ٣ صفحة ٤٤٧) كانت الخلافة قبل القادر قد ذهب رونقها بجسارة الديلم فأعاد إليها أبهتها وجدد ناموسها وكان له في قلوب الناس هيبة. وقد امتاز القادر بطول مدة خلافته فقد بويع بها سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م كما رأيت واستمرَّ على سرير الخلافة إلى سنة ٤٢٢هـ سنة ١٠٣٢م فكانت مدة خلافته احدى وأربعين سنة قمرية وأربعين سنة شمسية.

عد ٧٨٠

الخلفاء العلويون الفاطميون في سورية والعزيز خاصة

قد مرَّ الكلام في ظهور دولة العلويين الفاطميين في الغرب وابتدائها في عبيدالله المهدي وان قد خلفه بعد وفاته ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور بالله ثمَّ خلف المنصور ابنه المعز لدين الله الذي استحوذ على مصر سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م ثمَّ على سورية. وقد تكلمنا في عد ٧٧٨ على بعض ما كان في أيامه من الحوادث

في سورية وقد توفي المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ سنة ٩٧٦م وخلفه ابنه العزيز. ومن الأحداث في أيامه أنّه في سنة ٣٦٨هـ سنة ٩٧٩م هرب أبو تغلب صاحب الموصل من وجه أخيه عضد الدولة بن حمدان وسار إلى دمشق وكان قد تغلّب عليها قسام وهو شخص كان يثق إليه افتكين المار ذكره، وكان يخطب فيها للعزيز، فلما وصل أبو تغلب إلى دمشق قاتله قسام ومنعه من الدخول إلى دمشق فسار إلى طبرية ثمّ سار سنة ٣٦٩هـ سنة ٩٨٠م إلى الرملة وكان هناك دغفل بن مفرج الطائي وقائد من قواد العزيز اسمه الفضل ومعه عسكر قد جهزه العزيز إلى الشام فساروا لقتال أبي تغلب ولم يبق غير سبعماية رجل، فولّى أبو تغلب منهزماً وتبعوه فأخذوه أسيراً فقتله دغفل وبعث برأسه إلى العزيز. وكانت معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان وزوجته بنت عم سيف الدولة فحملها بنو عقيل إلى حلب . وفي سنة ٣٧٢هـ سنة ٩٨٣م سير العزيز بالله العلوي جيشاً مع بكتكين إلى الشام فوصلوا إلى فلسطين وكان قد استولى عليها مفرج بن الجراح وكثرجمعه فجرى بينهم قتال شديد فانهزم ابن الجراح وجماعته وكثر القتل والنهب فيهم ثمّ سار بكتكين إلى دمشق فقاتله قسام المذكور المتولي عليها فغلبه بكتكين وملك دمشق وأمسك قساماً وأرسله إلى العزيز بمصر واستقرّ بدمشق وزالت الفتن وقد ذكرنا في عدد ٧٧٨ أنَّ بكجور مولى قرعويه قبض على أستاذه قرعويه وملك حلب ثمّ استدعى أهلها أبا المعالي بن سيف الدولة فأخذ حلب من بكجور وولاه حمص. ففي سنة ٣٧٣هـ سنة ٩٨٤م كاتب بكجور العزيز صاحب مصر وسأله في ولاية دمشق فأجابه إلى ذلك وكتب إلى بكتكين المار ذكره عامله بدمشق أن يسلّم المدينة إلى بكجور ويحضر هو إلى مصر فسلّمها إليه واستمرّ بكجور في ولاية دمشق وأساء السيرة فيها . وفي سنة ٣٧٨هـ سنة ٩٨٩م سيَّر العزيز العلوي عسكراً مع القائد منير الخادم إلى دمشق ليعزل بكجور ويتولاها فلمّا قرب منها خرج بكجور عليه وقاتله عند داريا ثمّ انهزم بكجور وطلب الأمان فأجابه منير إلى ذلك فسار بكجور إلى الرقة فاستولى عليها واستقرّ منير في إمارة دمشق وأحسن السيرة في أهلها . أمّا بكجور فسار سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م من الرقة إلى قتال سعد الدولة بن سيف الدولة بحلب واقتتلا قتالاً شديداً فهرب بكجور وأصحابه وكثر القتل فيهم ثمّ أمسك بكجور وأخذ أسيراً إلى سعد الدولة فقتله ولقي بكجور عاقبة بغيه وكفره احسان مولاه. وسار سعد الدولة إلى الرقة وبها أولاد بكجور وأمواله وحصرها

فطلبوا الأمان وحلف سعد الدولة أن لا يعترض إليهم ولا إلى مالهم فلمَّا سلَّموا إليه الرقة غدر بهم وقبض عليهم وأخذ ما معهم من الأموال وكانت شيئاً كثيراً . ولمَّا عاد سعد الدولة إلى حلب لحقه فالج في جنبه اليمين فأحضر الطبيب ومدَّ إليه يده اليسرى فقال الطبيب يا مولانا هات اليمين فقال ما تركت لي اليمين يميناً ومات بعد ثلاثة أيام. واسم سعد الدولة شريف وكنيته أبو المعالي بن سيف الدولة. وقبل موته عهد إلى ولده أبي الفضائل بولاية حلب وجعل مولاه لؤلؤاً يدبر أمره .

وفي سنة ٣٨٦هـ سنة ٩٩٧م توفي العزيز بالله بن المعز لدين الله العلوي الفاطمي بمدينة بلبيس وكان قد برز إليها لغزو الروم وكانت خلافته احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف شهر وقد ولى كتابته رجلاً نصرانياً يقال له عيسى بن نسطورس واستناب بالشام رجلاً يهودياً اسمه ميشا فاستطالت النصارى واليهود بسببها على المسلمين فعمد أهل مصر إلى قراطيس وجعلوها في طريق العزيز فأخذها العزيز، فإذا قد كتب فيها الذي أعز اليهود بميشا والنصارى بعيسى وأذل المسلمين بك الا كشفت عنا فقبض على عيسى النصراني وصادره. وكان العزيز يحب العفو ويستعمله ولما مات العزيز بويع ابنه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه (ملخَّص عن أبي الفداء وغيره) .

عد ٧٨١

الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي

هو المنصور أبو علي بن العزيز بن المعز لدين الله بويع بالخلافة بعهد أبيه سنة ٣٨٦هـ سنة ٩٩٧م كما مرَّ وكان عمره حينئذٍ احدى عشرة سنة وقام بتدبير ملكه ارجوان (ويروى برجوان) خادم أبيه وكان خصياً أبيض فضبط الملك وحفظه للحاكم إلى أنَّ كبر، ثم قتل الحاكم بأمر الله أرجوان المذكور. وفي سنة ٣٩٣هـ سنة ١٠٠٣م استعمل الحاكم على دمشق أبا محمَّد الأسود واستقرَّ في قصر الامارة. وفي سنة ٣٩٧هـ سنة ١٠٠٧م خرج على الحاكم بمصر انسان أموي من ولد هشام بن عبد الملك يسمى أبا ركوة لحمله ركوة على كتفه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وكثر جمعه وملك برقة وجهز إليه الحاكم جيشاً فهزمه أبو ركوة وغنم ما في ذلك الجيش وقوي به وسار إلى الصعيد واستولى عليه فعظم ذلك على

الحاكم كثيراً فأحضر عساكر الشام واستخدم عساكر كثيرة واستعمل عليهم فضل ابن عبدالله وأرسله إلى أبي ركوة فجرى بينهم قتال شديد وآخره أنَّ عساكر الحاكم انتصرت وهربت جموع أبي ركوة وأخذ هو أسيراً فقتله الحاكم وصلبه وطيف برأسه. وفي سنة ٤٠١هـ ١٠١١م خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم بالله بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمداين والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل: «الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب وانهدت بعظمته أركان النصب واطلع بقدرته شمس الحق من الغرب. فكتب بهاء الدولة إلى عميد جيوشه يأمره بالمسير إلى حرب قرواش فسار إليه وارسل قرواش يعتذر وقطع خطبة العلويين.

وفي سنة ٤٠٢هـ سنة ١٠١٢م ملك صالح بن مرداس حلب. إنَّ رغبتنا في أن نستوفي تاريخ الحاكم بأمر الله ساقتنا إلى تاريخ حوادث كانت في أيامه في القرن الحادي عشر منها ملك صالح بن مرداس مولده في حلب. ولكي لا نبسطه في تاريخ السنين جمعنا هنا ليكون أقرب تناولاً كما فعل أبو الفداء في تاريخه الذي لخصنا كلامه.

قد علمت مما مرَّ أنَّه قد ولي حلب سيف الدولة بن حمدان ثمَّ خلفه ابنه شريف الملقَّب بسعد الدولة ولما توفي خلفه ابنه أبو الفضائل وقام بتدبيره لؤلؤ احد موالي سعد الدولة أبيه، ثمَّ استولى أبو نصر بن لؤلؤ المذكور على أبي الفضائل بن سعد الدولة وأخذ منه حلب واستولى عليها وخطب فيها للحاكم بأمر الله فلقبه الحاكم مرتضي الدولة واستقرَّ في ملك حلب وكانت وحشة بينه وبين صالح بن مرداس الكلابي وعشيرته أفضت إلى حرب كانت بينهم سجالاً وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح عصي على أستاذه ابن لؤلؤ وتحصن بقلعة حلب وكاتب الحاكم بأمر الله بمصر فأولاه الحاكم صيدا وبيروت وسلَّم حلب إلى نواب الحاكم وسار مولاه ابن لؤلؤ إلى أنطاكية وهي في يد الروم فأقام معهم بها وتنقلت حلب بأيدي نواب الحاكم بأمر الله حتى صارت بيد انسان من بني حمدان يعرف بعزيز الملك وبقي على نيابته في حلب حتى قتل الحاكم بأمر الله كما سيأتي وملك الظاهر لاعزاز دين الله العلوي فولي على حلب انسان يعرف بابن ثعبان، وولي القلعة خادم يعرف بموصوف، فقصدهما صالح بن مرداس أمير بني كلاب فسلم إليه أهل حلب مدينتهم لسؤ سيرة المصريين فيهم، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة وحصرها صالح بن

مرداس فسلمت إليه أيضاً سنة ٤١٤هـ سنة ١٠٢٤م واستقرَّ صالح مالكاً بحلب وملك معها من بعلبك إلى عانة واستمرَّ على ذلك ست سنين. وفي سنة ٤٢٠هـ سنة ١٠٣٠م جهز الظاهر العلوي جيشاً لقتال صالح المذكور ولقتال حسان أمير بني طي الذي كان قد استولى على الرملة وتلك البلاد وكان مقدم عسكر مصر اسمه أنوش تكين فاتَّفق صالح وحسان على قتاله، وسار صالح من حلب إلى حسان واجتمعا على الأردن عند طبرية ووقع بينهما القتال فقتل صالح بن مرداس وابنه الأصغر وأرسل رأساهما إلى مصر ونجا ولده نصر وسار إلى حلب وملكها مكان أبيه، وكان لقبه شبل الدولة وبقي مالكاً بحلب إلى سنة ٤٢٩هـ سنة ١٠٣٩م. ولما خلف المستنصر بالله الظاهر العلوي جهز العساكر من مصر لقتال شبل الدولة، وفي مقدمة عساكر مصر رجل يقال له الدزبري وهو أنوش المذكور ويلقَّب بالدزبري فاقتتلوا مع شبل الدولة عند حماه فقتل شبل الدولة وملك الدزبري حلب والشام وعظم شأنه وكثر ماله وتوفي بحلب سنة ٤٣٣هـ سنة ١٠٤٤م.

وكان لصالح بن مرداس ولد بالرحبة يقال له أبو علوان ثمال ولقبه معز الدولة فلما بلغه خبر وفاة الدزبري سار إلى حلب وملكها ثمَّ ملك قلعتها وبقي مالكاً بحلب إلى سنة ٤٤٠هـ سنة ١٠٤٩م وأرسل إليه المصريون جيشاً فهزمهم ثمَّ أرسلوا إليه جيشاً آخر فهزمهم أيضاً ثمَّ صالح ثمال المصريين ونزل لهم عن حلب فأرسلوا رجلاً من أصحابهم يقال له الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة فتسلم حلب من ثمال في السنة المذكورة وسار ثمال إلى مصر وسار أخوه عطية إلى الرحبة. وكان لشبل الدولة الذي قتل في حرب الدزبري ابن اسمه محمود واتَّفق معه أهل حلب وحصروا ابن ملهم سنة ٤٥٢هـ سنة ١٠٦١م فجيش المصريون عسكراً لنصرة ابن ملهم، ولما قاربوا حلب رحل محمود عنها هارباً وقبض ابن ملهم على جماعة من أهل حلب وأخذ أموالهم وسار العسكر في أثر محمود فاقتتلوا وانتصر محمود وهزمهم وعاد إلى حلب فحاصرها وملك المدينة والقلعة، وخلى سبيل ابن ملهم فسار إلى مصر واستقرَّ محمود بن شبل الدولة مالكاً لحلب لما وصل ابن ملهم إلى مصر. وكان ثمال بن مرداس قد سار إليها كما مرَّ، فجهَّز المصريون ثمال المذكور بجيش لقتال ابن أخيه محمود فسار ثمال إلى حلب وهزم ابن أخيه محمود عنها وتسلمها في سنة ٤٥٣هـ سنة ١٠٦٢م.

ثمَّ توفي ثمال في حلب سنة ٤٥٤هـ سنة ١٠٦٣م وأوصى بحلب لأخيه

عطية الذي كان قد سار إلى الرحبة كما ذكرنا فملك عطية حلب وكان محمود ابن شبل الدولة لما هزمه عمه ثمال قد سار إلى حران فنعدما مات ثمال وملك عطية جمع محمود عسكراً وسار إلى حلب فهزم عمه عطية عنها، فسار عطية إلى الرقة وملكها ثمَّ أخذت منه فسار إلى الروم وأقام بقسطنطينية حتى مات بها واستمرَّ محمود مالكاً في حلب وأخذ ارتاح من الروم واستولى عليها أيضاً ومات محمود المذكور سنة ٤٦٨هـ سنة ١٠٧٦م وملك بعده حلب ابنه نصر ثم قتل التركمان نصراً المذكور سنة ٤٦٩هـ سنة ١٠٧٧م وملك حلب بعده أخوه سابق بن محمود المذكور وبقي مالكاً حلب إلى سنة ٤٧٢هـ سنة ١٠٨٠م فأخذ حلب منه شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل (عن ابي الفداء الجزء الثاني صفحة ١٤٧).

عد ٧٨٢
بقية أخبار الحاكم بأمر الله

في سنة ٤٠٢هـ سنة ١٠١٢م كتب ببغداد محضر بأمر القادر بالله يتضمَّن القدح بنسب العلويين خلفاء مصر وانكار صحة انتسابهم إلى علي بن أبي طالب ووقع عليه جماعة من العلويين والقضاة وكثير من الفضلاء ومما قيل في هذا المحضر: «إنَّ هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والدمار ابن معد بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله وان من تقدَّمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين ادعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنَّ ما أدعوه من الانتساب إليه زور وباطل وأنَّ هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون وللاسلام جاحدون ... أحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادَّعوا الربوبية».

وكانت سيرة الحاكم في أموره وأحكامه من أعجب السير وأغربها وأعماله متناقضة يأمر بشيء ثمَّ ينهى عنه يجود على رجال بالمال ثمَّ يقطع رأسه يولي عاملاً ثمَّ يغضب عليه ويقتله. واتَّخذ مجلساً في الليل يحضر فيه عدة من أعيان ثم أبطله، ومات جيش بن الصمصامة وأوصى بأن تكون تركته لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله وكانت تبلغ إلى مئتي ألف دينار بين نقود ومتاع ودواب، فوهبها لأولاده

وخلع عليهم ومنع الناس من مخاطبة أحدهم له بسيدنا ومولانا إلّا أمير المؤمنين وأباح دم من خالف ذلك وكان يخرج كلّ ليلة فيشق الشوارع والأزقة. وبالغ الناس في الوقود والزينة وأنفقوا الأموال الكثيرة فمنع النساء من الخروج في الليل ثمّ أمر بعدم خروجهن البتة وأمر من يبيع أن يكون معه شبه المغرفة بساعد طويل يمده إلى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه فاذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة بعد أن تأخذ ما بها، وهدم كنيسة القيامة بأورشليم ثمّ أعاد بناءها وحمل النصارى على الاسلام وأمرهم أن يلبسوا السواد احتقاراً للعباسيين ثمّ أباحهم العود إلى دينهم. إلى كثير غير ذلك من الأعمال والأوامر المتناقضة والمنع عما هو مباح وإباحة ما هو منكر، وقتل كثيرين من أعيان دولته ووجوه بلاده إلى أن كانت سنة ٤١١هـ سنة ١٠٢١م فخرج يطوف ليلاً على عادته وتوجه إلى شرقي حلوان ومعه ركابيان أعاد أحدهما مع جماعة من العرب ثمّ عاد الآخر وأخبر أنّه خلف الحاكم عند العين، فخرج جماعته وأصحابه لكشف خبره فوجدوا عند حلوان حمار الحاكم وقد ضربت يده بسيف وعليه سرجه ولجامه واتّبعوا الأثر فوجدوا ثياب الحاكم فلم يشكوا في قتله.

والذي رواه ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء من سبب قتله أنّه كان قد أحرق بعض مصر ونهب بعضها ونكّل بأهلها ثمّ أوحش أخته المسماة سيدة الملك وتهددها بالقتل فأرسلت إلى قائد من قواده يسمى ابن داوس وأغرته بقتله وهوّنته عليه ووعدته بأن يكون مدبر الدولة وانها تزيد في اقطاعهماية ألف دينار فأقام رجلين واعطتهما هي ألف دينار ومضيا إلى الجبل وسار الحاكم إليه منفرداً على عادته فقتلاه وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمسة وعشرين سنة وعشرين يوماً. وقالوا إنّه بعد التيقن بقتل الحاكم اجتمعوا إلى أخته سيدة الملك فأحضرت ابن دواس وأجلست علياً بن الحاكم صبياً لم يناهز الحكم وبايع الناس له ولقب الظاهر لاعزاز دين الله ونفذت الكتب إلى البلاد بأخذ البيعة له، ثمّ حضر ابن داوس من الغد وحضر معه القواد فأمرت سيدة الملك خادمها فعلاه بالسيف أمامهم حتى قتله وهو ينادي بثأر الحاكم وقامت هي بتدبير الملك أربع سنين ثمّ ماتت.

على أنّ الذي رواه المقريزي إنّما هو: «إنّه قبض على رجل من بني حسين سنة ٤١٥هـ فأقرّ بأنّه قتل الحاكم في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد، وأظهر قطعة

من جلدة رأسه وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، فقيل له لِمَ قتلته؟ قال غيرة لله وللاسلام. فقيل له كيف قتلته؟ فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده قائلاً هكذا قتلته ووقع مقتولاً فقطع رأسه. قال المقريزي وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم أنَّ أخته قتلته على أنَّ الرواية الأولى هي المشهورة وقد نقلها أكثرهم والله أعلم. أما أصحابه فيقولون إنَّه اختفى في بستان داخل سرداب وأنَّه لم يزل حياً وسوف يأتي في آخر الأزمان ويسمونه الحاكم بأمره ويتحمل عود الضمير إلى منوي وهو لفظ الجلالة أي بأمر الله لكنَّهم ينوون بأمر نفسه. وقد صرَّح بذلك حمزة الآتي ذكره وقد اختلف المؤرخون في ما إذا كان الحاكم كافراً ومبتدعاً وادعى الربوبية أو غير كافر. فقال ابن خلدون (في الجزء الرابع من تاريخه صفحة ٦٠): « وأمَّا ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات باسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته وأمَّا مذهبه في الرافضة فمعروف ولقد كان مضطرباً فيه مع ذلك ». ولكن خالفه كثيرون وحجته غير سديدة. قال القرماني في كتاب تاريخ الدول (صفحة ١٩٢): « قال ابن الجزري ادعى الحاكم المذكور بالربوبية وكان قوم من الجهال إذا رأوه يقولون يا واحد يا احد يا محيي يا مميت، وصنف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه أنَّ روح آدم انتقلت إلى علي وأنَّ روح علي انتقلت إلى الحاكم وقرئ هذا الكتاب بجامع القاهرة فقصد الناس قتل مصنفه فسيره الحاكم إلى جبال الشام فنزل بوادي التيم وناحية بانياس فاستمال قلوب الناس وأباح لهم الخمر . . . وأقام عندهم مدة يدعوهم فأضلَّ منهم خلقاً كثيراً. وفي وادي التيم ونواحي الشوف إلى يومنا هذا قوم يدعون الدروز يعتقدون خروج الحاكم ولهم كتب يتدارسونها فيما بينهم ويعتقدون أنَّه لا بدَّ أن يعود ويمهِّد الأرض. وقال الجعفري (رواه العلامة فنديك في كتابه الموسوم بالمرآة الوضية صفحة ١٣٣): « وفي آخر سنة ٤٠٧هـ قدم إلى مصر رجل يقال له محمَّد بن اسمعيل الدرزي وكان في ما قيل عجمياً وداعياً من دعاة الطائفة الباطنية وهو المسمى في كتب الدروز بنشتكين الدرزي فدخل هذا الرجل في خدمة الحاكم ووافقه على اثبات دعوته بالالهية، وعلم الدرزي بهذا التعليم جهراً وكتب كتاباً يقول فيه إنَّ نفس آدم جازت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم وهو خالق الكون إلى آخره. ثمَّ قرأ كتابه في احد الجوامع فهجم عليه الناس ليقتلوه ففرَّ منهم

وحدث شغب عظيم في القاهرة ونهبوا بيت الدرزي وقتلوا كثيرين من أصحابه، فأرسله الحاكم سراً إلى بر الشام فنزل بوادي التيم بالقرب من جبل الشيخ وهناك نادى بألوهية الحاكم. وكان الأمراء التنوخيون الذين قدموا من العراق إلى بر الشام من الطائفة الباطنية وبوجوده هذه الدخيلة في أنفسهم كانوا مستعدين لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليها، ومن ذلك تسمت طائفة الدروز. وقتل الدرزي المذكور في وقعة مع التتر سنة ٤١٠هـ».

وكان عند الحاكم رجل آخر اسمه حمزة بن علي بن أحمد وهو عجمي أيضاً فوقع الخلاف بينه وبين الدرزي حتى أرسله الحاكم إلى الديار الشامية فتقدم حمزة مكانه وعلم بألوهية الحاكم وجعل نفسه ثانياً له. وقيل إنَّ الدروز يكرمون حمزة جداً ويكرهون الدرزي ويلعنونه. وفي مكاتب أوروبا كتب كثيرة حاوية شرح الدين الذي كان حمزة يدعو إليه، وبعضها منسوب إلى حمزة أيضاً. ومن هذه الكتب كتاب عنوانه «كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية» وهو أربعة مجلَّدات نقلت ثلاثة منها من سورية إلى افرنسة سنة ١٧٠٠م والمجلَّد الرابع كان في مكتبة الرهبان الدومينيكيين في باريس ثمَّ انتقل إلى مكتبة الأمَّة التي فيها أيضاً بعض كتب منسوبة إلى حمزة وأصحابه في أربعة مجلدات، وفي مكتبة الواتيكان مجلَّد، ومجلَّد آخر مثله في المكتبة الأمبراطورية في ڤينَّا وكتابان في مدرسة ليد وأربعة في مدرسة أكسفرد إلى غير ذلك من الكتب المشتملة على قواعد مذهب حمزة أو الحاكم بأمر الله، وأكثرها على هيئة رسائل حاوية شروح هذا المذهب ودستوره ولكنها غامضة ورمزية، فقلَّما يمكن القطع بالمعنى المراد بها. والمتلخَّص منها أنَّ الله واحد وهو الكائن الوحيد الذي تجب عبادته وألوهيته لا تدركها العقول ولا تقع تحت حد وتعريف، وقد ظهر للبشر مرات كثيرة متجلياً بناسوت، وأخيراً ظهر باسم الحاكم وأتى أعمالاً خارقة للطبيعة ومملوءة حكمة، ولا يظهر بعد اختفائه الأخير إلَّا عند مجيئه لتأييد دين التوحيد ومعاقبة الجاحدين. ويعبر في تلك الكتب عن مجيئه بيوم الدينونة وأنَّه اليوم الذي يلبس فيه الحاكم ناسوته ويدين الناس بالسيف وزمان غيبته يسمى فيها زمان الغيبة وزمان التجربة إلى غير ذلك من العقائد التي لا محل لذكرها في هذا المقام.

الفصل الثاني

مشاهير العلم السوريين في القرن العاشر

عد ٧٨٣

القاضي التنوخي وابنه المحسن

هو أبو القاسم علي بن محمَّد بن أبي الفهم داود إلى عمر بن الحارث أحد ملوك تنوخ الأقدمين ولد بأنطاكية سنة ٢٧٨هـ سنة ٨٩٢م وقدم بغداد وتفقه بها على مذهب أبي حنيفة، كان عالماً بأصول المعتزلة والنجوم. قال الثعالبي في حقه هو من أعيان أهل العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشيم وكان قد تقلَّد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين، وحين صرف عنه ورد سيف الدولة بن حمدان بحلب زائراً ومادحاً فأكرم مثواه وأحسن قراه، وكتب بمعناه إلى الخليفة ببغداد حتى أعيد إلى عملها وزيد في رزقه ورتبته. وكان الوزير المهلبي وغيره يميلون إليه ويتعصبون له ويعدونه ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء ومن شعره:

وراح من الشمس مخلوقة ... بدت لك في قدح من نهارِ
هواء ولكنه جامد ... وماء ولكنه غير جاري

وحكى أبو محمَّد الحسن بن عسكر الواسطي قال كنت ببغداد جالساً على دكة بباب افرز للفرجة إذ جاءَت ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي فأنشدت متمثلاً هواء ولكنه جامد الخ من شعر التنوخي فقالت إحداهنَّ هل تحفظ لهذا البيت تماماً؟ فقلت ما أحفظ سواه فقالت أنا أنشدك أحد تمامه وما قبله فأنشدتني بيتين بعد البيت الأوَّل وهما:

إذا ما تأمَّلتها وهي فيه ... تأمَّلت نوراً محيطاً بنارِ

فهذا النهاية في الأبيضاض وهذا النهاية في الاحمرار

ومن شعره أيضاً:

رضاك شباب لا يليه مشيب وسخطك داء ليس منه طبيب
كأنَّك من كل النفوس مركب فأنت إلى كل النفوس حبيب

وقد توفي بالبصرة لسبع خلون من شهر ربيع الأوَّل سنة ٣٤٢هـ سنة ٩٥٧م ودفن من الغد في تربة اشتريت له بشارع المربد وله ديوان شعر جيّد.

أمَّا ابنه المحسن فقد ذكره الثعالبي بعد أبيه فقال فيه: «هلال ذلك القمر وغصن هاتيك الشجر والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله والفرع المسند إلى أصله والنائب عنه في حياته والقائم بعد. وفاته وفيه يقول أبو عبدالله بن الحجاج

إذا ذكرنا القضاة وهم شيوخ تخيرت الشباب على الشيوخ
ومن لم يرضَ لم اصفعه إلَّا بحضرة سيدي القاضي التنوخي

وللمحسن المذكور كتاب «الفرج بعد الشدة» وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه وكتاب «سوار المحاضرة» وكتاب «المستجاد من فعلات الأجواد». ونزل ببغداد وأقام بها وحدَّث إلى حين وفاته وتقلَّد القضاء وأعمالاً كثيرة في نواحٍ مختلفة ومن شعره في بعض المشايخ وقد خرج ليستقي وكان في السماء سحاب فلما دعا أصحت السماء فقال التنوخي:

خرجنا لنستقي بمين دعائهِ وقد كاد هدب الغيم أن يلحق الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشَّفت السما فما تمَّ إلَّا والغمام قد انقضا

وقد كتب إلى بعض الرؤساء في شهر رمضان:

نلت في ذا الصيام ما تشتهيه وكفاك الاله ما تتقيه
أنت في الناس مثل شهرك في الأشهر بل مثل ليلة القدر فيه

وكانت ولادته سنة ٣٢٧هـ سنة ٩٤٠م ووفاته سنة ٣٨٤هـ سنة ٩٩٥م وكان للمحسن ولد يسمى أبا القسم علياً وكان أديباً فاضلاً. قال ابن خلكان له شعر لم أقف منه على شيء وكان يصحب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيراً، فهم أهل

بيت كلهم فضلاء أدباء ظرفاء وكانت ولادة أبي القسم سنة ٣٦٥هـ سنة ٩٧٦م ووفاته سنة ٤٤٧هـ سنة ١٠٥٦م انتهى.

عد ٧٨٤

أبو القاسم سليمان الطبراني وأبو الرقعمق

أما أبو القاسم فهو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني ولد سنة ٢٦٠هـ سنة ٨٨٠م بطبرية بالشام وتوفي بأصبهان سنة ٣٦٠هـ سنة ٩٧٧م رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن والجزيرة وأقام في رحلته ثلاثاً وثلاثين سنة وسمع من الكثيرين، وله المصنفات الممتعة النافعة الغريبة منها المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير وهي أشهر كتبه. وروى عنه الحافظ أبو نعيم وكثيرون غيره. والطبراني نسبة إلى طبرية والطبري نسبة إلى طبرستان.

وأما أبو الرقعمق فهو لقب لأبي حامد أحمد بن محمَّد الأنطاكي ولد بأنطاكية وتوفي في ما ظنَّ خلكان بمصر سنة ٣٩٩هـ سنة ١٠٠٩م وهو شاعر مشهور ذكره الثعالبي في «اليتيمة» فقال في حقِّه هو نادرة الزمان وجملة الاحسان ممن تصرَّف بالشعر في أنواع الجد والهزل، وأحرز قصب السبق، وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين وهو بالشام كابن حجاج بالعراق، فمن غرر محاسنة قوله يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلِّس وزير العزيز صاحب مصر.

قد سمعنا مقاله واعتذاره وأقلناه ذنبه وعثاره
والمعاني لمن عنيت ولكن بك عرضت فاسمعي يا جاره

إلى أن يقول:

هتك الله ستره فلكم هتك من ذي تستر أستاره
سحرتني الحاظه وكذا كل مليح الحاظه سحاره
لم يدع للعزيز في سائر الأرض عدواً إلَّا وأخمد ناره
ذو يد شأنها الفرار من البخل وكدُّه الخطوب بالبذل غاره
هي فلت من العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره

هكذا كل فاضل يده   تمسي وتضحى نفاعة ضراره
فاستجره فليس يأمن إلّا   من تفيأ ظلاله واستجاره

(ملخّص عن ابن خلكان في وفيات الأعيان).

محمّد أبو الفرج الوأواء الدمشقي

لم يذكره ابن خلكان في «الوفيات» وذكر الصلاح الكتبي في «فوات الوفيات». فقال محمّد بن أحمد. وقيل هو ابن محمّد أبي الفرج الوأواء الغساني الدمشقي شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه بنى الحريري مقامةً على قوله:

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت   ورداً وعضت على العناب بالبردِ

وذكر كثيراً من أشعاره منها ما قاله في سيف الدولة:

من قاس جدواك بالغمام فما   أنصف في الحكم بين اثنينِ
أنت إذا جدت ضاحكٌ أبداً   وهو إذا جاد باكي العينِ

وكانت وفاة الوأواء سنة ٣٩٠هـ تقريباً» وهي سنة ٩٩٩م تقريباً أيضاً.

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

عد ٧٨٥

المشاهير بالفقه والطب والتاريخ وغيرها من العلوم

الطبري

هو أبو علي الحسن بن القاسم الطبري الفقيه الشافعي أخذ الفقه عن أبي علي بن أبي هريرة وعلق على كتابه شرح مختصر المزني تعليقات نافعة وسكن بغداد ودرس بها بعد أستاذه المذكور وكان عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني وكان من المجتهدين لم يقلد أحداً وكان فقيهاً عالماً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وله التاريخ المشهور ابتدأ فيه من أوّل الزمان إلى آخر سنة ٣٠٢هـ سنة ٩١٥م، وله كتاب في التفسير لم يفسر مثله وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة. ولما مات تعصبت عليه العامة ورموه بالرفض وما كان سببه إلّا أنّه صنّف كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل. فقيل له في ذلك فقال لم يكن أحمد بن حنبل فقيهاً وإنّما كان محدثاً، فاشتدّ ذلك على الحنابلة وكانوا كثيرين ببغداد فشنعوا عليه. وقد ولد سنة ٢٢٤هـ سنة ٨٤٠م وتوفي سنة ٩٢٣م هذا ما ذكره أبو الفداء في تاريخ سنة ٣١٠هـ (جزء ٢ صفحة ٧٦). والذي ذكره ابن خلكان في ترجمته أنّه توفي سنة ٣٥٠هـ سنة ٩٦٢م ولا بدّ من غلط في الطبع فقد ذكر عامتهم وفاته سنة ٣١٠هـ وذكرها المؤرخون النصارى سنة ٩٢١م أو سنة ٩٢٢م وقد ترجم تاريخه إلى الافرنسية العالم دوبا Dupeux سنة ١٨٣٦م.

أبو بكر الرازي

هو أبو بكر محمّد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور والرازي منسوب إلى الراز وهي راجس المذكورة في سفر طوبيا. وذكر ابن جلجل في تاريخ الأطباء أنّه دبر مارستان الري ثمّ مارستان بغداد في أيام المكتفي ومن أخباره أنَّه كان في شبيبته يضرب بالعود ويغني فلما التحى وجهه قال غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها فأدرك كنهها واعتقد الصحيح منها وعلل السقيم وألف في الطب كتباً كثيرة، وكان أمام عصره في علم الطب فله كتاب «الحاوي» في مقدار ثلاثين مجلداً، وكتاب «الجامع» وهو أيضاً من الكتب الكبار وكتاب «الأقطاب» وكتاب موجز صنفه للمنصور بن نوح الساماني وسماه «المنصوري»، وهو على صغره كبير المنفعة ويحتاج إليه كل أحد. ومن كلامه مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب، وإذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة. وعالج في أوّل العلة بما لا تسقط به القوة. وقد توفي الرازي سنة ٣١١هـ سنة ٩٢٤م وقد ترجم كثير من كتبه إلى اللاتينية ومنها كتابه الحاوي. وقد طبعت هذه الترجمة في براشيا سنة ١٤٨٦م وكتابه إلى المنصور ينطوي على عشرة أسفار وقد طبعت ترجمته اللاتينية في البندقية سنة ١٥١٠م. وهذه الكتب كدائرة طبية وكان يعتمد عليها حيناً طويلاً لتعليم الطب حتى في أوروبا، وله مقالة مشبعة في الجدري ترجمها العالم «فلّل» إلى اللاتينية. وطبعت هذه الترجمة في بلاذنس سنة ١٤٩٨م ثمّ ترجمها كولين إلى الافرنسية وطبعت ترجمته في بواتيا سنة ١٥٥٦م، ولها ترجمة أخرى افرنسية وضعها بوله Poulet سنة ١٧٦٨م (بوليا معجم التاريخ والجغرافية).

أبو نصر الفارابي

هو محمّد بن طرخان الفارابي وكان رجلاً تركياً ولد بفاراب احدى مدن الأتراك العظام وقالوا تسمى اليوم أطرار وسافر من بلده إلى بغداد وهو يعرف اللغة التركية وعدة لغات، وتعلم ببغداد اللغة العربية وأتقنها غاية الاتقان ثمّ اشتغل بعلوم

الحكمة (الفلسفة) على أبي بشر متى بن يونس الحكيم المشهور في علم المنطق، ثمَّ ارتحل إلى مدينة حاران واشتغل بها على أبي الحيا الحكيم النصراني (كذا سماه أبو الفداء، وسماه ابن الأثير يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني) ثمَّ قفل إلى بغداد وأتقن علم الفلسفة وشرح كتب أرسطو وأتقن علم الموسيقى. وألف ببغداد معظم تصانيفه ثمَّ سافر إلى دمشق ولم يقم بها بل سافر إلى مصر ثمَّ عاد إلى دمشق وأقام بها في أيام سيف الدولة بن حمدان وأحسن إليه. وحضر يوماً عند سيف الدولة بدمشق بحضرة فضلائها فما زال كلام الفارابي يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وأخذوا يكتبون ما يقوله. وكان الفارابي يحب العزلة وقلَّما يجالس الناس وكان في مدة مقامه بدمشق لا يكون إلَّا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض وكان ازهد الناس في الدنيا، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم أربعة دراهم فاقتصر عليها ولم يزل مقيماً بدمشق إلى أن توفي سنة ٣٣٩هـ سنة ٩٥١م. وقد ناهز ثمانين سنة من عمره ودفن خارج الباب الصغير وقد قال فيه صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن القرطبي الأندلسي إنَّه فيلسوف المسلمين بالحقيقة وأنَّه قيَّد جميع أهل الاسلام وأربى عليهم في التحقيق وجاءت كتبه في الفلسفة الغاية الكافية والنهاية الفاضلة وله كتاب شريف في «احصاء العلوم» والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به. انتهى كلام ابن صاعد منقولاً عن ابن الأثير وله كتاب موسوم «بالسياسة المدنية» ابتدأ بتأليفه في بغداد وأكمله في مصر وقيل في حقه في معجم التاريخ الجغرافي لبوليا ما ملخَّصه (كان ضليعاً في علوم عصره جميعها وسمي مهذب العقول الثاني، والأوَّل هو أرسطو. وفصاحة كلامه ومخبرته في صناعة الموسيقى وشعره الجيد نولته منزلة رفيعة عند أمير سورية (سيف الدولة). وروى بعضهم أنَّ سيف الدولة أراد أن يستعمله في دولته فأبى وارتحل فاغتاله بعض اللصوص في طريقه. وروى بعضهم أنَّه صرف أكثر سني حياته عند صاحب سورية يجري عليه النفقات وكان الفارابي أوَّل من تعمَّق بدرس كتب أرسطو وفسَّرها وبثَّها بين العرب وأشهر تآليفه: دائرة علمية جمعت كثيراً من العلوم والفنون وهي في مكتبة الأسكوريال بمدريد مخطوطة، ومقالة في الموسيقى وقد طبعت كتبه في موضوعات مختلفة في باريس سنة ١٦٣٨م مترجمة إلى اللاتينية. وأكثر مؤلفاته أتلفها حدثان الدهر ولبعضها ترجمات عبرانية وكان الفارابي استاذ ابن سينا» انتهى.

المسعودي

لم يذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» وأثبته الصلاح الكتبي في «فوات الوفيات» (جزء ٢ صفحة ٥٧) فقال: «هو ابن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ من ذرية عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. قال الشيخ شمس الدين عداده في البغداديين وأقام بمصر مدة وكان اخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر مات سنة ٣٤٦هـ (٩٥٨م) وله من التصانيف كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في تحف الأشراف والملوك. وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وكتاب الرسائل والاستذكار بما مرَّ في سالف الأعصار وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب «التنبيه والأشراف» وكتاب «خزائن الملوك وسر العالمين». وكتاب «المقالات في أصول الديانات» وكتاب «أخبار الزمان ومن اباده الحدثان». وكتاب «البيان في أسماء الأئمه» وكتاب «الخوارج والله أعلم». وقد ترجم بعض كتبه إلى الافرنسية وقد استشهد كتابه التنبيه والأشراف الأب نو الافرنسي في كتابه الموسوم بكراسات مارونية لذكر قيس الماروني عن ترجمة كارا دي فو صفحة ٢١٢.

العبادي الطبيب

هو أبو يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق العباديٍ الطبيب المشهور وقد مرَّ ذكر أبيه في تاريخ القرن التاسع وكان نصرانياً نسطورياً أوْجَه عصره في علم الطب وكان يلحق بأبيه في النقل وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها، وكان يعرب كتب الحكمة التي بلغة اليونان إلى اللغة العربية كما كان ينقل أبوه. وقد عرب من كتب الفلسفة لأرسطو وغيره أكثر مما عربه من كتب الطب، وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء من خدم أبوه ثم انقطع إلى القاسم وزير الامام المعتضد بالله واختصَّ به حتى كان الوزير المذكور يطلعه على أسراره ويفضي إليه بما يكتمه عن غيره. وله ولأبيه المصنفات المفيدة في الطب وتوفي سنة ٢٩٩هـ سنة ٩١١م أو سنة ٩١٢م (ملخّص عن ابن خلكان في وفيات الأعيان وعن أبي الفداء إلّا ما ذكرناه عن فوات الوفيات).

عد ٧٨٦
بعض المشاهير في الخطابة والانشاء

ابن نباتة الخطيب

هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمَّد بن اسمعيل بن نباتة الحذاقي الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان اماماً في علوم الأدب ورزق السعادة في خطبه التي أجمعوا على أنَّه ما عمل مثلها وكان من أهل ميافارقين وكان خطيب حلب وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة، وقالوا إنَّه سمع عليه بعض ديوانه وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه وعلى نصرة سيف الدولة. ومن احدى خطبه المعروفة بالمنامية لأنَّه ألقاها بعد منام قوله في الموتى: «كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ولم يعدوا في الأحياء مرة أسكتهم الله الذي أنطقهم وأبادهم الذي خلقهم وسيجدهم كما خلقهم ويجمعهم كما فرقهم يومٍ يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً». قال ابن خلكان لم أرَ أحداً من المؤرخين ذكر تاريخه في المولد والوفاة سوى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه فانَّه قال ولد سنة ٣٣٥هـ (سنة ٩٤٧م) وتوفي سنة ٣٧٤هـ (سنة ٩٨٥م) بميافارقين فيكون مات وعمره ٣٨ سنة شمسية.

وابن نباتة هذا غير ابن نباتة الشاعر الذي هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمَّد بن نباتة إلى مر التيمي السعدي وكان شاعراً مجيداً جمع بين حسن السبك وجودة المعاني طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء وله في سيف الدولة بن حمدان غرر القصائد ونخب المدائح منها قوله في قصيدة له:

قد جدت لي باللهى حتى ضجرت بها وكدت من ضجري اثني على البخلِ
إن كنت ترغب عن أخذ النوال لنا فاخلق لنا رغبة أو لا فلا ننلِ
لم يُبق جودك لي شيئاً أومله تركتني أصحب الدنيا بلا أملِ

وله ديوان كبير. وقد ولد هذا الشاعر سنة ٣٢٧هـ سنة ٩٣٩م وتوفي سنة ٤٠٥هـ سنة ١٠١٥م ببغداد.

بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة وعلى منواله نسج الحريري مقاماته واحتذى حذوه واقتفى في خطبته بفضله وانَّه هو الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج وله الرسائل البديعة والنظم المليح فمن قوله في رسالة الماء إذا طال مكثه ظهر خبثه وإذا سكن متنه ظهر نتنه وكذلك الضيف يسمج لقاه إذا طال مثواه ويثقل ظله إذا انتهى محله. وفي رسالة أخرى حضرته التي هي كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ومشعر الكرم لا مشعر الحرم ومنى الضيف لا منى الخيف وقبلة الصِلات لا قبلة الصَلاة. وله في تعزية بموت خطب قد عظم حتى هان ومسّ خشن حتى لان والدنيا قد تنكّرت حتى صار الموت أخف خطوبها وجنت حتى صار أصغر ذنوبها فانظر يمنة هل ترى إلّا محنة ثمّ انظر يسرة هل ترى إلّا حسرة ومن شعره من جملة قصيدة طويلة:

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت ... والليث لو لم يُصد والبحر لو عُذبا

وسكن هراة من بلاد خراسان وله كل معنى مليح حسن من نظم ونثر، أمَّا ما يحكى عنه من أنَّه نطق ببعض قصائده ارتجالاً أو ارتجل ببعض مقاماته أو خطبه البديعة فهو غلو في مدحه ومغالاة في وصف توقد ذكائه فلا يصدقه عاقل. وكانت وفاته سنة ٣٩٨هـ ١٠٠٨م فقيل مات مسموماً وقيل مات من السكتة (ملخَّص عن وفيات الأعيان لابن خلكان وعن تاريخ أبي الفداء).

عد ٧٨٧

بعض المشاهير في اللغة والشعر

ابن سهل

هو أبو بكر محمَّد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج كان أحد أئمة المشاهير أخذ العلم عن أبي العباس المبرد وأخذ عنه النحو جماعة منهم

أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني وغيرهما. ونقل عنه الجوهري في الصحاح في مواضع عديدة وله عدة مصنفات مشهورة. وكان مع كمال فضائله يلثغ في الراء يجعلها غيناً فاملأ كلاماً يوماً بالراء فكتبوه بالغين فقال لا بالغين بل بالفاء وجعل يكررها . والسّراج نسبة إلى عمل السروج وكانت وفاته سنة ٣١٠ وقيل سنة ٣١٥هـ سنة ٩٢٣ أو سنة ٩٢٨م (عن أبي الفداء في تاريخ سنة ٣١٠) وذكر ابن خلكان أنَّ له كتاب «الأصول» وهو أجود الكتب المصنفة في هذا الشأن وإليه المرجع عند الاختلاف في النقل وكتاب «جمل الأصول» وكتاب «الاشتقاق» وكتاب «الشعر والشعراء» وكتاب «الرياح والهواء والنار» وغيرها) .

ابن دريد

هو أبو بكر محمَّد بن الحسن بن دريد وأوصلوا نسبه إلى يشجب بن يعرب ابن قحطان والله يعلم صحة مثل هذه الأنساب. وكان ابن دريد امام عصره في اللغة والأدب والشعر. قال المسعودي في كتاب مروج الذهب في حقه كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين وكان يذهب في الشعر كل مذهب وشعره أكثر من أن نحصيه فمن جيد شعره قصيدته المقصورة التي مدح بها الشاه بن ميكال وولديه عبدالله واسمعيل ويقال إنَّه أحاط بها بأكثر القصور وأوَّلها :

أما ترى رأسي حاكى لونه   طرة صبح تحت أذيال الدجى

واشتعل المبيض في مسوَّده   مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ثمَّ قال المسعودي وقد عارضه في هذه القصيدة جماعة من الشعراء منهم أبو القاسم علي بن محمَّد الأنطاكي التنوخي . وشرح هذه القصيدة كثيرون من المتقدمين والمتأخرين ولابن دريد من التصانيف المشهورة كتاب «الجمهرة» وهو من الكتب المعتبرة في اللغة وكتاب الاشتقاق وكتاب «الانواء» وكتاب «المقتبس» وكتاب «الملاحن» وكتاب «زوار العرب» وكتاب «اللغات المجتنى إلى غيرها من الكتب». وله نظم رائق جداً وكان من تقدَّم من العلماء يقول: ابن دريد اعلم الشعراء وأشعر العلماء ومن مليح شعره قوله :

غراء لو جلت الخدود شعاعها ... للشمس عند طلوعها لم تشرقِ
غصن على دعص تأود فوقه ... قمر تألق تحت ليل مطبقِ
لو قيل للحسن احتكم لم يعدُها ... أو قيل خاطب غيرها لم ينطقِ
فكأننا من فرعها في مغربٍ ... وكأننا من وجهها في مشرقِ
تبدو فيهتف بالعون ضياؤها ... الويل حل بمقلة لم تطبقِ

قال ابن خلكان ولولا خوف الاطالة لذكرت كثيراً من شعره وكانت ولادته بالبصرة سنة ٢٢٣هـ سنة ٨٣٩م ونشأ بها وتعلَّم فيها ثمَّ انتقل إلى عمان وأقام بها اثنتي عشرة سنة ثمَّ عاد إلى البصرة وسكنها زماناً ثمَّ خرج إلى نواحي فارس وصحب ابني ميكال. ثمَّ انتقل إلى بغداد فأجرى المقتدر عليه خمسين ديناراً في الشهر إلى أن توفي ببغداد سنة ٣٢١هـ سنة ٩٣٤م. فان صح ذلك كان عمره خمساً وتسعين سنة شمسية والله أعلم ورثاه خجطه البرمكي بقوله:

فقدتُ يا ابن دريد كل فائدة ... لما غدا ثالث الأحجار والتربِ
وكنت أبكي لفقد الجود منفرداً ... فصرت أبكي لفقد الجود والأدبِ

(انتهى ملخصاً عن وفيات الأعيان لابن خلكان وعن أبي الفداء وغيرهما)

النحاس النحوي

هو أبو جعفر أحمد بن محمَّد اسمعيل بن يونس المرادي النحاس النحوي المصري وكان من الفضلاء وله تصانيف مفيدة منها تفسير القرآن وكتاب اعرابه وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو اسمه التفاحة وكتاب في الاشتقاق وتفسير أبيات سيبويه ولم يسبق إلى مثله وكتاب الكتاب (أي كتاب سيبويه) وكتاب الكافي في النحو وكتاب المعاني وفسَّر عشر دواوين وأملاها وكتاب الوقف والابتداء صغير وكبير وكتاب في شرح المعلقات السبع وكتاب طبقات الشعراء وغير ذلك. وأخذ النحو عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش وأبي اسحق الزجاج وابن الأنباري ونفطويه وقد رحل من مصر إلى العراق وكانت فيه خساسة وتقتير على نفسه ومع هذا فكان للناس رغبة كثيرة في الأخذ عنه، فنفع وأفاد

وأخذ عنه خلق كثير وتوفي بمصر سنة ٣٣٨هـ وقيل سنة ٣٣٧هـ سنة ٩٥٠م أو سنة ٩٤٩م وكان سبب وفاته أنّه جلس على درج المقياس على شاطئ النيل في أيام زيادته وهو يقطّع بالعروض شيئاً من الشعر فقال بعض العوام هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلى الأسعار فدفعه برجله في النيل فلم يوقف له على خبر.

أبو الطيِّب المتنبِّي

هو أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار وهو من أهل الكوفة، وقدم الشام في صباه وقيل إنَّ أباه انتقل إلى الشام بولده ونشأ ولده بالشام واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلّعين على غريبها وحواشيها ولا يسأل عن شيء إلّا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، وأمّا شعره فهو النهاية ولا حاجة إلى ذكر شيء منه لشهرته. والنّاس في شعره على طبقات فمنهم من يرجح أبا تمام عليه ومنهم من يرجحه على أبي تمام. قال النامي الشاعر الآتي ذكره كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته إلى معنيين أحدهما قوله:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصالِ

والآخر قوله:

في جحفل ستر العيون غباره ... فكأنما يبصرن بالآذانِ

واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه وقال بعضهم إنَّه وقف له على أكثر من أربعين شرحاً بين مطولات ومختصرات (ومنهم وطنينا المجيد المرحوم الشيخ نصيف اليازجي). وإنّما قيل له المتنبي لأنّه ادّعى في صبائه النبوة وتبعه خلق كثير من بني كليب وغيرهم فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية المار ذكره فأسره وتفرّق أصحابه وحبسه طويلاً ثمّ استتابه وأطلقه وقيل غير ذلك وما ذكرناه أصح. فالتحق المتنبي بالأمير سيف الدولة صاحب حلب سنة ٣٣٧هـ سنة ٩٤٩م ثمّ فارقه

ودخل مصر سنة ٣٤٦هـ سنة ٩٥٨م ومدح كافور الأخشيدي المار ذكره، ولما لم يرض فارقه سنة ٣٥٠هـ سنة ٩٦٢م، ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم يلحق، وقصد المتنبي بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي واجزل جائزته، ولما عاد من عنده قاصداً بغداد والكوفة عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدة من أصحابه وكان مع المتنبي جماعة من أصحابه فقاتلوهم وقتل المتنبي وابنه مُحسَّد وغلامه مفلح. وذكر ابن رشيق في كتاب العمدة في باب منافع الشعر ومضاره أنَّ المتنبي لما رأى الغلبة فرّ فقال له غلامه لا تتحدَّث الناس عنك بالفرار أبداً وأنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

فكر راجعاً حتى قتل وكان قتله سنة ٣٥٤هـ سنة ٩٦٦م وقيل إنَّ مولده كان بالكوفة سنة ٣٠٣هـ سنة ٩١٦م وقيل إنَّ أباه كان سقاء بالكوفة ثمَّ انتقل إلى الشام بولده ونشأ ولده بالشام وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي

أي فضل لشاعر يطلب الفضـ   لَ من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما   ءَ وحيناً يبيع ماءَ المحيا

وقد رثى أبو قاسم المظفر المتنبي بقوله:

لا رعى الله سرب هذا الزمانِ   إذ دهانا في مثل ذاك اللسانِ
ما رأى الناس ثاني المتنبي   أي ثانٍ يرى لبكر الزمانِ
هو في شعره نبيٌّ ولكن   ظهرت معجزاته بالمعاني

النامي الشاعر

هو أبو العباس أحمد بن محمَّد المصيصي المعروف بالنامي الشاعر المشهور كان من فحول شعراء عصره وخواص مداح سيف الدولة بن حمدان وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة وكان أديباً فاضلاً عارفاً باللغة والأدب وروى عنه أبو القاسم الحسين بن علي الحلبي وأخوه أبو الحسين أحمد وغيرهم ومن محاسن شعره

في سيف الدولة :

أمير العلى ان العوالي كواسب　　علاك في الدنيا وفي جنة الخلدِ
يمر عليك الحول سيفك في الطُّلى　　وطرفك ما بين الشكيمة والبلدِ
ويمضي عليك الدهر فعلك للعلى　　وقولك للتقوى وكفك للفردِ

وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد. وحكى أبو الخطاب بن عون الحريري أنَّه دخل على النامي فوجده جالساً ورأسه كالنعامة بياضاً وفيه شعرة واحدة سوداء فذكرها له فقال نعم هي بقية شبابي ولي فيها شعر هو:

رأيت في الرأس شعرة بقيت　　سودا تهوى العيون رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروعها　　بالله الا رحمتِ غربتها
وقلَّ لبث السواد في وطن　　تكون فيه البيضاء ضرتها

وقال بيضاء واحدة تروع ألف سوداءَ فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء ومن شعره :

أتاني في قميص اللاد يسعى　　عدوّ لي يلقب بالحبيبِ
وقد عبث الشراب بمقلتيه　　فصير خده كسنا اللهيبِ
فقلت له بما استحسنت هذا　　لقد أقبلت في زي عجيبِ
احمرة وجنتيك كستك هذا　　أم أنت صبغت دم القلوبِ
فقال الراح اهدت لي قميصاً　　قريب اللون من شفق الغروبِ
فثوبي والمدام ولون خدي　　قريب من قريبٍ من قريبِ

وتوفي النامي بحلب سنة ٣٩٩هـ وقيل سنة ٣٧٠ أو سنة ٣٧١هـ أي سنة ١٠٠٩ أو سنة ٩٨١ أو سنة ٩٨٢م.

الجرجاني

هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي كان فقيهاً

أديباً شاعراً ذكره الشيخ أبو اسحق الشيرازى في كتاب طبقات الفقهاء وقال له ديوان شعر وهو القائل:

يقولون لي فبك انقباض وإنَّما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

وهي أبيات طويلة مشهورة وذكره الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر فقال هو فرد الزمان وانسان حدقة العلم وقبة تاج الأدب وفارس عسكر الشعر مجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري وقد طاف بلاد العراق والشام وغيرهما واقتبس أنواع العلوم والآداب علماً. وله من أبيات قوله:

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أنَّ الخضوع هو الفقرُ
وبيني وبين المال شيئان حرما عليَّ الغنى نفسي الابيةُ والدهرُ
إذا قيل هذا اليسرُ أبصرت دونه مواقف خير من وقوفي بها العسرُ

وله أيضاً:

وقالوا اضطرب في الأرض والرزق واسعٌ قلت ولكن موضع الرزق ضيِّقٌ
وإذا لم يكن في الأرض حرٌّ يعينني أو لم يكن كسب فمن أين لي رزقُ

وشعره كثير وطريقته فيه سهلة وله كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه أبان فيه عن فضل غزير واطلاع كثير ومادة متوفرة وقد توفي سنة ٣٦٦هـ سنة ٩٧٧م.

الأزهري

هو أبو منصور محمَّد بن أحمد الأزهر الهراوي الامام المشهور في اللغة وكان فقيهاً شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها وقد أجمعوا على الاقرار بفضله ودرايته وورعه ودخل بغداد وأدرك بها أبا بكر بن دريد ولم يروِ عنه شيئاً وكان قد رحل وطاف في أرض العرب في طلب اللغة. وحكى بعض الأُفاضل أنَّه رأى بخطه أنَّه أسر ووقع في نصيب عرب نشأوا في البادية وأنَّه بقي في أسرهم دهراً طويلاً واستفاد من مجاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة أوقع أكثرها في كتابه الموسوم بالتهذيب وهو من الكتب المختارة وفي أكثر من عشر مجلدات. وله تصنيف في غريب الألفاظ التي يستعملها الفقهاء في مجلَّد واحد

وهو عمدة الفقهاء في تفسير ما يشكل عليهم من اللغة المتعلقة بالفقه وكتاب «التفسير» وتوفي بمدينة هراة سنة ٣٧٠ وقيل سنة ٣٧١هـ أي سنة ٩٨١ أو سنة ٩٨٢م ونسبته الازهري إلى جده الأزهر كما رأيت ونسبته الهراوى إلى مدينة هراة .

السيرافي النحوي

هو أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي النحوي المعروف بالقاضي سكن بغداد وتولى القضاء نيابة عن أبي محمّد بن معروف وكان من أعلم الناس بنحو البصريين وشرح كتاب سيبويه وأجاد فيه وله كتاب «ألفات الوصل والقطع» وكتاب «الوقف والابتداء» وكتاب «صنعة الشعر والبلاغة» و«شرح مقصورة ابن دريد»، وقرأ اللغة على ابن دريد والنحو على أبي بكر بن السرّاج المار ذكره وكان الناس يشتغلون عليه فنون القرآن والقراءات والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي وكان نزيهاً عفيفاً حسن الأخلاق وكان معتزلياً ولم يظهر منه شيئاً وكان لا يأكل إلّا من كسب يده ينسخ ويأكل بأجرة نسخه وكان أبوه مجوسياً اسمه بهزاز فاسلم وسماه ابنه عبدالله وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه :

اسكن إلى سكن تسر به ذهب الزمان وأنت منفردُ
ترجو غداً وغد كحاملةٍ في الحي لا يدرون ما تلدُ

وكانت بينه وبين أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني ما جرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس فقال فيه أبو الفرج :

لست صدراً ولا قرأت على صدر ولا علمك البكي بشافِ
لعن الله كل نحوٍ وشعرٍ وعروض تجيء من سيرافِ

وتوفي سنة ٣٦٨هـ سنة ٩٧٩م والسيرافي نسبة إلى سيراف وهي بلدة من بلاد فارس وقال فيه ابنه أبو محمّد يوسف أصل أبي من سيراف وبها ولد وبها ابتدأ

يطلب العلم وخرج منها قبل العشرين ومضى إلى عمان وتفقه بها ثمَّ عاد إلى سيراف ومضى إلى عسكر مكرم (اسم محل) وأقام عند أبي محمَّد بن عمر المتكلِّم وكان يفضله على جميع أصحابه ودخل بغداد وخلف القاضي أبا محمَّد معروف.

أبو علي الفارسي

هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي ولد بمدينة فسا من أعمال فارس واشتغل ببغداد وكان امام وقته في علم النحو وجاب البلاد وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان وكان قدومه عليه سنة ٣٤١هـ ٩٥٣م وجرت بينه وبين أبي الطيب المتنبي مجالس ثمَّ انتقل إلى بلاد فارس وصحب عضد الدولة ابن بويه وعلت منزلته عنده حتى قال عضد الدولة أنا غلام أبي علي الفسوي (هو الفارسي ونسبه إلى بلاده) في النحو وصنف له كتاب الايضاح والتكملة في النحو. ويحكى أنَّ عضد الدولة قال له يوماً لِمَ انتصب المستثنى في قولنا قام القوم إلَّا زيداً فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره استثنى زيداً فقال عضد الدولة هلَّا رفعته وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع الشيخ وقال هذا الجواب ميداني، ثمَّ عاد إلى منزله ووضع في ذلك كلاماً حسناً وحمله إلى عضد الدولة فاستحسنه. وقال في كتابه الإيضاح إنَّ زيداً من القول المذكور انتصب بالفعل المتقدم بتقوية الا. وحكى القاسم بن أحمد الأندلسي قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي فقال إني لاغبطكم على قول الشعر فإنَّ خاطري لا يوافقني على قول مع تحقيقي العلوم التي هي مواده فقال رجل فما قلت شيئاً منه فقال لا أعلم أنَّ لي شعراً إلَّا ثلاثة أبيات في الشيب وهي:

خضبت الشيب لما كان عيباً ... وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خلّ ... ولا عيباً خشيت ولا عقابا
ولكن المشيب بدا ذميماً ... فصيرت الخضاب له عقابا

ومن تصانيفه كتاب «التذكرة» وهو كبير وكتاب «المقصور والممدود». وكتاب «الحجة في القراءات» وكتاب «الاغفال في ما أغفله الزجاج من المعاني»

وكتاب «العوامل المائة» وكتاب «المسائل الحلبيات» وكتاب «المسائل البغداديات» وكتاب «المسائل الشيرازيات» وكتاب «المسائل العنصريات» وكتاب «المسائل العسكرية» وكتاب «المسائل البصرية» وكتاب «المسائل المجلسيات» وغير ذلك.
وقال ابن خلكان إنَّه سمع في منامه ثلاثة أبيات لأبي علي الفارسي علق منها على خاطره البيت الأخير وهو:

الناس في الخير لا يرضون من أحدٍ فكيف ظنك يسمو الشر أو ساموا

وتوفي سنة ٣٧٧هـ سنة ٩٨٨م.

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن العاشر

الفصل الأوَّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم وأساقفة سورية في هذا القرن

عد ٧٨٨

بطاركة أنطاكية في القرن العاشر

فرغنا من الكلام في هؤلاء البطاركة في القرن التاسع بذكر سمعان الأوَّل الذي توفي سنة ٩٠٣م فخلفه بعد وفاته إيليا الثاني ذكره سعيد بن البطريق وقال إنَّه استوى على الكرسي البطريركي سنة ٩٠٣م وأنَّه كان عالماً وله تصانيف وأنَّه استمرَّ في البطريركية ثماني وعشرين سنة وتابعه على ذلك ادوار برنردس وروى

العلامة السمعاني (في مجلَّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٤٠) إنَّ إيليا هذا أرسل يوحنا جاثليق الروم إلى بغداد فالجئ إلى الخروج منها لأنَّ ابراهيم جاثليق النساطرة نال أمراً أبرزه الخليفة بأن لا يكون في بغداد كرسي لمتروبوليت الروم بل إذا أرسل البطريرك الأنطاكي أسقفاً لزيارة الروم في بغداد وتعاطى أشغاله فيلزمه أن يعود بعد نهاية أشغاله إلى بلده، وقد توفي إيليا سنة ٩٣١ لقوله إنَّه صُيِّر بطريركاً سنة ٩٠٣م وأنَّه استمرَّ في البطريركية ٢٨ سنة. ولم يكن بطريرك في كرسي أنطاكية بعد وفاة إيليا مدة أربع سنين على ما روى ادوار برنردس ومدة سبع سنين على ما في تاريخ ابن البطريق.

وخلف توادوسيوس الثاني إيليا المذكور ذكره ابن البطريق وقال صير بطريركاً على أنطاكية سنة ٩٣٦ وكان اسمه أولاً أسطفانس وكان حياً سنة ٩٣٧ حين فرغ ابن البطريق من تدوين تاريخه. قال لكويان ذكرت حتى الآن عداد بطاركة أنطاكية خلفاً عن سلف وقد جمعت أسماء من سيأتي ذكرهم من كتب مؤلفين كثيرين وحال دون معرفة كثيرين منهم حدثان الدهر أو أسباب أخرى، وخلف توادوسيوس المذكور توادوريطس الثاني ثمَّ أغابيوس الأوَّل فهذا ما يظهر من جدول بطاركة أنطاكية المحفوظ في الواتيكان ولم نستفد منه إلَّا العلم باسميهما ولم يتحفنا بذكر شيء من أعمالهما.

وقد علمنا أنَّ كريستوفر كان بطريركاً على أنطاكية قبل أن حمل نيقوفور فوقا ملك الروم على أنطاكية سنة ٩٥٨ أو سنة ٩٦٩ سنداً إلى ما رواه لاون الشماس (ك ٦ عد ٦) من أنَّ نيقوفور أخذ أنطاكية ولم يكن فيها بطريرك لأنَّ كريستوفر البطريرك الذي كان فيها كان الوالي قد قتله ولبثت أنطاكية بعد مقتله مترملة مدة ما. وقد جاء في الصلوات المعروفة بالارثوذكسيات التي يتلوها الروم في كنائسهم ما نصّه: «إنَّه ليستحق الذكر المؤبد كريستوفر وتوادور وخلفاؤهما العشرة أي كريستوفر وتوادور وأغابيوس ويوحنا ونيقولاوس وإيليا وتوادور (الآخر) وباسيليوس وبطرس وتوادوسيوس ونيقوفور ويوحنا (الآخر)» ولكن أنبأنا نيقوفور المؤرخ (ك ١٤ فصل ٣٩) إنَّ الملك نيقوفور فوقا اعتنى بترقية اسطراتيوس إلى بطريركية أنطاكية. وقد جاء ذكر اسطراتيوس هذا في كتاب الناموس اليوناني الروماني فظهر أنَّه كان بطريركاً أنطاكياً وإن لم يرد ذكره في الارثوذكسيات المذكورة وكان بعد ذلك بطريركاً على أنطاكية توادور الثاني وهو المذكور في الارثوذكسيات بعد كريستوفر

فقد روى لاون الشماس في المحل المذكور أنَّ يوحنا سمسق لما استتب الملك وبلغه أن جيش الرومانيين افتتح أنطاكية ولا بطرك فيها اهتمَّ بأن يقام توادور بطريركاً على أنطاكية وكان ناسكاً ورعاً. وكان حينئذٍ في قسطنطينية فأخذه الملك يوحنا إلى بولياكتوس البطريرك القسطنطيني فرقاه إلى بطريركية أنطاكية وصير بعد توادور بطريركاً أغابيوس الثاني وهو المذكور في الارثوذكسيات بعد توادور. وروى جيورجيوس بن العميد أنَّه كان أسقفاً على حلب فنقل إلى بطريركية أنطاكية ثمَّ نفي وأمر أن يقيم بقسطنطينية بعد أن دبر كنيسة أنطاكية اثنتي عشرة سنة، وبقي بطريركاً في منفاه سبع سنين وخلفه يوحنا الثالث وهو المذكور في الأرثوذكسيات بعد أغابيوس. وقد ذكره بطرس البطريرك الأنطاكي أحد خلفائه في رسالة إلى ميخائيل شيرلاريوس البطريرك القسطنطيني ويظهر من ذلك أنَّه كان في أيام البابا يوحنا الثامن عشر في أوائل القرن الحادي عشر وجاء في المجلَّد الأوَّل من كتاب آثار الكنيسة الرومية أنَّ يوحنا الثالث كان في أيام سيسين البطريرك القسطنطيني وهذا كان بطريركاً بقسطنطينية من سنة ٩٩٥ إلى سنة ٩٩٩.

وصير بعد يوحنا الثالث نيقولاوس الثاني على ما في الأرثوذكسيات المذكور ولكن قال من اعتنوا بطبع تراجم القديسين إنَّ العلَّامة يوسف سمعان السمعاني كتب إليهم أنَّ في جداوله العربية لبطاركة أنطاكية إنَّ الذي خلف يوحنا الثالث إنَّما هو إيليا ولا ذكر فيها لنيقولاوس. وكذلك جاء في الجدول الواتيكاني لهؤلاء البطاركة أي أنَّ إيليا خلف يوحنا ولا ذكر لنيقولاوس. فرجَّح أنَّ إيليا خلف يوحنا وإيليا هو الوارد ذكره في الأرثوذكسيات. ومع هذا الخلاف في إقامة هؤلاء البطاركة لا عجب من أننا لم نظفر بمعرفة تاريخ سني ترقيتهم ووفاتهم (انتهى ملخصاً عن الشرق المسيحي للكويان في كلامه على بطاركة أنطاكية).

عد ٧٨٩

بطاركة أورشليم في القرن العاشر

آخر ما ذكرناه في تاريخ بطاركة أورشليم في القرن التاسع وفاة إيليا الثالث بطريركها سنة ٩٠٧، وقد خلفه سرجيوس الثاني لأنَّه قيل في الجداول اللاتينية إنَّ سرجيوس خلف إيليا الثالث وسماه ابن البطريق جيورجيوس، وقال فيه إنَّه صير

بطريركاً في السنة السادسة لخلافة المكتفي بالله واستمرَّ في البطريركية أربع سنين وستة أشهر. وقال ابن العميد (في ك ٢ من تاريخ المسلمين فصل ١٨) إنَّ المكتفي بويع بالخلافة يوم وفاة أبيه المعتضد بالله في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ وذلك يوافق اليوم الرابع أو الخامس من نيسان سنة ٩٠٢م لأنَّ بدء تلك السنة الهجرية كان في ١٥ كانون الأوَّل سنة ٩٠١ ولما كان ابن البطريق قال إنَّه صير بطريركاً في السنة السادسة لخلافة المكتفي كان الناتج أنَّه رقي إلى البطريركية سنة ٩٠٧ قبل الخامس من نيسان سنة ٩٠٨. ثمَّ قال في خليفته لاون الآتي ذكره إنَّه صير بطريركاً في السنة الثالثة لخلافة المقتدر كما سيجيء. والمقتدر بويع بالخلافة في ١٣ من ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ وذلك يوافق ١٢ آب سنة ٩٠٨م ولذلك تعقَّب لكويان ابن البطريق فقال لا أفهم كيف استمرَّ سرجيوس ستة أشهر بعد السنين الأربع التي لا تكمل إلَّا في ٥ نيسان سنة ٩١١، وعليه فيلزم أن يكون سرجيوس توفي في تشرين الأوَّل لتكملة الستة الأشهر وكان يلزمه على ذلك أن يقول إنَّ خليفته صير بطريركاً في السنة الرابعة للمقتدر لا في السنة الثالثة لأنَّه بويع بالخلافة في ١٢ آب سنة ٩٠٨ على أنَّ هذا غلط بأشهر فلا يعبأ به ولا يعجب منه في كلام ابن البطريق الذي اعتاد الغلط بمئتين من السنين. وخلف لاونتيوس سرجيوس وسماه ابن البطريق لاون وقال فيه إنَّه صير بطريركاً للسنة الثالثة من خلافة المقتدر ابن المكتفي كما مرَّ واستمرَّ في البطريركية سبع عشرة سنة. والذي أجمع عليه المؤرخون أنَّ المقتدر إنَّما هو أخو المكتفي لا ابنه قال ابن العميد (في كتابه المذكور فصل ١٩) إنَّ جعفر أبا الفضل المقتدر بالله ابن المعتضد بويع بالخلافة يوم وفاة أخيه المكتفي في الثالثة عشرة من ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ يوافق ذلك ١٢ من آب سنة ٩٠٨م. وقال أبو الفداء في تاريخه (جزء ٢ صفحة ٦٥): «في هذه السنة أي سنة ٢٩٥) لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة توفي المكتفي بالله أبو محمَّد علي بن المعتضد بالله». وقال بعد ذلك: «ذكر خلافة المقتدر بالله أبي جعفر بن المعتضد بالله» فتصحف على ابن البطريق الأخ بالأب وان صدقنا مع ذلك قوله إنَّه لبث في البطريركية سبع عشرة سنة وقد رقي سنة ٩١٦ فتكون وفاته سنة ٩٢٧ أو سنة ٩٢٨.

وجاء في الجداول اللاتينية لبطاركة أورشليم أنَّ أنسطاس خلف لاونتيوس المسمى لاون أيضاً ولا ذكر لأنسطاس في تاريخ ابن البطريق. وجاء في جدول دوزيتاوس البطريرك الذي خلف لاون إنَّما هو نيقولاوس الأوَّل ولا ذكر لنيقولاوس

في الجداول اللاتينية وأجمعوا على ذكر خريستوفر. فقد ورد ذكره في الجداول اللاتينية بعد أنسطاس وذكره ابن البطريق ولكنه لم يذكر في أي سنة صير بطريركاً بل قال وقع في أيامه حريق في كنيسة القيامة يوم أحد الشعانين وأنَّه فرغ من تدوين تاريخه في أيام هذا البطريرك وقد فرغ منه في سنة ٩٣٧م ولا يعلم في أية سنة توفي خريستوفر المذكور. فسقم تواريخ هذه الأعصر يحول دون التحقيق على من كان من هؤلاء البطاركة ومن لم يكن وفي أية سنة كان كل منهم ولا نعلم أي الروايات نصدق وبأيها نكذّب. وزاد في الطين بلة عدم الاركان إلى أقوال ابن البطريق ولو كان معاصراً لهذه الأحداث وقريباً من مواقعها ومن يعلم إن كان قوله إنَّ لاون استمرَّ في البطريركية سبع عشرة سنة صحيحاً حتى توفي سنة ٩٢٨م. ومن أين لنا البرهان على أنَّه توالى في كنيسة أورشليم ثلاثة بطاركة وهم أنسطاس ونيقولاوس وخريستوفر في مدة تسع سنين حتى كان خريستوفر في سنة ٩٣٧م فقد أصاب من قال إنَّ تاريخ ابن البطريق شوش تواريخ القرون السابقة وكل منصف يجد لنا معذرة في أننا لم نقدر أن نعين سني بطاركة ملتنا المارونية في هذه القرون إذا راعى سقم التواريخ البيعية فيها. وجاء ذكر أغاثون ويوحنا السادس ويوحنا السابع بعد خريستوفر ولا ذكر لهؤلاء البطاركة الثلاثة في الجداول اللاتينية بل جاء في كتاب توادوريكس باولي مدح لاغاثون بعلمه وذكائه وفضيلته لكنه لم يعزُ إلى أحد ما قاله في هذا البطريرك. وروى شدرانس (في مجلَّد ٢ من تاريخه) إنَّ يوحنا البطريرك طعن عليه خصماؤه بأنَّه أغرى الملك نيقوفور فوقا بأن يحمل على سورية فكان جزاؤه بالحريق وحريق كنيسة القبر المقدَّس. ويظهر أنَّ ذلك كان سنة ٩٦٩ قبل مقتل الملك نيقوفور المذكور وربما كان هذا البطريرك يوحنا البطريرك الأورشليمي الذي وضع ترجمة القديس يوحنا الدمشقي من العربية إلى اليونانية كما يظهر من مقدمات المجلَّد الأوَّل من تصانيف الدمشقي في طبعة الأب مين وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا على ترجمة هذا القديس وقد جاءت ترجمة يوحنا الدمشقي في كتب البولانديين في اليوم السادس من أيار موقعة يوحنا رئيس أساقفة أورشليم وجاء في المجلَّد الأوَّل في نيسان من كتب البولانديين هذه ترجمة مكاريوس بطريرك أنطاكية ومما قيل فيها إنَّ مكاريوس أتى إلى أورشليم وكان بطريركها يسمى يوحنا فأعظم ملتقاه وأكرم مثواه على أنَّ مكاريوس هذا توفي سنة ١٠١٢، فظنَّ بعضهم أنَّ يوحنا هذا الذي أكرم مكاريوس مثواه هو غير يوحنا

الذي مات محروقاً سنة ٩٦٩. وقال غيرهم بل هو هو ومكاريوس عاش عمراً طويلاً أو لم تكن وفاته سنة ١٠١٢. وبين سنة ٩٦٩ وسنة ١٠١٢ ثلاث وأربعون سنة فلا يظن أنَّ مكاريوس بقي في البطريركية ثلاث وأربعين سنة ولذلك رجح باجيوس في تنقيحه تاريخ بارونيوس لسنة ١٠١١ أنَّ يوحنا هذا غير يوحنا الأوَّل.

وامتدح توادوريكس باولي بطريركاً سماه خويستوفر الثاني أو نيقوفور وقال إنَّه أحسن تدبير كنيسته وعانى مشاق كثيرة لكنه لم يذكر عمن أخذ كلامه ولا متى صير أو متى توفي.

وجاء في جداول بطاركة أورشليم اسم توما الثاني ويوسف الثاني فكأنَّهما خلفا كريستوفر توما أولاً ثمَّ من بعده يوسف، وزعم توادوريكس باولي أنَّ قميص المسيح الذي اقترع عليه الجنود بعد صلبه وجد في فلسطين في أيام البطريرك توما المذكور. على أنَّ الذي رواه بابيروكيوس في مقدِّماته المعلقة على المجلَّد الثالث من تراجم القديسين في شهر أيار إنَّما هو ان وجد أنّ هذا القميص كان سنة ٥٩٥ قبل أربع ماية سنة من أيام توما المذكور، وأنَّهم عثروا عليه في صفد مطبقاً عليه في تابوت من رخام، وأنَّ يوحنا الصوام بطريرك قسطنطينية أحضره بكل تجلة واحتفاء إلى قسطنطينية ووضعه في المعبد الذي كان فيه عود الصليب، وأنَّه نقل بعد ذلك إلى مدينة ترافيريس مولد القديسة هيلانة الملكة ولا نعلم متى كان هذا النقل ولا من كان الناقل. وأمَّا يوسف البطريرك الذي خلف توما فقال في حقه توادوريكس إنَّه كان فيلسوفاً ماهراً وطبيباً مشهوراً ودبر الكنيسة ابَّان الاضطهاد واشتهر برأفته وحزمه وفضائله ولا نعلم متى كان هذان البطريركان في أورشليم ولا كم سنة لبثا في تدبير كرسيها.

وكان بعد هؤلاء على كرسي أورشليم اسكندر وأغابيوس، أمَّا اسكندر فقال فيه نيقوفور كالستس (ك ٤ من تاريخه فصل ٣٩) إنَّه نقل من كرسي أنطاكية إلى كرسي أورشليم في أيام الملك باسيليوس برفيروجانت الذي استوى على منصة الملك سنة ٩٧٥ إلى سنة ١٠٢٥. وأمَّا أغابيوس فقيل فيه في كتاب الناموس اليوناني الروماني (مجلَّد ٤ فصل ٤) إنَّ أغابيوس رئيس أساقفة سلوقية ببياريا صير بطريركاً على أورشليم في أيام الملك باسيليوس المذكور، ولكن لما لم تكن في تلك المدة سلطة لملوك الروم على فلسطين ساغ لنا أن نقدِّر أنَّ اسكندر وأغابيوس لم يقبلا في

أورشليم، ولذلك لا نرى اسميهما في جداول البطاركة الأورشليميين.

وكان بعد أغابيوس أرميا ويسمى أرستا قال فيه ابن العميد (ك ٣ في تاريخ المسلمين فصل ٥) انَّ العزيز بالله أحد الخلفاء الفاطميين تزوَّج امرأة مسيحية ملكية وكان لها أخوان اسم أحدهما أرستا صيَّره بطريركاً على أورشليم واسم الثاني أرسانيوس جعله بطريركاً على الملكيين في اسكندرية، وقد حاز العزيز الخلافة سنة ٣٦٥ للهجرة يوم توفي أبوه المعز لدين الله وهذه السنة كان بدؤها في ١٠ أيلول سنة ٩٧٥ للميلاد وتوفي العزيز سنة ٣٨٦ التي كان بدؤها في ٢٥ كانون الثاني سنة ٩٩٦م وعليه فأرميا رقي إلى البطريركية في هذه المدة. وخلف العزيز بعد وفاته ابنه الحاكم بأمر الله في شهر رمضان سنة ٣٨٦ ويوافق تقريباً اليوم العشرين من تشرين الأوَّل سنة ٩٩٦ واضطهد المسيحيين واليهود كما مرَّ. وذكر الباريكس الراهب في تاريخه الذي طبع في لبسيك سنة ١٦٩٨م الاضطهاد الذي أنزله الحاكم بأمر الله بالنصارى وقال في جملة كلامه أنَّه سمل عيني البطريرك أرميا ونفاه إلى بابل. وروى غوليلمس الصوري (في ك ١ من تاريخه للحرب المقدسة فصل ٤) أخبار هذا الاضطهاد وسمل عيني البطريرك وتدميره كنيسة القبر المقدَّس التي كان اول بنائها في أيام قسطنطين الكبير. وذكر هذا التدمير أيضاً باجيوس (في ك ٤ من تنقيحه تاريخ بارونيوس لسنة ١٠٠٩). وجاء في تاريخ عربي كتبه رجل قبطي كان قبل ابن العميد بنحو قرن وترجمه ابراهيم الحاقلي الماروني إلى اللاتينية وطبعه أنَّ الحاكم بأمر الله قتل البطريرك زكريا بطريرك اسكندرية سنة ١٠١٢. وأمَّا أرميا فلا نعلم متى توفاه الله، ومما لا شكَّ فيه أنَّه لم يتوفَّ في القرن العاشر بل في مبادئ القرن الحادي عشر ولذلك جعلنا كلامنا فيه خاتمة كلامنا في بطاركة أورشليم في هذا القرن العاشر. انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان كلامه على بطاركة أورشليم.

عد ٧٩٠

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن العاشر

قلَّ من عرفنا من أساقفة سورية في هذا القرن فقد روى العلَّامة السمعاني ترجمة إيليا أسقف دمشق فقال (في مجلَّد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣) إنَّ إيليا

الملقَّب بالجوهري كان أسقفاً على النساطرة في أورشليم فجعله يوحنا بطريركهم في ١٥ تموز سنة ١٢٠٤ (يونانية توافق سنة ٨٩٣م) متريبوليتاً على النساطرة بدمشق كما روى عمرو بن متى (في مجلَّد ٢ صفحة ٤٤٠) وبقي حياً إلى أيام يوحنا عيسى بطريركهم الذي دبر البطريركية من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٩٠٥. فلهذا الأسقف كتاب في القوانين البيعية قسّمه إلى قسمين تكلَّم في الأوَّل منهما على قوانين الغربيين مضمناً إياه تراجم الرسل والتلاميذ والقوانين المنسوبة إلى الرسل ثمَّ قوانين المجامع التي عقدت في انكورة وقيصرية الجديدة ونيقية والقسطنطينية وألحق به جدولاً في المبتدعين من بدء الكنيسة إلى ملك قسطنطين وضمَّن القسم الثاني قوانين الشرقيين أي القوانين التي فرضها بعض بطاركة النساطرة أو المجامع التي عقدوها وألحق بها جدولاً مشتملاً على اسماء بطاركة الشرق أي بطاركتهم من ادي الرسول إلى تيموتاوس يهب الله، وجدولاً آخر يشتمل على اسماء أساقفة بطريركية المشرق ثمَّ جواب يوحنا عيسى بطريركهم على مسألة الصوم المعروف بصوم نينوى، ثمَّ صوم العذارى، والحق الناسخ هذا الكتاب بمقالة لأحد علمائهم في الزواج والطلاق. وذكر السّمعاني (في مجلَّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٧) كتابه هذا في فهرست الكتب التي أتى بها أندراوس الماروني من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية وهو السابع والثلاثون منها، وقد خط سنة ٦١٧هـ الموافقة سنة ١٢٣١م. ولإيليا المذكور مقالة ألَّفها وهو أسقف في أورشليم زعم فيه أنَّ فرق السريان الثلاث أي النساطرة والملكية واليعاقبة هم متفقون في عقائد الإيمان الجوهرية ومختلفون في التعبير عنها فقط. قال السمعاني (في المحل المذكور) عندي من هذه المقالة نسخة خطت سنة ١٦٩٢م معنونة: «كتاب اجتماع الأمانة بين السريانية المكنين بالنسطورية والملكية واليعقوبية تأليف مار إيليا المكنى بالجوهري مطران القدس الشريف» ومما تضمنه هذا الكتاب اثبات مؤلفه أنَّ جميع نصارى الشرق متفقون في عقائد الإيمان الآتي ذكرها، وهاك كلامه بحروفه: «رأيتهم مجتمعين على القيام بالآحاد والأعياد المسيحية ومتفقين على أمر القيام بأمر القربان أنَّه جسد المسيح ودمه ومقرين بالأمانة التي أمر بها الثلاث مئة وثمانية عشر الآباء الذين اجتمعوا بمدينة نيقية وهي تقرأ عند الجميع في كل وقت القداس، مجتمعين أيضاً على صحة الكهنوت على مراتبها ومراتب البطركية والأسقفية والقسوس والشمامسة وأيضاً بماء المعمودية ولم يكن فيهم فرق في الدين ولا في الإيمان ولكن في الهوى أي في الغرض والحزب». إلى أن يقول: «ونحن

نرى جميع أهل دين النصرانية متفقين بالانجيل كتاب الله الحق وكتاب فولوس والابركسيس والكتب العتيقة التوراة والأنبياء والأمانة والقربان والمعمودية والأعياد والآحاد والصوم والكهنوت والصليب والاقرار بيوم القيامة والبعث والنشور من القبور والحلال والحرام والجنة والنار». ثمَّ شرح بأي معنى يعتقد النساطرة أنَّ في المسيح طبيعتين وأقنومين ويأنفون من أن يسموا العذراء والدة الله. ويؤمن الملكية بأنَّ في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ويسمون العذراء والدة الله، ويعلم اليعاقبة أنَّ في المسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً ويدعون مريم أم الله كالملكية. وأردف ذلك بقوله: «اختلفوا في القول واتَّفقوا في المعنى وتناكروا في الظاهر واجتمعوا في الباطن وكلُّهم إلى إيمان واحد ينقادون وبرب واحد يؤمنون ولرب واحد يعبدون». ثمَّ ذكر اختلافهم في رسم إشارة الصليب على وجههم فقال: «إنَّ اليعقوبية تعمل الصليب بالاصبع الواحد وتأخذ من الشمال إلى اليمين وغرضها بذلك الإيمان بمسيح واحد على الصليب خلَّصهم بصلبه من جهة الشمال الذي هو الخطيئة إلى ناحية اليمين التي هي المغفرة. وأيضاً النسطورية والملكية عملوا إشارة الصليب بالأصبعين وأخذوا من اليمين إلى الشمال وغرضهما بذلك الإيمان بوجود اللاهوت وغرضهما بذلك الإيمان بوجود اللاهوت والناسوت جميعاً على الصليب لأنَّ الخلاص بذلك وظهر الإيمان من الجانب الأيمن ورفع الكفر من جانب الشمال الذي هو الضلال. هذا أمر ليس فيه فرق يوجب على أحد الكفر عند المخالف له لأنَّ الإيمان واحد». وقال في انكار النساطرة تسمية العذراء أم الله وأجاب الملكية واليعاقبة ذلك ما يأتي بحروفه: «امتناع النسطورية وانكارهم أن يقولوا إنَّ مريم والدة الله فليس ذلك جحوداً للاهوت المسيح ولا انكار حلول كلمة الله في السيدة مريم والدة المسيح وهو اله العالمين ... بل قصدهم أنَّ اسمه عزَّ وجلَّ يعم الثلاثة أقانيم الآب والابن وروح القدس وإذا قلنا والدة الله أدخلنا الولادة على الآب والابن وروح القدس وإذا قلنا والدة المسيح وهو اله العالمين فهو الابن وحده من حيث لا نجحد أنَّه الله. كذلك قول اليعاقبة والملكية إنَّ مريم والدة الله ليس هذا انكار لناسوت المسيح ولا اظهار لولادة الآب والروح القدس بل هو اقرار بلاهوت المسيح محبول به ومولود. وفي كل الأحوال فليس في ذلك عند الإيمان فرق ولا تباعد عن الحق». وبمثل ذلك أثبت أنَّ اختلاف الطقوس والصلوات عند فرق النصارى في الشرق لا يثلم وحدة الإيمان. فغرض إيليا من هذه المقالة إيجاد السلم والوفاق بين رعاة كل فرقة من فرق النصارى

فتقاطر النصارى من كل فج وملة إلى أورشليم كان يبعث على وجود الاتفاق والمسالمة بينهم ولاسيما في عقائد الدين.

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن العاشر

عد ٧٩١
نيقولاوس بطريرك قسطنطينية وسعيد بن البطريق بطريرك اسكندرية

إنَّنا جرياً على مساق كتابنا هذا نذكر هنا بعض المشاهير في العلم ولاسيما الشرقيين ولو نشأوا خارجاً عن سورية، فمن هؤلاء في هذا القرن نيقولاوس بطريرك قسطنطينية نلخص ترجمته عن مكتبة الآباء اليونان التي طبعها الأب مين مجلَّد ١١١ صفحة ٩ وما يليها، فقد كان نيقولاوس من حاشية الملك لاون ملك الروم الملقَّب بالحكيم والفيلسوف ومستشاره في هذا المنصب الرفيع إلى المقام البطريركي على كنيسة قسطنطينية سنة ٨٩٥م، فاستسار سيرة الأبرار مكداً في حراثة كرم الرب حتى أحصاه سنكسار كنيسة قسطنطينية وغيره من كتب تراجم القديسين في مصاف أصفياء الله وكذلك اعتده بارونيوس في تاريخه، والبولانديون في تراجم القديسين. وبعد أن تبوأ الكرسي البطريركي بتسع سنين أو احدى عشرة سنة على رواية أخرى نفاه الملك لاون نفسه عن كرسيه لأنَّه كان يخالفه في أمر زواجه بامرأة رابعة خلافاً للعادة التي كانت مستطرقة في هذه البطريركية، ثمَّ عاد إلى كرسيه سنة ٩١١م إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٤م. وعلى رواية أخرى سنة ٩٢٥م في ١٤ أو ١٥ أيار. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب رسائل اشتمل على ١٦٣ رسالة والأولى منها إلى عامل اكريت المسلم استهلها بقوله: «إلى الأمير الفائق الشرف الكلي الشهرة الصديق المخلص أمير اكريت ان كل سلطة أرضية وكل إمارة

بشرية مرجعها إلى سلطة الله السامية وليس في الأرض سلطة ولا متسلط يتاح له أن يكتسب بذكائه الأمر والسلطة إن لم يقيض له ذلك الرب الملك في العلا وهو القدير وحده. ولما كان مصدر كل سلطة ومرجعها واحداً وهو الله كان متحتماً على أصحاب السلطة أن يداول أحدهم الآخر بالكلام والرسائل والوفود وفي العالم الآن سلطتان ساميتان أي سلطة إخواننا المسلمين وسلطة ملوك الروم، وهما أشبه بالنيرين العظيمين في الفلك، ولهذا يلزمهما أن يكونا بالالفة والاخاء، واختلافهما في العوائد ونوع المعاش والمذهب الديني لا يلزم أن يجعل إحداهما غريبة عن الأخرى بل يقضي عليهما أن يشتركا في المكاتبات ومبادلة الأفكار والمفاوضات في المصالح العامة». ولهذا البطريرك كتاب في السيرة الرهبانية وهو مثبت أيضاً في مكتبة الآباء وقد طبعه مين بعد كتاب رسائله.

وأمّا سعيد بن البطريق بطريرك الملكية في الاسكندرية فنلخص ترجمته عن يوحنا سلدانس الذي ترجم تاريخه من العربية إلى اللاتينية قال إنَّ هذا البطريرك سمي عند مولده سعيد، ولما كان أبوه بطريقاً سمي ابن البطريق أو ابن بطريق ولما صير بطريركاً أراد أن يكون اسمه باليونانية فسمى نفسه أوتشيوس أو افتيخيوس أو أوطيخا وتأويله سعيد. وقد ولد في الفسطاس بمصر في السنة الثامنة لخلافة المعتمد بالله في ولاية أحمد بن طولون على مصر سنة ٢٦٣هـ سنة ٨٧٧م كما في كتاب تاريخه كان سعيد طبيباً ماهراً وكان له أخ اسمه عيسى وكان طبيباً أيضاً وقد ارتقى إلى البطريركية سنة ٣٢١هـ الموافقة لسنة ٩٣٢م وأدركته الوفاة سنة ٣٢٨هـ الموافقة لسنة ٩٣٩ أو سنة ٩٤٠م.

وقد كتب أربعة كتب: كتاباً في الطب، وكتاباً في محاورة بين مسيحي ومبتدع، وكتاباً في التاريخ من خلق العالم إلى أيامه بالإيجاز، وكتاباً في تاريخ صقلية بعد أن أخذها المسلمون. ومما قاله سلدانس في الفاتحة التي علقها على كتاب تاريخه قد وجدت في تاريخه أموراً كثيرة جداً تتعلَّق بالتاريخ الكنسي والتاريخ الدنيوي توجب النقد والنظر ولم أجد لها أثراً في كتب المؤلفين التي تتداولها الأيدي أو غيرها ما عثرت عليه وطالعته من كتب المؤلفين اليونان أو اللاتين أو العبرانيين أو العرب ولم أرَ من ذكر تاريخه من علماء أوروبا القدماء إلَّا غوليلمس أسقف صور إذ قال في مقدمة تاريخه أنَّ الماريكس ملك أورشليم دفع إليه بعض كتب من جملتها تاريخ سعيد بن بطريق بالعربية واقترح عليه أن يكتب

تاريخاً، فكتب تاريخاً ابتدأ فيه من صدر الاسلام إلى سنة ١١٨٤ للميلاد وأنّه اعتمد خاصة على شهادة الرجل المحترم سعيد بن البطريق الاسكندري. انتهى ملخصاً عن سلدانس في المقدمة المعلقة على ترجمته لتاريخ ابن البطريق. وقد رأيت ما انتقدنا به مرات كلام ابن البطريق وكم أبنا فيه من الأغلاط الفاضحة.

وقد طبع سلدانس سنة ١٦٤٢م مقالة زعم أنّه أخذها عن سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري في أصول كنيسته وترجمها على هواه وذيّلها بشروح توافق مذهبه البروتستنتي وجعلها حجة لزعمه أنَّ درجة الكاهن والأسقف واحدة وأنَّ سلطانهما واحد وولايتهما واحدة، فرد مقالته هذه ابراهيم الحاقلي الماروني في كتاب كبير طبعه في مطبعة نشر الإيمان المقدَّس في رومة سنة ١٦٦١م عنوانه الانتصار لافتيشيوس (سعيد) الاسكندري مثبتاً أنَّ سعيد المذكور لم يزعم هذا الزعم وأنَّ كلامه لا يدل عليه وأنَّ سلدانس حرَّفه وترجمه على هواه وأيَّد التعليم الكاثوليكي بحجج قاطعة وبينات دامغة ولدينا نسخة من هذا الكتاب أتحفنا بها الكردينال برنابو رئيس مجمع نشر الإيمان سنة ١٨٦٧م عند زيارتنا أم المدائن بخدمة الطيب والصالح الذكر البطريرك بولس مسعد وترى مقدمة الحاقلي على هذا الكتيب مثبتة في مجلَّد ١١١ صفحة ٨٩٤ من مكتبة الآباء اليونان في طبعة الأب مين.

عد ٧٩٢

جيورجيوس متروبوليت اربل والموصل وغيره من مشاهير هذا القرن

نعرف في هذا القرن جيورجيوس متروبوليت اربل والموصل وهو نسطوري أقامه عمنويل بطريرك النساطرة على هذه الأسقفية نحو سنة ٩٤٥م. وذكر عبد يسوع الصوباوي (فصل ١٩٢) مجموعة قوانين جيورجيوس هذا. وله أيضاً خطبتان أو صلاتان مثبتتان في بعض الكتب السريانية المخطوطة في المكتبة الواتيكانية، وألَّف كتاباً قسّمه إلى سبع مقالات عنوانه بيان جميع الرتب البيعية وأسباب وضعها وشرح ما يتعلَّق بالتجسُّد والآحاد والأعياد وهو مثبت في الكتاب السرياني المخطوط تحت عد ٣١ في المكتبة الواتيكانية، وقد خلا من ذكر اسم مؤلفه وهو ناقص. ومنه نسخة كاملة في الكتاب السرياني عد ١١ في المكتبة المذكورة وقد خطَّ سنة

١٧٠٧م وهو كتاب جزيل الفائدة في معرفة طقوس النساطرة ورتبهم. ومن رأيه في هذا الكتاب أنَّ يوحنا الصائغ بشَّر بمولده سنة ٣٠٥ لاسكندر وأنَّ المخلِّص ولد سنة ٣٠٤ واعتمد سنة ٣٣٦ وصلب سنة ٣٣٩ وأنَّ أورشليم خرِّبت سنة ٣٧٩ وهذا مخالف لرأي عامتهم، أنَّ المخلِّص ولد سنة ١١١ لاسكندر المكدوني ويشتمل هذا الكتاب على أربعة وعشرين فصلاً وله كتاب آخر في فرض صلاة المساء يشتمل على واحد وعشرين فصلاً وكتاب ثالث في فروض صلوة الليل والصباح وفيه تسعة فصول وكتاب في رتب الأسرار وفيه ثلاثون فصلاً وكتاب خامس في رتبة المعمودية وفيه تسعة فصول وكتاب سادس في رتبة تكريس الكنيسة وفيه ثمانية فصول وكتاب سابع في دفن الموتى والصلوة عليهم وفيه ستة فصول وله فصل في الخطبة والزواج ودستور للإيمان في العربية ذكره عمرو بن متى (عن السمعاني في المكتبة الشرقية مجلَّد ٣ صفحة ٥١٨).

أكومانيوس

كان أكومانيوس إسقفاً على تريكالا في تساليا واختلف في العصر الذي كان فيه ولكن ظهر أنَّه كان في أواخر القرن العاشر بدليل أنَّه استشهد تفسيره العهد الجديد بكلام فوتيوس وقد توفي نحو سنة ٨٨٠م وبتفسير أندراوس أسقف قيصرية بالكبادوك وقد كان على الأرجح في أواسط القرن التاسع. وبكلام خليفته وتلميذه أرتياس في كرسي قيصرية وقد توفي في نحو سنة ٩٢٠م. فنتج بلا بدَّ أنَّه كان بعد هؤلاء. ومن تآليفه المعروفة كتاب في «تفسير كتاب أعمال الرسل»، وكتاب في «تفسير رسائل بولس الرسول»، وكتاب في «تفسير الرسائل الكاثوليكية» (طالع ترجمة أكومانيوس وكتبه في طبعة الأب مين مجلَّد ١١٨).

اريتاس

كان أريتاس أسقفاً على قيصرية الكبادوك وكان تلميذاً لأندراوس أسقف هذه المدينة في القرن التاسع ثمَّ خلف أستاذه في مبادئ القرن العاشر. وكان أندراوس وضع كتاباً في تفسير الجليان أو رؤيا يوحنا الرسول فأوجزه ونقحه أريتاس وكتب

ترجمة الشهداء القديسين سامونا وكوريا وحبيب من مدينة الرها (طالع ترجمة أندراوس وأريتاس وتأليفهم في طبعة الأب مين مجلّد ١٠٦).

جيورجيوس الراهب

إنَّ جيورجيوس هذا يسمى أيضاً همرتولس ويرجّح أنّه كان من اسكندرية، وأمّا العصر الذي كان فيه فيظهر أنَّه كان بين أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر لأنَّ الملك قسطنطين برفيروجات الذي كان في منتصف القرن العاشر انتحل بعض أقواله. وقد كتب تاريخاً موجزاً ابتدأ فيه من خلق الانسان إلى سنة ٨٤٠م وقد بسط غيره تاريخه حتى تاريخ سنة ١١٤٣م، وقد نشر هذا التاريخ الأب مين في جملة مكتبة الآباء اليونان مجلّد ١١٠ وقد ذكر جيورجيوس في الكتاب الرابع من تاريخه صفحة ٨٩٥ غزوات المردة أي الموارنة في القرن السابع، والجاءهم معاوية إلى عقد عهدة صلح مع الملك قسطنطين اللحياني، ثمّ الجاءهم عبد الملك بن مروان إلى عقد مثل هذه العهدة مع الملك يوستنيانس الأخرم على شريطة أن يكبت الموارنة ويجلي عسكرهم من لبنان. ويأسف كثيراً على انخداع يوستنيانس بايهان قوة المردة بنفيه نخبة رجالهم الّذي كانوا حصناً منيعاً له طبق ما روينا ذلك في محله نقلاً عن توافان وشدرانس وزاناراس وغيرهم.

لاون الشماس

ولد لاون هذا في أواسط القرن العاشر بآسيا الصغرى وهو القائل إنَّ أباه اسمه باسيليوس وموطنه يسمى كالوا ثمّ مضى إلى قسطنطينية طلباً للعلم وكان هناك سنة ٩٦٦م وانضوى إلى جمعية كهنوتية ورقي إلى درجة الشماسية ويظهر أنَّه اعتزل تلك الجمعية وانكبَّ على كتابة التاريخ فكتب تاريخ الحروب التي كانت في أيامه وفي عهد الملوك الرومانيين ولاسيما رومانس ونيقوفور فوقا ويوحنا سمسق وأخصّها ثلاث: حرب ملوك الروم مع المسلمين في كريت، وحربهم في آسيا وسورية، وحربهم مع الروسيين. ولذلك كان لتاريخه أهمية، ويعول عليه لأنَّ الكاتب ثقة ومعاصر للأحداث التي كتب عنها، لكنَّه لم يخلُ من النقد في ما دعته إليه حالة

أيامه وقد قسم تأليفه إلى عشرة كتب صغيرة، وقد ترجمه إلى اللاتينية ونشره العالم كولوس هاس في باريس سنة ١٨١٩م ثمَّ طبع ثانية في بون سنة ١٨٢٨م وطبعه الأب مين في مجلَّد ١١٧ من مكتبة الآباء اليونان سنة ١٨٦٤م. ومما ذكره في غزوات نيقوفور وفوقا ويوحنا سمسق سورية قوله في الكتاب الرابع فصل ١٠ أنَّ نيقوفور قصد أنطاكية وحصرها ولم يشأ أن يخربها لأمله انه سيأخذها عن قرب سالمة ثمَّ ترك عسكراً محاصراً لها ومضى إلى فلسطين واجتاز بلبنان إلى طرابلس فلم يتيسر له فتحها لمناعتها ولتأخُّر سفنه عن الوصول إليها، فمضى إلى عرقا وكانت محصَّنة بثلاثة أبراج فحاصرها تسعة أيام وأخذها وغنم غنائم كثيرة كانت فيها. وذكر في الكتاب الخامس فصل ٤ أخذ الحامية التي كان قد تركها على أنطاكية لهذه المدينة كما رويناه في محلِّه. وقال في الكتاب العاشر فصل ٤ إنَّ يوحنا سمسق حشد جيشه قاصداً فلسطين فأخذ أباميا بعد أن حاصرها أياماً وكانت حصينة ثمَّ سار إلى دمشق فخرج الدمشقيون لملتقاه بتقادم وهدايا نفيسة فخمَّدوا غضبه فوضع عليهم جزية وضمَّهم إلى ملكه، واجتاز لبنان الصعب المسالك وأخذ مدينة حصينة في سفحه اسمها برزو (لا نعلم أين كان موقع هذه المدينة) ثمَّ بلغ فينيقية وأخذ قلعة بانياس وحاصر بيروت ووجد فيها صورة صليب المخلِّص، فأخذها وأقامها في كنيسة المخلِّص التي كان قد بناها في قسطنطينية. وروى خبر المعجزة التي أجرتها هذه الصورة كما رويناه في عد ٧٣٥ وقد أشرنا هناك إلى أخذ الملك يوحنا هذه الصورة إلى قسطنطينية. وقال بعد أن أخذ بلنياس (بانياس) وبيروت سار بجيشه إلى طرابلس فرأى أنَّه لا يتيسر له فتحها لأنَّها محصَّنة من جهة البر بحصون منيعة وبخليج احتفره أهلها، ومن الجهة الأخرى البحر، ولم يكن لديه سفن كافية فتحوَّل بجيشه إلى القرى الساحلية فأخذها. وظهر حينئذٍ في سورية في شهر آب نجم مريع استمرَّ ظهوره ثمانين يوماً فتشاءم يوحنا سمسق من ظهوره وعاد إلى قسطنطينية ولم نرَ من ذكر وفاة لاون الشماس. وقد أنهى تاريخه بخبر وفاة يوحنا سمسق التي كانت سنة ٩٧٥م وما ملكه نيقوفور وسمسق في سورية تغلَّب عليه المسلمون بعد وفاتهما.

سويدا

لم يتيسر للعلماء أن يعلموا من كان سويدا ومن أين كان حتى زعم بعضهم أنَّ صاحب المعجم المشهور باسمه سمى نفسه سويدا ولم يكن هذا اسمه. على أنَّ هذا الزعم مردود ولكن لم يذكر أحد من العلماء أصله ومنشأه وهو لم يعرف نفسه بل قد جاء في كلامه على جزيرة سموتراقي: «إنَّ أوَّل من سكن هذه الجزيرة هم الساميون ونحن من ذريتهم فظنَّ بعضهم أنَّ منشأه هذه الجزيرة الواقعة في بحر اجاي (إيجيه) من جهة تراسة. ولكن قال غيرهم إنَّ هذا الكلام ليس كلام سويدا بل منتحل عن كاتب آخر مجهول الاسم. وقال بعضهم إنَّه كان كاهناً راهباً والراجح أنَّه كان في هذا القرن العاشر وقد اشتهر بمعجم تاريخي ضمَّنه ذكر كثيرين من المؤلفين الذين تقدَّموه وقد طبعه للمرة الأولى كلكونديلاس في مديولان سنة ١٤٩٩م وطبع بعد ذلك مرات ولاسيما طبعة لودلف كوستر بكمبريديج سنة ١٧٠٥م ثمَّ طبع في أكسفورد سنة ١٨٣٤م، ثمَّ طبع الأب مين خلاصة له في سنة ١٨٦٤م بباريس في المجلَّد ١١٧ من مكتبة الآباء اليونان.

ذيل

عد ٧٩٣

ما كان عند نهاية القرن العاشر

لم يكن في القرن العاشر بدعة حديثة مشهورة ولا بحث ديني عام ولا مجمع مسكوني، ولكن ما كان قد جاء في سفر رؤيا يوحنا (فصل ٢٠ عد ٣): «فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأقفل خاتماً عليه لئلا يضل الأمم بعد إلى تمام الألف سنة، وبعد ذلك سيحل زماناً يسيراً» وفي عد ٧: «وإذا تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم». توهم الناس أنَّ نهاية العالم ستكون في نهاية الألف سنة للميلاد. قال الأب دي اراس (في تاريخ الكنيسة مجلَّد ٣ صفحة ٥) إنَّ سنة

الألف للميلاد كانت عصراً مخيفاً فتوهَّم النصارى في كل قطر أنه قد دنت نهاية العالم اعتماداً على تفسير غير صحيح لآيات من رؤيا يوحنا. فعني البابا سليبسترس الثاني بتفنيد هذا الخطأ ورد الشعوب عن هذا الوهم الذي قام في أذهانهم على أنَّ الأوهام والتخيلات كانت أقوى من البراهين والحجج، ولم يكن تأثير للتشجيع والحض على إزالة الخوف فترك النّاس في السنة الأخيرة من القرن العاشر مشاغلهم ومصالحهم النافعة لهم طراً حتى حراثة أرضهم وكانوا يوقفون أراضيهم ومنازلهم على الكنائس والأديار، ولما ازف اليوم المنتظر بزعمهم غصت الكنائس بالمتقاطرين إليها وكانوا يخشعون إلى الله بالابتهالات وتناول الأسرار فانقضت تلك السنة كغيرها من السنين ولم يسمع صوت لساعة نهاية العالم التي حصر الله العلم بها في ذاته المقدَّسة، على أنَّ هذه الحركة التقوية التي أحدثها الخوف في عقول الناس بعثهم حينئذٍ على إنشاء الكنائس والمعابد والأديار، وكانت الاضطرابات والثورات في القرون السالفة أنستهم هندسة الأبنية المقدَّسة فعمدوا على إنشائها بطريقة مستحدثة تسمى غططية لأنَّها أخذت عن الغطط (يسميهم المؤرخون العرب قوط) سكان اسبانيا، فأقيمت حينئذٍ كنائس كثيرة في أشهر المدن ومنها كنيسة باريس الكبرى على اسم العذراء المعروفة باسم Notre Dame de Paris أنشأها الملك روبرتس على أنقاض هيكل للوثنيين على ما قال أحد المؤرخين.

وقال روهر بخر (في كتاب ٦٢ من تاريخه) إنَّ الكنيسة في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر كانت محلاة بكثير من الصلّح والقديسين وكان على كرسي بطرس البابا سلبسترس الثاني اعلم أهل عصره، وكان في ألمانيا الملوك الثلاثة المسمّون أوتون، وفي أونغريا الملك القديس أسطفانس ملك هذه المملكة ورسولها الذي جعلها كاثوليكية، وفي روسيا القديس ويلدمير الدوك الأعظم، وفي افرنسة هوغ كابت المتسامي بورعه وتقواه وخلفه ابنه روبرتس وغوليوم كونت بواتيا الذي اتَّخذ الطريقة الرهبانية وغوليوم كونت بروفنس وتولوز، وكان في نافارا الملك سانش، وكان بين هنري ملك ألمانيا وروبرتس ملك افرنسة وسانش ملك نافارا ولاء وأخاء، وكان في افرنسة من الأساقفة القديسين القديس جيرار أسقف تول، والطوباوي ادلبرون أسقف متز، والقديس فُلكران أسقف لودلف والقديس جبرائيل أسقف مو والقديس تيارس أسقف أورليان والقديس برشار أسقف فيان والطوباوي فلبر أسقف شرتر. ولم يكن في ألمانيا من القديسين أقل من افرنسة فكان القديس

ولفكنج أسقف راتيزبون والقديس وكبهرز أسقف قوسطنس والقديس أولبر أسقف براغ والقديس فيليجينس أسقف ماينس والقديس ليبانتيوس أسقف همبرغ والقديس برنردس والقديس كودرد أسقف اهلديشم والقديس ولبور أسقف لياج والقديس هاديبار أسقف كولونيا والقديس هرتويس أسقف سلسبورج والقديس ماينفر أسقف بادربون وكان في روسيا القديس بونيفاشيوس رئيس الأساقفة وكان رسولاً وشهيداً، وكان في سويد القديس سيكفريد أسقفاً ورسولاً والقديس أولاوس ملكاً وشهيداً وكان في الرهبانيات كثيرون من القديسين. والحاصل أنّ أوروبا دخلت في دور حديث عند انقضاء القرن العاشر وبداية الحادي عشر فقد خمدت نار الثورات واستتبت الراحة وانبسط في أنحائها الإيمان الكاثوليكي وأصبحت الكنيسة الرومانية كفيلة التهذيب الكاثوليكي ومعلمة الشعوب.

وأمّا سورية فكانت تئنّ في هذه المدة تحت ولاية الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي الذي كان يقترع كل يوم على غير هدى نوعاً من التنكيل والعذاب للنصارى واليهود حتى المسلمين أيضاً، وقد أحرق كنيسة القبر المقدَّس كما مرَّ، وألحق بها غيرها من الكنائس، ونوّل اكليل الشهادة لكثيرين من المسيحيين في سورية ومصر حتى أخذ البابا سليبسترس المذكور يحض المسيحيين من ذلك الحين على استنقاذ المسيحيين من هذا الاستعباد القاسي وتأمين الأماكن المقدَّسة.

ملحق

تاريخ الموارنة

عد ٧٩٤

رد مزاعم من اتّهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر

اعترض على الموارنة بشهادة ساويرس أسقف الأشمونيين من القبط في القرن العاشر سنداً إلى أنَّ هذا الأسقف وهو من أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة قال في كتاب ألّفه منتقداً فيه عادات استطرقتها فرق النصارى في أيامه: «إنَّ الموارنة فرقة متميزة عن اليعاقبة والأرمن والملكية وعن اللاتينية أيضاً». وكل يرى أن ليس في هذا الكلام الذي رويناه بالحروف نفسها التي رواه بها المعترض ما يدل على ضلال يستمسك به الموارنة فامتيازهم عن اليعاقبة بينة لهم على أنّهم ليسوا على ضلالهم باعتقاد الطبيعة الواحدة في المخلّص وكذلك امتيازهم عن الأرمن الذين كانوا في عصر المؤلّف كاليعاقبة باعتقادهم طبيعة واحدة في المسيح، وأمّا امتيازهم عن الملكية فإن أراد بهم الكاثوليكيين فالموارنة متميّزون عنهم من حيث الطقس والطائفية والرعاة كما هم الآن، وإن أراد بهم غير الكاثوليكيين فيكون كلامه بينة للموارنة على أنّهم كاثوليكيون صحيحو العقيدة خلافاً للملكية غير الكاثوليكيين. وامتيازهم عن اللاتينية كامتيازهم عن الملكية الكاثوليكيين لا يشعر بخلاف ديني بلا خلاف طقسي وطائفي. ويمكننا الآن أن نقول ولا حرج أنّنا متميّزون عن اللاتينيين لأنَّ لنا رعاةً وتهذيباً وطقساً غير ما لهم من ذلك، والأمر بيّن وقد استوفينا الكلام فيه في كتابنا روح الردود صفحة ٩٢ من طبعة بيروت.

إنَّ أوّل طاعن بالموارنة بل مصدر كل طعن عليهم بأنّهم تشبثوا ببدعة المشيئة الواحدة إنّما هو سعيد بن بطريق البطريرك الملكي الاسكندري الذي كان في القرن العاشر وقد فنّدنا زعمه ودحضناه كلَّ الدحض في مواضع كثيرة من كتابنا هذا

وفي عد ٦٦٨ في المجلَّد الرابع نقضنا قوله بقوله نفسه إنَّ مارون مبدع بدعة المشيئة الواحدة كان في زمان موريق ملك الروم فابنا أنَّ القديس مارون كان قبل موريق الملك بنحو من قرنين وقبل ظهور هذه البدعة بأكثر من قرنين. وفي عد ٧١٠ من هذا المجلَّد الخامس رددنا زعمه رداً مسهباً باقامة الحجج القاطعة الدامغة على كذبه وبإيراد شهادات كثيرين من الأحبار الأعظمين والعلماء المحققين والاستدلال بقرائن وأدلة لا يشوبها ريب ثمَّ عددنا كثيراً من أغلاطه الفاضحة في غير هذا البحث وفي عد ٧١١ من المجلَّد المذكور أثبتنا ترجمة رسالة البابا بناديكتس الرابع عشر إلى نيقولاوس لركاري بهيئة براءة في إثبات قداسة القديس مارون حيث فنّد هذا الحبر العلامة زعم سعيد المذكور تفنيداً من المحال أن يعترض عليه أو يوجد ما يضعف قوته، وقد محقنا زعم سعيد المذكور في مواضع كثيرة من كتابنا روح الردود وقد فندناه أخيراً كل تفنيد في كتيِّبنا الذي رفعناه هذه السنة ١٩٠٠م بالافرنسية إلى مجمع الآثار القديمة في رومة ثمَّ نشرناه بالعربية ووسمناه بالحجة القاطعة الجلية على من ينكرون ثبوت الموارنة الدائم في العقيدة الكاثوليكية وقد ذكرنا في كتبنا المذكورة من فنَّد مزاعم سعيد بن بطريق من العلماء الاعلام ولاسيما علماء أمتنا المارونية حتى أصبحت هذه الحقيقة في جملة ما يقال فيه:

وليس يصح في الأذهان شيء إذ احتاج النهار إلى دليلِ

وإذا كان ديجور الجهل المنسدل على تواريخ هذه القرون الوسطى لا يمكننا من الاطلاع على أمور كبيرة وعامة فلا عجب من أن نجهل تاريخ أمة صغيرة كانت مستأمنة في قمم لبنان وكهوفه في القرن العاشر حتى لا يتيسر لنا أن ندوِّن شيئاً من تاريخها في هذا القرن.

الباب الحادي عشر

تاريخ سورية في القرن الحادي عشر

القسم الأوّل

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأوّل

الخلفاء العلويون الذين تولوا سورية في القرن الحادي عشر وما كان في أيامهم من الأحداث

كان حظ سورية أن يليها غالباً ولاة أجانب وكانت عرضة لمطامع الحكام السائدين في جنوبيها أو شماليها فكذا كانت فريسة تتنابها فراعنة مصر وملوك أشور ثمّ هؤلاء الفراعنة وملوك الكلدان والفرس ثمّ بطالسة مصر والسلوقيون خلفاء اسكندر الكبير المكدوني، ثمّ الرومانيون والفرس، ثمّ تداولتها أيدي الرومانيين والعرب ثمّ أخذها الخلفاء العباسيون في بغداد. ومنذ أواسط القرن العاشر تغلّب عليها الخلفاء العلويون الفاطميون الذين كان مركز ولايتهم في مصر ولذلك تحتّم علينا جرياً على مساق تاريخنا أن نذكر الخلفاء العلويين الذين تولوا سورية في هذا القرن الحادي عشر مع ما كان في أيام كل منهم من الحوادث فيها، ونفرد بعد ذلك الكلام في الخلفاء العباسيين الذين اقتصرت ولايتهم في هذا القرن على الخلافة الدينية.

عد ٧٩٥

الظاهر لاعزاز دين الله

هو أبو الحسن علي بن منصور الحاكم بأمر الله بويع له بالخلافة في اليوم السابع من قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ سنة ١٠٢١م. وعن القرماني أنّه ولي الخلافة بعد موت أبيه بشهرين وكان إذ ذاك صبياً وعمره سبع سنين وكانت عمته المسماة ست الملك تباشر تدبير المملكة بنفسها وقويت هيبتها عند الناس وعاشت بعد قتل الحاكم وخلافة ابنه أربع سنين وماتت. ومن أشهر الأحداث في أيامه أنّه تبوأ منصّة الملك في قسطنطينية الملك رومانس الثالث سنة ١٠٢٨م فجهّز أسطولاً وسيّره إلى والي أنطاكية (التي كانت حينئذٍ بيد ملوك الروم) ليسطو به على شواطئ سورية فأتلف المسلمون قسماً كبيراً من هذا الأسطول وثارت بهم الحمية وعاودتهم الشجاعة وعزموا على استرداد المدن التي كانت قد أخذت من يدهم في أيام الملوك نيقوفور وسمسق وباسيليوس. وجيشوا وقصدوا تلك المدن فقتلوا حاميتها من الروم واتّصلوا حتى أنطاكية فاحتدم الملك رومانس وعزم أن يسير بنفسه لقتال المسلمين في سورية، فأراعت هذه الحملة الأمراء ولاة سورية فأرسل أمير حلب من بني مرداس وفداً إلى الملك طالباً الصفح عما مضى وواعداً أن يفي الجزية السنوية المضروبة على إمارته، فأشار على رومانس بعض خواصه أن يقبل هذه الترضية التي يؤمّل أحسن منها بعد الظفر، وقالوا إنَّ الظفر غير محقق بل قد يهلك جيشه بالحر في مدة الصيف وقد يبيده العطش. فأبى قبول نصحهم وازدرى مشورتهم وكان يخيل له أنّه أحكم وأقوى من نيقوفور وسمسق سالفيه فلا يدع لهما الفخار عليه. فتوغّل بسورية إلى مسيرة يومين عن حلب لكن ما عتم أن ندم فانّه التقاه جيوش من العرب مشتتة في السهول فأحاطوا بجيشه وقتلوا كثيرين وأمسى الروم في وسطهم فهلكت خيولهم لعدم العلف ومات من الرجال كثيرون من شدة الظمأ أو قتلوا، فسير رومانس فرسانه لكشف العدو عن أصحابه وكانت للعرب خيول تزري النسور بعدوها وما انفكوا يطعنون الروم في قلب جيشهم ومقدمته وساقته وهزموا أولئك الفرسان بعد أن جندلوا أكثرهم على الغبراء وأسروا الجرحى منهم فارتاع جيش الملك وعظمت شجاعة المسلمين ووثبوا من كل جهة وأخذوا ينقضون المتارس، فانهزم جيش الملك وهو أخذته الرعدة وفارقه حرسه ولو لم يعله أحد

فرسانه على جواده لأدركه المسلمون وأسروه. على أنَّ الاسلام ظنُّوا هزيمتهم حيلة فلم يتبعوا آثارهم بل أموا معسكرهم وغنموا ما كان فيه وهو شيء كثير وأسروا كثيرين أقعدتهم جراحهم عن الهزيمة. وكان الحر شديداً وسار الملك كئيباً بجيشه إلى جهة أنطاكية فمات كثيرون من جنوده عطشاً أو لاستقائهم ماءً مضراً، ولما رأى المسلمون أنَّ انهزامهم لم يكن حيلة حربية جدوا في أثرهم فأدركوهم وهم على هذه الحال السيئة فشتتوهم شذر مذر، فاستسلم بعضهم دون قتال، وبعضهم وطأتهم الخيل وحف بالملك الخطر أن يؤخذ أسيراً فأحاط به حرسه من كل جهة حتى أوصلوه إلى أنطاكية وعاد منها كئيباً خجلاً إلى قسطنطينية. وزاده غماً وعاراً أنَّ أحد قواده ميناس تيسر له بعد براح الملك أنطاكية أن يخرج على العرب ويأسر بعضهم ويسترد بعض ما غنموه، وأنَّ تيوكتيست وهو قائد آخر أخذ منهم قلاعاً وصدَّهم عن كل غزو وسطو على نواحي أنطاكية وصير ميناس بعد ذلك والياً على المشرق فأعاد إلى جنود الروم شيئاً من شرفهم وفخارهم واستحوذ على الرها واستمرَّ حاكماً فيها. وأمَّا تيوكتيست فأعاد إلى طرابلس واليها الذي كان جنود الظاهر الخليفة قد أخرجوه منها وضرب أسطول الروم الأسطول المصري فاستظهر عليه وعاد إلى قسطنطينية ظافراً غانماً، وكان كل هذا يزيد في غم رومانس وخجله حتى أنحله وأهزله. هذا ما رواه صاحب مختصر تاريخ الملك مجلَّد ٤ في رومانس الثالث وقد جاء مثل ذلك في تواريخ المؤرخين العرب أيضاً. وروى ابن الأثير في الكامل هذا الخبر مع شيء من الاختلاف قال: «في هذه السنة أي سنة ٤٢١هـ (سنة ١٠٣١م) خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثماية ألف مقاتل إلى الشام، فلم يزل بعسكره حتى بلغوا قرب حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس فنزلوا على يوم منها فلحقهم عطش شديد وكان الزمان صيفاً وكان أصحابه مختلفين عليه فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه وممن كان معه ابن الدوقس وهو من أكابرهم وكان يريد هلاك الملك ليملك بعده. فقال الملك الرأي أن نقيم حتى تجيء الأمطار وتكثر المياه فقبح ابن الدوقس هذا الرأي وأشار بالاسراع فلم يشأ الملك العمل برأيه ففارقه ابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس وسلكوا طريقاً آخر، فخلا بالملك بعض أصحابه وأعلمه أنَّ ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلاً وهو أحدهم على الفتك به فاستشعر من ذلك وخاف ورحل من يومه راجعاً ولحقه ابن الدوقس، وسأله عن السبب الذي أوجب عوده، فقال له قد

اجتمعت علينا العرب وقربوا منا، وقبض في الحال على ابن الدوقس وابن لؤلؤ وجماعة معها فاضطرب الناس واختلفوا ورحل الملك وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربع مئة بغل محمَّلة مالاً وثياباً وهلك كثير من الروم عطشاً ونجا الملك وحده ولم يسلم من أمواله وخزائنه شيء البتة وكفى الله المؤمنين القتال. وقيل في عوده غير ذلك وهو أنَّ جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره وظنَّ الروم أنَّها كبسة فلم يدروا ما يفعلون حتى أنَّ ملكهم لبس خفاً أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر فتركه ولبس الخف الأسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم».

وقال أبو الفداء في أخذ الرها المار ذكره: «كانت الرها لعطير من بني نمير فاستولى أبو نصر بن مروان صاحب ديار بكر على حران وجهز من قتل عطيراً صاحب الرها فأرسل صالح بن مرداس (والي حلب) يشفع إلى أبي نصر بن مروان في أن يردّ الرها إلى ابن عطير وإلى ابن شبل بينهما نصفين فقبل شفاعته وسلَّمها إليهما سنة ٤١٦هـ (سنة ١٠٢٦م) وبقيت المدينة معهما، فراسل ابن عطير ارمانس (كذا يسمي المؤرخون العرب رومانس) ملك الروم وباعه حصته من الرها بعشرين ألف دينار وعدة قرى، وحضر الروم وتسلَّموا برج ابن عطير فهرب أصحاب ابن شبل واستولى الروم على البلد وقتلوا المسلمين وأخربوا المساجد». انتهى كلام أبي الفداء. وروى ابن الأثير الخبر كما رواه أبو الفداء وزاد عليه قوله: «وسمع نصر الدولة (صاحب ديار بكر) الخبر فسير جيشاً إلى الرها فحصروها وفتحوها عنوةً واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى بالبيعة التي لهم وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقي الروم في البرجين وسير إليهم عسكراً نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخلوا البلد وما جاورها من بلاد المسلمين، وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج وحمل إليهم خراجاً. وقد روى دي لارو في مختصر التاريخ المذكور حكاية غريبة في احتيال ابن مروان على استرداد الرها من يد الروم قال أتى إثنا عشر رجلاً عربياً إلى حاكم الرها ومن ورائهم خمس مئة فارس وخمس مئة جمل يحمل كل منها صندوقين، وقال الرجال المذكورون إنَّ هذه الجمال حاملة هدايا من قبل أمتهم لتقدم للملك طلباً لرضاه، فأحسن حاكم الرها

ملتقاهم ودعاهم إلى العشاء ولم يؤذن بدخول من صحبهم إلى المدينة. واتّفق أنّ فقيراً أرمنياً مضى يطلب صدقة فسمع رجلاً في صندوق يخاطب جاره في الصندوق الآخر بما سمع فترك الحاكم ضيوفه في منزله مخفورين ومضى مع حرسه إلى منزل العرب وأخذ يفتح كل صندوق ويقتل الجندي الذي فيه، وكان الفرسان تفرقوا لجمع العلف لخيلهم وكانوا يعودون أحدهم بعد الآخر فيقتله الحاكم وبعد قتل أكثر الفرسان وهرب بعضهم عاد الحاكم إلى ضيوفه فقتلهم واستبقى واحداً قطع يديه وجذع أنفه وصلم أذنيه وأرسله إلى قومه ليخبرهم ما كان من تعمّدهم الاحتيال .

ومما ذكره أبو الفداء وابن الأثير من الأحداث في أيام الظاهر أخذ الروم افاميه التي سميناها أباميا وكانت في جهة حماه في المحل المعروف الآن بقلعة المضيق. قالا ما ملخّصه: « في سنة ٤٢٣هـ (سنة ١٠٣٣م) ملك الروم قلعة افاميه بالشام وسبب ملكها أنّ الظاهر خليفة مصر سير إلى الشام الدزبري وزيره فملكها وقصد حسان بن المفرج الطائي فانهزم على الأردن من عسكر الظاهر وألحّ في طلبه فدخل بلاد الروم ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار إلى افاميه فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم وسيَّر الدزبري إلى البلاد يستنفر الناس للغزو » .

وفي سنة ٤٢٧هـ سنة ١٠٣٧م توفي الظاهر لإعزاز دين الله وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وأياماً وكانت له مصر والشام والخطبة له بافريقية، وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية إلّا أنّه مشتغل بلذاته محب للدعة والراحة وولي بعده ابنه أبو تميم معد ولقب المستنصر بالله (عن ابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون) .

عد ٧٩٦

المستنصر بالله وبعض ما كان في أيامه بسورية خاصة

كان مولد المستنصر بالقاهرة سنة ٤١٠هـ سنة ١٠٢٠م هذه رواية ابن الأثير. على أنّ رواية أبي الفداء أنّ مولده سنة ٤٢٠هـ ١٠٣٠م وبويع له بالخلافة سنة ٤٢٧هـ سنة ١٠٣٧م كما مرّ . قال ابن خلدون وقام بأمر المستنصر وزير أبيه أبو

القاسم علي بن أحمد الجرجراي (وفي الكامل لابن الأثير الجراجرئي) وكان بدمشق الوزيري (كذا في نسخة ابن خلدون وهو الدزبري الآتي ذكره) واسمه اقوش نكين وكانت البلاد صلحت على يديه لعدله ورفقه وضبطه، وكان الوزير الجرجراي يحسده ويبغضه وكتب إليه بابعاد كاتبه أبي سعيد فلم يجب الوزيري إلى ذلك واستوحش، وجاء جماعة من الجند إلى مصر في بعض حاجاتهم فداخلهم الجرجراي في التوثب به ودس معهم بذلك إلى بقية الجند بدمشق فتعللوا عليه . . . فخرج إلى بعلبك سنة ٤٣٣هـ (سنة ١٠٤٢م) فمنعه عاملها من الدخول فسار إلى حماه فمنع ايضاً فقوتل وهو في خلال ذلك ينهب فاستدعى بعض أوليائه من كفرطاب فوصل إليه في الفي رجل وسار إلى حلب فدخلها وتوفي بها في جمادى الاخرى من السنة (المذكورة). وفسد بعده أمر الشام وطمع العرب في نواحيه وولى الجرجراي على دمشق الحسين بن حمدان فكان قصارى أمره منع الشام وملك حسان بن مفرج فلسطين (الذي في الكامل أنَّه خرج وتولى فلسطين) وزحف معز الدولة بن صالح الكلابي إلى حلب فملك المدينة وامتنع عليه أصحاب القلعة وبعثوا إلى مصر للنجدة فلم ينجدهم فسلموا القلعة لمعز الدولة بن صالح فملكها» انتهى كلام ابن خلدون بحروفه.

قد مرَّ نقلاً عن أبي الفداء أنَّ شبل الدولة بن صالح بن مرداس بقي مالكاً لحلب إلى سنة ٤٢٩هـ سنة ١٠٣٨م فأرسل في أيام المستنصر عسكراً إلى شبل الدولة مقدامهم الدزبري (الذي سماه ابن خلدون الوزيري) فاقتتلوا مع شبل الدولة فقتل شبل الدولة وملك الدزبري حلب والشام جميعه تلك السنة ثمَّ توفي الدزبري سنة ٤٣٣هـ سنة ١٠٤٢م وكان لشبل الدولة أخ يقال له أبو علوان ثمال ولقبه معز الدولة وهو الذي ذكره ابن خلدون كما رأيت آنفاً، فهذا زحف إلى حلب بعد موت الدزبري وملكها سنة ٤٣٤هـ سنة ١٠٤٣م وبقي مالكاً لها إلى سنة ٤٤٠هـ سنة ١٠٤٩م فأرسل إليه المصريون جيشاً فهزمهم ثمَّ أرسلوا جيشاً آخر فهزمهم إيضاً ثمَّ صالح معز الدولة المصريين ونزل لهم عن حلب فأرسل المصريون رجلاً من أصحابهم يقال له الحسن بن علي بن ملهم ولقَّبوه مكين الدولة فتسلَّم حلب وسار معز الدولة إلى مصر.

وكان وزير المستنصر الحسن بن علي اليازورى ويازور من أعمال الرملة هذا ما رواه أبو الفداء وكذا روى ابن الأثير، وأرى روايتهما أصح من رواية ابن خلدون

النازوري بالتاء وربّما كان ذلك خطأ في المطبعة. فالمعلوم أنّ جهة الرملة بلد اسمها يازور أو يازر أو جازر وليس هناك بلد تسمى تازور فكان اليازورى قاضياً في الرملة على مذهب أبي حنيفة ثمّ تولّى الوزارة ودبّرها أعواماً، وفي سنة ٤٤٨هـ سنة ١٠٥٧م تغيّر عليه المستنصر فقبض عليه ووجد له مكاتبات إلى بغداد. وكانت بعد ذلك الخطبة ببغداد للمستنصر العلوي على يد البساسيري من مماليك بني بويه عند انقراض دولتهم واستيلاء السلاجقة على العراق.

وفي سنة ٤٥٥هـ سنة ١٠٦٤م كانت بالشام زلزلة عظيمة خرّب بها كثير من البلاد وانهدم بها سور طرابلس، وفيها ولي أمير الجيوش بدر مدينة دمشق من قبل المستنصر العلوي، ثمّ ثار به الجند (عن أبي الفداء جزء ٢ صفحة ١٩٣) وفي سنة ٤٦٠هـ سنة ١٠٦٨م كانت بفلسطين ومصر زلزلة شديدة حتى طلع الماء من رؤوس الآبار وهلك من الروم عالم عظيم وزال البحر عن السواحل مسيرة يوم (نظن ذلك على سبيل المبالغة) فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون فرجع الماء عليهم وأهلك خلقاً كثيراً. وفي سنة ٤٦١هـ سنة ١٠٦٩م احترق جامع دمشق بسبب فتنة وقعت بين المغاربة والمشارقة فضربت دار مجاورة للجامع بالنار فاتّصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها فأتى الحريق على الجامع فدثرت محاسنه وزال ما كان من الأعمال النفيسة فيه. وفيها كان بمصر غلاء شديد حتّى أكل الناس بعضهم وانتزح منها من قدر الانتزاح، واحتاج خليفة مصر المستنصر إلى إخراج الآلات وبيعها فأخرج من خزائنه ثمانين ألف قطعة بلور كبار وخمسة وسبعين ألف قطعة من الديباج واحد عشر ألف كزاغند (الدرع فارسية) وعشرين ألف سيف محلّى ووصل من ذلك إلى بغداد مع التجّار (عن أبي الفداء في المحل المذكور صفحة ١٩٥).

وفي سنة ٤٦٢هـ سنة ١٠٧٠م سار أمير الجيوش بدر من مصر إلى مدينة صور وكان قد تغلّب عليها القاضي عين الدولة بن عقيل وحاصرها فأرسل القاضي إلى الأمير قرلوا مقدم الأتراك في دمشق ليستنجده، فسار في اثني عشر ألف فارس فحصر صيدا وهي لأمير الجيوش بدر فرحل حينئذٍ بدر عن صور فعاد الأتراك ولما عادوا عاود بدر حصار صور براً وبحراً سنة ومع ذلك لم يبلغ غرضه فرحل عنها (عن ابن الأثير في تاريخ السنة المذكورة).

وظهرت في هذا العصر الدولة السلجوقية وهي منسوبة إلى سلجوق بن تقاق ويروى دقاق ومعناه القوس الجديد وكان من أمراء الأتراك وقرَّبه ملك الترك وقدَّمه ولقَّبه سباشي ومعناه قائد الجيش. وكان لسلجوق من الأولاد ارسلان وميكائيل وموسى فقتل ميكائيل في بعض الوقعات، ومن أولاده طغرل بك وداود وكانت بينهم وبين سلطان تركستان حروب هائلة واستولوا على خراسان وتقدَّموا من خراسان إلى غزنه وقهروا السلطان مسعود صاحبها وثبت قدمهم بخراسان وخطب لهم على منابرها في آخر سنة ٤٣١هـ سنة ١٠٤٠م وكان المتسلط منهم طغرل بك بن ميكائيل. وفي سنة ٤٤٧هـ سنة ١٠٥٦م زحف طغرل بك إلى بغداد فكثر الأرجاف بها وطاعه أهلها وخطب له الخليفة القائم بجوامع بغداد وقبض على الملك الرحيم فكان آخر من استولى على العراق من بني بويه ومات في سجنه بعد ثلاث سنين. وخرج طغرل بك من بغداد واستولى على الموصل واعمالها وأقام فيها أخاه ابراهيم نيال وكان طغرل بك قد ترك أخاه داود والياً في خراسان فمات داود سنة ٤٥١هـ سنة ١٠٦٠م فملك خراسان بعده ابنه الب ارسلان، وتزوج طغرل بك بابنة الخليفة القائم العباسي. وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥هـ سنة ١٠٦٤م وكان عقيماً لم يكن له ولد فاستقرت السلطنة بعده لابن أخيه الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق. ومن أشهر الأحداث في أيامه أسره الملك رومانس الرابع المسمى ديوجان سنة ٤٦٣هـ سنة ١٠٧١م، فان رومانس كان قد حمل لأوَّل مرة على بلاد المسلمين وبلغ منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس والي حلب ومن معه من العرب ثمَّ عاد إلى قسطنطينية في طريق اسكندرونة ثمَّ حمل ثانية في السنة المذكورة وبلغ إلى سبسطية في الكبادوك في مابة ألف جندي والتقاه الب ارسلان في خمسة عشر ألفاً على ما يقال، فأرسل الب ارسلان يطلب منه المهادنة فقال رومانس لا أهادنك إلَّا بالري فانزعج السلطان وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنَّط وقال، إن قتلت فهذا كفني، وزحف إلى الروم واشتدَّ القتال فانهزم الروم وقتل جواد الملك رومانس فوقع إلى الأرض واحتاطه المسلمون وأخذوه أسيراً فلما رآه الب ارسلان ضربه ثلاث مرات بالسوط على عادتهم عند أسر الملوك ثمَّ مدَّ إليه يده وعانقه وأمنه ولاطفه وأكرم مثواه. وكان يقول له أنا رجل مثلك ويمكن أن يعرض لي ما يعرض لك والويل لمن تسكره خمرة نصره فتراني لا اعتدك أسيراً

بل أجعلك ملكاً. وقال له يوماً ألم أرسل إليك في المهادنة فأبيت فقال الملك دعني من التوبيخ وافعل ما تريد. فقال السلطان لو أسرتني ما كنت تفعل بي؟ فقال القبيح. فقال السلطان وما تظن أنني أفعل بك؟ فقال إمَّا أن تقتلني وإمَّا أن تشهرني في بلادك والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول المال واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان ما عزمت على غير هذا فأعاملك بما أسمع أنَّ سنَّتك تأمر به وهو عمل المعروف ونسيان الإساءة. ودفع إليه عشرة آلاف دينار ليتجهَّز بها ووعده بأن يخلي سبيل الأسرى من الروم جميعاً على شريطة أن يخلي الروم سبيل الأسرى من المسلمين. وعقدا صلح بينهما وعينا تخوم المملكتين وسير السلطان مع الملك عسكراً ليوصلوه إلى مأمنه، وبعد عوده أرسل إلى السلطان مائتي ألف دينار وحلف على أنَّه لا يقدر على غير ذلك. وكان ميخائيل السابع عند أسر رومانس قد وثب على سرير المملكة فاستوى عليه (ذكر ذلك ابن العبري في مختصر تاريخ الدول ودي لارو في مختصر تاريخ الملك السافل وأبو الفداء في صفحة ١٩٦).

إنَّ السلطان الب ارسلان بعد أن استتبَّ له الملك في خراسان والعراق وغيرهما أخذ ينازع الخليفة العلوي سورية، ففي سنة ٤٦٣هـ سنة ١٠٧١م سار الب ارسلان حتى نزل على حلب فبذل له صاحبها محمود بن نصر بن مرداس الطاعة دون أن يطئ بساطه فلم يرضَ الب ارسلان بذلك وحاصر المدينة، فخرج محمود ووالدته ليلاً ودخلا على السلطان الب ارسلان فأحسن إليهما وأقرَّ محموداً على مكانه بحلب. وفي السنة المذكورة قصد يوسف ابن ابق الخوارزمي وهو من أمراء ملكشاه بن الب ارسلان الشام وفتح مدينة الرملة ثمَّ بيت المقدس وأخذهما من نواب الخليفة المستنصر صاحب مصر ثمَّ دمشق وضيَّق على أهلها ولم يملكها وفي سنة ٤٦٥هـ سنة ١٠٧٣م قتل السلطان الب ارسلان قتله يوسف الخوارزمي مستحفظ أحد الحصون على دجلة أراد الب ارسلان قتله فقتله يوسف بسكين كانت بيده وخلفه في الملك ابنه المسمى ملكشاه (عن أبي الفداء وغيره).

عد ٧٩٧

تتمة أخبار المستنصر بالله العلوي وما كان في أيام ملكشاه السلجوقي بسورية

كانت والدة المستنصر العلوي قد استولت في مصر على الأمر فضعف أمر الدولة وصارت العبيد حزباً والأتراك حزباً وجرت بينهم حروب وكان ناصر الدولة ابن حمدان من أكبر قواد مصر فاجتمعت إليه الأتراك وجرت بينهم وبين العبيد عدة وقعات وحصر ناصر الدولة مصر وقطع الميرة عنها، فغلت الأسعار بها وفرغ ما كان بخزائن المستنصر ثمَّ استولى ناصر الدولة على مصر وانهزمت العبيد واستبدَّ ناصر الدولة بالحكم وقبض على والدة المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرّق عن المستنصر أولاده وأهله حتى بقي يقعد على حصيرة. وكان غرض ناصر الدولة أن يخطب للخليفة القائم العباسي فدرى بغرضه قائد كبير من الأتراك اسمه الدكز فاتَّفق مع جماعته وقتلوا ناصر الدولة وأقاربه في مصر على آخرهم. وكان ذلك سنة ٤٦٥هـ سنة ١٠٧٣م وبقي الأمر مضطرباً بمصر. ففي سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م استدعى المستنصر بدر الجمال وكان متولياً سواحل الشام وشكا إليه حاله واختلال دولته فقتل الدكز والوزير ابن كنيده وغيرهما من الأمراء والقواد وأقام منار الدولة وشيد من أمرها ما كان قد درس، وأصلح اسكندرية ودمياط وسار إلى الصعيد وقهر المفسدين وعادت مصر إلى أحسن ما كانت عليه (عن ابن الأثير وأبي الفداء صفحة ٢٠٠).

وفي سنة ٤٦٨هـ سنة ١٠٧٦م استولى يوسف الخوارزمي[1] من أمراء ملك شاه على دمشق وهو الذي ذكرنا آنفاً استيلاءه على الرملة وبيت المقدس وحصاره دمشق وعوده عنها سنة ٤٦٣هـ. فقد كان في كل سنة بعد ذلك يقصد أعمال دمشق فيأخذ غلاتها فيقوى هو وعسكره ويضعف أهل دمشق وجندها، ففي رمضان سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م سار إلى دمشق وحاصرها وأميرها المعلي بن

(١) سماه ابو الفدا في تاريخ سنة ٤٦٣ يوسف بن ابق الخوارزمي كما ذكر انفاً وسماه في تاريخ سنة ٤٦٨ انسز وسماه ابن الاثير في تاريخ سنة ٤٦٨ افسيس والافسيس. وسماه ابن خلدون اتسزين افق، وقد سماه الشاميون اقسقس، والصحيح هذا وهو اسم تركي.

حيدرة من قبل الخليفة المستنصر فلم يقدر عليها. فانصرف عنها، وساء أميرها المعلي السيرة مع الجنود والرعية فثار به العسكر وأعانهم العامة فهرب إلى بانياس ثمَّ منها إلى صور ثمَّ أخذ إلى مصر فحبس بها ومات محبوساً. ولما هرب من دمشق ولى الجند والرعية عليهم انتصار بن يحيى المصمودي الملقَّب برزين الدولة ووقع الخلف بين عشيرته وأحداث المدينة وعرف يوسف ذلك فعاد إلى دمشق سنة ٤٦٨ المذكورة فحاصرها فعدمت الأقوات فسلَّمها أهلها إليه بامان وعوض انتصار عنها بقلعة بانياس ومدينة يافا ودخل هو دمشق وخطب فيها للمقتدي بأمر الله الخليفة العباسي وكان آخر ما خطب فيها للعلويين وتغلَّب يوسف على أكثر الشام لملكشاه السلجوقي وفرح أهل دمشق لكنَّه ظلمهم وأساء السيرة فيهم (عن ابن الأثير وذكره ابن خلدون وأبو الفداء أيضاً) . وفي سنة ٤٦٩هـ سنة ١٠٧٦م سار الاقسيس أي يوسف المذكور من دمشق إلى مصر وحصرها وضيَّق على أهلها ولم يبق غير أن يملكها ولكن قوي المصريون عليه فهزموه، وقيل عاد بغير قتال وهلك جماعة من أصحابه فوصل إلى دمشق وقد تفرَّق أصحابه، فرأى أهلها صانوا مخلفيه وأمواله فشكرهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة، وأتى إلى بيت المقدس فرأى أهله قبحوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم في محراب داود فقاتلهم وفتح المدينة عنوةً ونهبها وقتل من أهلها، فأكثر حتى قتل من التجأ إلى المسجد الأقصى، وكف عمَّن كان عند الصخرة. وقد أرسل بدر الجمالي أمير الجيوش بمصر عسكراً لطرد يوسف المذكور من دمشق وكان السلطان ملكشاه أقطع أخاه تتش الشام وما يفتحه فسار إلى حلب وحاصرها فأرسل يوسف يستنجده على عسكر بدر الجمالي فسار تتش إلى دمشق ولمَّا قرب منها رحل عنها عسكر المصريين وركب يوسف لملتقاه بالقرب من المدينة فلامه تتش على تأخُّره عن الطلوع إلى القائد وقبض عليه وقتله ملك تتش دمشق وأحسن السيرة في أهلها وسمي تاج الدولة، وكان ملكه دمشق سنة ٤٧١هـ سنة ١٠٧٩م. وقيل سنة ٤٧٢هـ سنة ١٠٨٠م (عن ابن الأثير وأبي الفداء). قال ابن خلدون: «وملك ملكشاه بعد ذلك حلب واستولى السلاجقة على الشام أجمع». ولكن يظهر أنَّ ملكهم الشام حينئذٍ لم يكن ثابتاً وراسخاً فان مسلم بن قريش الملقَّب شرف الدولة صاحب الموصل سار إلى حلب سنة ٤٧٢هـ سنة ١٠٨٠م فحاصرها وسلَّمها أهلها إليه سنة ٤٧٣هـ سنة ١٠٨١م، فأرسل ملك شاه إليه العساكر سنة ٤٧٧هـ سنة ١٠٨٥م وهزمه من الموصل فعاد إلى حلب.

وفي السنة المذكورة سار سليمان بن قطلش السلجوقي صاحب قونية إلى الشام فملك مدينة أنطاكية بمخامرة الحاكم فيها من جهة النصارى وكانت أنطاكية بيد الروم من سنة ٣٥٨هـ (سنة ٩٧٠م إذ أخذها نيقوفور فوقا) فافتتحها سليمان في سنة ١٠٨٥ (عن أبي الفداء). وقال ابن الأثير في ذلك ما ملخَّصه: «إنَّ سبب ملك سليمان المدينة أنَّ صاحبها الفردوس (كذا) الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم ورتَّب بها شحنة وكان مسيئاً إلى أهلها وإلى جنوده حتى أنَّه حبس ابنه فاتَّفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان واستدعوه، فأتى بثلاثمائة فارس وكثير من الرجالة وسار في جبال وعرة حتى وصل إليها للموعد فنصب السلالم باتفاق من الشحنة ومن معه وصعد السور وأخذ المدينة فقاتله أهل البلدة فهزمهم وقتل منهم كثيرين ثمَّ عفا عن الباقين، وتسلَّم القلعة المعروفة بالقسيان وأخذ من الأموال ما يجاوز الاحصاء وأحسن إلى الرعية وعدَّل فيهم وأمرهم بعمارة ما خرَّب ومنع أصحابه من النزول في دورهم وكتب إلى السلطان ملكشاه يبشره بذلك وينسب هذا الفتح إليه لأنَّه من أهله فأظهر ملكشاه البشارة به وهنأه الناس وقد قال فيه الأبيوردي من قصيدة مطلعها:

لمعت كناصية الحصان الأشقرِ   نار بمعتلج الكثيب الأعفرِ
وفتحت أنطاكية الروم التي   نشرت معاقلها على الاسكندرِ
وطئت مناكبها جيادك فانثنت   تلقى اجنتها بنات الأصفرِ

ولما ملك سليمان أنطاكية أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب حلب يطلب ما كان يحمله إليه والي أنطاكية من المال ويخوفه معصية السلطان. فأجابه اما طاعة السلطان فهي شعاري ودثاري والخطبة له والسكة في بلادي وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته وأما المال الذي كان صاحب أنطاكية يحمله قبلي فهو كان كافراً وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئاً، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية ونهب سليمان أيضاً بلد حلب فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره فقال أنا كنت أشد كراهية لما يجري ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت ولم تجر عادتي بنهب مسلم، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعادوه. وجمع شرف الدولة الجموع من العرب والتركمان وسار إلى أنطاكية ليحاصرها وجمع سليمان عساكره وسار إليه فالتقيا في طرف من أعمال

أنطاكية سنة ٤٧٨هـ سنة ١٠٨٦م واقتتلوا فانهزم شرف الدولة وجموعه وقتل بعد أن صبر في القتال وقتل بين يديه أربعماية غلام من أحداث حلب، وكان بيده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب وما والاها من البلاد وما كان لأبيه وعمه قرواش ولما قُتل قصد بنو عقيل أخاه ابراهيم بن قريش وهو محبوس وملكوه أمرهم وسار سليمان إلى حلب فحاصرها ولم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها (عن ابن الأثير صفحة ٥٦ جزء ١٠ وأبي الفداء صفحة ٢٠٥ جزء ٢).

وبعد أن رحل سليمان عن حلب أرسل في سنة ٤٧٨هـ سنة ١٠٨٧م إلى ابن الحبيبي (ويروى الحتيتي) العباسي مقدم أهل حلب يطلب منه تسليم حلب إليه فاستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملك شاه، واستدعى تتش صاحب دمشق أخا السلطان ملكشاه فسار تتش إلى حلب وجرت الحرب بين تتش وابن عمه سليمان فانهزم عسكر سليمان وثبت سليمان في القتال، فقيل إنَّه لما انهزم عسكره انتحر وقيل بل قتل في المعركة واستولى تتش على عسكره، وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة بعد قتله في السنة السالفة ملفوفة في إزار إلى حلب ليسلموها إليه فأرسل تتش في هذه السنة جثة ابن عمه سليمان ملفوفة في إزار إلى حلب ليسلموها إليه، فأجابه ابن الحبيبي بالمطاولة إلى أن يرد مرسوم ملكشاه في أمر حلب، فحاصر تتش حلب وضيَّق على أهلها وملكها بمخابرة أحد محافظي برج بها فانَّه أصعد رجال تتش بالحبال والسلالم إليها ودخلوا منه إلى المدينة فبقي في قلعة حلب سالم بن مالك العقيلي ابن عم شرف الدولة، فحاصر تتش القلعة سبعة عشر يوماً فبلغه خبر وصول مقدمة جيش أخيه السلطان ملكشاه إلى حلب فرحل عنها (عن ابن الأثير صفحة ٦٠ جزء ١٠ وأبي الفداء صفحة ٢٠٦ جزء ٢).

لما كاتب ابن الحبيبي السلطان ملكشاه في أمر حلب كان السلطان في أصفهان فسار إلى الرها وهي بيد الروم من حين اشتروها من ابن عطير كما قدمنا ذكره فحصرها وملكها وسار إلى قلعة جعبر وبها صاحبها سابق الدين جعبر القشيري وهو شيخ أعمى فأمسكه وأمسك ولديه وكانا يقطعان الطريق، وسار إلى منبج فملكها وسار إلى حلب ولما قاربها رحل أخوه تتش عنها إلى البرية وتوجَّه إلى دمشق ووصل السلطان إلى حلب وتسلَّمها وتسلَّم القلعة من سالم بن مالك العقيلي المذكور على أن يعوِّضه بقلعة جعبر وسلَّمها السلطان إليه، ولما استقرَّ السلطان ملك شاه بحلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب

سيزر ودخل في طاعته وسلَّم إليه اللاذقية وكفرطاب وأفاميا (أباميا) فأجابه السلطان إلى المسألة وترك قصده أن يملك هذه البلاد عنوة، وأقرَّ شيزر على الأمير نصر المذكور وسلَّم حلب إلى قسيم الدولة اقسنقر الآتي ذكره ثمَّ ارتحل السلطان إلى بغداد (عن ابن الأثير صفحة ٦٠ وأبي الفداء صفحة ٢٠٧).

وكان بدر الجمالي أمير جيوش مصر قد سار سنة ٤٧٨هـ سنة ١٠٨٦م إلى دمشق وحصرها وبها تاج الدولة تتش المذكور وضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائداً إلى مصر. وفي سنة ٤٨١هـ سنة ١٠٨٩م جمع اقسنقر المذكور صاحب حلب عساكره وسار إلى قلعة شيزر وصاحبها الأمير نصر المذكور وضيَّق عليه ونهب الربض ثمَّ صالحه الأمير فعاد اقسنقر إلى حلب. وفي سنة ٤٨٢هـ سنة ١٠٩٠م عمرت مئذنة جامع حلب وقام بعملها القاضي أبو الحسن الخشاب. وفي هذه السنة خرجت عساكر مصر إلى الشام فحصروا مدينة صور وكان قد تغلَّب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل وامتنع عليهم، ثمَّ توفي ووليها أولاده فحصرهم العسكر المصري فلم يقدروا على مقاومته فسلموها إليه ثمَّ سار العسكر إلى صيدا ففعلوا بها كذلك ثمَّ ساروا إلى عكا وافتتحوها عنوة وقصدوا جبيل فملكوها وأصلحوا أحوال هذه البلاد واستعملوا عليها الأمراء والعمال وعادوا إلى مصر (ابن الأثير صفحة ٧٢). وفي سنة ٤٨٤هـ سنة ١٠٩٢م كان السلطان ملك شاه قد أمر اقسنقر والي حلب بمساعدة أخيه تتش والي دمشق على ملك الشام وما بقي بأيدي خليفة مصر العلوي من البلاد فسار اقسنقر مع تتش ونزلا على حمص وبها صاحب خلف بن ملاعب فملك تتش حمص وأمسك ابن ملاعب وولديه ثمَّ سار تتش إلى عرقة فملكها ثمَّ سار إلى افامية (اباميا) فملكها. وكان بها خادم للخليفة المصري فنزل بالامان وابنه ثمَّ سار إلى طرابلس فامتنعت عليهم وفي سنة ٤٨٥هـ سنة ١٠٩٣م خرج السلطان ملك شاه من بغداد إلى الصيد فعاد مريضاً بحمى محرقة وتوفي بها. وكان من أحسن الناس صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الاسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت له ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب، وكانت أيامه أيام عدل وأمن وأخفت زوجته تركان خاتون موته وفرَّقت الأموال في الأمراء وسارت بهم إلى أصفهان، واستحلفت العسكر لولدها محمود وعمره أربع سنين وشهور وخطب له في بغداد وغيرها، ونازعه أخوه بركيارق السلطنة ثمَّ نازعهما عمهما تتش والي

دمشق أخو ملكشاه كما سنذكر في الفصل التالي وفي سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٩٥م توفي المستنصر بالله خليفة مصر العلوي وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر وعمره سبعاً وستين سنة وولي خلافة مصر بعده ابنه أبو القاسم أحمد وتسمى المستعلي بالله .

عد ٧٩٨
ما كان من الأحداث في أيام خلفاء ملكشاه السلجوقي والمستعلي بالله خليفة مصر

قد مرَّ أنَّ تراكان خاتون زوجة ملكشاه حملت ابنها محمود إلى أصفهان مع العساكر وخطب له في بغداد وغيرها، وكان له أخ اسمه بركيارق من أم أخرى وكان بأصفهان فهرب منها حين وصل إليها أخوه في العساكر، فأرسلت أم الملك محمود عسكراً إلى بركيارق فاقتتلوا فانهزم عسكر الخاتون وسار بركيارق في أثرهم وحصرهم بأصفهان وأخذ تاج الملك (وهو) وزير محمود أسيراً فقتله بعض أعدائه وكان ذلك سنة ٤٨٥هـ سنة ١٠٩٣م ففي سنة ٤٨٦هـ سنة ١٠٩٤م تحرَّك تتش والي دمشق أخو ملكشاه لطلب السلطنة بعد موت أخيه واتَّفق معه اقسنقر والي حلب وخطب له باغي سيان والي أنطاكية وبزان (في الكامل يوزان) والي الرها. وسار تتش ومعه اقسنقر فافتتح نصيبين عنوة ثمَّ قصد الموصل وفيها ابراهيم بن قريش المار ذكره، فكان قتال شديد أخذ فيه ابراهيم المذكور أسيراً وجماعة من أمراء العرب فقتلهم تتش وملك الموصل وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة له فتوقفوا فيها ثمَّ سار واستولى على ديار بكر وسار إلى اذربيجان وكان بركيارق ابن أخيه قد استولى على كثير منها فسار لقتال عمه فقال اقسنقر والي حلب إنَّما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان، ملكشاه وأمَّا إذا كان بركيارق ابن السلطان قد تملَّك فلا نكون مع غيره، وخلى تتش ولحق ببركيارق فضعف تتش لذلك وعاد إلى الشام (عن أبي الفداء صفحة ٢١٤ وغيره).

وخطب في بغداد لبركيارق وأقرَّه الخليفة المقتدي بالله ولقّب ركن الدولة، وأمَّا تتش عمه فبعد عوده إلى الشام أخذ يجمع العساكر ويعد العدد وكثرت جموعه وخاف منه اقسنقر والي حلب لأنَّه تركه ولحق بابن أخيه وطفق يحشد الجنود أيضاً

وأيده بركيارق بالأمير كربوغا (كذا سماه أبو الفداء وسماه ابن الأثير كربوقا) والتقت عساكر الطرفين سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٩٥م عند نهر سبعين قريباً من تل سلطان وبينه وبين حلب ستة فراسخ واشتدَّ القتال فخامر بعض عسكر اقسنقر وصار مع تتش وانهزم الباقون وثبت اقسنقر في ساحة الحرب فأخذ أسيراً وأحضر إلى تتش فقال له تتش لو ظفرت بي ما كنت صنعت قال كنت أقتلك فقال تتش أنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليَّ به وقتل اقسنقر وسار تتش إلى حلب فملكها وأسر الأمير كربوغا المذكور وأرسله إلى حمص فسجنه بها، ثمَّ استولى تتش على حران والرها والجزيرة كلها وملك ديار بكر وسار إلى اذربيجان فملكها وملك همذان أيضاً وأرسل يطلب الخطبة ببغداد من المستظهر بالله الخليفة العباسي، فأجيب إلى ذلك ولقِّب تاج الدولة. ولما بلغ بركيارق خبر استيلاء عمه تتش على اذربيجان سار إلى اربيل وقرب من عسكر عمه ولم يكن معه غير ألف رجل وعسكر عمه خمسون ألفاً، فكبست فرقة من عسكر نتتش بركيارق فهرب إلى أصفهان وكانت تركان خاتون أم السلطان محمود قد ماتت فدخل بركيارق أصفهان وبها أخوه محمود فاحتاط عليه جماعة من كبراء عسكر أخيه وأرادوا سمل عينيه فلحق محموداً جدري قوي فتوقفوا في سمل بركيارق، لينظروا ما يكون لمحمود فمات محمود وكان موته فرجاً لبركيارق. ثمَّ جدر بركيارق وعوفي فاجتمعت عليه العساكر فسار بها سنة ٤٨٨هـ سنة ١٠٩٦م لقتال عمه تتش والتقوا بموضع قريب من الري فانهزم عسكر تتش وثبت هو في ساحة الوغى فقتل، واستقامت السلطنة لبركيارق. وإذا أراد الله أمراً كان مفعولاً فلو لحق بركيارق مائة فارس عند هربه إلى أصفهان لأدركوه وأسروه ولو قصده عمه تتش وقت مرض أخيه محمود أو وقت مرضه لفاز بالسلطنة واستقامت له، فلله الأمر في كل حال (عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وكان لتاج الدولة تتش أبناء أكبرهم رضوان ودقاق أما دقاق فكان في الوقعة مع أبيه وأما رضوان فبلغه خبر مقتل أبيه وهو متوجه للاستيلاء على العراق، فعاد إلى حلب وفيها من جهة أبيه أبو القاسم حسن بن علي الخوارزمي ولحق برضوان جماعة من قواد أبيه ثمَّ لحقه بحلب أخوه دقاق وكان مع رضوان أيضاً الأمير باغي سيان بن محمَّد التركماني والي أنطاكية وجناح الدولة وكان مزوجاً بأم رضوان وهو من أكبر القواد واستمالوا أكثر جند القلعة ونادوا ليلاً بشعار الملك

رضوان واحتاط رضوان على أبي القاسم الخوارزمي والي حلب وطيب قلبه وخطب لرضوان بحلب ثمَّ سار بمن معه إلى الرها فاستولى عليها وأطلق قلعتها لباغي سيان والي أنطاكية واستولى على ديار بكر ووقع اختلاف في عسكر رضوان بين باغي سيان وجناح الدولة المذكورين فعاد إلى حلب وعاد باغي سيان إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي. وكان في دمشق ساوتكين خادم تتش والياً في قلعتها فكاتب دقاق سراً يستدعيه ليملكه دمشق فخف دقاق من حلب إلى الشام وأرسل أخوه رضوان خيلاً خلفه فلم يدركوه، ووصل دقاق إلى دمشق فسلمها ساوتكين إليه ووصل إليه جماعة من خواص أبيه فأكرمهم وسار إليه باغي سيان التركماني صاحب أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي الذي كان والياً بحلب ثمَّ قتل دقاق ساوتكين الخادم الذي أحسن إليه واستبدَّ بولاية دمشق. ففي سنة ٤٩٠هـ سنة ١٠٩٨م سار رضوان من حلب إلى دمشق ليأخذها من أخيه دقاق وسار معه باغي سيان والي أنطاكية وجناح الدولة زوج أمه ووصلوا إلى دمشق فلم ينل رضوان منها غرضاً، فارتحل إلى القدس فلم يملكها وتراجعت عنه عساكره فرجع إلى حلب ثمَّ فارق باغي سيان رضوان وسار إلى أخيه دقاق وحسن له أن يقصد أخاه رضوان ويأخذ حلب منه فسار في عسكر إلى أخيه وجمع رضوان العسكر والترك والتركمان والتقى مع أخيه على قنسرين فانهزم دقاق وعسكره ونهبت خيامهم وعاد رضوان إلى حلب منصوراً، ثمَّ اتَّفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق ثمَّ خطب الملك رضوان للمستعلي بأمر الله العلوي خليفة مصر أربع جمع ثمَّ خشي من عاقبة ذلك فقطعها وأعاد الخطبة العباسية. وفي سنة ٤٩١هـ سنة ١٠٩٩م كان وصول عساكر الافرنج إلى سورية ونرجئ الكلام فيهم إلى تاريخ القرن الثاني عشر ولكن يقضي علينا مساق تاريخنا أن نستتم تاريخ رضوان ودقاق وبركيارق وغيرهم لئلَّا يحتاج القرَّاء إلى مطالعة أخبارهم في تاريخ القرن الثاني عشر وفي مجلَّد آخر.

إنَّ باغي سيان والي أنطاكية المار ذكره مرات كان على ولايته عند قدوم الافرنج إلى أنطاكية فناصبهم بشجاعة عظيمة عنوةً فخرج هو منها هارباً مرعوباً حتى غشي عليه، وأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة ما يثبت على الفرس فتركوه مرمياً واجتاز رجل أرمني به وهو على آخر رمق فقطع رأسه وحمله إلى الافرنج بأنطاكية سنة ٤٩١هـ سنة ١٠٩٩م. وجهز دقاق بن تتش صاحب دمشق وجناح الدولة زوج أم الملك رضوان (وكان قد فارق رضوان من حلب وسار

إلى حمص فملكها) وغيرهما من الأمراء والقواد جيشاً وساروا على الافرنج بأنطاكية وبلغوا إلى مرج دابق وكانت بينهم وقعات آخرها ظهور الافرنج عليهم. وفي سنة ٤٩٢هـ سنة ١١٠٠م كانت حروب بين بركيارق وبين أخيه محمَّد بن ملكشاه ثمَّ اتَّفق سنجر أخوهما مع محمَّد ونازعا بركيارق أخاهما السلطنة واستمرَّت الحرب بينهما إلى سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٤م حين استقرَّ الصلح بينهما وحلفا على ذلك. أما البلاد التي استقرت لمحمَّد ووقع الصلح عليها فهي من النهر المعروف باسبيذز إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ومن العراق بلاد صدقة بن مزيد، وما بقي من السلطنة فهو لبركيارق ولما وصلت الرسل إلى المستظهر بالله الخليفة العباسي خطب لبركيارق في بغداد.

وفي السنة المذكورة أي سنة ١١٠٤م توفي دقاق بن تتش صاحب دمشق فخطب طغتكين الاتابك (معنى الكلمة أمير الأمراء) بدمشق لابن دقاق وكان طفلاً عمره سنة واحدة ثمَّ قطع خطبته وخطب للبلتاش بن تتش عم هذا الطفل ثمَّ قطع خطبة بلتاش وأعاد خطبة الطفل واستقرَّ طغتكين في دمشق. وفي سنة ٤٩٨هـ سنة ١١٠٥م توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه وكان عمره خمساً وعشرين سنة ومدة سلطنته اثنتي عشرة سنة انقضت بالحروب والمحن ولمَّا استقام أمره أدركته منيته. وكان قد عهد بالسلطنة لابنه ملكشاه وعمره أربع سنين وثمانية أشهر وبعد موته خطب له بجوامع بغداد ثمَّ تغلَّب عليه عمه محمَّد وصارت السلطنة له.

وأمَّا رضوان صاحب حلب ففي سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٦م استولى على قلعة افاميه (اباميا وهي قلعة المضيق) بعد قتل ابن ملاعب واليها ثمَّ أخذها الافرنج منه وفي سنة ٥٠٣هـ سنة ١١١٠م صالح الافرنج بعد أخذهم منبج على أنَّه يدفع إليهم اثنين وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ثمَّ توفي سنة ٥٠٧هـ سنة ١١١٤م وقام بملك حلب بعده ابنه الب ارسلان الملقَّب بالأخرس ولم يكن أخرس حقيقة وإنَّما كان في لسانه حبسة وتمتمة، وكانت أمه بنت باغي سيان صاحب أنطاكية المذكور واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم وكان الحكم والأمر إليه.

فهذه كانت حالة هذه البلاد عندما قدم الافرنج إليها من انقسام ملوكها وتوفر عددهم واختلاف بعضهم مع البعض وكانت سواحل فلسطين وفينقيا إلى طرابلس

تحت ولاية مصر العلوي وهو المستعلي وقد توفي سنة ١١٠١. فهذان الانقسام والاختلاف عاونا الافرنج على أخذ أكثر البلاد وإيقاعهم بالمسلمين كما سوف ترى.

الفصل الثاني

المشاهير في العلم في سورية ومن عاصرهم في القرن الحادي عشر

عد ٧٩٩

المشاهير السوريون في هذا القرن

أبو العلاء المعري

هو أحمد بن عبدالله بن سليمان إلى قضاعة التنوخي وكنيته أبو العلاء اللغوي الشاعر قرأ النحو واللغة على أبيه وعلى محمّد بن عبدالله بن السعد النحوي بحلب وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة وله من النظم «لزوم ما لا يلزم»، وهو كبير يقع في خمسة أجزاء (وقد طبع عما قريب جزآن منه بمصر) وله «سقط الزند» أيضاً وقد شرحه بنفسه وسماه ضو السقط. وقال ابن خلكان بلغني أنّ له كتاباً سماه «الايك والغصون» وهو المعروف «بالهمزة والردف» وهو يقارب مائة جزء. وحكى لي من وقف على المجلّد الأوّل بعد المائة من كتاب الهمزة والردف. وكان علامة عصره ولد سنة ٣٦٣هـ (سنة ٩٧٤م) بالمعرة وهي بلدة بالقرب من حماه وشيزر وهي منسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري فتسمى معرة النعمان وكان أعمى لأنّه جدر وعمره ثلاث سنين فغشي يمنى عينيه بياض وذهبت اليسرى

جملة وقيل ولد أعمى وقد شرح ديوان المتنبي وسمى شرحه كتاب اللامع العزيزي في شرح المتنبي ولما قرىء عليه قال كأنَّما نظر المتنبي إليَّ بلحظ الغيب حيث قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ

واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب، وشرح ديوان البحتري وسماه غيث الوليد وتكلَّم على غريب أشعارهم ومعانيها ومأخذهم من غيرهم وما أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع. ودخل إلى بغداد مرتين وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثمَّ رجع إلى المعرة ولزم منزله وشرع في التصنيف وأخذ منه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق وكاتبه العلماء والوزراء وسمى نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيه، ومكث خمساً وأربعين سنة لا يأكل لحماً تديناً لأنَّه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين وهم لا يأكلونه كيلا يذبحوا الحيوان ففيه تعذيب له وهم لا يرون بالايلام مطلقاً في جميع الحيوانات. هذا ما قاله ابن خلكان. وقال أبو الفداء (صفحة ١٨٥ جزء ٢ من تاريخه) ونقلت عنه أشعار وأقوال علم بها فساد عقيدته ونسب إلى التمذهب بمذهب الهنود لتركه أكل اللحم خمساً وأربعين سنة وكذلك البيض واللبن وكان يحرم ايلام الحيوان .. . وكان يظهر الكفر ويزعم أنَّ لقوله باطناً وأنَّه مسلم في الباطن فمن شعره المؤذن بفساد عقيدته قوله:

عجبت لكرى واشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى اله يضام ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود اله يحب رسيس الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلا دِ لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر

ومن ذلك قوله أيضاً

زعموا أني سأبعث حياً بعد طول المقام في الأرماسِ
وأجوز الجنان ارتع بها بين حور وولدة أكياسِ
أي شيء أصاب عقلك يا مسكين حين رميت بالوساسِ

ومن ذلك

أتى عيسى فبطَّل شرع موسى وجاء محمَّد بصلاة خمسِ
وقالوا لا نبيٌّ بعد هذا فضلَّ القوم بين غدٍ وأمسِ
ومهما عشت في دنياك هذه فما تخليك من قمرٍ وشمسِ
إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت الصحيح أطلت همسي

ومن ذلك

تاه النصارى والحنيفة ما اهتدت ويهود قطرى والمجوس مضللهْ
قسم الورى قسمين هذا عاقل لا دين فيه وديِّن لا عقل لهْ

وقد توفي أبو العلاء المعري سنة ٤٤٩هـ سنة ١٠٥٨م. قال ابن خلكان بلغني أنَّه أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت.

هـذا مـا جـنـاه أبـي عـلـيَّ ومـا جـنـيـت عـلـى أحـد

وهو متعلِّق أيضاً باعتقاد الحكماء فانهم يقولون إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه لأنَّه يتعرَّض للحوادث والآفات. ورثاه تلميذه أبو الحسن علي بن همام بقوله:

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد ارقت اليوم من جفني دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنَّه مسك فسامعه تضمخ أو فما

والتنوخي نسبة إلى تنوخ ومعناه الاقامة وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هناك فسموا تنوخاً، وقبيلة تنوخ احدى القبائل الثلاث نصارى العرب وهم بهرا وتنوخ وتغلب (عن ابن خلكان وأبي الفداء).

عبد المحسن الصوري

هو أبو محمَّد عبد المحسن بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري الشاعر المشهور أحد الفضلاء المحسنين المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ حسن المعاني رائق الكلام مليح النظام من محاسن أهل الشام، وله ديوان شعر أحسن فيه كل

الاحسان. ومن محاسن شعره قصيدته في عليّ بن الحسين والد الوزير أبي القسم المغزلي ومطلعها.

أترى بشأر أم بدينِ علقت محاسنها بعيني
في لحظها وقوامها ما في المهنّدِ والرديني

إلى أن استخلص بقوله:

كانت كذلك قبل أن يأتي علي ابن الحسينِ

وهي قصيدة طويلة ولها حكاية ظريفة وهي أنّه كان بعسقلان رئيس يقال له ذو المنقبتين فجاءه بعض الشعراء وامتدحه بهذه القصيدة وزاد عليها بيتاً وهو:

ولك المناقب كلّها فلِمَ اقتصرت على اثنتينِ

فاستحسنها الرئيس وأجزل جائزته ولمّا خرج قال له بعض الحاضرين هذه القصيدة لعبد الحسن فقال اعلم هذا واحفظ القصيدة ثمّ أنشدها فقيل له لِمَ أقبلت عليه وأجزته هذه الجائزة السنية؟ قال لم أفعل ذلك إلّا لأجل البيت الذي زاده عليها. فإنّ هذا البيت ليس لعبد المحسن بل لهذا الرجل وهو في نهاية الحسن وقد ذكر صاحب «اليتيمة» هذين البيتين لعبد الحسن:

عندي حدائق شكر غرس جودكمُ قد مسها عطش فليسقِ من غرسا
تداركوها وفي أغصانها رمقٌ فلن يعود اخضرار العود أن يبسا

واجتاز يوماً بقبر صديق له فأنشد:

عجباً لي وقد مررت على قبرك كيف اهتديت قصد الطريقِ
أتراني نسيت عهدك يوماً صدقوا ما لميت من صديقِ

ولما ماتت أمّه وجد عليها وجداً كثيراً وأنشد:

رهينة احجار بيداء ذكركِ تولت فحلت عروة المتمسّكِ
وقد كنت أبكي ان تشكّت وإنّما أنا اليوم أبكي أنّها ليس تشتكي

وهذا المعنى مأخوذ من قول المتنبي:

وشكيتي فقد السقام لأنّه قد كان لما كان لي أعضاء

مخلص الدولة صاحب قلعة شيزر

هو أبو المتوَّج مقلَّد بن نصر بن منقذ الكناني الملقَّب مخلِّص الدولة وكان مقلّد في جماعة كثيرة من أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر عند جسر بني منقذ المنسوب إليهم وكانوا يترددون إلى حلب وحماة في تلك النواحي وكان لهم بها الدور النفيسة والأملاك المثمنة وذلك كله قبل أن ملكوا قلعة شيزر. وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون أقدارهم وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء اجلاء علماء ولم يزل مخلص الدولة في رئاسته وجلالته إلى أن توفي سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م بحلب وحمل إلى كفرطاب. وقيل كانت وفاته سنة ٤٣٥هـ سنة ١٠٤٤م وقد رثاه القاضي أبو علي حمزة بن الرزاق بقصيدة قال فيها ابن خلكان إنَّها من فائق الشعر وذكرها كلها وإن كانت طويلة لكنَّها غريبة قليلة الوجود بأيدي الناس ومطلعها :

الاكل حي مقصدات[1] مقاتله ... وآجل ما يخشى من الدهر عاجله
وهل يفرح الناجي السليم وهذه ... خيول الردى قدامه وحبائله
لعمر الفتى أنَّ السلامة سلَّم ... إلى الحين والمغرور بالعيش آمله

ومنها :

مضى قيصر لم تغن عنه قصوره ... وجدل كسرى ما حمته مجادله
وما صدَّ هلكاً عن سليمان ملكه ... ولا منعت منه أباه سرابله
وما نفس الانسان إلَّا خزامة ... بأيدي المنايا والليالي مراحله
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى جودُهُ فوق الركاب ونائله
أناعيهُ أنَّ النفوس منوطة ... بقولك فانظر ما الذي أنت قائله
فيا عين سحي لا تشحي بسائل ... على ماجدٍ لا يعرف الشحَّ سائله
لعمرك أنّي في الذي عنَّ كله ... شريك عنان ناصح الود ناحله

---

(١) اقصد السهم اصاب فقتل مكانه.

ورثاه أيضاً أبو محمّد عبدالله بن الربيع الخفاجي الحلبي الشاعر المشهور بقصيدة طويلة رائية ومدحه بأخرى حائية، وقد أجاد فيهما ورثى أخاه أبا المغيث منقذ الذي توفي سنة ٤٣٩هـ سنة ١٠٤٨م بقوله:

غربت خلايقك الحسان غريبة ورمى الزمان دنوها ببعادِ
ذهبت كما ذهب الربيع وخلفت قيض[1] الربيع حدادة الأكبادِ

العسقلاني

هو الشيخ المجيد أبو علي الحسن بن عبد الصمد العسقلاني صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة وكان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى، ويقال إنَّ القاضي كان جل اعتماده على حفظ كلامه وذكره عماد الدين الأصبهاني بالخريدة فقال المجيد مجيد كنعته قادر على ابتداع الكلام ونحته وله الخطب البديعة والملح الصنيعة. وذكره ابن بسام في الذخيرة وسرد له جملة من الرسائل وذكر هذا المقطوع من نظمه وهو من بعض قصيدة:

ما زال يختار الزمان ملوكه حتى أصاب المصطفى المتخيرا
قل للأولى ساسوا الورى وتقدَّموا قدماً هلموا شاهدوا المتأخرا
تجدوه أوسع في السياسة منكمُ صدراً وأحمد في العواقب مصدرا
إن كان رأي شاوروه احنفاً أو كان بأس نازلوه عنترا
قد صام والحسنات ملءُ كتابه وعلى مثال صيامه قد أفطرا
خطروا إليك فخاطروا بنفوسهم وأمرت سيفك فيهم أن يخطرا
عجبوا لحلمك أن تحوَّل سطوةً وزلال خلقك كيف عاد مكدرا
لا تعجبوا من رقة وقساوة فالنار تقدح في قضيب أخضرا

وذكر أنَّه توفي مقتولاً بسجن في القاهرة سنة ٤٨٢هـ سنة ١٠٩٠م ومن المنسوب إليه الشعر الآتي:

---

(١) بدل الربيع أو عوضه.

يا سيف نصري والمهند يانع   وربيع أرضي والسحاب مصافُ
أخلاقك الغرّ النميرة ما لها   حملت قذى الواشين وهي صلافُ

ابن حيّوس الدمشقي

هو أبو الفتيان محمّد بن سلطان بن محمّد بن حيّوس الملقّب مصطفى الدولة الشاعر المشهور كان يدعى بالأمير لأنَّ أباه كان من أمراء الغرب، وهو أحد الشعراء الشاميين المحسنين وفحولهم المجيدين له ديوان شعر كبير، لقي جملة من الملوك والأكابر ومدحهم وأخذ جوائزهم وكان منطلقاً إلى بني مرداس أصحاب حلب وله فيهم القصائد الأنيقة. وكان قد مدح محمود بن نصر بن مرداس فأجازه ألف درهم فلما مات وقام ولده نصر مقامه قصده ابن حيوس بقصيدته الرائية يمدحه فيها ويعزيه عن أبيه ومما قاله فيها:

تباعدت عنكم حرفة لا زهادة   وسرت إليكم حين مسني الضرُّ
فلاقيت طل الأمن ماله حاجز   يصدد باب العز ما دونه سترُ
فجاد ابن نصر لي بألف تصرمت   وإني عليم أن سيخلفها نصرُ
لقد كنت مأموراً لترجى لمثلها   فكيف وطوعا أمرك النهي والأمرُ

ولما فرغ من انشادها قال الأمير نصر والله لو قال عوض قوله سيخلفها سيضعفها لا ضعفتها له وأعطاه ألف دينار. وكان قد اجتمع على باب الأمير نصر جماعة من الشعراء وامتدحوه وتأخّرت صلاته عنهم فسيروا إليه ورقة كتبوا عليها:

على بابك المحروس منا عصابة   مفاليس فانظر في أمور المفاليسِ
وقد قنعت منك الجماعة كلها   بعشر الذي أعطيته لابن حيوسِ
وما بيننا هذا التفاوت كله   ولكن سعيد لا يقاس بمنحوسِ

فلمّا وقف الأمير على هذه الأبيات أطلق لهمماية دينار وقال والله لو قالوا بمثل الذي أعطيته لابن حيوس لأعطيتهم مثله. ومن محاسن شعر ابن حيّوس

القصيدة اللامية التي مدح بها أبا الفضائل سابق بن محمود وهو أخو الأمير نصر المذكور ومما قاله:

طالما قلت للمسائل عنكم واعتمادي هداية الضلالِ
إن ترد علم حالهم عن يقين فالقهم في مكارم أو نزالِ
تلقَ بيض الأعراض سود مثار النقع خضر الأكناف حمر النصالِ

وكان ابن حيوس قد أثرى وحصلت له نعمة ضخمة من بني مرداس فبنى داراً بحلب وكتب على بابه من شعره:

دار بنيناها وعشنا بها في نعمة من آل مرداسِ
قوم نفوا بؤسي ولم يتركوا عليَّ للأيام من باسِ
قل لبني الدنيا ألا هكذا فليصنع الناس مع الناسِ

وقد ولد ابن حيوس سنة ٣٩٢هـ سنة ١٠٠٢م بدمشق وتوفي سنة ٤٧٣هـ سنة ١٠٨١م وهو غير ابن حبوس الشاعر المغربي وهو بالباء الموحدة المخففة وابن حيوس بالياء المشددة وقد تصحّف على كثيرين اسم أحدهما بالآخر.

ابن الخياط الدمشقي

هو أبو عبدالله أحمد بن محمّد التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي الكاتب المجيد ولد بدمشق سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م وتوفي بها سنة ٥١٧هـ سنة ١١٢٤م وطاف البلاد وامتدح الناس ودخل بلاد العجم وامتدح بها ولما اجتمع بابن حيوس أستاذه بحلب وعرض عليه شعره فتشاءم وقال قلّما نشأ ذو صناعة ومهر فيها إلّا وكان دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه. قال ابن خلكان لا حاجة إلى ذكر شيء من شعره لشهرة ديوانه ولو لم يكن إلّا القصيدة البائية لكفاه فكيف وأكثر قصائده غرر ومطلع القصيدة المذكورة:

خذا من صبا نجد أماناً لقلبهِ فقد كاد ريّاها يطير بلبهِ
وإياكما ذاك النسيم فانّه متى هبَّ كان الوجد أيسر خطبهِ

وهي طويلة ومن محاسن شعره:

أتظنني لا أستطيع أحيل عنك الدهر ودي
من ظنَّ أنّ لا بدَّ منه فان منه ألف بدٍّ

وكان ابن الخياط تلميذاً لابن حيوس وقد قصد حلب سنة ٤٧٢هـ سنة ١٠٨٠م وبها وقتئذٍ أستاذه ابن حيوس فكتب إليه:

لم يبق عندي ما يباع بدرهم وكفاك مني منظري عن مخبري
الا بقية ماء وجه صنتها عن أن تباع وأين أين المشتري

فقال ابن حيوس ولو قال: أنت نعم المشتري. لكان أحسن.

عد ٨٠٠

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم من غير السوريين

البستي الشاعر

هو أبو الفتح علي بن محمَّد الكاتب البستي الشاعر المشهور صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس. فمن أقواله البديعة: من أصلح فاسده أرغم حاسده، من أطاع غضبه أضاع أدبه، عادات السادات سادات العادات، من سعادة جدك وقوفك عند حدك، أجهل الناس من كان للإخوان مذلاً وعلى السلطان مدلا، حد العفاف الرضا بالكفاف، ما لخرق الرقيع ترقيع. ومن نادر شعره قوله:

إن هز أقلامه يوماً ليعلمها انساك كل كمي هز ذابله
وإن أقرَّ على رق أنامله أقرَّ بالرقِّ كتاب الأنام له

وله أيضاً:

فقد يلبس المرء خز الثياب ومن دونها حالة مضنيّة
كمن يكتسي خده حمرة وعلتها ورم في الريَّة

وله أيضاً:

إذا تحدثت في قوم لتؤنسهم ... بما تحدث من ماض ومن آتِ
فلا تعد لحديث أنَّ طبعهم ... موكل بمعاداة المعاداتِ

وله:

تحمّل أخاك على ما به ... فما في استقامته مطمعُ
وأنّى له خلقٌ واحدٌ ... وفيه طبائعه الأربعُ

وقد توفي سنة ٤٠٠ وقيل سنة ٤٠١هـ وهي سنة ١٠١٠ أو سنة ١٠١١م.

الرئيس ابن سينا

أتحفنا أبو الفرج ابن العبري (في كتابه مختصر تاريخ الدول) بترجمة ابن سينا لنفسه قال: «إنَّ أبي رجلاً من أهل بلخ وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصرف في قرية خرمتين وتزوج أمي من قرية يقال لها افشننة وولدت منها بها، وولد أخي ثمَّ انتقل إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن والأدب وكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى مني العجب. وأخذ والدي يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلمه منه ثمَّ جاء إلى بخارى أبو عبدالله الناتلي (ويروى البابلي والنابلي) وكان يدعي الفلسفة وأنزله إلى دارنا رجاء تعلمي منه فقرأت ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة ثمَّ أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح وكذلك كتاب أقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ثمَّ توليّت حل الكتاب بأسره ثمَّ انتقلت إلى المجسطي وفارقني الناتلي. ثمَّ رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وتعهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثمَّ توفَّرت على القراءة سنة ونصفاً وكلَّما كنت أتحيَّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصلَّيت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المغلق منه والمتعسّر. وكنت أرجع بالليل إلى داري وأشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليَّ

قوتي ثمَّ أرجع إلى القراءة ومتى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها حتى أنَّ كثيراً منها انفتح لي وجهها في المنام، ولم أزل كذلك حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي ثمَّ عدت إلى العلم الإلهي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه وألتبس عليَّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه. وآيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وحضرت يوماً وقت العصر في الوراقين وبيد دلال مجلَّد ينادي عليه فعرضه عليَّ فرددته رد متبرم معتقد أنَّ لا فائدة في هذا العلم، فقال لي اشتر مني هذا فانَّه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، فرجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح عليَّ أغراض ذلك الكتاب بسبب أنَّه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت بشيء على الفقراء شكراً لله تعالى. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ولكنه اليوم معي أنضج وإلَّا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء ثمَّ مات والدي وتصرَّفت بي الأحوال وتقلَّدت شيئاً من أعمال السلطان ودعتني الضرورة إلى الارتحال من بخارى والانتقال عنها إلى جرجان، وكان قصدي الأمير قابوس فاتَّفق في أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه وموته. ثمَّ مضيت إلى راهستان ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت إلى جرجان وانشئت في حالي قصيدة فيها البيت القائل:

لما عظمت فليس مصر واسعي   لما غلا ثمني عدمت المشتري

قال أبو عبيدة الجورجاني إلى هاهنا انتهى ما حكاه الشيخ عن نفسه. وفي هذا الموضع أذكر أنا بعض ما شاهدت من أحواله في حال صحبتي له وإلى حين انقضاء مدته. قال في مدة مقامه في جرجان صنف أوَّل «القانون» و«مختصر المجسطي» وغير ذلك ثمَّ انتقل إلى الري واتَّصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة، ثمَّ خرج إلى قزوين ومنها إلى همذان فاتَّصل بخدمة كدبانويه (ويروى كربانويه) وتولى النظر في أسبابها، ثمَّ سألوه تقلّد الوزارة فتقلَّدها، ثمَّ اتَّفق تشويش العسكر عليه واشفاقهم منه على أنفسهم فكبسوا داره وأخذوه إلى الحبس وأخذوا جميع ما كان يملكه، وساموا الأمير شمس الدولة قتله فامتنع منه وعدل إلى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم، فتوارى الشيخ في دار بعض أصدقائه أربعين يوماً فعاد الأمير طلبه وقلده الوزارة ثانياً. ولمَّا توفي شمس الدولة وبويع ابنه طلبوا أن يستوزر الشيخ فأبى

عليهم وتوارى في دار أبي غال العطار وهناك أتى على جميع الطبيعيات والالهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات من كتاب الشفاء، وكاتب علاء الدولة (أمير أصفهان) سراً يطلب المسير إليه فاتُّهمه تاج الملك (أمير همذان) بمكاتبته وأنكر عليه ذلك وحثَّ في طلبه فدلَّ عليه بعض أعدائه فأخذوه وادوه إلى قلعة يقال لها بروجان وأنشأ هناك قصيدة فيها:

دخولي باليقين كما تراه   وكل الشك في أمر الخروج

وبقي فيها أربعة أشهر ثمَّ أخرجوه وحملوه إلى همذان ثمَّ خرج منها متنكراً وأنا وأخوه وغلامان معه في زي الصوفية إلى أن وصلنا إلى أصفهان فصادف في مجلس علاء الدولة الاكرام والاعزاز الذي يستحقه مثله، وصنَّف هناك كتباً كثيرة قال وكان الشيخ قويَّ القوى كلَّها . .. وكان سبب موته قولنج عرض له، ولحرصه على برئه حقن نفسه في يوم واحد ثمان مرات فتقرّح بعض امعائه وظهر به سجح وعرض له الصرع الذي قد يتبع القولنج وصار من الضعف بحيث لا يقدر على القيام، فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي لكنه مع ذلك كان لا يستحفظ، ويكثر التخليط في أمر المعالجة ولم يبرأ من العلة كل البرء. ثمَّ قصد علاء الدولة في همذان وسار معه الشيخ فعاودته في الطريق تلك العلة إلى أن وصل إلى همذان وعلم أنَّ قوته قد سقطت وأنَّها لا تفي بدفع المرض فأهمل مداواة نفسه وأخذ يقول المدبر الذي كان يدبرني عجز عن التدبير الآن فلا تنفع المعالجة، وبقي على هذا أياماً ثمَّ انتقل إلى جوار ربه ودفن بهمذان وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة وكان موته سنة ٤٢٨هـ سنة ١٠٣٨م وقال بعضهم فيه:

ما نفع الرئيس من حكمه الطب   ولا حكمه على النيراتِ
ما شفاه الشفاء[1] من ألم المو   ت ولا نجاه كتاب النجاة[2]

قال ابن خلكان كان ابن سينا نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه وصنف كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة والاشارات والقانون وغير ذلك ما يقارب مئة مصنف ما بين مطول ورسالة في فنون شتى، وله رسائل بديعة منها رسالة حي بن

---

(١) الشفاء كتاب جليل من تأليف ابن سينا.
(٢) النجاة كتاب آخر له.

يقظان، ورسالة سلامان وابسال، ورسالة الطير وغيرها. وتقدَّم عند الملوك وخدم علاء الدين بن كالويه وعلت درجته عنده وانتفع الناس بكتبه وهو أحد فلاسفة المسلمين وله شعر فمن ذلك قوله في النفس:

هبطت إليك من المحل الأرفعِ ورقـاء ذات تـعـزز وتمـنـعِ
محجوبة عن كل مقلة عارفٍ وهي التي سفرت ولم تتبرقعِ
وصلت على كرهٍ إليك وربّما كرهت فراقك وهي ذات تفجعِ
أنفت وما ألفت فلمّا واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقعِ

إلى آخر هذه القصيدة المشهورة التي شطرها الطيب الذكر المطران جرمانس فرحات الماروني وتراها في ديوانه المشهور. وقال الشيخ كمال الدين بن يونس إنَّ مخدوم ابن سينا سخط عليه واعتقله في السجن وكان ينشد:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وفي السجن مات أخس المماتِ
فلم يشف ما نابه بالشفاء ولم ينجُ من موته بالنجاةِ

وقد امتدحه المؤرخون الافرنج ومما قيل فيه في معجم التاريخ والجغرافية لبوليه أنّه أتقن الفلسفة وكان أوّل من تعمّق بدرس كتب أرسطو وعرف الناس بها وألف مقالات في المنطق وفي ما وراء الطبيعة Metaphisique معتمداً على كتب أرسطو ومن آرائه أنَّ موته كان سنة ١٠٣٦ وأنَّ منزلته عند العرب منزلة ابوقراط وأرسطو عند اليونان، واستمرَّ كتابه «القانون» قروناً كثيرة بمنزلة أساس للتعليم في آسيا وفي أوروبا أيضاً. وقد طبعت كتبه في العربية برومية سنة ١٥٩٣م وقد ترجم منها إلى اللاتينية كتاب القوانين والنصائح الطبية في البندقية سنة ١٤٨٣م ثمَّ سنة ١٥٦٤م ثمَّ سنة ١٦٠٨م وطبعت مؤلفاته الفلسفية سنة ١٤٩٠م وقد ترجم فتيه إلى الافرنسية كتابه في المنطق وطبعه في باريس سنة ١٦٥٨م.

الثعالبي صاحب اليتيمة

هو أبو منصور عبد الملك بن محمَّد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري. قال ابن بسام صاحب الذخيرة في حقه كان في وقته راعياً بلغات العلم وجامع شتات النثر

والنظم رأس المؤلفين في زمانه وأمام المصنفين بحكم اقرانه، سار ذكره سير المثل وضربت إليه اباط الابل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب وتآليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع. وأكثر راوٍ لها وجامع من أن يستوفيها حد أو وصف أو يوفي حقوقها نظم أو وصف وذكر له طرفاً من النثر وأورد شيئاً من نظمه فمن ذلك ما كتبه إلى الأمير أبي الفضل الميكالي:

لك في المفاخر معجزات جمة ... أبداً لغيرك في الورى لم تجمعِ
بحرانِ بحر في البلاغة شأنه ... شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
كالنور أو كالسحر أو كالبدو أو ... كالوشي في برد عليه موشعِ

وله من التآليف «يتيمة الدهر» في محاسن أهل العصر وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها وفيها يقول أبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الاسكندري الشاعر المشهور:

أبيات أشعار اليتيمة ... أبكار أفكار قديمه
ماتوا وعاشت بعدهم ... فلذاك سميت اليتيمه

وله أيضاً كتاب «فقه اللغة» (وقد طبعه المرحوم الكونت رشيد الدحداح بباريس) وسحر البلاغة وسر البراعة ومن غاب عنه المطرب ومؤنس الوحيد وشيء كثير جمع فيه أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم وفيها دلالة على كثرة اطلاعه وله أشعار كثيرة. وكانت ولادته سنة ٣٥٠هـ سنة ٩٦٢م وتوفي سنة ٤٢٩هـ سنة ١٠٣٨م والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب لأنّه كان فرّا .

أبو اسحق الشيرازي

هو الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن علي الشيرازي الفيروزبادي الملقّب جمال الدين سكن بغداد وتفقه على جماعة من الأعيان، وصحب القاضي أبا الطيِّب الطبري كثيراً وانتفع به وناب عنه في مجلسه، وصار أمام وقته ببغداد وتولى مدرسة نظام الملك بها ولم يزل بها إلى أن مات، وصنف التصانيف المفيدة منها المهذب والتنبيه في الفقه واللمع وشرحها في أصول الفقه والنكت في الخلاف والمعونة والتلخيص في الجدل وله الشعر الحسن. ومنه:

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ   فقالوا ما إلى هذا سبيلُ
تمسك ان ظفرت بودِّ حيٍّ   فان الحر في الدنيا قليلُ

وقال فيه عاصم الشاعر البغدادي:

تراه من الذكاء نحيف جسم   عليه من توقده دليلُ
إذا كان الفتى ضخم المعالي   فليس يضره الجسمُ النحيلُ

ولد سنة ٣٩٣هـ سنة ١٠٠٣م ١٠٠٢م وتوفي سنة ٤٧٦هـ ١٠٨٤م ورثاه أبو القاسم عبدالله بن ناقيا بقوله:

أجرى المدامع بالدم المهراق   خطب أقام قيامة الآماقِ
ما لليالي لا نلفّ شملها   بعد ابن بجدتها أبي اسحاقِ
إن قيل مات فلم يمت من ذكره   حي على مرّ الليالي باقِ

الفصل الثالث

ملوك الروم إلى آخر هذا القرن والخلفاء العباسيين فيه

قد ذكرنا تراجم الملوك الرومانيين إلى هرقل الملك لأنّهم كانوا يلون سورية ثمّ أضربنا عن ذكر تراجمهم لانقطاع ولايتهم عليها معتاضين بذكر تراجم الخلفاء الذين تولوا هذه البلاد. على أنّه كثيراً ما دعانا مساق التاريخ إلى ذكر بعضهم وإيراد أخبار الحروب والعلائق التي كانت بين الخلفاء وبينهم، ولذلك يشتاق قراء تاريخنا إلى الاطلاع على أخبارهم ولو موجزة، وعلى سني ملكهم ليكونوا أكثر اطلاعاً في معرفة التاريخ. ولهذا نورد في العدد التالي أسماءهم وسني ملكهم واشارة إلى شيء من أخبارهم على سبيل فهرست مبسوطٍ قليلاً. قد تحتّم علينا في تاريخ هذا القرن الحادي عشر أن نعدل عن ذكر الخلفاء العباسيين إلى ذكر الخلفاء العلويين الفاطميين الذين تولوا سورية في هذا القرن فتكملة لتاريخ العباسيين نفرد

لهم جزءًا من هذا الفصل نذكر به من قام منهم بالخلافة بعد من ذكرناهم قبلاً تعميماً للفائدة .

عد ٨٠١

ملوك الروم من بعد هرقل إلى آخر القرن الحادي عشر

بعد وفاة هرقل ملك الروم سنة ٦٤١م خلفه ابنه قسطنت الثاني وعمره اثنتا عشرة سنة وأخذ منه معاوية الخليفة أعمالاً كثيرة من ملكه ومقته شعبه لرذائله، فترك قسطنطينية وأقام في صقلية فقتله أحد أعوانه في الحمام بسيراكوزا سنة ٦٦٨م وخلفه ابنه قسطنطين الرابع الملقَّب اللحياني لطول لحيته وشاركه في الملك أخواه طيبار وهرقل فقتلهما واستبدَّ بالملك، وحاربه العرب وحصروا قسطنطينية فلم يقووا عليها، وعاون على حرم بدعة المشيئة الواحدة في المجمع السادس العام سنة ٦٨٠ وتوفي سنة ٦٨٥م . وخلفه تلك السنة ابنه يوستنيانس الثاني وعمره ست عشرة سنة ويلقَّب بالأخرم لجذع أنفه، وثار به مسودوه سنة ٦٩٤ وجذعوا أنفه ونفوه إلى تراسة وبقي منفياً عشر سنين دبر الملك فيها لاونس ويسمى لاون، ثمَّ طيبار ابسيمار ثمَّ رجع يوستنيانس إلى ملكه سنة ٧٠٥م بمعاونة تريبانيوس ملك البلغار ومات قتيلاً سنة ٧١١م .

وقام بالملك بعد يوستنيانس سنة ٧١١م فيليبيك ويسمى وردان وبردان، وهو أرمني ترقى في المناصب في قسطنطينية واقتحم قسطنطينية سنة ٧١١م، فدخلها دون معارض واستوى على أريكة الملك ومقته شعبه لتشيعه لبدعة المشيئة الواحدة فثل عرشه ونفي سنة ٧١٣م ومات في منفاه، وخلفه في السنة المذكورة أنسطاس الثاني. وكان كاتباً لسالفه وأحسن السيرة في شعبه ونظم الجندية وحاربه المسلمون ثمَّ أرغمه توادوسيوس الثالث الآتي ذكره على أن يعتزل الملك ويترهب سنة ٧١٦م، ثمَّ حاول استرداد ملكه وعلى عرشه لاون الأيسوري فسلمه بعض الخونة إلى هذا الملك فقطع رأسه سنة ٧١٩م .

وخلف توادوسيوس الثالث أنسطاس الثاني بعد اعتزاله سنة ٧١٥م، وكان توادوسيوس جابي الخراج في بيتيليا فنادى به الجنود في رودس ملكاً فأتى إلى

قسطنطينية وأكره أنسطاس على الاعتزال لكنه اضطرَّ هو أن يترك الملك إذ نازعه أباه لاون الأيسوري سنة ٧١٧م وأن يتَّخذ طريق الرهبانية.

وأقام بالملك لاون الثالث الأيسوري المذكور سنة ٧١٧م وكان قائداً لجيش أنسطاس المذكور وحارب المسلمين وهزمهم عن قسطنطينية، ولكنَّهم استحوذوا في أيامه على مدن كثيرة في الكبادوك وبنطس واشتهر بتأييده بدعة محاربي الصور واضطهاده الكاثوليكيين، وعزل جرمانس بطريرك قسطنطينية وقد حرمه البابا غريغوريوس الثاني ثمَّ غريغوريوس الثالث وتوفي سنة ٧٤١م.

وخلفه بعد وفاته ابنه قسطنطين الخامس ويلقَّب بالزبلي لتغوطه بماء تعميده وتشيع لبدعة محاربي الصور واضطهد الكاثوليكيين وزاد عدد الشهداء في الكنيسة، ومات في حملة على البلغار سنة ٧٧٥م. وخلفه ابنه لاون الرابع وكان مشايعاً لمحاربي الصور وحارب العرب، واستمرَّ على منصة الملك خمس سنين إلى سنة ٧٨٠م وخلفه ابنه قسطنطين السادس وكان عمره حينئذٍ عشر سنين فدبرت أمه ايرينا الملك وصرفت عنايتها إلى استئصال بدعة محاربي الصور وإلى عقد المجمع النيقاوي الثاني العام سنة ٧٨٧م وصالحت هرون الرشيد صلحاً مذلاً للمملكة. وحاول ابنها قسطنطين سنة ٧٩٠م أن يتملَّص من سلطتها ويستبد في الملك فحجرته في قصره واثارت من الثائرين معه، ولكن ثارت عليها ثورة أخرى فنفيت واستمرَّت في المنفى خمسة عشر شهراً، ثمَّ صالحت ابنها ثمَّ كادت عليه فسملت عينيه واستبدَّت بالملك سنة ٧٩٧م، وحاولت عقد محالفة مع كرلس الكبير ملك المغرب. ثمَّ نهضت عليها عصابة فخلعتها عن الملك سنة ٨٠٢م، وملَّكت نيقوفور فنفاها وألجئت في منفاها أن تعيش بعمل يديها إلى أن ماتت سنة ٨٠٣م وأمَّا ابنها قسطنطين السادس فكان قد مات سنة ٧٩٧م.

أمَّا نيقوفور فهو الأوَّل بهذا الاسم فملك سنة ٨٠٢م كما مرَّ وعقد معاهدة مع كرلس الكبير ملك المغرب عينت فيها تخوم مملكتي المشرق والمغرب، وانتصر عليه هرون الرشيد وأرغمه على دفع جزية سنوية، وكان ميالاً لمحاربي الصور والمانويين ثمَّ قتله البلغاريون سنة ٨١١م وخلفه حينئذٍ ستوراق ولكنه لم يملك إلَّا شهرين وثل عرشه ميخائيل الأوَّل كوروبالات (وهو وصف لولي قصور الملوك) وحبب الروم إليه باحسانه إلى أرامل الجنود الذين قتلوا في الحرب مع المسلمين والبلغار وإلى أولادهم

ومنع محاربي الصور عن تعديهم على الكاثوليكيين، ولكن انتصر عليه البلغاريون واضطرَّ أن يعود إلى قسطنطينية لتخميد ثورة حدثت بها، وأمّر على الجنود في بلغارية لاون الأرمني، فحمل الجنود على أن ينادوه ملكاً فملكوه سنة ٨١٣م ونفي الملك ميخائيل، فاتَّخذ الزي الرهباني وعاش راهباً إلى سنة ٨٤٦م . وأمّا لاون الأرمني فانتصر على البلغارين وكان مشايعاً لمحاربي الصور وعني باصلاح النظام العسكري ومنع من بيع المناصب المدنية والجندية وقتل ليلة عيد الميلاد سنة ٨٢٠م، وخلفه في الملك ميخائيل الثاني ويلقَّب بالتمام وكان عزيزاً عند الملك لاون الأرمني وسماه بطريركاً، لكنَّه تغيَّر عليه لشكوى فحبسه ولما قتل الملك خرج من محبسه واستوى على عرش الملك، وكان ظالماً للكاثوليكيين ضعيفاً مع أعدائه أخذ المسلمون منه اكريت وصقلية وكالابيريا وتوفي سنة ٨٢٩م وخلفه حينئذٍ توافيل ابنه وتشيع لمحاربي الصور وكان في حرب دامية مع المعتصم بالله الخليفة العباسي، ودمَّر زبطره مدينة مولد هذا الخليفة، فدمَّر الخليفة عمورية مدينة مولد هذا الملك وتوفي سنة ٨٤٢م .

وخلفه تلك السنة ابنه ميخائيل الثالث الملقَّب بالسكّير وكان صغيراً فدبرت أمه الملكة توادورا واستحوذ عليه خاله برداس حتى حمله على أن يجافي أمَّه ويضطهدها، لكنَّه تغيَّر على برداس واماته وحصر الروسيون قسطنطينية في أيام هذا الملك فدفعهم عنها سنة ٨٦٦م، وشارك في الملك باسيليوس المكدوني فأهلكه وملك مكانه سنة ٨٦٧م. وكان في أيامه تغلُّب فوتيوس على بطريركية قسطنطينية كما مرَّ .

أمَّا الملك باسيل الأوَّل فكان مكدونياً وكان والداه فقيرين فتزلف إلى الملك ميخائيل الثالث حتى شاركه في الملك كما مرَّ، وشعر أنَّ الملك يريد قتله فعاجله بانتزاع حياته والخلافة له. وحارب المسلمين وأخذ صقلية منهم وطرد فوتيوس من كرسي قسطنطينية وأعاد إليه اغناطيوس لكنَّه ردَّ فوتيوس إلى هذا الكرسي بعد وفاة اغناطيوس، وله مقالة في صناعة تدبير الملك وضعها لابنه لاون السادس ومجموعة للقوانين كملها ابنه وتعرف بالباسيلية وشارك ابنه قسطنطين السادس في الملك سنة ٨٦٨ إلى سنة ٨٧٨ ثمَّ توفي سنة ٨٨٦م . وخلف باسيل ابنه لاون السادس ويلقب بالفيلسوف والحكيم سنة ٨٨٦م وعزل فوتيوس عن كرسي قسطنطينية وحارب البلغارين سنة ٨٨٩م، وكانت له حروب مع العرب فاستردوا صقلية منه ودمروا مدن آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل واستحوذوا على سالونيك سنة ٩٠٤م وغرّقوا الأسطول الرومي سنة ٩١١م. وله من التصانيف كتاب خطب وتنقيح

شرائع يوستنيانس وزيادته عليها شرائع الملوك الذين ملكوا بعده وقوانين نظام الجندية وتوفي سنة ٩١١م وخلفه في السنة المذكورة أخوه الملك اسكندر ابن الملك باسيل المكدوني لكنّه لم يملك إلّا سنة واحدة وتوفي سنة ٩١٢م .

وقام في الملك بعد اسكندر قسطنطين السابع ابن لاون السادس الحكيم ويسمى برفيروجانت وتأويلها المولود بالبرفير لأنَّ القابلة كانت تقبل بعض أولاد الملوك بالبرفير أو تفرش غرفة الولادة بالبرفير فيسمى من ولدوا كذلك برفيروجانت. ولما ملك قسطنطين هذا كان عمره احدى عشرة سنة فدبرت أمه زوا الملك ثمَّ غصب الملك منه رومانس الأوَّل الأرمني سنة ٩١٩م ولم يبق لقسطنطين إلَّا اسم ملك وشارك رومانس في الملك أبناؤه خريستوف وأسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرَّف به تصرُّف مالك خمساً وعشرين سنة أعني إلى سنة ٩٤٤م، فاغرى قسطنطين السابع ابني رومانس أسطفانس وقسطنطين الثامن (لأنَّ خريستوفر كان قد مات) بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلّا عرشه وحبساه في دير حيث مات سنة ٩٤٨م، وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه سنة ٩٤٥م مستبداً به واستتبَّ له إلى سنة ٩٥٩م حين مات مسموماً على ما يقال. ولهذا الملك تصانيف أهمَّها مقالة مشبعة في تدبير الملك وترجمة الملك باسيليوس المكدوني، وكتاب في مناصب المملكة ورتب الدولة، وكتاب في التاريخ إلى غير ذلك. وقد طبع الأب مين كتبه في جملة كتب المؤلفين اليونان .

وخلف رومانس الثاني قسطنطين السابع سنة ٩٥٩م وهو حفيد رومانس الأوَّل ابن ابنه قسطنطين الثامن ولم يكن له ما يذكر إلَّا اعتكافه على ملاذه واشتغاله بما لا فائدة منه للملك على أنَّه كان كان أمير جنده نيقوفور فوقا فأخذ اكريت وصقلية من يد المسلمين وافتتح حلب وغيرها من مدن سورية كما قدمنا ذكره. وكانت مدة ملك رومانس أربع سنين لأنَّه توفي سنة ٩٦٣م. وقيل إنَّ امرأته توافان دسَّت له سماً مات به فاختير للملك بعده نيقوفور فوقا برضى توافان أرملة رومانس المذكور التي تزوجها، وكان لها من رومانس ابنان باسيليوس وقسطنطين التاسع فشاركهما في الملك بل كان يقول إنَّه وصيهما لصغر سنهما، ولكن كان الأمر له وهو المالك حقيقة. وقد غزا سورية وأخذ أنطاكية وغيرها وكانت مدة ملكه ست سنين وكادت عليه توافان فقتلته على يد أحد عشاقها يوحنا سمسق سنة ٩٦٩م. وبعد مقتل نيقوفور فوقا نودي بيوحنا سمسق ملكاً فأعلن كسالفه أنَّه لا يريد أن

يكون إلَّا وصياً على الملكين باسيليوس الثاني وقسطنطين التاسع ابني رومانس الثاني أو شريكاً لهما في الملك، وكان قبلاً قائداً في جيش المشرق. وكان الملك رومانس الثاني أغراه بقتل نيقوفور فوقا سالفه فلم يقتله بل عاونه على أخذ الملك سنة ٩٦٣م ولكن عزله فوقا عن منصبه ونفاه. ففي سنة ٩٦٩م اتَّفق مع توافان الملكة وقتل فوقا وملك مكانه، ومن أعماله أخذه بلغاريا من يد الروسيين سنة ٩٧١م، وافتتاحه عدة مدن في سورية في سنة ٩٦٢م وسنة ٩٧٣م وسنة ٩٧٤م، وأصابه مرض في كيليكيا سنة ٩٧٥م فمات به ومعنى سمسق بالأرمنية القصير أو الصغير.

وبعد وفاة يوحنا سمسق استبدَّ الملكان باسيليوس الثاني وقسطنطين التاسع ابنا رومانس الثاني بالملك سنة ٩٧٦م ومن أعمالهما انتصارهما على البلغاريين وأخذهما منهم خمسة عشر ألف أسير ١٠١٣م وضمَّ بلغاريا إلى مملكتهما. وتوفي باسيليوس الثاني سنة ١٠٢٥م واستتبَّ الملك لأخيه قسطنطين التاسع وحده إلى أن توفي سنة ١٠٢٨م.

وخلف رومانس الثالث قسطنطين التاسع ١٠٢٨م وكان قسطنطين قد اختاره للملك معه وزوجه بابنته زوا وحارب الأتراك سنة ١٠٣٠م فظهروا عليه وأساء سيرته في مسوديه واعتسف وجار فعاملت عليه امرأته زوا فقتل في حمامه سنة ١٠٣٤م فخلفه الملك ميخائيل الرابع ويسمى البفلاغوني لأنَّه ولد بفلاغونية ولم تكن له قبل ملكه وجاهة لكن الملكة زوا كانت تحبه واستعملته في قتل زوجها رومانس الثالث ورقته إلى عرش الملك ولم يكن أهلاً له، فوكل تدبير المملكة إلى الخصي يوحنا أخيه. وحارب ميخائيل مع ذلك العرب والبلغاريين وكان له بعض النصر، وفي سنة ١٠٤١م اعتزل الملك وأخذ الطريقة الرهبانية ومات تلك السنة.

وخلفه ابن أخيه ويسمى ميخائيل الخامس ويلقَّب قلفط واختشى مكائد زوا الملكة عليه فنفاها، وهاج الشعب عليه فحجزوا عليه في دير وسملوا عينيه ونادوا بزوا ملكة مع اختها توادورا، فعقدت زيجة ثالثة مع قسطنطين العاشر سنة ١٠٤٢م فترك لها ازمة الملك إلى أن توفيت سنة ١٠٥٢م. ودبر قسطنطين الملك بعد وفاتها سنتين أعني إلى سنة ١٠٥٤م وترك السلاجقة تعظم قوتهم ويملكون البلاد إلى قرب قسطنطينية. ومات سنة ١٠٥٤م واستبدَّت تودورا أخت زوا بالملك وأحسنت سياسة شعبها فمدحوها وتوفيت سنة ١٠٥٦م وبها انقضت سلالة المكدونيين في ملوك الروم.

وخلفها الملك ميخائيل السادس سنة ١٠٥٦م ويلقَّب بالحربي وكان من قادة الجيش فاختارته توادورا خلفاً لها ولرغبته في أن يؤيِّد رجال الندوة والشعب ولايته اختار عمال النواحي وأعوان الملك منهم، فحنق عليه أصحاب المناصب الجندية فثاروا به وخلعوه وملكوا اسحق كومنانس ١٠٥٧م ومات ميخائيل غفلاً. أمَّا اسحق كومنانس فكان ابن عمانوئيل كومنانس والي المشرق، وبعد ارتقائه سدة الملك سنة ١٠٥٧م أجرى بعض الاصلاحات وأراد أن يشترك الاكليريكيون في المناصب المدنية واعتراه مرض الرئة فاعتزل الملك وتخلى عنه إلى قسطنطين دوكاس سنة ١٠٥٩م وانفرد في دير حيث مات سنة ١٠٦١م.

واستمرَّ قسطنطين دوكاس (اسم أسرته) وهو الحادي عشر بهذا الاسم على منصَّة الملك ثماني سنين أعني من سنة ١٠٥٩م إلى سنة ١٠٦٧م، وفي أيامه أكثر الأتراك والاونغاريون من السطو على المملكة، وأتمَّ النرمنديون استيلاءهم على كالابريا (بجنوب إيطاليا) التي كانت لم تزل من أعمال مملكة الشرق. وتوفي سنة ١٠٦٧م وخلفه فيها ابنه ميخائيل السابع ونازعه الملك رومانس ديوجان الذي كان قد تزوج بادوكسيا أم الملك ميخائيل أرملة قسطنطين دوكاس، واستبدَّ بالملك مع أودوكسيا سنة ١٠٦٨م. ولكن أسر الأتراك رومانس الرابع المذكور سنة ١٠٧١م فعاد ميخائيل السابع إلى ملكه واستمرَّ على منصَّته إلى سنة ١٠٧٨م حين خلعه عنه نيقوفور أحد قادة جيشه وحجره في دير ثمَّ صار أسقفاً على أفسس.

وقام بالملك بعد خلع ميخائيل السابع نيقوفور بوتونيان وهو الثالث بهذا الاسم من ملوك الروم ولكن نازعه الملك قائد آخر اسمه نيقوفور أيضاً ويعرف بنيقوفور بريان، ونادى به الجيش بايليريا ملكاً سنة ١٠٨٠م، وسمي نيقوفور الرابع فسير نيقوفور الثالث الكسيس كومنانس قائد جيشه لمحاربة مزاحمه فانتصر الكسيس على نيقوفور الرابع وأسره وسمل عينيه. وخاف الكسيس أن يعامله الملك بما عامل به مزاحمه فجعل الجيش يسميه ملكاً، وخلع نيقوفور الثالث وحجره في دير سنة ١٠٨١م.

وأمَّا الكسيس فهو ابن يوحنا كومنانس أخي الملك اسحق كومنانس المذكور آنفاً، وغصب الملك نيقوفور الثالث سنة ١٠٨١م كما رأيت وظهر على السلجوقيين، ولكن انتصر عليه النرمنديون، وقد عاون سفراؤه في أوروبا كثيراً على حشد الجيش لانقاذ الأرض المقدَّسة على أنّه بعد أن تبنى كودفروا دي بوليون مكر بالافرنج بنيقية

وأنطاكية، واتَّخذ زحفهم إلى الشرق وسيلة ليسترد إلى مملكته بعض المدن في آسيا الصغرى وردوس وصاقس الجزيرتين، وأساء سيرته في مملكته فنهب الكنائس وغفل عن كبتِ أصحاب البدع وقد توفي سنة ١١١٨م وكتبت بنته حنه تاريخه.

فهؤلاء هم ملوك الروم الذين تسنموا عرش قسطنطينية في هذه الحقبة التي انطوى عليها هذا المجلَّد الخامس من تاريخ سورية، وهي من وفاة هرقل سنة ٦٤١م إلى آخر القرن الحادي عشر وبدء القرن الثاني عشر وقد لخَّصنا موجز تراجم عن كثيرين من أعيان المؤرخين وسوف نلخِّص تراجم من خلفهم إلى سنة ١٤٥٣م التي أخذت فيها قسطنطينية من يدهم ان قيض الله لنا أن نتمّم هذا التاريخ.

عد ٨٠٢

الخلفاء العباسيون في القرن الحادي عشر

فرغنا من الكلام في الخلفاء العباسيين في القرن العاشر بذكر القادر بالله الذي توفي سنة ١٠٣٢م وضربنا عن ذكر خلفائه في تاريخ القرن الحادي عشر لاضطرارنا إلى ذكر الخلفاء العلويين أصحاب مضر وسورية في هذا القرن. ولئلَّا يفوت قراء كتابنا معرفة الخلفاء العباسيين، ولكي يتيسَّر لهم ادراك ما ذكرناه عن بعضهعم في تاريخ هذا القرن عدنا الآن والعود احمد إلى ذكر ترجماتهم بالإيجاز ما أمكن.

لما توفي القادر بالله سنة ٤٢٢هـ سنة ١٠٣٢م جلس في الخلافة ابنه القائم بأمرالله واسمه عبدالله أبو جعفر وهو السادس والعشرون منهم، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة. وفي سنة ٤٢٦هـ سنة ١٠٣٦م انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العياريين (من يخلون أنفسهم وهواها) وصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً والسلطان والخليفة عاجزان عنهم. وانتشرت العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق (عن أبي الفداء صفحة ١٦٦ من جزء ٢). وفي سنة ٤٤٧هـ سنة ١٠٥٦م قدم طغرل بك السلجوقي إلى جهات بغداد فأرسل قوادها يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابهم إلى ذلك. وتقدَّم الخليفة القائم بذلك فخطب له بجوامع بغداد واستأذن طغرل بك في دخول بغداد، فوجه إليه الخليفة رسلاً حلفوه للخليفة

وللملك الرحيم صاحب بغداد حينئذٍ، فدخل طغرل بك بغداد وحصلت فتنة بين عسكره وبعض أهل المدينة فهزم عسكر طغرل بك عامة الأهلين وعزا طغرل بك الفتنة إلى الملك الرحيم، فأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم أن يخرج هو وكبار القواد إلى طغرل بك وهم في أمان الخليفة، فخرجوا فقبض طغرل بك على الملك الرحيم والقواد فعظم ذلك على الخليفة وشكا عدم حرمته، فأفرج طغرل بك عن بعض القواد وأبقى بعضهم والملك في الاعتقال. وكان الملك الرحيم آخر من استولى على العراق من بني بويه. وفي سنة ٤٤٨هـ سنة ١٠٥٧م تزوج القائم الخليفة بينت داود أخي طغرل بك. ثمَّ خرج طغرل بك من بغداد فاستولى على الموصل وعاد إلى بغداد وأراد الاجتماع بالخليفة القائم فجلس له الخليفة على سرير عالٍ عن الأرض نحو سبعة أذرع، وحضر طغرل بك في جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء العسكر، فقبل طغرل بك الأرض ويد الخليفة وجلس على كرسي، ثمَّ قال له رئيس الرؤساء إنَّ الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه في بلاده ورد إليك مراعاة أمر عباده، فاتقِ الله في ما ولاك واعرف نعمته عليك. وخلع على طغرل بك وأعطاه العهد فقبّل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف، ثمَّ بعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك ومعهم خيولهم وسلاحهم.

وفي سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م سار البساسيري أحد عمال المستنصر بالله خليفة مصر إلى بغداد فدخلها وخطب في جوامعها للمستنصر وأبعد الخليفة القائم عن بغداد، وكان طغرل بك مشتغلاً في قتال أخيه ابراهيم نيال، ولما قتل أخاه واستراح منه عاد إلى العراق لرد الخليفة القائم إلى مقره، وأرسل إلى البساسيري يقول رد الخليفة إلى مكانه وأنا أرضى منك بالخطبة، فلم يجب البساسيري فحاربه طغرل بك وظفر به فقتله سنة ٤٥١هـ سنة ١٠٦٠م ورد الخليفة، وخرج طغرل بك لملاقاته واجتمع به واعتذر عن تأخّره بعصيان أخيه وصحبه إلى داره بكل تجلة حتى أخذ بلجام بغلة الخليفة إلى أن صار على باب حجرته. وطالت مدة الخلافة إلى أن توفي سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م.

لقد أوصى القائم عند وفاته أن يخلفه ابن ابنه عبدالله بن ذخيرة الدين محمَّد فبويع بالخلافة بعد موته وسمي المقتدي بأمر الله وهو السابع والعشرون منهم. ويروى أنَّ الشريف أبا جعفر الهاشمي لما فرغ من غسل القائم بايع المقتدي وأنشده:

إذا سيد منا مضى قام سيدٌ

وارتج عليه فقال المقتدي: قؤول بما قال الكرام فعولُ

وفي سنة ٤٧٥هـ سنة ١٠٨٣م أرسل المقتدي الشيخ أبا اسحق الشيرازي إلى السلطان ملكشاه وهو في خراسان ليشكو من عميد أبي الفتح بن أبي الليث فأكرم السلطان الشيخ أبا اسحق وعاد بالاجابة إلى ما التمسه، ورفعت يد العميد عن جميع ما يتعلّق بحواشي الخليفة، وتزوج المقتدي بالله بابنة السلطان ملك شاه سنة ٤٨٠هـ سنة ١٠٨٨م، وبعد سنتين شكت إلى أبيها اعراض الخليفة عنها فطلبها ملكشاه مللاً لا بدَّ منه فأرسلها الخليفة إليه (عن ابن الأثير في تاريخ سنة ٤٨٢). وتوفي المقتدي بالله سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٩٥م وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأشهراً وتوفي بغتة على أثر توقيعه على تقليد بركيارق بن السلطان ملك شاه، وخلفه ابنه المستظهر بالله وكان اسمه أبا العباس أحمد وهو الثامن والعشرون من الخلفاء العباسيين وكان عمره لما بويع له بالخلافة ست عشرة سنة وشهرين. وفي حين الاختلاف بين بركيارق وأخيه محمَّد السلجوقي المار ذكرهما ابني ملكشاه شكا الخليفة المستظهر بالله إلى محمَّد وأخيه سنجر سوء سيرة بركيارق أخيهما وخطب لمحمَّد وتوفي المستظهر بالله سنة ٥١٢هـ سنة ١١١٩م فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر. ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن الب ارسلان والسلطان بركيارق والسلطان محمَّد ابنا ملكشاه. ومن غرائب الاتفاق أنَّه لما توفي السلطان الب ارسلان توفي بعده القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعده المقتدي بأمر الله ولما توفي السلطان محمَّد توفِّي بعده المستظهر بالله (عن ابن الأثير في تاريخ سنة ٥١٢هـ).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الحادي عشر

الفصل الأوَّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٨٠٣

بطاركة أنطاكية في القرن الحادي عشر

فرغنا من كلامنا في بطاركة أنطاكية في القرن العاشر بذكر إيليا ويؤخذ عن الأرثوذكسيات التي يتلوها الروم في القداس، وقد تقدَّم ذكرها أنَّ توادورس الثالث خلف إيليا المذكور. ولكن قال العلامة السمعاني في ما كتبه لطابعي تراجم القديسين (على ما ذكروا هم) أنَّ في الجداول العربية التي كانت لديه أنَّ الذي خلف إيليا إنَّما هو جيورجيوس لا توادورس، وأنَّ جيورجيوس خلفه بطرس ولا ذكر لباسيليوس الذي جاء ذكره في الأرثوذكسيات المذكورة. أمَّا بطرس الذي ذكره السمعاني فهو الثالث بهذا الاسم وقد ورد اسمه في الأرثوذكسيات بعد باسيليوس المذكور. وروى لكويان في المشرق المسيحي أنَّ بطرس هذا رقي إلى البطريركية سنة ١٠٥٣م وعمل بالعادة القديمة أن يكتب البطاركة بعد ترقيتهم إلى الحبر الروماني

وإلى بطاركة المشرق فكتب بطرس إلى البابا لاون التاسع وإلى البطاركة القسطنطيني والاسكندري والأورشليمي. قال لكويان عندي نسخة من هذه الرسائل باليونانية ورسالته اليونانية إلى الحبر الروماني تختلف كثيراً عن ترجمتها اللاتينية. وقد كتب ميخائيل شيرولاريوس البطريرك القسطنطيني عند انفصاله عن الكنيسة الرومانية إلى بطرس هذا منددا بطقوس اللاتينيين وعاداتهم، فأجابه بطرس مدافعاً عن بعض هذه الطقوس ومرجعاً بعضها إلى العادات القديمة، ومنزّهاً نفسه عن كل شقاق أو انفصال عن الكنيسة الرومانية. ورسائله هذه مثبتة في المجلَّد الثاني من آثار الكنيسة اليونانية ولا يعلم في أية سنة توفي.

وخلف توادوسيوس الثالث بطرس الثالث المذكور على ما جاء في الأرثوذكسيات وذكره أنسطاس القيصري أيضاً في مقالته في صوم العذراء مبيناً أنَّ هذا الصوم أثبته بطرس بطريرك أنطاكية وتوادوسيوس خليفته ويوحنا الجالس وقتئذٍ على كرسي أنطاكية.

وخلف اميليانس توادوسيوس الثالث في أيام الملك ميخائيل السابع ابن الملك قسطنطين دوكاس، وقد استوى ميخائيل على منصَّة الملك سنة ١٠٦٧م وخلعه عنه رومانس الرابع واستبدَّ مع اودكسيا في الملك سنة ١٠٦٨م، ولما أسر رومانس سنة ١٠٧١م عاد ميخائيل إلى ملكه وثبت فيه إلى سنة ١٠٧٨م كما مرَّ في عد ٨٠٠. ولمَّا أتى اسحق الكسيس أخو الكسيس كومنانس الذي ملك سنة ١٠٨١م إلى أنطاكية قبله البطريرك في بستانه بخارج المدينة فنهاه الأمير عن الدخول إلى المدينة ثمَّ أرسله إلى اللاذقية وأمره أن يمضي إلى قسطنطينية. ولم يذكر اسم اميليانس في الأرثوذكسيات في عداد بطاركة أنطاكية لمقاومته الملك ميخائيل المذكور والكسيس كومنانس الذي ألفت في أيامه الأرثوذكسيات المذكورة، وخلف نيكوفور اميليانس المذكور وجاء ذكره في الأرثوذكسيات. وأيَّد ذلك شدرانس وزوناراس في تاريخهما وقال زوناراس إنَّ هذا البطريرك كان سنة ١٠٨٩م.

وقام بعد ذلك في الكرسي الأنطاكي يوحنا الرابع وكان في أنطاكية لما بلغت إليها جيوش الافرنج سنة ١٠٩٨م وذكره غوليلمس أسقف صور اللاتيني في تاريخه. ومما قاله عنه إنَّه بعد بلوغ جيشنا إلى أنطاكية وحصرهم لها اضطهده المسلمون، ولما فتحوها ولم يكن البطريرك يألف عادات اللاتينيين مضى إلى قسطنطينية. وهذا لم

يقل به غوليلمس وحده بل رواه كثيرون من المؤرخين ولم ينتخب اللاتينيون خلفاً له مدة حياته لئلا يكون أسقفان لكرسي واحد خلافاً للقوانين البيعية، وأقوال الآباء. وروى اردیکس فيتاليس صفحة ٧٩٦ من كتاب تاريخه إنَّه حصل قلق في الشعب لأنَّه شاع أنَّه يريد تسليم المدينة إلى الكسيس كومنانس ملك قسطنطينية فشقت عليه هذه الاشاعة كثيراً حتى اعتزل البطريركية وحبس نفسه في مكان منفرد، وجزم أنَّه لا يعود إلى من لا تروق له عاداتهم. وهذا يؤيِّد صحة نسبة كتاب إليه يندد به باستعمال الفطير خلافاً للاتينيين، وهذا الكتاب موجود في عدة مكاتب معنوناً باسمه .

ثمّ الأرثوذكسيات المذكورة الفت في أيام الملك الكسيس كومنانس نحو سنة ١١٠٣م وقد ذكر اسمه فيها في آخر اسماء البطاركة فيظهر من ذلك أنَّه بقي حياً إلى تلك السنة. وقد ذكره مرهج بن نيرون الباني الماروني في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم. فقال إنَّ توما أسقف كفرطاب ترك بدعة اليعاقبة وتشبث ببدعة المشيئة الواحدة، ففند يوحنا بطريرك الملكية الأنطاكية زعمه وصنف رسالة جمع فيها أقوال الآباء والمجامع المثبتة في المسيح مشيئتين وفعلين، فادعى توما أن يرد رسالة البطريرك بكتاب قسَّمه إلى عشر مقالات كما يظهر من مقدمة هذا الكتاب حيث يقول: «إنَّه لما كانت سنة ١٤٠٠ لاسكندر بن فيلبس المكدوني (وهي سنة ١٠٨٩م) جرت رسائل ومكاتبات بين يوحنا بطريرك الروم الأنطاكي وتوما مطران كفرطاب من أعمال حلب في شأن الاعتقاد بمشيئتين وطبيعتين في المسيح، وأخذ توما يدحض رسالة الأنباء يوحنا كلمة فكلمة ناقضاً مذهب المشيئتين ومثبتاً مذهب المشيئة الواحدة» وكتاب توما الكفرطابي هذا هو الرابع عشر في جملة كتب ابراهيم الحاقلي التي نقلت بعد وفاته إلى المكتبة الواتيكانية. وقد ذكره السمعاني مرات في المكتبة الشرقية ولاسيما في فهرست المجلَّد الأوَّل صفحة ٥٧٦ حيث عدد كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية فقال الرابع عشر ... كتاب توما الحاراني أسقف كفرطاب في المشيئة الواحدة في المسيح مقسوم إلى عشرة فصول أو عشر مقالات، قد أرسله إلى يوحنا بطريرك الملكيين الأنطاكي سنة ١٤٠٠ يونانية (سنة ١٠٨٩م)، وهو باللغة العربية والأحرف السريانية صفحاته ١٥٧ من رق وكتبه يوسف من قرية حاقل من بلاد جبيل في ٢٠ شباط سنة ١٧٠٣ يونانية (سنة ١٣٩٢م). وفي مكتبة بطريركيتنا نسختان قديمتان من هذا الكتاب (انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان مع زيادات على كلامه) .

عد ٨٠٤
بطاركة أورشليم في القرن الحادي عشر

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن العاشر بذكر أرميا الذي سمل الحاكم بأمر الله عينيه وخلفه في بطريركية أورشليم تاوافيلس على ما روى الباريكس الراهب في كتاب تاريخه الذي طبع في لبسيك سنة ١٦٩٨م، وكما جاء في الجداول اللاتينية. وقال في حقه توادوريكس باولي (على ما روى بابيروكيوس في المقدمات على المجلّد الثالث من تراجم القديسين في شهر أيار) إنَّ الله وفقه فدبر كنيسته بكل قداسة واشتهر في الفضائل وعمل الآيات في الأرض المقدَّسة كلِّها. وظنَّ العالم المذكور أنَّ مدَّة بطريركيته كانت وجيزة لأنَّه شرع في تجديد كنيسة القبر المقدَّس التي كان الحاكم بأمر الله قد دمَّرها كما مرَّ، ولم يكمل تجديدها بل يعزى تجديدها إلى نيقوفور أحد خلفائه. وجاء في جداول دوزيتاوس البطريرك لبطاركة أورشليم أنَّ الكرسي الأورشليمي ظلَّ فارغاً من بطريرك احدى عشرة سنة وأنَّ نيقوفور الأوَّل خلف توافيلس المذكور.

وكان قبل توافيلس أو بعده بطريرك في أورشليم يسمى أرسانيوس ولا ذكر له في الجداول اللاتينية في جملة بطاركة أورشليم في هذا العصر، ولم يذكره الباريكس في تاريخه. والمؤكّد مع ذلك أنَّه كان بطريركاً على أورشليم قبل سنة ١٠٢٤م، وهذا التوكيد مبني على ترجمة القديس سمعان الراهب السائح التي أثبتها البولانديون في المجلَّد السادس من تراجم القديسين في ٢٦ تموز. فان كاتب ترجمة القديس سمعان المذكور كان معاصراً له وكتب في ترجمته أنَّ أرسانيوس البطريرك الأورشليمي ذكر بعض أعماله في رسالة أثبت الكاتب ملخَّصها. وقال البولنديون إنَّ بعض العلماء ذكر هذه الرسالة وان ارتاب بعضهم في صحتها أو في سلامتها من التحريف. ومن رأي البولانديين أيضاً أنَّ أرسانيوس لم يرتق إلى البطريركية إلَّا بعد سنة ١٠١٠م. ويظهر أنَّه لم يتوف إلَّا بعد سنة ١٠١٦م ولكن في أيَّة سنة بعدها توفي فالصحيح أنَّه لا سبيل إلى القطع بذلك.

وبعد وفاة أرسانيوس صير يوردانس بطريركاً على أورشليم ولا ذكر له في الجداول اللاتينية، ولا في كتاب الباريكس أو كتاب توادوريكس باولي، ولكن ذكره كلابر رودولفس وهو مؤلف معاصر له في الكتاب الرابع من تاريخه فصل

ونقل عنه بابيروكسيوس في تاريخ بطاركة أورشليم المعلق على المجلّد الثالث في تراجم القديسين في شهر أيار في معرض ذكر آية جرت في القبر المقدّس سنة ١٠٣٣م فقال إنَّ يوردانس البطريرك كان مشاهداً هذه الآية، وأمّا في أية سنة صير بطريركاً فقال لكويان لم أجده في كتاب.

وقد جاء في الجداول اللاتينية أنَّ نيقوفور صيِّر بطريركاً بعد توافيلس وكذلك قال الباريكس وتوادوريكس ولم يذكر أرسانيوس ويوردانس كما رأيت. وذهب كثيرون من المؤرخين إلى أنَّ تجديد بناء كنيسة القبر المقدَّس بعد نقض الحاكم بأمر الله لها كان في أيام نيقوفور، لكنَّهم لم يتّفقوا على سنة هذا التجديد فقال كلابر رودلفس المذكور أنَّ التجديد كان بعد النقض دون مهلة وقال شدرانس (مجلَّد ٢ من تاريخه) إنَّ الكنيسة جدِّدت سنة ١٠٣١م. وقال الباريكس (قسم ٢ من تاريخه نقلاً عن كويدر) إنَّها جدّدت في أيام الظاهر بن الحاكم بأمر الله سنة ١٠٤١ أو سنة ١٠٤٨م وذهب غوليلمس أسقف صور أنَّ التجديد كان سنة ١٠٤٨م. قبل أن فتح الافرنج أورشليم باحدى وخمسين سنة. قال لكويان إنَّ هذا هو الأرجح وعليه فنيقوفور كان سنة ١٠٤٨م بطريركاً على أورشليم، ولكن لم يكن لنا سبيل إلى أن نحقق متى صير بطريركاً ولا متى توفي ولا كم سنة عاش في البطريركية.

وخلف صفرونيوس الثاني نيقوفور على ما روى الباريكس (قسم ٢ من تاريخه) إذ قال كان صفرونيوس بطريركاً على أورشليم قبل أن يسير أمراء المغرب لانقاذ الأرض المقدَّسة بنحو من أربعين سنة، ويؤخذ منه أنَّ صفرونيوس كان بطريركاً سنة ١٠٥٩م وذكر هذا المؤلِّف بعد ذلك أنَّ ملك الروم سار إلى أورشليم وقتل قوماً من المسلمين واستبقى النصارى. وذكر ابن العميد هذه الحادثة في سنة ٤٦٩هـ الموافقة لسنة ١٠٧٦م ولا يعلم إن كان صفرونيوس بقي حياً إلى تلك السنة. وجاء في جداول دوزيتاوس البطريرك ذكر مينا بعد صفرونيوس ولم يذكره غير دوزيتاوس. قال لكويان لا أجسر أن أعدَّ مينا في جملة بطاركة أورشليم، ثمَّ ذكر دوزيتاوس مرقس أيضاً بعد صفرونيوس ولا ذكر له في كتاب آخر. على أنَّ الجداول اللاتينية والباريكس وبابيروكيوس ذكرت أوتيميوس بعد صفرونيوس الثاني.

أمَّا أوتيميوس فجاء في بعض جداول بطاركة أورشليم أنَّ الافرنج ردوا في أيامه الكنائس إلى المسيحيين، وهذا غير صحيح إلَّا أن يكون المراد ما ذكرناه آنفاً من أنَّ

أحد ملوك الروم سار إلى أورشليم ونكَّل بالمسلمين وأرغمهم على رد الكنائس إلى النصارى لأنَّ الافرنج لم يفتتحوا أورشليم إلَّا في سنة ١٠٩٩م في أيام سمعان الآتي ذكره خليفة أوتيميوس.

خلف سمعان أوتيميوس على الأصح خلافاً لدوزيتاوس في فهرست بطاركة أورشليم حيث زعم أنَّ سمعان كان قبل أوتيميوس مع أنَّ جميع الجداول قدمت أوتيميوس على سمعان الذي كان بطريركاً سنة ١٠٩٤م لما أتى بطرس السائح الافرنسي إلى أورشليم، وفاوض هذا البطريرك ملياً في أمر استنقاذ أمراء المغرب الأماكن المقدَّسة. وممن رووا ذلك غوليلمس أسقف صور (ك ١ في الحرب فصل ١١) فانَّه قال وسمع بطرس السائح أنَّ بطريرك المدينة يسمى سمعان وانَّه رجل فاضل يتَّقي الله ففاوضه بواسطة ترجمان أمين وبيَّن له البطريرك حالة النصارى وما يحف بهم من الأخطار، ولما بلغ البطريركية قدوم عساكر الافرنج سنة ١٠٩٨م إلى سورية وحصرهم أنطاكية انتقل إلى قبرص وأرسل هدايا إلى الافرنج، لكنَّه توفي سنة ١٠٩٩م بعد افتتاحهم أورشليم. روى ذلك البرتس الاكويني في تاريخ أورشليم (ك ٦ فصل ٣٩) ولما علم الافرنج بوفاته جزموا أن يقيموا بطاركة لاتينيين على أورشليم وفعلوا كذلك في كل مدة ولايتهم على الأرض المقدَّسة، واستمرَّ أهل البلاد يقيمون بطاركة على أورشليم. وقد قال دوزيتاوس إنَّ البطريرك المذكور كتب كتاباً يندد به بتقديس اللاتينيين على الفطير، وذكر لاون الأسيوس فقراً من كتاب يعزى إلى سمعان يندد فيه باستعمال الفطير. وقال لكويان لا أجسر أن أحقق أنَّ سمعانٍ مؤلف هذا الكتاب هو سمعان الثاني بطريرك أورشليم الذي لا يظهر أنَّه كان مخالفاً للاتينيين. انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي.

عد ٨٠٥

من نعرفهم من أساقفة سورية وجوارها في هذا القرن

قلَّ من عرفنا من أساقفة سورية في هذا القرن لما كان فيها من اضطراب الأحوال والحروب كما رأيت، فقد ذكر لكويان منهم سرجيوس أسقف دمشق فقال سرجيوس ذكره دميانس (ك ١٩ فصل ١٠) وأنبأنا أنَّه اعتزل الأسقفية وسار إلى رومة فصرف ما بقي من حياته في السيرة الرهبانية، وكان في أيام البابا بناديكتس

التاسع الذي استوى على منصَّة الرئاسة من سنة ١٠٣٣م إلى سنة ١٠٤٨م. وذكر لكويان أيضاً من أساقفة صور سابا وقال إنَّه كان أسقفاً على صور فاختير بطريركاً على أورشليم على عهد الملك الكسيس كومنانس الذي ارتقى إلى عرش الملك سنة ١٠٨١م، ولكن لم يذكر لكويان سابا في جملة بطاركة أورشليم وأنطاكية في هذا القرن كما رأيت.

وكان في هذا القرن أيضاً سامونا أسقف غزة وقال بعضهم إنَّه اشتهر سنة ١٠٧٢م وله مناظرة مع رجل مسلم اسمه أحمد في وجود جسد المخلِّص في القربان الأقدس حقيقة، وهي مثبتة في مكتبة الآباء ولاسيما في التأليف الموسوم بالدفاع عن اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية دائماً بسر الاوخاريستيا (مجلَّد ١ كتاب ٣ فصل ٦). ولما استعان بعض العلماء الكاثوليكيين بشهادته على اثبات هذه الحقيقة ردَّها البرتينس وكلوديوس الكلوينيان معتمدين على قول بعضهم أنَّ سامونا كان في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر، فقالا لم يكن في فلسطين أساقفة روم بعد أن استحوذ الافرنج عليها وأقاموا أساقفة لاتينيين، وزعمهما باطل فلا مراء في أنَّه بقي أساقفة شرقيون للنصارى الشرقيين مع وجود أساقفة للاتينيين. وقد حقق يعقوب فترياك في التاريخ الأورشليمي أنَّه استمرَّ للسوريين أساقفة منهم يدبرون شؤونهم الروحية. ولما انتصر صلاح الدين الأيوبي على الافرنج لم ينفِ الأساقفة الشرقيين بل سلمهم كنائس الافرنج كما يظهر من رسالة كوزاد أحد الصليبيين التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٧ عد ٩.

ويجدر بنا أن نلخص شيئاً من الجدال الذي كان بين القديس سامونا وأحمد المشار إليه، فقد كان سامونا مسافراً إلى حمص يصحبه كثيرون في جملتهم أحمد المذكور وكان الأسقف يطرفهم ببعض الأحاديث الروحية وأتى بذكر القربان المقدَّس، فقال له أحمد كيف وأنتم كهنة تخدعون النصارى بقولكم إنَّ الخبز المصنوع من الطحين يصير جسد المسيح؟ فأجابه الأسقف قل لي بعيشك هل ولدتك أمُّك كبيراً على ما أنت عليه الآن؟ فقال أحمد كلا فقال الأسقف وما كبرك قال القوت بارادة الله. فأجابه الأسقف فالقوت إذاً استحال فيك جسداً. قال هكذا أظن قال الأسقف وكيف كان ذلك؟ قال أحمد: لا أعلم. فأخذ سامونا يشرح له كيف تهضم المعدة الأقوات وتحيلها دماً وتوزعها على الجسد فتستحيل عظماً مع العظام وعضلة مع العضلات وعصباً مع الأعصاب. وقال ها هوذا ما

يجعل الطفل رجلاً أعني أنَّ المأكل يستحيل فيه جسداً والمشرب دماً، فأذعن أحمد لقوله. وقال الأسقف وكذلك نعتقد بسر القربان فالكاهن يقدس خبزاً وخمراً فيستحيلان بقدرة الله إلى جسد المسيح ودمه، أو لا يستطيع الله أن يصنع ما تصنعه معدتك فسلم أحمد بذلك. وسأل أتعتقدون أنَّ في القربان جسد المسيح ودمه حقيقة أو هو مثال لجسده كالضحايا التي يرفعها اليهود؟ فأجابه الأسقف حاشا أن نقول أنَّ صورة أو مثال بل نعتقد أنَّ ما نتناوله إنَّما هو جسد المسيح ودمه حقيقة. فانَّ المسيح قال لتلاميذه خذوا كلوا هذا هو جسدي وهذا هو دمي ولم يقل هذا صورة أو مثال جسدي أو دمي. وقال في محل آخر جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً. وإذا كان المسيح وهو إله قال ذلك فمن يمتري فيه وإذا كان خلق العالم من العدم وكانت كلمته صادقة وفعالة. وكان الهاً على كل شيء قديراً وكل ما شاء الرب صنع فمن يجسر أن يزعم أنَّه لا يستطيع أن يحيل الخبز جسداً والخمر دماً. فقال أحمد أحسنت بايضاح أيمانكم ولكن الله واحد وجسد المسيح واحد فكيف يقسم إلى أجزاء لا تحصى وهل يبقى مسيحاً واحداً أو يتعدد إلى ما لا نهاية له؟ فأجابه الأسقف إليك مثالاً محسوساً ومادياً يقنعك بهذه الحقيقة. خذ مرآة واضرب بها الأرض وكسّرها ما شئت وانظر في كل فلذة منها فترى صورتك كاملة كما كنت تراها في المرآة قبل تكسيرها وكذلك يكون المسيح كاملاً في كل قربان تقدَّس مهما تكاثر عدد القربان وأمكنه تقديسها. ولك مثال آخر في الكلمات التي تلفظها فتسمعها أنت المتكلِّم ويسمعها جميع الحاضرين مهما توافر عديدهم كاملة دون أن تنقسم فأذعن أحمد واثنى على الأسقف.

ومن مشاهير الأساقفة في جوار سورية بهذا القرن يوحنا بن شوشان أي ابن سوسان. وقد ذكر السمعاني (مجلَّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٤٣) ترجمته فقال ما ملخَّصه إنَّ يوحنا بن شوشان هو أحد بطاركة اليعاقبة في بدء القرن الحادي عشر، وكان اسمه يشوع قبل ارتقائه إلى البطريركية. ومن ومؤلفاته نافور (رتبة قداس) ذكره ابراهيم الحاقلي الماروني في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي صفحة ١٣٥ وهو مثبت مخطوطاً في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية صفحة ٤١، ومطبوعاً في كتاب قداس الكلدان صفحة ١٤٥، وفاتحته ܡܥܝܢܐ ܕܛܝܒܘܬܐ ܘܡܒܘܥܐ ܕܚܘܒܐ ܐܠܗܐ أي اللّهم منبع الحب ومعين الجودة. وقد اغتر سكولنجيوس إذ ذكر نافور هذا وقال إنَّ «نافور يوحنا

ابن سوسان البطريرك الف بالكلدانية سنة ١٠٨٣ للميلاد. وقد حقق السمعاني أنَّه لم يتجاوز سنة ١٠١٠م، وقال ربَّما أنَّ الناسخ أخطأ في عداد السنين فكتب سنة ١٠٨٣م بدلاً من سنة ١٠٠٣م. على أنَّ خطأ مرهج بن نيرون الباني الماروني كان أعظم إذ قال في فهرست المؤلفين الذين ذكرهم في كتابه افوبلنيا أي سلاح الإيمان: «يوحنا بن شوشان من أصحاب الطبيعة الواحدة كان قبل يعقوب البردعي الذي ذكرناه آنفاً في كتاب تعليم اليعاقبة». فقال السمعاني إنَّ ابن نيرون ظنَّ أنَّ كتاب تعليم اليعاقبة قد ألَّفه يعقوب البردعي فكانت نتيجته مستقيمة، لكنَّها مستندة إلى مقدمات غير صحيحة بأنَّ هذا الكتاب ليس من مصنَّفات البردعي بل قد ألَّفه رجل يعقوبي كان بعد يعقوب البردعي بقرون (طالع ما ذكرناه في الكلام على يعقوب البردعي في تاريخ القرن السادس) .

وقد ذكر البطريرك أسطفان الدويهي في كتابه المنائر العشر (فصل ٧ عد ٥) نافور يوحنا بن شوشان في جملة النوافير غير الكاثوليكية فقال: «يوحنا وهو يشوع بن شوشان صنف نافورين أوَّلهما بدؤه ܐܠܗܐ ܕܦܝܣ ܒܚܘܒܐ ܗܘ ܠܟ (اللهمَّ يا من تسرّ بالحب) والثاني ܡܒܘܥܐ ܕܚܘܒܐ ܘܡܥܝܢܐ ܕܛܒܘܬܐ (اللهمَّ منبع الحب ومعين الجودة) وهذا انطبع برومية بالغشم بين النوافير المقبولة». وقد خطَّأ السمعاني الدويهي لنسبته النافور الأوَّل لبرشوشان قائلاً إنَّ هذا النافور الأوَّل ليس لبرشوشان بل إنَّما هو لديونيسيوس بن صليبا كما يظهر من الكتاب الثالث من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٧٩، بل أنَّ الدويهي نفسه عزاه في الفصل المذكور عدد ١٦ إلى ابن صليبا بقوله: «وله أيضاً نافوران يبدأ أوَّلهما ܐܠܗܐ ܕܦܝܣ ܒܚܘܒܐ ܗܘ ܠܟ » اللهمَّ يا من تسرَّ بالحب .

ومن مصنفات ابن شوشان أيضاً مقالة في الملح والزيت اللذين يدوبهما اليعاقبة بخبز القربان يندد فيها بالقبط. وقد ذكر هذا المبحث مؤلف كتاب تعليم اليعاقبة على ما في النسخة الموجودة منه في مكتبة مدرسة الموارنة برومة صفحة ٥١. ونقل ابن نيرون الباني عن هذا الكتاب ما رواه في كتابه افوبليا أي سلاح الإيمان صفحة ٣٥ وهو: «وزادت المحبة بين جماعة القبط والسريان إلى زمان أبينا يوحنا برشوشان بطريرك أنطاكية، فوقع بين السريان وبين القبط خلاف على أنَّ السريان يعملون في قربانهم الملح والزيت، فكتب أبونا يوحنا برشوشان سجلاً يوضح فيه تحقيق الملح

والزيت ووضعهما في القربان». قال السمعاني ولهذه المقالة نسخة سريانية ذكرها رينودوسيوس في مقدّمات المجلّد الثاني من تأليفه في الليتورجيات الشرقية معنونة مقالة في ما يشير إليه دوف الملح والزيت بالقربان تأليف يوحنا البطريرك ولها ترجمة عربية في الكتاب الأربعين من الكتب التي شراها صديقنا أندراوس اسكندر الماروني في ما بين النهرين وسوف يحضرها إلى المكتبة الواتيكانية.

وقد استؤنف هذا البحث في دوف الملح والزيت بالقربان بمصر في أيام كريستودولس بطريرك القبط، فقد روى ساويرس أسقف الأشمونيين عن كاتب ترجمة هذا البطريرك أنَّ هذا البحث في دوف الملح والزيت بالقربان جرى بين قوم سريان كانوا بمصر وبين القبط حتى أنَّ سريانياً منهم يعرف بالشيخ أبي بشر خاطب البطريرك بذلك، فأمر البطريرك تلامذته أن يخرجوه من حضرته فأخرجوه مهاناً. وكان ذلك الرجل طبيب الملك فشكا البطريرك إلى الوزير وأرسل رسالة يشكوه بها إلى يوحنا بطريرك أنطاكية اليعقوبي، فكتب كريستودولس إلى البطريرك يوحنا رسالة شرح فيها هذه المسألة، ويوحنا الموجهة إليه رسالة كريستودولس غير يوحنا بن شاشون. انتهى ملخصاً عن السمعاني في المحل المذكور.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الحادي عشر بسورية وغيرها

عد ٨٠٦

أبو الفرج عبدالله بن الطيب

روى البطريرك أسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب تاريخه المطبوع حديثاً في بيروت صفحة ١٠٤ أنَّ القس عبدالله أبا الفرج المعروف بابن الطيب: «قد كان مارونياً من أهل جبل لبنان أنَّه مال إلى القائلين بالمشيئة الواحدة في ربنا بسبب مطالعته لكتاب سعيد بن بطريق وتغربه في بلاد العراق». لكنَّ العلامة السمعاني روى في المكتبة الشرقية (مجلَّد ٣ صفحة ٥٤٤) كلام الاهدني بأكثر

تفصيل ناقلاً إياه عن الكتاب الثالث في الاحتجاج عن الموارنة فصل ٢ في الرد على الاعتراض الثاني ومن ذلك يظهر أنَّه كان في يد السمعاني نسخة أخرى من كتاب الاحتجاج غير التي في يدنا والتي طبعت ببيروت سنة ١٨٩٠م، فاننا لم نجد فيها في المحل المذكور شيئاً مما ذكره السمعاني من كلام الاهدني الآتي وهو: «ويتبين من اقراره أنَّه كان مارونياً كما يظهر من قوله في الفاتحة التي علقها على بدء تفسيرة الأناجيل وهو نكتب نحن الموارنة هذا الإيمان الذي به نؤمن بسيدنا يسوع المسيح الله الكلمة. وأراد أن يرسل كتابه من العراق إلى الموارنة أهل جبل لبنان» ويورد الاهدني شهادات من كتاب تفسيره يتبين منها أنَّه كان يقول إنَّ في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ومشيئة واحدة إلى أن يقول: «وأمَّا ارساله كتابه إلى أهل جبل لبنان وتسميته نفسه مارونياً فيدلان على أنَّه كان مارونياً أصلاً إلى درجة الكهنوت على شبه ما قلنا في توما مطران كفرطاب ... وإنَّ اثنيهما بخروجهما من بين جماعتهما ومساكنتهما الأمم الغربية عدما حريتهما الأولى ومالا إلى معتقدات غير مقبولة من رؤساء ملتهما ... وتخيلاً أنَّ ربَّنا ذو مشيئة واحدة وفعل واحد».

على أنَّ العلامة السمعاني أثبت في المحل المذكور من مكتبته الشرقية أنَّ عبدالله ابن الطيب كان عراقياً وولد ببغداد وأنَّه كان راهباً وقساً ونسطورياً واشتهر في بداية القرن الحادي عشر، وكان كاتباً لإيليا الأوَّل بطريرك النساطرة وتوفي سنة ١٠٤٣م في أوائل شهر تشرين الأوَّل واعتمد السمعاني في ذلك على شهادة ابن العبري في تاريخه السرياني وفي تاريخ الدول حيث قال ابن الطيب توفي سنة ٤٣٥ للهجرة التي كان بدؤها في شهر آب سنة ١٠٤٣م وأثبت السمعاني أنَّه كان نسطورياً بقوله: «إنَّ هذا يدل عليه المكان الذي ولد به والأمَّة التي نشأ فيها واقامته كاتباً لبطريرك النساطرة وما دونه في كتبه ولاسيما مقالته في الرد على الذين يسمون العذراء أم الله ومدافعته مرات عن مذهب النساطرة في تفسيره الأناجيل وفي مجموعة القوانين التي وضعها وتعظيمه وتقريظه لاصحاب هذه البدعة ثمَّ شهادة ابن العبري وأبي البركات اللذين سميا دائماً ابن الطيب نسطورياً. وقال فيه ابراهيم الحاقلي الماروني في آخر كتابه الموسوم بالانتصار لأفتيشيوس: «أبو الفرج بن الطيب النسطوري له تصانيف كثيرة وفي جملتها تفسير الأناجيل مطول وموجز يدل على فقاهته وإن دافع مرات عن معتقد النساطرة». ولم يصرح ابن نيرون الباني (في

فهرست العلماء الذين استشهدهم في كتابه أفوبليا أي سلاح الإيمان) أنسطورياً كان أم كاثوليكياً، بل قل حسبه بعضهم نسطورياً وبعضهم ذا إيمان قويم .

إلى أن قال السمعاني وأمّا ارساله كتابه إلى أهل جبل لبنان وتسميته نفسه مارونياً أصلاً بل يظهر أنّه سمع (من بعض خصوم الموارنة كابن بطريق) أنّ بعض الموارنة يعتقدون المشيئة الواحدة فظنّ أنّ رأيهم في المسيح لا يخالف رأي النساطرة فيه. فقد أبنّا في المجلّد الأوّل صفحة ٥٤٧ وفي المجلّد ٢ صفحة ٢٩٢ أنّ النساطرة يعتقدون في المسيح أقنومين وطبيعتين ويعزون إليه مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ونجد ابن الطيب قال أحياناً في كتبه إنّ في المسيح أقنوماً واحداً ولا أشك في أنّ هذا تحريف النساخ فقد شهد أبو البركات أنّ اليعاقبة نقّحوا كتاب ابن الطيب وحذفوا منه ما يدل على البدعة النسطورية وكذلك أظنّ أنّ بعض الموارنة زادوا أو حذفوا من كتبه ما يجعل كلامه مطابقاً لمذهبهم كالاعتقاد بأقنوم واحد في المسيح وإلى ذلك أشار الدويهي في المحل المذكور إذ قال «إنّ ما أوردناه من أقوال ابن الطيب يغني عن شهادات لا تحصى من أقواله ليفهم القارئ أنّ كتاب أبي الفرج ابن الطيب وقع بيد العلماء اليعاقبة فعبثوا به وحرفوه وحيث كتب في تجسد الرب اتّحد اللاهوت مع الناسوت كتبوا على هامش الكتاب بطبيعة واحدة، وكتبوا أحياناً أنّه صار ذا طبيعة من طبيعتين وتارة أنّ اتّحادهما ألف منه طبيعة واحدة ثمّ أدخل الناسخ لجهله في متن الكتاب ما زيد على الهامش. ومثل ذلك قوله إنّ في المسيح أقنومين لأنّ هذا القول يضاد رأي الكاتب ونسق تفسيره». فانتقد السمعاني قول الدويهي هذا فقال إذا كان اليعاقبة قد عبثوا بكتاب ابن الطيب وأدخلوا عليه القول بطبيعة واحدة فليت شعري من أدخل عليه القول بأقنومين. لعمري لم يصنع ذلك الموارنة لأنّهم اعتقدوا في كل حين أنّ في المسيح أقنوماً واحداً ولا اليعاقبة أو الملكية لأنّهم أنفوا دائماً من بدعة نسطور ولا كاتب نسطوري، وإلّا لما غفل عن أن يحذف من كتاب ابن الطيب كل ما يدل على الطبيعة الواحدة طبقاً لتعليم اليعاقبة. فالأولى إذاً أن نقول إنّ المؤلّف بنفسه كتب أنّ في المسيح أقنومين، ولنا من جهة أخرى أدلّة قاطعة على أنّه كان نسطورياً، منها أنّه كان كاتباً لإيليا الأوّل بطريرك النساطرة. ومما يدل على ذلك أنّ إيليا النصيبيني صنّف كتاباً مقسوماً إلى عشرة مجالس وهمّ بأن ينشره سنة ٤١٨هـ (سنة ١٠٢٨م) في أيام إيليا البطريرك المذكور، والتمس أن يطّلع عبدالله ابن الطيب على هذا الكتاب ويثبته. وقال في

خاتمة هذا الكتاب: «ولما فرغت من هذا الكتاب رأيت أنَّ لا اذيعه قبل مطالعتك له أيُّها الأخ الجليل حرسك الله، وقبل مطالعته غيرك له وتيقنت أنَّه من اللازم أن أبعث به إلى الشيخ الجليل الكاهن العلامة الفيلسوف أبي الفرج عبدالله ابن الطيب كاتب دار الجاثليق أيده الله سائلاً أن يطالعه ويتحكَّم في اشهاره».

وإليك ما قاله ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول المطبوع سنة ١٨٩٠م في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت: «في سنة ٤٣٥هـ (سنة ١٠٤٣م) توفي أبو الفرج عبدالله بن الطيب وهو عراقي، وفيلسوف فاضل مطَّلع على كتب الأوائل وأقاويلهم وعني بشروح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تآليف ارسطاطاليس، ومن الطب كتب جالينس وبسط القول في الشروح بسطاً شافياً قصد به التعليم والتفهيم. قال القاضي الاكرم جمال الدين القفطي رحمه الله لقد رأيت بعض من ينتحل هذه الصناعة يلوم أبا الفرج بن الطيب بالتطويل وكان هذا العائب يهودياً ضيق الفطن قد وقف مع عبارة ابن سينا. فاما أنا وكل مصنف فلا نقول إلَّا أنَّ أبا الفرج بن الطيب قد أحيا من هذه العلوم ما دثر وأبان منها ما خفي، وقد تلمذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان. قال ابن بطلان إنَّ شيخنا أبا الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها وهذا يدل على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه» وقد ذكر السمعاني في المحل المذكور كلام ابن العبري مترجماً إياه إلى اللاتينية.

وذكر السمعاني ثمَّ مؤلفات ابن الطيب فقال أما مؤلفاته الباقية فهي تفسير للعهدين القديم والحديث. قال ابن العبري «هذا (أي ابن الطيب) فسر العهدين بكتاب في اللغة العربية» وكتاب تفسيره الأناجيل الأربعة موجود في مدرسة الموارنة برومة وقال فيه أبو البركات في فهرست المؤلفين «القس أبو الفرج بن الطيب كاتب طيموتاوس الجاثليق له مجموع شرح الأناجيل المقدَّسة وقد نقَّحه بعض اليعاقبة وانتزع منه الألفاظ التي هي موافقة لرأي النسطورية سياسة ونقلت منه عدة نسخ بعد ذلك ابتغاءً لما فيه من الفضائل والمعاني التي تعب جامعه في إيرادها. قال السمعاني: «قد أتيت من مصر إلى المكتبة الواتيكانية بكتاب لأبي الفرج بن الطيب عنوانه «فردوس النصارى» اشتمل على أبحاث موجزة في العهدين، وعدّد أكثر أسفار العهد القديم، ثمَّ مقالة في وفاة الأنبياء، وكتاب في الأناجيل وأعمال الرسل، ورسالة يعقوب، ورسالة بطرس ورسالة يوحنا ورسائل بولس وتليها مقالة في وفاة

الرسل. وذكر هذا الكتاب في فهرست الكتب العربية المعلَّق على المجلَّدين الأوَّل والثاني من المكتبة الشرقية. وقال أبو البركات (في المحل المذكور) إنَّ هذا الكتاب غير كتابه في تفسير الأناجيل لأنَّه قال وله كتاب يسمى فردوس البيعة. وقال العلامة البطريرك أسطفانس الدويهي الاهدني في مقدمة كتابه في الاحتجاج عن الموارنة أنَّ لابن الطيب تفسيرين للأناجيل أحدهما بشارة متى بالمعنى الحرفي والثاني للأناجيل الأربعة بالمعنى المجازي. ولما بحث الاهدني في الكتب الشرقية التي أخذ عنها يوحنا باتيسطا (المعمدان) اليسوعي وتوما الكرملي فهرست الأغلاط التي وجداها في تلك الكتب ذكر في جملتها كتابين لابن الطيب فقال «الرابع تفسير انجيل متى تأليف القس عبدالله العراقي المعروف بأبي الفرج بن الطيب الذي كان يعتقد أنَّ بربنا طبيعتين ومشيئة واحدة. وهذا الكتاب أخذه يوحنا باتيستا معه إلى القدس الشريف ولقبه بالمنامي وقد عثر على نسخة أخرى منه فقرأها وسمى هذا الكتاب سمعان وهو السابع من الكتب التي كانت لديه، وأمَّا الكتاب الخامس فهو كتاب تفسير الأناجيل الأربعة بالمعنى المجازي وهو من مؤلفات ابن الطيب أيضاً وسماه يوحنا باتيستا روبين. وذكر نسخة أخرى من هذا الكتاب وهي الكتاب السادس من عداد كتبه» .

ولابن الطيب أيضاً مجموعة في القوانين قال فيها أبو البركات في المحل المذكور «وله كتاب فقه النصرانية الجامع للقوانين البيعية والمجامع الغربية والشرقية وقد ذكر فهرست ما تضمنه مع فهرست للقوانين» وقد ذكر السمعاني أنَّ هذا الكتاب في المكتبة الواتيكانية وهو السادس والثلاثون من الكتب العربية المخطوطة فيها ممزقة أوراقه الأولى والأخيرة وبعض صفحاته ليست في محلها . وله أيضاً مقالة في التوبة قال فيها أبو البركات: «وله مقالة في التوبة وتحصيل معناها وأقسامها أربعة عشر باباً» وله أيضاً مقالة في الأرث مثبتة في الكتابين الثالث والخامس من الكتب العربية المخطوطة بالمكتبة الواتيكانية خط الأوَّل منهما سنة ١٢٢٤م والثاني سنة ١٣٧٢م وذكرهما السمعاني في فهرست الكتب المعلق على المجلَّد الأوَّل من المكتبة الشرقية صفحة ٦٢٠ و ٦٢١ .

وله كتاب في شرف الصوم والصدقة والصلاة ويحوي أجوبة على مسائل بطريرك النساطرة وعلى كلام في الأرث وفي الفروض الإلهية وهو ملحق بالكتاب السادس من الكتب العربية الواتيكانية وقد ذكره السمعاني أيضاً في الفهرست المعلق على المجلَّد الأوَّل من المكتبة الشرقية صفحة ٦٢١ .

وله مقالة يندد فيها بمن يقولون إنَّ مريم أم الله وعنوانها: «مقالة لابن الطيب في الرد على من قال إنَّ مريم والدة الله». وهي مثبتة بالكتاب التاسع والعشرين من الكتب العربية الواتيكانية. ويقال فيه إنَّها خطت بتاريخ السادس والعشرين من شهر برمودة سنة ٩٧٦ للشهدا (وهي سنة ١٢٦٠م) وله مقالة في التثبيت والتوحيد عنوانها «من مقالة الشيخ أبي الفرج عبدالله بن الطيب في التثليث والتوحيد وهي مثبتة في الكتاب التاسع والستين من الكتب العربية المخطوطة الواتيكانية.

وله تفسير كتب أرسطو قال فيه ابن العبري في تاريخه السرياني: «إنَّه فسَّر كتب أرسطاطاليس» واعلم أنَّ هو تنجاريوس ذكر في مكتبته الشرقية صفحة ٢١٩. في جملة مفسري كتب أرسطو أحمد بن الطيب الرازي، فهذا غير عبدالله بن الطيب الذي نتكلَّم عنه لأنَّ أحمد بن الطيب مسلم وعبدالله بن الطيب مسيحي نسطوري، وأنَّه يلزم اصلاح خطا بروكوكيوس في المقدمة التي علقها على تاريخ الدول لابن العبري فانَّه لم يميز بين أبي الفرج بن العبري الشهير وبين أبي الفرج بن الطيب وسبب أخطائه كنية العالمين بأبي الفرج.

قد مرَّ أنَّ إيليا أسقف نصيبين أرسل رسالته التي وضعها إلى عبدالله بن الطيب لينقِّحها ويصلح ما يرى أنَّه لا بد من اصلاحه وكتب ابن الطيب في آخرها «قرأتها دعوة لبقاء قدس أبينا المعظم صلاته على العالم وهي على الحسن والصحة والموافقة في معناها بما تستحقه الكتب البيعية ولا يمكن من يحب الحق أن يرفع كلمة منها» على ما في الكتاب الثامن والثلاثين من الكتب العربية الواتيكانية. انتهى ملخصاً عن السمعاني في المجلَّد الثالث من المكتبة الشرقية صفحة ٥٤٤ وما يليها.

عد ٨٠٧

ابن بطلان

روى لنا أبو الفرج بن العبري ترجمة ابن بطلان فنلخِّصها عنه قال: ابن بطلان هذا هو طبيب نصراني بغدادي فضل في علم الأوائل وكان يرتزق بصناعة الطب، وخرج عن بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها وخرج عنها إلى مصر فأقام فيها مدة واجتمع بابن رضوان المصري الفيلسوف وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً

على ابن رضوان وسار إلى أنطاكية وأقام بها، وقد سئم كثرة الأسفار وضاق عطنه عن معاشرة الأغمار فغلب على خاطره الانقطاع عن العالم. فنزل بعض الأديار بأنطاكية وترهَّب وانقطع إلى العبادة إلى أن توفي سنة ٤٤٤هـ (سنة ١٠٥٣م). ومن مشاهير تصانيفه كتاب تقديم الصحة مجدول وكتاب دعوة الأطباء مقامة ظريفة ورسالة اشتراء الرقيق. ولما جرى ما جرى له مع ابن رضوان بمصر كتب إليه رسالة يقطعه فيها ويذكر معائبه ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم الأوائل ورتبها على سبعة فصول الأوَّل فضل من لقي الرجال على من درس في الكتب. الثاني في أنَّ الذي علم المطالب علماً رديئاً يعسر حل مباحثه بحسب علمه. الثالث في أنَّ إثبات الحق في عقل لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت في عقله المحال. الرابع في أنَّ من عادات الفضلاء عند قراءتهم كتب القدماء أن لا يقطعوا بطعن مصنفها إذا رأوا في المطالب تبايناً وتناقضاً، لكن تجلَّدوا إلى البحث والتطلُّب. الخامس في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة وتطلب أجوبتها بالطريقة البرهانية. السادس في تصفُّح مقالته في المباهلة (الملاعنة) التي ضمن فيها: إنَّني أسأله ألف مسألة ويسألني مسألة واحدة (ربَّما كان غلط في الطبع وكان الأصل أسأله مسألة واحدة ويسألني ألف مسألة). السابع في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية والتعيين على موضع الشبهة في التسمية وختم الرسالة بقوله وليتحقق أنَّ اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب فانَّ لنا موقف حساب وجمع ثواب وعقاب يتظلَّم فيه المرضى إلى خالقهم ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية في هلاكهم وانَّهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسببي ولا يغضون عنه كما أغضيت عن ثلب عرضي فليكن من لقائهم على يقين ويتحقق أنَّهم لا يرضون منه إلَّا بالحق المبين والله. يوفقنا وإياه للعمل بطاعته والتقرُّب إليه بابتغاء مرضاته وهو خير ونعم الوكيل».

وقد ذكر السمعاني في مكتبته الشرقية (مجلَّد ٣ صفحة ٥٤٦) ابن بطلان وقال إنَّه كان يعقوبياً لا ملكياً كما وهم رينودوسيوس في المجلَّد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٥٣ وقد ولد ببغداد وعلم الطب والفلسفة في الجزيرة وسورية وأخيراً انقطع إلى العبادة بالطريقة الرهبانية في دير قريب من أنطاكية.

عد ٨٠٨
توافيلكتس وشدرانس

أمّا توافيلكتس فولد في قسطنطينية وكان علّامة عصره ضليعاً بمعرفة كتب الآباء الذين كتبوا باليونانية ولاسيما كتب «فم الذهب» وصير أسقفاً على اكريد ومتروبوليتاً لبلاد البلغاريين. وقد أثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١٠٧١م بأدلة قاطعة أنه اشتهر في أيام الملوك ميخائيل دوكا ونيقوفور بوتانيات والكسيس كومنانس من سنة ١٠٦١م وإلى ما بعد سنة ١٠٨١م ولا يعلم متى كانت وفاته. ومن مؤلفاته تفسيره للأناجيل الأربعة ولكتاب أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول ونبوات حبقوق ويونان ونحوم وهوشع، وله خطبة في السجود للصليب طبعها كراتسارس أحد الآباء اليسوعيين ورسائل مثبتة في مكتبة الآباء وله كتاب في تدبير الملك ألّفه للملك قسطنطين برفيروجانت وابنه ميخائيل دوكا وقد طبع في اليونانية مع ترجمته اللاتينية ثمَّ طبعت هذه الترجمة في المجلّد السابع عشر من مكتبة الآباء المطبوعة في ليون وقد اعتمد في تفسيره رسائل بولس الرسول على تفسير يوحنا فم الذهب لها، حتى يمكن أن يقال إنَّ ما تفسير توافيلكتس إلّا خلاصة تفسير فم الذهب لهذه الرسائل وأثبت تفسيره الأناجيل عقيدة وجود جسد المسيح في القربان حقيقة ببينات دامغة وأدلة قاطعة وقد أفحم العلامة مؤلف الكتاب الموسوم بالمدافعة عن إيمان الكنيسة الكاثوليكية دائماً بسر الافخارستيا بأقواله البرتينس وكلوديوس الكلوينيين (طالع المجلّد الأوّل ك ٢ فصل ٩ من هذا التأليف. انتهى ملخصاً عن تاريخ نطاليس اسكندر.

وأمّا شدرانس ويسمى جيورجيوس شدرانس فهو راهب يوناني كاثوليكي انصب على علم التاريخ فنبغ وألّف تاريخاً ابتدأ فيه من تاريخ خلق العالم إلى سنة ١٠٥٧م في أيام الملك اسحق كومنانس، وقد اعتمد غالباً في تاريخه على تاريخ القديس توافان المؤرّخ وقد انتقده كثير من العلماء في مواضع كثيرة من تاريخه. وقال بعضهم في أنّه جامع أقوال المؤرخين فيروى ما رواه غيره ولو معتلاً دون أن يبدي رأيه على أنّه ثقة في نقله ولا يخلو تاريخه من فائدة. وقد استشهد بأقواله كثير من العلماء الأعلام وقد حذونا حذوهم باستشهادنا تاريخه مرات كثيرة ولاسيما في ما رأيناه متابعاً غيره من المؤرخين السابقين له.

عد ٨٠٩

بعض مشاهير الآباء اللاتينيين في هذا القرن

القديس بطرس دميانس

ولد في رافنا نحو سنة ٩٨٨م ودرس العلوم على أخيه وكان رئيس الشمامسة في المدينة المذكورة، وقيل إنَّ اسمه كان دميانس فنسب أخوه إليه. وقيل إنَّ دميانس اسم أبيه واتَّخذ الطريقة الرهبانية في احدى المحابس، ثمَّ صير رئيساً للحبساء وخدم الكنيسة خدمات تذكر وتشكر في أيام الأحبار الرومانيين غريغوريوس السادس واكليمنضس الثاني، ولاون التاسع، وفيكتور الثاني، وأسطفانس التاسع، ونيقولاوس الثاني، واسكندر الثاني. وقد رقاه البابا أسطفانس التاسع إلى مقام الكرادلة أسقفاً على أوستيا. وقد كتب في حقه البابا نيقولاوس الثاني إلى أساقفة افرنسة عند بعثته إليهم ما ترجمته: «قد اعتنينا بأن نرسل إليكم الرجل الشهير الذي ليس أعظم منه بعدنا في الكنيسة الرومانية الا وهو بطرس دميانس أسقف أوستيا من هو لنا بمنزلة العين وللكنيسة الرومانية بمثابة دعامة لا تتزعزع». وكان شديد الغيرة على حفظ تهذيب الكنيسة وله مقالات مشبعة في تونيب السيمونيين (من يأخذون مالاً في تنويل المناصب البيعية) والكهنة الذين لا يحافظون على عفتهم والعامة الذين يتجوزون بذوات قرابتهم. وقد حمله حبه للعزلة والخلوة أن يترك مقامه السامي سنة ١٠٦٢م ويعتزل في محبسة إلى أن أدركته المنية سنة ١٠٧٢م. ويعيّد لذكره في ٢٣ شباط.

وقد ترك آثاراً دالة على غزارة علمه وطول باعه وشديد غيرته وقد طبعت مؤلفاته لأوَّل مرَّة في باريس سنة ١٦٤٣م في ثلاثة مجلَّدات اشتمل أوَّلها على رسائله منقسمة إلى ثمانية كتب وتضمن الثاني خطبه وتراجم القديسين وحوى الثالث ستين مقالة في موضوعات شتى». وقد أثنى العلماء على تصانيفه وقدّروها حق قدرها الرفيع في اثبات حقائق الدِّين وقواعد الآداب وأصول التهذيب البيعي وتاريخ الكنيسة وكلُّها متينة المبنى سلسلة العبارة خالية من الغموض.

وقد عثر الكردينال ماي على شرح له لرتبة القداس من أحسن الشروح الموضوعة لذلك، ومما قال فيه عند شرحه كلمات المسيح التي يلفظها الكاهن في

القداس وهي هذا هو جسدي هذا هو دمي: «إنَّ الخبز والخمر يستحيلان جسداً ودماً بقوة كلام الكلمة التي بها صار كلمة الله جسداً وحلَّ فينا، وبها قال فكان كل شيء وبها صارت امرأة لوط صنماً، وبها عادت العصا حية، وبها استحالت ينابيع الماء دماً، وبها تحوَّل الماء خمراً. وإذا كان كلام إيليا أهبط النار من السماء ألا يستطيع كلام المسيح أن يحيل الخبز جسداً. فمن يجسر أن ينكر ذلك على من ليس لديه أمر عسير، وعلى من به كان كل شيء وبدونه لم يكن شيء. لعمرك ان خلق الشيء من لا شيء هو أعظم كثيراً من تحويل شيء إلى آخر. فان قال قائل إني موقن بأنَّه قادر على ذلك لكنني غير موقن بأنَّه اراده فليسمع ما يقول كلمة الله عندما بارك الخبز: هذا هو جسدي. فالمسيح هو الحق فالحق هو المتكلِّم فما يقوله لا يمكن أن يكون إلَّا الحق. وقال في محل آخر إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فليس لكم في ذواتكم حياة. وزاد على ذلك بياناً للحقيقة قوله جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً. فأنا راغب في الحياة الأبدية فأتناول جسد المسيح حقيقة وأشرب دمه حقيقة، جسده الذي أخذه من العذراء ودمه الذي راقه على الصليب. وكما كانت الأرملة في صارفة صيدا تأكل كل يوم فلا ينقص طحينها ولا يقل زيتها، فكذلك الكنيسة تتناول كل جسد المسيح في كل مكان ولا ينقص جسد المسيح ولا يقل».

القديس انسلمس أسقف كنتورباري

ولد القديس انسلمس بأوسطا (إيطاليا) سنة ١٠٣٣م وبعد أن شبَّ ترك والده وموطنه وأتى إلى افرنسة. وكان أولاً متردداً بين أن يصير راهباً وبين أن يعيش بأملاكه خادماً الفقراء، لأنَّ أباه كان قد توفي وترك له ثروة عظيمة وجزم أخيراً أن يترهَّب وانضوى إلى دير ياك بافرنسة سنة ١٠٦٠م وبعد ثلاث سنين انتدب رئيساً لهذا الدير فانكبَّ على درس اللاهوت ونبغ فيه حتى أخذ يحمل الأبحاث الغامضة المشكلة والمغلقة على من تقدَّمه مطابقاً بين رأيه وشهادة الأسفار المقدَّسة وقد أتعبته مهام رئاسته فهمَّ أن يعتزلها ومضى إلى موريل أسقف روان يستشيره في ذلك فنهاه عن الاعتزال وقال له إن دعيت يوماً ما إلى منصب أرفع من رئاسة الدير فلا تأنفه لأني أعلم أنَّك لا تستمر زماناً طويلاً في هذه الرياسة، فعاد انسلمس إلى ديره

حزيناً واستمرَّ يدبر ديره بحكمة، ويعامل مرؤوسيه بلطف وأنس حتى كانوا يعتدونه أباً حنوناً وذاع صيت فضائله وعلمه وكان لديه أملاك في انكلترا فكان تدبيرها يلجئه أن يقيم هناك أياماً، وحيثما حل لوقي بالتجلة والتكريم وكان الناس يتفاخرون بمحادثته ويتسابق وجوه الانكليز إلى اغتنام مرضاته حتى كان الملك نفسه يحتفل بلقائه ويؤنسه ويعظم مثواه عنده. ولم يكن انسلمس يمل من التعليم بأحاديثه وتآليفه شارحاً الحقائق اللاهوتية والفلسفية شرحاً تشربه الأذهان وتطيب به القلوب حتى استحقَّ أن يحصى في عداد آباء الكنيسة وملافنتها. وفي سنة ١٠٩٣م اختاره أساقفة انكلترا رئيساً لأساقفة كنتورباري على إبائته هذا المنصب وتمنعه عن قبوله أياماً، فكان شديد الدفاع عن حقوق الاكليروس والحبر الروماني مخالفاً لغوليلمس ملك انكلترا الملقَّب بالأشقر LE ROUX الذي كان يرغب في قصر هذه الحقوق وفي غصب أملاك الكنائس حتى أبعد انلمس عن إنكلترا، ولكن ردَّه إليها انريكس الأوَّل خليفة غوليلمس المذكور. وعقد انلمس مجمعاً في وستمينستر وقضى فيه بالتزام اكليروس انكلترا بحفظ العفة سنة ١١٠٢م وكانت لانلمس مرتبة رفيعة في علم اللاهوت وفي سياسة عصره حتى لقِّب بأغوسطينس الثاني. وقد جدَّ في أن يؤيِّد الدين بمبادي الفلسفة وأحدث برهاناً لم يسبق إليه لاثبات وجود الله متِّخذاً إياه من ثبوت موجود كامل، وهو أوَّل من وضع الطريقة الجدلية في علم اللاهوت. فيورد الاعتراضات ويردفها بحلها. وقد توفي سنة ١١٠٩م وأحصاه البابا اسكندر السادس في مصاف القديسين سنة ١٤٩٤م، وأحصاه البابا اكليمنضس الحادي عشر في مصاف ملافنة الكنيسة سنة ١٧٢٠م ويعيد لذكره في الكنيسة الرومانية في ٢١ نيسان.

ومما كتبه وهو رئيس دير ياك بنورمندية كتابه في تراجم القديسين ومحاورات في الحق وفي سقوط الشيطان، وفي حرية الانسان وبعض تأمُّلات وغير ذلك. ومما كتبه وهو رئيس أساقفة كتابه في الإيمان بالثالوث وتجسّد الكلمة رداً على بعض أصحاب البدع. ابتدأ في هذا الكتاب وهو راهب وأنهاه بعد أسقفيته سنة ١٠٩٤م وقدَّمه إلى البابا اوربانس الثاني، وشرع تلك السنة في تدوين كتبه المعنونة لماذا صار الاله إنساناً وأنجزها في سنة ١٠٩٨م. وكتب في السنة التالية كتابه في حبل العذراء وكتابه في انبثاق الروح القدس وكتب سنة ١١٠١م رسالته في الخبز الفطير وأنفذها إلى فالارانس، ودوّن في السنة التالية رسالته إليه في تعدد الأسرار. ووضع

في آخر حياته كتابه في التوفيق بين علم الله السابق والانتخاب ونعمة الله وبين حرية الانسان المطلقة وتعزى إليه كتب ومقالات أخرى عديدة أثبت نطاليس اسكندر صحة نسبة بعضها إليه، وأنكر صحة نسبة باقيها. وقد طبعت مؤلفاته أولاً بنورمبرك سنة ١٤٩١ ثمَّ طبعت في البندقية سنة ١٧٤٦ وطبعها الأب مين في جملة مكتبة الآباء اللاتينيين مجلَّد ١٥٨ ومجلَّد ١٥٩ .

القديس أنلمس أسقف لوكا

كان في هذا القرن أيضاً أنسلمس الآخر أسقف لوكا بإيطاليا وهو سليل أسرة شريفة من مديولان وابن أخي البابا اسكندر الثاني، وقد نصبه هذا البابا أسقفاً على لوكا التي كان هو أسقفها قبل ارتقائه ذرى الحبرية، وأرسله إلى الملك انريكس الرابع ملك ألمانيا الذي كان استحوذ حينئذٍ على إيطاليا ليعرفه أسقفاً، فأبى أن يمضي إلى هذا الملك الذي كان مخالفاً الحبر الروماني، ولما توفي عمُّه البابا اسكندر انتخب انسلمس أسقفاً على لوكا انتخاباً قانونياً. وكتب إليه البابا غريغوريوس السابع خليفة عمه أن يحذر من أن يأخذ من الملك المذكور علامة الرضى عنه قبل أن يصالح الحبر الروماني الملك. وكان أنسلمس عضداً قوياً للكنيسة وللبابا غريغوريوس المذكور في مقاومة كيبر الذي أدخله الملك انريكس المذكور على الكرسي الروماني ولم يكن حبراً شرعياً، بل أقلق الكنيسة مدة طويلة، وقد عهد إليه البابا غريغوريوس بسفارة الكرسي الرسولي، والنظارة إلى أساقفة لومبردية كلها. وكان فاضلاً ورعاً عادلاً حليماً علّامة حتى حكى عنه أنَّه كان يحفظ الأسفار المقدَّسة كلها عن ظهر قلبه، ويحيط علماً بتفسيرات الآباء لها. وقد ألَّف كتباً كثيرة منها كتاب أنفذه إلى كيبر الدخيل على الكرسي الرسولي يناشده به أن يقلع عن غلطه ويمحو اثامه بالتوبة فأجابه كيبر متكبراً مراوغاً، فأجابه أنسلمس بكتابين بيَّن في الأوَّل منهما اختلاس كيبر الحبرية دون حق، وأنَّ الملك أنريكس الرابع بمدافعته عنه يطأ شرائع الكنيسة ويخل بالدين. وأوضح في الثاني أنَّ ليس لملوك الأرض أن ينصبوا رعاة للكنيسة أو أن يستولوا على أملاكها وأموالها ودافع دفاعاً شديداً عن البابا غريغوريوس السابع وعن حكمه بالحرم على الملك أنريكس الرابع مورداً لاثبات غرضه آيات الكتاب وأقوال الآباء والحجج الدامغة وله كتاب في تفسير مراثي أرميا النبي وزبور داود، وله تأليف نفيس جمع فيه قوانين الكنيسة في

ثلاثة عشر كتاباً ويظهر أنَّ البابا غريغوريوس السابع اقترحه عليه. وذكر روهربخر (في كتاب ٥٦ من تاريخه) خلاصته، وقد انكر نطاليس اسكندر صحة نسبة هذا الكتاب إلى القديس انسلمس أسقف لوكا، ولكنّ ردَّ يوحنا منسى رأيه مثبتاً في حواشيه على تاريخ نطاليس المذكور أنَّ مجموعة القوانين المذكورة هي للقديس أنسلمس دون غيره، ومُورداً لتأييد غرضه أدلَّة ساطعة وبينات قاطعة. وقد توفي القديس أنسلمس في ١٨ آذار سنة ١٠٨٦م وقال روهربخر في المحل المذكور إنَّ الله أجرى على يده معجزات كثيرة في حياته وبعد مماته وقد كتب ترجمته كاهن كان يخدمه وقد اعتمد المؤرخون على هذه الترجمة في كلامهم عليه. (انتهى ملخصاً عن تاريخ نطاليس اسكندر والأب روهربخر).

الفصل الثالث

ما كان من البدع والشقاق في القرن الحادي عشر

عد ٨١٠
البدع في هذا القرن

كفى سورية ما كان من البدع القديمة من يعقوبية ونسطورية وغيرها وكفاها ما كان بها في هذا القرن من الاضطرابات السياسية ومغالبات الدول العباسية والسلجوقية في شماليها أي في العراق، وما يليها مع الدول العلوية الفاطمية في مصر، وتنازعهن أعمال سورية فضلاً عن محلات عمال الأعمال السورية بعضهم على بعض، فلم تكن بدعة حديثة بسورية بين النصارى، وقد كان في أوروبا بعض البدع والمبتدعين ولكن لم يشترك السوريون في احداها ولم يتشايعوا لأحد المبتدعين. فقد كان في أورليان بافرنسة فرع من بدعة المانويين، والأولى أن نسميه نوعاً من مذهب المعتزلة أو الدهريين أتت بهذا الضلال امرأة من إيطاليا فبثَّته في أورليان وشايعها عليه رجلان اسم أحدهما اسطفانس واسم الآخر ليزويوس. ومن

غوايات أصحاب هذه البدعة قولهم إنَّ الأرض والسماء أزليتان لا بداية لهما وأنَّ كلَّ ما جاء في الأسفار المقدَّسة عن خلق العالم والثالوث الأقدس هو هذر، وأنَّ تجسُّد المسيح خرافة، وأنَّ الزواج حرام، وأنَّ لا ثواب ولا عقاب في الآخرة وعرف بذلك روبرتس ملك افرنسة فأتى بنفسه إلى أورليان واجتمع فيها كثيرون من الأساقفة فعقدوا مجمعاً وأصرَّ فيه أسطفانس وليزوپوس على ضلالهما فحطَّهما الأساقفة عن درجتهما إذ كانا إكليريكيين فكابرا وما انفكَّا يبثَّان ضلالهما فأمر الملك بحرقهما فأحرقا وكان نظام تلك الأيام يبيح ذلك.

وأشهر البدع في القرن الحادي عشر بدعة بانغاريوس ويسميه الافرنسيون باربخر، فهذا ولد في بداية هذا القرن بمدينة طور بافرنسة ودرس العلوم وكان يتباهى بعلمه ويجهد نفسه ليأتي منها بما لم يسبق إليه. ورقي إلى درجة رئيس شمامسة في انجه وأخذ أولاً يندد ببعض عقائد الدين ثمَّ تصدى لانكار وجود جسد المسيح ودمه حقيقة في القربان الأقدس فكان أوَّل من ابتدع هذه البدعة ولم يسبقه إليها غيره على الأصح، وطفق يبث ضلاله سنة ١٠٤٧م. فعقدت عدة مجامع لنبذ هذا الضلال فعقد البابا لاون التاسع مجمعاً في رومة سنة ١٠٥٠م فحرم بارنغاريوس وضلاله وعقد مجمع آخر في بريس في أيام الملك انريكس الأوَّل (الذي ملك سنة ١٠٣١م إلى سنة ١٠٦٠م) فحرمه أيضاً. وكذلك حرمه البابا فكتور الثاني في مجمع عقده في فلورنسا سنة ١٠٥٥م. وعُقد هذه السنة مجمع آخر في طور بافرنسة وأفحم فيه بانغاريوس بضلاله فجحده وأقسم على أنَّه لا ينفك عن تعليم الكنيسة الكاثوليكية. وعقد البابا نيقولاوس الثاني مجمعاً في رومة سنة ١٠٥٩م وشهده مئة وثلاثة عشر أسقفاً فاعترف فيه بانغاريوس بالإيمان الروماني على موجب دستور قدم له فتلاه وأقسم على حفظه، وألقى ما كان كتبه مدافعه عن ضلاله في النار بحضرة آباء المجمع، لكنَّه رجع إلى افرنسة فعاد إلى بث ضلاله وألَّف كتاباً يدافع به عن بدعته فحرمه موريل أسقف روان في مجمع عقده سنة ١٠٦٣م، وهذا المجمع أثبته مجمع آخر عقد في بواتيا بافرنسة أيضاً سنة ١٠٧٥م ثمَّ عقد القديس غريغوريوس السابع الحبر الروماني مجمعاً في رومة سنة ١٠٧٩م وأحضر إليه بارنغاريوس، فأقرَّ بخطأه وجحده جحوداً صحيحاً، وأقسم على صحة جحوده. ومما قاله في جحوده: «اعترف بأنَّ الخبز والخمر اللذين يوضعان على المذبح يستحيلان بسر الصلوة المقدَّسة وكلمات استحالة مخلِّصنا استحالة جوهرية

إلى جسد المسيح ودمه حقيقة ... لا على سبيل الاشارة وقوة السر فقط بل بحقيقة الجوهر». لكنَّه حنث مرَّة أخرى وعاد إلى غيه إلى أن نال من الرحمة الإلهية نعمة فعَّالة حملته على الاقلاع عن ضلاله سنة ١٠٨٠م في مجمع التأم في بوردو وقضى بعد ذلك ثماني سنين مظهراً صنوف التوبة والتكفير عن اثمه وتوفي في حضن الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٠٨٨م .

وقد ماتت بدعة بارنغاريوس بموته واستمرَّت ميتة قروناً إلى أن بعثها بعض المبتدعين ولاسيما الكلوينيين في القرن الخامس عشر. وأما الكنائس الشرقية المتَّحدة بالكنيسة الرومانية أو المنفصلة عنها في سورية وغيرها من المشرق فقد حافظت وما فتئت تحافظ على هذه العقيدة المقدَّسة سر محبة الله المذهلة للبشر. وقد حبطت مساعي البروتستانت الذين حاولوا مرات تضليل الكنائس الشرقية عن هذه العقيدة فخفقت محاولاتهم إلَّا في العدد اليسير الذي أضلوه ببدعتهم. وقد رفعتُ مقالة مطبوعة بالافرنسية والعربية إلى المجتمع القرباني في أورشليم سنة ١٨٦٣م اثبتُّ بها هذه العقيدة بتقليد الكنيسة السريانية بفروعها الكاثوليكية وغير الكاثوليكية مستشهداً بكتب طقوس كل من هذه الكنائس وأقوال آبائها وعلمائها .

عد ٨١١

الشقاق الذي أحدثه ميخائيل شيرولاريوس البطريرك القسطنطيني

إنَّ الشقاق بين الكنيستين اللاتينية واليونانية الذي ألقى بذره فوتيوس بما كان بينه وبين القديس اغناطيوس والأحبار الرومانيين في شأن بطريركيته في قسطنطينية كما مرَّ نبت ونما وتأصَّل في أيام ميخائيل شيرولاريوس البطريرك القسطنطيني، وكنا نود لو سمح مساق تاريخنا أن نصمت عن ذكر هذا الخلاف لئلَّا يظن أنَّنا ننقص في حرمة الائتلاف والاخاء الذي نتوخاه بين الفرق المسيحية جمعاء بل بين جميع الأمم على الاطلاق. على أنَّ هذا الخلاف بين الكنيسة الرومانية واليونانية وبين الكنائس الشرقية نفسها أيضاً قد طال أمره وعمَّ سورية وسائر الأمصار الشرقية وما برح إلى اليوم، فلم يكن لنا من سبيل إلى الاضراب عن الكلام فيه، وجل ما يتحتم علينا أن ننبذ كل تغرّض وتعصُّب ونتحاشى عن كل طعن وتمويه ومواربة، ونعتمد

على ما رواه المؤرخون الثقاة، ونؤثر شهادة المعاصرين منهم على شهادة المتأخرين.

إنَّ ميخائيل شيرولاريوس كان سليل أسرة شريفة بقسطنطينية، وفي ابان شبابه أحدث ثورة على الملك ميخائيل البفلاغوني (الذي استوى على منصَّة الملك سنة ١٠٣٤ إلى سنة ١٠٤١م) فحبسه الملك في دير فترهَّب كما روى شدرانس المؤرِّخ اليوناني المعاصر في تاريخ سنة ١٠٣٥م ثمَّ رقي إلى المقام البطريركي في قسطنطينية سنة ١٠٤٣م، وصرف عشر سنين في البطريركية والناس تحسبه صحيح المعتقد، ولم ينشئ خلافاً إلى أن كتب سنة ١٠٥٣م رسالة إلى يوحنا أسقف تراني بجنوبي إيطاليا ووقع عليها هو ولاون أسقف اكريدا بلغاريا، وقد ملأها من الطعن بالحبر الروماني والكنيسة اللاتينية. ثمَّ كتب في السنة التالية رسالة أخرى إلى بطرس بطريرك أنطاكية واوعبها من المطاعن والقدح بالكنيسة اللاتينية، ومن رؤوس شكاويه فيها أنَّ اللاتينيين يشتركون مع اليهود في تقديسهم الخبز فطيراً، وأنَّهم يأكلون المخنوق ويحلقون لحاهم ويصومون السبت ويأكلون لحوم الحيوانات النجسة ويأكل رهبانهم اللحم ويستحلون أكله في السبة الأوَّل والخامسة من الصوم، وانَّهم زادوا على دستور الإيمان كلمة الابن زاعمين أنَّ الروح ينبثق من الآب والابن وأنَّهم يزوجون أخوين باختين وأنَّ أحد كهنتهم يقبل الآخر في القداس، وأنَّ أساقفتهم يتحلُّون بالخواتم ويمضون إلى الحرب ويلطِّخون أيديهم بالدم البشري، وكهنتهم يستعملون في التعميد تغطيس المعمَّد بالماء مرَّة واحدة ويضعون ملحاً في فم المعمَّد ولا يكرمون ذخائر القديسين ولا صورهم، ولا يترنمون بهلوليا في الصوم. أثبت هذه الرسالة الكردينال بارونيوس أمام المؤرخين في تاريخ سنة ١٠٥٣م.

وبينما كان البابا لاون التاسع في مدينة بونافنتو (بإيطاليا) عثر الكردينال همبر أسقف كنيسة القديسة روفينا على رسالة البطريرك ميخائيل شيرولاريوس ولاون أسقف اكريدا إلى يوحنا أسقف تراني المذكورة، وكانت مشتملة على ما اشتملت عليه رسالة البطريرك المذكور إلى بطرس بطريرك أنطاكية فترجمها من اليونانية إلى اللاتينية ورفعها إلى الحبر الروماني المار ذكره. وبعد أن طالعها كتب إلى البطريرك ميخائيل ولاون أسقف اكريدا رسالة مشبعة منطوية على احد وأربعين فصلاً أثبتها لاباي في المجلَّد التاسع من مجموعة المجامع، وهي الخامسة من رسائل هذا البابا. وإليك ملخَّصها: «إنَّ جل ما أوصانا به سيِّدنا يسوع المسيح إنَّما هو جل ما سأل الآب إياه من أجلنا وهو السلام والاتِّحاد، فالويل للعالم إذاً من الشكوك والعثار

والويل للناس الذين يلقون عصا الشقاق في وحدة الكنيسة فهؤلاء أشد قسوة من الجند الذين لم يشقوا قميصه غير المخيط. ويا للعار من البدعة التي تسعى بثلم الوحدة غير المنفصمة فأصحابها أشبه بالنسور والجوارح التي لا تعيش إلَّا بموت غيرها». إلى أن يقول: «إنَّ ما يذهلنا ويبكينا ويستنزف دموع محبّتنا إنَّما هو تمزيق أحشاء الكنيسة أمنا وجرح عواطف المسيحيين وبلبال التهذيب البيعي واحتقار قوانين الكنيسة، فهذا هو ما أقدمت عليه أنت أيُّها الأخ العزيز الحبر القسطنطيني وأنت يا لاون أسقف اكريدا بطعنكما جهاراً بالكنيسة الرسولية اللاتينية، أنتما لم تسمعا حجتها ولم تبكماها في الدفاع عن دعواها بل تعيبانها خاصة بتقديسها خبز القربان فطيراً. لعمري أنَّ تنديدكما كان على غير روية والفخر الذي تتباهيان به لا يحق لكما، فقد رفعتما فاكما إلى السماء ولسانكما ينطق على الأرض بحجج وتخمينات بشرية لتعبثا بالإيمان القديم، فقد انقضى نحو من ألف وعشرين سنة بعد آلام المخلِّص وتأتيان الآن لتعلما الكنيسة الرومانية كيف تصنع ذكر هذه الآلام كأنّ تجسد المخلِّص وتعليمه وموته لم ينفعها بشيء وهو القائل لمؤسسها: «طوباك يا سمعان بن يونا فانَّه لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك لكن أبي الذي في السماء. وأنا أقول لك إنَّك أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها». فبطرس هو حجر الزاوية الذي بنيت عليه الكنيسة ولا يتزعزع بنيانها ولا تقوى عليه محاورات المبتدعين الذين يقودون إلى الهلاك. فهذا ما قاله الحق الذي هو المسيح ولا ينطق إلَّا بالحق وهو الذي وعد بطرس بالثبات الدائم إذ قال له: «إنَّ الشيطان سيغربلكم كالحنطة وأنا صليت من أجلك لئلا ينقص إيمانك، وأنت ارجع فثبّت اخوتك». ومن يحمله الجنون أن يزعم أنَّ من ارادته إنَّما هي الفعل نفسه لا تستجاب صلاته أو لا يستوي في نيل هذه الوعود بطرس وخلفاؤه الذين نبذوا كل ضلال وابكموا وأفحموا كل مبتدع، أو لم تثبت قلوب الاخوة بإيمان بطرس الذي لم ينقص ولن ينقص مدى الدهور؟ فنحن لا نريد أن نذكر هنا التسعين بدعة بأسمائها التي نشأت في الشرق في أوقات متباينة لتعبث بعذرية الأم الكنيسة الكاثوليكية، ولكن لا بدَّ لنا من أن نقول شيئاً عمَّا نشأ في كنيسة القسطنطينية من الضلال الذي نبذه الكرسي الرسولي واستأصله ومحقه، فتذكَّر أوسابيوس أسقف نيكومدية الذي تغلَّب على كرسي قسطنطينية، رشرَّع لواء آريوس الذميم ومكدونيوس الذي قتل سالفه بولس الطوباوي، وجدَّف على الروح القدس

وعذَّب المسيحيين واضطهد الكاثوليكيين حتى مماته، متشبهاً بيوليانس الجاحد وأودكسية الآريوسية التي أدخلت على كرسي قسطنطينية أونوميوس المبتدع، وريموفيل الآريوسي، ومكسيمس الأبوليناري. والمجمع الأوَّل القسطنطيني بعد أن رقّى نيكتار إلى البطريركية كتب إلى البابا داماسوس، أنَّ كنيسة قسطنطينية الحديثة النشأة، انتشبت فيها أظافر المبتدعين، فأنقذناها من مخالب الأسد. على أنَّ هذه الكنيسة لم تنجُ إلى زمان طويل. فيوحنا فم الذهب خليفة نكتار خلع من كرسيه ومات في المنفى. وخليفته ارساس اضطهد تلاميذ فم الذهب وأعمل فيهم أسياف الجنود. وقام بعد هؤلاء نسطور الذي أنكر أنَّ العذراء أم الله، وزعم أنَّ في المسيح أقنومين. وكان بعده أوطيخا الذي وحَّد طبيعتي المسيح وتسبب بقتل القديس أفلابيانس. وماذا نقول في أكاشيوس الذي شكا أولاً بطرس بطريرك اسكندرية ثمَّ شايعه في بدعته، وبعد هؤلاء انتيمس الأوطاخي الذي حطَّه البابا أغابيطس عن كرسيه وأوتيكيوس الذي زعم أنَّنا بعد القيامة نكون غير محسوسين، ففنَّد ضلاله البابا غريغوريوس وهو شماس، وخليفة يوحنا الذي حملته كبرياؤه أن يسمي نفسه بطريركاً مسكونياً. وماذا نقول في سرجيوس وبيرس وبولس الذين زعموا أنَّ في المسيح مشيئة واحدة، وأحدهم بيرس بعد أن جحد ضلاله في رومة عاد إلى قيه، وأنتما أشبه ببولس المذكور إذ تجسران أن تحكما على الكنيسة الرومانية التي لا يحل لكما ولا لأحد من الناس أن يحكم عليها». وهذه الرسالة طويلة نقتصر منها على ما لخَّصنا وعلى ختامها وهو: «نناشدكما بأحشاء يسوع المسيح أن نكون جسداً واحداً وروحاً واحدة ونتشبَّه بأعضاء الجسد البشري التي لا يحسد بعضها بعضاً بل يسر أو يحزن كل عضو منها بما يسر أو يحزن الأعضاء الأخرى، ولنتحاشى عن الكبرياء والحسد اللذين شأنهما بلبال جسد المسيح فلم تحسد الكنيسة الرومانية مع أنَّ المحبَّة تجعل كل شيء مشتركاً. فنحن نرى كل فخر لكم فخراً لنا فلِمَ تفرغون جدكم في أن تسلبونا فخراً منحه الله لنا وأقرت لنا الناس به، الا تنزل اليد أو الرجل الشرف أو الذل للرأس منزلة الشرف أو الذل لهما؟ فإن لم تشعرا في نفوسكم بوجوب هذا الاتفاق في أعضاء الجسد الواحد فأنتم لستم من هذا الجسد ولا حياة لكم فيه، وإذا تكونوا من جسد المسيح الذي هو الكنيسة ولا حياة لكم فيها فتأملوا أين تكونون فانَّكم تكونون كغصن قطع من الجفنة وييس فإن انفصلتم يبتسم وعرضتم نفسكم للاطراح بالنار والاحتراق، فنسأل رحمة الله أن تفيكم هذا

المصاب الجسيم». ومن شاء مطالعة هذه الرسالة المسهبة برمتها فليراجع المجلّد التاسع من مجموعة لاباي صفحة ٩٤٥ إلى صفحة ٩٧١ .

وبعد أن بلغت هذه الرسالة إلى البطريرك ميخائيل اضطرّه إمّا أمر الملك قسطنطين مونوماكس، وإمّا شدَّة ميل أهل قسطنطينية إلى الكنيسة الرومانية إلى أن يكتب إلى البابا لاون رسالة ترجي بالسلّم والاصطلاح، فأرسل البابا سنة ١٠٥٤م إلى قسطنطينية ثلاثة قصاد: الكردينال همبر أسقف كنيسة القديسة روفينا المار ذكره، وبطرس رئيس أساقفة أمالفي (بإيطاليا)، وفريدريك شماس الكنيسة الرومانية من مصاف الكرادلة، وأصحبهم برسالتين احداهما إلى الملك قسطنطين مونوماكس، والثانية إلى البطريرك ميخائيل جواباً على رسالتيهما إليه وكان البطريرك أبدى شديد رغبته في اتّحاد الكنائس، فأجابه البابا مهنئاً له على ميله إلى الاتّحاد ومحققاً له هيام الأحبار الرومانيين به في كل وقت، ولم يكتم عليه ما كان قد اتَّصل به من البطريرك ميخائيل انه ارتقى إلى البطريركية دون أن يجتاز إليها بالأسقفية، وأنَّه يسعى في أن يُخضع لسلطته بطريركيتي اسكندرية وأنطاكية ويحرمهما من حقوق استقلالهما القديمة، وأنّه سمى نفسه بطريركاً مسكونياً مع أنَّ هذه التسمية لم يرد القديس بطرس ولا أحد من خلفائه أن يتّخذها لنفسه، وان أمر المجمع الخلكيدوني أن يلقَّب بها القديس لاون البابا ومن يخلفه من الأحبار الرومانيين. وزاد البابا على ذلك قوله إنّه يتعجَّب كثيراً من أنَّ البطريرك يطعن على الكنيسة ويحرم ويضطهد جهاراً من يتناولون القربان الأقدس بالخبز الفطير، مع أنَّ هذا لم يقدم عليه أحد من الآباء القديسين أو من ملافنة البيعة ذوي الإيمان القويم، ويبين له أنَّه عرف ذلك من الرسالة التي أنفذها البطريرك إلى أساقفة أبوليا (بإيطاليا) حيث أفرغ جهده في أن يثبت أنَّ المخلِّص قدَّس جسده على الخبز والخمير، مع أنَّ الأسفار المقدَّسة تفند زعمه بتصريحها أنّه قدَّسه على الخبز فطيراً، إذ حظر على اليهود تحت عقوبة الموت أن يبقى في بيوتهم خميرة مدة ثمانية أيام الفصح. وقال اخالف المسيح وتلاميذه وصية الفصح وهم عاملون بها. أثبت هذه الرسالة لاباي في المجلّد التاسع صفحة ٩٧٨ .

ولم يتعرَّض البابا لاون التاسع في هذه الرسالة لرد باقي مزاعم البطريرك ميخائيل بل كان قد ضمن ذلك في مذكرة دفعها إلى قصاده المذكورين وأطال الكلام فيها على مسألة التقديس على الخبز الفطير أيضاً .

أمّا رسالة الحبر الروماني إلى الملك قسطنطين فضمَّنها اطراء غيرته وعنايته بتوثيق

عرى السلم والوفاق بين اليونان واللاتينيين، وقد أخبره بإيجاز عما عني به لانقاذ الكنائس من اضطهاد النرمنديين، وشكا إليه تحامل البطريرك القسطنطيني على اللاتينيين وعلى بطريركي اسكندرية وأنطاكية، وسأله أن يرد إلى الكنيسة الرومانية أملاكها التي في مملكته وأوصاه بقصاده. وقد أثبت لاباي هذه الرسالة أيضاً في المجلَّد المذكور صفحة ٩٨١ .

وقد توفي القديس لاون التاسع الحبر الروماني في ١٩ نيسان سنة ١٠٥٤م، وأمَّا قصاده المذكورون فقبلهم الملك قسطنطين مونوماكس بالتجلة والتكريم، وأنزلهم في قصره. وصنف الكردينال همبر كتاباً في تفنيد مطاعن البطريرك ميخائيل على اللاتينيين واتهامه لهم ووضعه على سبيل محاورة بين رجل قسطنطيني ورجل روماني، وفند همبر أيضاً كتاباً كان راهب اسمه نيقيطا قد دوَّنه مقتفياً به آثار البطريرك ميخائيل في قدحه باللاتينيين، وكان تفنيده سديداً حتى أفحم نيقيطا فأذعن للحق واعترف بأنَّ للكنيسة الرومانية السلطة والرئاسة على جميع الكنائس. وأخذ كتابه المعنون في الفطير والسبت وزيجة الكهنة وألقاه في النار بحضرة الملك والقصاد، فقبله القصاد وأثنوا عليه وصار صديقاً صدوقاً لهم وأمر الملك بترجمة تفنيد الكردينال همبر لكتاب نيقيطا إلى اليونانية، وحفظت هذه الترجمة في مكتبة قسطنطينية كما روى كانيسيوس (مجلَّد ٤ من تاريخه). وقد أثبت الكردينال بارونيوس مقالة نيقيطا ورد الكردينال همبر لها في المجلَّد الحادي عشر من تاريخه .

أمَّا البطريرك ميخائيل فأبى أن يكلِّم قصاد البابا وتحاشى عن أن يراهم، بل منعهم من التقديس في الكنائس، فدعوه مرات ليأتي ويدافع عن مزاعمه أو يرعوي عنها فلم يفعل، فمضوا إلى كنيسة القديسة صوفيا وأوضحوا بحضرة الملك والاكليروس والشعب أغلاطه واصراره عليها وإبائه مكالمتهم أو مكاتبتهم، وتركوا على المذبح منشور حرمهم له وللاون أسقف اكريدا باسم الحبر الروماني والنيابة عنه مبينين فيه أغلاطهما وجرائمهما، وفي جملتها أنَّ لاون المذكور وطأ برجله القربان المقدَّس الذي قدَّسه أحد كهنة اللاتينيين. وقد أثبت لاباي صورة هذا المنشور في المجلَّد التاسع صفحة ٩٩٢ من مجموعته المذكورة، وسافر قصاد البابا من قسطنطينية فبلغتهم في أثناء طريقهم رسالة من الملك يدعوهم بها من قبل البطريرك أن يعودوا إلى قسطنطينية، وظنُّوا أنَّ البطريرك فاق من سكرة غفلته فعادوا وراسلهم البطريرك أن يجتمعوا به في كنيسة القديسة صوفيا للمفاوضة، وكان في نيته أن يحرش

الشعب عليهم. ودرى الملك ما أضمر البطريرك فطلب أن يشهد هذه المفاوضة فتمنَّع البطريرك من الاجابة، فاصرف الملك القصاد واحتدم البطريرك من صنيع الملك وثار عليه عصابة من ذويه ولم يستطع الملك أن يخمد هذه الثورة إلَّا بأن يسلم إلى الثائرين سماركد ابنه وبولس أحد أعوانه اللذين كانا ترجماني الملك لدى القصاد، وهذا ناطق بجبانة هذا الملك وغادرته. أمَّا البطريرك ميخائيل فأذاع منشوراً ندد به بحرم القصاد له وأطلق الحرم عليهم ورفع اسم البابا من التذكارات البيعية وأنفذ إلى سائر بطاركة المشرق رسائل أوعب فيها المثالب والمطاعن عليهم وعلى الكنيسة اللاتينية جمعاء، وجعل اثني عشر مطراناً يوقعون عليها. والمعلوم أنَّ بطرس البطريرك الأنطاكي لم يذعن لرأيه بل ردَّه وان تسامح بذم بعض عادات اللاتينيين كما يظهر من جوابه الذي أثبته الكردينال بارونيوس في تاريخ سنة ١٠٥٤م أنَّ كل ما ذكرناه هنا مأخوذ عما كتبه الكردينال همبر المذكور في أخبار بعثته إلى قسطنطينية، وعن رسالة البطريرك ميخائيل إلى البطريرك بطرس الأنطاكي. وقد أثبت الكردينال بارونيوس العلامة هذه الآثار، ففي تاريخ سنة ١٠٥٤م ثمَّ عن ترجمة القديس لاون التاسع الحبر الروماني التي دوَّنها ديبوتس (ك ٢ فصل ٥)، وعن كتاب محاورة الكردينال همبر وعن ردِّه كتاب نيقيطا المذكور. وهذه الآثار أثبتها بارونيوس أيضاً في ذيل المجلَّد الحادي عشر من تاريخه.

ويظهر من الآثار المذكورة أنَّ الرسائل تواترت بعد ذلك بين البطريرك ميخائيل شيرولاريوس والبطريرك بطرس الأنطاكي، وفي جملة مدعيات البطريرك ميخائيل الباطلة أنَّ القصاد المذكورين لم يرسلهم البابا، وأنَّ ختوم الرسائل التي أتوا بها مزورة، وأنَّ الملك عرف أخيراً مكرهم وعزا خدعته بهم إلى المترجمين، وأنَّهم حرموا الكنيسة اليونانية لأنَّها لا تعتقد أنَّ الروح القدس منبثق من الآب والابن، وأنَّ اسم الحبر الروماني لا يذكر في كنيسة قسطنطينية مذ عهد بعيد، أي من أيام البابا فيجيليوس ويظهر من أجوبة البطريرك بطرس أنَّه كاثوليكي المذهب حقاً، لكنَّه يتملَّق البطريرك ميخائيل ويلاطفه ويجامله ويتسامح له في بعض المسائل ويتجاهل في غيرها، ويظنُّ أنَّه آثر هذه الطريقة لأنَّ أنطاكية حينئذٍ كانت في ولاية ملوك الروم، والبطريرك القسطنطيني له المحل الثاني بعد الملك في المملكة.

ثمَّ توفي الملك قسطنطين مونوماكس وارتقى اسحق كومنانس إلى منصَّة الملك سنة ١٠٥٧م، وكان البطريرك ميخائيل عاونه على هذا الارتقاء وكان يزعجه بكثرة

مطالبه له ولذويه بل يؤنبه ويهدده إذا أنكر عليه سؤله، حتى قال له يوماً أنا وضعت التاج على رأسك واعلم كيف أنتزعه، فاستاء الملك من جسارته ودلاله عليه وعزم أن يبعده وانتهز فرصة خروجه من المدينة فأمر بأخذه وبعض ذويه إلى احدى الجزر، وزين للأساقفة الموجودين في قسطنطينية خلعه، وأرسل يقول له أن يعتزل البطريركية طائعاً ويتّقي الأساقفة له مكرهاً في مجمع واعد بسلوس اعلم اليونان في عصره خطبة جمع فيها ما يكفي من الأسباب لعزله، فلم يحفل البطريرك بهذا التهديد ولم ينثن الملك عن عزمه فقضت المنية بينهما لأنَّ البطريرك مرض حينئذٍ ثمَّ توفي سنة ١٠٥٨م مصراً على معاداته الأحبار الرومانيين.

وقد أثبت نطاليس اسكندر بعد الفراغ من كلامه في ميخائيل شيرولاريوس أنَّ الشقاق الذي القى هو عصاه لم ينتشر في الكنيسة الشرقية كلّها في هذا القرن مويداً رأيه بأنَّ البابا اسكندر أرسل سنة ١٠٧١م بطرس أسقف انانيا إلى الملك ميخائيل، واستمرَّ هذا الأسقف في قسطنطينية سنة كاملة، وأنَّ البابا بسكاليس الثاني بعث غروسولانس أسقف مديولان إلى الملك الكسيس كومنانس ليستأصل ما يكون علق بالأذهان من آثار شقاق شيرولاريوس ويوطد سائر اليونان في وحدة الإيمان، وأجرى مباحثة بحضرة الملك نفسه أثبت فيها أنَّ الروح القدس ينبثق من الآب والابن، ثمَّ أذاع تلك المباحثة مكتوبة وأفاض نطاليس بإيراد غير ذلك من البينات الدالة على أنَّ شقاق شيرولاريوس لم يعم كنائس الشرق كلَّها في القرن الحادي عشر. وقد أيَّد رأيه العلامة يوحنا منسى في حواشيه على تاريخه قائلاً شيرولاريوس وضع أساس هذا الشقاق بين الكنيستين اللاتينية واليونانية، ولكن لم يكن الانفصال بينهما تاماً في القرن الحادي عشر ومهما يك من هذا الأمر فقد تعاظم الشقاق مذ حينئذٍ إلى أن أفتتح الملوك اللاتينيون قسطنطينية كما سيأتي، فخمدت جمرة الشقاق أو خبئت تحت الرماد ثمَّ عادت إلى الاضطرام لما أخذ الملك ميخائيل باليالوغس قسطنطينية من الملوك إلى اللاتينيين، وقد عقدت مجامع كثيرة سنشير إليها في أوقاتها وزال فيها الخلاف وحصل الوفاق ولكن لم توثق عراه، فانفصمت وعاد الخلاف إلى اليوم فنسأل الله إزالته وجمع كنيسة المسيح في حظيرة واحدة وجعلها رعية واحدة لراعٍ واحد. انتهى.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الحادي عشر

عد ٨١٢

المطران داود الماروني

كل ما نعلمه عن ترجمة هذا الأسقف أنه كان مارونياً ورئيس أساقفة، وأنه كان في هذا القرن الحادي عشر، وأنه ترجم من السريانية إلى العربية كتاباً كان أحد آباء الطائفة المارونية قد ألّفه وقد عني بهذه الترجمة سنة ١٣٧٠ لاسكندر المكدوني توافق سنة ١٠٥٩م. وقد ذكر هذا الكتاب البطريرك أسطفانس الدويهي الاهدني في الفصل السادس من كتاب احتجاجه عن الموارنة ورفع التهم عنهم وسماه تارة كتاب «القوانين» وتارة كتاب «الهدى» أو كتاب «الهداية». وذكر مرهج بن نيرون الباني الماروني في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم صفحة ٨٩، وفي كتابه المعنون أفوبليا (أي سلاح الإيمان) صفحة ١٧٠، وابراهيم الحاقلي في كتابه في أصل اسم بابا صفحة ٤٩٢، وأتى بذكره صفحة ٤٩٢ دي لوراك في كتاب سياحته في سورية وجبل لبنان مجلّد ٢ صفحة ٩١ وقد ذكره العلامة السمعاني في كتابه فهرست الكتب المخطوطة القديمة الشرقية في المكتبة الواتيكانية الذي ألّفه بمعاونة المطران أسطفان عواد السمعاني ابن اخته كما سيأتي، وقد ذكره مرات في مكتبته الشرقية وحقق أنَّه هو الذي أخذ هذا الكتاب من الشرق وضمَّه إلى المكتبة الواتيكانية، إذ روى في فهرست الكتب العربية التي نقلها من الشرق إلى المكتبة المذكورة، فقال في صفحة ٦٢٩ من المجلّد الأوَّل ما ترجمته: «الكتاب السادس والسبعون (من المكتبة المذكورة) يشتمل على رسالة الانبا يوسف إلى داود مطران الموارنة المؤرَّخة في سنة ١٣٧٠ (لاسكندر الموافقة لسنة ١٠٥٩ للميلاد)، والتي سأله بها أن يرسل إليه كتاب القوانين البيعية، ثمَّ جواب المطران داود إلى الانبا يوسف. وقد أرسل إليه

المقالة المشتملة على القوانين التابعة مجموعة القوانين تنطوي على ثلاثة وخمسين عنواناً: العنوان الأوّل في الإيمان، ٢ في الإيمان بسري التثليث والتجسُّد، ٣ في الصلاة، ٤ في الأشياء النجسة، ٥ في الأشياء الطاهرة، ٦ في القربان الأقدس، ٧ في التقادم، ٨ في الشركة، ٩ في المعمودية، ١٠ في الصوم، ١١ في العشور، ١٢ في تقدمة الخراف، ١٣ في تقدمة الثمار، ١٤ في شرح دستور الإيمان، ١٥ في القوانين المختصَّة بالمؤمنين أجمع، ١٦ في قوانين الرهبان والراهبات، ١٧ في قوانين الكهنة، ١٨ في قوانين المؤمنين والصلوات القانونية، ١٩ في الصوم والطلاق والزواج والامانة والقضاء، ٢٠ في البطاركة والأساقفة والكهنة والشمامسة والرهبان والعامة، ٢١ قوانين المجمع القسطنطيني الثاني، ٢٢ قوانين كيرلس الأورشليمي في المعمودية والزيجة، ٢٣ في المسيح الاله، ٢٤ قانون يوحنا الانجيلي، ٢٥ قانون في الأسباب المسوغة هجر الرجل امرأته وبالعكس، ٢٦ في المسيح والثالوث نقلاً عن كتاب عدي ابن ابراهيم المعروف بابن عديان الذي دوَّن سنة ٣٨٦هـ (وهي سنة ٩٩٧م)، ٢٧ في الصلوة الربية، ٢٨ قوانين اكليمنضس، ٢٩ في حفظ أيام الأعياد، ٣٠ في تكريس الهياكل، ٣١ في الميرون المقدَّس، ٣٢ في المذابح، ٣٣ في الملابس الكهنوتية، ٣٤ في قوانين الرسل وهي واحد وثمانون قانوناً، ٣٥ قانون بطرس الرسول للكنيسة، ٣٦ في العشور والبكور، ٣٧ مراسيم بطرس الرسول، ٣٨ مرسوم بولس، ٣٩ مرسوم بولس وعلى قول آخرين مرسوم يعقوب في ذكر الموتى، ٤٠ في جنازة الموتى، ٤١ في من يقاسون الاضطهاد من أجل الإيمان، ٤٢ في درجات الكهنوت، ٤٣ قانون بولس في تناول القربان، ٤٤ في قوانين المجمع النيقوي وهي اثنان وعشرون قانوناً، ٤٥ في قوانين مجمع أنقورة وهي ثلاثة وعشرون قانوناً، ٤٦ في قوانين مجمع قيصرية الحديثة وهي خمسة عشر قانوناً، ٤٧ في قوانين مجمع كنكرا وهي عشرون قانوناً، ٤٨ في قوانين مجمع أنطاكية وهي أربعة وعشرون قانوناً، ٤٩ في قوانين مجمع اللاذقية وهي تسعة وخمسون قانوناً، ٥٠ في قوانين مجمع قسطنطينية وهي أربعة قوانين، ٥١ في قوانين المجمع الخلكيدوني وهي سبعة وعشرون قانوناً، ٥٢ في قانون المجمع الأفسسي، ٥٣ في مراسيم الملوك قسطنطين وتوادوسيوس ولاون وهي مئة وأربعون مرسوماً». وأردف السمعاني هذا الفهرست بقوله: «وهو كتاب عربي خطَّ بالأحرف السريانية على رق بقطع الربع، صفحاته ٢٩٥ وكان خطّه سنة ١٧١٣ لاسكندر توافق سنة ١٤٠٢ للميلاد. وقد ذكر السمعاني أيضاً المطران داود

وكتابه في المجلَّد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٦٧ حيث تكلَّم في يعقوب البردعي فقال: «ذهب المطران داود الماروني في كتابه في القوانين وهو السادس والسبعون من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية إلى أنَّه سمى البردعي نسبة إلى مدينة اسمها البردعة، وهاك قوله في الفصل الأوَّل: «ثمَّ اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى البردعة ولذلك يقال له يعقوب البردعي». وهذه المدينة ذكرها مؤلِّف جغرافية بلاد النوبة وأورد نيرون الباني قوله في كتابه أفوبليا (سلاح الإيمان) صفحة ٤٢ على أنَّ بردعة بنيت بعد يعقوب البردعي بزمان طويل أعني نحو سنة ٧٠٥م في أيام عبدالملك بن مروان على ما روى جلال الدين الأسيوطي في تاريخ الخلفاء على ما في الكتاب السادس والأربعين من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٨٠ حيث قال: «في سنة ٨٥هـ بنيت مدينة اردبيل ومدينة بردعة بناهما عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي». انتهى كلام السمعاني في المحل المذكور وإذ تكلَّم في صفحة ١٨١ من المجلَّد المار ذكره في عدد البرشانات على عادة اليعاقبة أن تكون وتراً لا شفعاً إلَّا في البرشانتين قال: «قد اعترض توما من بيانسيا (في مؤلفه في الاهتمام برجوع جميع الأمم ك ٧ فصل ٦ صفحة ٤٩٩) على الموارنة بأنَّ لديهم شيئاً من هذه العادة، وقال الأب اليانس اليسوعي إنَّه وجد أثراً لذلك في كتاب «الهدا» (هو كتاب المطران داود)، على أنَّ العلامة البطريرك أسطفانس الدويهي الشهير قد أوضح (في احتجاجه عن الموارنة احتجاج ٦ فصل ٢) إنَّ هذا الظن أو التخمين باطل ولا صحة له».

إنَّ توما أسقف كفرطاب الذي أشرنا إلى شيء من أخباره في كلامنا على تاريخ الموارنة في القرن السابع وذكرنا أنَّه أتى إلى لبنان سنة ١١٠٤م ليستغوي الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة، وأنَّه ترجم كتاب القديس يوحنا مارون في الإيمان وعبث به محرِّفاً إياه وزائداً عليه ما يوافق غرضه، فتوما هذا قد عبث بكتاب المطران داود المذكور أيضاً وعبث بادخال زيادات عليه وتحريفه له توسلاً لغرضه المذكور. وقد أثبت العلامة البطريرك أسطفانس الدويهي (في الفصل السادس من كتابه في الاحتجاج عن الموارنة صفحة ٣٤٠ من كتاب تاريخ الموارنة المطبوع في بيروت) إنَّ توما الكفرطابي المذكور زاد على كتاب المطران داود القول التابع: «إنَّ أوَّل فرقة ظهرت من الفرق المشهورة هي الفرقة المنسوبة إلى آريوس وهي التي تدعى آريوسية، ثمَّ النسطورية وهي المنسوبة إلى نسطور، ثم اليعقوبة وهي المنسوبة إلى

يعقوب البرادعي، ثمّ الملكية وهي المنسوبة إلى مكسيمس المخالف الذي كان من ذرية السمرة، وأبوه كان اسمه زادوق، وكان يهودياً وأمّه جارية عجمية كما تقدّم عنه الوصف في الكتاب الكبير، وخبره مؤرّخ في كتاب سعيد بن بطريق، ثمّ المارونية وهي المنسوبة إلى دير مارون وإلى الأب القديس الطاهر مار يوحنا بطريرك أنطاكية». إلى أن قال: «قد ذكرت خبرها بين الفرقتين الملكية والمارونية وشرحت بيان حالها شرحاً شافياً في الرسالة التي كتبتها إلى الأب القديس أرسانيوس أسقف عين قوره وسميتها رسالة العدل . .. وثبتت هذه الفرق أربعاً على أنَّ الفرقتين الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما إنّما هما فرقة واحدة، ورأيهما في الاتحاد والجوهر الأقنومي رأي واحد وإنّما اختلفتا بالمشيئة. فقالت الملكية بالمشيئتين وقالت المارونية بالمشيئة الواحدة واحتجت كل واحدة منهما بحجج، وقد ذكرنا حالهما وحججهما التي أوجبت الخلاف بينهما في الرسالة الموسومة ببداية العدد». فهذه هي الزيادة التي أدخلها توما أسقف كفرطاب على كتاب المطران داود في العنوان في الإيمان، وقد حج الموارنة خصومهم بهذه الزيادة التي كان مطرانهم داود قد كتبها .

على أنَّ العلّامة الدويهي وغيره قد أثبتوا بحجج قاطعة وبينات دامغة أنَّ هذا الكلام كلام توما الكفرطابي وليس كلام المطران داود. وإليك بعض تلك الحجج أوّلها أنَّ أرسانيوس أسقف العاقورة الذي يقول الكاتب إنَّه أرسل إليه رسالته المسماة رسالة العدل لم يكن في أيام المطران داود بل بعده بستين في أوائل القرن الثاني عشر، إذ كان توما الكفرطابي في لبنان. وقد صرَّح توما في كتابه الموسوم بالمقالات العشر أنَّه كتب رسالة مطولة إلى أرسانيوس أسقف العاقورة يبين فيها معتمداً على تواريخ ابن بطريق أنَّ اعتقاد المشيئة الواحدة كان رأي معلّمهم مارون ورأي الآباء وأنَّ الموارنة لا يفترقون عن الملكية إلّا بهذا. ومثل ذلك الرسالة التي قال الكاتب إنَّه بيّن فيها حال الموارنة والملكية وحججهما، فانّما هي لتوما الكفرطابي وآثارها باقية في كتابه المقالات العشر وليست للمطران داود . الحجة الثانية أنَّ توما الكفرطابي قد صرَّح في كتابه المذكور بأنَّه لا يقدم إلى لبنان إلّا ليصحّح معتقد الموارنة ليؤمنوا بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة، وجل كلامه في الكتاب المذكور موجه لهذا الغرض. وقد بذل جهده في رسالته إلى أرسانيوس أسقف العاقورة ليثبت زعمه هذا مستدلاً بأقوال سعيد بن البطريق بأنَّ هذا كان معتقد مارون والموارنة، فإن كان الموارنة قد اعتقدوا قبله ببدعة المشيئة الواحدة، وبهذا افترقوا عن الملكية، وكان هذا معتقد

أسقفهم داود في كتاب قوانينهم، فلِمَ هذا التعب والنصب والعناء لتصحيح عقيدتهم؟ ولِمَ ندب توما سوء منقلبه وخسارة أتعابه وأوقاته إذ قاومه بطريرك الموارنة وعانده أرسانيوس أسقفهم ولم يذعن لكلامه إلّا خوري قرية فرشع ونفر ببلاد جبيل؟ وكيف يوفق بين هذا وبين ما يرويه عن المطران داود أنَّ طائفته لا تفترق عن الملكية إلّا باعتقادها المشيئة الواحدة خلافاً لهم؟ الحجة الثالثة أنَّ ما ورد في الزيادة المذكورة على كتاب المطران داود عن القديس مكسيمس إنّما هو كلام سعيد ابن بطريق بحروفه، انتحله عنه توما الكفرطابي الذي جعل سعيد عمدة له في كتابه المقالات العشر ولم يذكر هذه الخرافة عن أبي القديس مكسيمس وأمه إلّا سعيد المذكور.

وقد أثبت السمعاني العلامة أنَّ ما علق على النسخة الواتيكانية من كتاب المطران داود إنّما هو رقعة أدخلها عليه توما الكفرطابي، فانَّه في كتابه فهرست الكتب القديمة الشرقية في المكتبة الواتيكانية الذي ألّفه بمعاونة المطران أسطفان عواد السمعاني لكتاب المطران داود في المكتبة الواتيكانية بعد أن كان في عد ٧٦ من الكتب التي أحضرها من الشرق: «إنَّ البطريرك الأنطاكي أسطفانس (الدويهي) علق حاشية على هامش هذا الكتاب صفحة ٢٥ أبان فيها أنَّ توما الكفرطابي أدخل على هذا الكتاب أشياء كثيرة ليبث بدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح». ثمَّ روى تلك الزيادة كما رويناها قال: «ليس هذا كلام المطران داود بل كلام توما الكفرطابي، فانَّ كاتب الرسالة إلى أرسانيوس (أسقف العاقورة) إنّما هو توما، لا داود فالواضح إذاً أنَّ هذه الزيادة على كتاب القوانين للمطران داود أدخلتها يد توما الكفرطابي المذكور».

ولنا حجة أخرى قاطعة تبين تلك الزيادة مدخلة على نسخة كتاب المطران داود التي في المكتبة الواتيكانية وليست من كلام المطران المذكور، فانَّ النسخ الأخرى لهذا الكتاب خالية عن هذه الزيادة بل تشتمل على ما يناقض ذلك، منها النسخة التي كانت في مكتبة مدرسة الموارنة برومة وقد تداولتها يد القس مرهج بن نيرون الباني وأخذ عنها (في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم صفحة ٨٩) شهادة المطران داود حيث يقول: «إنَّ الملكية يتفقون مع الموارنة باعتقادهم المشيئتين فانَّ الموارنة يثبتون في المسيح مشيئتين تبعاً لطبيعتيه الإلهيَّة والبشرية». وقد أثبت ذلك دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان فقال (في المجلَّد الثاني صفحة ٩١

راداً زعم غوليلمس أسقف صور) ويثبت بطلان شهادة غوليلمس شهادة مطران سوري عالم اسمه يوسف (هذا سهو من المؤلِّف أو خطأ من منظِّم حروف المطبعة ويصلحه قوله الثاني) كان عائشاً سنة ١٠٥٩م كما يظهر من رسالة كتبها الأنبا يوسف تلك السنة إلى المطران المذكور يسأله بها أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاب «القوانين البيعية» الذي عند السريان. وهذه الرسالة معلقة على فاتحة كتاب القوانين المذكورة. ومنه نسخة محفوظة في مكتبة مدرسة الموارنة برومة وترى في الفصل الأوَّل من هذه القوانين الشهادة الآتية التي ترجمناها عن الأُصل العربي: «إنَّ الملكية يتَّفقون مع الموارنة باعتقادهم المشيئتين فانَّ الموارنة يثبتون أنَّ في المسيح مشيئتين» الخ. قال مرهج بن نيرون (الباني الماروني): «كيف يصح إذاً ما قاله غوليلمس الصوري عن الموارنة في سنة ١١٨٤م من أنَّ هذه الطائفة تسكَّعت نحواً من خمسمائة سنة في ضلال مبدع اسمه مارون مع أنَّ المطران المذكور يشهد شهادة تنقض كل ذلك أعني الموارنة كانوا في سنة ١٠٥٩م التي ترجم فيها الكتاب المذكور يجاهرون باعتقادهم أنَّ في المسيح مشيئتين». انتهى كلام دي لاروك.

طالع ما كتبته في هذا الشأن في كتابي «روح الردود» من صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٢٢ من المطبعة العربية ببيروت، ومن صفحة ٩٥ إلى صفحة ١١١ من ترجمته الافرنسية المطبوعة في اراس سنة ١٨٩٦م.

كان الفراغ من تصنيف هذا المجلَّد الخامس من تاريخ سورية الدنيوي والديني في اليوم الرابع من شهر تشرين الأوَّل سنة ١٩٠٠م، تقبل اللهمَّ برحمتك ورضوانك تعبي وعنائي في تأليف هذا الكتاب وما وفقتني إلى ما كتبته كفارة عن آثامي واحتساباً لمرضاتك، وقيض لي إن حسن لك استتمام أجزاء هذا التأليف وصرف ما ابقيت لي من الحياة متفانياً في خدمتك وحفظ أوامرك والعمل بنواهيك ونفع عبادك بمنك يا أرحم الراحمين آمين.